A.U.B. LIBRARY



الدكتور
أحمد محمد الحوفى
المدرس بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

892.7109
Ha5881mA

المرأة فى الشعر الجاهلى



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
١٨ شارع كامل صدقى (الفجالة)

مطبعة نهضة مصر
الفجالة . القاهرة

الإهداء

إلى المرأة المصرية ممثلة فى ثلاث :

أمى . .

وزوجتى

وابنتى .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه التوفيق

مقدمة

— ١ —

فكرة خايلت لى منذ درست الأدب ودرسته ، وما زالت تخايل لى ، وقد استجبت لها بكتابين : أولهما (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) ، وثانيهما (الغزل فى العصر الجاهلى) ، ويسعدنى أن أستجيب لها بهذا الكتاب الثالث .

أما هذه الفكرة التى سيطرت على نفسى فهى أن درس الأدب لا يشوق ولا يثمر ، مالم يندمج دارسوه بقائليه اندماجاً يتيح لهم أن يتعرفوا ينابيع هذا الفيض العاطفى ، وبواعثه ، وبيئته التى استوحاها ، وأن يستمدوا من هذا الأدب ألواناً لتصوير الحياة فى شتى مناحيها ، ويهتدوا بالحياة فى الكشف عما يخفى من معانى الأدب وبواعثها ومراميها ؛ لأن الأدب والحياة يتبادلان التأثير والتأثر ، ويتقارضان الأخذ والعطاء. ففى الأدب مظاهر من عصره ، وفى العصر ملامح من أدبه .

وقد شاء لى الحظ أن يكون الشعر الجاهلى مجال دراستى هذه ، فشعرت بأنى موفق مجدود ، لأنى أدرس هذا الشعر المتسم بالأصالة والصدق والحيوية والتجاوب مع بيئته ، وعصره ولأنى شاركت فى إبراز معالمه ، والتنويه بقيمته ، ثم لأنى تمثلت منه جوانب شتى من حياة العرب فى الجاهلية .

ولست أدعى أن هذه الأفكار قد تبلجت لى على حين فجأة ، أو تمثلت لى دفعة ، فلقد انبثق أمامى أول شعاع من الفكرة حين شرعت أستنبط من الشعر الجاهلى ما يتصل بحياة العرب فى الاجتماع والأخلاق والدين والعادات . حينئذ ازددت يقيناً بقيمة الشعر فى دراسة العصر الجاهلى ، وبوثاقة الروابط بينه وبين الحياة العربية . فلما درست الغزل فى العصر الجاهلى تفتحت لى ميادين أخرى للبحث والاستنباط ، والاعتداد بالشعر الجاهلى ، والاعتماد عليه فى تمثل الاجتماع العربى فى صوره المختلفة .

(٢)

حفزتنى هذه الدراسات إلى أن أستنير بالشعر الجاهلى فى تجلية هذه المشكلات :

١ — أردت أن أتعرف من الشعر مكانة المرأة فى الأسرة ، وفى القبيلة ، وفى المجتمع العربى ، والصور التى رسمها لها فى هذه البيئة فى السلم ، وفى الحرب ، وماذا كان لها فى الحياة العربية من أثر ؟ أ كان أثرها عظيما قويا ، أم ضعيفاً خافتاً ، أم لم يكن لها أثر ؟ أ كانت تعامل معاملة الرقيق ؟ أم كانت علية القدر ، ذات رأى ومكان مرموق ؟

٢ — وقصدت إلى أن أسبر غور هذا الشعر فى تصويره لحياة المرأة ، فأعرف قيمة الصور التى رسمها ، أهى صور صادقة تتفق ونظم الحياة البدوية ، والمعالم التاريخية ؟ أم هى صور تجافى نظم البادية وحقائق التاريخ الصحيح ؟

٣ — ثم أردت أن أسترفد هذا الشعر لجلاء منزلة العرب فى الحضارة القديمة — من حيث ما يتصل بمنزلة المرأة فى الأسرة أو القبيلة والمجتمع — فكثيراً ما تناقض الباحثون فى هذه المكانة ، بعضهم يسمو بها ، وبعضهم يهبط ، بعضهم يرى أن العرب كانوا قبل الإسلام فى يقظة ووعى وتطور ناهض ، فلما جاء الإسلام سار بهم إلى نهاية الشوط ، وبعضهم يذهب إلى أنهم كانوا شعباً همجياً فى الدرك الأسفل من نظمه وعقائده وعاداته وأخلاقه ، فبزغ الإسلام عليهم بزوغ الشمس بعد ليل طويل غاسق ، فهداهم إلى الحق الذى جهلوه ، وإلى الخير الذى تنكبوه ، وفرى لهم نظما أسرية واجتماعية لم يكن لهم بها عهد .

٤ — ومشكلة أخرى تخايل لى أيضاً ، أريد أن أعرف مقدرة المرأة على قرض الشعر فى العصر الجاهلى ، ومنزلتها من شعراء عصرها ، وإلى أى مدى حلقت بجناحيها فى سماء هذا

الفن الرفيع ؟ وهل كانت لشعرها خصائص تميزه من شعر الرجال ؟ أوأن شعرها كان صورة من شعرهم ؟

(٣)

١ — سلكت السبيل إلى غايتى منقباً فى أشتات المراجع مخطوطة ومطبوعة ، من دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ، والتاريخ ، والسير ، والاجتماع ، واللغة ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، والتراجم ، والمذاهب . ذلك بأنه لم يفرد للمرأة أو للأسرة أو للقبيلة دراسة خاصة أو شبيهة بالخاصة فى العصر الجاهلى . بل إن هذا العصر — من الوجهة التاريخية — ما زال يكتنفه غموض واضطراب ، ونقص فى المصادر والمراجع ، والذين كتبوا عن العرب من القدماء مثل آخليس Aéschylus (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) وهيرودوت (٤٨٠ — ٤٢٥ ق . م) وتيوفراست Theophrastus (حوالى ٣٧١ — ٢٨٧ ق . م) وديودور الصقلى Diodòrsu Siculus (٤٠ ق . م) وسترابون Strabon (٦٤ ق . م — ١٩ م) ، ومن النصارى مثل أوسبيوس Ousebius (٢٦٥ — ٣٤٠ م) وزكريا (المتوفى ٥٦٨ م) وملالا Malalas (المتوفى ٥٧٨ م) ومن المسلمين كابن هشام والطبرى والمسعودى وابن مسكويه وابن الأثير والبلاذرى واليعقوبى وابن خلدون ، هؤلاء وأولئك لم يعرضوا الحياة العامة ، ولم يدرسوا أحوال المجتمعات .

وليس هذا بعجيب ، إذ كان هذا منزع المؤرخين جميعاً ، يعنون بالملوك والقادة والوقائع والثورات والفتوح ، ولا يكادون يحفلون بالجماعات والعادات والأخلاق والنظم ، ومن البديهى أننا لا نظفر ببحث عن المرأة أفرده لها أى واحد من هؤلاء ، وبذلك حرمت المرأة الجاهلية ما نالته المرأة المسلمة من حفاوة ، إذ عنى بها كثير من المؤرخين والكتاب ، وأفرد بعضهم لها مجالا رحيباً فيما كتب ، كابن حجر فى كتاب الإصابة ، وابن الأثير فى أسد الغابة ، وابن سعد فى الطبقات الكبير ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن قيم الجوزية فى أخبار النساء ، وابن طيفور فى بلاغات النساء .

نقبت فى آثار العرب ، واستخبرت ما خلفوا من شعر ، وما كتب عنهم وعن غيرهم ،

متجرداً من آراء سابقة فى بعضها حيف ، وفى بعضها إنصاف ، لأتسمع القول من الألسنة الأولى وأتبصره ، وأتمثل منه الحقيقة التى يمكن أن تتمثل .

٢ — وكان الشعر الينبوع الأول الذى استقيت منه ، لأنه فى الشعب العربى كالآثار المادية ، والآثار المدونة فى مصر واليونان وغيرهما من الأمم التى خلفت أبنية ونقوشاً ، وخطوطا وآثارا وتاريخاً مدونا « وليس فى الأرض أمة بها طِرْق — قوة — أولها مُسْكة ، ولا جيل لهم قبض ولا بسط إلا ولهم خط ، وكل أمة تعتمد فى استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها . . . . وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان (١) »

٣ — ولقد يعترضنا هذا السؤال : أليس هذا الينبوع الذى نستقى منه عرضة للكدرة واحتمال أخلاط من غيره ؟ بلى . وقد سبق إلى التنبيه على ذلك القدماء كابن سلام وابن هشام وأبى الفرج ، ثم كان لهذا دوىّ فى مصر منذ ربع قرن ، ولكن التنبيه القديم والدوى الحديث يلتقيان عند هدف واحد ، هو أن قليلا من هذا الشعر منتحل أو منحول .

(١) وأرى أن هذا القليل قطرات فى جدول يزخر بالماء الأصيل الصحيح المصفّى ، فهى لا تعكره ولا تغيره ، ولا تطغى على طبعه وخصائصه ، فمن حقنا إذاً ألا نتشكك فى الشعر الجاهلى كله ، لأن شأن الشعر فى هذا شأن التاريخ ، كلاهما يتطرق إليه الكذب والمبالغة ، ولقد يكون التاريخ أيسر منالا للروايات المدخولة ، والآراء المنحولة ، لأنه تسجيل فرد أو أفراد ، فهو أدنى إلى أن يميل مع الهوى والعاطفة ، لذلك تختلف فيه الآراء ، وتتناقض . أما الشعر فهو تسجيل آلاف من الشعراء ، من قبائل شتى ، ومواطن عدة ، فى زمن طويل ، لذلك أرى أنه أرحب مجالا لاستنباط الحقائق من سجلات منوعة ، خلفها الشعراء الذين عبروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير قاصدين ولا كاذبين ، وتناولوا عفواً ما أهمل التاريخ من نظم الاجتماع

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٧١ تحقيق هارون

فلم أعتمد إلا على ما وثقت بصحته من شعر ، مهتديا بقيمة المصادر ، ومهتدياً بحاستى الفنية ، وبملاءمة الشعر للحياة البدوية الجاهلية

(ب) ثم إن الموضوع الذى أدرسه بمنجاة من النحل ومن الوضع ؛ لأنه مستمد من أبيات ذكرها الشعراء فى قصائدهم عَرَضاً لا قصداً ، فى مطالع القصائد أو فى خلالها ، مفتخرين أو هاجين ، أو واصفين ، أو راثين ، أو مادحين ، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يعمد إلى تصوير مقصود لحياة النساء ومنزلتهن ، وإنما جرى مع فطرته فى إيراد المعانى وتصوير ما يشعر به

أما الوضع فإنه يتطرق إلى ضروب أخر من الشعر ، يتطرق إلى الشعر الذى يؤازر السياسة والحزبية والعصبية ، ويتسلل إلى الشعر الذى تحلى به القصص والأسمار ، ويتعرض له الشعر الذى يناصر نزعة شعوبية ، أو يلجىء إليه التباهى بالحفظ والتكاثر بالرواية ، أو الحجاج على مسألة فى اللغة أو النحو أو ما شاكل ذلك من فنون المقال .

(ح) وشىء آخر أستوثق به من هذا الشعر الذى أستقى منه ، أقصد إجماع جمهرة من الشعراء على حقيقة ما ، كحديثهم مثلا عن عزازة الأم ، أو حماية المرأة من السبى ، أو محبة البنات وبغضة البنات ، أو سفور المرأة وحجابها ، أو ما شاكل ذلك مما يتفقون فيه جميعاً على رأى واحد ، أو ينقسمون فيه إلى فريقين . فليس من الطبيعى أن يكون هـذا الشعر الذى يصور لوناً من ألوان الحياة مكذوبا كله ، أو منحولا كله ، إذ لو كان كذلك لبرز فيه التناقض والخلط والمجافاة لما تمليه البيئة بسلطانها العام .

(ء) ولست أنسى أن الشعر مجال للخيال والمبالغة ، لأن طريقته فى التصوير كثيراً ما تقتضى ذلك ، فهو إذاً ليس تصويراً دقيقاً للواقع .

لـكننى لا أنسى أيضاً أن الخيال فى هذا الشعر ضيق المجال ، لا يعدو التشبيه والاستعارة والـكناية ، ونحن فى دراستنا نعرف ماذا يريد الشاعر إذا شبه أو استعار أو كنى . أما المبالغة فهى نادرة فيما خلف شعراء الجاهلية ، وهى لا تفهم على صورتهـا اللفظية فى أى عصر من الأعصار .

(هـ) كذلك أعلم أن من خصائص الشعر الإيجاز والإدماج واللمح ، وألا يحفل بالتفصيل ، أو يجنح إلى الإطناب . لذلك استقيت أيضاً من التاريخ والحضارة والاجتماع وغيرها ، لأجلو الصور ، وأكمل خطوطها ، وأوضح ألوانها ، وأفصل ما أدمج الشعر وأجمل .

٤ — على أنى فى دراسة الشعر الجاهلى — وزمانه لا يتجاوز قرنين قبل الإسلام ، ومكانه جزيرة العرب — لم أغفل حياة العرب فى مطلع الإسلام ، فاستمددت من شعر المخضرمين ما يجرى فى طلق واحد مع شعر الجاهليين ، مرجحاً أنه من نتاجهم قبل أن يسلموا ، أو من نتاجهم بعد أن أسلموا ، وقبل أن يصبغهم الدين بصبغته .

وكذلك استقيت من حياة النساء المخضرمات ما يتفق وحياة الجاهليات .

وأرانى على حق فى هذا ؛ لأن حياة الشعراء وغيرهم فى مشرق الإسلام امتداد لحياتهم قبل إشراقه ، إذ لم يكن الإسلام قد رست قواعده ، ولم تكن قد كملت تعاليمه ، ولم تكن النفوس كلها قد أشربته إشرابا ينسخ حياتها الأولى .

وهل من المعقول أن ينقلب العرب بين عشية وضحاها من حياة إلى حياة ؟

وهل من الطبيعى أن ينسى الشاعر على إثر إسلامه ما استقر فى نفسه من عادات وأخلاق وأوضاع ؟

إنما الطبيعى أن يمضى زمن على العقيدة الجديدة لتظهر آثارها فى قصائد الشعراء ، وفى أخلاق الناس .

٥ — ورأيت أن تجلية مكانة المرأة فى الجاهلية لا تتضح إلا بموازنات بينها وبين معاصراتها والسوابق لها من نساء العالم القديم ، فى الأمم والحضارات التى اتصل العرب بها ؛ لنعلم قيمة المرأة العربية بالقياس إلى هؤلاء .

كذلك قايست المرأة الجاهلية بالمسلمة ، لأتبين قيمة المرأة قبل الإسلام بالنسبة إلى قيمتها بعد الإسلام ، إذ أستبين ما أحدث الإسلام فى النظم الجاهلية المتصلة بالمرأة من تجديد أو تأييد ، ومن تغيير أو إبطال وتفنيد ، ولأخلص من هذه المقايسة إلى تمثل مكانتها فى الجاهلية تمثلا صحيحاً مستمداً من عصرها ، ومستمداً من المشابهة بينها وبين أختها المسلمة فيما بعد .

(٤)

وقد بدأت ببحث تمهيدى جلوت فيه صلات العرب بغيرهم من المعاصرين لهم ، ووضحت مكانة المرأة عندهم ، لأوازن بينها وبين المرأة العربية موازنة جزئية فى غضون البحث ، ثم موازنة عامة فى مكان خاص .

فليس من شك اليوم فى أن عزلة العرب قبل الإسلام ، وجهلهم بالعالم الخارجى ، وجهالة العالم الخارجى بهم أو أنهم لم يؤثروا فيه ، ولم يتأثروا به ، ليس من شك فى أن هذه دعوى باطلة . وسنرى وسائل اتصالهم بالأمم التى عاصرتهم ، ومظاهر هذا الاتصال ، وبعض معالم التأثير والتأثر ، وخاصة ما يتصل بالمعتقدات والنظم الأسرية .

ثم قسمت الكتاب قسمين : القسم الأول (المرأة فى الحياة الاجتماعية والسياسية) وجزأته إلى بابين : تحدثت فى الباب الأول عن المرأة فى الحياة الأسرية : أماً ، وزوجة ، وبنتاً ، وأختاً ، وقريبة ، وتحدثت عن حقوقها المالية .

وفى الباب الثانى درست أحوال المرأة فى الحياة العامة : درست أخلاقها ، وسفورها وحجابها ، وصناعاتها وأعمالها ، وثقافتها ، وعملها فى الحرب ، وتحدثت عن السبايا والإماء .

أما القسم الثانى (المرأة فى الحياة الفنية) فقد عقدت له ثلاثة أبواب : تحدثت فى الباب الأول عن المرأة المغنية ، وفى الباب الثانى عن المرأة راوية للشعر وناقدة ، وفى الباب الثالث عن المرأة الشاعرة .

(٥)

وبعد

فالموضوع — فيما أعلم — غير مطروق بهذا النهج ، والمراجع التى ترفد دارسه من قريب أو من بعيد ليست معينة محددة ، والمعلوم منها غير مفهرس ، وغير مرتب ، وكثير منها مخطوط ، بعضه بالى الورق ، مغلق الخط . لهذا كنت أستعرض كل ما يمكن أن تصل إليه يدى من مراجع ومظان ، لأفتش بها عن فكرة أو عن شعر .

وكم من كتب سكبت نور عينى على صفحاتها لأجتنى منها ثمرة لا تكافىء بعض ما بذلت، وكم من كتب عبرتها من المنبع إلى المصب ، أجوس خلالها ، وأجوب ما بين ضفافها فى يقظة وأيْد ، لكنْ لم يعلق منها بشباكى صيد .

لكن المشقات التى كانت تعترضنى فى الإعداد ، والصعوبات التى احتملتها فى التنقيب والتنقير ، كل هذه لا مندوحة عنها لمن يتصدى للبحث ، فيصبر ويصابر ، ويدأب ويثابر ، ليخط فى سجل المعرفة سطراً ، يلبى به رغبة ، أو يقضى به حقاً ، أو ينال به ذكراً

أحمد محمد الحوفى

القاهرة | رجب ١٣٧٣ |
| مارس ١٩٥٤ /

تمهيد

صلات العرب بالأمم والحضارات ومكانة المرأة فيها

لم يكن العرب فى العصر الجاهلى — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — يعيشون بجزيرتهم فى عزلة عن العالم ، ونجوة عن الشعوب واصطراعها ، ونبوة عن تيارات الحضارات ، وإنما اتصل العرب بالأمم المجاورة ، وغير المجاورة ، وشاركوا فى الصراع السياسى الدائر بين الأمم المعاصرة بقدر اتصالهم به واتصالهم بالمصطرعين ، وعرفوا العالم القديم ، وعرفهم ، بل إن بلادهم على جدبها ، ووعورة المسالك إليها ، كانت مُهاجَر كثير من الشعوب ، « فقد نزح إليها من الشام ومصر والعراق فارّون من ظلم أو ضغط ، أو ممتنعون على الحكومات لسبب ما ، وأكثر النازحين عدداً اليهود ، لكثرة ما قاسوا الاضطهاد منذ خروجهم من مصر ، إلى أن اضطهدهم الروم فى عهد طيطس وغيره . وهاجر إليها كثير من اليونان والرومان والفرس والهنود والحبش »[١] . لذلك لم يكن سكان جزيرة العرب كلهم عرباً ، بل كان يختلط بالعرب هؤلاء النازحون ، وغيرهم من الفاتحين والأرقاء والموالى والحلفاء من أمم وأديان شتى ، فيهم الفارسى والهندى والرومانى والكلدانى ، وفيهم اليهودى والنصرانى ، وكان هؤلاء يتوالدون ، وتختلط ذراريهم بالعرب ، ويضيع نسبهم ، كالكلدان والسريان ، وبعضهم كان يحالف العرب وينتمى إليهم كاليهود والنصارى ، وآخرون كانوا ينخرطون فى عداد العبيد ويحملون ألقاب سادتهم كالحبش والفرس والهنود ، فهم جميعاً إما عرب وإما مستعربون ، إلا بعض اليهود وبعض النصارى من الروم ، وبعض الفرس الذين يعرفون بالأبناء[٢] .

وكانت بلاد الشام والعراق أيضاً حافلة بأشتات من الأمم ، فقد ظهر الإسلام ، وبها بقايا من الآراميين الأصليين من سريان ويهود وسامريين ، وبها أنباط ، وعرب من المناذرة والغساسنة وإياد وربيعة ، وأشتات من أمم أخرى كالجراجمة والجرامقة ، وأخلاط من مولّدى اليونان والرومان والفرس والأكراد ، وبها أديان شتى[٣] . وطبيعى أن يكون لهذا الاتصال أثره فى الحياة العربية ، فإن من الحقائق الثابتة اليوم أن علاقات الأمم من

---

(١) التمدن الاسلامى ٥/١٧ .

(٢) الأغانى ١٦/٤٣ .

(٣) Literary History of Persia. . . . Broune P. 154.

أكبر العوامل فى رقيها ، وليس بمستطاع أن نوضح تقدم الشعوب أو تأخرها اعتماداً على المميزات الجنسية ، والمعتقدات الدينية ، وتأثير البيئة فى السكان فحسب ، بل بموقعها الجغرافى أيضاً الذى يَسَّر لها العلائق بشعوب أخرى فى عصور مختلفة (١) .

وسأفصل فى الفقرات التالية أسباب الاتصال بين العرب والأمم التى عاصرتهم ، والحضارات التى أظلّت العالم فى عهدهم ، وأبين بعض السِّمات الدالة على تأثر العرب بغيرهم ، وأتعرف مكانة المرأة فى نظر هذه الأمم والحضارات ، ثم أجعل ذلك أساسا للموازنة بين المرأة العربية وغيرها .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية . بارتولد ٧

لقد نيفت قبائلهم على العشرين ، وزادت آطامهم وآطام من نزل معهم من العرب على السبعين [١] .

وكانت معهم بطون من العرب ، منهم بنوا لحرْمان — حى من اليمن — وبنو مَرْثد — حى من بلىّ — وبنو نيف — من بلى — وبنو معاوية — من بنى سليم — وبنو الشطية — من غسان — [٢] ، وبنو مُرِيد (مزيد) — من بلى — وبنو الجَذْمَى (الجذماء) — من اليمن — [٣] .

ثم بعد سيل العرم وفد إليهم الأوس والخزرج ، واستوطنوا المدينة ، وأقام بعضهم بين القرى اليهودية ، وأقام آخرون مع اليهود فى قراهم ، ونزل بعضهم وحده لا مع اليهود ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى اليهود [٤] .

وقضى الأوس والخزرج رَدَحا من الزمن فى ضيق ، لأن الخيرات كانت فى قبضة اليهود ، ثم تحالفوا وتعاملوا ، وظلوا على ذلك زمنا طويلا [٥] ، حتى قدم أبو جُبَيْلة الغسانى إلى يثرب فآزر الأوس والخزرج ، وأفنى كثيراً من اليهود ، فقالت سارة القرظية فى رثائهم :

بنفسى أمـــة لم تُغْنِ شيئا ... بذى حُرُضٍ تُعَفِّيها الرياح
كهولٌ من قريظة أتلفتها ... سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثُقْل ... يَمُرُّ لأهلها المـــاء القَراح
ولو أَرِبُوا بأمرهم لجالت ... هنالك دونهم جَأْوَى رَداح [٦]

وقد أشاد الشعراء بأبى جبيلة ، وافتخروا به [٧] ، وكان أبو جبيلة من الخزرج الذين نزحوا إلى سوريا ، واندمج فى الغساسنة ، فمن الطبيعى أن يستجيب لنصرة قومه [٨] .

---

(١) خلاصة الوفا ٧٦
(٢) الأغانى ١٩/٩٥
(٣) الأعلاق النفيسة ٧/٦٢ وخلاصة الوفا ٧٩
(٤) خلاصة الوفا ٨٢
(٥) الأغانى ١٩/٩٦ والأعلاق النفيسة ٧/٦٣
(٦) الأغانى ١٩/٩٦ والبدء والتاريخ للمقدسى ج ٣ والروض الأنف ٢/٢٤ ومعجم البلدان ٧/٤٢٨ وخلاصة الوفا ٧٩ — ٨٤
(٧) الأغانى ١٩/٩٦ و ٩٧
(٨) De Perceval .1. P. 650

ثم نكل مالك بن العجلان مرة أخرى باليهود ، فنقموا منه ، ولعنوه فى بيعهم وكنائسهم ، فقال فى ذلك :

نَحَانى اليهود بتلعانها نَحَانى الحمير بأبوالها
فماذا علىّ بأن يلعنوا وتأتى المنايا بإذلالها

ولكنهم بعد ذلك ذلوا وتخوفوا بطش العرب ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشىء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون ، بل يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين يعيش بين أظهرهم ، لأن كل قوم من يهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم[١] .

ويذهب المؤرخ جريتز Greatz إلى أن بطون الأوس والخزرج لم تكاشف اليهود بالعداء إلا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن ، لأنه لا يتصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ، ويتعصبون لدينهم ، ويناهضون كل من يعارضهم أو يعتدى عليهم[٢] . وأضيف إلى هذا سببا آخر هو أن الأوس والخزرج قد تكاثروا ، ونبتت منهم فروع عدة ، فتطلعوا إلى تملك الأرض التى يتملكها اليهود ، ونفسوا عليهم أن يستأثروا بخيرات يثرب وغيرها ، وأن يكون لهم السلطان المالى على العرب ، فانتهزوا سقوط دولة اليهود فى اليمن فرصة يتحللون فيها من نفوذ يهود الحجاز ، فكان لهم ما أرادوا .

وإذاً فلم يكن بين العرب واليهود حائل يمنع الاختلاط ، « فإن قبائل عربية يمنية قد شرعت تنتشر فى الحجاز بين الجاليات اليهودية »[٣] . ولقد كان يدعو إلى الاتصال أيضاً أن اليهود أهل مهارة فى الصناعة ، وبراعة فى تثمير المال ، فلم يكن للعرب بدٌ من أن يعاملوهم ، فمثلا كان بنو قينقاع صاغة بالمدينة[٤] ، وكانت لهم سوق عظيمة ذات ضجيج ، حتى لقد نَفَرَت من ضجتها ناقة النابغة الذبيانى[٥] ، وكان آل أبى الحقيق مهرة فى صناعة الحلى بخيبر ، والعرب يقصدونهم ليشتروا لنسائهم من حليهم[٦] ، ثم إن تجار العرب كانوا يفدون إلى

---

(١) الأغانى ١٩/٩٧

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٦١ و Greatz V. 3 P. 91

(٣) De Perceval. P. 646 (٤) المغازى للواقدى ١٨٠

(٥) الأغانى ٢١/٦٢ (٦) المغازى ٢٧٧

الأسواق اليهودية فى شمالى الحجاز ليبتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم ، وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم فى أسواق العرب . وكان العرب يمرون بمستعمراتهم على طريق القوافل بين الحجاز واليمن ، وبين الحجاز والشام ، « فينتج من التعاون الاقتصادى ، والاختلاط الاجتماعى تبادل فى الآراء ، وجدال فى الديانات »[١] .

على أن الاختلاط كان يتخذ مظهراً أقوى فى تحالف بعض العرب مع اليهود ضد إخوانهم العرب ، فالأوس تحالف قريظة ضد الخزرج ، والنّبيت تذهب إلى خيبر تحتمى بيهودها ، فتعيرها الخزرج وتفتخر عليها[٢] ، وبنو النضير يحالفون بنى عامر[٣] ، وبنو قينقاع حلفاء لعبادة بن الصامت ولعبد الله بن أُبَىّ[٤] ، وأهل خيبر حلفاء لغطفان[٥] ، ويهود وادى القرى وما والاه حلفاء لقبائل سعد هُذَيْم من قضاعة ، يمنعونهم من العرب ، وهم الذين حموهم من غزو النعمان بن الحارث الغسانى ، وظلوا حماتهم إلى أن أشرق الإسلام[٦] .

وكان العرب حراصاً على الوفاء لليهود بحلفهم ، حتى فى بَأْساء اليهود ومحنهم ، فقد وَجَدَ الرسول عليه الصلاة والسلام على بنى قريظة بعد غزوة أحد ، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه ، وسألوا حلفاءهم من الأوس أن يشفعوا فى إطلاقهم ، فتواثبت الأوس ، وقالوا : يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت — كان الرسول قد حاصر بنى قينقاع حلفاء الخزرج ، فسأله إياهم عبد الله بن أبى بن سلول فوهبهم له[٧] — . ولم يقتصر الوفاء على الشفاعة والرجاء ، بل تعدى إلى التناصر ، ذلك بأن أهل خيبر لما بلغهم أن النبى يتجهز ليسير إليهم بعثوا إلى حلفائهم أسد وغطفان فأتوهم[٨] .

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٧٤

(٢) خلاصة الوفا ٨٩ (٣) المغازى ٣٥٤

(٤) المغازى ١٧٩ — ١٨٠ والتنبيه والإشراف للمسعودي ٢٠٦

(٥) معجم ما استعجم للبكري ٢/٥٢٣

(٦) معجم البلدان ٧/٧٤ ومعجم ما استعجم ١/٤٣

(٧) سيرة ابن هشام ٣/٢٠٠ و ٢/٤٢٨

(٨) المغازى ٣٨٩

ويظهر أن بعض العرب كانوا يحبون اليهود ، ويشاركونهم فى آلامهم ، فإنه لما أحرق النبى نخل بنى النضير وقطعه قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

لعزّ على سراة بنى لُؤَىّ ... حريق بالبُوَيْرة مستطيرُ

فأجابه حسان بن ثابت بقوله :

أدام الله ذلكُمُ حريقا ... وضُرِّم فى طوائفها السعير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه ... فهم عمىٌ عن التوراة بُور[١]

اليهود باليمن وما جاورها

منذ عهد بعيد كانت لليهود صلة باليمن ، فقد كان لسبأ صيت تجارى ذائع عند اليهود ، وكانت قوافل سبأ تفد إلى أسواق اليهود والكنعانيين[٢] ، وكان تجار اليود يرحلون إلى جنوبى جزيرة العرب[٣] ، وقصة سليمان وملكة سبأ ثابتة بنص القرآن الكريم والتوراة[٤].

وقد أثبت العالم جلازر Glaser أن اليهود كانوا فى اليمن وحضرموت منذ عهد بعيد قبل الاسلام ، وهم الذين مهدوا لدينهم هناك ، ثم ظهرت أسباب عند ملك أو ملوك حببت إليهم اليهودية[٥] .

على أن اليهودية لم تنتشر فى اليمن إلا بعد الغزو الحبشى سنة ٣٤٠ م إذ فر ملوك حمير إلى الحجاز ، وقضوا به خمساً وثلاثين سنة ، ثم عاد مالك كرب يوهامين فى جيش إلى اليمن ليطرد الحبش ، وكان قددان باليهودية ليقاوم بها المسيحية دين المستعمرين لبلاده[٦] ، ولم يمض إلا زمن قصير حتى كان تُبَّع الآخر — تبان أسعد أبو كرب وهو حسان تبع —

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٠
(٢) سفر اشعيا اصحاح ٤٣ آية ٣ واصحاح ٤٥ آية ١٤ وسفر حزقيال اصحاح ٢٣ آية ٤٢
(٣) سفر الملوك الأول اصحاح ١٠ آية ١١ و ٢٢
(٤) سورة النمل وسفر الملوك الأول ١٠ : ٢ — ١١
(٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب . ولفنسون ٣٥ و ٣٧ و ٤٠
(٦) T.e Back ground of Islam .P. 132 Phelby.

قد تعلم اليهودية ، وعاد إلى اليمن فنشرها [١] .

وقد ذهب المستشرق بروكك Brocock إلى أن دولة حمير تهودت فى القرن الأول قبل الميلاد ، والعالم سلفستردى ساسى .Silvester .De Sacy إلى أن ظهور اليهودية فى اليمن لم يسبق القرن الثانى بعد الميلاد [٢] .

ولكن ذلك مردود ، لأنه كما يقول المؤرخ اليهودى شيفر : ليس من المعقول أن تكون دولة حمير يهودية فى القرن الثانى ولا يذكرها التلمود ، إذ أنه ألف بعد ذلك ، وتم فى القرن الرابع الميلادى [٣] . ولا شك فى أن اليمن عرفت اليهودية فى القرن الثانى بعد الميلاد [٤] ، ولكن اليهودية لم تصر دينا رسميا إلّا بعد ذلك . وقد أثبت العالم بيرون Perron أن دولة حمير لم تعتنق اليهودية رسميا إلا فى القرن الخامس الميلادى ، ونقض ما يرجع بتهود ملوك حمير إلى أقدم من هذا القرن [٥] .

ويتفق معه فى هذا الرأى المؤرخ الثقة Grayzel ، ويذكر أن ذا نواس تهود هو وشعبه فى أوائل القرن السادس ، وأنه انتقم من المسيحيين ثأرا لليهود المضطهدين فى الدولة الرومانية الشرقية ، فبعث امبراطور الروم ملكَ الحبشة ليغزو اليمن [٦] .

على أن نفوذ الدولة اليهودية الحميرية تجاوز اليمن إلى الشمال [٧] ، ودان بها كثير من الجنوب ، كبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكندة [٨] . وكان بنجران يهود دفعوا الجزية

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/١٤٦ والعبر لابن خلدون ٢/٥٣ وسيرة ابن هشام ١/١٤ ـ ٢٤ والتنبيه والاشراف ١٧٢ وتاريخ اليعقوبي ١/٢٩٨

(٢) Memoires sur divers. evenement. de l'Histoire des Arabes avant Mahmet. . . . . .

(٣) Journal Asiatique 1838 Novembre. p. 358

(٤) The Jews of Asia. P. 164 Mendelssohn

(٥) Journal Asiatipue 1838 Novembre P. 358

(٦) A History of the Jews. P. 244. Grayzel.

(٧) De Perseval. 1. P. 654

(٨) المعارف لابن قتيبة ٦٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة ٧/٢١٧ وبلوغ الأرب لمحيي الدين العطار ٨٨

للنبي عليه الصلاة والسلام (١) ، وكان بالبحرين يهود دفعوا الجزية أيضا (٢) ، وكان بها يهود صالحوا على الجزية العلاء بن عبـــد الله الحضرمى مبعوث النبي إليهم فى السنة الثامنة من الهجرة (٣) ، وفى أماكن متفرقه من اليمن أقام يهود على دينهم ودفعوا الجزية لعمال رسول الله (٤) .

وليس أدل على صولة اليهودية فى اليمن من أن الملك اليهودى ذا نواس كان متعصبا لها جادًا فى نشرها ، يعامل المسيحيين بما تعامل به الدولة الرومانية اليهود (٥) .

ثم إن اليهودية وصلت إلى الحيرة ، فقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة زوجات كثيرات من العرب والفرس واليهود ، وكانت المتجردة اليهودية آثَرَ نسائه عنده ؛ لجمالها وحسن تبعلها ، وهى التى ذكرها النابغة فى شعره (٦) .

أثر اليهود فى العرب

١ — من المتعذر أن نضع حدوداً فاصلة بين اليهود والعرب ميز الأخلاق والنظم والعادات . ذلك بأن بنى اسرائيل نتاج الصحراء ، ولم تنقطع صلتهم بالصحراء فى عصور حضارتهم ، والمميزات الصحراوية بارزة فى لغتهم وخيالهم ، لهذا كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمونهم بالعبريين ، لعلاقتهم بالبادية ، ولتمييزهم من أهل الحضارة (٧).

وأولئك اليهود الذين سكنوا بلاد العرب كانوا مطبوعين بالطابع البدوى من قبل ، ثم عاشوا فى البادية ثانية ، وخالطوا العرب كما سبق ، فتأثروا بأخلاقهم ، وببعض عاداتهم ، وجروا

---

(١) فتوح البلدان ٧٥ (٢) فتوح البلدان ٨٦

(٣) فتوح البلدان ٨٥ (٤) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٩

(٥) سيرة ابن هشام ١/٣٥ وتاريخ الطبرى ٢/١٠٥ و١٠٦ وتاريخ ابن خلدون ٢/٥٩ وتفسير الطبرى ٣٠/٨٤ — ٨٦ والنيسابورى ٣٠/٦١ — ٦٢ على هامش الطبرى ومعجم البلدان ٧/٢٦٢ والكامل لابن الأثير ١/١٢٨ وبين الحبشة والعرب لعبد المجيد عابدين ٥٢ — ٥٤ و
A History of the Jews. P. 244 Grayzel.

(٦) كتاب حرب بنى شيبان مع كسرى أنو شروان ٦٥

(٧) تاريخ اللغات السامية. وافنسون ٧٨ — ٨٠ واليهود فى تاريخ الحضارة ٤٣ لودفيج و
Israel From its Begining. pp. 190—191. A dolphe lods.

على كثير من نظمهم . « ولا أعلم فى تاريخ اليهود القديم إقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق أبنائه وعاداتهم ونظمهم إلى هذا الحد سوى إقليم الجزيرة العربية »[١] . حتى لقد أنستهم البيئة ما ورثوا من روحانية ، وأخضعتهم للعقلية البدوية[٢] ، ولم يختلفوا عن عرب الصحراء إلا فى مظاهر سطحية[٣] . لهذا أنكر يهود دمشق وحلب فى القرن الثالث الميلادى أن فى الجزيرة العربية يهودا ، لأنهم لم يتمسكوا بالدين ، ولم يخضعوا لقوانين التلمود[٤] .

وكذلك كان حالهم من الوجهة اللغوية ، فقد اصطنعوا اللغة العربية لغة أدبيّة لهم ، وكان فيهم شعراء نظموا الشعر فى الموضوعات التى مارسها العرب ، ولا يختلف شعرهم عن الشعر العربى وزنا وقافية وتصويرا وخيالا ومعنى ، كالسمؤل وأوس بن دَنِىّ ، وكعب بن الأشرف ، والربيع بن أبى الحُقَيق ، وشُعَية بن غَريض ، وشُرَيح بن عِمْران ، وأبى قيس بن رفاعة ، وأبى الذيّال . ودرهم بن يزيد[٥] ، وقد أجاز الربيع أبياتا للنابغة فأعجب ببديهته وقال له : أنت يا ربيع أشعر الناس[٦] .

٢ — وقد عجزت اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية . ولعل مردّ ذلك إلى مشقة أحكامها ، حتى لقد قال أحد فلاسفتهم يهودا فيلون (٣٠ ق م — ٥٠ م) إن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، وذنبهم عند الناس أنهم يأخذون أنفسهم بالفرائض الصارمة ، والصرامة ثقيلة على الطباع[٧] ، ومن هذه الصرامة عند طائفة الآسين أو الأسينيين تحريم الرق ، واعتبار التجارة عملا خبيثاً ، وأخبث منه حمل السلاح للقتال ، وازدراء المادة ، لأنها مصدر الشرور[٨] . ولقد يكون السبب أيضاً أن اليهود لم يتحمسوا لنشر دينهم[٩] ، وليس دينهم تبشيريا يجدُ أتباعه فرضاً عليهم أن ينشروه ويهدوا الكفار ، وإنما هو والبرهمية والزرادشتية دين غير تبشيرى ، أما التبشيرى فالبوذية والمسيحية والإسلام[١٠] .

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٢٢ ولفنسون (٢) المرجع السابق ١٢

(٣) اليهود فى تاريخ الحضارة لودفيج ٣٠ لودفيج (٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ١٣ ولفنسون

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام بتحقيق محمود شاكر ٢٣٥ — ٢٤٧ والوحشيات لأبي تمام ٩١ مخطوط والأغانى .

(٦) الأغانى ٢١/٦٢

(٧) عبقرية المسيح ٦٧ العقاد . (٨) عبقرية المسيح ٢٧

(٩) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٧٢ ولفنسون .

(١٠) الدعوة الى الاسلام ٢٧ توماس أرنولد ترجمة حسن ابراهيم وعابدين والنحراوى ، وقد أعجب أرنولد بهذا التقسيم الذى نقله عن Max Muller

على أن اليهودية تطورت فصارت تعتبر الناموس التلمودى وعقائده أساسا لا محيد عنه لمن يرغب فى التهود ، والذين دانوا بالتوراة وحدها لم يقبل تهودهم ، وربما كان هذا سببا فى انصراف اليونان والسريان إلى النصرانية[١] . ويزيد التهود عسراً أن اليهود كانوا فى عصر ميلاد المسيح فريقين ، أحدهما يتبع الحكيم شماى وهم متحرجون يردون الراغبين فى اليهودية من غير اليهود ، والآخر لا يتحرج كما يتحرج هؤلاء[٢] .

وبعد فقد كان الصراع عنيفا بين النصرانية واليهودية فى الحجاز ، وفى اليمن ، ولم يَفُل من غربه إلّا نزاع الفرس والرومان ، وكان من المنتظر أن تنتشر اليهودية والمسيحية فى بلاد العرب أكثر مما انتهت عنده ، ولكن الإسلام جاء فغلبهما جميعا[٣] .

٣ — لكن هذا لم يمنع من أن يتهود بعض عرب الحجاز[٤] ، فكان حول مكة قبائل عربية متهودة ، هى بطون كنانة وبنى الحارث بن كعب وبنى كندة[٥] ، وتهود قوم من غسان ومن جذام[٦] ، وهاد بنو حِشْنة بن عكارمة من بلىّ بتيماء[٧] ، وهاد بعض الأوس والخزرج لما جاوروا اليهود[٨] .

والذين لم يتهودوا كانوا يتصلون باليهود ، ويتأثرون بهم ، فقيس بن الخطيم يتغزل فى يهودية[٩] ، والحارث بن عباد يشبه بعيد اليهود وطبولهم[١٠] ، وكانت نساء بعض الخزرج ينذرن إن ولدن ولداً أن يهودنه إذا عاش ، لأن اليهود أهل علم وكتاب[١١] .

وقد انتشرت بين العرب بعض تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير ، سمعها العرب فى الجاهلية ، وسمعها المسلمون فى الإسلام[١٢] ، ومما يدل على ذيوعها أن القرآن الكريم كثيراً ما يجادلهم ، ويدحض آراءهم .

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٧٢ (٢) عبقرية المسيح ٢٥

(٣) Skyzen & Vorarbeiten. V. 4. P. 8 Wellhousen.

(٤) تاريخ اليعقوبى ٢/٤٩ وتاريخ العرب ١/١٤٦ فيليب حتى ومعجم البلدان ٤/٤٦١

(٥) تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨ وعيون الأخبار ٣/٤٠٨ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨ (٧) معجم ما استعجم ١/٢٩

(٨) الروض الأنف للسهيلى على هامش السيرة ٢/٢٤ وتاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨

(٩) ديوان قيس بن الخطيم ٤٩ مخطوط (١٠) كتاب بكر وتغلب ٨٠

(١١) الروض الأنف ٢/٢٤ (١٢) فتح البارى ١٣/٤٣١

ولا شك أن اليهود كانوا فى نظر العرب أكثر منهم ثقافة ، واستنارة ، لأنهم أهل كتاب ، لذلك كان يقتدى بهم الأوس والخزرج فى كثير من الأعمال[١] ، وكان ابن إسحاق صاحب السيرة المتوفى سنة ٥٠ هـ يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسميهم فى كتبه أهل العلم الأول[٢] .

وقد علم اليهود بعض العرب الكتابة العربية ، وجاء الاسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون ، ثم أمر النبى زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود فتعلمها[٣] ، وكان الكتاب بالمدينة كثيرين ، لأنهم يجاورون ويخالطون اليهود[٤] .

على أن العرب خالفوا اليهود فى بعض المعتقدات ، فاليهود — ربانيين وقرائين — يتفقون على تحريم لحم الجمل ، والعرب كلفون به . واليهود يحرمون أكل الشحم ماخلا شحم الظهر ، والعرب يأكلون الشحم كله . واليهود يحرمون أكل الحوايا ، والعرب يأكلونها[٥] .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك: « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم »[٦] .

المرأة اليهودية

كانت النظم اليهودية مصطبغة بسمات صحراوية كما سبق ، وما برحت عاداتهم البدوية غلابة على أجيالهم المتعاقبة ، وفى التوراة إشارات إلى أصلهم الصحراوى[٧] .

لذلك قامت شريعة إسرائيل على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل ، والرغبة فى كثره النسل .

---

(١) محاسن النساء لابن هشام ٤٨ مخطوط و Grayzel P.P. 141-245. and Sources of Islam P. 13.

(٢) الفهرست لابن النديم ٩٢

(٣) فتوح البلدان ٤٧٩ وتاريخ الخميس ٥٢٣/١

(٤) الموشح للمرزبانى ٣٨

(٥) صبح الأعشى ٣٦٢/١٣

(٦) سورة الأنعام ١٤٦

(٧) سفر التثنية ٣٢ : ١٠ وسفر أرميا ٢ : ٢ وسفر هوشع ٩ : ١٠

فالمرأة تُسبَى ، وتباع ، وتورث ، وللآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلونهن[١] .

ولم ترفع التوراة من قدر المرأة ، ففى سفر الجامعة أن المرأة أمرُّ من الموت ، وأن الصالح التقى هو الذى ينجو منها « رجلا واحداً بين ألف وجدت ، أما امرأة فلم أجد واحدة بين كل أولئك »[٢] .

وكانت المرأة فى المجتمع اليهودى — كما فى المجتمعات البدائية — مملوكة لأبيها قبل زواجها ، تُشترى منه عند نكاحها ، لأن المهر كان يدفع لأبيها أو لأخيها على أنه ثمن شراء ، ثم تصير مملوكة لزوجها ، وهو سيدها المطلق ، لأن كلمة (بعل) معناها سيد ، وليس لنذرها أو قسمها قيمة ما لم يؤيده زوجها[٣] ، فإذا مات زوجها ورثها وارثه ، لأنها جزء من التركة ، وله أن يبيعها أو يعضلها[٤] .

وكان الزواج بالأخت ذائعاً عندهم قديما ، فمثلا تزوج إبراهيم بسارة أخته من أبيه[٥] ، والربانون — الربائيم إحدى طوائف اليهود الثلاثة — يبيحون زواج بنت الأخ وبنت الأخت وبنت امرأة الأب[٦] ، وقد بعث عيسى عليه السلام يحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ[٧] .

ثم بعد ذلك حرموا الأم وامرأة الأب والأخت لأب أو لأم ، وابنة الابن والعمة والخاله ، وزوجة الابن وبنت امرأة الأب ، والأصول والفروع[٨] .

وجروا على تعدد الزوجات ، ولم يعارضه القانون الشرعى أو المدنى[٩] ، وعرفوا

---

(١) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون و Israel From its Begining. A dolphe Lods. P. 190.

(٢) سفر الجامعه ٧ : ٢٦ — ٢٩

(٣) اليهود فى تاريخ الحضارة ٥٢ و Israel From Begining. P. 191

(٤) النظم الاجتماعيه والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٦٧

(٥) سفر التكوين الإصحاح ٢٠ : ١٢ (٦) العقائد ٨٠ (٧) تاريخ الطبرى ٢/١٢

(٨) سفر اللاويين اصحاح ١٨ آية ٦ — ١٨ و شعار الخضر

(٩) اليهود فى تاريخ الحضارة ٥٠

زواج المتعة ، ومارسوه ، ثم نهى الكتاب عنه ، لأنه لا يليق أن يكون الاقتران لأجل تبعا لهوى النفس ، ثم تحدث بعده فرقة بغير مسوغ شرعى[١] .

وبديهى أن المرأة التى تورث كالمتاع لا حق لها فى الميراث ، فالقاعدة أن الرجل إذا مات وليس له أبناء ورثه بنو عشيرته ، أما النساء فلا نصيب لهن مما ترك الرجل ، بل كن يورثن . فإذا مات الزوج ولم يكن قد أولد الزوجة ورثها أخوه أو بعض أقاربه . وكانت البنت إذا مات عنها والدها ورثها أقرب الرجال إليها ، ثم عدلت هذه القاعدة فى عصر متأخر ، فسمح للبنت أن ترث أباها إذا لم يكن له ولد . أما الزوجة فلا نصيب لها من تركة زوجها ، بل ظلت جزءاً من متاعه يرثها ذوو قرباه . على أن التوراة اشترطت على البنت التى ورثت أباها أن تتزوج رجلا من عشيرته[٢] . واختلفوا فى توارث الزوجين ، فالربانيون يورثون الرجل زوجته ، والقراءون يمنعونه ، ولا يلزمونه مؤجل صداقها ، ويمنعونها أيضاً أن ترثه ، ولكن لها مؤجل صداقها[٣] .

وقد خولت القوانين اليهودية القديمة الرجل أن يطلق زوجته إذا فعلت ما لا يَرْضَى ، ولم يكن هناك ما يكفه عن استعمال هذا الحق المطلق إلا بعض روابط واهية لا تجدى فتيلا . ولم يسمح للنساء أن يطلبن الطلاق من أزواجهن ، وليس قبولهن الطلاق شرطا لصحة وقوعه[٤] ، ثم فى عصور متأخرة أباح القراءون للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها[٥] .

وكان اليهود قديما ينسبون أبناءهم إلى أمهاتهم ، ففى التعاويذ السحرية اليهودية يقرن اسم الرجل باسم أمه لا باسم أبيه ، وقد عكف يوليوس ولهوزن على دراسة التوراة ، وخلص

---

(١) شعار الخضر ١٠١

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ وشعار الخضر ١٥٢ — ١٦٤ والأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للاسرائيليين ١٦٩ — ١٧٢

(٣) شعار الخضر ١٦١ — ١٦٣

(٤) الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للاسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة فى الاسلام للسيد أمير على الهندى ٧٣ والاسلام والحضارة العربية ١/٨٠

(٥) شعار الخضر ١٢٦

الأم هو الشائع فى جداول الأنساب فى الجزء الذى حرره أتباع المدرسة اليهودية ، وهـذه الجداول يرمز إليها بحرف (J) وأن النسب إلى الأب هو الشائع فى القسم الذى حرره أتباع المدرسة الكهنوتية ، وهى التى يرمز إليها بالحرف (P) ، وإذا علمنا أن الساميين كانوا يضعون قيوداً شديدة وحدوداً مرعية للزواج بدوى الأرحام ، ولا يضعون مثل هذه القيود فى الزواج بالعصبة ، فهم مثلا يبيحون الزواج بالأخت لأب ، إذا علمنا ذلك تبين لنا أنهم كانوا فى وقت ما يعدون صلة الأبوة أوهى من صلة الأمومة ، ويرون أنها لا تفرض نهياً ولا تحريماً فى الزواج [١] ، ووجود هذه العادة يفسر قول إلههم يهوه عن اتحاد الرجل بالمرأة (سوف يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بزوجته) ، ولا تزال لهذه العادة آثار فى اليهود إلى اليوم ، وفى الأمم العربية ومصر — عادة نسبة الولد إلى أمه فى التعاويذ والرقى والتمائم — ويرى نولدكه أنها تدل على مرحلة قديمة من نظام الأمومة [٢] .

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦–٨٨ و Israel From its Begining. P. 192

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨١

صِلة العرب بالنصارى

النصرانية فى الشمال والوسط

كانت النصرانية قد ذاعت واستقرت أركانها فى البلاد المحيطة بجزيرة العرب ، فى الدولة الرومانية ومصر والحبشة . وكان النصارى يتعبدون بنشر دينهم والتبشيرية ، فيجوبون البلاد ، ويجوسون القفار ، ويحتملون المشقات . وكان من أثر ذلك أن نفذت المسيحية إلى بلاد العرب ، وعرفت فى أرجائها ، ودان بعض العرب بها .

فالغساسنة فى الشام نصارى[1] على المذهب المنوفستى الذى كان شائعاً فى ديارهم ، وعرف فيما بعد بالمذهب اليعقوبى ، نسبة إلى يعقوب البرذعانى[2] ، وهم حماة الكنيسة فى الشرق ، يدل على ذلك أن الحارث بن أبى شِمْر (حوالى ٥٢٩ — ٥٦٩ م) كان نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة[3] .

وفى الحيرة نصارى أكثرهم من النساطرة ، وقد انتقلت النصرانية إليهم من الشام ، لأن الإمبراطور جستنيان اضطهد النساطرة فرحب بهم كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) وأسس لهم مدرسة جنديسابور فى فارس ، فنشروا مذهبهم هناك[4] ، وغلب هذا المذهب على فارس وخراسان والعراق والموصل[5] .

وقد دان بالمسيحية أشراف الحيرة ، منهم من بنى تميم آل عدىّ بن زيد العبادى ، ومنهم أناس من سَليم ومن طيء وغيرهم[6] . وفى عام ٤١٠ م ورد ذكر أسقف على الحيرة ،

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة لابن رسته ٢١٧/٧

(٢) الفصل لابن حزم ٤٩/١ (٣) العرب قبل الاسلام ١٩١ جرجى زيدان

(٤) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ١٥ و١٨ دى بور ترجمة أبور زيده

(٥) الفصل لابن حزم ٤٩/١ (٦) البلدان لليعقوبى ٣٠٩

وفيما بين ٥٥٩ و٥٧٥ م كان أحودمه يبشر بالنصرانية بين التنوخيين (١) .

ولما فتح العرب العراق كان على شواطىء الفرات مسيحيون ، وكان بعض البدو ممن انتجعوا الجزيرة قد دخلوا فى حورة الكنيسة (٢) . وقد نزل خالد بن الوليد فى طريقه إلى العراق سنة ١٢ هـ بقرى يقال لها بانقيا وبارُوسما وأُلَيْس فصالحه أهلها النصارى (٣) . وقد بقيت كتب من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية استعملت لغة للكنيسة (٤) .

وكانت على النصرانية قبيلة تغلب ، وقد دانت بها بعد يوم خَزَاز ، ذلك أن نزار لم تكن تستنصف من اليمن ، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم (٥) ، فلما انتصر عرب الشمال على اليمن شعروا بنعمة الاتحاد ، والتفوا حول زعيمهم كُلَيْب ، ووجدوا أن عرب اليمن يهود ونصارى ، وعرب الشام والحيرة نصارى ، فاعتنق النصرانية كليب وبعض حلفائه من ربيعة ومن مضر ، ومن إياد ، ومن طيء ، ومن قضاعة . ومن قيس بن ثعلبة ، وبنى كليب كنيسة ينافس بها حرم مكة ، وهو إنما يريد أن يثبت ملكه على دعائم من العقيدة الدينية والعصبية القبلية . ولم ترم تغلب عن المسيحية ، ومازالت عليها إلى عهد عمر بن الخطاب « ولما أراد أخذ الجزية منهم انطلقوا هاربين ، فقال له زرعة بن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبى أو عبادة بن النعمان التغلبى : أنشدك الله فيهم ، فانهم قوم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية ، فلا تعن عدوك عليك » فأضعف عمر عليهم الصدقة ، وشرط عليهم ألا ينصروا أولادهم (٦) ، وكانت هذه معاملة خاصة بالتغلبيين ، إذ اعتبر عمر أن المضاعفة بمنزلة الجزية على غيرهم « وليس يؤخذ من غيرهم من أهل الذمة صدقة مضاعفة (٧) .

وكان بعض قبيلة — بكر تيم اللات وضبيعة وبعض بنى عجل — نصارى (٨) ، وكان قرب منازل تميم من منازل بكر وتغلب وسيلة إلى أن يعتنق بعضهم النصرانية (٩) ، وقد افتخر الزبرقان بن بدر أمام النبى بنصرانيته فى قوله :

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/٥١٣ عن نو Nau فى كتابه Les Arabes. P. 16

(٢) الحضارة الإسلامية ٧٣ فون كريمر (٣) تاريخ الطبرى ٣/٤

(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ٩ بارتولد (٥) معجم البلدان مادة خزز

(٦) المعارف ١٩٣ والخراج لأبى يوسف ٦٨ والخراج للقرشى ٦٦ وفتوح البلدان ١٨٩

(٧) الخراج للقرشى ١٠

(٨) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر المجلد الرابع العدد الأول ٤٣

(٩) سيرة ابن هشام ٤/٢٢٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٥/٧٤ ؛

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادِلُنا منا الملوك وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ (١)

كما اعتنقها جماعة من إياد ، منهم قس بن ساعدة (٢) ، وجماعة من جُذام (٣) ، وجماعة من قُضاعة (٤) ، ودان بها أناس من النَّمِر (٥) ، وأناس من طيئ كعدى بن حاتم (٦) ، وأبى زُبَيْد (٧) .

وكان فى أيلة نصارى ، ضرب عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار كل سنة ، وأن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثا ، ولا يغشوا مسلماً (٨) .

أما فى قلب الجزيرة وبخاصة مدن الحجاز التجارية فلم تكن المسيحية مجهولة ، ذلك بأن سكان هذا الإقليم كانوا على اتصال دائم بأهل الشمال ، ولا شك أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتشر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر عظيم فى تعريف العرب بالنصرانية ، على أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية (٩) ، ففى ناحية من نجد كشف بلى Pely عن عمود مسيحى خطمه الوهابيون (١٠) .

وقد تنصر من قريش بنو أسد بن عبد العزّى ، منهم عثمان بن الحويرث وورقة ابن نوفل (١١) ، وكان ورقة قد استحكم فى النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيراً (١٢) .

وفى يثرب كان من المحاربين ضد النبى عند مقدمه إليها شريف من الأوس مطاع اسمه أبو عامر عبد عمرو بن صيفى ، كان قد ترهب ولبس المسوح وسمى الراهب (١٣) ، وكان

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٢٥
(٢) التنبيه والإشراف ١٧٦ ودائرة المعارف الإسلامية ٣/١٦٦
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ٦/٣١٣
(٤) المعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والاعلاق النفيسة ٧/٢١٧
(٥) تاريخ الطبرى ٤/٧٣ (٦) سيرة ابن هشام ٤/٢٤٦
(٧) الشعر والشعراء ١٠١ والاغانى ١١/٢٣
(٨) الأم للامام الشافعي ٤/١٠١ (٩) العرب والإمبراطورية العربية ٢٩ بروكلمان
(١٠) عصر ما قبل الاسلام ٩
(١١) تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨
(١٢) سيرة ابن هشام ١/٢٤٣ والأم للشافعى ٤/١٠١ والخراج للقرشى ٧٣ والاغانى ٣/١٢٠
(١٣) سيرة ابن هشام ٢/٢١٦

بمكة نصرانى اسمه مَوْهب ضرب عليه النبي ديناراً كل سنة (١) .

وكان بالبحرين نصارى ، ففى سنة ٧ هـ صالحهم العلاء بن الحضرمى عن رسول الله (٢) .

على أننا نجد أسماء كثير من النصارى فى أماكن شتى من الجزيرة (٣) . وكان بكندة نصارى منهم حُجَيَّة بن المضَرِّب (٤) ، وامرؤ القيس بن عابس الكندى (٥) .

النصرانية فى اليمن

سلكت المسيحية طريقها إلى اليمن منذ أواسط القرن الرابع الميلادي . وتضافرت على فسح المجال لها هناك عوامل شتى ، بعضها سياسى ، وبعضها تجارى ، وبعضها دينى . ذلك بأن قياصرة الروم لما تنصروا أخذوا يهتمون بنشر دينهم ، ويستعينون به على بسط نفوذهم وتوسيع المجال لمتاجرهم ، فأرسل الإمبراطور قسطنطين مبشراً هو فرومنتوس إلى الحبشة نصبه أسقفاً عليها ٥٣٤ م فنشر النصرانية فيها (٦) . وفى سنة ٣٥٦م بعث ثيوفيلوس ليبشر باليمن ، واستطاع أن ينشىء كنيستين بأرض حمير وثالثة بعدن ، وليس ما يمنع من أن نصدق أن المسيحية وفدت أيضاً من الشمال بعد ذلك (٧) .

وكان بنجران كنيسة بناها بنو عبد المدان الحارثى وسموها كعبة نجران ، وقد ذكرها الأعشى فى قوله لناقته :

وكعبة نجران حتّم عليـــك حتى تنـــاخى بأبوابها
نزور يزيد وعبـــد المسيح وقيساً همُ خير أربابها (٩)

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٤٣ و ٢٠٦
(٢) فتوح البلدان ٨٥ (٣) المعارف ٢٠ ومروج الذهب ١/٢٩ ـ ٣٢ وتاريخ الخميس ١/٣٢ ومجالس ثعلب ١/٦٥٣ و ديوان المتلمس مخطوط
(٤) الأغانى ٢١/١٠ وسمط اللآلى ١/٢٠٤
(٥) أسد الغابة ١/١١٥ (٦) دائرة المعارف للبستاني ٦/٦٧٩
(٧) العرب قبل الإسلام ١٢٦ زيدان و History of the Arabs. P. 67. Hitti.
(٨) الكامل لابن الاثير ١/١٤٩ وسيرة ابن هشام ١/٣٠ـ٣٤ و Hitti. P. 67
(٩) الأغانى ١٠/١٣٥ ـ ١٣٧

ثم كانت الغزوة الحبشية الأخيرة لليمن فى ٥٢٣ م ، فاعترف النصارى بالحبش ، وراجت الدعوة إلى النصرانية ، واستطاع أبرهة أن يحكم اليمن ، وكان نصرانياً ورعا متحمسا لبث دينه فى بلاد العرب ، فبنى القُلَيْس بصنعاء[١] ، وهى كنيسة لم ير الناس أحسن منها ، ولما أتم بناءها كتب إلى النجاشى : إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب[٢] . وفى سبيل ذلك حاول أن يهدم الكعبة ، وكانت غزوة الفيل التى باء كيدها بتضليل .

وممن تنصر باليمن طيىء و مَذْحِج وبَهْراء وسَليح[٣] ، وهذه الكثرة تخوّلنا أن نرفض قول تسدال Tisdall إن المسيحية لم يعتنقها من العرب إلا بنو الحارث فى نجران ، وبنو حنيفة فى اليمن ، وبعض طيىء فى تيماء[٤] .

وما جاء الإسلام حتى كانت النصرانية ذائعة فى الجنـــوب ، يدل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وجّه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على النصرانية[٥] ، وصالح وفد نجران على ألفى حُلّة فى صفر وألفى حُلّة فى رجب... وأن عليهم عارية ثلاثين درعا، وثلاثين فرسا، وثلاثين بعيراً، إن كان باليمن كيد[٦] ، ومع كل حلة أوقية من الفضة[٧] ، وهذا دليل على كثرة العدد والثروة ، لذلك لا عجب أن يبلغوا فى عهد عمر أربعين ألفا ، وأن يتحاسدوا ، فأتوا عمر فقالوا : أَجْلنا ، وكان قد خافهم على المسلمين ، فاغتنم الفرصة وأجلاهم[٨] .

أثر النصرانية فى العرب

١ — كانت النصرانية ذات آثار شتى فى العرب ، فبعضهم مال إلى الرهبنة وبناء الأديار كحنظلة الطائى ، إذ فارق قومه ونَسَك ، وبنى ديراً بالقرب من شاطىء الفرات ، وترهب فيه

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٦١ (٢) معجم البلدان ٧/١٥٥ و ١٥٧
(٣) تاريخ اليعقوبى ١/١٩٨
(٤) Original Sources of The Quran P. 1:6.
(٥) فتوح البلدان ٧٥ (٦) فتوح البلدان ٧٠
(٧) الخراج لأبن يوسف ٤١ (٨) فتوح البلدان ٧٣

حتى مات سنة ٥٩٠ م[١] ، وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قليلا من الطعام[٢]، وكان القسس والرهبان يعظون الناس فى المجامع والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم إحدى خطبه فى عكاظ ورواها[٣] .

ومما يدل عن انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكى كثيراً من أقوالهم ويفندها ، وأن كثيراً من الشعراء كانوا نصارى ، وللمسيحية آثار فى شـــعرهم وخيالهم وعقائدهم ، كأمية ابن أبى الصلت[٤] ، وذى الإصبع العَدْوانى[٥] ، وعدى بن زيد العبادى[٦] ، والأعشى[٧] ، والنابغة الجَعْدى[٨] وغيرهم[٩] .

على أن العرب كانوا يتزوجون بنصرانيات فى الجاهلية وفى الإسلام ، وكن ينسلن لهم بعض الأشراف ، ذكر كثيراً منهم ابن رُسْته ، كالحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى[١٠] .

٢ — وإذا كانت اليهودية قد عجزت عن أن تصرع الوثنية الجاهلية فكذلك قد عجزت المسيحية ؛ لأنها لا توائم طباع العرب الميالين إلى الثأر والانتقام والأنفة من الضيم ، وما من عربى يرضى أن يدير لضاربه خده الأيسر إذا ضربه على خده الأيمن .

ثم إن المسيحية كانت قد اختلطت تعاليمها بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة[١١] ، ففقدت

---

(١) معجم البلدان ٤/١٤٣ وشعراء النصرانية ١/٩١
(٢) الأغانى ١٤/٤١ وشعراء النصرانية ٢١١
(٣) نقد النثر لقدامة بن جعفر ٩٨
(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ١٠٣ والأغانى ٤/١٢٥ طبعة الدار وديوان أمية ابن أبى الصلت.
(٥) الأمالى ١/٢٥٥ والأغانى ٣/١٠٥ الدار .
(٦) البيان والتبيين ٢/٢٨٥ (٧) الأغانى ٨/٧٦ ساسى
(٨) طبقات الشعراء ١٠٣ — ١٠٥ تحقيق شاكر
(٩) الحياة العربية من الشعر الجاهلى. أحمد الحوفى ٨١ — ٨٢ والمفضليات ٢/٥٢ والمؤتلف والمختلف للآمدى ٧٤ والبيان والتبيين ٣/٥٣ و ١/ ٥٤
(١٠) الأعلاق النفيسة ٧/٢١٣
(١١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٢٦ دى بور ترجمة أبو ريدة .

بساطتها ، وامتلأت بالشبهات والغموض ، يقول تايلور Canon Taylor إن أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتا فيزيقية عويصة ، ودعوا إلى العزوبة والعزلة ، وادعوا أن القذارة من خصائص الرهبنة ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضر أو مستقبل ، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله[١] ، لذلك كان من العسير أن يُشرَب العرب هذه التعاليم .

على أن العرب خالفوا النصارى فى أشياء ، فالنصارى يحرمون لحمان الإبل وألبانها ، ولكن العرب أحلوها ، والكنيسة تحرم تعدد الزوجات والعرب يعددون ، والنصارى يحظرون الطلاق والعرب يستبيحونه[٢] .

المرأة النصرانية

أعزت المسيحية المرأة بعض الإعزاز ، وحمتها بعض الحماية من المهانة التى كانت تُمْنى بها ، فلا جرم أن تهرع النساء إلى المسيحية أفواجا ، لأنهن أحببن من تعاليمها أنه « لا يهودى ولا إغريقى ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى ، كلكم واحد فى يسوع المسيح » فى وقت كانت النساء فيه محتقرات ، ينظر إليهن على أنهن يقمن بعمل ثانوى فى النسل ؛ حتى لقد كان اليهودى الورع يحمد الله دائماً على أنه لم يخلقه غير يهودى ، ولم يجعله عبداً ولا امرأة .

وقد قامت المسيحية فى أول عهدها على جهد النساء إلى حد كبير ، فكن مبشرات وكن يهبن لها المال ، ويُذِدْن عنها فى حماسة ، وقد اعْتُرف بهن قسيسات ، وبلغت القسيسات عشرات[٣] وأظهرت المبشرات كثيراً من ضروب الشجاعة والإيمان والتمسك بالعقيدة ، واحتملن العذاب راضيات[٤] ، وكان أعظم ما أنعمت به المسيحية على المرأة أن حرمت تعدد الزوجات ، والتسرى ، وحدت من الطلاق[٥] ، فقد سأل المسيحَ تلاميذه عن الطلاق ، فقال لهم : « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى »[٦] .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ٦٦ و ٦٧ أرنولد (٢) صبح الأعشى ١٣/٢٨٥

(٣) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ١٩٣ نشره السير جون هامرتن .

(٤) المرأة فى العصور ٣١ أحمد خاكى (٥) المرأة فى العصور ٣٦

(٦) انجيل مرقس . الإصحاح ١٠

ولكن إعزاز المسيحية للمرأة كان بقدر ضئيل ، لم يرفع من شأن المرأة، ولم يطلقها من سلطان الرجل ، ولم يحمها من عسفه وازدرائه، فالإنجيل يخص الرجال بالذكر دون النساء ، « لأن الرجل مخلوق على صورة الله ، وأما المرأة فإنها مخلوقة من جنب الرجل » . وقد أيدت آراء رجال الدين أن المرأة ساقطة المكانة ، وأنها خلقت للرجل ، ففى رسالة بولس إلى أهل كورنثوس : أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ولم يخلق الرجل من أجل المرأة ، بل خلقت المرأة من أجل الرجل[١] . وجاء فى رسالته إلى أهل أفسس : « أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ، لأن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة » وإن كان قد أوصى الرجال بحب النساء : «أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة »[٢] ، وشبيه بهذا ما ورد فى رسالة بطرس الأولى»[٣].

وقد فسر بعض رجال الدين قصة آدم وحواء كما وردت فى الانجيل بأن المرأة حليفة الشيطان ، فهى جديرة بالاحتقار ، وعدها بعضهم مصدراً للرجس ، وكان من أثر ذلك انتشار الرهبنة والتبتّل[٤] . ومن عجب أن يبحث المجتمعون فى مجمع (ماكون) ٥٨١ م فيما إذا كان للمرأة نفس ، وهل تعد من البشر ؟ وبعد جدال طويل عنيف كان الجواب أن لها نفسا ، وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة[٥] .

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس الإصحاح ١١ : ٢
(٢) من رسالة بولس إلى أهل أفسس الإصحاح ٥ : ٢٢ ، ٢٥
(٣) الإصحاح ٣ : ١ — ١٠
(٤) المرأة فى العصور ٣١ــ ٣٦ وتاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ Mrs Ray Strachey
(٥) المرأة فى التاريخ والشرائع ٦٢ جميل بيهم .

صلة العرب بالفرس

يحدث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسس مملكة الحيرة بقرون . فقد أدوا الجزية للملك قورش سنة ٥٥٠ ق . م ، وكانوا أعواناً لقمبيز فى فتح مصر سنة ٥٢٥ ق . م ، ثم كانو مع الفرس فى حملتهم على اليونان سنة ٤٩٢ ق . م [١].

وقد ذكر الكاتب اليونانى كينوفند (٤٠١ ق . م) أن كورة فى شرقى الفرات كانت تدعى (العربية) [٢] . وكانت البلاد الواقعة شرقى الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة ٤٠١ ق . م [٣] .

وفى عهد سابور الأول بن أردشير (٢٤١ — ٢٧٢ م) كانت بين دجلة والفرات مدينة اسمها الحضْر ، يحكمها عربى من قضاعة ، وقد شمل ملكه أرض الجزيرة ، وبلغ الشام ، ثم إنه أغار على بلاد الفرس فحاربه سابور [٤] .

وفى أوائل القرن الثالث للميلاد تنازعت إياد ومضر بعد انتصارهما على جرهم وإجلائها عن مكة ، فهزمت إياد وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبى الحيرة [٥] ، منها سنداد — نهر فيما بين الحيرة إلى الأُبُلَّة — وكانوا ذوى منعة لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد أغاروا على كسرى وهزموه مرتين [٦] .

ثم كانت حروب بين العرب وسابور الثانى المسمى بذى الأكتاف (٣٠٩ — ٣٧٩ م)

---

(١) العرب قبل الإسلام ١٠١ نقلا عن هيرودوت .
(٢) مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ٣/٣٣١
(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد
(٤) تاريخ الطبرى ٢/٦٢ والأغانى ٢/١٤١ الدار ومعجم البلدان ٣/٩٧ وسيرة ابن هشام ١/٧٨ ومروج الذهب ١/٢٩٦ والكامل لابن الأثير ١/١٣٥
(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٦٧ (٦) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٧٣

بعد أن أغار العرب على أطراف مملكته ، ومكثوا بها مدة ، فغزاهم فى بلادهم ، وأسر منهم كثيراً ، وأسكن أسراهم مع بكر ابن وائل كرمان ، ومن بنى حنظلة الأهوازَ [١] ، وأسكن عدداً عظيما من أسرى العرب إقليم تَوَّج أيضاً ، وكانت حملة سابور حوالى ٣٥٠ م [٢] .

وبذلك تعددت الفرص لأن يحتك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ويساكنوهم .

ثم بعد ذلك ساعد الفرس العرب على تأسيس إمارة الحيرة ، التى ظلت نحو أربعة قرون (٢٦٨ — ٦٣٣) [٣] ، وُصْلة بين العرب والفرس ، وكان أهلها أكثر حضارة من عرب الجزيرة ، وكان الفرس يعجبون بهم ، حتى لقد أرسل يزد جرد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠م) ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرىء القيس بن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ — ٤٢١ م) ليربيه تربية عربية ، وأمره ببناء قصر الخورنق له ، وأن يخرجه إلى بوادى العرب [٤] ، وقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتتلمذ لأساتذة من الفرس ومن العرب ، وقد أعانه العرب فى أن يخلف أباه على عرش فارس [٥] ، وتوسط عظماء الفرس وأهل البيوتات بالعرب ليتجاوز بهرام عن مساءتهم إليه ويعفو عنهم [٦] ، وأثرت التربية العربية فى بهرام فأجاد اللغة العربية كما أجاد لغات أخرى ، وقرض الشعر العربى والفارسى [٧] ، وذكر شمس الدين الرازى فى كتابه المعجم فى معايير أشعار العجم أن بهرام جور أول من نظم شعراً فارسياً ، وأنه أخذ الشعر عن عرب الحيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ، ونهوه عنه .

وكان إقليم الحيرة وما جاوره مجمعاً لأديان شتى أيضاً فى العصر الجاهلى ، فقد فتح

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٦٦ ـ ٦٩ و ٣/٦٨ ومروج الذهب وتاريخ ابن خلدون ٢/١٦٩

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر

(٣) تاريخ الطبرى ٢/٣٧ و٧٢ و٧٤ و٧٦ و٧٨ و١٥٦ وفجر الإسلام ١٨ وتاريخ الإسلام السياسى حسن ابراهيم ٤٨ ومروج الذهب ١/١٢٦

(٤) تاريخ الطبرى ٢/٧٢ ونهاية الأرب للنويرى ١/٣٧٢

(٥) تاريخ الطبرى ٢/٧٤ ـ ٧٦ (٦) الطبرى ٢/٧٨

(٧) مروج الذهب ١/١٢٦

المسلمون هذه البلاد وعلى شواطىء دجلة والفرات أناس من أديان شتى ، فرس يعتنقون الزرادشتية ، ومسيحيون يدينون بالمسيحية ، وإلى هؤلاء جميعاً كان أتباع الديانة المانوية — وهى ديانة نشأت من اتحاد دين زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية — وأتباع لديانات قديمة وثنية ، وقد بقيت آخر طائفة منهم وهى الصابئة بحران حتى القرون الوسطى (١) .

على أنهم حكموا اليمن عهدا طويلا منذ استنجد بهم سيف بن ذى يزن لطرد الحبشة ، وظلوا يحكمونها إلى أن أشرق الإسلام (٢) ، وقد اشترط أنوشروان على سيف بن ذى يزن — أو معديكرب — بعد أن ساعد اليمانين على إجلاء الحبش شروطاً ، منها أن الفرس يتزوجون بنساء اليمن ، ولكن لا يتزوج اليمانون بنساء الفرس ، وفى ذلك يقول الشاعر :

على أن ينكحوا النسوان منهم ... وألا ينكحوا فى الفارسينا (٣)

وقد سمى العرب الفرس الذين قدم بهم سيفٌ بنى الأحرار ، يقول أمية بن أبى الصلت فى تهنئته ومدحه لسيف بن ذى يزن :

حتى أتى ببنى الأحرار يَقْدُمُهُمْ ... تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
لله درهم من فتيـــة صبروا ... ما إنْ رأيت لهم فى الناس أمثالا (٤)

على أنهم حكموا البحرين أيضاً ، وهَجَر ، وقد بعث رسول الله إلى أتباع كسرى بهجر فلم يسلموا ، فوضع عليهم الجزية دينارا على كل رجل (٥) .

ثم إن الفرس كانوا يستخدمون بعض العرب فى دواوينهم ، فمثلا لقيط الإيادى كتب لكسرى وترجم له (٦) ، وعدى بن زيد كان من تراجمة كسرى ابرويز (٩٥٠—٦٢٨ م)

---

(١) Literary History of Persia. Broune. P. 154. والحضارة الإسلامية ٧٣ فون كريمر . والفهرست ١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/١١٥ ـ ١٢٤ وسيرة ابن هشام ١/٦٥ ـ ٧٣ والأغانى ١٦/٧٣ و Original Sonrces of the Quran. P.P. 212 215.

(٣) مروج الذهب ١/٢١٨ (٤) طبقات الشعراء ٢١٨ شاكر والأغانى ١٦/٧٣

(٥) المغازى ٨٥و٨٨

(٦) معجم ما استعجم للبكرى ١/٧٥

وأبوه زيد كان يقرأ العربية والفارسية ، وزيد بن عدى كان من تراجمة كسرى بعد أبيه[١] :

وقد رحل بعض العرب إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث بن كلدة الثقفى ، رحل من الطائف إلى جُنْدَيْسابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب ، وضرب العود ، ووفد على كسرى وله معه حديث طويل [٢] ، وكذلك رحل ابنه النضر إلى الحيرة وإلى فارس ، وكان يشترى كتب الفرس ليحدث منها ، ويعاند الدعوة الإسلامية [٣] ، ورحل الأعشى إلى فارس ومدح كسرى ، وأدخل فى شعره كلمات فارسية كثيرة [٤] .

ووفد عبد الله بن جُدْعان على كسرى [٥] ، وكان لعبيد بن شَرْية المخضرم علم بأخبار ملوك العرب والعجم [٦] .

وكانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية دراهم الفرس البَغْلية والكسْروية [٧] .

أثر الفرس فى العرب

ليس من أغراضى هنا أن أبسط القول فى أفانين التأثير الفارسى فى العرب ، لأن ذلك يبعد بى عما أقصد الآن إليه ، وله مجال آخر [٨] ، لهذا سأقصر بحثى على تبيان التأثير الفارسى فى الحياة الاجتماعية ، وما يتصل بالمرأة ، وإذ كانت الزرادشتية والمزدكية دعائم العبادة والاجتماع عند الفرس فإن من حقهما أن تفردا بكلمة .

أما زرادشت فهو عند الفرس نبى أسموه زرتشترا ، وسماه اليونان زرواستر ، ونسبوه إلى زمن قديم ، ولكن المؤرخين المحدثين يرون أنه كان بين القرن العاشر والسادس قبل

---

(١) الأغانى ٢/١٠١ ـ ١٠٦
(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١/١٠٩ ـ ١١٣ وأخبار الحكماء للقفطى ١١١
(٣) سيرة ابن هشام ١/٣٢٠ وعيون الأنباء ١/١١٣
(٤) معجم البلدان ٢/٥١ ودراسة الشعراء للمرصفى ٩٢
(٥) الاغانى ٨/٤
(٦) الفهرست ٨٩
(٧) فتوح البلدان ٤٧١ ـ ٤٧٢ (٨) الحياة العربية من الشعر الجاهلى للمؤلف ٥٥ ـ ٦٥

الميلاد [١] ، وقد ظهر بين الفرس وهم يعبدون مثرا إله الشمس ، وأناهيتا إلهة الخصب والأرض وغيرهما ، فثار ضد المجوس أو الكهنة الذين كانوا يلون شئون هذه العبادة ، وأعلن وحدانية الله ، وسماه أهورا مزدا إله النور والسماء ، وأعلن أن ما عداه من آلهة إن هى إلا مظاهر من صفاته . وآزره فى نشر هذه العقيدة دارا الأول ، وجعل الزرادشتية وحدها الدين الرسمى [٢] ورمز إلى أهورامزدا برمزين هما الشمس والنار ، ودعا إلى تقديسهما على هذا الاعتبار [٣] ، ولكن أتباعه عبدوا النار من بعده ، وعدوها من آلهتهم ، وأسموها (آنز) وجعلوها ابنا لإلههم الأعظم إله النور والضياء ، وكانوا يقدمون للشمس والنار وأهورامزدا قرابين من الزهور والخبز والفاكهة ومن الحيوان ، وأحياناً من البشر [٤] .

وصارت ديانة زرادشت الدين الرسمى للدولة بعد أن كانت بغيضة إلى الأهلين [٥] .

وأما مزدك فقد ظهر فى عهد قباذ ، ووافق زرادشت فى بعض ماجاء به ، وزاد ونقص ، ولكنه استحل المحارم والمنكرات ، وسوى بين الناس فى الأموال والأملاك والنساء والعبيد والإماء ، فكثر أتباعه من السفلة والطغام ، وصاروا عشرات الألوف ، فعظم شأنه ، وتبعه الملك قباذ ، فعظمت البلايا على الناس ، وصار الرجل لا يعرف ولده ، والولد لا يعرف أباه . فلما مضت عشر سنين من ملك قباذ اجتمع موبذان موبذ والعظماء وخلعوا قباذ وولوا عليهم أخاه جامسب ، ثم أعيد قباذ بعد قتل كثير من المزدكية [٦] .

ويتحدث نظام الملك فى تفصيل عن المزدكية ، فيبين أن كبراء الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم ، وكذلك الشأن فى نسائكم ، فهى كالأموال بينكم ، فمن يرغب فى امرأة فليجتمع بها ، فليس فى ديننا غيرة ولا حمية ، وبهذا لاتحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها . وإذاً فقد فتح مزدك أبواب الفساد لجميع الناس ، ورغبهم فى مذهبه ولاسيما

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ٣٨ ول ديورانت
(٢) قصة الحضارة الفارسية ٣٩ (٣) قصة الأدب الفارسى ٣٢ حامد عبد القادر
(٤) قصة الحضارة الفارسية ٤٨ ول ديورانت
(٥) الدعوة الى الإسلام ١٧٩ أرنولد
(٦) الكامل لابن الاثير ١/١٤٤ والأغانى ٨/٦١ ساسى

العامة . ومن نظمه التى وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلا إلى منزله فعليه أن يمدهم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم مجامعة نسائه . . . ولكن أنوشروان ألب رجال الدين على مزدك وعلى أبيه ، وبين لهم وخامة هذا العمل وسوء عقباه على الملك والدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسرّ إلى كبراء الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه ، وقُتل مزدك وكثير من أتباعه (١) .

وإذاً فقدحاول مزدك أن يفلسف مذهبه ، ويصبغه بصبغةفيها خير للمجتمع ، فادعى أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر ما بين الناس من شحناء وسفك دماء إنما سببه النساء والأموال ، فأحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلأ (٢).

وأغلب الظن أن الدعوة إلى شيوع النساء فى فارس أقدم من مزدك هذا ، لأن الطبرى يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل فسا ، يقال له زرادشت بن خركان ، وقد تابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بعده رجل يقال له مزدق (٣) . وبهذا الرأى أخذ براون (٤) ، ويعززه أيضاً أن ابن النديم ذكر أن اثنين دَعَوا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر فى أيام قباذ ، وقتله أنوشروان (٥) ، وفتك بأتباعه (٦) .

وأيّاما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذيوع المذهب فى الناس ، ولكن الطائفة لم تنقرض ، بل بقى عدد منهم تعقبه أنوشروان بعد استوائه على العرش ٥٣١ م ، ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التى ظهرت فى الدولة الإسلامية.

---

(١) سياسة نامه ٢٤٠ تأليف نظام الملك . ترجم هذه الفقرة صديقى الدكتور محمد موسى هنداوى
(٢) الملل والنحل للشهر ستانى على هامش الفصل ٢/٨٦ وصبح الأعشى ١٣/٢٩٧
(٣) تاريخ الطبرى ٢/٩١
(٤) Literary History of Parsia Berune P. 170
(٥) الفهرست ٣٤٢
(٦) التنبيه والإشراف للمسعودى ٨٩ والفهرست ٣٤٢

بعض مظاهر التأثير الفارسى فى العرب :

١ — عبد الفرس النار بعد زرادشت كما سبق ، وكانت بيوتها منبثة فى العراق مثل بيت النار الذى بنته بوران بنت كسرى ابرويز ، وغيره من بيوت كثيرة بناها المجوس هناك (١) ، ناهيك بما كان فى فارس نفسها من بيوت النيران ، حتى لقد قال ابن حوقل عن كورة اصطخر : إن بيوت نيرانها كثيرة والعلم بها من غير الديوان متعذر ، إذ ليس من بلد ولا رستاق ولا ناحية إلا بها عدد كثير منها (٢) وظلت معابدهم إلى مابعد الفتح الإسلامى بثلاثة قرون فى العراق وفارس (٣) .

وكان المجوس منبثين فى بقاع شتى من جزيرة العرب ، وقد دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم مجوس نجران (٤) ، ومجوس اليمن ، ومجوس هَجَر (٥) ، ومجوس عُمان (٦) ، والبحرين (٧) . وكان بالقَطيف وبالزّارة مجوس امتنعوا من أداء الجزية للنبى ، وبالغابة ودَارِين مجوس أيضاً (٨) ، وكان بتميم مجوس ، منهم زرارة بن عُدُس ، وابنه حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سُود جد وكيع بن حسان وغيرهم (٩) .

وقد ظلت المجوسيه عقيدة لبعض العرب إلى عهد النبى ، بل إلى عهد عمر ، فقد ذكر له فى خلافته قوم يعبدون النار وليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سنوا بهم سنة أهل الكتاب (١٠) .

وكان سلمان الفارسى مجوسياً أسلم (١١) .

لذلك لا عجب أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفرد لهم أبو الحسن المدائنى كتاباً

---

(١) مروج الذهب ١/٢٦٨ (٢) المسالك والممالك لابن حوقل ١٨٩
(٣) مروج الذهب ٤/٨٦ والاصطخرى ١٠٠و١١٨ والمسالك والممالك ٨٩
(٤) فتوح البلدان ٧٥
(٥) فتوح البلدان ٧٥و٧٨ والخراج لأبى يوسف ٧٤
(٦) فتوح البلدان ٨٤ (٧) فتوح البلدان ٨٦ (٨) فتوح البلدان ٩٢و٩٣
(٩) الأعلاق النفيسة ٧/٢١٧ والمعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والكامل لابن الأثير ١/٢١٣
(١٠) الخراج لأبى يوسف ٧٤ (١١) أسد الغابة ٢/٣٢٩

سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية) [١]. ولم يكن هذا الزواج فى الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج المجوسية ، إذأن المجوس مصدقون بنبوة زرادشت مكذبون بسائر الأنبياء[٢].

وقد تجلى تقديسهم للنار فى مظاهر شتى ، فهم حلفوا بها ، إذكانت نار باليمن ، لها سدنة ، وسموها الهُولة والمَهُولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلفَ بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت لتستشيط وتنتفض ، فيهول بذلك على الحالف لينكل إذا كان مذنباً ، ويجرؤ على الحلف إذا كان بريئاً [٣] ، يقول أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المُهوِّل حالف [٤]

ويذكرها غيره من الشعراء كالأعشى [٥] وأفنون التغلبي [٦] ، ثم ذكرها الكميت فى العصر الإسلامى [٧] .

وكان العرب يتحالفون على النار ، وربما يدنون منها حتى تكاد تحرقهم [٨] ، ثم إنهم استمطروا بها أيضاً [٩] ، وفى شعر أمية بن أبى الصلت تسجيل لهذا الاستمطار [١٠] .

وقد روى أن بشار بن برد كان يدين بهذا المذهب ، لذلك فضل النار على التراب ، وإبليس على آدم بقوله :

الأرض سافلة سوداء مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار [١١]

وقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار

---

(١) الفهرست ١٠٢ (٢) الفصل ١/١١٣

(٣) تاريخ الطبرى ٢/٩٦ وأبيات المعانى لأبى هلال العسكرى وأساس البلاغة والقاموس المحيط مادة هول

(٤) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين ٣/٦ وأساس البلاغة مادة هول

(٥) الاغانى ٢٠/١٣٩ (٦) المفضليات ٢/٦٢

(٧) البيان والتبيين ٣/٦ وأساس البلاغة مادة هول

(٨) أيمان العرب للنجيرمى الكاتب مخطوط (٩) الحيوان للجاحظ ٤/١٥٠ ساسى

(١٠) ديوان أمية ٤٥ والحيوان للجاحظ ٤/١٥٠

(١١) الأغانى ٣/٢٠ ساسى والبيان والتبيين ١/١٦ بتحقيق هارون

الناس عنصره وآدم طينةٌ والطين لا يسمو سمو النار

وقد رد عليه صفوان الأنصارى بقصيدة طويلة مطلعها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً وفى الأرض تحيا بالحجارة والزَّند [١]

٢ — وعبد بعض العرب الشمس أيضاً ، يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت . ومن عبادها ثمود ، و « كانت تميم أدنى من غيرها ثقافة فألهوا الشمس بخاصة [٢] » . وعبدها عرب من حمير قبل أن يتهودوا منهم ملكة سبأ ، يقول تعالى على لسان الهدهد لسليمان : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله [٣] » .

وعبد بعض اليمانيين ودًّا إله القمر ، وعبدته بعض قبائل من كنانة ، وعبدت تميم الدَّبَران ، وعبدت لخم وجذام المشترى ، وعبدت طيء سُهَيْلا ، وعبدت قيس الشِّعرى العَبور ، وعبدت أسعد عطارد [٤] . وعبادة الكواكب والنجوم وثيقة الصلة بعبادة الشمس .

ومن عبدة الكواكب صابئة حَرَّان ، لذلك برعوا فى الفلك والسحر ، وظلوا على دينهم إلى سنة ٨٣٠ م إذ سألهم المأمون عن دينهم فأجابوا بما لا مقنع فيه ، فهددهم بالقتل إن عاد من رحلته فلم يجدهم على دين سماوى ، فقبلوا نصيحة بعض فقهاء المسلمين ، وأعلنوا أنهم من الصابئة ، وتحت ستار هذا الاسم استمتعوا بحقوق أهل الكتاب ، وإن ظلوا على عقائدهم القديمة [٥] .

وكان فى العرب صابئة آخرون ، قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [٦] » .

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٧ — ٣٥ تحقيق هارون

(٢) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٧

(٣) سورة النمل ٢٤ (٤) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٣

(٥) Encyclopaedia Britannica (Art Sabians)

(٦) البقرة ٦٢

وقال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون [١] » . وقال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد [٢] »

وهم فى بعض الأقوال يعبدون الملائكة [٣] ، أو يعبدون الكواكب [٤] ، أو هم لا يعبدون الكواكب لكن يعظمونها كما يعظم المسلمون الكعبة بالتوجه إليها [٥] . وفى الصابئة أقوال أخرى [٦] .

وقد كان بعض العرب يعبدون الملائكة ، قال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون [٧] .

وهم الذين قال الله فيهم : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون [٨] » وقال : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟ [٩] » وقال :

---

(١) المائدة ٦٩ (٢) الحج ١٧

(٣) تفسير الطبرى ٩٧/١٧ (٤) هذا رأى الصاحبين أبى يوسف ومحمد . عيون المسائل ٥٠

(٥) هذا رأى أبى حنيفة . عيون المسائل ٥٠

(٦) يكذبون بنبوة إبراهيم ومن بعده ويصدقون بنبوة إدريس وغيره (الفصل ١٠٢/١) ، وليس لهم كتاب وإنما لهم حدود وأحكام (الملل ٤٤/١) . وقد يجعلون من النصارى وقد يجعلون من غيرهم (تفسير النيسابورى ٩٧/١٧) أو هم يدينون بكتاب ينسبونه إلى شيث Oriqinal Sources of Quran (Adolphe Lods P. 52) and Browne P. 145

وتعرف شريعة شيث عندهم بالملة الحقيقية (قصص الأنبياء ٤٢) وكان شيث قبل إدريس ونوح (قصص الأنبياء ٣٨ و ٤٥) . وكانت له دراية بالفلك والنجوم (قصص الأنبياء ٤٠ و ٤٣) أو هم على دين نوح (القاموس مادة صبأ) أو دينهم يشبه دين النصارى ويزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون (التهذيب للأزهرى وهامش القاموس مادة صبأ) . وقد اعتبرهم المسلمون من أهل الذمة يدفعون الجزية كغيرهم من الكتابيين (الخراج لأبى يوسف ٦٩) والذمى هو المتمسك بكتاب كاليهود والنصارى . أما من زعم أن له كتابا كصحف إبراهيم وزبور داود ففيه ، خلاف والأصح عقد الذمة له . وكذلك الصابئة إن وافقت أصولهم أصول النصارى . ولكن لا يعقد لزنديق ولاعابد وثن ولا لعابدا لملائكة والكواكب (صبح الأعشى ٣٦١/١٣)

(٧) سبأ ٤٠ و ٤١ (٨) النحل ٥٧ (٩) النجم ٢٢

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا . إنكم لتقولون قولا عظيما [١] » ومن هؤلاء قريش كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ويعبدونها [٢] ، وآخرون من العرب زعموا أن الملائكة والأوثان بنات الله [٣] .

ومن مظاهر عبادة العرب للكواكب والنجوم اعتقادهم فى الأنواء ، ونسبتهم المطر والرياح وكثيراً من الأحداث إليها ، كما سأبين فى (ثقافة المرأة) . وكذلك تسميتهم الشمس إلهة . قال عتبة بن الحارث اليربوعى .

تروّحنا من اللَّعْباء عصرا وأعْجَلَنا الإلهة أن تئوبا [٤]

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلا : أبدلينى بها سناً أحسن منها ، ولْتَجْر فى ظلِّها أياتُك . وزعموا أنه إذا فعل أمن على أسنانه الوجع . وإلى هذا يشير طرفة بقوله :

سقته أياةُ الشمس إلا لثاتِه أُسِفَّ — ولم تَكدِمْ عليه — بإثْمِد [٥]

وقال أيضاً :

بدَّلته الشمس من منبته بَرَداً أبيضَ مصقول الأُشُر [٦]

٣ — واعتنق بعض العرب المزدكية ، اعتنقها ملك كندة الحارث بن عمرو بن حُجْر ، وكان معاصراً لقباذ بن فيروز نصير المزدكية ، وكان المنذر بن ماء السماء فى عهد قباذ عاملا له على الحيرة ونواحيها ، فدعاه قباذ إلى الدخول معه فى المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فأجابه ، فولاه الحيرة مكانه ، ثم لما تولى أنوشروان أعاد المنذر وأبعد الحارث [٧] .

---

(١) الإسراء ٤٠ (٢) تفسير الطبرى ٢٣/٦٨

(٣) تفسير الطبرى . سورة النحل ٥٧

(٤) لسان العرب مادة أوب. اللعباء : اسم مكان. تروحنا : رجعنا. أعجلنا : سبقنا. تئوب : تغرب

(٥) ديوان طرفة ٢٥ أياة الشمس : شعاعها . لم تكدم عليه : لم تعض بأسنانها عظما يذهب تحزيز أسنانها . أسف عليه بأثمد : ذر على لثته إثمد وهو حجر للكحل

(٦) ديوان طرفة ٦٥ الأشر : تحزيز الأسنان

(٧) الأغانى ٨/٦١ وتاريخ اليعقوبى ١/٢٩٩ و

Original Sources of the Quran. P.P. 212-215

المرأة الفارسية

لم تسمُ المرأة الفارسية إلى مكانة علية ، وبحسبنا من الدلالة على أنها كانت فى نظر الرجال مستمتعاً رواجُ الدعوة المزدكية ، وهشاشة العامة لها ، ورضا بعض الخاصة بها ، حتى لقد ناصرها الملك قباذ عشر سنوات .

ثم إنه كان للفارسى أن يتصرف فى المرأة كما يتصرف فى سلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت (١) .

ولم تتعلم النساء شيئاً سوى تدبير منازلهن (٢) .

ولا يناقض هذه المكانة أن ملك الفرس عليهم سنة ٦٣٠ م بوران بنت كسرى أبرويز فلبست التاج ، ووعدت الحاضرين أن تسير فيهم بأحسن سيرة ، فنثروا عليها الجواهر ، وأظهروا البشائر ، ودام ملكها نحو سنة وأربعة أشهر وماتت . ثم ملكوا بعدها آزرم دخت بنت كسرى نفسه ، فلبست التاج ، ووعدت أن تعدل كما وعدت أختها ، ولكن ملكها لم يمكث إلّا نحو أربعة أشهر ، وماتت أو سُمت (٣) .

وكان قدماء الفرس يبيحون للرجل أن يتزوج ببنته ، وبأخته الشقيقة ، أو غير الشقيقة (٤) ويبيحون الأمهات ، والجمع بين الأختين (٥) ، فيتزوج الأب ابنته ، والابن أمه ، والأخ أخته ، لأن الزرادشتية تبيح ذلك (٦) .

وإذا كان الإيرانيون وبخاصة ال (كبر) قد ادعوا فى القرون الوسطى أن العقائد المجوسية لم تحلّ المحارم فإنهم يخالفون الحقيقة الواقعة (٧) .

---

(١) تحرير المرأة قاسم أمين ٢٣ (٢) تاريخ التربية ١/١١٦ القطان

(٣) الشاهنامه للفردوسى ٢/٢٦١ — ٢٦٢ ترجمة عزام وتاريخ الطبرى ٢/١٦٨ والتنبيه والإشراف للمسعودى ٩٠ مع اختلاف يسير فى مدة الحكم .

(٤) الأسرة والمجتمع ٤٧ (٥) صبح الأعشى ١٣/٢٩٥

(٦) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ول ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد

(٧) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢

على أن تعدد الزوجات كان مباحاً أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت التسرى ، واتخاذ الحظايا والخليلات [١]

وكان الحجاب شديداً على نساء الطبقه الراقية ، حتى لقد كن لا يخرجن إلا فى هوادج مرخاة عليها السدول ، وكان محظوراً عليهن أن يخالطن الرجال فى مجتمع عام أو خاص ، بل لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن أو إخوتهن . أما الفقيرات فكن حرات فى التنقل لاضطرارهن إلى الكد والعمل . وكانت الخليلات والحظايا يتمتعن بقسط عظيم من الحرية، لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن سادتهن وعن ضيوفهم [٢] .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويغالون فى تقديرهم ، ويعدونهم ثروة اقتصادية لآبائهم ، وعدة حربية لملوكهم . أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة، لأن الغرض من تربيتهن إعدادهن لمنزل رجل آخر يجنى فائدتهن . ومما قاله الفرس إن الرجال لا يبتهلون إلى الله مطلقا من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعتبر البنات بركة يجوز منحها للبشر [٣] .

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ (٢) قصة الحضارة الفارسية ٦٠

(٣) قصة الحضارة الفارسية ٦١

صلة العرب بالرومان

١ — إذا كانت صلة العرب بالفرس قد نجمت قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ببضعة قرون ، فإن علاقة العرب بالرومان والرومان قد نبتت قبل أن تنشأ إمارة غسان ببضعة قرون أيضاً . فقد عزم الإسكندر على فتح بلاد العرب ، لأن الإغريق كانوا يعتقدون أنها غنية ، ثم كانت الغزوة التى قام بها نيارك حول بلاد العرب نذيراً بإزماع الإسكندر على غزو بلاد العرب نفسها ، ولكن موته وقاها هذا الغز .

وحوالى ٢٤ ق . م أرسل الإمبراطور أغسطس قيصر حملة خرجت من مصر بقيادة والى مصر ايلوس جالوس Aeilus Gallus لتستولى على طرق التجارة التى يحتكرها الحميريون ، ولتستغل موارد الثروة فى اليمن لصالح رما ، وتوغلت الحملة حتى نجران ، ثم باءت بالخيبة ، وكان يرافقها المؤرخ سترابون (١) ، وقد استعان فيها جالوس بالأنباط (٢) .

ثم كانت دولة الأنباط مسلكا للاتصال بين العرب والرومان ، وقد قامت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، ودامت مستقلة إلى أن دخلت فى حوزة الرومان ١٠٦ م ، وكان اليونان يسمونها العربية الحجرية Arabia Petra نسبة إلى عاصمتها بطرا (الحِجْر (٣)) وكانت مملكة الأنباط ، ولا سيما عاصمتها مركزاً تجاريا بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

٢ — ولما سقطت بطرا فى قبضة الرومان انتعشت إمارة أخرى هى تَدْمُر ، وطمع فيها الرومان كما طمعوا فى بطرا ، وحاولوا فتحها فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد بقيادة ماركس أنطونيوس ، ولكنهم لم يفلحوا . وبلغ بعض ملوكها من القوة إلى حد أن ساعدوا الروم فى حربهم للفرس مساعدة تكفل النصر للروم ، بل لقد انتصر أذينة (٢٦٥ م) على

---

(١) تاريخ العرب ١/٥٨ فيليب حتى
(٢) العرب قبل الإسلام زيدان ٦٨ — ٧٦
(٣) العرب قبل الإسلام ٦٨

ملك الفرس سابور الأول فثأر لهزيمة الإمبراطور فاليريانوس ، فكافأ الأمبراطور أذينة بأن جعله امبراطور الشرق ، وأشركه معه فى لبس رداء الملك الأرجوانى . ولكن هذا الصفاء بين الرومان ومملكة تدمر لم يدم طويلا ، فقد تنكر الرومان لتدمر ، وقاتلوا الزباء زوجة أذينة ، فانتصرت عليهم انتصاراً مبيناً ، ثم عاودوا حربها وهزموها ٢٧٢ م ، وبعد موتها أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ، وعاش بها بعض الأساقفة ، وشيد بها جستنيان كنيسة . واستمرت تدمر خاضعة للرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب (١) .

والأنباط والتدمريون جميعاً عرب ، لأن مؤرخى اليونان المعاصرين لهم ذكروا أنهم عرب ، ولأن أسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورئبال وأذينة ووائل وعدى وعميرة ، ولأنهم كانوا يتكلمون العربية . ولا يخافى هذا أن آثارهم التى كشف عنها مكتوبة باللغة الآرامية ، فقد كانت لغة الكتابة فى ذلك العهد ، وكان هذا شأن الدول القديمة بالشرق وخاصة فيما يتصل بالآثار السياسية والدينية (٢) . ويصح لنا أن نقول إن اللغة الآرامية كانت لغة دولية (٣) ، وفى التوراة ما يؤيد أن الاسرائيليين كانوا يتكلمون بها لما حاصر سنخاريب بيت المقدس (٤) ، وليس هذا بقادح فى نسب الإسرائيليين . وكذلك كان عرب الحيرة يتكلمون العربية ، ويستعملون السريانية غالباً فى كتابتهم (٥) ، وعرب غسان يستعملون الآرامية لغة ثانية لهم (٦) ، وهذه الحال تشبه حالنا الآن ، فنحن نصطنع العامية فى حديثنا والفصحى فى كتابتنا ، بل لقد يصطنع بعضنا لغة أجنبية فيما يكتب ، وفى الشئون الدولية بخاصة .

٣ — ثم أسست مملكة غسان بالشام ، وكانت صلتها بالرومان وثيقة ، وهى مشهورة شهرة تخولنى أن أكتفى هنا بالإشارة إليها .

على أن قبائل عربية كانت تخضع للروم وتتصل بهم ، فمثلا كانت قبيلة إياد تنزل بقرى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٤ و٥/١٣ وتاريخ العرب ١/١٠٠ فيليب حتى
(٢) تاريخ الأدب السريانى ٨ مراد كامل والبكرى والعرب قبل الإسلام ٧٨ و٨٩
(٣) تاريخ الأدب السريانى ٥ و٩ (٤) سفر الملوك الثانى ١٨: ٢٦ وسفر أشعيا ٣٦ : ١١
(٥) عصر ما قبل الإسلام ١٣٥ (٦) المرجع السابق ١٤٢

من أرض الروم ، وكان بعضها يسكن حمص وأطراف الشام [١] ، ثم دانت لغسان وتنصرت [٢] .

وكان نفوذ الرومان قد تسرب إلى قلب الجزيرة ، نتيجة للاتصال التجارى الدائم بين العرب والشام والرومان ، حتى إن أوليرى يرجح أنه كان بمكة قناصل رومانيون يرعون مصالح قومهم التجارية [٣] . وقد قدم عثمان بن الحويرث على قيصر ، ورغبه قيصر فى أن يحض قريشاً على الإقبال بتجارتهم إلى الشام ، وقيل إنه ولاه أمر مكة ، لكن قومه انقضوا عليه بعد أن بايعوه [٤] .

ثم إن الدنانير الهرقلية كانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية [٥] ، وقد شبهت امرأة عربية طلحة بأنه دينار هرقلى [٦] .

وبعض العرب تزوجوا روميات ، فمثلا أبو الروم بن عمير بن هاشم بن عبد مناف أمه أَمَةٌ رومية [٧] . ونجد فى الجزيرة أشخاصاً من الروم ، وأسماء رومية ، مثل زِنِّيرة الرومية التى أعتقها أبو بكر [٨] ، والأزرق غلام الحارث بن كلدة [٩] ، وأبى الروم ، وأبى رومى [١٠] .

أثر الرومان فى العرب

كان العرب المتصلون بالرومان على قسط عظيم من الحضارة ، لأنهم يقتبسون من حضارة الروم ، فمثلا يصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس الغناء عند جبلة بن الأيهم وصفا يدل على ترف وتحضر ، ويقول إنه سمع عشر قيان يغنين ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط [١١] .

---

(١) معجم ما استعجم ١/٧١ (٢) معجم ما استعجم ١/٧٥

(٣) Arabia Before Muhammed. O'leary. P. 184

(٤) الروض الأنف ١/١٤٦ والمنتقى من أخبار أم القرى ١٤٣

(٥) فتوح البلدان ٤٧١ — ٤٧٢ (٦) الحيوان ٤/٢٥٢ وعيون الأخبار ٤/٢٥

(٧) أسد الغابة ٥/١٩٤ (٨) أسد الغابة ٥/٤٦٢

(٩) أسد الغابة ٥/٤٨١ (١٠) أسد الغابة ٤/٤٢٧

(١١) الأغانى ١٦/١٤

على أن الرومان كانوا من بواعث نشر المسيحية فى بلاد العرب كما سبق ، وقد أعانهم الغساسنة فى نشرها وحمايتها ، حتى لقد كان الحارث بن أبى شِمْر حامياً للكنيسة فى الشرق ، والرومان هم السبب فى نشر المسيحية فى اليمن منذ بعثة تيوفيلوس ٣٥٦ م كما سبق .

المرأة الرومانية واليونانية

١ - كانت المرأة فى نظر الرومان القدماء شراً يجتنب ، وإن كانت مخلوقة للمتعة ، وهى دائماً خاضعة للرجل أباً أو زوجاً ، « وكان زوجها يملك مالها ، ويقيم عليها وصيا قبل موته [١] » ، فهى فى نظره ونظر المجتمع أمة لا قيمة لها ، بيد أبيها أو زوجها حق حياتها وحق موتها ، وإذ كانت ملك أبيها فى شبابها فإنه هو الذى يختار لها زوجها ، فإذا ماتزوجت ملكها زوجها ، ويقول الفقهاء إنها فى يمينه مثل ابنته [٢] . وعلى كثرة المشرعين فى روما فإنهم لم يحفلوا بالمرأة ، ولم يعترفوا لها بحق ، وإنما عينوا ما عليها من واجب . فهى فى نظرهم أمة شرعية يتصرف فيها رب الأسرة كما يتصرف فى عبيده وقطعانه .

على أنها فى بعض الأحوال عمود النسب ، فإذا تزوج رومانى امرأة أجنبية ، ولم يكن بينهما حق المصاهرة لحق الولد بأمه ، وكان غريبا ، وإذا تزوج لاتينى امرأة رومانية لحق الولد بأمه أيضاً [٤] .

وإلى هذا النظام يشير أبو العلاء إشارة سافرة فى قوله :

ولحُبِّ الصحيح آثرت الرو م انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه إلا ظنونا وطَلا الوحش لاحقٌ بمَهاته [٥]

ولكن المرأة تنفست فى عصر روما الذهبى ، وتحررت وسادت ، وأمسى الرجال أسارى النساء ، كأنما تواضع الرجال والنساء على تبادل ما كان ، وهال نفوذ النساء كاتو

---

(١) المرأة فى العصور ٢٥ (٢) حضارة العرب ٤٩٤
(٣) تاريخ الحضارة . شارل سنيوبوس ١٩٩ (٤) أساس العدالة فى القانون الرومانى ٣٦
(٥) اللزوميات ٢/٩٦

أحد عظماء روما السياسيين (٢٣٤ — ٣١٥ م) ، وهاله أن عم الرخاء ، وبالغت النساء فى زينتهن ، وتدخلت الماجنات فى سياسة الدولة ، وتسلطن على الأباطرة حتى أضعف سلطانهن روما نفسها ، عندئذ حاول كاتو أن يؤيد القانون الذى يحرم النساء الثروة ، فعجز ، وازداد التحسن فى مركز النساء ، وتقدير الرجال لهن ، حتى إنه بعد الإمبراطور ديوكلتين (٢٨٤ — ٣٠٥ م) لم يبق أثر من سلطة الآباء والأزواج الشديدة ، وما زال الحال كذلك إلى أن كاد المشرعون فى عصر جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) يساوون النساء بالرجال فى الحقوق[١] .

وسواء نظرنا إلى العصر الذهبى أو إلى ما قبله فإنا نجد المرأة لم تعامل معاملة الرجل ، ولم تنافسه فى مرتزقه ، فلم ترب البنت كما يربى الولد ، بل وجهت إلى فنون المنزل ، وأعدت للحياة الزوجية ، واتخذت من أمها معلمة لها ، وكانت تجيد الغزل والنسج والخياطة[٢] ، وشئون المنزل ، وكان من تشريفها أن تدعى أم الأسرة كما يدعى الرجل أبا الأسرة ، ومن تشريفها أن تكون زاهدة ، « فإذا ماتت كتبوا على قبرها مادحين : إنها التزمت بيتها ، ولم تبرحه ، وغزلت الصوف[٣] » .

كذلك كانت المرأة فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ربة البيت ، ولها نفوذ فى مجال عملها المنزلى ، ونفوذ على أطفالها[٤] .

وكان الطلاق مألوفاً عند الرومان ، وقد كثر فى عهد الجمهورية الأخيرة[٥] .

وقد اعترف الرومان بأنه نظام مرعى منذ العصور الأولى فى تاريخهم ، فإن قوانين الاثنى عشرة مائدة سوغته وأقرته ، ولكن ليس للزوجة حق فى أن تطلبه ، فإذا حاولت الفراق عرضها عملها للعقاب الصارم[٦] .

---

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع ٨٥ والمرأة فى العصور ٣٠
(٢) تطور النظرية التربوية ١١٨ (٣) تاريخ الحضارة ١٩٩
(٤) الإمبراطورية البيزنطية ٣٣ تأليف نورمان بينتر وترجمة مؤنس وزيدان
(٥) الإسلام والحضارة العربية ١/٨٠
(٦) مركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى ٧٣

ولولا أن المسيحية أطفأت من شرّته لظل سيفاً مصلتاً على العلاقة الزوجية إلى عصر متأخر (١) .

٢ — أما المرأة الإغريقية فلم تكن أسعد حالا ، ولا أرفع مكانة ، لأن الإغريق عامة يعدون النساء من المخلوقات المنحطة ، وليست المرأة عندهم إلا بطنا يدفع النسل ، وإلا حفيظة على شئون المنزل ، وإذا وضعت المرأة ولداً دميما قضوا عليها . قال مسيو تروبلونغ : « إن المرأة السيئة الحظ كانت تضع ولداً غير قوى صالح للجندية ، فتقتل » . وقال : « كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها عارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر » . ولم ينل إبان ازدهار الحضارة اليونانية الحظوة من نساء الإغريق سوى بنات الهوى اللائى كن وحدهن لا يتحرجن (٢) . وهى كأختها الرومانية مسودة دائماً ، فإن كانت فتاة سيطر عليها أبوها ، وإن كانت زوجة سيطر عليها زوجها ، وإن كانت أرملة سيطر عليها أهلها (٣) .

وقد سفرت فى إسبرطة وأثينا ، لكن هذا السفور ليس دليلا على علو مكانتها ، لأن وظيفتها ولا سيما فى إسبرطة كان أن تحمل وتلد للدولة ، فالزنا غير محظور ، والحجاب عبث .

وانحطت منزلة المرأة فى أثينا حتى عدت من سقط المتاع ، « فكانت النساء يبعن ويشترين فى السوق ، ومنزلتهن فى الدرك الأسفل ، كأنهن رجس من عمل الشيطان . وكان مصرحا للأثينى أن يتزوج بأى عدد يشاء . وقد فاخر ديموستين بأن فى عصمته ثلاث طبقات من النساء ، اثنتين منهن زوجات شرعيات وشبيهات بالشرعيات (٤) » .

ومن عجب أن فلاسفة اليونان لم يسموا بمركز المرأة ، فإن سقراط لم يجد حرجاً عليها فى أن يقرضها زوجها أصدقاءه . ولم تكن فى رأى أفلاطون أسعد حالا ، لأنه قسا عليها كما قسا قانون مانو الهندى القديم ، وأكد فى جمهوريته أن الواجب تداول النساء كما تتداول

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ١/٨٠

(٢) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون

(٣) La grande Encyclopedia. Tome 14. P 143-170

(٤) مركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى ٣٦

الحاجات [١] . ثم لم يحاول أرسطو أن يبدل هذه النظرة ، فقد قرر أن الخير قد يوجد فى أشخاص من كل نوع ، حتى فى المرأة والعبد مع أن المرأة أميل إلى الشر منها إلى الخير [٢] . واصطبغت هذه النظرة للمرأة بصبغة القانون ، لأن قوانين ليكورغ مشرع إسبرطة — قبل تسعة قرون قبل الميلاد — جوزت الشيوع فى النساء ، وأباحت للزوجة أن يستمع بها غير زوجها بإذن منه ، وخولته أن يدفعها للاستبضاع من آخر على أن يكون الولد للزوج [٣] .

وليس من مجافاة الحق أن نقرر أن المدنية اليونانية كانت تزدهر والمرأة اليونانية تافهة القدر ، متعة للرجل ، ومسلاة ، وقائمة بخدمة الدار ، وقد تبينت تفاهتهن فى ضيق آفاقهن وضحولة معلوماتهن . وطاعتهن العمياء للرجال [٤] .

ومن الطبيعى أن تستتبع هذه المكانة إجحافا بالحقوق المالية للمرأة ، فهى لا تملك ، ولا ترث [٥] ، فإذا مات أبوها ورثه إخوتها وحدهم ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجها الأكبر من ورثة أبيها الأقربين ، وينسب ابنهما لجده والد أبيه ، وإليه ينتقل إرث جده [٦] .

وكان الطلاق شائعاً عند الأثينيين بغير قيد أو شرط [٧] .

على أن الأولاد كانوا فى التاريخ القديم للإغريق - المنتهى سنة ٤٧٦ م - ينسبون أحياناً إلى أمهاتهم ، وفى إلياذة هوميروس أثارة من هذا [٨] ، وهنا يتشابه الإغريق والإسرائيليون فى تقدير الأمومة أكثر من الأبوة ، لأن الإغريق أيضا كان يبيحون للرجل أن يتزوج أخته لأبيه ، ولا يبيحون له أن يتزوج أخته لأمه [٩] .

---

(١) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و ١٣١ — ١٣٥ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٩ جستاف لوبون
(٢) الشعر لأرسطو ٦٠١ ترجمة إحسان عباس
(٣) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٢ والأمومة عند العرب ٢٦
(٤) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٨٩ Mrs Ray Strackcy
(٥) حضارة العرب ٤٩٤ جستاف لوبون (٦) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٤
(٧) مركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى ٧٣
(٨) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٢ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٥
(٩) الأسرة والمجتمع ٤٧

صلة العرب بمصر

كلما أوغلنا فى الماضى لنميط الحجب عن تاريخ العرب فى جاهليتهم شعت أمامنا أنوار تكشف عن مجهول ، أو تضيف جديداً إلى ما نعلم . فلقد كان يبدر إلى الخاطر أول وهلة أنه لا عجب فى أن يتصل العرب بالعبرانيين والنصارى ، لأنهم مختلطون أحياناً ومتجاورون أحيانا ، وأنه لا عجب أيضا فى أن يتصلوا بالفرس لأنهم تجاوروا وتغاوروا قبل أن تؤسس إمارة الحيرة وبعد أن أسست ، ثم لا غرابة فى أن اتصلوا بالرومان ، لأنهم تصاقبوا وتحاربوا وتحالفوا منذ كانت دولة الأنباط وتدمر ، ثم منذ نشأت إمارة غسان .

ولكن العجب فى أن يتصلوا بمصر منذ زمن موغل فى القدم ، « ففى الدور البُنطِى باليمن الذى انتهى حوالى ٣٠٠٠ ق . م كانت رحلات تجارية مصرية أيام الأسرة الخامسة تقوم من مصر إلى الجنوب ، منها رحلة الملك ساحورع من ملوك القرن السادس قبل الميلاد إلى بلاد بنط - وكان يظن أنها الصومال الحديثة فحسب ، ولكن ثبت أخيراً أنها الأرض التى على جانبى باب المندب بشقيه الإفريقى والأسيوى ، وأيدت هذا الرأى البحوث التى قامت بها كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ١٩٣٧ م ، وبحوث الأستاذين رانجنر وفون وسمز - ثم رحلة الملكة حتشبسوت حوالى ١٥٠٠ ق . م ، وهى مدونة على جدران المعبد الكبير الذى أنشأته فى الدير البحرى [١] » .

وتعددت حملات المصريين على بلاد العرب الجنوبية للحصول على اللبان والعطور وغيرهما [٢] .

وقد عرف العرب مصر زمن قديم ، وكانوا يفدون على الجزء الشمالى الشرقى من مصر ، وقد سماهم المصريون شاسو أى البدو ، وكانوا يتنقلون فى بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر

---

(١) تاريخ العرب ١/٤١ فيليب حتى وعصر ما قبل الإسلام ٦٣ — ٦٥ نافع

(٢) تاريخ العرب ١/٤١ — ٤٣ فيليب حتى

الأحمر كما يتنقل بدو العصر الحاضر . وكان لهم فى سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم أزمنة التاريخ . وكثيراً ما جاس العرب فى شرقى وادى النيل ، وكثيراً ما سطوا على مدن مصر ، وسلبوا السابلة من عهد مينا ، وكثيراً ما استعان بهم الفراعنة فى خروبهم ، لما كانوا يعلمون من شدة بأسهم .

ثم سنحت فرصة لهم وثبوا فيها على مصر وامتلكوها ، وعرفت دولتهم بدولة البدو ، واليونان يسمونهم هكسوس ، والعرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة [١] . والمؤرخون مختلفون فى زمن امتلاكهم مصر ، ولكن إخراجهم منها يكاد يكون حوالى ١٥٨٠ ق . م على يد أحمس الأول ، وبذلك حكموا مصر نحو قرن ونصف قرن [٢] ، وقيل إنهم قدموا إلى مصر فى أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، ومازالوا بها إلى أوائل القرن الثامن عشر [٣] ، وبذلك قضوا فى مصر نحو خمسة قرون . ولقد يقرب مسافة الخلف أن الهكسوس لم يغزوا مصر دفعة واحدة بين عشية وضحاها ، بل كان غزوهم تدريجيا ، واكتسب قوته بمرور الزمن ، كالشجرة التى تضرب بجذورها فى أرض خصبة فتزداد نمواً على مر الأيام ، وذلك أنهم وفدوا على مصر جماعات صغيرة متفرقة ، ثم صار لهذه الجماعات سلطان عظيم حتى حكموا مصر حوالى ١٧٣٠ ق . م . ولما طردهم أحمس الأول لم يزل نفوذهم الثقافى من مصر ، بل استمرت ثقافتهم تطبع الحياة المصرية بطابعها الخاص إلى مدة من عهد الأسرة الثامنة عشرة . وهم الذين جلبوا الخيل والعربات إلى مصر ، ولا شك أنهم كانوا على جانب عظيم من المدنية [٤] .

والراجح أنهم عرب كما قرر ذلك يوسيفوس المؤرخ الإسرائيلى المتوفى فى أواخر القرن الأول للميلاد نقلا عن مانيثون المؤرخ الإسكندرى المتوفى فى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد [٥] ، ودليل آخر أن العرب يسمونهم فى كتبهم عمالقة مصر [٦] . ثم إن لفظ هكسوس

---

(١) العرب قبل الإسلام ٥٢ — ٥٦ جرجى زيدان
(٢) مصر القديمة . سليم حسن الجزء الرابع
(٣) العرب قبل الاسلام ٥٢ (٤) مصر القديمة ٤/١٦٣
(٥) العرب قبل الإسلام ٥٦ عن josephees. wars of the jews. 1-19
(٦) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧

أصله هيك شاسو ، وكان يظن أن معناه ملوك الرعاة ، ثم تبين أن معناه ملوك البدو أو البادية ، وهم العرب . وقد ورد فى الآثار المصرية أن الهكسوس جاءوا من بلاد العرب قديماً . ومما يرجح عروبتهم أن المصريين بعد أن أجلوهم من مصر استمروا يناصبونهم العداء ، ويغزونهم فى أرضهم ، كما فعل رعمسيس الثانى وتحوتمس ، واستمر العرب أيضاً يهاجمون مصر بغزواتهم ، وقد ناصروا الفرس فى فتحهم لمصر[١] ، مما يدل على ميل إلى الثأر مستحكم بين العرب والمصريين .

والذين لا يذهبون إلى عروبتهم يقررون أن الساميين هم العنصر الغلاب فى الهكسوس[٢] . ومن المحتمل أن بعض أجناس قد اختلطت بهم[٣] .

وقد ارتاد رعمسيس الثالث بلاد الحبشة والصومال وبلاد العرب بأسطوله ، ولم يكن له بدّ من توطيد العلاقة الودية بين مصر وشواطىء البحر الأحمر واليمن ، ليفسح المجال للتجارة بين مصر وأقصى الشرق ، لذلك أنشأ طريقا للقوافل منظما بين القصير وقفط تسلكه التجارة بعد أن تعبر المحيط الهندى مارة ببلاد العرب .

واقتدى به وعمسيس الرابع (١١٦٦ ق . م) فافتتح طريقا مختصراً إلى بلاد العرب ، وكان الطريق إليها طويلا[٤] .

فلا عجب أن يكثر العرب بقفط ، وأن يذكر استرابون أن نصف سكانها كانوا فى زمانه (القرن الأول قبل الميلاد) من العرب[٥] ، لأن مصر ضعفت بعد دولة الرعامسة ، وطمع فيها جيرانها ، وشرع بعض العرب يفدون إليها بأنعامهم وخيامهم ، ويسطون على مدنها كما فعلوا من قبل ، ونزلوا قفط ، وملكوها قرونا[٦] ، ولم تكن قفط وحدها هى المعمورة بالعرب ، بل كانت مدن كثيرة فى صعيد مصر حافلة بالعرب منذ زمن استرابون إلى القرن الأول بعد الميلاد[٧] .

---

(١) العرب قبل الإسلام ٥٩
(٢) مصر القديمة ٤/١٨٧
(٣) مصر القديمة ٤/١٩٧
(٤) العرب قبل الإسلام ٩٦
(٥) مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ٣/٣٣١
(٦) العرب قبل الإسلام ١٠٢
(٧) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد

على أن التجارة كانت عروة أخرى من عرى الاتصال ، فكان السبئيون ينقلون العروض الهندية والحبشية على قوافلهم إلى مصر[١] ، ثم كان عرب الشمال يحملون المتاجر إلى مصر ، وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه بها . جاء فى سفر التكوين : « ثم جلسوا يأكلون — إخوة يوسف — ورفعوا عيونهم ، ونظروا فاذا قافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم محملة .... وهم سائرون لينزلوا مصر[٢] » . ثم نجد قبيلة حَوْتكة تنزل بمصر فى العصر الجاهلى بعد نزاع بينها وبين غيرها[٣] ، وأخيراً نجد أثارة من هذا الاتصال فيما يروى عن وفود عمرو بن العاص على مصر فى الجاهلية ، فى قصة جال فيها الخيال وصال[٤] ، وإذا كنا ندفع خيالها ، ونرفض تفاصيلها ، فإنا لا نستبعد جوهرها ، لأن عمرا تاجر ، ومصر من البلاد التى كان العرب يتجرون معها .

لذلك عثر الباحثون فى اللغة المصرية القديمة على ألوف من الكلمات العربية ، وقد ألف المرحوم أحمد كمال معجما كبيراً فى ذلك لم يطبع بعد .

المرأة المصرية

أما المرأة المصرية فقد كانت سامية القدر ، لها أن تتولى الملك إذا فقد الوارث للعرش من الذكور ، ومع أن هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة كما روى ديودور فإن جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات بإزاء أربعمائة وسبعين ملكا[٥] . ويظهر أن شعور المصرية بأنوثتها كان السبب فى أنها — وإن كانت ملكة — تشعر بأن الملك أليق بالرجل ، لأن الملكة حتشبسوت — قبل ١٥٥٠ ق . م — اضطرت إلى أن تلبس ثياب الرجل ، مراعاة للرأى العام[٦] . وكان المصريون يدينون للملكة بالولاء ، ويجلّونها ، حتى ليقول ديودور الصقلى إنها كانت تنال من السلطة والتكريم أكثر مما ينال الملك ، ويرجع هذ إلى الذكرى المجيدة التى خلفتها فى مصر الآلهة إيزيس[٧] .

---

(١) العرب قبل الاسلام ١٢٠ (٢) سفر التكوين ٣٧ : ٢٥

(٣) معجم ما استعجم ١/٤٠ (٤) حسن المحاضرة للسيوطى

(٥) La uestion Feministe. P. 137 Rosle

(٦) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٩ (٧) الحضارة المصرية القديمة لوبون ١٣

وكانت الزوجة جليلة القدر ، حتى إن الملك لا يكاد يصور على الآثار إلّا مع زوجته ، وهذا عام لا يقتصر على الطبقة العالية . وكان لقبها أنها ربة البيت [١] . وكانت النساء يحضرن مع أزواجهن الحفلات العالية ، وهذا مظهر لم يعهده العالم القديم ولا الشرق الحديث ، فالمصرى كانت امرأته بجانبه أينما وجد ، ولم يكن من الأدب المرعى الفصل بين زوجين ، وهذا يشبه ما نراه الآن فى الحفلات الأوروبية ، فالزوج المصرى وزوجته يحتازان الحياة واليد فى اليد كما نرى فى الصور التى على القبور [٢] .

ومما يدل على العناية بالزوجة أن فتاحتب — ابن ملك من الأسرة الخامسة — أذاع وصاياه لما طعن فى السن ، على بنى وطنه ، وكان منها : إذا كنت عاقلا فأجد تموين بيتك ، وأحبب امرأتك ، ولا تشاحنها ، وغذها ، وزينها ، وعطرها ، ومتعها ماحييت ، فهى ملك يجب أن تكون جديرة بالملك ، ولا تكن معها فظاً غليظاً [٣] .

وكانت المرأة تتناول مهراً من زوجها بعقد زواجها ، وقد ذكر ديودور أنه نصّ فى شرط عقد من عقود الزواج على أن المتزوجين اتفقا على أن يطيع الرجل المرأة [٤] .

وقد أباح الفراعنة والبطالسة الزواج بالأخت [٥] ، وكان ذلك عاما فى الشعب كما ذكر ديودوو [٦] ، وفى أحيان قليلة كان زواج بالأم [٧] .

وعرف المصريون تعدد الزوجات عن طريق التسرى ، لأن النظام الاجتماعى كان يقضى بتقسيم الشعب إلى طبقات ، ولم يكن مباحا للرجل أن يتزوج إلّا امرأة واحدة من طبقته ، ولكن له أن يتسرى ، على أن تكون زوجته سيدة سراريه [٨] .

وعرفوا النسب إلى الأم أحيانا بدلا من النسب إلى الأب ، إذا كانت الأم من أسرة

---

(١) المرأة فى مختلف العصور ١٨
(٢) الحضارة المصرية القديمة ٦٣
(٣) الحضارة المصرية القديمة ١١٦
(٤) الحضارة المصرية القديمة ٧٢
(٥) قصة الحضارة ١/٧٣
(٦) الأسرة والمجتمع ٤٧
(٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧
(٨) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧

عالبة القدر [١] ، على أن النسب إلى الأب كان هو الشائع [٢] ، ولعل هذا من تأثير الأمومة الأولى التى وجدت آثارها إلى عهد الأمبراطورية الوسطى ، وفى نقوش ذلك العهد نرى أن الجدة من جهة الأم تتقدم فى سيرها على جميع أفراد الأسرة [٣] .

وتميزت المرأة من بعض معاصراتها بأنها تملك ، بل لقد استأثرت بالملكية أحيانا ، لذا كان يناط بالبنات تغذية أهليهن إذا طعنوا فى السن ، ولا يكلف الذكور ذلك ، وهذا دليل على أن النساء لبثن وحدهن زمنا طويلا يملكن ويرثن [٤] . ثم تطور النظام فصارت المرأة تأخذ من تركة أبيها نصيبا يعادل نصيب شقيقها [٥] ، وكان هذا قبل الحكم اليونانى .

وكانت النساء يمارسن التجارة ، فقد ذكر هيرودوت أن النساء المصريات كن يذهبن إلى السوق ، ويفرغن للتجارة ، أما الرجال فكانوا فى منازلهم ينسجون [٦] .

وبعد الحكم اليونانى لمصر أباح فرعون بوحورس للأعيان أن يتملكوا الأرض — وكان تملكها قبل ذلك مقصوراً على الملك والأشراف والكهنة والقواد ، ولم يكن لعامة الناس ما يستحق أن يملك ويورث — فخيف من استئثار الرجل بالملكية عقب أن شاع تعدد الزوجات ، فعمدت المرأة إلى كبح استئثاره بالاشتراط فى عقود الزواج ، حتى كانت إحداهن تشترط عليه أن تنتقل أملاكه كلها الى ولده منها إذا تزوج بغيرها. ثم حد فيلوباتور أحد بطالسة اليونان من حق الزوجات فى التصرف فيما يملكن ، فأمر بإبطال تصرفهن إلا بأجازة بعولتهن ، وبذلك وضع المرأة فى وصاية الرجل ، وجعل الرجل صاحب الحق فى توزيع الثروة ، فانحطت مكانة المرأة بتأثير المدنية اليونانية [٧] .

---

(١) La grande Encyclopedie. Tone. 17.P. 143-170

(٢) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٣

(٣) الحضارة المصرية القديمة ٧٢

(٤) الحضارة المصرية القديمة ٧٢

(٥) تاريخ التربية لأحمد فهمى القطان ١/٤٤

(٦) الحضارة المصرية القديمة ٧١

(٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧

القسم الأوّل

المرأة في الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة

الباب الأول

المرأة في الحياة الأسرية

الفصل الأول

الأم

أريد أن أروز قدر المرأة في الأسرة ، وأن أفصل نواحي القول فيها ، سواء أكانت أما أم زوجة أم بنتا أم أختا أم قريبة ، معتمداً على ما يبضّ به الشعر ، وما يسجله القرآن الكريم ، ومتخذاً من التاريخ والأحداث والاجتماع جلاء لما غمض ، ولقد أعتمد على غير الشعر لأمهد للموضوع ، وأعدّ له جواً ملائماً .

١ — ورأيت أن أبدأ بمكانة المرأة في الأسرة ، لأن الأسرة أساس القبيلة ، والنظرية التي قال بها العلامة روبرتسن سمث Robertson Smith وهي « أن النظام الاجتماعي في بلاد العرب كلها واحد ، يمكن تلخيصه في أن القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية[1] » ، قد أبطلتها البحوث الحديثة التي قام بها العلامة روبرت لوي R. Lowie لأنه أثبت أن الأسرة هي أصغر وحدة اجتماعية ، وأن الجماعات الكبيرة كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة ، وبهذا نقض ما ذهب إليه من قبل ماك لنان وسمث من أن العشيرة أصغر وحدة اجتماعية[2] .

---

(١) Kinship & Marriage in early Arabia. P. 1. by Robertson Smith

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ١٠ عن R.Lowie. Primitiv Society & Smith Religion of the Semites. P. 38
وتاريخ العرب ١/٢٣ فيليب حتى

لهذا عدت الأسرة عند أكثر الأمم قديماً وحدة اجتماعية ، فكانت حكومة صغيرة فى الأمة الكبيرة ، الأب فيها رئيس مطلق وبطريرك قديم ، يحف به أولاده وعبيده وأحفاده ، وقطعانه[١] .

ومن الأسر المشتركة فى الدم تنشأ القبيلة ، موسومة بطابع الأسر التى كونتها .

وإذا فالقبيلة العربية هى الأساس الاجتماعى الكبير للحياة العربية ، وعاداتها هى الغالبة ، سواء أكان أفرادها يعيشون فى قبائل بدوية تقوم حياتها الاقتصادية على الرعى ، أم يعيشون فى قبائل تجارية تحرس اللطائم ، أو تجوس البلاد حاملة السلع والمتاجر .

أما الزراعة فلم يكن العرب يمارسونها فى الحجاز ونجد ، لذلك لما فتح النبى خيبر لم يجد من المسلمين ذوى خبرة بالزراعة ، فأبقى اليهود فى أرضهم يزرعونها ، على أن لهم الشطر من نخلها وزرعها[٢] ، ثم لما فتح وادى القرى ترك النخل والأرض فى أيدى اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر[٣] .

وقد حافظ العرب على العادات القبيلية زمناً طويلا ، حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضرية ، فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أوثق من العلاقة بين سكان مدينة واحدة ، وإذا فتحت مدينة أنشئت فيها أحياء للقبائل ، ولقد يفصل بين الأحياء أو بين الشوارع بأسوار ذات أبواب ، كما كان الحال فى دمشق ، وهذا دليل على خضوعهم للحياة القبلية فى المدن أيضاً . وهم حملوا هذه النزعة إلى إيران فيما حملوا[٤] .

٢ — وبدأتُ بالأم لأنها المعين الذى يفيض بالأفراد والأسر والجماعات ، هى التربة الخصيبة التى ينبت فيها الحب ، فإذا ما نضج أنبت حباً آخر . الأم هى التى تمنح بنيها — بعد الخالق سبحانه وتعالى — الحياة ، فهم فى بطنها أجنة يقضون أشهراً فى قرار مكين يغتذون من دمها ، ثم هم بعد الوضع أطفال يرتضعون من لبنها ، وينعمون برعايتها وحبها ،

---

(١) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٣٢
(٢) فتوح البلدان ٣١ و ٣٢ وسيرة ابن هشام ٣/٣٨٩
(٣) فتوح البلدان ٤١
(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية . ٣ بارتولد

ويتشكلون إلى حد كبير بتربيتها ، ثم هم فتيانا وشبانا معقد أملها ، وهى أيضاً نجىّ أنفسهم ، وملاذ الخائف منهم ، وقسيمة الفرح المحبـــور ، فإذا ما اكتهلوا فهم فخارها وذراها ، وهم حينئذ ذكرانا وإناثا حياتها المتجددة ، وثمراتها الواعدة ، ترى خلودها فيهم ، وفى ذراريهم. فهى أجدر بالتقدمة على الزوجة لهذا ، ولأنها بالأمومة ذات صفتين : فهى زوجة الرجل ، وهى أم لبنين .

أما الزوجة فكثيراً ما تكون ذات صفة واحدة ، لأنها زوجة فحسب قبل أن تنسل ، فإذا ما نسلت صارت أماً وزوجة ، وجنح بها الوصف إلى الأمومة أكثر من الزوجية .

وهى مقدمة على الزوجة وعلى البنت معاً لأنها أصل لكليهما ، ولأنها تجمع صفات ثلاثا لا تتحقق كلها فيهما ، فالأم ابنة لرجل ، وزوجة لرجل ، وأم لأبناء .

وقد قيل إن البنت أولى بالتقدمة ، لأن حواء — أول أنثى — خلقت بنتا . لكن رد ذلك ميسور ، إذ أن حواء قد خلقها الله زوجة لا بنتا ، قال تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها »[1] ، فلو أنا تتبعنا النشأة الأولى لقدمنا الزوجة لا البنت ، على أن تتبع هذه النشأة ليس محتوما علينا ، لأن للأم صفات تؤثرها بالتقديم ، ولأننا نستطيع أن نقول إن الغاية من خلق حوّاء لا أن تكون بنتا ولا زوجة وإنما أن تكون أماً يكثر بها بنوها ، وتعمر بهم الأرض .

أثر الأم فى القرابة

جرى العرب على أن الأب هو الأصل فى القرابة وربط الأسرة ، ولكن الأم كانت ذات شأن عظيم فى القرابة أيضا ، وكثيراً ما كانت المصاهرة وشيجة قوية بين الأسر وبين القبائل ، لأن العرب كانوا يجلون الأم إجلالا عظيما « ولا يعزون المرأة إلا أن تكون أما »[2] ، وإذا ما ولدت المرأة ارتفع قدرها ، وتوثقت بها العرى[3] . وكان هذا شأنها

---

(١) سورة الأعراف ١٨٩ (٢) العقد الفريد ٢/٢٦٤

(٣) التمدن الإسلامى ٤/١٥

عند اليونان أيضاً ، فهى كالأمة إلى أن تلد . وكان الفرس يعلون من قدر المرأة إذا ولدت وما زال هذا دأب أهل البادية إلى اليوم [١] .

لذلك عبر العرب عن القرابة بالرحم ، والرحم فى اللغة منشأ الجنين ومستقره ، وهو القرابة أيضاً ، أو أصلها وأسبابها ، واشتقوا منه الرحمة بمعنى الرأفة والتعطف والمغفرة ، قال الهذلى :

ولم يك فظا قاطعـــاً لقرابَةٍ ولكن وَصولاً للقرابه ذا رُحْم [٢]

وقال القتّال الكلابى يحكى استعطافه لابن عمه زياد :

نشدتُ زيادا والمقامةُ بيننا وذكرته أرحام سِعْرٍ وهيْثم [٣]

وقال آخر :

أفيقوا بنى حَزْنٍ وأهواؤنا معاً وأرحامنا موصولة لم تُقَضَّب [٤]

وكثيراً ما يتردد هذا التعبير عن القرابة [٥] .

وهم دلوا على القرابة أيضاً بكلمة بطن ، والبطن وعاء الرحم ، لذلك قالوا : نثرت المرأة بطنها إذا أكثرت الولد ، وألقت ذات بطنها إذا ولدت ، وهو أيضاً دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة ، واشتقوا من البطن ما يدل على الصداقة والمصافاة ، فقالوا : هو بطانة فلان أى من خواصه [٦] .

وكثيراً ما كان الشاعر يعبر عن الأخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمه — كما سيجىء فى إعزاز الأم لبنيها — فى مجال الاستعطاف وإحياء المودة ، أو فى مجال الفخر ، أو اللوم على قطع أرحام كان يجب أن توصل ، كقول الشنفرى :

---

(١) التمدن الإسلام ٤/١٥

(٢) القاموس المحيط وأساس البلاغة مادة رحم

(٣) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٠١ أى أقسمت عليه وأهل المجلس حاضرون . وذكرته الرحم التى تجمعنا من هذين الرجلين

(٤) المرزوقى ١/٣١٢

(٥) البيان والتبيين ١/١٨٢ وديوان النابغة ٤١ والأغانى ٢٠/١٥٩

(٦) أساس البلاغة والقاموس المحيط مادة بطن .

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى أهل سواكم لَأَمْيَلُ (١)

وكقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

تقول ابنة العَمْرِىِّ مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أفرعا
فقلت لها طولُ الأسى إذ سألتِنى ولوعة حزن تترك الوجه أَسْقعا
وفقدُ بنى أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضْرَعا (٢)

وقول النابغة الجعدى فى رثاء ابنه محارب ، يخاطب زوجه :

ألم تعلمى أنى رزئتُ مُحَارباً فمالك منه اليوم شىء ولاليا
ومن قبله ما قد رُزِئْتُ بوَحْوَحٍ وكان ابنَ أمى والخليل المصافيا (٣)

وكان هذا هو السبب فى أن عشيرة الأم تناصر أولاد هذه الأم ، وإن كانوا من قبيلة أخرى ، لأن الخئولة قرابة قوية كما سيجىء فى الخال .

وكان الرجال يتقربون إلى أخوالهم ، ويقبسون من شرفهم ، ويخايلون بفخارهم . يقول نابغة بنى جعدة فى آمنة بنت أبان بن كليب زوجة أمية بن عبد شمس :

وشاركنا قريشا فى تُقاها وفى أنسابها شِرْكَ العِنَان
وما ولدت نساء بنى هلال وما ولدت نساء بنى أبَان (٤)

وكانوا يخايلون أيضا بالجد لأم ، يقول عمرو بن كلثوم :

ورثتُ مهلهلا والخيرَ منه زهيرا ، نعم ذخر الذاخرينا (٥)

---

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ٣
(٢) المفضليات ٢/٦٨ ابنة العمرى : زوجته . أسفع : مغبر . تداعوا : تتابعوا إلى الموت . خلافهم : بعدهم . أضرع : أذل وأستكين (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٥١
(٤) الأغانى ١/٩ ساسى . شرك العنان : شركة متساوية لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان
(٥) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٣٩

الأم الحرة

١ — أغرم العرب بأن يفخروا بنسبهم ، وبأن يشيدوا بآبائهم ، وأولعوا أيضا بأن يباهوا بأمهاتهم ، ويزهوا بحريتهن ، وعراقة نسبهن . وسنعرف فى دراسة (الأمة) أنها كانت دون الحرة مقاما ، وأن أبناءها كانوا يعيَرون استرقاقها . وكأنما كان العربى الذى يخايل بأمه يزاوج فخره ويضاعفه ؛ لأنه إذاً يفخر بأبيه أيضا ، فما كان العبد ليتزوج حرة ذات عراقة . وهذا الفخار بالأم صراحة وبالأب ضمنا — وإن كانوا كثيراً ما فخروا بالأب صراحة — يستتبع أيضا مباهاة من الفاخر بسجاياه ومزاياه وعراقته التى ورثها من أبويه . يقول جعفر بن عُلبة الحارثى إن الحرب والكرب لا يكشفهما إلا ابن الحرة الشجاع ، لأنه برىء من شوائب الهجنة ، فصار كرم أصله مهيجا لأنفته ، ومشجعا له على الاستيسال :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها (١)

ويقول القتال الكلابى فى فخره بأمه عمرة بنت حرقة من ربيعة :

لقد ولدتنى حُرّةٌ ربعيةٌ ... من اللاء لم يُحْضِرن فى القيظ دِنْدنا (٢)

ويفخر بأنه ابن أسماء ، وهى من عشيرة أبيه وأعمامه ، وقد رضع ثديها حرة وزوجة لحر ماجد :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى ... إذا ترامى بنو الإمْوان بالعار (٣)

وقد جمع المقدام بن زيد سيد بنى حى بن خولان فخره بأمه إلى فخره بأبيه فى قوله :

نمتنا إلى عمرو عروقٌ كريمة ... وخُولان معقود المكارم والحمد

وأمى ذات الخير بنت ربيعةٍ ... ضريّةُ من عِيصِ السماحة والمجد (٤)

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/٥٠

(٢) الأغانى ٢٠/١٥٩ دندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد أنها لم تكلف الاحتطاب كالإماء . وفى الأصل ديدنا

(٣) تهذيب الكامل ٢/٣١٣ ولسان العرب ١٨/٤٧ إموان : جمع أمة

(٤) معجم البلدان ٥/٤٣٢ ضرية : بنت ربيعة بن نزار وهى أم خولان وإخوته بنى عمرو ابن الحاف بن قضاعة

وكان الفخر بحرية الأم وشرفها عاما ، يشيد به العلية والعامة ، فالشنفرى وهو من غير العلية يقول :

أنا ابن خيار الحِجْرِ بيتاً ومنصبا وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها (١)

ولم يحل تلقيب الأم بلقب لا يرضاه الشاعر أن يذكر لقبها هذا ، ويباهى بكرمها وشرفها وعفّتها ، يقول ربيعة بن عبد ياليل فى أمه قِلابة الملقبة بالذيبة :

إنى لمن أنكرنى ابن الذيبة كريمة عفيفة منسوبة (٢)

وسيد الأشراف محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يقول فى يوم حنين : أنا ابن العواتك من سُلَيْم (٣) .

وقد تأقلم اليهود فى الحجاز كما سبق واحتذوا بالعرب فى فخارهم بأمهاتهم . فالسموءل ابن عادياء يفخر بأنهم من أمهات أحسنّ حملهم أجنة ، ومن آباء كرمت عروقهم ، فكانوا فى أعلى المراتب من ظهور الآباء الكرام ، وانحدروا منها لوقت معلوم — يريد وقت الأطهار — إلى بطون خير الأمهات :

---

(١) الأغانى ٢١/٨٨

(٢) من نسب إلى أمة من الشعراء لمحمد بن حبيب . نوادر المخطوطات ٩٠

(٣) إيضاح المدارك فى الإفصاح عن العواتك للزبيدى ٦ مخطوط والنقائض ٤٠٣ ولسان العرب ١٢/٣٥١ وإنسان العيون ١/٤٦ والمغازى للواقدى ٢٧٣ وتاريخ الخميس ١/٢٥١ . امرأة عاتكة : بها ردع الطيب . قال السهيلى فى الروض الأنف إنها مصفرة من الزعفران ؛ وفى القاموس محمرة من الطيب ؛ ويؤيده قول ابن قتيبة هى من عتكت القوس إذا احمرت . وهذه الآراء راجعة إلى تغير لونها من الطيب .

وقال ابن عباد فى المحيط : هو من عتكت إذا شرفت ورأست على قومها وعشيرتها ؛ فسموا بهذا الاسم تفاؤلا على عادتهم . وقيل سميت لصفائها من قولهم نبيذ عاتك أى صاف ؛ وهو قول ابن دريد . وقال ابن سعد فى الطبقات : العاتكة الطاهرة فى نسبها وحسبها (إيضاح المدارك ص ٥ مخطوط) .

والعواتك : منهن أم هاشم والمطلب وعبد شمس بنى عبد مناف ؛ وهى عاتكة بنت مرة بن هلال ابن فالج بن ذكوان . وعاتكة بنت فالج بن ذكوان أم جده هاشم بن عبد مناف . وعاتكة بنت الأوقص ابن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم وهب بن عبد مناف بن زهرة جد الرسول لأمه آمنة . وسائر العواتك أمهات رسول الله من غير بنى سليم ؛ فهن تسع ؛ والثلاث الأوليات : الأولى عمة الوسطى ؛ والوسطى عمة الأخرى (النقائض ٤٠٣ وإيضاح المدارك ١١ — ١٤ ولسان العرب ١٢/٣٥١) وقد اختلف فى عدد العواتك من جداته ؛ فمن مكثر ومن مقل (إنسان العيون ١/٤٦)

صفونا فلم نَكْدُرْ وأخلص سِرُّنا إناثٌ أطابت حملنـــا وفحولُ
علونا إلى خير الظهور وحطَّنا لوقتٍ إلى خير البطون نزول (١)

٢ — ومَدحوا أيضاً بالأم الحرة ، قال حُرَيْث بن مُحَفِّظ فى مدح قومه :

بنو المجد لم تَقْعُدْ بهم أمهـــاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا (٢)

وعبروا أحيانا عن الحرائر بالمهيرات ، لأن المهر كان لايدفع إلا للحرة ، قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر إنه ينتمى إلى السادة ذوى الحصافة والحكمة والسخاء ، وإلى حرائر مواجد من حرات ماجدات :

يابنَ القروم ذوى الحِجـــا وابن الخضـــارمة المرافد
وابن المهائر للهـــا ئرزانها الشِّيمُ المواجد (٣)

ولم يكن المُلْك ليحول بين الملك ومدحه بأمه كما يمدح بأبيه ، ولم تكن عظمة الملك هى المجد الفذ الذى يشيد به مادحوه ، لذلك شادوا بأمه كما نوهوا بأبيه ، فهذا حاتم الطائى يمدح الحارث بقوله :

نمتـــه أُمامةُ والحـارثا ن حتى تَمهَّلَ سَبْقاً جديدا (٤)

بل لقد تبلغ عزة الشخص بأمه إلى أن يعلو بها على أم الملك الشهير الذى اشتهر باسم أمه ؛ يقول عارق الطائى فى رده على تهديد الملك عمرو بن هند :

مَنْ مبلغٌ عَمرو بن هند رسالةً إذا استحقبتْها العِيسُ تُنْضى من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينـــه تأمل رويداً ما أمامةُ من هِنْد (٥)

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/١١٩ وديوان السموءل ١٠
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٢ بتحقيق شاكر وفى بعض المراجع أنه ابن محفض
(٣) ديوان الخنساء ٦٢ القروم : جمع قرم وهو الفحل من الإبل ؛ والمراد السيد الشريف . الخضارمة : جمع خضرم وهو البحر الطامى والمراد الكريم . المرافد : جمع مرفد وهو المعطى . المهائر : جمع مهيرة وهى المرأة الشريفة الحرة ذات المهر الغالى . للمهائر : أى أن جداته مهائر (٤) ديوان حاتم ٧
(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٢١ ومعجم البلدان ١/١١٥

وكان شائعا أن ينسب الشخص إلى أمه — كما سأبين — وأن ينسب نفسه إلى أمه وإن كان أبوه ملكا ، يقول امرؤ القيس :

ألا هل أتاها والحوادث جمّةٌ بأن امرأ القيس بن تَمْلِكَ بَيْقَرا (١)

وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم زياد بن لبيد البياضى من الأنصار حضرموت ثم ضم إليه كندة ، فانتقضت كندة كلها عليه إلا السكون ، فقال شاعرهم :

ونحن نصرها الدين إذ ضل قومنا شَقاءً وشايعنا ابن أم زياد
ولم نبغِ عن حق البياضىِّ مزْحلاً وكان تُقَى الرحمن أفضل زاد (٢)

وكان شائعاً أيضاً أن تكنى المرأة باسم ابنها تكريماً لها .

قال زيد الخيل فى رثاء أوس بن خالد :

فلا تجزعى يا أم أوسٍ فإنه تصيب المنايا كلَّ حافٍ وذى نعل (٣)

وقال عمرو بن الأهتم :

ألا طرقت أسماء وهى طَروق وبانت على أن الخيال يَشُوق
ذرينى فإن البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سَرُوق (٤)

وكانت هذه الكنية أثيرة عند المرأة ، لذلك قالت السيدة عائشة يوماً للنبى وهى حزينة إن كل نسائه لهن كنى إلا هى . فقال لها : تكنى بابنك عبد الله — وهو ابن أختها أسماء — فصارت من ذلك الحين تكنى بأم عبد الله (٥) . ولما ولدت أم هاشم خالد بن يزيد بن معاوية تركت كنيتها الأولى واكتنت بأم خالد . يقول فيها يزيد :

وما نحن يوم استعبرت أمُّ خالد بِمَرْضَى ذوى داء ولا بصحاح (٦)

---

(١) ديوان امرىء القيس ٦٩ تملك : اسم أمه أو إحدى جداته . بيقر : أقام فى الحضر وترك أهله فى البادية
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ١٠٧
(٣) الشعر والشعراء ٩٥
(٤) المفضليات ١/١٢٣
(٥) الطبقات الكبير لابن سعد ٨/٤٣ والسنن الكبرى للبيهقى ٩/٣١٠
(٦) الأغانى ١٦/٨٥

ويتصل بهذا الفخر والمدح التبرؤ من أن تكون الأم أمة ، والتعيير بالأمة ، يقول القتال الكلابى :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى ... إذا ترامى بنو الإموان بالعار
أما الإماء فلا يدعونى ولدا ... إذا تُحُدِّث عن نقضى وإمرارى
لا أرضعُ الدهرَ إلا ثدى واضحة ... لواضح الخد يحمى حوزة الجار[1]

ويهجو عويف القوافى خصومه بأنهم جبناء ، وبأن أمهم وضيعة النسب :

وما أمكم تحت الخوافق والقنا ... بشكلى ولا زهراءَ من نِسْوة زُهْرِ[2]

ويبرأ ذو الأصبع العدوانى من عبودية أمه ، فيقول فى لوم ابن عمه — ويقال إن أمه كانت أمة —

عنى إليك فما أمى براعيـــة ... ترعى المخاضَ ولا رأيى بمغبون[3]

ولما عيّر المتلمسَ أخوالُه بنو يشكر — ويقال إنه ولد فيهم ومكث بينهم حتى كادوا يغلبون على نسبه ، فسأل الملك عمرو بن هند مضرط الحجارة — والمتلمس عنده — الحارث بن التوأم اليشكرى عن نسب المتلمس ، فقال : آنا يزعم أنه من بنى يشكر ، وآنا يزعم أنه من بنى ضبيعة ، فقال عمرو بن هند : ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين — غضب المتلمس فقال :

تعيرنى أمى رجال ولن ترى ... أخا كرم إلا بأن يتكرما
. . . . . .
فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتى ... جعلت لهم فوق العَرانين ميسَما
وهل لى أم غيرها إن ذكرتُها ... أبى الله إلا أن أكون لها ابنما[4]

وهجا عمرو بن هند بقصائد أخرى[5] .

---

(١) لسان العرب ١٨/٤٧ وتهذيب الكامل ٢/٣١٣ أموان : جمع أمة . واضحة : شريفة النسب حرة
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٢٨
(٣) الشعر والشعراء ٢٧١ والمفضليات ١/١٥٨
(٤) الأغانى ٢١/١٢١ وشعراء النصرانية ٣٣٧
(٥) شعراء النصرانية ٣٣٩ و ٣٤٠ والأغانى ٢١/١٢٥ و١٢٩ و١٣١ و١٣٥ وديوان المتلمس ١

وظل الاعتزاز بحرية الأم إلى ما بعد العصر الجاهلى — كما سيجىء فى الإماء — فقد فاخر الحجاج بن يوسف بقوله : لم تلدنى أمة بينى وبين آدم ما خلا هاجر (١).

الأم المنجبة

زُهيت الأم بأبنائها السادة الماجدين ، وحق لها أن تزهَى لأنهم بعضها ، وثمراتها الجنية الشهية التى حملتها وتعهدتها حتى أنضجتها . فهى الوعاء الذى ضمهم أجنة ، وهى التى حضنتهم وأرضعتهم وربتهم أطفالا ، فإذا كانت كريمة العنصر وأنجبت نسب إليها قسط من نجابة بنيها ، وإن كانت خسيسة العنصر وولدت ولداً وضيعاً ذمّت به وذم بها . لذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام : تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس .

لذلك زهيت الأم المنجبة بأبنائها ، وزهى أبناؤها بها ، لأنهم يدينون لها بكثير من عظمة نفوسهم ، وسلامة أبدانهم ، وشهرتهم ومجدهم . وسميت الأم التى يشرُف بنوها منجبة.

وقد رفع العرب من أقدار المنجبات ، فنوهوا بهن ، وعدوهن مُثلا عالية يرمقونها ويقيسون عليها ، لذلك ضربوا ببعضهن المثل فقالوا : أنجب من ماوية (٢) ، وأنجَب من فاطمة بنت الخرشب (٣) ، وأنجب من أم البنين (٤) ، وأنجب من عاتكة (٥) ، وأنجب من خبيئة (٦) .

أما ماوية فهى بنت عبد مناة بن مالك من تميم ، أم لقيط وحاجب وعلقمة ومعبد بنى زرارة بن عُدُس (٧) .

---

(١) البيان والتبيين ٢/٨٢ تحقيق هارون
(٢) مجمع الأمثال ٢/٢٧٦
(٣) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ ومجمع الأمثال ٢/٢٧٦
(٤) مجمع الأمثال ٢/٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢/٢٤٢
(٥) مجمع الأمثال ٢/٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢/٣٤٢
(٦) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٣ ومجمع الأمثال ٢/٢٧٦
(٧) الأغانى ١٦/١٩ ومجمع الأمثال ٢/٢٧٥

وأما فاطمة بنت الخرشب الأنماريه فقد ولدت لزياد العبسى الكَمَلة : ربيعا الكامل ، وقيسَ الحفاظ ، وأنس الفوارس ، وعمرا الوهاب أو عمارة ، وكل منهم ساد فى الجاهلية ، وقاد جيشا . وقد سئلت : أى بنيك أفضل ؟ فقالت : الربيع ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس . ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها [١] .

وأما أم البنين فهى ابنة عمرو بن عامر فارس الضَّحْياء ، ولدت مالك بن جعفر بن كلاب ملاعب الأسنة ، وفارس قُرْزُل طفيل الخيل والد عامر الشاعر الفارس ، وربيع المقترين ربيعة والد عبيد ، ونزال المضيق سُلْمَى ، ومعود الحكماء معاوية ، وهى التى افتخر بها لبيد فى قوله :

نحن بنو أم البنين الأربعة [٢] .

وأما عاتكة فهى بنت هلال بن مرة بن فالج بن ذكوان ، ولدت لعبد مناف ابن قصى هاشما وعبد شمس والمطلب [٣] .

وأما خبيئة فهى بنت رياح بن الأشلّ الغنوية ، ولدت لجعفر بن كلاب خالداً ومالكا وربيعة [٤] .

لا عجب إذاً فى أن يحفل الشعر بالإشادة بالأمهات المنجبات ، لأن الإعجاب بهن ، والفخار يهز القلوب الشاعرة ، ويرفد بالمحامد النفوس الفاخرة . فهذا أُنَيْف بن حكم - أو ابن زبّان - النبهانى يفخر بأن قومه يأبون الضيم ، لأن أمهم أكثرتهم وأنجبتهم .

أبَى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنو ناتِقٍ كانت كثيراً عيالها [٥]

ويفخر لبيد بجدته أم البنين على مسمع من النعمان بن المنذر بقوله :

نحن بنو أم البنين الأربعـــة ومن خيار عامر بن صعصعة

---

(١) مستقصى أمثال العرب للزمخشرى ٧٦ مخطوط والأغانى ١٩/١٦ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٤ ومجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦

(٢) جمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ ومجمع الأمثال ٢٧٦/٢ والأغانى ٢٢/١٦ والمعارف ٣٠ وديوان لبيد ٧ وأمالى المرتضى ١٣٧/١ ومستقصى الأمثال ٣٨ مخطوط

(٣) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجمهرة الأمثال ٢٤٢/٢

(٤) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجمهرة الأمثال ٢٤٢/٢ والأغانى ١٩/١٦

(٥) شرح الحماسة للمرزوقى ٧٧/١ الناتق : الكثيرة الأولاد

المطعمون الجفنة المُدَعْدَعَـــة والضاربون الهامَ تحت الخَيْضعَة [1]

وقد كرر لبيد الفخار بقوله :

أنبئت أن أبا حنيـــف لامنى فى اللائمينا
أبنىّ هل أحسست أعمـــامى بنى أم البنينـــا
وأبى الذى كان الأرا مل فى الشتاء له قطينا [2]

ولقد بلغ إعجاب قيس بن زهـــير العبسى بفاطمة بنت الخرشب أم بنى زياد أن لقبها بالجنية ، لأنها أنجبت أسوداً بسلا لا تنجب إنسية مثلهم :

لعمرك ما أضـــاع بنو زياد ذمار أبيهم فيمن يُضيع
بنو جنيّـــــةٍ ولدت سيوفا صوارم كلها ذكرٌ صَنِيع [3]

النسب إلى الأم

مظاهره

منذ زمن قديم عرف الساميون والعرب النسب إلى الأم ، ويتكشف هـــذا فى مظاهر عدة .

١ — كان للمرأة أحيانا أن تسمى أبناءها ، وتنسبهم إليها ، وكان لعشيرتها هذا الحق ، وقد استمر هذا إلى قبيل الإسلام ، يدل على ذلك أنه لما خطب عمرو بن حُجْر إلى عوف ابن مُحَلِّم الشيبانى ابنته أم إياس قال له : نعم أزوجكها على أن أسمى بنيها ، وأزوج بناتها ، فقال عمرو : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فننكحهن أكفاءهن من الملوك [4] ، وأستنتج من هذه القصة أن عوف بن محلم استمسك بهذه التسمية كبرياء منه

---

(١) الأغانى ١٦/٢٢ والمعارف ٣٠ وديوان لبيد ٧ وأمالى المرتضى ١/١٣٧ ومستقصى الأمثال للزمخشرى مخطوط ٣٨ . والبنون الأربعـــة خمسة فى الحقيقة هم : مالك بن جعفر ملاعب الأسنة ، وطفيل ابن مالك أبو عامر بن الطفيـــل فارس قرزل ، وربيعة بن مالك والد لبيد وهو ربيع المقترين ، وعبيدة ابن مالك الوضاح ، ومعاوية بن مالك معود الحكماء . وهم أشراف بنى عامر . وقد جعلهم أربعة لأن أباه كان قد مات والأربعة أحياء (خزانة الأدب للبغدادى وأمالى المرتضى ١/١٣٧) وليس بصحيح أنه جعلهم أربعة للقافية كما فى مجمع الأمثال للميدانى وجمهرة الأمثال لأبى هـــلال . المدعدعة : الملأى . الخيضعة : غبار الحرب .

(٢) ديوان لبيد ٤٥

(٣) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٤٦٩ وسمط اللآلى ١/١١٧ وفى ديوان حاتم الطائى ١٧ أنها لحاتم .

(٤) العقد الفريد ٣/١٩١

واعتزازا بنفسه ، أو جريا على عرف اجتماعى فى عشيرته ، وأن عمرو بن حجر رفضه ، لأن هذا النظام غير سائد فى قومه .

٢ — كان الولد أحياناً إذا ما كبر عاد إلى قبيلة أمه ، وانتسب إليها ، كما فعل زهير ابن أبى سلمى ، فقد كان بشامة بن الغدير خال أبيه ، فانقطع زهير إليه ، واختار هذا الحى من أخواله غطفان لخئولتهم ، ولما حضرت الوفاة بشامة جعل يقسم ماله فى أهل بيته وبين بنى إخوته ، فأتاه زهير فقال : ياخالاه لو قسمت لى من مالك ؟ فقال : والله يابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله ، قال زهير : وما هو ؟ قال : شعرى ورثتنيه . ثم أحذاه نصيبا من ماله [١] .

٣ — نسبت كثير من العشائر الآرامية إلى أمهاتها ، ففى النقوش الآرامية التى كشف عنها فى الحجر أسماء عشائر تنتسب إلى الأم لا إلى الأب [٢] . وقد سبق أن هذا النسب كان معروفا للإسرائيليين ، فهناك شواهد قديمة تذكر سلالات من بنى إسرائيل نسبت إلى الأم ، وظلت الأم الاسرائيلية قرونا تحتفظ بنسب بنيها إليها [٣] .

وما زال علماء الاجتماع يعترفون به فى بحوثهم ، فلما ارتقت حضارة الساميين ارتفعوا إلى نظام الأبوة ، لأن الحضارة تؤكد الجانب الأبوى . وكثير جداً من القبائل العربية عزت نسبها إلى أمهاتها ، فمثلا باهلة قبيلة من قيس عيلان ، سموا باسم أمهم باهلة بنت ضب بن سعد العشيرة [٤] ، وخِنْدِف نسبوا إلى أمهم امرأة إلياس بن مضر ، واسمها ليلى بنت حلوان من قضاعة [٥] . وبجيلة حى من اليمن وهم ولد امرأة اسمها بجيلة [٦] ، وبنو العدوية من تميم نسبوا إلى أمهم ، وبنو طُهيَّة من تميم أيضا نسبوا إلى أمهم [٧] ، ونسب بنو مرة بن صعصعة إلى أمهم فعرفوا ببنى سَلول [٨] ، ونسب الأوس والخزرج إلى أمهم قَيْلَة فسموا بنى قيلة [٩] ،

---

(١) الأغانى ٩/١٤٩ ساسى (٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦

(٣) Israel from its begning. Lods P. 192

(٤) منتخبات من أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ١٠

(٥) نسب عدنان وقحطان للمبرد ، والأغانى ١٢/١ الدار

(٦) منتخبات من أخبار اليمن ٥ (٧) المعارف ٢٦

(٨) المعارف ٢٩ وشرح الحماسة للتبريزى ١٩٣/٢ والشعر والشعراء ٢٤٨ ودائرة المعارف الإسلامية ٣٢٠/٣

(٩) المعارف ٣٦ والتنبيه والإشراف ١٧٤ ودائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣

ونسب بنو دُهْن بن وديعة من لكيز من ثقيف إلى أمهم وائلة [١] ، ونسب بعض بنى الحارث بن ذهل بن شيبان إلى أمهم الوِرْثة من بنى يشكر ، فقيل بنو الورْثة ، ونسب بعضهم إلى أمهم جذْرة ، وهى سبية من اليمن ، ونسب بعضهم إلى أمهم الشَّقِيقة [٢].

والذى يبدو لى أن نسب القبائل إلى أمهاتها كان شائعا فى القبائل ، وفى أماكن شتى ، سواء فى ذلك أهل الجنوب وأهل الشمال ، وسواء فى ذلك الحضر والبدو ، وسواء فى ذلك أكانت الأم حرة أم أمة .

٤ — ولا يقل نسب الأفراد إلى أمهاتهم كثرة عن نسب القبائل إلى أمهاتها ، وقد ألف محمد بن حبيب كتابا فيمن نسب إلى أمه من الشعراء ، ذكر فيه ٣٩ شاعراً عددت من بينهم ٣٦ شاعراً جاهليا [٣] .

وفى غيره من المراجع مئات من أشخاص انتسبوا أو نسبوا إلى أمهاتهم ، منهم عبد مناف جد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد نسب إلى أمه زُهرة دون أبيه [٤] ، وأوس بن مغراء شاعر نسب إلى أمه [٥] ، وشبيب بن البرصاء نسب إلى البرصاء أمه ، وهو القائل :

أنا ابن بَرْصَاءَ بها أجيبُ هل فى هجان اللون مايَعِيبُ [٦]

وخُفَاف بن نُدْبة منسوب إلى أمه وكانت سوداء سبية [٧] ، ونسب الأشهب بن ثور إلى أمه رُمَيْلة وهى سبية من سبايا العرب [٨] ، ونسب قيس بن منقذ بن عمرو بن عبيد إلى أمه الحُدَاديه [٩] ، ونسب ربيعة بن عبد ياليل الثقفى إلى أمه قِلابة ، وكانت تلقب بالذيبة ، فقيل ربيعة بن الذيبة [١٠]، وكان يكنى عن ثابت بن عمرو بن مالك من بنى النجار بأنه ابن خنساء [١١]، ويكنى عن سواد بن وهب بن بلى من قضاعة بأنه سواد بن غَزِيَّة [١٢] وغير هؤلاء كثير [١٣] .

---

(١) المعارف ٣١ (٢) المعارف ٣٣
(٣) من نسب إلى أمه من الشعراء لمحمد بن حبيب . مخطوط بدار الكتب
(٤) المعارف ٤٣ (٥) الأغانى ٢/٦٢ و٤/١٣١ ساسى
(٦) طبقات الشعراء ٢١٦ والأغانى ١١/٨٩ (٧) المعارف ١٤٢
(٨) الأغانى ٨/١٥٣ ساسى (٩) الأغانى ١٣/٢
(١٠) مجالس ثعلب ١٧٣ والمؤتلف والمختلف ١٢٠
(١١) الطبقات لابن سعد ٣/٧٠ (١٢) الطبقات لابن سعد ٣/٧٢
(١٣) المعارف ٢٥٧ — ٢٥٨

وما زال النسب إلى الأم حتى صدر الإسلام ، وحتى ما بعده ، فقد كنوا عن الحسين ابن على بأنه ابن بنت رسول الله تكريما له بأمه (١) ، وإسماعيل بن عُلَيَّة منسوب إلى أمه ، وأبوه إبراهيم بن عائشة منسوب إلى جدة له ، وكان أبوه أيضا يعرف بابن عائشة ، وابن القريّة منسوب إلى أمه ، واسمه أيوب بن زيد ، وابن الإطنابة منسوب إلى أمه ، وكذلك ابن ميّادة (٢) ، وكان ممن يهاجى الفرزدق الأشهب بن ثور ، وقد اشتهر بأنه ابن رُميلة وهى أمه (٣) .

آراء فى أصل النسب إلى الام

ذهب بعض العلماء إلى أن الأمومة كانت النظام الذى خضع له العرب القدماء .

١ — ففى رأى سمث أن العرب كانوا فى عصر قديم ينتسبون إلى آباء من الحيوان أو النبات يعبدونها ويقدسونها ، ويحملون أسماءها ، ويحرمون أكلها ، وكانوا يجرون فى زواجهم على ما تجرى عليه القبائل المتوحشة فى أستراليا وأمريكا وإفريقية من القبائل التوتمية (٤) . ومن نظم التوتمية أن يتبع الولد توتم أمه لا توتم أبيه ، ومن نظمها أيضاً أن زواج الرجل من امرأة تتفق معه فى توتمه محظور . ورأى أن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم وإلى قحطان ، وأن سلسلة أنسابهم كما تذكرها كتب الأنساب اختلاق وضع فى صدر الإسلام، متأثراً بنظام الاستحقاق للعطاء الذى وجد فى ديوان عمر بن الخطاب (٥) . ويقول إن حروبهم كانت دائمة ، وإنهم لم يعرفوا الملكية ، بل كانت أموالهم ونساؤهم مشاعة بينهم ،

---

(١) بلوغ الأرب ٣/١٩٦ (٢) المعارف ٢٥٨ والإصابة ٨/١٤٤

(٣) طبقات الشعراء ١٩٣

(٤) التوتمية هى أن يرتبط أفراد الأسرة أو العشيرة برابطة قرابة متحدة الدرجة ، ليست قائمة على صلات الدم . وإنما هى قائمة على انتماء الأفراد لتوتم واحد Totem . وهو نوع من الحيوان أو النبات تتخذه العشيرة رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس . فانتماء مجموعة من الأفراد لتوتم واحد يجعلهم أفراد أسرة واحدة، ويربطهم بقرابة متحدة فى درجتها وقوتها أيا كانت صلة بعضهم ببعض من ناحية القرابة الطبيعية ووشيجة الدم . فليست درجة القرابة التى تربط الولد بأبويه لتزيد على درجة القرابة التى تربطه بأى فرد آخر من العشيرة . بل لقد كان يعتبر أجنبياً عن أبويه أو عن أحدهما إذا قضت النظم المتبعة بانتمائه إلى عشيرة أخرى غير عشيرتهما أو عشيرة أحدهما (الأسرة والمجتمع على عبد الواحد ٨)

(٥) Kinship & Marriage in early Arabia. P. 6

وإذا أسرت المرأة لم يستأثر بها رجل واحد ، فهم يشبهون جماعة بدائية تدين بالشيوعية (١). واستدل على أمومة العرب باستعمالهم كلمة البطن والفخذ للدلالة على القرابة ، وظن أن كلمة بطن كان لها مدلول آخر غير ما تعارفت عليه الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال كلمة رحم (٢) ، وقال إن البطن والحى هما أول المجتمعات عند الساميين ، والحى فى نظره وحدة اجتماعية سياسية متميزة (٣) ، وفى رأيه أن كلمة حى ذات صلة بالحياة ، فالحى رابطة قرابة وصلة رحم (٤) .

٢ — وذهب ماك لينان Mac Lannan إلى أنه فى بعض الشعوب المتوحشة وبعض الأمم المتمدنة قديما وحديثا كان الخاطب أو رفاقه يتظاهرون على اغتصاب فتاة له من غير قبيلته ، واستنتج أن هذه العادة بقية من عادة قديمة مدارها أن يتزوج رجال القبيلة بنساء قبيلة أخرى ، وأخذ يبحث فى أصل هذه العادة ، فخيل إليه أن سببها شيوع الوأد عند بعض القبائل ، حتى لقد أدى إلى زيادة عدد الرجال على النساء ، فاضطروا إلى مباشرة امرأة واحدة. وفى رأيه أن هذا أصل تعدد الأزواج، وظهور نظام الأمومة ، لأن الأصل فى الأمومة أن أم الولد معلومة وأباه مجهول ، ثم استنتج أن قلة عدد النساء فى بعض القبائل اضطر رجالها إلى اغتصابهن من قبائل أخرى ، ولهذا كانت تعدد الأزواج شائعا فى القبائل ذات النكاح الخارجى ، وكانت هذه القبائل لا تعترف إلا بقرابة الأم (٥) .

٣ — وإلى ذلك ذهب ولكن Wilken ، فإنه بعد أن استعرض أنواع النكاح عند العرب فى الجاهلية قال إنه لم يكن سبيل إلى معرفة الأب ، بل لم تكن حاجة إلى هذه المعرفة، لأن الاتصال الجنسى فى الأعصر الخالية — حين كان الزواج الشرعى مجهولا — من شأنه أن يتبع الولد أمه فى كل شىء ، ولم يكن هذا ليمنع الرجل من الحنو على الطفل الذى شارك فى وجوده (٦) ، وله على ذلك أدلة ، منها أن هذا النظام ما زال معروفا عند بعض القبائل إلى اليوم ، وأن العرب استعملوا كلمة بطن بمعنى القبيلة ، وأن بعضهم نسبوا إلى أمهاتهم ، وأن أبناء الأخت كانوا يرثون خالهم (٧) .

---

(١) Ebid. P. 150 (٢) Ebid. P. 37 (٣) Ebid. P. 41
(٤) Ebid. P. 47 (٥) Primitive Marriage. P. 124
(٦) الأمومة عند العرب . ولكن . ترجمة بندلى الجوزى ٣٢
(٧) الأمومة عند العرب ٣٥ — ٤٣

٤ — ويعلل شارل لوتورنو للأمومة بأن الناس كانوا فى العهد الوحشى عاجزين عن إدراك العلاقة بين الزواج والولادة ، فقام نظام الأسرة على الأمومة ، ذلك أنه من الطبيعى أن الرجال الذين لا يدركون العلاقة بين المباشرة والإنسال لجهلهم السبب فى الحمل أولشيوع النساء بينهم واختلاط أنسابهم لا يهتمون بعزو أولادهم إليهم (١) .

مناقشة هذه الآراء

١ — أغلب الظن أن أصحاب هذه النظريات متأثرون فى رأيهم عن العرب بما ذكره سترابون فى معجمه الجغرافى من زواج المشاركة فى اليمن (٢) ، وبما ذكره الكاتب اللاتينى Ammianus Marcellinus من أن عرب الجاهلية لم يعرفوا زواجا مستمراً ترتبط فيه المرأة برجل معين لأجل غير مسمى ، لأنهم كانوا يجرون على نظام النكاح المؤقت ، فهم يقضون حياتهم فى تجوال وتنقل، ونساؤهم يجامعن من يردن من الرجال . وقد ظل النكاح المؤقت شائعاً بينهم إلى مشرق الإسلام ، وأباحه النبى (عليه الصلاة والسلام) لأصحابه ، (فترة من الزمن) ويعرف هذا النكاح بنكاح المتعة (٣) .

ولكن ما ذكره سترابون من اشتراك الإخوة فى زوجة واحدة باليمن نوع من الأقاصيص ، لأنه لم يطأ أرض اليمن ولم يخالط أهلها ، وإنما كان مصاحبا لحملة جالوس التى تحدثت عنها من قبل ، فلعله سمع من بعض الناس هذه الرواية فصدقها وعمّمها ، أو لعلها كانت حادثة فردية شاذة ضخمها خيال الرواة لغرابتها ، وكتب السياح حافلة بالأساطير ، وما زال كثير منهم يعزون إلى بلاد الشرق التى يزورونها ولا يقيمون بها إلا قليلا أموراً لا تمت إلى الحقيقة بسبب . وفى التاريخ أمثلة كثيرة لهذا الخلط والاختلاق مثل « زعم بولوجيوس — أحد كهنة قرطبة العلماء المخالطين المسلمين — أن النبى أنبأ أصحابه بأن الملائكة ستحمله إلى المساء بعد موته بثلاثة أيام » (٤) . على أن سترابون نفسه صدر روايته بقوله (ondit) أى يقال (٥) . ويقول : للإخوة جميعا امرأة واحدة ، والزناة — وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم — يعاقبون بالقتل » . وإذاً فالقصة تشير إلى اشتراك

---

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع ٦
(٢) Strabo Xvl. 7
(٣) الأمومة عند العرب ٢٠
(٤) أنساب العرب القدماء . زيدان ٢٠
(٥) أنساب العرب القدماء ٢٠

الإخوة فى الزواج بامرأة واحـــدة ، ولا تذكر أن العشيرة كلها تشترك فى امرأة ، فنظام الأسرة قائم ، وهذا يناقض ما ذكره سمث وغيره فى نظام الأمومة من تحريم الزواج من العشيرة التوتمية . ثم قصة سترابون تصرح بأن الزواج الخارجى محرم ، حتى ليعد زنا يعاقب فاعله بالقتل ، والزواج الخارجى أساس الأمومة فى رأى القائلين بها .

ويستدل الأستاذ محمود جمعه على بطلان قصة سترابون بأن النقوش المعينية منذ الألف قبل الميلاد تبين أن عرب الجنوب كانوا يشعرون بشعور دينى قوى فى مراعاة قوانين الخلاط الجنسى ، ويعدون أى انحراف عن مراعاة هذه القواعد أمراً إدًّا ينفرون منه نفورا شديدا ، وإذا ما زل أحدهم فارتكب فاحشة سارع إلى التوبة ، لذلك لا يمكن افتراض أن الإباحية الجنسية كانت عامة (١) .

وإذاً فدعوى سترابون أن زواج المشاركة كان ذائعا فى اليمن مردودة لا تؤيدها الحقائق التاريخية ، وعلمه بأحـــوال بلاد العرب ناقص ، لأنه تلقفه من قصص التجار والمغامرين المتزيدين .

٢ — أما أدلة سميث على توتمية العرب فقد نقضها كثير من علماء الاجتماع (٢) . وأهم أدلته :

١ — أن كثيراً من القبائل كانت تتسمى بأسماء الحيوان كأسد وفهد وكلب الخ . . لأن هذه الحيوانات هى توتم القبائل التى تسمت بها .

وهذا مردود ، لأن عدد العشائر التى تسمت بأسماء الحيوان لا يعدو الأربعين ، وأسماء القبائل بضع مئات . ثم إن هذه الأسماء التى أطلقت على القبائل وعلى الأفراد أوحت بها ظروف وملابسات خاصة ، عرض لها الجاحظ بقوله : « والعرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجُعَل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ولد ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنسانا يقول حجراً أو رأى حجراً سمى ابنه به ، وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم مالقى . وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب . وإن كان حمارا تأول فيه

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٢٨

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٩٩ — ١٤٢

طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ،وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت وغير ذلك [١] » .

ولقد يختارون الأسماء المرهبة المرعبة لتوحى إلى المسمى بالقوة والشدة ، ولترهب الأعداء ، فقد سئل أبو العرفيش الأعرابى : لم تسمعون أبناءكم بشر الأسماء نحو ذئب وكلب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمى أبناءها لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا [٢] .

(ب) وأن العرب عبدوا الحيوان . وهذا مردود أيضا بأننا لا نعرف أن العرب عبدوه كما عبده المصريون القدماء .

وليس فى أصنام العرب ما كان على صورة حيوان ، إلا ما جاء من بعض الآراء فى يغوث ويعوق ونسر ، فقد ذكر الزمخشرى والنيسابورى أن يغوث كان على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر [٣] .

على أن الطبرى لم يذكر هذا ، وإنما روى أنها كانت على صورة أناسىّ ، وقد عبدها قوم نوح ثم عبدها العرب ، وتابعه الزمخشرى فذكر ذلك أيضاً [٤] . وليس فى كتاب الأصنام ما يشير إلى شبهها بالحيوان [٥] ، فنحن الآن أمام رأيين : فإذا اعتمدنا أن هذه الأصنام الثلاثة كانت على صورة حيوانات،فعلينا أن نتذكر أنها قلة قليلة بالنسبة لما نعرف من عدد أصنام العرب [٦] ، وإذا أخذنا بأنها كانت على صورة البشر بطلت الدعوى . وسواء أكانت على هذه الصورة أم تلك فإنها لم تكن من مبتدعات العرب ، وإنما هى بقايا من عهد نوح .

وهناك عشرات من أصنام العرب لم تكن على شكل حيوان ، وبعضها كان على هيئة إنسان [٧] .

وشتان بين عبادة الحيوان فى التوتمية وعبادة صنم على هيئته ، لأن أصحاب

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٣٢٤ بتحقيق هارون

(٢) حياة الحيوان للدميرى ٢/٢٤٢ وتاريخ الخميس ١/١٧٣ ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى ٢١ (٣) الكشاف للزمخشرى ٢/٤٩٢ وتفسير النيسابورى ٢٩/٥٢

(٤) تفسير الطبرى ٢٩/٦٢ والزمخشرى ٢/٢٩٢

(٥) الأصنام لابن الكلبى ١٠ و ١١ و ٥٧ و ٥٨

(٦) فى كتاب الأصنام لابن الكلبى ثلاثون صنما. وفى ملحق الكتاب سبعة وأربعون .

(٧) الأصنام ٩ و ٢٨ و ٥٦ و ٥٩ وتفسير الطبرى ٢٩/٦٢ والنيسابورى ٢٩/٥٣ والزمخشرى ٢/٤٩٢

التوتم يعبدون حيوانات لا أصناما شبيهة بها ، ويمارسون ضروبا من السحر والرقى لحفظ التوتم حيا .

ولا يصح أن نغفل عن تقرير القرآن الكريم أن العرب كانوا لا يعبدون الأصنام لذاتها ، بل لتقريبهم إلى الله زلفى « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

(ح) وأما دليله على توتمية العرب بأنهم حرموا لحم بعض الحيوان ، فهو مردود بأن العرب لم يحرموا حيوانا . ولو أن العرب دانوا بالتوتمية لحرموا لحمان الثور والبكر والظبي والعنز والفهد وغيرها من الحيوانات التى سموا بها .

(ء) على أن التوتمية تقضى أن ينسب الولد إلى توتم أمه لا توتم أبيه ، ولو دان العرب بالتوتمية لكان النسب إلى الأم هو الغالب السائد ، ولكن الذى حدث أن النسب إلى الأب كان السائد الغالب .

(ه) ثم إن من أسس التوتمية ألا يتزوج الرجل امرأة تتفق معه فى توتمه كما يقول سميث وغيره . وسنجد فى فصل (الزوجة) أن العرب كانوا يتزوجون بأقاربهم وبنات أعمامهم ، كما كانوا يغتربون ، لا لأنهم يدينون بالتوتمية ، بل لأنهم يستجيدون النسل ، ويحققون منافع أخرى ستجىء .

وإذاً فقد بطلت نظرية سميث فى توتمية العرب ، فبطلت النتائج التى بناها عليها ، وأهمها نظرية الأمومة .

٣ — أما التعبير عن القرابة بالبطن فليس دليلا على الأمومة ، وقد أسلفت أن التعبير بالرحم والبطن دليل على عظم أثر الأم فى القرابة . على أنهم عبروا أيضاً بالفخذ والشعب والعمارة ، وليس فى واحد من هذه أثارة من الدلالة على الأمومة .

٤ — ثم إن الأنساب لم تختلق فى عهد عمر ، ولم يختلط بعضها ببعض ، لأن العرب منذ العصر الجاهلى كانوا حراصاً على حفظ أنسابهم ، وكانوا يتشددون فيها ، ويردون من يدعى نسباً ليس له . ولا شك أن النظام القبلى كان يحتم عليهم الحفاظ على أنسابهم ، لأن القبيلة وحدة متماسكة ، يتداعى أفرادها للنصرة ، ورد الغارة ، ويتضامنون فى تحمل المغارم والديات ، ويتعاونون على تحقيق كثير من المنافع ، وهذا كفيل بحرصهم على معرفة أنسابهم ، وتحريهم الصدق فيها ، وإبعادهم كل دخيل ليس منهم « فيؤمن عليهم اختلاط أنسابهم

وفسادها ، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة . واعتبر ذلك فى مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولاضرع ، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ،كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ، ولا عرف فيهم شوب (١) » .

وكيف نصدق أن تلفق الأنساب فى عهد عمر ، وهو نفسه كان يحض العرب على حفظ أنسابهم بقوله : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا (٢) » .

وكان من العرب نسابون ثقات أطبق الناس على أمانتهم وسعة معارفهم (٣) .

وكثيراً ما تباهى الشعراء بأنسابهم ، واعتزوا بها وحرصوا عليها . من ذلك قول بشامة ابن جزء النهشلى :

إنا بنى نهشـــل لا ندّعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يَشْرينا (٤)

فلم يكن عجباً أن رفضت بجيلة أن يولّى عليها عرْفجةُ بن هَرْثَمة ، وسألوا عمر أن يعفيهم منه ، وقالوا : هو فينا لزيق ، وطلبوا أن يولّى عليهم جريرا . فسأل عمر عرفجة عن ذلك ، فقال له : صدقوا يا أمير المؤمنين ، أنا رجل من الأزد أصبت دماً فى قومى ولحقت بهم » فهم على علم بوشائج كل شخص ، يردون نسبه صراحة إن أدعى لغير قومه ، ولا يرضون بدخيل رئيسا عليهم .

٥ — وإن صدقنا أن النسب مختلق فى عهد عمر لنيل العطاء ، فكيف نصدق أن القبائل التى نحى نسبها عن قريش فقل عطاؤها رضيت بذلك ؟ وكيف تقر نسبها الموضوع ، وهو لا يرضيها ، ويظل ذلك إلى العصور اللاحقة وإلى الآن فى كتب التاريخ ؟ ثم كيف

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٩ (٢) مقدمة ابن خلدون ١٠٩

(٣) مثل جبيرين بن مطعم وأبى بكر وسعيد بن المسيب وعمر بن الخطاب والخطاب ونفيل ودغفل وعمير وصبح وابن الكيس والأزهر بن عبد الحارث وابن عطاء الليثى وابن كربز والأبرش والخطفى وغيرهم (البيان والتبيين ١/١٤٤ و٢٥٣ و٢٥٨ و٢٦٩ و٢٧١ و٢٧٣ و٢٧٨ و٢٧٩ و٢٨٢ و٢٨٣) والأنساب للسمعانى ٨

(٤) شرح الحماسة للمرزوقى ١/١٠٢ وعيون الأخبار ١/١٩٠ وفى شرح التبريزى ١/٥٠ وخزانة الأدب ٣/٥١٥ أن القائل بشامة ابن حزن النهشلى . وفى الشعر والشعراء ٢٤٢ أنه نهشل ابن حرى .

غفل الشعوبية عن هذا النسب المختلق المنحول أو المنتحل ؟ ولا سيما الفرس فى وقت كانت المفاخرة فيه على أشدها وأعنفها ، وكان العرب يفاخرون الفرس بأنسابهم ، ولم يأل الفرس جهداً فى النيل من العرب ، حتى لقد نسبوهم إلى الوحشية وقالوا : « إنهم كالذئاب العادية والوحوش الضارية ، يأكل بعضهم بعضاً ، ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثوقون فى حلق الأسر ، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فاذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشى وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيع [١] » . ولو استطاع شعوبى أن ينكر على العرب أو على بعضهم نسبهم لفعل ، مع أنهم أنكروا على العرب دعواهم أن الهند والبربر والديلم وبرجان أصلهم من العرب . قال بجير يعير العرب ذلك :

زعمتم بأن الهند أولاد خِنْدِفٍ ... وبينكم قُرْبَى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبُرْجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم ... وأولى بقربانا ملوك الأكاسر [٢]

نعم كان الفرس أحق الناس بطعن هذه الأنساب التى نحلها العرب أنفسهم ، لأنهم على صلة بهم من قديم ، بالجوار والحرب والسلم والحكم ، ولأنهم اتصلوا بهم بعد الإسلام اتصالا أقوى وأعمق ، وكان يمهد لهم هذا الطعن أن كثيراً من المؤرخين والنسابين فى الإسلام من أصل فارسى ، فلماذا سكتوا ؟ ولماذا روّجوا لأنساب مدخولة يستطيعون أن ينالوا من العرب بنقضها وتزييفها ؟

٦ — على أن الساميين فى عصورهم التاريخية اعتبروا النسب إلى الآباء هو النظام الاجتماعى المألوف . حتى لقد حسبوا أن كل شعب قد نحله أب واحد فهو ينتسب إليه . فالأشوريون نسل بهم أب واحد اسمه أشور ، والكنعانيون نحلهم رجل واحد هو كنعان ، والمؤابيون أبناء أب واحد اسمه مؤاب ، والإسرائيليون أولاد إسرائيل وهكذا . ومعنى هذا أن القبيلة تنتسب إلى أولاد الرجل الذى انحدر منه الشعب ، وأن العشيرة تعتزى إلى أحفاده وهكذا [٣] .

وقد دونت شريعة حمورابى نحو القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، وجاء فيها عن

---

(١) العقد الفريد ٢/٧٠ (٢) العقد الفريد ٢/٧١
(٣) Israel from its Begining. Adolphe Lods P. 199.

نظام الزواج والطلاق ما يدل على أن الرجل رب الأسرة ، ولم يرد فيها ما يشير إلى نظام الأمومة . فالانتساب إلى الأب هو النظام السائد بين الأمم السامية منذ العصور التاريخية ، لأن الأب رب الأسرة ، وبيده تصريف أمورها الدينية والمدنية ، وهو الذى يقرب القرابين لإله العشيرة ، ويهيمن على بنيه وأهله ، فكان له أن يبيع أبناءه وبناته بيع العبيد (١) ، وكان له أن يقتلهم أو يحرقهم إذا شاء (٢) ، إلى أن حرمت التوراة عليه ذلك (٣). ثم شدد القرآن الكريم النكير على الوائدين كما سيجيء . لذلك دل الساميون على الرجل بكلمة بعل ومعناها الزوج والسيد .

٧ — ثم إننا نجد أحياناً نسباً مزدوجاً فى العرب ، إلى الأب والأم معا ، فبعض القبائل نسبت إلى أبيها وأمها ، كالأوس ، نسبوا إلى أمهم قيلة وإلى أبيهم حارثة (٤) ، وبنو خندف انتسبوا إلى أبيهم إلياس ابن مضر كما انتسبوا إلى أمهم خندف ، وفى ذلك يقول قصى بن كلاب من مرة :

إنى أرى الحرب لحَيِّ وأبى عند تناديهم بهابِ وهَبى
معترم الصولة عالى النسب أمهتى خندف والياس أبى (٥)

وبنو طُهَيَّة نسبوا إلى أمهم وإلى أبيهم سود بن مالك بن حنظلة (٦) ، وأولاد مرّ بن أدّ نسبوا إلى أمهم ظاعنة وإلى أبيهم (٧) .

كذلك كان بعض الأفراد يعرفون بأبيهم وأمهم معا ، كالحارث بن ثعلبة بن جفنة ، أمه مارية ذات القرطين ، من جفنة ، أو مارية بنت ظالم من كندة ، وقد نسب جماعة من ملوك غسان إليها (٨) ، وعنترة بن الأخرس من طيء نسب أيضاً إلى أمه عكبرة (٩) .

٨ — وإنا لنجد إصراراً من بعض العرب على نسبهم إلى آبائهم لا إلى أمهاتهم ، من هؤلاء المتلمس (جرير بن يزيد أو ابن عبد المسيح من ضبيعة بن نزار) فقد ولد فى أخواله بنى يشكر ، ونشأ بينهم حتى كادوا يغلبون على نسبه ، فسأل عمر بن هند يوما الحارث

---

(١) سفر الملوك الثانى الأصحاح الرابع الآية الأولى . وسفر الخروج الأصحاح ٢١ الآية ٧
(٢) سفر التكوين الأصحاح ٣٨ الآية ٢٤ (٣) سفر التثنية الإصحاح ٢١ الآية ١٨
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٥٠
(٥) مروج الذهب ١/٢٧٥ هاب ، هى : زجر للخيل أى أقدمى وأقبلى
(٦) المعارف ٢٦ (٧) المعارف ٢٥
(٨) مروج الذهب ١/٢٠٧ (٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١/٢٢٠

اليشكرى عن نسب المتلمس فقال : أواناً يزعم أنه من بنى يشكر ، وأوانا يزعم أنه من بنى ضبيعة . فقال عمرو : ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين ، فغضب المتلمس ، وهجا عمرا ، وهدد الحارث [١] ، لأنه كان حريصاً على نسبه لأبيه ، يدل على ذلك قول أبى الفرج إن الحارث اليشكرى أراد أن يدّعى المتلمس ، فقال المتلمس :

ومن كان ذا عرْض كريم ولم يصُنْ ... له حَسَباً كان اللئيم المذمَّما
أحارثُ إنا لو تُساطُ دماؤنا ... تَزايلْنَ حتى لا يمسَّ دم دمًا
أمُنْتَفِيًا من نَصْر بُهْثةَ خِلْتنى ... ألا إننى منهم وإن كنت أينما
وإن نصابى أن سألتَ وأسرتى ... من الناس قوم يقتنون المزنَّما
فلو غيرُ أخوالى أرادوا نقيصتى ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وقد كنتَ ترجو أن أكون لعقْبكم ... زَنيماً فما أحرزتُ أن أتكلما [٢]

ولما خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس قال له : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فتنكحهن أكفاءهن من الملوك [٣] .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يؤثر أن ينسب إلى جده الأعلى النضر لا إلى جدته ، من ذلك أنه لما قدم عليه الأشعث بن قيس فى وفد كندة قال الأشعث : يارسول الله ، نحن بنو آكل المُرَار ، وأنت ابن آكل المرار . فتبسم رسول الله . وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث — وكانا تاجرين إذا شاعا فى بعض العرب فسئلا ممن هما قالا نحن بنو آكل المرار ، يتعززان بذلك ، لأن كندة كانوا ملوكا — ثم قال لهم : لا ، بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ، ولا ننتفى من أبينا [٤] .

وجاء الإسلام فحرم النسب المختلق المتعمَّد ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من ادعى إلى غير أبيه متعمداً حرم الله عليه الجنة [٥] » وأمر القرآن الكريم بنسب المتبنّين إلى آبائهم (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ،

---

(١) ديوان المتلمس ١ مخطوط والأغانى ٢١/١٢٥ — ١٣٥ وشعراء النصرانية ٣٣٩
(٢) الأغانى ٢١/١٢١ والأصمعيات من مجموعة وليم البروسى ١/٦٤ بهثة : ابن وهب بن جلى ابن أحمس بن ضبيعة . تساط : تخلط .
(٣) العقد الفريد ٣/٢١٠
(٤) سيرة ابن هشام ٤/٢٥٤
(٥) تفسير الطبرى ٢١/٧٥

وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم [١] » ، فنسبة الشخص الذى يُعلَمُ أبوه إلى غير أبيه حرام فى الإسلام [٢] .

٩ — ولقد اعتمد ولكن على تشابه أسماء البطون فى دعواه أن الأنساب مختلقة ، لأن التشابه فى نظره وليد الانتحال والاختلاق ، ودليل على تشعب الآراء وتصرف الأهواء .

ولكن دفع هذا ميسور ، فقد تشترك قبيلتان أو أكثر فى لقب واحد كالأراقم ، فهو لقب لجشم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية بنى بكر بن حبيب بن عمرو من تغلب [٣] ، ولعل سبب تلقيبهم بالأراقم أن عيونهم تشبه عيون الحيات الرّقم ، يدل على ذلك قول المبرد إن الأراقم قبيلة من بنى تغلب ، لقبوا بذلك لأن عيونهم شبهت بعيون الحيات الأراقم ، فعرفوا بهذا الاسم [٤] ، وكذلك بنو أبان بطون شتى من قبائل شتى ، بعضها من العدنانية وبعضها من القحطانية [٥] ، وبنو أنمار حى من عدنان وحى من كهلان [٦] ، وبنو عبد مناف علم على ثلاث بطون من العدنانية [٧] ، وبنو أسد بطن من أزد كهلان من القحطانية ، وبطن من قضاعة من حمير ، وبنو الأوس بطن من قحطان ، وبطن من عدنان ، وكذلك بنو تغلب وبنو بكر [٨] .

وقد تتفرع من القبائل بطون تشترك فى اسم واحد لفظاً ونطقاً ، فمن هوازن هلال ابن عامر بن صعصعة ، ومن ضبة هلال بن عامر بن ربيعة ، ومن ربيعة بن نزار هلال ابن ربيعة بن زيد ، ومن الأزد هلال بن عمرو بن كعب ، ومن النخّع هلال بن عمرو بن جشم ، ومن قضاعة هلال بن جشم بن القين ، وكل هؤلاء بطون [٩] ، فالاقتصار على هلال وحده وأحياناً عليه وعلى ما بعده يدعو إلى اللبس . لذلك ألف ابن حبيب كتاباً عرض فيه نواحى من هذا التشابه والاشتباه .

١٠ — وسنرى فى الزواج أن العرب كانوا يجرون على أنواع ، أقر الإسلام واحداً منها ، وأبطل ثلاثة هى نكاح الاستبضاع ، ونكاح الرهط ، ونكاح البغايا ، وحتى فى هذه

---

(١) سورة الأحزاب ٤
(٢) تفسير الطبرى ٢١/٧٦
(٣) المعارف ٣٢
(٤) الكامل للمبرد ١٢٧
(٥) نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى ٣٠
(٦) المرجع السابق ٢٦
(٧) المرجع السابق ٢٨٠
(٨) المرجع السابق
(٩) مختلف القبائل ومؤتلفها ١٨ لابن حبيب

الأنواع كان ينسب الولد إلى أبيه ، لأن الأب فى نكاح الاستبضاع كان يطمع فى نجابة الولد وينسبه إليه ، وفى نكاح الرهط كانت المرأة ترسل إلى من باشروها وتعين واحداً منهم فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ، وفى نكاح البغايا كان القافة يلحقون المولود بالذى يرون فيدعى ابنه ، ولا يرفضه (١) .

فإذا كان الولد ينسب إلى أبيه فى هذه الأنواع التى لم يقرها الإسلام فأحرى به أن ينسب إلى أبيه فى النوع الذى أقره ، وهو الذى كان ذائعاً شائعاً ، ولو أن العرب كانوا يدينون بالأمومة لكان نكاح الرهط ونكاح البغايا أفسح مجال لها ، لأن الأب فيهما مجهول ، أو على الأقل مشكوك فيه .

ومن أمثلة ذلك أن جارية بن سليط بن الحارث اتصل ببغيٍّ فى سوق عكاظ ، فقالت له : لعلى سأعلق لك ولداً ، فموعدك فصال ولدى إن حملته ، فعرّف الجارية اسمه ، ثم وافى عكاظ بعد ثلاثة أعوام ، فوجدها قد ولدت غلاما وفطمته ، وأقبلت معها أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ ، ثم دفعن إليه الغلام ، فسماه عوفا (٢) . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها اشتراك أبى لهب وأمية بن خلف وهشام بن المغيرة وأبى سفيان بن حرب والعاص بن وائل فى مباشرة النابغة أم عمرو بن العاص ، وحكمها هى بأنه للعاص (٣) .

١١ — وسنرى فى فصل (البنت) أن الوأد لم يكن عاما ، وفى (فصل الزوجة) أن العرب لم يجروا على المشاركة فى النساء ، وبهذين يبطل ما ذهب إليه مالك لينان ولكن من أن عموم الوأد اضطر العرب إلى المشاركة فى النساء ، وكانت هذه المشاركة هى السبب فى نظام الأمومة عندهم ، لأن الأم معلومة والأب مجهول .

رأيى فى أصل النسب إلى الام

لم أرتض أن يكون الباعث على النسب إلى الأم عند العرب هو نظام الأمومة ، ولكنهم قد نسبوا أحيانا إلى الأمهات ، فلماذا نسبوا إليهن ؟

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشرى ١٤٩ مخطوط وفضل العرب على العجم ٣٩ مخطوط وأمثال العرب للضبى ١٨ وفتح البارى ١٥٨/٩ والاعتصام للشاطبى ١٨٤/٢ وإنسان العيون ٤٧/١ والملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل ٢٣٣/٣

(٢) أمثال العرب للضبى ١٨

(٣) ربيع الأبرار ورقة ١٤٩ مخطوط

أرى أن مردّ هذا النسب إلى أمور شتى منها :

١ — تكريم الأم المنجبة ، وتمجيدها ، والإعلاء من قدرها ، كما نسب إلى أمه عمرو ابن هند مُضَرِّط الحجارة ، وكما نسب المناذرة إلى أمهم ماء السماء ، وهى ماويّة بنت عوف ابن جُشَم ، وكما انتسب الحارث الأعرج إلى أمه مارية ، وانتسب إليها الغساسنة . يقول حسان بن ثابت فى مدح جبلة بن الأيهم :

لله در عصابة نادمتهم ... يوما بجلّق فى الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المُفْضل (١)

ويقول النابغة الذبيانى — أو حسان بن ثابت — فى مدح عمرو بن الحارث الأعرج وتفضيله على المنذر :

فَذاكَ أحسنُ من وجهه ... وأمك خيرٌ من المنذر (٢)

وقد انتسب إلى أمه ملك الحيرة عمرو بن المنذر الأكبر ، وعرف بأنه عمرو بن هند ، وهى بنت عمة امرئ القيس الشاعر ، يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

بأى مشيئة عَمْرَو بن هند ... تُطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
بأى مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقَيلكمْ فيها قطينا (٣)

ويقول طرفة فى تحريضه له على الثأر من مُرَاد الذين قتلوا أخا عمرو بن هند :

أعمرو بن هند ما ترى رأى معشر ... أماتوا أبا حسان جاراً مجاوراً
فإن مُراداً قد أصابوا حَرِيمَهُ ... جهاراً وأضحى جمعهم لك واترا (٤)

وفى مدح الحارث بن حِلِّزة اليشكرى للملك قيس بن شَرَاحِيل بن همام الشيبانى كناية عنه بابن مارية (بنت سيار بن ذهل بن شيبان) :

وإلى ابن مارية الجواد وهل ... شروى أبى حسان فى الإنس (٥)

ويمدح قيس بن زهير العبسى بنى زياد ، فيكنى عنهم بأنهم أبناء جنية فى فضلهم وسؤددهم ودهائهم :

---

(١) الأغانى ٣/١٤ وهى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندى أخت هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الهندى (المعارف ٢٦٣ وربيع الأبرار ٢٠٦ مخطوط والفاخر للكوفى ٨٧ ومستقصى أمثال العرب للزمخشرى ١٠٠ وخزانة الادب للبغدادى ٢/٢٣٨)

(٢) الاغانى ٤/١٤ (٣) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٣٦

(٤) معجم البلدان ١١٩/٧ (٥) المفضليات ١٣١/١ شروى : مثل

لعمرك ما أضاع بنو زياد ذمار أبيهم فيمن يضيع
بنو جنية ولدت سيوفا صوارمَ كلها ذكرٌ صنيع (١)

وقد نسب بعض المحدثين النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمه :

صلى الإله على ابن آمنة التى جاءت به سبط البنان كريماً (٢)

٢ — الفخار بها ، لعراقتها ، أو لادِّعاء عراقتها ، كقول سلمة بن دُريد بن الصمَّة وقد رمى أبا عامر الأشعرى فقتله ، حين بعثه رسول الله فى آثار من توجه إلى أوطاس :

إن تسألوا عنى فإنى سَلَمَهْ ابنُ سَمَادير لمن تَوَسَّمه
أضرب بالسيف رءوس المُسْلِمَة (٣)

وكقول وَزَر بن جابر النبهانى وقد رمى عنترة بن شداد : خذها وأنا ابن سَلْمَى ، فتحامل عنترة بالرمية حتى أتى أهله ، فقال وهو جريح :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمى وهيهات لا يُرْجَى ابن سَلْمَى ولا دمى (٤)

وكثيراً ما كان يقول الضارب خذها وأنا ابن فلان أو فلانة .

وكان حسان بن ثابت ينسب إلى أمه الفُرَيْعة ، وقد ناداه عمرو بن الحارث الأعرج معجباً بشعره ، بقوله يابن الفريعه أربع مرات فى مجلس واحد (٥) ، وكان حسان يلقب نفسه بذاك ، كقوله :

أمسى الخَلا بيسُ قد عَزُّوا وقد كثروا وابن الفريعة أضحى بيضةَ البلد (٦)

وفى فخر الحارث بن حلزة قوله :

وولدنا عمرو بن أم أُناسٍ من قريب لما أتانا الحُباء (٧)

وفى فخار الحُصين بن الحُمَام المرى بنفسه قوله :

أَبَى لابن سلمى أنه غير خالد مُلاقِى المنايا أىَّ صَرْفٍ تيمما (٨)

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٤٧٠
(٢) تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه للفيروزاباذى ١٠٠ من نوادر المخطوطات
(٣) سيرة ابن هشام ٤/٨٧ سمادير : أمه
(٤) الأغانى ٧/١٤٥ (٥) الأغانى ٣٤ — ٤ ساسى
(٦) الإصابة ٨/١٦٦ والأغانى ٤/١١ ساسى . الخلابيس : اللئام الأنذال
(٧) شرح القصائد العشر ٢٨٧ يريد عمرو بن حجر الكندى جد الملك عمرو بن هند . وأم أناس هى أم الأول وهى من ذهل بن شيبان ه أى أن النسب بيننا وبين الملك قريب
(٨) المفضليات ١/٦٧ سلمى : أمه أو جدته . أى صرف تيمم : أى جهة قصد أى أبى أن يحتمل الذل والعار لأنه لا بد أن يموت

ويقول الأحنف بن قيس :

أنا ابن الزافرية أرضعتنى بثدي لا أجدّ ولا وخيم
أتممتنى فلم تنقص عظامى ولا صوتى إذا اصطكّ الخصوم (١)

ويقول إياس بن قبيصة الطائى إنه لا يستحق أن يكون ابن أمه العفيفة الشريفة النسب إن شايع هواه فى طلب امرأة :

ما ولدتنى حاصنٌ ربعيّةٌ لإن أنا مالأتُ الهوى لاتبعها (٢)

وقد سبق فخر النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ابن العواتك .

٣ — مدح أبنائها بأنهم نسلها ، كما يمدح الملوك وأبناء المنجبات ، من ذلك أن أعشى بنى عوف — ضابىء أو يزيد بن خليد بن مالك — أحمدَ جوار أبناء هند ، وهى امرأة من شيبان ، فقال :

فلم أر جيرانا إذا الحرب شمّرت كمثل بنى هند أعفّ وأكرما (٣)

وقول رُشَيْد بن رُمَيْض العَنْزِى فى غارة شُرَيْح بن شُرَحْبيل على اليمن :

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزّلم (٤)

ومدح المساور بن هند بن قيس قومه إذ نفروا له لما استنفرهم ، وفداهم بنفسه وأبويه :

فِدًى لبنى هند غداة دعوتُهم بجوٍّ وبالَ النفسُ والمالُ (٥)

وقد افتخر موسى بن جابر — وكان يعرف بابن ليلى وبابن الفريعة أيضاً — برجلين من آبائه كنى عنهما بابنى العنبرية :

إذا ذكر ابْنا العنبرية لم تَضِقْ ذراعى وألقَى باستِهِ من أفاخر
هلالان حمّالان فى كل شَتْوة من الثُّقل ما لا تستطيع الأباعر (٦)

وكان رجل من عبد القيس ـ يقال له ابن مية ـ قُتل ، فرثته زوجته ، ومن رثائها قولها:

---

(١) البيان والتبيين ١/٦٥ الزافرية : أمه واسمها حُبّى وهى من باهلة . لا أجدّ : ليس يابساً . وخيم : ثقيل . اصطك الخصوم : تقارعوا فيما بينهم . وقال يونس إنه عنى بعظامه أسنانه لأنها إذا تمت تمت الحروف وإذا نقصت نقصت الحروف .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١/١١١ والمرزوقى ١/٢٠٨

(٣) معجم الشعراء للمرزبانى ١٣ (٤) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٣٥٤ والتبريزى ١/١٨٤

(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٩٨ الجو : الأرض المطمئنة . وبال : اسم ماء

(٦) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٣٦٩ والتبريزى ١/١٩٠

أجيرانَ ابنِ مَيّةَ خبِّرونى أعينٌ لابن مية أم ضِمار (١)

٤ — ولقد تكون الأم أعظم شهرة وعراقة من الأب فينسب إليها بنوها ، أو تكون الأم هى التى كفلت أبناءها وربتهم ، لأن أباهم مات وهم صغار ، فيشتهرون بها .

على أن من أسباب ذلك أيضاً التمييز بين الأبناء حين يتزوج الرجل بامرأتين أو أكثر، ويولد له من زوجاته أولاد يشترك بعضهم فى اسم واحد ، فينسب كل منهم إلى أمه — مع انتسابه لأبيه — تمييزاً له من أخيه ، ومن أمثلة ذلك ما حدث فى الإسلام ، فقد كان لعلى ابن أبى طالب أولاد من زوجات ، سمى ثلاثة منهم باسم محمد ، فنسب أكبرهم إلى أمه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة ، وعرف بمحمد بن الحنفية ، ولو أنه كان فى الجاهلية لعرف أعقابه ببنى الحنفية ، كما قيل فى الجاهلية بنو العدوية .

ولقد تكون الأم هى الوشيجة بين ابنها ومن ينسبه إليها ، فيؤثر أن يذكره بها لا بوالده، كما قال النابغة فى رثاء أخيه لأمه :

لا يهنأ الناسَ ما يرعون من كلأ وما يسوقون من أهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثاوى على أَمَرٍ أمسى ببـــلدةِ لا عمٍّ ولاخال (٢)

٥ — وسنعرف فى حديثنا عن الزواج أن من أحوال النسب إلى الأم أن تعيش الزوجة مع زوجها فى عشيرته ، فإذا طلقها عادت إلى أهلها وحملت معها أولادها ، أو أن تعيش فى عشيرتها ويعيش زوجها معها ، فإذا طلقها عاد إلى عشيرته ، وترك أولاده مع أمهم، أو أن تعيش فى عشيرتها ويعيش هو فى عشيرته ، على أن يتردد عليها ، فإذا طلقها احتفظت بأولادها (٣) . وفى هذه الحالات ينسب الولد إلى أمه .

٦ — ويحق لنا أن نستنتج من بعض الهجاء أن التلقيب بالأم كان يقصد به التحقير أحياناً .

من ذلك قول الطِّرِمّاح بن جهم السِّنْبسى لنافذ بن سعد الْمَعْنىّ :

متى قدتَ يابن الحنظلية عُصْبةً من الناس تهديها فجاج المخارم ؟
فقُدْ بزمام بَظْر أمك واحتفر بأَيْر أبيك الفَسْلِ كُراثَ عاسِم (٤)

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤١ العين : النقد الحاضر . الضمار : الدين لايرجى قضاؤه . والمراد أتدركون ثأره أم تطلون دمه ؟

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٨٥ ذو أمر : موضع

(٣) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٤

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٣٠ المخارم : جمع مخرم وهو أنف الجبل . للفسل : الضعف . عاسم : رمل لبنى سعد

وقول آخر فى هجاء :

ياقبح الله أقواما إذا ذكروا بنى عُمَيْرَةَ رهط اللؤم والعار (١)

وقول أعشى باهلة فى رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب يذكر قاتله هندا :

أصبتَ فى حَرَمٍ منا أخا ثقة هندَ بنَ سلمى فلا يَهْنالك الظفر (٢)

وإن عنترة ليفصح عن ذلك بأن قومه كانوا فى السلم حين لا تحوجهم نجدته يلقبونه بابن زَبيبة ، وكانوا فى الحرب حين يستصرخونه ويفتقرون إلى بلائه يلقبونه بابن الأطايب:

ينادوننى فى السلم يابن زَبيبة وعند صِدامِ الخيل يابنَ الأطايب (٣)

ومن هذه الزراية قول بشر بن أبى خازم :

قل للمثلم وابن هند بعده إن كنت رائم عِزِّنا فاستقدم (٤)

٧ — على أن الأب قد يموت فى حياة أمه أو أم زوجته ، فتكفل أحفادها وترعاهم ، فينسبون إليها ، أو تكون ذات شهرة فيعرفون بها ، كما نسب إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدى إلى جدته لأمه عُلَية ، ونسب إليها أيضا ابن ابنه (٥) . وكما نسب عبد الله بن مالك الأزدى إلى أم أبيه عَبدة بنت الحارث بن عبد المطلب ، ولقبها بُحَينة (٦) ، ونسب سهل ابن عمرو إلى أم أبيه الحنظلية (٧) .

ونسب الحارث بن مالك إلى أم أبيه أيضاً ، واسمها عبدة ولقبها البَرْصاء (٨) . ونسب سعد بن عُقَيْب إلى أم جده الحنظلية فعرف بابن الحنظلية (٩) . وفى الإسلام نسب جميل ابن مَعْمَر إلى أم جده معمر فعرف بابن قميئة (١٠) .

٨ — وفى قليل من الأحيان كان الولد ينسب إلى حاضنته وإن لم تكن أماً ولا جدة . فقد كان للنعمان بن المنذر ولد أودعه أخته لأمه سلمى بنت ظالم المرى لتحضنه وتربيه ، ثم اعتدى النعمان على جيران للحارث بن ظالم المرّى أخى سلمى ، وغنم أبلهم ، فغضب الحارث ، واختال على أخته حتى دفعت إليه ابن النعمان فقتله وقال :

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤٩
(٢) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢٨٢
(٣) ديوان عنترة ٢٥
(٤) جمهرة أشعار العرب ١٨٤
(٥) تحفة الأبيه ١٠٢
(٦) تحفة الأبيه ١٠٧
(٧) تحفة الأبيه ١٠٦
(٨) تحفة الأبيه ١٠٤
(٩) تحفة الأبيه ١٠٥
(١٠) سمط اللآلى ١/٢٩

فإن تك أذوادٌ أُصِبْنَ وصبية فهذا ابن سَلْمَى رأسه متفاقم (١)

وقد نسب أولاد إلى زوجة أبيهم ، لأنها حضنتهم ، فمثلا نسب إلى باهلة تسعة رجال ، وليست أماً لغير اثنين منهم ، وإنما حضنت الجميع فغلبت عليهم (٢) . بل لقد نسب عوف ابن عبد مناة بن أد بن طابخة إلى أمة سوداء حضنته ـ اسمها عكل ـ فغلبت على اسمه ، وإليه يشير البَعيث فى هجاء جرير بقوله :

وجئنا بعمرو بعد ما حلَّ سَرْبَهَا محلَّ الذليل خَلفَ أطْحَلَ أو عُكْل (٣)

مظاهر حب الأم لبنيها

إذا كان الأولاد قد مجدوا أمهاتهم ، وباهوا بعراقة نسبهن ، وإذا كان العرب قد عظموا المنجبات ، وضربوهن مثلا عالية تحتذى فى مجتمع يقدر الأم ، ويجل المرأة ، فإنهم خلفوا أيضاً من الآثار الأدبية ما يكشف عن حب الأم لبنيها ، وحسن تربيتها لهم ، وخلفت المرأة أيضاً ما يدل على إدراكها لواجبها نحو بنيها ، وتعهدها لثمرات حياتها . وقد تجلى حبها لأبنائها فى مظاهر شتى :

١ — تربيتها لهم

كانت العرب تعير من قصرت أمه فى تربيته ، وتسبه بذلك (٤) ، وقد تجلت تربيتها لأبنائها فى مظهرين :

المظهر الأول التربية الجسمية : (١) فهى تتعهد وليدها قبل أن تحمله ، ذلك بأنها كانت لا تحمل إلا فى طهر ، ولعل الأب كان يشاركها فى ذلك ، لأنهم اعتقدوا أن الحمل فى أعقاب الحيض أوقبيل الحيض ينتج ولداً سقيما . يقول أبوكبير الهذلى فى وصف تأبط شرا ابن زوجته إن أمه حملت به وهى طاهر ليس بها بقية من حيض :

---

(١) المفضليات ٢/١١٢ الأذواد . جماعات الإبل . متفاقم : مكسر

(٢) لسان العرب وطهارة للعرب للشنقيطى ٣٢

(٣) النقائض ١٥٦ عمرو : يريدعمرو بن تميم . أطحل : جبل ينزله بنو ثور بن عبد مناة

(٤) عيون الأخبار ١/٤٥٤

وقد تمنت أم الفضل بنت الحارث الهلالية لطفلها عبد الله بن عباس أن يسود العرب جميعا حسبا وكرما :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العدّ وبذل الوَفْر حتى يُوارَى فى ضريح القبر[1]

٢ — الأم بفطرتها تواقة إلى أن يعيش بنوها ، لأنهم ثمراتها ، وبَضْعٌ منها ، ولأنها تجد فى حياتهم حياتها مكررة ، وشخصها باقيا ، فهى ترى مباهج الحياة كلها فى طفلها ، وتحس من عظم فرحها وسعادتها به أنها لا تدانيها أم أخرى فى فرحها وسعادتها بابنها ، قالت أعرابية وهى ترقص ولدها :

ياحبذا ريح الولد ريح الخُزامَى فى البلد[2]
أهكذا كل ولد أم لم يلد قلبى أحد ؟

ويقيناً أنه لا حبّ يسامى حب الأم لابنها ، فقد تخون الحبيبة ، ويصد الأب ، ويجفو الأخ ، وتبغض الزوجة ، ويتقلب الصديق ، لكن الأم فوق هؤلاء جميعا ، لاينضب معين حبها ولا يترنق ، ويكاد عفوها يسبق دائما ذنب ابنها ، ولا تيئس من أن يعود إليها ابنها العاق فيندم على عقوقه ، ويطلب منها المغفرة .

ولقد يضطرها الرجاء فى أن يعيش ابنها إلى ضرب من الخرافات ، لا تجارى العقل ، ولكنها تساير الوهم ، فقد زعموا أن المرأة المقلات إذا وطئت قتيلا شريفا عاش بنوها[3] ، قال الشاعر :

تظلُّ مقاليتُ النساء يَطَأْنهُ يقلن ألا يُلْقَى على المرء مِئْزَر؟

وفى مدحة الكميت للحسين بن على تسجيل لهذه العادة فى عصره :

وتطيل المرزآت المقاليـــــت إليه القعودَ بعد القيام[4]

ومازالت بقية من هذه العادة فى بعض جهات مصر ، إذ تتخطى المرأة العقيم أو المقلات قتيلا لتحمل ، أو ليعيش ولدها .

---

(١) الأمالى ١١٧/٢ (٢) الأمالى ١١٦/٢
(٣) محاضرات الأدباء ٧٣/١ المقلات : المرأة التى لا يعيش ولدها
(٤) أساس البلاغة مادة قلت وشرح الهاشميات ٣٢ المرزآت : اللائى مات أولادهن .

٢ — ولقد تنكب بموت زوجها ، فتعكف على رعاية أولادها ، وتأبى أن تتزوج وإن كانت فى عسرة ، من ذلك أن أم إثال آمَتْ وكانت أجمل نساء اليمامة ، فخطبها أشراف اليمامة فردتهم ، وقالت إنها لا تؤثر أحدا على ابنها ، ولا ترضى زواجا وإن كانت فى شظف ، وإنها تبقى على كرامة ابنها بين الناس ، لأن زواجها يطامن من عزته ويحزنه ويؤذيه :

لعمرى إثالٌ لا أفدِّى بعينـــه ... وإن كان فى بعض المعاش جفاء
إذا استجمعت أمّ الفتى غضّ طرفه ... وَشَاعَرُهُ دون الدِّثار بلاء (١)

بل رفضت المرأة الزواج من الرسول إشفاقا على أولادها ، وبقيا على راحتهم ، فإنه لما خطب رسول الله أم هانئ بنت أبى طالب بعد موت زوجها هبيرة ، قالت والله لهو أحب إلىّ من سمعى وبصرى ، ولكن حقه عظيم وأنا مُؤْتِمة ، فإن قمت بحقـــه خفت أن أضيع أيتامى ، وإن قمت بأمرهم قصرت عن حقه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « خير نساء ركبن الإبل صوالح نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده »(٢) .

٣ — وقد كان حبها لبنيها مدعاة إلى أن تحرص على مالهم ، وتحاول كفهم عن بذله فيما تحسبه إسرافا وحمقا ، وفى هذه المحاولة تشترك الأم والزوجة ، ويتبرم الشعراء بلومهما ، وسأتحدث عن هذا فى أخلاق المرأة .

ولم يُخْفِ الشاعر أن أمه لامته على جوده ، ولم يجد غضاضة فى أن يبوح بما قالت له وبما قال لها ، فهذا حُطائط بن يَعْفُر يقص لوم أمه — رُهْم بنت العُباب — له ، ودفاعه عن نفسه :

تقول ابنة العُباب رُهْمٌ حَرَبْتَنَا ... حُطَائطُ لم تترك لنفسك مقعدا
إذا ما جمعنا صِرْمَةً بعد هجْمَةٍ ... تكون علينا كابن أمك أسودا
فقلت ولم أَعْىَ الجواب : تأملى ... أكان هزالا حتف زيد وأَرْبَدا ؟
أرينى جوادا مات هزلا لعلنى ... أرى ما ترين أو بخيلا مُخَلَّدا
ذرينى أكن للمال ربًّا ولا يكن ... لى المال ربا تحمدى غِبَّهُ غدا
ذرينى فلا أعيا بما حَلّ ساحتى ... أَسُودُ فأكفى أو أطيع المسَوَّدا

---

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢ .
(٢) فتح البارى ٩/١٠٧ والعقد الفريد ٣/٢١٣ وأخبار النساء لابن القيم ٦٧

ذريني يكن مالى لعرضى وقاية بقى المال عرضى قبل أن يتبدّدا (١)

٤ — بينا تسعد الأم بطفلها ، وتتوسم فى مخايله سيادة وعزة وبراً ، وبينا تنعم بولدها الذى شبّ أو اكتهل ، تستمتع ببره ، وتتسمع أعذب الثناء عليه فتزهى وتنتشى ، إذا بالدهر يبدد سعادتها ، ويطيح بنعمائها ، فيخطف ابنها . إنها الساعة المشئومة التى كانت لا تسمح لطيفها أن يلم بخاطرها ، إنها النكبة الكبرى التى لا تلتئم جراحها ، إنه الحزن الذى يجثم فى قلبها لا يبرحه ما رددت أنفاسها ، وأى حزن على فقيد يعدل حزن الأم ؟ بل أين ذلك الحزن الذى يدانى حزن أم على ولدها ؟

ولقد يتنفس هذا الحزن فى نشيج أو فى وجوم أو فى دموع ، فإذا كانت الأم شاعرة تنفس حزنها فى قصيد أيضاً . وكثيرات الأمهات الراثيات ، وفى مراثيهن تصوير للوعة ، وقسوة الدهر ، وتصويح الأمل ، وإشادة بالمناقب .

فالأم إذ تيأس من أن يواتيها الصبر تود لو أنها كانت الفداء لابنها ، قالت أم تأبط شراً أو أم السليك فى رثائه :

ليت قلبى ساعةً صَبْرُهُ عنك مَلَكْ
ليت نفسى قُدِّمتْ للمنايا بَدلَكْ (٢)

وهى تخدع نفسها إذ تعلم بالفاجعة ، فتشك فى صدق الخبر ، ثم يفجعها الواقع فتحزن حتى تشعر أن الحزن قد جفف مخ عظمها ، وتحار وتسائل الناس أو تكاد تسائلهم : ماذا تفعل ؟ وأين تجد ابنها ؟ هكذا كان حال أم حكيم بنت قارظ زوجة عبيد الله بن عباس لما ذبح بُسْر ابن أرطأة ولديها ، وكان معاوية قد بعثه إلى اليمن ونواحيها ، وكان عبيد الله عاملا لعلى بن أبى طالب على اليمن ، وكانت أم الطفلين قد وارتهما ، فأخذهما من تحت ذيلها وذبحها :

يا من أحس بُنيَّىَّ اللـذين هما كالدرتين تشظّى عنهما الصَدَفُ
يا من أحس بنيَّىَّ اللـذين هما سمعى وطرفى فطَرْفى اليوم مُختَطَفُ

---

(١) الأغانى ١١/١٣٣ حربتنا : سلبت مالنا . صرمة : قطعة من الإبل من عشرين إلى ثلاثين ، وقيل غير ذلك . هجمة : قطعة من الإبل من أربعين إلى ما فوقها أو من سبعين إلى مائة . أسود : أخو حطائط .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٩١

يامن أحس بنيّ اللذين هما ... مخ العظام فمخّي اليوم مُزْدَهَف
نُبِّئْتُ بُسْراً — وما صَدقتُ ما زعموا ... من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا
أنحى على وَدَجَيْ طفلىَّ مُرْهَفَةً ... مشحوذة ، وعظيمُ الإفك يقترف
من دلّ والهة حَرّى مُفجعةً ... على صبيين غابا إذ مضى السَّلف[1]

٥ — وإذا ماقتل ابنها وقبل زوجها ديته ثارت ، فهذه أم قرْفة قتل ابنها فى حرب داحس والغبراء ، قتله قيس بن زهير ، فحمل ربيع بن زياد العبسى ديته إلى أبيه حُذَيفة ، فرضيها ، وسكن الناس ، فلما علمت أم قرفة بما فعل زوجها هاجت هياج المغيظ المحنق ، ودعت عليه بالهلاك ، وعيرته قبول الدية ، وحرضته على أن يثأر لابنه :

حذيفة لاسلمت من الأعادى ... ولا وُقِّيتَ شرَّ النائبات
أيقتل قرفةً قيسٌ وترضى ... بأنعام ونُوقٍ سارحات
فخذ ثأراً بأطراف العوالى ... وبالبيضِ الحِداد المرْهفات[2]

مظاهر حب الأبنـــاء لأمهاتهم

حفظ العرب لأمهاتهم صنيعهن ، وأدركوا حقوقهن عليهم فأدوها ، وبروهن على خير مايبر الولد والديه .

ولعلهم كانوا أكثر برا بالأمهات وحدبا عليهن من برهم وحدبهم على الآباء ، لأنهن أضعف ، وأشد حاجة إلى الحب والعطف ، وأكثر لصوقا بالطفل من الأب .

ويظهر أن هذا شعور عام فى الناس ، فقد جاء فى شريعة مانو الهندى : « الأم أجدر بالاحترام من ألف أب »[3] . وأبدع القرآن الكريم فى تذكير الأبناء بما قاست أمهاتهم فى حملهم وإرضاعهم ، وكرر الأمر ببر الوالدين ، وقرنه كثيرا بطاعة الله . وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما أمر ببر الأم ثلاث مرات ، وقفاهن ببر الأب[4] .

---

(١) النقائض ٧١٧ وتهذيب الكامل ٢/٢٢٢ وبلاغات النساء ١٨٤ والأغانى ١٥/٤٥ مزدهف: فان هالك . الودج : عرق فى العنق .
(٢) رياض الادب فى مراثى شواعر العرب ٤٩
(٣) حضارة الهند . جستاف لوبون ٣٢٨ (٤) البخارى ٨/٢

حتى الأم الرضاعية كانت لها مكانة فى نفس المسترضع منها ، فقد وفد على النبى أشراف من هوازن ـ قوم السيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول ـ بعد غزوة حنين ، فقالوا، يارسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك . ولو أننا ملحْنا ـ أرضعنا ـ للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته . فقال رسول الله : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقالت قريش والأنصار ما كان لنا فهو لله ولرسوله . وبذلك أطلقت سبايا هوازن [١] .

وقد اتضح إعزاز الأم فى عدة مظاهر .

١ — حمايتها من المهانة أيا كان مصدرها ، وأياما كانت نتائج هذه الحماية . فقد حاول عمرو بن هند أن يستذل أم عمرو بن كلثوم . فثارت ليلى بنت كليب أم عمرو بن كلثوم ، وثار، وقتل الملك فى ثورته [٢] ، وقال فى ذلك قصيدته المشهورة ، وخطب بها فى سوق عكاظ [٣] ، وبنو تغلب تعظمها جدا ، ويرويها كبارهم وصغارهم ، حتى لقد هُجوا بذلك :

ألهى بنى تغلب عن كل مَكْرُمة ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبدا مذْ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسئوم

وكأن التغلبيين لم يكفهم فخر عمرو، على روعته وكثرته ، فافتخر شعراؤهم بجرأته وأنفته ، يقول أُفْنُون بن صُرَيْم التغلبى :

لعمرك ماعمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم أمى أمه بموفق

فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا ... فأمسك من نَدْمانه بالْمُخَنَّق

وجلّله عمرو على الرأس ضربة ... بذى شُطب صافى الحديدة رونق [٤]

ثم قتل مُرَّة بن كلثوم أخو عمرو المنذرَ بن النعمان وأخاه ، وإياه عنى الأخطل بقوله لجرير :

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٣٤ (٢) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٦

(٣) الأغانى ٩/١٧٥

(٤) الأغانى ٩/١٧٦ والحيوان للجاحظ ٣/١٣٥ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٦ المخنق : الحلق . ذو شطب : سيف به طرائق .

أبنى كليب إن عمّى اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا[١]

٢ — الفخر بها، كما سبق، وقد افتخر خفاف بن ندبة بأمه، وفضلها على أم العباس ابن مرداس:

أبى الشتم أنى سيد وابن سادة مطاعين فى الهيجا مطاعيم للجُرم
أدِبُّ على أنماط بيضاءَ حُرَّةٍ مقابلة الجَدَّين ماجدة العم
وأنتَ لحنفاءِ اليدين لو انها تباع لما جاءت بزَنْدٍ ولاسَهْم[٢]

٣ — وهم يفدّون بالأم كثيرا، إشعارا بأنها أعز إنسان عليهم، وأحيانا يقرنون بها عزيزا آخر، وأحيانا يفردونها. يقول العباس بن مرداس فى مدح حُلَيْس النصرى بعدما ثأر له من قاتل أخيه:

فِدًى لك أمى إذ ظَفِرْتَ بقتله وأقسم أبغى عنك أما ولا أبا[٣]

ويقول عبد الله بن جِذْل الطعان:

فدى لهم نفسى وأمى فدى لهم بِبُرْزَة إذ يخبطْنهم بالسَّنابك[٤]

ولما ردّت بنو لُحْيانَ غزاتها من بنى كعب مدحهم مالك بن خالد الهذلى أو حذيفة ابن أنس الهذلى بقوله:

فدى لبنى لُحْيان أمى وخالتى بما ماصعوا بالجزْع ركْبَ بنى كعب[٥]

وقد افتخر حسان بن ثابت بانتصار الخزرج على الأوس فقال.

فدى لبنى النجار أمى وخالتى غداة لُفوهُمْ بالمثقّفة السُّمْر[٦]

وفى يوم أحد نثل النبى كنانته لسعد بن أبى وقاص، وقال: أرم فداك أبى وأمى[٧].

٤ — ثم إن الأولاد كانوا يستجيبون مشورة أمهاتهم، فإنه لما هجا بشر بن أبى خازم الأسدى — وكان عبدا — أوس بن حارثة الطائى، وذكر أمه سعدى، أغار أوس على نوقه،

---

(١) الأغانى ٩/١٧٦

(٢) الأغانى ١٦/١٣٨ أنماط: نسب أو ضرب من البسط. مقابلة الجدين: كريمة النسب من جهتهما. حنفاء: معوجة.

(٣) الأغانى ١٣/٦٦

(٤) معجم البلدان ٢/١٢٥ برزة: موضع كانت به وقعة قتل فيها مالك بن خالد بن صخر الشريد

(٥) معجم البلدان ٤/٩٦ (٦) الكامل لابن الأثير ١/٢٤٣

(٧) فتح البارى ٧/٢٧٦ وتاريخ الطبرى ٣/١٨ نثل: نفض.

فهرب منه ، ثم قدم عليه ، فأشار عليه قومه بقتله ، فقال أوس : هجوتنى ظالما فلا مفر من قطع لسانك ، أو حبسك حتى تموت ، أو قطع أطرافك وتخليتك . ثم دخل على أمه سعدى ، فقالت له ، يابنى ، مات أبوك ، فرجوتك لقومك ، فأصبحت أرجوك لنفسك . زعمت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يمحو ما يقوله غيره ؟ قال : فماذا أصنع ؟ قالت : تكسوه حلتك ، وتحمله على راحلتك ، وتعطيه مائة ناقة ، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه ، ففعل ما أمرت به أمه ، فقال بشر : لامدحت أحدا حتى أموت غيرك ، ومدحه بقصيدته التى يقول فيها :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ... ليقضى حاجتى ولقد قضاها
فما وطىء الحصا مثل ابن سُعْدَى ... ولا لبس النعالَ ولا احتذاها[1]

وكثيراً ما كانت الأم تحرض ابنها على الثأر ، فتؤجج حماسته ، وتذكى بغضته ، فيندفع لثأره لا يلوى على شىء ، كما سأبين فى أثر المرأة فى الثأر .

٥ — وقد أسلفت أنهم كانوا يعبرون عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمهم ، يستعطفونهم بذلك ، أو يذكرونهم بصلة حبيبة يجب أن توصل ، أو يظهرون عظم الفجيعة فى أخ عزيز ، أو يتحسرون على مودة مقطوعة ، الخ يقول الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأَمْيَل[2]

ويقول أبو زُبَيْد الطائى :

يابن أمى ويا شقيق نفسى ... أنت خَلَّيتنى لأمر شديد[3]

ويقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

. . . . . .
وفقدُ بنى أم تداعوا فلم أكن ... خلافهم أن أستكين وأضرعا[4]

ويقول أيضاً :

فإن يك إخوانى توفوا وأخطأت ... بنى أمك الدنيا حُتُوفُ الرواصد
فكل بنى أم سيمسون ليلة ... ولم يبق من أعيانهم غير واحد[5]

---

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٤٠ والكامل لابن الأثير ١/٢٦٣
(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب ٢ (٣) الموشح للمرزبانى ٩٧
(٤) المفضليات ٢/٦٨ (٥) حماسة البحترى ٣٦٢

ويقول أوس بن حجر فى هجاء طفيل بن مالك :

لعمرك ما آسى طفيلُ بنُ مالك بنى أمه إذ ثابت الخيل تَدَّعى

. . . . . .

فراراً وأسلمت ابن أمك عامراً يلاعب أطرافَ الوشيح المزَعْزَع(١)

وتقول أم حاتم الطائى تعاتب إخوتها لأنهم يلومونها فى كرمها :

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركى يابن أم الطبائعا ؟ (٢)

ويقول معد يكرب بن الحارث فى رثاء شقيقه شرحبيل :

يابن أمى ولو شهدتك إذ تدْ عو تميما وأنت غير مُجَاب

لتركتُ الحُسامَ تجْرِى ظُباه من دماء الأعداء يوم الكُلاب(٣)

وفى يوم أحد خرجت صفية بنت عبد المطلب ، وقد انكشف المسلمون ، فقالت . يا رسول الله ، أين ابن أمى حمزة ؟ (٤) ، ووفدت أم هانىء بنت أبى طالب على النبى صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، فقالت : يارسول الله زعم ابن أمى علىٌّ أنه قاتلٌ رجلا قد أجرته (٥) .

٦ — وإذا ما تزوج الرجل أجدّ رابطة جديدة بامرأة جديدة ، يتخذها سكنه ، ويعاطيها كأس المودة دهاقا ، وليست له مندوحة من أن تخلف زوجته أمه فى رعايته ، وتعرف دخيلته ، ومشاركته فى كثير من شئون حياته . ولقد تفتر علاقته بأمه ، ولقد تتراوح بين القوة تارة والضعف تارة ، وربما تسعده ظروفه فتتيح له أن يغمر أمه وزوجه بعطفه كما يغمرانه . لكن حدثا قد يلم به ، فيوحى إليه أن أمه أصبر عليه فى نكبته من زوجته ، فيؤثر أمه عليها ، لأنه يعلم بتجربته وبتجارب غيره ، ويعلم بفطرته أيضا أن أمه أبقى له وأوفى ، وهى عليه أحنى .

حدث هذا لصخر بن عبد الله الشريد ، كان يتعشق ابنة عمه سلمى بنت كعب ، وكان يخطبها فتأبى عليه ، فأقام على ذلك حينا ، ثم أُسرت سلمى ، واستنقذها صخر بعدما أصابته طعنة فى جنبه ، وتزوج بها ، وكان يحبها ويكرمها ، ويؤثرها على أهله . ثم انتفض جرحه ، فمرض حولا ، وكان نساء الحى يدخلن إلى سلمى عوائد ، فيقلن : كيف أصبح صخر ؟ فتقول .

---

(١) ديوان أوس ١٣ تدعى : تتلاحق وتفر . الوشيج : الرماح

(٢) الأغانى ١٦/٩٤ (٣) شعراء النصرانية ٢

(٤) المغازى ٢٨٣ (٥) فتح البارى ٦/١٩٦

لا حيّ فيرجى ولا ميت فينسى ، فسمعها صخر ، وعرف أنها تبرمت به ، فى حين أنه يرى تحرق أمه عليه ، فقال لها ناوليني السيف لأنظر أصدىء أم لا ، وهو يريد قتلها ، فناولته فإذا هو لا يقدر على حمله ، فقال :

أرى أم صخر لا تَمَلُّ عيادتى ... وملت سُلَيْمَى مضجعى ومكانى
وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ، ومن يغتر بالحدثان ؟
فأى امرىء ساوى بأم حليلةً ... فلا عاش إلا فى شَقاً وهوان
أَهُمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العَير والنَّزَوان
لعمرى لقد أيقظتِ من كان نائماً ... وأسمعت من كانت له أذنان
فَلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياة كأنها ... مُعَرَّسُ يَعْسُوبٍ برأس سِنان (١)

ويشفع لتصديق هذه القصة الإجماع على روايتها ، وتسجيل صخر لها فى شعره ، وأمر آخر أهم من هذين أن سلمى كانت فاركا له ، راغبة عنه منذ خطبها ، ولقد تزوجها شبه مرغمة بعد أن استنقذها من السبى . ويظهر أن نفرتها منه كانت شديدة لم يلطف من حدتها حبه لها وإيثاره إياها .

٧ — الإخوة لأم

قلت إن الأم كانت وشيجة قوية فى القرابة ، وأرجح أن الإخوة لأم كانوا أكثر تعاطفاً وتراحماً وتوادا من الإخوة لأب ، ذلك بأنا نجد الشعراء كثيراً ما يعبرون عن إخوتهم الأشقاء بأنهم أبناء أمهم ، كقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك بن نويرة :

تقول ابنة العمرىِّ مالك بعد ما ... أراك قديماً ناعم البال أفرعا
فقلت لها طول الأسى إذ سألتنى ... ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا
وفقدُ بنى أم تولوا فلم أكن ... خلافهم أن أستكين وأضرعا (٢)

وقول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام فراره يوم بدر ، وتركه أخاه الشقيق أبا جهل :

---

(١) الأغانى ١٣/١٣١ وأخبار النساء لابن القيم ٧٦ وتهذيب الكامل ٢/١٩٣ ومستقصى أمثال العرب للزمخشرى ٩٩ مخطوط والحماسة البصريه ٢٢٤ مخطوط ووفيات الأعيان ١/١٣٢ والشعر والشعراء ١/٣٠٣ تحقيق شاكر

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٩٤

هلّا عطفتَ على ابن أمك إذ ثوى قَعْصَ الأسنة ضائع الأسلاب (١)

ولم يجد دريد بن الصمة فى تصاريف الدهر ، وتفريقه شمل الأحبة أقسى من تفريقه بين الشخص وابن أمه ، وقطعه ما بينهما ، فينفد كما ينفد زاد المسافر ، يقول فى رثاء أخيه عبد الله بن الصمة :

أعاذلتى كل امرىء وابنُ أمِّهِ متاعٌ كزاد الراكب المتزوّد (٢)

ثم إنا نستشف من اللغة نفسها ما يثبت أن الإخوة لأم أعظم تحابا من الإخوة لأب ، لأن الأعيان الإخوة لأب وأم ، والأقران والأخياف بنو أم واحدة من رجال شتى ، وبنى العَلّات بنو رجل واحد من أمهات شتى (٣) . وكلمة أقران جمع قِرْن وهو الكفء (٤) ، ففيها دليل على تكافؤ الإخوة لأم وتماثلهم ، وكلمة أخياف معناها أن فى سحنهم وألوانهم وخلقتهم بعض الاختلاف ، لأن آباءهم مختلفون ، ولعلها مشتقه من الْخَيف وهو زرقة إحدى عينى الفرس وغيره وسواد الأخرى (٥) . أما العَلّات فهن الضرائر ، ويكفى التعبير عن الإخوة بأنهم أبناء ضرائر للدلالة على ما بينهم من تجاف وتباغض .

على أنا ما زلنا نشعر بالجفوة بين أبناء العلات ، مستعلنة تارة ، ومستترة إلى حين تارة ، وما زلنا نشعر بالتعاطف بين الأخياف ، وتساقيهم الود صافيا . ومردّ ذلك إلى أن الأم الواحدة تقرب ما بين بنيها ، أما الضرائر فيباعدن بينهم بالوقيعة والدس ، وبث عوامل الغيرة والتنافس والتحاسد . ثم إن أبناء الضرائر أكثر تنازعا على الميراث من الأشقاء ، أما الإخوة لأم فلم يتنازعوا على ميراث ، وقلما حدث ذلك لأن الثروة للأب فى الأعم الأغلب .

يتجلى حب الأخ لأم فى أن ضرار بن عمرو صُرع فى معركة بين القنا ، فأسرع إليه إخوته لأمه فأنقذوه ، ثم استشالوه حتى ركب فرسه ، فرفع عقيرته بعكاظ فقال : ألا إن خير حائل أم ، ألا فزوجوا الأمهات (٦) . ويتجلى أيضا فى رثاء كثير من الشعراء لإخوتهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٨٦ وديوان حسان ١٧ قعص الأسنة : القتل بها فى سرعة
(٢) الأغانى ٩/٤ (٣) لسان العرب ١٧/١٨١
(٤) القاموس المحيط مادة قرن (٥) القاموس مادة خيف
(٦) البيان والتبيين ١/١٦ تحقيق هارون . حائل : لم تحمل

لأمهاتهم ، كرثاء أعشى باهلة لأخيه المنتشر بن وهب ، وهو رثاء تتأجج فيه اللوعة والحزن ، كقوله :

فظَلْتُ مكتئبا حَرَّانَ أَندبُهُ ... وكنت ذا حذر لو ينفع الحذر
عشنا به حقبة حيا ففارقنا ... كذلك الرمح ذو النصلين ينكسر
فإن جزعنا فإن الشر أجزعنا ... وإن صبرنا فإنا معشر صُبُرُ
فإن سلكتَ سبيلا كنتَ سالكها ... فاذهب فلا يبعَدَنْك الله مُنْتَشر (١)

وفى هذه القصيدة عدد الشاعر مناقب أخيه ، وأشاد بمآثره إشادة المعتز بها الأسيف على ذهابها .

كذلك رثى أبو العيال الهذلى أخاه لأمه عبد بن زهرة ، فأشاد بشجاعته ، وصور الحزن يصيب رأسه بالصداع وجسمه بالألم ، وصور عينه تذرف الدمع غزيراً كأنه سيل يتسرب من مزادة مثقوبة ، ثم صور ليله كئيبا ، لأن الذكريات تتوافد عليه ، ولأن فراغه فى الليل يسلمه لهواجسه وبلابله :

ألا لله درك من ... فتى قوم إذا رهبُوا
وقالوا من فتًى للحر ... ب يَرْقُبنا ويُرْتَقَبُ
فكنت فتاهم فيها ... إذا يدعى لها يَثِبُ
ذكرت أخى فعاودنى ... صداع الرأس والوصَب
فدمع العين من بُرَحَا ... ء ما فى الصدر ينسكب
كما أودى بماء الشَّنَّـ ... ـة المخروزة السَّرَب
على عبد بن زهرة طو ... ل هذا الليل أكتئب (٢)

وكذلك رثى النابغة الذبيانى أخاه لأمه (٣) ، ورثى سلمة الجعفى أخاه لأمه (٤) .

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٨٢ وخزانة الأدب ١/١٣٠
(٢) الأغانى ٢٠/١٦٦ و٢/٦١ وشرح أشعار الهذليين للسكرى ١٣٧
(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٨٥
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٥٩

٨ – إعزاز الخال

أسلفت أن الأم مانحة ابنها الحياة، ومورثة إياه بعض مميزاته الجسمية والعقلية والخلقية، وأن العرب خايلوا بعراقتها وشرفها وسمو أخلاقها وإنجابها، وسنرى فى الزواج أنهم يجيدون اختيار الزوجة، ويتحرون أصولها . وأخوها مقياسهم فى ذلك، لأنه النبعة المماثلة للأم، فهو مرآة لها، وهى صورة منه .

فإذا كان أخو الأم سيداً شجاعاً جواد فصيحاً كان الأمل قويا فى أن ينزع إليه ابن أخته نزوعا يعضد ما يرثه من أبيه . وإذا كان الخال رعديداً كزا مهينا تسربت رذائله كلها أو بعضها إلى ابن أخته، فعاندت وراثته الخيرة من أبيه، أو سايرت رذائله الموروثة من أبيه وغذتها ونمتها .

فالولد أحيانا يشبه خاله جسداً، يقول الراجز فى ولده وقد غلبته أمه على شكله :

والله ما أشبهنى عصام لا خلقٌ منه ولا قَوام
نُمتُ وعرق الخال لا ينام (١)

وأحيانا يرث من خاله خلقاً أو ميلا، كما ورث زهير خال أبيه بشامة بن الغدير، وكان بشامة يعرف أن زهيراً وارث شعره، فإنه لما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله فى أهل بيته وبين بنى إخوته، فأتاه زهير فقال : ياخالاه، لو قسمت لى من مالك ؟ فقال : والله يابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله، قال : وما هو ؟ قال : شعرى ورثتنيه (٢) .

وقد أتى الشعر امرأ القيس بن حجر من قبل خاله مهلهل (٣)، وأتى الأعشى من قبل خاله المسيَّب بن علَس، وأتى خفاف بن ندبة السلمى من قبل خاله تأبط شرا، وأتى دريد ابن الصمة من خاله عمرو بن معد يكرب (٤) . وكان لهذه الوراثة أثرفى أن ولدت الخنساء بنيها شعراء جميعاً (٥) . واعترف الفرزدق بأنه ورث الشعر من خاله العلاء بن قَرَظة (٦) .

---

(١) تهذيب الكامل ٢/٥٠
(٢) طبقات الشعراء ٥٦٤ والأغانى ٩/١٥٠ ورسالة الغفران ٥٤٧ تحقيق عائشة عبد الرحمن وديوان زهير ٣٢٥
(٣) سمط اللآلى ١/٣٨
(٤) سمط اللآلى ١/٣٩
(٥) سمط اللآلى ١/٣٢
(٦) الشعر والشعراء ١٣٦ بتحقيق شاكر وسمط اللآلى ١/٣٩

وقرر النابغة الجعدى أنهم شاركوا قريشاً فى تقواها وأنسابها ، لأن آمنة بنت أبان أم الأعياص وأم أبى معيط منهم :

وشاركنا قريشا فى تقاها ... وفى أنسابها شِرْكَ العنان
بما ولدت نساء بنى هلال ... وما ولدت نساء بنى أبان (١)

نصرة الخال لابن أخته

لا جرم كان الخال فى هذه البيئة التى تعتز بالخال يحدب على ابن أخته ، ويقيه أو ينصره ما وسعه النصر ، لأن الأم إذا ما نسلت أنشأت عصبية الخئولة ، وهى نصرة إخوة الأم وأقاربها لابن أختهم ، وأحيانا لعشيرة الزوج كلها . ولقد كانت تحدث هذه النصرة بين القبائل المتباعدة الأصول كاليمنية والمضرية ، من ذلك تأييد الخزرج وبنى النجار خاصة ، وتأييد الأوس للنبى عليه الصلاة والسلام ، لأن أمه من بنى النجار من الخزرج ، فالخزرج كلهم أخواله ، وخئولتهم له مكررة ، لأن أخوال عبد المطلب من المدينة ، فأمه سلمى بنت عمرو من بنى النجار ، وأمها منهم أيضا ، وكذلك أم أمها(٢) ، وأخوال عبد الله بن عبد المطلب من المدينة أيضا ، وقد توفى عندهم شابا (٣) ، وإن كان بنو زهرة يقولون إنهم أخوال النبى ، لأن السيدة آمنة منهم وإن لم يكن لها أخ (٤) ، لأن أمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة (٥).

لذلك لما كبر عبد المطلب وتسلم مال أبيه عرض له نوفل بن عبد مناف فى رُكْح له — ساحة — فاغتصبه إياه ، فسأل عبد المطلب رجالات قومه أن ينصروه ، فرفضوا أن يدخلوا بينه وبين عمه ، فكتب إلى أخواله يصف لهم ما فعل نوفل ، فقال :

أبلغ بنى النجار إن جئتهم ... أنى منهم وابنهم والخميس
فان عمى نوفلا قد أبى ... إلا التى يُغْضى عليها الخسيس

---

(١) الأغانى ١/١٧ شرك العنان : التساوى فى الشركة لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان
(٢) المعارف ٢٤ و٤٢ وسيرة ابن هشام ١/١١٩ والتنبيه والإشراف ١٩٧
(٣) المعارف ٣٨ (٤) المعارف ٤٢
(٥) سيرة ابن هشام ١/١٢٠

فخرج أبو أسعد بن عدس النجارى فى ثمانين راكبا ، وهدد نوفلا ، فرد الركب إلى عبد المطلب ، فقال عبد المطلب :

بهم رد الإله علىَّ رُكْبى ... وكانوا فى التَّنَسُّب دون قومى

وقال فى ذلك سمرة بن عمير الكنانى :

لعمرى لأخوالٌ لشيبةَ قَصْرَةً ... مِنَ أعمامه أبرٌّ وأوصـــل

أجابوا على بعد دعاء ابن أختهم ... ولم يثنهم إذ جاوز الحقَّ نوفل

جزى الله خيراً عصبة خزرجية ... تواصَوْا على برٍّ وذو البر أفضل

فلما رأى ذلك نوفل حالف بنى عبد شمس كلها على بنى هاشم (١) .

فلا عجب فى أن تؤيد الخزرج النبى عليه الصلاة والسلام ، وأن ينضم إليهم إخوانهم الأوس ، فنجد أن أول من لباه من المدينة أخواله ، لأنه لما عرض نفسه فى مستهل الدعوة على نفر من الخزرج آمنوا به ، وكانوا تسعة ، فيهم اثنان من بنى النجار (٢) ، ثم بايعه اثنا عشر رجلا بيعة العقبة الأولى ، فيهم عشرة من الخزرج ، ومن هؤلاء ثلاثة من بنى النجار (٣) ، ثم بايعه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان بيعة العقبة الكبرى ، وكان النقباء من هؤلاء اثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج ، ونقبين من المبايعة تسعة وثلاثين رجلا من الخزرج ، بينهم أحد عشر من بنى النجار ، هذا إلى امرأة نجارية من المرأتين المبايعتين (٤) . على أن المربد الذى بركت فيه ناقة الرسول فى مقدمه إلى المدينة مهاجرا كان لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل ابنا رافع عمرو من بنى النجار (٥) .

وقد اشتهر الخزرج وبنو النجار ومن يمت إليهم بقرابة بشدة دفاعهم عن الرسول وغيرتهم عليه (٦) ، وكان النبى إذا استحرَّ القتال جلس تحت راية الأنصار ، كما فعل يوم أحد (٧) وكان أعداء الإسلام إذا هجوا النبى والمسلمين خصوا بنى النجار بالهجاء ، يقول عمرو ابن العاص — فى يوم أحد قبل أن يسلم — :

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/١٧٨ (٢) سيرة ابن هشام ٢/٣٨
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٣٩ — ٤١ (٤) سيرة ابن هشام ٢/٤٧ — ٧٥
(٥) الروض الأنف للسهيلى ٢/١٢
(٦) سيرة ابن هشام ٢/٤٧ — ٧٥ و١١٢ والمعارف ٢٤ و٣٨ و٤٢
(٧) سيرة ابن هشام ٣/١٩

خرجنا من الفَيْفا عليهم كأننا ... مع الصبح من رَضْوَى الحبيك المَنَطَّقُ
تمنت بنو النجار جَهْلاً لقاءنا ... لدى جنب سَلْعٍ والأمانىُّ تَصْدُقُ
فما راعهم بالشرِّ إلا فجاءة ... كراديس خيل فى الأزقة تَمْرُقُ
أرادوا لكيما يَسْتبيحوا قِبابنا ... ودون القباب اليوم ضربٌ مُحرِّقُ
وكانت قبابا أو مِنَىً قبلَ ما ترى ... إذا رامها قوم أُبيحوا وأُحْنِقُوا
كأن رءوس الخزرجيين غُدْوَةً ... وأيمانَهُمْ بالمشرفية بَرْوَقُ (١)

ويقول ابن الزبعرى فى رثائه قتلى أحد من المشركين :

وجمعُ بنى النجار فى كل تَلْعَةٍ ... بأبدانهم من وقعهن نجيع (٢)

فيرد عليه حسان بقوله :

وحامى بنو النجار فيه وصابروا ... وما كان منهم فى اللقاء جزوع (٣)

ويقول ابن الزبعرى أيضاً :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأَسَل (٤)

فيرد عليه حسان أيضاً (٥) .

هذه النصرة لا يهب لها إلا مجتمع يقدر الخال ، ويعز ابن الأخت لأنه معدود من القوم ، ويؤيد ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام دعا الأنصار فقال : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، إلا ابن أخت لنا ، فقال : ابن أخت القوم منهم (٦) . وكان النبى بقولته الحكيمة مترجماً عن شعوره ، وعن شعور العرب جميعاً .

ويؤيد ذلك أيضاً قول الأخنس بن شَرِيق قبيل موقعة بدر — وكان أعرابياً حليفاً لبنى زهرة — : يابنى زهرة قد نجّى الله عيركم ، وخلّص أموالكم . . . وإنما محمد رجل منكم ابن أختكم ، فان يك نبيا فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذبا يلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١١٠ الفيفا : الفيفاء وهى الأرض المقفرة . الحبيك : الذى فيه طرائق . المنطق : المحزوم جيداً . سلع : جبل أو موضع قريب من المدينة . القباب : جمع قبة . أحنقوا : غيظوا . بروق : شجيرة ضعيفة تشبه البصل

(٢) سيرة ابن هشام ٣/١٠٦ (٣) سيرة ابن هشام ٣/١٠٨

(٤) سيرة ابن هشام ٣/٩٧ وطبقات الشعراء ١٩٩ تحقيق شاكر

(٥) سيرة ابن هشام ٣/٩٨

(٦) فتح البارى ٦/٤٠٢

ابن أختكم ، فارجعوا ، واجعلوا جبنها بى . . . فأطاعوه ، ولم يشهد بدر أحد من بنى زهرة، وكانوا مئة أو ثلاثمائة [١] .

ولقد يتجلى إعزاز الخال لابن أخته فى إيثاره بالمكرمة والمحمدة ، من ذلك أن رجلا من بنى سعد اسمه طلحة كان له إبل أغار عليها جيرانه بنو ربيعة بن عجل ، فأتى الأسود ابن يعفر ، يسأله أن يرد عليه إبله التى اغتصبها جيرانه — وهم أخوال الأسود — فقال الأسود لأخواله :

يا جار طلحة هل ترد لبُونَه فتكون أدنى للوفاء وأكرما
تالله لو جاورتموه بأرضه حتى يفارقكم إذاً ما أجرما

فبعث بنو عجل بإبل طلحة إلى الأسود ، وقالوا : أما إذا كنت شفيعه فخذها وتولّ ردها ، لتحرز المكرمة عنده دون غيرك [٢] .

ويتجلى أيضاً فى أن يؤثر البقيا على الشخص من تصله بأمه قرابة من بعيد ، ذلك أن عمرو بن هند وجه طَرَفة بكتاب إلى عامل البحرين يأمره فيه بقتله ، فقال له العامل : هل تعلم ما أمرت به فيك ؟ قال : نعم ، أمرت أن تجيزنى ، وتحسن إلىّ ، فقال لطرفة : إن بينى وبينك خئولة ، أنالها راع حافظ ، فاهرب من ليلتك هذه فإنى قد أمرت بقتلك [٣] .

نصرة الولد لخاله

تبادل الخال وابن أخته النصرة ، لأن كلا منهما يعز الآخر ويعْتزُّ به ، وإذا كان الخال يرى فى ابن أخته ولده ، فإن الولد كان يرى فى خاله أباه ، ويعرف له حقوقه . يقول المرقش الأكبر فى رثائه لابن عمه ثعلبة بن عوف ، واستعطافه ملكا من آل جفنة — هو الذى قتل عوفا — : إن قومه خئولة هذا الملك ، فحق لهم ألا يعتدى عليهم :

فنحن أخوالك عَمْرَكَ وال خال له معاظمٌ وحُرَم [٤]

لهذا كان الخال أحياناً يكل لابن أخته أن يثأر له إذا قتل ، فقد جدّ تأبط شراً فى الثأر لخاله ، وتوقع أن يثأر له ابن أخته إذا هلك :

---

(١) المغازى للواقدى ٣٧ (٢) الأغانى ١١/١٣١
(٣) شرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ١٩ مخطوط
(٤) المفضليات ٢/٤٠ عمرك : أقسم بحياتك

إن بالشِّعْب الذى دون سَلْعٍ لقتيـــلا دمه ما يُطَلّ
خَلَّف العبْء علىّ وولّى أنا بالعبْء له مُسْـــتَقِلّ
ووراء الثأر منّى ابن أخت مَصْعٌ عقـدتُه ما تُحَلّ
مطرق يرشح سُما كما أطـــرق أفعى ينفث السمّ صِلّ (١)

وكثيراً ما حقق أبناء الأخت أمل أخوالهم فى الثأر لهم ، كما ثأر تأبط شرا لخاله ، وكما ثأر عدى بن حاتم لخاله :

من مبلغ أفناء مَذْحِجَ أننى ثأرتُ بخالى ثم لم أَتَأثَّم (٢)

بل لقد يؤثر ابن الأخت أخواله على عشيرته ، ويشتفى بالثأر منها لأخواله ، يدل على ذلك أن بنى جعفر بن كلاب و بنى العجلان اقتتلوا ، فقتلت بنو جعفر رجلا من بنى العجلان ، ورضى هؤلاء أن يأخذوا دية قتيلهم ، فعيرهم القتال الكلابى - وهم أخواله لأن جدته أم أبيه عجلانية - وقال :

إذا ما لقيتم عُصْبةً جَعْفَرية كرهتم بنى اللَّكْعاء وقعَ السنابك
فلستم بأخوالى فلا تَصْلُبُنّنى ولكنما أمى لإحدى الغواتك
قُتلتُم فلما أن طَلَبْتُم عُقلتُم كذلك يؤتى بالذليل كذلك (٣)

وكان الرجل لا يغتفر لأحد أن يتنقص من قدر أخواله ، وإن كان المتنقص ألصق الناس به ، فقد بلغ ذلك بحسان بن ثابت أنّ طلق امرأته عمرة الأوسية ، غضباً لأخواله إذ بخستم أقدارهم ، وأفضلت الأوس عليهم . ولم يثنه عن تسريحها أن كلا منهما كان معجباً بصاحبه ومحباً له . وكأنما لم يشف الطلاق غضبه ، فأخذ يفخر بأخواله ، ليمحو ما مسهم من زوجته ، وليسمو بهم على قومها الأوس . قال فى ذلك :

لا يكن حبك حبا ظاهراً ليس هـذا منك ياعمر بسرّ
سألتْ حسان من أخواله إنما يَسْـأَلُ بالشىء الْغَمَرْ
قلت أخوالى بنو كعب إذا أسلم الأبطال عوراتِ الدُّبُرْ

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٦٠ ورسالة الغفران للمعرى ٥٤٥ الشعب : الطريق فى الجبل . سلع : جبل أو مكان بقرب المدينة . لا يطل : لا يهدر . مصع : ثابت شديد القتال . مطرق : ناظر بعينيه إلى الأرض . صل : خبيث من الأفاعى

(٢) حماسة البحترى ٤٣ (٣) الأغانى ٢٠/١٦١

رب خال لى لو أبصرته سبط المشية فى اليوم الخصر (١)

الفخر بالخال والمدح به

من الطبيعى إذاً أن يزدهى الولد بخاله ، وأن يشيد به فى مجال المُباهاة . ولقد يشفع خيلاءه بخاله إلى فخاره بأبيه وأجداده ، كقول عوف بن الأحوص :

ولكن نلت مجد أب وخال وكان إليهما يَنْمى العلاء (٢)

وقول قصى :

عَبْدٌ يُناديهم بِهابِ وَهَبى أمّهتى خِنْدِفٌ والياس أبى
حَيْدَرَةٌ حالى لقيطٌ وعلى وحاتم الطائى وهّاب المِئى (٣)

وقول الزبير بن عبد المطلب لأخيه العباس وقد أقعده فى حجره صغيراً ، وأخذ يغنى له ، مفتخراً بأعمامهما وأخوالهما :

أكرم بأعراقك من خال وعم (٤) .

وقول حسان بن ثابت :

جدّى أبو ليلى ووالده عمرو وأخوالى بنو كعب (٥)

وهذا الضرب من الفخر كثير (٦) .

وكان الشخص يمدح بعراقة خاله ، كما يمدح بشرف أبيه ، قال الأسود بن يعفر فى ابنه الجراح :

فآباء جراح ذُؤابة دارمٍ وأخوال جراح سَرَاة بنى نَهْد (٧)

وجاء فى وصف المنذر الأكبر للجارية التى سباها فى غارته على الحارث الأكبر الغسانى ، وأراد أن يهديها إلى أنوشروان : « كريمة الخال ، تقتصر بنسب أبيها دون فصيلتها ، وبفصيلتها

---

(١) ديوان حسان ٥٢ والأغانى ٣/١٤ سر : حسن . الغمر : غير المجرب . سبط المشية : كريم العمل . الخصر : البارد يريد وقت الجدب

(٢) المفضليات ١/١٧٣ ينمى . يرتفع (٣) لسان العرب ١٧/٣٦٤ هاب وهبى : زجر للخيل لتقدم فى الحرب

(٤) الأمالى ٢/١١٥ (٥) ديوان حسان ١٥

(٦) البيان والتبيين ٢/١٥٨ و٢/٢٥٩ وديوان حسان ٩٩

(٧) الأغانى ١١/١٣٣

دون جماع قبيلتها [١] ، وأحيانا كان الخال يمدح ابن أخته بأنه يزدان بمفاخر أخواله ، وهو بهذا يجمع المدح والفخر معاً ، كقول سلمة بن الخرشب يمجد ابن أخته الربيع بن زياد العبسى وقد هم قوم بمحاربته :

أتيتم إلينا ترجفون جماعةً ... فأين أبو قيس وأين ربيع ؟
وذاك ابن أخت زانه ثوبُ خاله ... وأعمامه الأعمام وهو نزيع
رفيقٌ بداء الحرب طَبٌّ بصعبها ... إذا شتَّ رأى القوم فهو جميع [٢]

وكان التجنى ربما يحتمل على مضض من عريق الأخوال والآباء ، أما من غيره فإنه مرّ لا يذاق ، وشنار لا يُغضَى عنه ، يقول أعرابى :

فلو أنى بُليتُ بهاشميٍّ ... خُئُولتُهُ بنو عبد المَدان
صبرت على أذيَّته ولكنْ ... تعالَى فانظرى بمن ابتلانى [٣]

على أن بعض الأبطال الذين انحدروا من آباء معرقين وأمهات شريفات قد خايلوا بمجدهم الذى كسبوا ، وبمجدهم الذى ورثوا ، يقول عامر بن الطفيل :

فإنى وإن كنت ابن فارس عامر ... وفى السِّرِّ منها والصريح المهذَّب
فما سوّدتنى عامرٌ عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب [٤]

الثأر من الخال

مأزق ضيق حرج أن يضطر الولد إلى الترجيح بين أبيه وخاله ، أيهما ينصر على الآخر ، ومن أيهما يثأر للآخر ؟ وليس يخلصه من هذا المأزق إلا أن يستوحى فطرته ، فيجد الأب أقرب لحمة ، وأعظم نعمة ، وأنه العصبة التى يحمل اسمها ، فيؤثر أباه على خاله ، ويثأر من خاله لأبيه . فقد ثأر الهجرس بن كليب التغلبى من خاله جسّاس ، وكان قد قتل أباه وهو جنين ، ثم وضعته أمه بين قومها ، فلما شب قتل خاله ثأراً لأبيه ، فلم يقبُح ما فعل [٥] ، وقال فى ذلك :

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/١٥١ (٢) الأغانى ١٦/٢٠
(٣) حماسة الخالديين ١٦٤ مخطوط
(٤) ديوان عامر القصيدة ١ من الملحق Lyall .
(٥) رسالة الغفران للمعرى ٥٤٥ تحقيق عائشة عبد الرحمن

أصاب أبى خالى وما أنا بالذى ... أُمثِّل أمرى بين خالى ووالدى
وأوردتُ جساسَ بن مرّة غُصَّةً ... إذا ما اعترتنى حَرُّها غير بارد

وقال :

يا للرجال لقلب ما له آس ... كيف العزاء وثأرى عند جساس

ولما قتل خاله قال أيضاً :

ألم ترنى ثأرت أبى كليبا ... وقد يُرْجَى المرشَّح للذُّحُول
غسلت العار عن جُشَمَ بنِ بكر ... بجساس بن مرةَ ذى التُّبول[1]

ثم قد يبتلى الشخص بوتر له عند خاله الذى قتل أخاه ، فيحار ، ويتردد ، ويسأل نفسه : أيهما أولى بأن يبقى عليه ؟ وأيهما أحق بأن يغضى عنه ، وتتنازعه فى ذلك النوازع ، فيجنح أحيانا إلى الشفقة على أمه حتى لا يضاعف نكبتها بفقد ابنها وأخيها ، ولكنه يحسم هذا التردد بأن يثأر ، هكذا فعل توبة بن مضرّس السعدى ، إذ قتل خاله بأخيه ، وقال :

بكت جزعا أمى رُمَيْلَةُ أن رأت ... دما من أخيها فى المهنّد باديا
فقلت لها لا تجزعى إن طارقا ... حميمى الذى كان الخليل المصافيا
وما كنت لو أُعطيت ألفَ نجيبة ... وأولادَها لَغْواً وستين راعيا
لأقبلها فى طارق دون أن أرى ... دما من بنى عوف على السيف جاريا
وما كان فى عوف قتيل علمتُـــهُ ... ليوفينى من طارق غير خاليا[2]

الصبر على أذى الخال

على أن الرجل قد يصفح عن مساءة خاله ، المساءة التى لا وتر فيها لأب أو أخ ، لأنه موقن أن فى القصاص منه إيلاما لنفسه ، فكأنما يقطع كفه . يقول المتلمس فى صفحه عن أخواله ، وتصوير المشاعر التى احتجزته عن القصاص منهم .

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ٤٨٩ والمستطرف ١/١٩١

(٢) الوحشيات لأبى تمام ٦٧ مخطوط ورسالة الغفران ٥٤٥ والمختلف والمؤتلف للآمدى ٦٨ لغو : ما لا يعتد به فى المعاملة وكانوا لا يحتسبون أولاد الإبل الصغار فى الدية . لذلك يقول الشاعر (كما الغيت فى الدية الحوارا)

وما كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخرى فأصبح أجْذَما
يداه أصابت هذه حِقْفَ هذه فلم تجد الأخرى عليها مقدَّما
فلما استقاد الكف بالكفِّ لم يجد دَرَاكا لها فى أن تبين فأحجما
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساغا لنابيه الشجاع لصمَّما (١)

وقليلا ما كان الأخوال يعتدون على ابن أختهم - كما اعتدى بنو سعد على ابن أختهم غسان بن رعلة ، أو كما اعتدى على النمر بن تولب أخواله وأغاروا على إبله ، فتذهب به الظنون شتى المذاهب ، ويركن أخيراً إلى أنهم عدوا عليه لأنه لا عصبية له - ولا أعمام أماجد :

إذا كنت فى سعد وأمك منهم غريباً فلا يغررك خالك من سعد
فإن ابن أخت القوم مُصْغًى إناؤه إذا لم يزاحم خاله بأبٍ جَلْد (٢)

التعيير بالخال

إذا كانت للخال هذه المنزلة فان ابن أخته يعيّر به كما يعيّر بأبيه ، لأنه أحد أصليه ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم فى هجاء النعمان ، يعيره لؤم خاله وصناعته :

لحى الله أدنانا إلى اللؤم زُلْفَةً وألأمنا خالا وأعجزنا أبا
وأجدرنا أن ينفخ الكيرَ خالُه يصوغ القروط والشُنوف بيثربا (٣)

وقول عامر بن الطفيل :

وأنت لسوداء المعاصم جَعْدَةٍ وأقْعَسَ من نسل الإماء العوارك
أبوك أبو سَوْء وأمك مثله وهل تشبهن إلا أباك وخالك (٤)

الخال فى الإسلام

ظلت الخئولة فى الإسلام رابطة قوية تشد ما بين الأفراد ، وتشد ما بين القبائل ،

---

(١) الوحشيات لأبى تمام ٩٥ مخطوط . أجذم : مقطوع الكف . حقف : أصل . استقاد . أراد أن ينتقم ويقتص . درا كا : بدا . الشجاع : الثعبان
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٤٠ وأساس البلاغة مادة صغى
(٣) الأغانى ٩/١٧٨ زلفة : منزلة
(٤) ديوان عامر القصيدة ٣٥

واستغلتها السياسة ، وأفلحت فى استغلالها ، فمثلا نصر بنو كلب — من اليمن — معاوية على علىٍّ ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم ، وقد تلطخت أصابعها بدمه حين مقتله ، ولأن معاوية تزوج منهم أم يزيد وقد ناصروا يزيد أيضا ، لأنهم أخواله . وكان خالد بن يزيد متعصبا لكلب على قيس فى الحرب التى نشبت بينهم ، لأن الكلبيين أخوال أبيه وأخوال زوجته ، فقال شاعر من قيس :

يا خالد بن أبى سفيان قد قَدَحَتْ منا القلوب وضاق السهل والجبل
أأنت تأمر كلبا أن تقاتلنا جهلا وتمنعهم منا إذا قتلوا (١)

وكانت مناصرة الأخوال فى الإسلام أمراً متواضعا عليه وإن لم يتصل بالسياسة ، يدل على ذلك قول غسان بن ذهيل فى هجاء جرير :

ستعلم ما يُغْنى مُعيدٌ وممرِضٌ إذا ما سَليطٌ غرَّقتك بُحورها (٢)

ثم جاء العصر العباسى فناصر الفرس المأمون على الأمين ، لأن أمه منهم ، وكان المعتصم يؤثر الترك ، ويجند منهم ، ويقدمهم على الفرس ، لأن أمه تركية .

عقوق الأمهات

ليس أجلب للعقوق من زوجة الابن المشاكسة الماكرة ، فإنها تريد أن تستأثر بزوجها ، كما استأثرت أمها بأبيها ، أو كما حاولت أن تستأثر . وعزيز على الأم التى حملت وأرضعت وربّت وأمّلت ، وكانت نجىّ ولدها ومفزعه فى مساءته ، وشريكه فى حبرته ، وكان ريحانة نفسها وسر سعادتها ، عزيز عليها أن تنتزعه منها هذه الفتاة الطارئة انتزاعا فجائيا قاسيا لايجامل ولايتدرج . وهنا يقع الابن فى الحيرة ، وتصطرع فى نفسه عاطفتان قويتان ، فيحسم الخلاف بحسن سياسته ، ويحاول أن يخمد النار كلما بدا من خلل رمادها وميض ، أو يجنح إلى ناحية من الناحيتين .

وإذا ما جنح إلى زوجته عقّ أمه ، فألقاها فى أتون متسعر من الهم والحسرات ، يقول عروة فى شكواه من أصحابه الذين أحسن إليهم وأساءوا إليه إنه وإياهم كالأم وابنها العاق ،

---

(١) الأغانى ١٦/٨٨

(٢) النقائض ٧ معيد : جد جرير لأمه . معرض : من أخواله

حملته وفدّته وربته وناطت به آمالها ، فلما كبر وحقّ لها أن تنتظر نفعه وشكره تزوج ، فقرب دونها فتاة جميلة تتكحل وتتزين لتجتذبه ، فهلعت أمه ، وباتت تصيح وتتألم مما نالها ، وإنها لحيرى بين أمرين ما من أحدهما بد ، وما فى أحدهما راحة ، أن تفقد ولدها وهذا لا يطاق ، وأن تصبر وتتجلد وهذا أيضا لا يطاق ، ولكنه مر المذاق :

فإنى وإياهم كذى الأم أرهنت ... له ماء عينيها تفدّى وتحمل
فلما ترجّت نفعه وشبابه ... أتت دونها أخرى جديدا تكحل
فباتت لحدّ المرفقين كليهما ... توخوخ مما نالها وتولول
تخيّر من أمرين ليسا بغبطة ... هو الثكل إلا أنها قد تجمّل (١)

وليس من الطبيعى أن يكون الأولاد جميعاً بررة ، بل الطبيعى أن يشذ بعضهم فيسىء إلى أمه وإلى أبيه ، ولو أن الشعر صمت عن هذه المساءة أو صور الأبناء كلهم أخياراً لكان قد كذب أو قصّر .

هذه أم ثواب الهزّانية تذكر تربيتها لابنها وتتوجع من عقوقه لها ، وإساءته إليها ، وتنظر إليه بقلب الأم وعينها ، فترى طفولته وتتذكرها ، وتدهش من لحيته ولِمّته ، ثم تشير إلى أمر تكتمه فى نفسها ، أو هو ينفلت منها على غير إرادة ، ذلك أن كَنَّتها هى التى أوغرت صدره ، وزينت له أن يضرب أمه ويمزق ثوبها ، على أنها تتظاهر بالعطف عليها وإن كانت تود إهلاكها :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه ... أمّ الطعام ترى فى ريشه زغبا
حتى إذا آض كالفُحّال شذّبه ... أبّاره ونفى عن متنه الكربا
أنشا يمزق أثوابى ويضربنى ... أبعد ستين عندى يبتغى الأدبا ؟
إنى لأبصر فى ترجيل لِمّته ... وخطّ لحيته فى وجهه عجبا
قالت له عِرْسُه يوما لتُسمعنى ... رفقاً فان لنا فى أمنا أربا
ولو رأتنى فى نار مسعّرة ... من الجحيم لزادت فوقها حطبا (٢)

---

(١) شعراء النصرانية ٨٩٤ وديوان عروة ٢٧

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٤٣ وثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ١/٢٠٥ وتهذيب الكامل ١/١٨٣ أعظمه أم الطعام : أكبر ما فيه بطنه . الفحال : فحل النخل . الأبار : الملقح للنخل . الكرب : أصول السعف . ترجيل لمته : غسل شعره وتمشيطه . ورواية الثعالبى للبيت الأول : أطعمه أم الطعام . وفسر أم الطعام بالحنطة

وقد صور أبو العلاء ما يختلج فى نفس بعض الأمهات أحيانا من تخوفها سوء عشرة كَنَّتها لها ، وإيثارها أن يشغل ابنها نفسه بطلب المجد عن الزواج ، وتحذيرها إياه إغراء الخاطبات الخادعات :

عليك السابغات فإنَّهُنَّه ... يدافِعْنَ الصوارمَ والأسِنَّه

. . . . . .

فخنَّ إلى المكارم والمعالى ... ولا تثقل مطاك بعبء حَنَّه
فإنى قد كبرتُ وما كعابٌ ... ملائمةً عجوزا مُقْسِئَنَّه
ترى تَنُّومَها وترى ثَغَامِى ... فتهزأ من مُنهْبِلَةٍ مُسِنَّه
إذا حَاورتُها نبذت حِوارى ... وإلا تُلْفِ لى ذنبا تَجَنَّه[1]

والحطيئة مثل سائر فى هجائه لأمه — وإن كان قد هجا نفسه وزوجته وأباه — فهل كان مرجع هجائه لأمه أنه شاعر ساخر ذو شرّ وسفه لا يبالى أين وقع مقاله ، ولا يرعى حرمة نفسه ولا حرمة غيره ؟ أو كان سبب هجائه لأمه راجعا إلى عقدة نفسية ، وهذه العقدة هى التى أضرمت فى نفسه المجازفة بالقول ، وجعلته لا يبالى ؟ أرجح أن هذا هو السبب ، وأرجع هذه العقدة النفسية إلى أنه كان مجهول النسب ، لا يعرف أباه معرفة يقين ، لأنه من أولاد الزنا ، وقد سأل أمه من أبوه فخلّطت عليه ، فقال :

تقول لى الضَّرَّاء لستَ لواحدٍ ... ولا اثنين ، فانظر كيف شِرْكُ أولئكا
وأنت امرؤ تَبْغى أبا قد ضللته ... هُبِلْتَ ألما تستفقْ من ضلالكا

لذلك كان نسبه متدافعا بين القبائل ، فينتمى إلى واحدة إذا غضب على الأخرى ، فآنا يدعى أنه ابن عمرو بن علقمة ، وحينا ينتسب إلى بنى ذهل بن ثعلبة ، وتارة يعتزى إلى بنى عبس ، وآونة يلتصق ببنى الأفقم .

ثم إن أمه تزوجت — بعد أبيه ، والحطيئة كبير — بالكلب بن كنيس ، وهو ابن أمة ، وولد زنا أيضا[2] . أعتقد أن تخليط أم الحطيئة عليه فى نسبه ، وجهله أباه الحقيقى ،

---

(١) شرح التنوير على سقط الزند ٢/٢٩٣ مقسئنة : يابسة من الكبر . تنومها : شعرها الأسود الشبيه بثمر شجر التنوم . الثغام : نبت يشبه الشعر الأبيض . منهبلة : عجوز تمشى فى ضعف . تجنه : تتجنى وتدعى على ذنبا لم أفعله

(٢) الأغانى ٢/١٦٠ — ١٦٤

واضطراره إلى الالتصاق بأناس شتى ، وأن زواج أمه برجل مجهول النسب أيضاً وخزيها له فى كبره ، أعتقد أن ذلك بلبل خواطره ، ومزج بالسخط حياته ، وركب فى نفسه احتقار أمه وامتهان نفسه وكل عزيز عليه . يقول فى هجائها وهجاء زوجها :

ولقد رأيتك فى النساء فسؤتنى ... وأبا بنيك فساءنى فى المجلس

وقال أيضا :

جزاك الله شرا من عجوز ... ولقّاك العقوق من البنين
فقد مُلكتِ أمر بنيك حتى ... تركتهم أدقّ من الطحين
لسانك مبرد لا خير فيه ... ودرُّك درُّ جاذبةٍ دَهين[1]

ويقول أيضا :

تنحَّى فاجلسى عنى بعيداً ... أراح الله منك العالمينا
أغِرْبالا إذا استودعت سرا ... وكانونا على المتحدثينا
حياتك ما علمتُ حياة سوء ... وموتك قد يسر الصالحينا[2]

وله فى هجائها وهجاء غيرها شعر كثير [3] .

على أن عقوق بعض الأبناء لم يقتصر على الأمهات ، بل تعدى إلى الآباء ، يقول المنازل ابن الأعرف يتشكى من ابن عاق اسمه خليج :

تظلمنى ما لى خليج وعقّنى ... على حين كانت كالْحَنِىِّ عظامى
وكنت أرجّى الخير منه، وأمه ... حَراميـــة ، ماغرنى بحَرام ؟
وربيته من بعد ذا فرحاً به ... فلا يفرحنْ بعدى أب بغلام [4]

ويقول أمية بن أبى الصلت فى ابنه :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا ... تَعُلّ بما أَحْنى عليـــك وتُنْهَلُ
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكوَاك إلا ساهراً أتململ

---

(١) درك : لبنك . جاذبة : ناقة لا تدر . دهين : ناقة قليلة اللبن لا تدر

(٢) كانون : ثقيلة

(٣) الأغانى ٢/١٦٢ الدار والعقد الفريد ٣/٢٢٣ وخزانة الأدب ٢/١٧٥ ومجمع الأمثال ١/١٤٢

(٤) معجم الشعراء ٥١ الحنى : القسى

كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طُرِقْتَ به دونى فعينىَ تهمُل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغتَ السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت منك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
وسميتنى باسم المفنَّد رأيُهُ ... وفى رأيك التفنيدُ لو كنت تعقل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يَفْعل [1]

وكذلك يشكو أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز [2] .

وإذاً فقد كان عقوق الأمهات نادراً ، وكان العقوق — على ندرته — يصيب الأمهات والآباء ، ولو أنه أصاب الأمهات وحدهن لكان معناه أن الأم أقل فى نظر بنيها مكانة من الأب ، أو أقل عزازة .

---

(١) ديوان أمية ١٧

(٢) معجم الشعراء ١٦

الفصل الثاني

الزّوجة

المصاهرة رباط بين المتصاهرين

ما من شك فى أن المصاهرة كانت لحمة قوية بين الأفراد والعشائر ، تقوى ما بين الأقرباء وتقرب ما بين البعداء ، وتطفئ نار العداوة والشحناء ، لأنها صلة جديدة مختارة من شأنها أن تمزج المتصاهرين .

يقول خالد بن يزيد بن معاوية : كان أبغض خلق الله عز وجل إلىّ آل الزبير ، حتى تزوجت منهم رملة ، فصاروا أحب خلق الله إلىّ [1] ، وفيها يقول :

أحب بنى العوّام طرًّا لحبها ... ومن حبها أحببت أخوالها كلبا [2]

وقد استعطف عدى بن زيد العبادى النعمان بن المنذر بمصاهرته له ، لأنه كان زوج أخته كما ذكر العلماء من أهل الحيرة ، أو زوج ابنته هند كما ذكر رواة العرب ، وفى استعطافه يقول :

أجْلَ نُعْمَى ربها أوّلكم ... ودُنُوّى كان منكم واصطهارى [3]

وفى تهديد النابغة لعمرو بن هند مضرط الحجارة قوله إننا لا بد أن نقابل شرّك بمثله ، وإن كنت قد ذكرت ما بيننا من مصاهرة ومودة ؛

نَجْزيك إنذاراً بما أنذرتنا ... وذكرتَ عطف الود والإصْهار [4]

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٧

(٢) الأغانى ١٦/٨٦

(٣) الأغانى ٣/١٣ الدار. أجل : نصب على نزع الخافض . ربها : نماها

(٤) ديوان النابغة ٤٣

الزوجى المثلى

علم الرجل أن الزواج شركة فى الحياة ، وأساس لعشرة طويلة ، ولُحْمة وثيقة بينه وبين من يصاهر . وعلم أيضاً أن الزوجة سكنه ومتاعه ، وقسيمته فى إنتاج أولاده ، يرثون منها كما يرثون منه ، وينطبعون على كثير مما تطبعهم عليه ، وتأخذهم به منذ الحداثة . لذلك تخير الزوجة جهده ، وكانت الزوجة المثلى ممتازة بصفات تحببها إلى الرجل .

١ — بعض هذه الصفات راجع إلى حسبها وشرف قومها . وليس الحسب فى نظر العربى هو الغنى ، وإنما هو المجد وحسن الأحدوثة ، والاشتهار بمكارم الأخلاق ، سواء اقترن به ثراء أم لم يقترن . يدل على ذلك أن قيس بن زهير سيد عبس وبطلها طلب من النمر بن قاسط من ربيعة أن يختاروا له زوجة أذلها الفقر وأدبها الغنى [١] ، وشبيه به قول خالد بن صفوان لرجل : « اطلب لى بكراً . . . قد عاشت فى نعمة وأدركتها حاجة ، فخلق النعمة فيها ، وذل الحاجة معها [٢] » .

لذلك أوصى أكثم بن صيفى قومه بقوله : « لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف [٣] » . وهو يريد شرف أبنائه . وامتن أبو الأسود الدؤلى على بنيه بقوله: أحسنت إليكم كباراً وصغاراً وقبل أن تولدوا . قالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال : اخترت لكم من النساء من لا تسبون بهن [٤] » .

ثم جاء النبى صلى الله عليه وسلم فعزز هذه الفكرة بقوله : « احتفظوا لنطفكم فإن العرق نزّاع » . وقال : « إياكم وخضراء الدمن » قيل : ما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء [٥] » . وجرى المسلمون على حكمته ، فقد أوصى عثمان بن أبى العاص الثقفى بنيه بتخير زوجاتهم وأصهارهم ، وضرب لهم من نفسه مثلا: « يابنى إنى أجدتكم فى أمهاتكم . . . والناكح مغترس ، فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين [٦] » . ولما خطب عبد الله ابن الزبير مبشراً بفتح إفريقية فى مجلس عثمان بن عفان

---

(١) العقد الفريد ٣/٢١١ (٢) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦١

(٣) نزهة الأبصار والأسماع فى أخبار ذوات القناع ٣٢ ومحاضرات الأدباء ٢/١١٧ ومجمع الأمثال ٢/٢١٨ (٤) إسماع الصم فى إثبات الشرف من قبل الأم ٤ مخطوط

(٥) كنز العمال ٨/٢٨٨ ومحاضرة الأدباء ٢/١١٧ (٦) البيان والتبيين ٢/٦٧ طبعة هارون

أعجب به أبوه الزبير فقال : « يأيها الناس انكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن ، فإنى لم أر لأبى بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا [١] » .

لا عجب إذاً فى أن افتخر بعض الأرواج بحسب زوجاتهم ، لأن فى حسبهن شرفا لأزواجهم ، من ذلك أنه كانت ملاحاة بين لقيط بن زرارة ورجل من بيته اسمه زيد، فعيره زيد أنه لم يتزوج ، لأن الأكفاء يرغبون عنه . فخطب إلى قيس بن مسعود ، فلما زوجه قال:

ألم يأت زيداً حيث أصبح أننى ... تزوجتها إحدى النساء المواجد
عقيلة شيخ لم يكن لينا لها ... سوى عُدُسِيٍّ من زُرارة ماجد
إذا اتصلت يوما بنسبتها انتهت ... إلى آل مسعود بن قيس بن خالد

وعير عامر بن الطفيل خصومه بأنهم حقراء لا يتسامون إلى الخطبة من الكرام ولا إلى أن يخطب إليهم أحد ، لذلك تَعْنُس بناتهم ولا يخطبن :

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم ... وتثيب أيِّمهم ولما تُخْطب [٢]

وإذاً فالزوجة نبعة من قومها ، تثمر مثل ثمرهم وتتخلق بأخلاقهم ، وأبناؤها صورة منها ، لهذا يقول أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز فى عقوق بنيه وشراسة زوجته :

إن بنىّ ليس فيهم بَرٌّ ... وأمُّهم مثلهم أو أشَرُّ
إذا رأوها نبَحتنى هَرُّوا [٣]

ويقول رافع بن هُرَيْم فى عتاب أبناء إخوته إنهم أخسَّة لأنهم ورثوا عن أمهم الخسة :

عفاريتا علىّ وأخذ مالى ... وعجزا عن أناس آخرينا
فهلا غيرَ عَمكم ظلمتم ... إذا ما كنتم متظلمينا
فلو كنتم لكيِّسَة أكاست ... وكيْسُ الأم أكيس للبنينا
ولكن أمكم حُمُقَتْ فجئتم ... غِثاثاً مانرى فيكم سمينا [٤]

وكانت المرأة نفسها بصيرة بذلك ، فقد أتى رجل إلى ابنة الخسِّ يستشيرها فى امرأة يتزوجها ، فقالت : انظر رمكاء جسيمة ، أو بيضاء وسيمة ، فى بيت جَدٍّ أو بيت حَدٍّ أو بيت عز . قال : ما تركت من النساء شيئاً [٥] .

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٤٠٦
(٢) ديوان عامر القصيدة ٨
(٣) معجم الشعراء ١٦
(٤) البيان والتبيين ١/١٨٦ تحقيق هارون
(٥) الأمالى ٢/٢٥٦ رمكاء : سمراء

وقد أمر النبي بإيثار المرأة ذات الخلق القويم والتدين ، قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك [١] » .

وزوج عمر بن الخطاب ابنه عاصما بنت امرأة تبيع اللبن ، لأن خلقها أعجبه [٢] .

٢ — وبعضها راجع إلى أوصافها الجسدية والنفسية ، وقد فصلت هذا ، ووضحت نموذج الجمال فى نظر الرجال ، فى موضع آخر [٣] ، ويكفى أن أذكرهنا قول لقيط بن زرارة فى وصف زوجته :

كأن رضاب المسك دون لِثاتها ... على شبمٍ من ماء مُزْنةَ بارد
لها بَشَرٌ صافى الأديم كأنه ... لجين تراه دون حُمْر المجاسد
إذا ارتفقت فوق الفراش حسبتها ... شريحة نبع زُيِّنتْ بالقلائد [٤]

٣ — وهم آثروا الشابة البكر على الثيب ، ولعلهم نظروا إلى أنها كاللؤلؤة لم يزايلها صدفها ، وراعوا أنها أسلس قياداً وأيسر انطباعاً ، وأكثر نسلا وولادة ، وهم يعرفون بالمشاهدة أن الرجل أبعد أمداً فى النسل من المرأة ، « فهى تنقطع عن الحبل قبل أن ينقطع الرجل عن الإحبال بدهر [٥] » .

لذلك قال الحارث بن كلدة : لا تتزوجوا من النساء إلا الشباب [٦] .

وقد خدع جهم فى امرأة من بنى فقعس اسمها قُمامة ، فباع ابله ، ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزا ، فقال :

وما لمتُ نفسى مذ فُطِمْتُ بلَحْيةٍ ... كما لمت نفسى فى عجوز بنى شمس
فبانت — ولم أُغبَنْ — غداة اشتريتها ... وبعت تلاد المال بالثمن البخس
فان مات جهمٌ غيلةً فاقتلوا به ... قُمامة إن النفس تقتل بالنفس [٧]

والشعراء مكثرون من الوصاة بتجنب العجوز والأيّم ، كقول أحدهم :

---

(١) فتح البارى ٩/١١٥ واللطائف والظرائف للثعالبى ٦١ وعيون الأخبار ٤/١
(٢) مجمع الأمثال ٢/١٠٢ (٣) الغزل فى العصر الجاهلى ٢١ — ١١٤
(٤) أمثال العرب للضبى ٢١ (٥) الحيوان للجاحظ ٥/٢٠٨
(٦) مطالع البدور ٢/٢٧
(٧) عيون الأخبار ٤/٤٧ فى الأصل فبنت ، ورجح مصحح الكتاب أن هذا تحريف صوابه فبتّ . لكن هذا لايتفق مع المعنى ، لأن الشاعر يذكر أنه فارقها غداة دخوله بها مسروراً لم يشعر بحسرة على ماله ، لأنه قنع بالخلاص منها . لهذا رجحت أن يكون التصويب (فبانت) أى طلقتها أو يكون (فبتّ) أى قطعت صلتى بها

لا تنكحنّ الدهرَ ما عشتَ أيّما ... مُخَرْمَةً قد مُلَّ منها ومُلَّت
تجود برجليها وتمنعُ دَرَّها ... إذا طُلِبَتْ منها المودة هَرَّت [١]

ويقول آخر :

لا تنكحنّ عجوزا إن أُتيتَ بها ... واخلع ثيابك منها ممعنا هَرَباً
وإن أتوك فقالوا إنها نَصَفٌ ... فإن أمثل نصفيها الذى ذهبا

وقد شدد النبى عليه الصلاة والسلام فى اختيار البكر [٢] . وروى عن عمر قوله : « انكحوا الجوارى الأبكار ، فإنهن أطيب أفواها ، وأنتق أرحاما [٣] » . وقال النبى لجابر ابن عبد الله لما أخبره أنه تزوج ثيبا : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك » والمراد بالجارية البكر [٤] .

وقد آثر أفلاطون المرأة الشابة ، لأن الناس يسلكون ذلك فى استيلاد الحيوان ، ليحصلوا على نسل قوى ممتاز . وذهب إلى أن شباب المرأة يبدأ من العشرين وينتهى بالأربعين ، أما الرجل فإن شبابه من الثلاثين إلى الخامسة والخمسين [٥] .

٤ — وهم يحبون المرأة الولود ، وكان هذا من بواعث إيثارهم للشابة البكر ، لأنهم كانوا يفرحون بكثرة الأولاد — ولا سيما الذكور — ويعتزون بهم ويكاثرون وهم طالما خايلوا بكثرة عددهم ، وعيروا بقلته ، لأن حياتهم القبلية كانت تعتمد على العصبية والنصرة والحروب ، وفى كثرة العدد عز ومنعة ، وفى قلته ضعف واستهانه ، لذلك كانت القبيلة تهنأ وتقيم العرس لثلاث : غلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج [٦] . يقول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملؤه سفينا

وكان الرجل يعتمد فى نصرته على بنيه أولا ، يقول الأشهب بن رُميلة أو نهشل ابن حَرِىّ :

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/١٩٧ مخرمة ؛ دعا عليها أهل زوجها السابق أن تتخرمها المنية
(٢) فتح البارى ج ٩ وكنز العمال ٨/٢٨٥ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٨
(٣) كنز العمال ٨/٢٨٨ وفى جمهرة الأمثال لأبى هلال ٧٦ أنه حديث
(٤) فتح المبدى ٢/١٧٨ وفتح البارى ٩/١٠٤ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٨٠
(٥) جمهورية أفلاطون ١٣٢ — ١٣٤
(٦) العمدة لابن رشيق ١/٣٧

قال الأقارب لا تغررك كثرتنا وأغن نفسك عنا أيها الرجل
علَّ بَنِيّ يشدُّ الله أعظمهم والنبع يَنبُتُ قضبانا فيكتهل (١)

لهذا كان من الأسباب التى بغّض بها زهير بن أبى صُرَد عيينة بن حصن فى عجوز استمسك بها من سبى هوازن ولم يطلقها كما أطلق رسول الله والمهاجرون والأنصار سبيهم قوله له : والله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد (٢) .

وتأبى أنوثة المرأة إلا أن تستعلن فى تفضيلها المرأة الولود وإن كانت مئناثا ، تقول ابنة الخس : أفضل النساء . . . متوركة جارية ، فى بطنها جارية ، تتبعها جارية (٣) .

وقد أكد النبى هذا الميل بحضه على إيثار الزوجة الولود ، جاءه رجل فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال النبى : تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم (٤) .

ولم يصرفهم عن المرأة الولود إلى العاقر أن العاقر أخوف من الضرة ، فهى أرعى للزوج ، حتى تلهيه بتبعّلها عن عقمها ، فلا يجنح إلى زواج غيرها ، يقول المُعقِّر البارقى فى وصف الخيل :

يفرِّج عنا كلَّ ثغرٍ مخافةٍ مِسَحٌ كسرحان القَسيمة ضامر
وكلُّ لجوج فى العَناق كأنها إذا اغتمست فى الماء فَتْخاء كاسر
لها ناهضٌ فى الوكر قد مَهَدَتْ له كما مَهَدَتْ للبعل حسناء عاقر
تخاف نساء يبتدرن حليلها مُحرَّدة قد حَرَّدتها الضرائر (٥)

وقد شاركهم اليهود فى حب النسل ، وكانت كثرته تلوح أعظم ما يمن به (يهوه) على الرجل ، وكان عقم المرأة يعد عاراً (٦) . يقول السموءل بن عادياء مدافعاً عن قلة عددهم :

تعيرنا أنا قليـــل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل (٧)

---

(١) البيان والتبيين ٣/٤٧ (٢) سيرة ابن هشام ٤/١٣٧
(٣) الأمالى ٢/٢٥٧
(٤) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ٣/٣٤١ وكنز العمال ٨/٢٨٥
(٥) الأغانى ١٠/٤٤ مسح : جواد سريع . سرحان : ذئب . العناق : الإسراع . اغتمست فى الماء : بللها عرقها من شدة عدوها . فتخاء : عقاب . كاسر : منقضة مفترسة . ناهض : فرخ أوشك أن يطير
(٦) اليهود فى تاريخ الحضارة ٤٩ (٧) ديوان السموءل ٨

٥ — ومن كمال الزوجة أن تكون أريبة لقنة فصيحة، لتبشر بأن ابنها سيكون كذلك. فقد طلق أبو رمادة امرأته لما وجدها لثغاء، مخافة أن تلد له ولداً ألثغ، ولم تفتنه بأن تتبختر فى ثيابها الموشاة فتنسيه لثغها، قال:

لثغاء تأتى بحيفس ألثغ تميس فى الموشى والمصبغ (١)

ويزعمون أن امرأ القيس آلى ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين، فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر، فبينما هو يسير ليلا إذا برجل يحمل ابنه له صبية كأنها البدر ليلة تمامه، فأعجبته، فسألها سؤاله، فقالت: أما ثمانية فأطباء الكلبة، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما ثنتان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها، فزوجه إياها (٢).

وهذه القصة تحمل فى طياتها بواعث الشك فيها، فلست أعقل أن يخطب امرؤ القيس ويتزوج صبية لما يزل يحملها أبوها، ولست أعقل أن يقصد امرؤ القيس فى اختياره لمن يخطبها إلى اختبارها بهذا الضرب من الإلغاز، الذى لا يتهدى إلى مرماه إلا مخترعه. وأرجح أنها قصة موضوعة لتعليم الفروق اللغوية، وللدلالة على أن اللغة تخص هذه الأثداء بكلمات مختلفة، ثم إنها مشفوعة بقصة أخرى لا تقل عنها غرابة، تدل على ذكاء هذه الصبية وقدرتها على التمييز (٣).

صفات مذمومة فى الزوجة

١ — تحاموا المرأة الحمقاء، لأنها تلد الحمقى، جاء فى وصية أكثم بن صيفى إلى طيىء: «وإياكم ونكاح الحمقاء، فان نكاحها غرر، وولدها إلى ضياع (٤)»، وكذلك قال الحارث بن كعب لبنيه: «إياكم والورهاء، وتجنبوا الخرقاء». وفى الحديث الشريف: لا تتزوجوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وفى ولدها ضياع، و«لا تسترضعوا الحمقاء فإن لبنها يغير». وقال عمر بن الخطاب «لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا (٥)».

٢ — وتحاموا ضربا من النساء يخدع مظهره، ويسوء مخبره، هذا الضرب هو النسوة

---

(١) البيان والتبيين ١/٥٧ وعيون الأخبار ٤/٧ وفيه نسب الشعر لزياد
(٢) الأغانى ٨/٧١ ساسى ومجمع الأمثال ٢/٢١١ (٣) الأغانى ٨/٧١
(٤) مجمع الأمثال ٢/١١٨ غرر: تعرض للضرر
(٥) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٤٦٤ والمبسوط للسرخسى ١٥/١١٩ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٢

اللائى منحن وسامة وقسامة ، لكنهن نشأن فى بيئة لا تغذى بأخلاق فاضلة . يقول أكثم ابن صيفى : « لا يغلبنكم جمال النساء على صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف [١] » . ويحس الشاعر أن الخسة قد تأتى من الأم والخالة لأن وراثة الشر قوية :

فأدركْنَهُ خالاتُهُ فخذلنَهُ ألا إن عرق السوء لا بد مدْرك [٢]

وشبيه بهذه الثرية الناشئة فى لؤم وخسة ، وقد نفّر منها أكثم بن صيفى فى وصيته لابنه : « يابنى إياك واختيار اللئيمة بما عندها من المال ، فإن المال يذهب به ، ويبقى فى حالك اللؤم الذى لا يغنيه شىء [٣] » . ثم يؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله : « إياكم وخضراء الدمن [٤] » يريد المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، كالنبات المعجب الذى نبت على البعر ، يروق ظاهره ، وليس فى باطنه خير ، لأن عرق السوء لا بد أن يظهر .

٣ — وكانت المرأة الثيب غير محببة إليهم فى الأعم الأغلب ، وكذلك المرأة المتمارضة ، والغنية التى تمن بمالها ، وغير المتصونة . قال رجل لولده . « يابنى لا تتخذها حنّانة ولا أنّانة ولا منّانة ولا عُشبة الدار ولا كَيَّة القفا [٥] » ، ينهاه عن المرأة الثيب التى تحن إلى زوجها الأول ، أو التى لها ولد من غيره فهى تحن عليهم . وينهاه عن التى تئن من غير علة ، لأنها إما مترفة مبالغة فى ترفها ، وإما خبيثة تتمارض لأرب فى نفسها ، أو هى التى مات عنها زوجها ، فكلما رأت زوجها الثانى أنت . وينهاه عن ذات المال التى لا تفتأ تذكر زوجها بما قدمت له ولبنيه من خير . وينهاه عن الحسناء فى بيئة فاسدة ، وينهاه أخيراً عن المرأة التى تتناولها الألسنة ، فإذا قام زوجها من المجلس قالوا : فعلت كذا وكذا ، وكان بينها وبين فلان كذا .

على أن الثيب كانت تشتهر أحيانا بعراقة أو بجمال أو خلق كريم ومال ، أو تجتذب الرجال بحبالة ما فتتزوج مرات . وهم يضربون المثل بأم خارجة ، فيقولون : أسرع من نكاح أم خارجة ، كما قالوا ولدت فى العرب فى نيف وعشرين حيا ، من آباء شتى ، وكان الرجل يقول لها خِطْب ، فتقول نِكْح [٦] ، حتى لو قال قائل إنه لا يكاد يتخلص من ولادتها

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/١١٧ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٢ وجمهرة الأمثال ٤

(٢) جمهرة الأمثال ٥ (٣) نزهة الأبصار ٣٢

(٤) كنز العمال ٨/٢٨٨ (٥) المحاسن والأضداد ١٦٩ والأمالى ٢/٢٥٦

(٦) تهذيب الكامل ٢/١١٧

كثير من الناس لكان قد قارب [١] ، على أن المفضل الضبي ذكر أنها تزوجت خمس مرات فحسب [٢] ، وابن حبيب ذكر أنها تزوجت أكثر من ثمانية رجال [٣] .

وكثيرات من النساء غير أم خارجة قد أُرْدِفْنَ ، منهن مارية بنت الجُعَيْد ، ذكر ابن حبيب أسماء أزواجها ، وعددهم عشرة ، ودختنوس بنت لقيط بن زرارة تزوجت ثلاثة ، وهند بنت عتبة تزوجت ثلاثة أيضاً [٤] ، والسيدة خديجه بنت خويلد تزوجت قبل المصطفى مرتين [٥] ، وضباعة بنت عامر بن قرط تزوجت ثلاثة [٦] . وقد استنبطت من رسالة المردفات لأبي الحسن المدائني ثماني وعشرين مردفة في الجاهلية .

وكذلك أُرْدِفَتْ كثيرات في الإسلام، كأم هشام بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب [٧]، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، أردفت خمسة رجال [٨] ، وتزوجت أم كلثوم بنت عقبة أربع مرات [٩] ، وجميلة بنت عبد الله بن أبيّ بن سلول تزوجت أربع مرات [١٠] .

ولكن الميل العام كان للبكر كما سبق ، في الجاهلية والإسلام . ويدل على ذلك أيضاً قول الجاحظ : إن الزواج بالثيب كان قبيحاً في العصر الأموي والعباسي [١١] .

٤ — ومن عيوبها تقطيب الجبين ، والصَّخب ، والضَّجاج والمشارَّة . قال شيخ من بني سليم لابنه : يابني إياك والغضوب القطوب [١٢] ، وقالت ابنة الخس : شر النساء السُّويداء المراض ، الكثيرة المظاظ [١٣]

وخير تصوير لذلك قول عبدالله ابن أوفى الخزاعي في امرأته :

نكحتُ ابنة المُنْتَصَى نكْحةً ... على الكره ضرَّتْ ولم تنفع
ولم تُغْنِ من فاقةٍ مُعْدِماً ... ولم تجْد خيراً ولم تجْمع
مُنجَّذةٌ مثل كلب الهِراش ... إذا هجع الناس لم تهجع

---

(١) محاسن النساء لابن هاشم ٦٦ مخطوط
(٢) أمثال العرب للضبي ١١
(٣) المحبر ٤٣٥ لابن حبيب
(٤) المحبر ٤٣٥ — ٤٥٥
(٥) الإصابة ٦٠/٨
(٦) الإصابة ١٣٣/٨
(٧) الأغاني ١٣٨/١١
(٨) الأغاني ١٢٧/١٦ وأسد الغابة ٤٩٩/٥ ونزهة الأبصار ١٤ والإصابة ١٣٧/٨ والاستيعاب ٧٦٨/٢
(٩) المردفات من قريش لأبي الحسن المدائني ٦١ من نوادر المخطوطات
(١٠) الإصابة ٤٢/٨
(١١) رسالة القيان ٥٩
(١٢) بلوغ الأرب ٢٢/٢
(١٣) الأمالي ٢٥٦/٢ المظاظ : المشارة والمشاقة

مُفَرِّقَةٌ بين جيرانها وما تستطعْ بينهم تقْطع (١)

الزوجات الغريبات

١ — كان العرب يجرون على نظام الزواج من العشيرة ، ومن غير العشيرة ، لكنهم كانوا يؤثرون الاغتراب ، لأنهم يرون أن ولد الرجل من قرابته يجىء ضاوياً نحيفاً . قال الشاعر يدعو على شخص اسمه عبيد :

ذاك عُبَيْدٌ قد أصاب مَيَّا ياليته ألقحَها صبيَّا
فحملتْ فولدتْ ضاويًا (٢)

وفى أمثالهم : النزائع لا القرائب . قال ابن السكيت : النزيعة الغريبة ، لأن الغريبة أنجب. ويقال اغتربوا لا تضووا ، أى انكحوا فى الأباعد حتى لا يولد لكم ضاوىّ ، قال الشاعر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضْوى وقد يَضْوى رديد القرائب
تعلم من أعمامه البأس والندى وورثه الأخوال حُسْنَ التجارب
هو ابن غريبات النساء وإنما ذوو الشأن أبناء النساء الغرائب (٣)

وقال آخر فى تخيره زوجة غريبة :

تَنَحَّيْتُها للنسل وهى غريبة فجاءت به كالبدر خِرْقًا مُعَمَّما (٤)

وقال آخر :

أنذرُ من كان بعيد الهم تزويج أولاد بنات العم
فليس بناج من ضوًى وسقم (٥)

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤٢ ابنة المنتصى : زوجته التى وطئها مرة واحدة . منجدة : مجرب ما عندها . الهراش : تحريش كلب بكلب . إذا هجع الناس لم تهجع : نمامة

(٢) لسان العرب ١٩/٢٢٥

(٣) مجمع الأمثال ٢/٢٧٠ ولسان العرب ١٩/٢٢٥ وجمهرة الأمثال ١٥ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١/٥٠٢ وحماسة الخالديين ١٣٥ مخطوط والتنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ١٢٤

(٤) حماسة الخالديين ٦٥ مخطوط والبيان والتبيين ٣/٦٨ ولسان العرب ١٩/٢٢٥ تنحى : اعتمد ورواية البيان : تنخبتها أى اخترتها . خرق : كريم الخليقة . معمم : سيد

(٥) محاضرات الأدباء ١/٢٠٧ وتاج العروس ١٠/٢٢١

وقال غيره :

الا فتًى نال العلا بهمّه ليس أبوه بابن عم أمّه

ترى الرجال تهتدى بأمه (١)

وافتخر شاعر بأن أمه غريبة :

مكننى بيت رفيع وجرأة وخال كعُرْيان النجوم نزيع (٢)

وقد جرى المسلمون على هذا ، فالنبى عليه الصلاة والسلام يأمر باختيار الغريبات مخافة ضعف النسل « اغتربوا لا تضووا (٣) » ، وعمر بن الخطاب ينظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فيقول : ما لكم صغرتم؟ قالوا : قرب أمهاتنا من آبائنا : فيقول صدقتم ، اغتربوا . فتزوجوا فى البعداء فأنجبوا (٤) . وقال جرير فى ابنه بلال .

إن بلالا لم تَشنْه أمه لم يتناسب خاله وعمه (٥)

على أن بعضهم كان يؤثر بنات العم ، لأنهن فى زعمه أصبر على ريب الزمان ونبوة الخلق . ومن هؤلاء بنو عبس ، وقد سئلوا أى النساء وجدتم أصبر؟ قالوا : بنات العم (٦)

وهذا النظام الذى سار عليه العرب فى الاغتراب يشبه ما كان سائداً فى بعض الدول المسيحية الأوربية ، إذ كانت تحرم التزاوج بين أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات ، وما زال العرف الأوربى — بعد إباحة الزواج بهن — يفضل غيرهن عليهن (٧) .

والسبب الذى زين للعرب أن يغتربوا هو عقيدتهم أن الاغتراب يقوى النسل وأن الاقتراب يضعفه ، فهل هذا صحيح؟ نعم لأنه إذا كان فى الأسرة ضعف موروث ، فإنه يتفاقم .

وقد تنبه القدماء لهذا ، يقول الجاحظ : « ورأينا الخلاسىّ من الناس — وهو الذى يتخلق بين الحبشى والبيضاء — ، والعادةُ من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه ، وأقوى من أصليه ومثمريه (٨) » .

---

(١) تاج العروس ١٠/٢٢١ أمه : قصده

(٢) المعانى الكبير لابن قتيبة ١/٥٠٢ خال كعريان النجوم : واضح النسب شهير كالنجم السافر

(٣) لسان العرب ١٩/٢٢٥ وتاج العروس ١٠/٢٢١ ومحاضرات الأدباء ١/٢٠٧

(٤) كنز العمال ٨/٢٨٨ ومحاضرات الأدباء ١/٢٠٧ والعقد الفريد ٣/٢٢٤ وعيون الأخبار ٤/٣

(٥) ديوان جرير ٥٣٣

(٦) عيون الأخبار ١/١٩٧

(٧) الأسرة والمجتمع ٤٧

(٨) الحيوان ١/١٥٧

وذهب أبو العباس — وكان يدين بالنجوم ولا يقر بشيء من الحوادث إلا بما يجرى على الطباع — إلى أنه لا يكون الحظ إلا فى نتاج شكلين متباينين ، فالتقاؤهما هو الإكسير المؤدى إلى الخلاص ، وهو أن تزاوج بين هندية وخراسانى ، فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز (١) .

ثم جاء العلم الحديث فعزز ماعرفه العرب بالتجربة ، ذلك بأن الوراثة فى رأى كثير من العلماء أعظم مؤثر فى الحياة ، بل هى مجرى الحياة نفسه ، لأن كل كائن حى نتاج أبوين (٢) . وما أصدق قول منتانى : يالها من قوة خطيرة تلك القطرة المنوية الدقيقة التى تتكون منها ، فتنقل إلينا صفات آبائنا الجسمية وأفكارهم وميولهم (٣) .

وليس بين العلماء شك فى انتقال الصفات الجسدية بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد ، فإذا تزاوج اثنان أحدهما أبيض الشعر والآخر أحمر الشعر نسلا وليداً كميت الشعر . وإذا تزاوج من هذا النسل اثنان نسلا واحداً أحمر الشعر واثنين كميتين وواحدا أبيض ، أى أن اثنين نزعا إلى الجدين واثنين نزعا إلى الأبوين .

وقد انتهى مندل Mendel من بحوثه إلى أن كلا من الأبوين يمنح الطفل خلاياه ، وأن خلاياهما تصطحب فى طفلهما اصطحابا متقارنا ، وما الطفل والكائن الحى إلا نتاج مزدوج من عناصر الحياة فى الأب والأم (٤) . ولقد تظهر الصفات الوراثية فى السلالة البعيدة بعد أن اختفت أجيالا ، وهذه هى الوراثة غير المباشرة (٥) .

وكثير من العلماء على أن الصفات العقلية والخلقية تورث أيضا ، سواء منها الصالح والطالح كالذكاء والحلم والكرم والورع ، وكالجنون والعته والجبن والخجل المفرط والميل إلى العهارة أو الانتحار (٦) .

وإذاً فقد كان العرب على صواب فى إيثارهم الاغتراب فى الزواج . يقول العالم النفسى إلدن مور Elden Moore ، يجب على الرجل أن يحذر حين يتزوج ابنة عمه أو عمته أو خاله

---

(١) الحيوان ١/١٤٨

(٢) The Science of living things. Heredity. By Eldon Moore P. 455

(٣) فى التربية ١٥٥ على عبد الواحد

(٤) The Science of living things. P.P. 466 - 467

(٥) Ebid. P. 470

(٦) فى التربية ١٣٤

أو خالته ؛ لأن هذا الزواج الداخلى قد يسبب ضعفاً فى الجسم أو العقل ، أو يجر بعض الأمراض كالسل وغيره . والسبب الذى يوجب الحذر فى الزواج أنه إذا كان الزوجان جيدى الصحة والعقل كان النسل مثلهما ، وإذا كانا ضعيفى الجسم أو غبيين أو بهما نقص ما نسلا أولادا ضعافا أو مُخْدَجين (١) . وقد تبين مما سبق أن الصفات الموروثة بعضها مباشر يرجع إلى الوالدين ، وبعضها غير مباشر يرجع إلى الأجـــداد ، فالحيطة تقضى بإيثار الزواج الخارجى نجوةً من تأثير صفات مستكنة مجهولة تضرب إلى الأصول .

أما الخلاسيون « فمن الخطأ الزعم أنهم يحملون أسوأ صفات الجنسين ، لأن الدراسة تبين أنهم أصحاء وأقوياء ، كالجالية الصينية الإنجليزية فى ليفربول وبعض جزر الهند الصينية (٢) » .

على أن لاغتراب العرب بواعث أخر ، فالمصاهرة بين قبيلتين تصلهما برباط من المودة والتحالف ، أو تزيد ما بينهما من محبة وتآلف . والزواج من قبيلة أخرى دليل على الفتوة والرجولة وحسن الأحدوثة ، ثم إن نشـأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جمالهن وجاذبيتهن ، لأنه ألف أن يراهن ، ولـكن بعد القريبات عنه يضفى عليهن سحرا وجاذبية .

وقد ذهب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله إلى تعليل آخر ، فذكر أن السبب فى ضعف الولد من القريبة أن شهوة أبيه إلى أمه ضعيفة ، لأن الإحساس بالنظر واللمس يقوى بالأمر القريب الجديد ، فأما المعهود الذى دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ، ولا تنبعث به الشهوة (٣) . ولـكن هذا التعليل لا يقره العلم كما سبق ، ثم هو مردود بأن الرجل يتزوج الغريبة ويألفها بعد حين ، كما كان يألف القريبة قبل الزواج .

٢ — لم يقف اغتراب العرب عند الزواج من قبيلة أخرى ، بل تعداه إلى الزواج من أمم أخرى ، وأنا أريد بالزواج هنا الاتصال بين الرجل والمرأة .

(ا) فكانت الزوجة فى كثير من الأحيان حبشية ، وكان للعرب ميـل خاص إلى الحبشيات ، يدل على ذلك قول أبى حازم المدنى :

---

(١) The Science of living things. P. 484

(٢) Ebid. P. 483

(٣) باكورة الـكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٢٧

ومن يك معجبا ببنات كسرى فإنى معجب ببنات حام

وقول الأصمعى لرجل : أى الرجال أخف أرواحا ؟ قال : الذين أعرقت فيهم السودان ، وقول على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلىّ مهرها [١] . وساعدهم على هذا كثرة الإماء من الحبشة ، وحسن رأيهن فى الحبشيات ، حتى لقد كان اليمنيون يؤثرون الحبشيات وبنات الحبشيات فى زواجهم [٢] .

ولم يكن هذا الميل ناشئاً عن المساواة التى بثها الإسلام ، فإن كثيرا من العرب فى الجاهلية أمهاتهم حبشيات ، فأم عنترة زبيبة وهى أمة حبشية [٣] ، وأم خفاف بن عُمير أمة سوداء اسمها نُدْبة وإليها نسب [٤] . وكانت بركة أم أيمن مولاة النبى صلى الله عليه وسلم وحاضنته أمة سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد الخزرجى فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبى من زيد بن حارثة فولدت أسامة [٥] ، وهناك بركة غيرها تكنى بأم أيمن أيضا ، وهى حبشية كانت خادما لأم حبيبة ، وقد ترجم لها ابن حجر [٦] ، ويذكر صاحب المحبّر عدة من الحبشيات زوجات وأمهات ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبد مناف وولدت نضلة بن هاشم ونفيل بن عبد العزى وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حُبّة كانت لجابر بن حبيب ، وهى أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصارى عمر بن الخطاب بقوله يابن السوداء ، فأنزل الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » ، ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأم معمر بن عثمان التيمى ، رأم المتلمس الضبى ، وأم عثمان بن الحويرث الخ [٧].

(ب) وتزوجوا برومیات، كسميّة ، فهى رومية الأصل سباها اليشكرى ووهبها للحارث ابن كلدة ، وكان يطؤها بملك اليمين ، فولدت له نافعا ثم نفيعا . ثم وهبها لزوجته صفية الثقفية ، فزوجتها عبدا روميا لها يقال له عبيد ، فولدت له زيادا ، فأعتقته صفية [٨] ، ثم خلف عليها الأزرق ، فولدت له سلمة [٩] .

---

(١) عيون الأخبار ٤/٤٠

(٢) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥

(٣) الأغانى ٧/١٤١ والمحبر ٣٠٦

(٤) الأغانى ١٦/١٣٥ والشعر والشعراء ١٢٢

(٥) الإصابة ٨/٣١٢

(٦) الإصابة ٨/٢٧

(٧) المحبر لابن حبيب ٣٠٦ — ٣٠٩

(٨) الإصابة ٨/١١٩

(٩) الإصابة ٨/١١٤

(ح) لكنهم لم يتزوجوا بفارسيات ، لأن الفرس كانوا لا يزوجون بناتهم للعرب فى الجاهلية [١] ، ولكن بعض الإماء والقيان كن فارسيات ، وكن يستولدن . وقد ألف على ابن محمد المدائنى كتابا سماه (كتاب من تزوج مجوسية [٢]) .

وكأنما أراد العرب أن يثأروا فى العصر الأموى لترفع الفرس عليهم فى الجاهلية ، فلم يرتضوا الفرس أزواجا لبناتهم ، تحقيراً لشأن الأعاجم ، كما سيجىء فى كفاءة الزوج . ثم انكب المسلمون على الزواج بالفارسيات فى العصر الأموى والعباسى ، حتى لنجد كثيراً من الخلفاء والأمراء من أمهات غير عربيات [٣] .

(ى) على أن بعضهم عاب الزواج بالنبطيات ، يدل على ذلك أنه كان فى شَيْهم بن ذى النابين فشَلٌ وضعف رأى ، فأتى أرض النبيط فى نفر من قومه ، فهوى جارية نبطية حسناء ، فتزوجها ، فنهاه قومه ، وقال أخوه محارب :

لم يَعْدُ شَيْهَمُ أن تزوج مثله ... فَهُما كشيهمة علاها شيهم

ورسوله الساعى إليها تارةً ... جُعَلٌ وطوراً عَضْرَفُوطٌ مُلْجِمُ

ولم يكن فى قومة إلا ساخر به عائب له [٤] . ولعل مَرَدَّ ذلك إلى أن العرب كانوا يرون الأنباط أهل زراعة واستقرار وخضوع للحكام ، ولا يدينون بعصبية كما يدين العرب فى الجزيرة ، ولا يعتزون بأنسابهم مثلهم ، يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب : تعلموا الأنساب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال : أنا من قرية كذا [٥] وقوله : تمعْدَدوا ولا تستنبطوا ، أى تشبهوا بمعد ولا تتشبهوا بالنبط فى سكناها واتخاذ العقار والمِلْك . ويدل على ذلك أن رجلا قال لآخر : يانبطى ، فقال لاحَدَ عليك ، كلنا نبط ، يريد الجوار والدار دون الولادة . وفى كلام أيوب بن القرية : أهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبيط استعربوا [٦] .

---

(١) مروج الذهب ١٩٦/١ (٢) معجم الأدباء ١٣٣/١٤

(٣) المحبر لابن حبيب ٤٥ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أمه فارسية. إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك أمه أم ولد . مروان بن محمد أمه كردية. أبو جعفر المنصور أمه بربرية . موسى وهارون ابنا الرشيد أمهما جرشية . المأمون أمه باذغيسية الخ

(٤) مجمع الأمثال ١٥٥/١ شيهم : قنفذ . جعل : دويبة كالخنفساء . عضرفوط : ذكر العظاء وهو كسام أبرص ، وفى زعمهم أنه من دواب الجن وركائبهم

(٥) مقدمة ابن خلدون ١٢٤ (٦) لسان العرب مادة نبط

الزوج الكفء فى نظر المرأة وآلها

بالغ العرب فى تخير الأزواج لبناتهم ، ودققت الفتيات فى اصطفاء أزواجهن ، كما تحرى الرجال — فيما سبق — زوجات متسمات بصفات خاصة .

وكانت الفتاة وآلها يهشون للخاطب الكفء ، ويلبون خطبته ، ولا يردونه ، بذلك نصح حصن بن حذيفة بن بدر أبناءه فى قوله : « أنكحوا الكفء الغريب فإنه عزّ حادث[١] » وأوصى قيس بن زهير النمر بن قاسط بعد أن تزوج منهم وجاورهم بقوله : « لا تردوا الأكفاء عن النساء فتخرجوهن إلى البلاء ، فإن لم تجدوا الأكفاء فخير أزواجهن القبور[٢] » وقال الأحنف بن قيس : ثلاثة لا أناة فيهن عندى . قيل : وما هن يا أبا بحر ، قال : . . . . وأن تنكح الكفء أيّمك[٣] » ، وكان يقال : لأَفعى تحكك فى ناحية بيتى أحب لى من أيم رددت عنها كفئا . وما بعد الصواب إلا الخطأ ، وما بعد منعهن من الأكفاء إلا بذلهن للسِّفْلة والغوغاء[٤] .

أما الشروط التى راعتها المرأة وراعاها قومها فى الزوج فإنها تدور كلها حول الكفاءة لهذه المصاهرة .

١ — فالزوج الشاب أثير مستحب ، لأنه أدنى إلى الزوجة سنا ، وأشبه بها خلقا وميلا ، ولأنه فى ريعانه وعنفوانه . لذلك رفضت الخنساء أن تتزوج بدريد من الصمة لما خطبها ، لأنها تبينت أنه هرم ، ولم يثنها أبوها عن رفضها[٥] ، وحاول أخوها معاوية — وكان صديقا لدريد — أن يرغمها فما استطاع ، وفى ذلك تقول :

أتُكْرِهُنى - هُبِلْتَ - على دُرَيْد ... وقد أَصْفَحْتُ سيدَ آل بدر

معاذ الله يرْصعُنى حَبَرْكى ... قصير الشِّبْر من جُشَم بن بكر[٦]

فغيظ دريد وهجاها ، وتمنى ألا تتزوج زواجا سعيداً[٧] .

---

(١) أمالى المرتضى ١٦٨/٢ (٢) العقد الفريد ٢١١/٣ وأمالى المرتضى ١٤٩

(٣) البيان والتبيين ١٩٩/٢ (٤) البيان والتبيين ١٩٩/٢

(٥) عيون الأخبار ٤٦/٤

(٦) ديوان الخنساء ١٢٠ أصفحت : رددت : سيد آل بدر : كان زعيمهم خطبها فردته . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضفيف الرجلين يكاد يكون مقعداً . قصير الشبر : متقارب الخطو . يرصعنى : يتزوجنى

(٧) الأغانى ١١/٩ ساسى و١٣٨/١٣ ومنتهى الطلب ٣٢٤ مخطوط

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدى إلى علقمة بن خَصَفة الطائى — وكان الحارث شيخا — قال علقمة لأم الجارية : أريدى ابنتك على نفسها ، قالت : أى بنية أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاح ، الواصل المنّاح ، أم الفتى الوضاح ؟ قالت : لا بل الفتى الوضاح يا أمتاه :

إن الفتاة تحب الفتى كحب الرِّعاء أَنيقَ الكلا

ولكن أمها لم تزل بها حتى غلبتها على أمرها ، فتزوجت الحارث ، وبينما هو ذات يوم جالس وهى إلى جانبه أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون ، فتنفست صعداء ثم بكت ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ الناهضين كالفروخ . فقال لها : أما وأبيك لرب غارة شهدتُها ، وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها ، فالحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك . وقال :

تهزأت بى أن رأتنى لابسا كِبَراً وغاية الناس بين الموت والكبَر
فإن بقيتِ لقيتِ الشيب راغمة وفى التعرف ما يمضى من العبر

. . . . . .

عنى إليـــك فإنى لا يوافقنى عُورُ الكلام ولا شربٌ على الكدر [١]

وودت بنت ذى الأصبع العدوانى أن يكون لها زوج شاب :

ألا ليت زوجى من أناس ذوى غنى حديث الشباب طيب الريح والعطر [٢]

٢ — وأن يكون الزوج حسن العشرة ، حدبا على الزوجة ، رفيقا رقيقا ، وهن قد أعلنّ ذلك فى أحاديثهن ، جاء فى حديث نسوة من بنى سعد قول واحدة منهن : « خير الرجال الحظىُّ الرضىُّ القنوع ، غير الحَظّال » .

وقول ثانية : « بل خير الرجال الوفىّ السنىّ الذى يكرم الحرة ، ولا يجمع الضرة » ، وقول ثالثة : « بل خير الرجال الغنى المقيم الراضى لا يلوم [٣] » وتحدثت بنات ذى الأصبع العدوانى عن الصفات التى تتمناها كل منهن فى زوجها حديثا طويلا [٤] يعنينا منه الآن قول الكبرى :

---

(١) عيون الأخبار ٤/٤٨ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣ ومجمع الأمثال ١/١١٠ والفاخر للكوفى ٨٩ جحجاح : سيد كريم (٢) الأغانى ٣/٩٤ الدار

(٣) الفاخر ١٩٣ وجمهرة الأمثال ٢/١٣٣ الحظال : المقتر على أهله

(٤) الأغانى ٣/٩٤ وتهذيب الكامل ١/٣٠٥ ومجمع الأمثال ١/٢٩٣ وأمالى المرتضى ١٧٧ وأخبار النساء لابن قيم ٤٨ وجمهرة الأمثال ١١٣

ألا ليت زوجى من أناس ذوى غنى حديث الشباب طيب الريح والعطر
طبيب بأدواء النســـاء كأنه خليفة جانٍ لا ينـــام على وتر

وإن الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحا باسم الثغر لتجد الأنس فى قربه ، والراحة فى عشرته . قيل لابنة الخس : ألا تتزوجين ؟ قالت : بلى ، لا أريده أخا فلان ولا ابن فلان ، ولكن أريده كسوبا إذا خرج ، ضحوكا إذا أتى (١) .

وما زالت هذه نظرتها إلى زوجها فى الإسلام ، فانه لما خطب عمر أم أبان بنت عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس — بعد مقتل زوجها أبان بن سعيد بن العاص بن أمية — أبت فقيل لها : لم ؟ قالت يدخل عابساً ويخرج عابسا . ثم خطبها الزبير بن العوام ، فأبته ، فقيل لها لم ؟ قالت : ليس لزوجته منه إلا قضاء حاجته ، ويقول كنت وكان وكان . وخطبها على فقالت : ليس للنساء منه حظ . وخطبها طلحة فرضيته ، قالوا لها وكيف ذلك ؟ قالت إنى عارفة بخلائقه ، إن دخل ضاحكا ، وإن خرج بساما ، إن سألت أعطى ، وإن سكت ابتدأ ، وإن عملت شكر ، وإن أذنبت غفر (٢) .

وهذه الصفات التى جاءت فى حديث بنات سعد وبنت ذى الأصبع وابنة الخس ، وأم أبان ليست إلا ألوانا من العشره الحلوة والأخلاق الرضية التى تأنس إليها الزوجة فى زوجها .

٣ — وأن يكون الزوج متحليا بالفضائل التى تعارفت عليها العرب ، واقتضتها البيئة من كرم وشجاعة وأنفة وغيرها ، فهى تؤثره جوادا لأن جوده يحقق آمالها فى حياة ناعمة ، ويكفل له شهرة وسيادة ، قالت إحدى بنات ذى الأصبع :

ألا ليته يَمْلَا الجفان لضيفه له جَفنة يَشْقى بها النّيبُ والجزرُ (٣)

ومما يدل على تطلبها أن يكون زوجها كريماً أن ماوية بنت عفزر كانت ذات حرية تتزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والنابغة ورجل من النبيت يخطبونها ، فطلبت منهم أن يقول كل منهم شعراً يذكر فيه فعاله ، ثم ينشدونها فى الصباح ما قالوا ، وستصطفى أكرمهم زوجا لها ، وفى الصباح أنشدوها . وكان من قول حاتم :

---

(١) عيون الأخبار ٤/١١ (٢) أعلام النساء ١/١٢
(٣) النيب : النوق المسنة . الجزر : النوق التى تذبح

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

فقالت إن حاتما أكرمكم وأشعركم. ثم رضيته زوجا لها على أن يخلى سبيل امرأته، فأبى، فلما ماتت امرأته تزوجته ماوية وولدت له عَدِيّاً (١). وأن يكون شجاعا، لتعتز بحمايته، وتفخر برهبته، ولتعلو مكانته فى قومه، فلا ينام على وتر كما قالت بنت ذى الأصبع، وكما قالت امرأة فى وصف زوجها: ليث عَرِينَه، وجمل ظعينة، وظل صخر، وجوار بحر (٢). وفى رثاء الخنساء لأخيها صخر نموذج للرجل الأثير عند النساء بكرمه وشجاعته وسيادته، وطالما رددت هذه المعانى كقولها:

جلد جميل المحيّا كامل ورع وللحروب غداة الروع مِسْعار

مثل الرُّدَيْنى لم تنفَدْ شبيبته كأنه تحت طى البرد أُسْوَار

عَبْل الذراعين قد تُخْشى بديهته له سلاحان أنياب وأظفار (٣)

وقد سئلت ابنة الخس أى الرجال أحب إليك؟ فقالت: السهل النجيب، السمح الحسيب، الندب الأريب، السيد المهيب. وأفضل منه الأهيف الهفهاف، الأنِفُ العيَّاف، المفيد المتلاف، الذى يخيف ولا يخاف (٤)، وذكر أبو على القالى حديثاً طويلا بين ثلاث فتيات وصفن ما يحببن من أزواجهن، ملخصه أنهن يتطلبن فى الزوج الكرم والشجاعة (٥).

لذلك هجا عامر بن الطفيل أناسا بأنهم حقراء لا يخطبون بنات السادة، ولا يقبل أحد على الخطبة منهم:

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم وتثيب أيّمهم ولما تُخْطَب (٦)

وقد أبت حُسينة بنت جابر العجلى أن تعود إلى زوجها ابن عمها، لأنه فرّ عنها فى الحرب وتركها تسبى (٧)، ورأت امرأة زوجها قد قبع فى منزله والرجال يقاتلون عدوهم، وهى تنظر إليهم معجبة، فضربها، فقالت أغيرة وجبنا، فذهبت مثلا (٨). وفى حديث بين

---

(١) الأغانى ١٦/٩٩ — ١٠١ وذيل الأمالى ١٥٤

(٢) مجالس ثعلب ١/٤٥

(٣) ديوان الخنساء ٨٠ مسعار: مشعل. أسوار: سوار كما فى شرح الديوان، وأرى أنه فارس الفرس

(٤) ذيل الأمالى ١١٩ الأهيف والهفهاف: الضامر البطن الدقيق الخصر. الأنف العياف: الأبى للضيم

(٥) الأمالى ٣/١٦

(٦) ديوان عامر القصيدة ٨

(٧) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ — ٥٩

(٨) الميدانى ٢/٤

عمر بن الخطاب وعمرو بن معد يكرب قول عمرو : كنا نغير على بنى مالك ، فأتينا على قوم سراة ، فجلست فى موضع أسمع كلامهم ، وإذا بجارية قد خرجت من خيمتها وجلست بين صواحب لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها فقالت : ادعى لى فلانا ، فلما جاء قالت له : إن نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى ، فكيف أنت إن زوجتك نفسى؟ قال : أفعل وأصنع ، وجعل يصف نفسه ويفرط ، فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى ، وأقبلت على صواحبها وقالت : ما عنده خير . ثم استدعت آخر ، وخاطبته فأجابها كجواب الأول ، فصرفته . ثم قالت لوليدتها : ادعى لى ربيعة ابن مكدم ، فدعته ، فقالت له مثل قولها للرجلين ، فأجابها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه ، ولكنى إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يعذر . فقالت له : قد زوجتك نفسى ، فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك [١] .

لذلك كان الرجال كثيراً ما يتوجهون بفخارهم بالشجاعة إلى المرأة ، ويطلبون منها أن تسقيهم الخمر جزاء وتقديراً ، قال المرقش الأكبر :

ياذات أجوادنا قومى فحيينا ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

وإن دعوت إلى جلّى ومكرمة ... يوما سَراة خيار الناس فادعينا [٢]

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هبى بصحنك فاصْبَحينا ... ولا تبقى خمور الأَنْدَرينا [٣]

وقال الدَّهَّان بن جندل بعد انتصار العرب فى ذى قار :

إن كنت ساقية يوما على كرم ... فاسقى فوارس من ذهل بن شيبانا

واسقى فوارس حاموا عن ديارهم ... واعْلى مفارقهم مسكا وريحانا

وقال بكر بن الأصم :

إن كنت ساقية المدامة أهلها ... فاسقى على كرم بنى همام

وأبا ربيعة كلها ومُحَلِّما ... سبقوا بغاية أفضل الأقسام [٤]

ولقد يشهدها الرجل على مفاخره ، كقول أمية بن الصلت :

فإما تسألى عنى لَبِيْنَى ... وعن نسبى أُخَبِّرُك اليقينا

---

(١) الأغانى ١٥/١٣٢ (٢) المفضليات ٢/٢٣١

(٣) شرح القصائد العشر ٢١٨ (٤) الأغانى ٢٠/١٣٨

ثقى أنى النبيه أبا وأما وأجدادا سَمَوْا فى الأقدمينا (١)

٤ — ولقد تؤثر الفتاة أن تتزوج فتى من عشيرتها ، ايثاراً لقربها من آلها ، ورغبة فى أن تقيم بوطنها ، وتهيبا من معاشرة من لا تعرف ، ولقد يكون السبب أيضاً كما قرر ولها وزن Wellhausen أن النساء كن يحتمين بعشيرتهن حتى وهن متزوجات، وكان أقاربهن يحمونهن ويدافعون عنهن . وفى الحكومة الجمهورية بغير حاكم — كما يحلو لولها وزن دائماً أن يطلق على الحياة السياسية للعرب البداة — كانت القبيلة هى التى تكفل السلام والحماية لأفرادها جميعاً ، وكان الفرد يسعى ليحقق أهدافه الخاصة فى نطاق لا يعدو على مصالح القبيلة، والمرأة عضو فى هذا الاتحاد ، فيجب على القبيلة أن ترعى أمنها وسلامتها وحقوقها حتى بعد أن تتزوج فى قبيلة أخرى (٢) .

ويدل على ايثارهن للزوج القريب قول إحداهن :

لصوقٌ بأكباد النساء وأصله إذا ما انتمى من سِرِّ أهلى ومحتدى

وقول بنت أوس بن حارثة الطائى لأبيها إذ استشارها فى أن يزوجها للحارث ابن عوف: لست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فيستحى منك(٣). ونصحت أخت أختها ألا تقبل غريبا زوجا لها ، وقالت لها : إن شر الغريبة يعلن وخيرها يدفن ، تزوجى فى قومك ، ولا تغررك الأجسام (٤) . وجاء فى قول الخنساء لأبيها وقد رفضت دريد بن الصمة زوجا : أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، ونا كحة شيخ بنى جُشَم (٥) .

وقد نقمت امرأة عامرية من أبيها وأخيها أنهما زوجاها فى عشيرة أخرى :

لا تحمدنّ الدهرَ أختٌ أخاً لها ولا ترثينَ الدهرَ بنتٌ لوالد

هم جعلوها حيث ليست بحرة وهم طرحوها فى الأقاصى الأباعد (٦)

ولما خطب عثمان بن عفان نائلة بنت الفرافصة — وكان أبوها نصرانيا — أمر ابنه ضبا — وكان مسلما — أن يتولى أمر زواجها ، فزوجها عثمان ، فلما حملت كرهت الغربة ، فقالت لأخيها ضب :

---

(١) جمهرة أشعار العرب ١٨٧

(٢) Women in the Aiyam Al Arab. P. 66

(٣) الأغانى ٩/١٤٢ (٤) مجمع الأمثال ١/١٢٤

(٥) الأغانى ٩/١١ ساسى والشعر والشعراء ١٢٢

(٦) تهذيب الكامل ٢/١٢٤ وأشعار النساء للمرزبانى . مخطوط

ألست ترى يا ضَبُّ بالله أننى مصاحبة نحو المدينة أركبا
إذا قطعوا حَزْناً تحث ركابهم كما زعزعت ريح يراعا مثقّبا
لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم لك الويل ما يغنى الخباء المُطنّبا (١)
قضى الله حقاً أن تموتى غريبة بيثرب لا تلقين أما ولا أبا (٢)

ثم بعد ذلك حملت ميسون بنت بَحْدَل الكلبية ، وكانت بدوية ، فتزوجها معاوية ، وأقامت بالشام فى بحبوحة الملك وخفض العيش ونضرة الحضارة ، وكانت قد حملت بولده يزيد ، فلم تتجلد على انتظار الوضع ، بل أخذت تهتف بقصيدة تقول فى آخرها :

خشونة عيشتى فى البدو أشهى إلى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلا فحسبى ذاك من وطن شريف (٣)

وكثيرا ما كانت المتزوجات فى غربة يتغنين بالحنين إلى أوطانهن ، تقول امرأة شيبانية كانت متزوجة فى بنى يشكر :

أصبحت فى آل الشقيق غريبة على الذى لا عيب فيه معيب
وإن زمانا ردنى فى عشيرتى إلىّ وإن لم أرجُه لحبيب

فسمعها زوجها ، فردها إلى قومها (٤) .

وكان الخاطب من قومها يهتاج إذا ما آثرت عليه غريباً . خطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وتزوجت غريباً ، فدعا عليها بألا تسعد وألا تنسل ، وأن يكون زوجها هرما كثير الإماء سيء العشرة ضروبا لزوجاته ، قذرا قبيح الصورة :

ونبئتها أحرمت قومها لتنكح فى معشر آخرينا
فإما نكحت فلا بالرفاء إذا ما نكحت ولا بالبنينا
وزُوِّجت أشمط فى غربة تَجُنّ الحليلة منه جنونا
خليل إماءٍ يرا وحْنه وللمحصنات ضروبا مهينا
إذا ما نقلت إلى داره أعدّ لظهرك سوطا متينا
وقلبت طرفك فى شاهق تظل الحمام عليه وُكونا

---

(١) الأغانى ١٥/٦٧ ورسالة الحنين إلى الأوطان ٢٢ وعيون الأخبار ٤/٧٦
(٢) معجم البلدان ٨/٤٩٩ (٣) حماسة الخالديين ٢٣٢ مخطوط
(٤) أشعار النساء للمرزبانى ٥١ مخطوط

يُشمُّك أخبثَ أضراسه إذا ما دنوت فتستنشقينا
كأن المساويك فى شدقه إذا هن أكْرِهْن يَقْلَعْن طينا
فأبعدك الله من جارة وألزمك الله ما تكرهينا(١)

٥ — وقد راعت الفتاة وقومها أن يكون الزوج عربياً ، لأن العرب كانوا ذوى حمية وأنفة واعتداد بالنفس والجنس إلى حد الغلو ، يرون أنهم أرقى الأمم وأصفاها ، فليس شعب بكفء لأن يصهر إليهم ، وكان كثير من الأمم يجرى على ذلك ، فالعبريون كانوا يحرمون تزويج الكنعانيين وغيرهم ، لأنهم اعتقدوا أنهم شعب الله المختار ، واليونانيون كانوا لا يزوجون شعباً آخر ، لأنهم أطلقوا على غيرهم من الشعوب كلمة بربر ، ونظروا إليهم على أنهم دونهم ، وأيد فلاسفتهم هذه النظرية ، فأرسطو يرى أن اليونان وحدهم مزودون بالعقل والشجاعة ، ومن عداهم من الشعوب (البربر) مزودون بالشجاعة وحدها . وكذلك كان الرومان ، فقد أصدر الإمبراطور فالنتيان قانونا يقضى بعقوبة الإعدام على كل رومانية تتزوج بغير رومانى (٢) .

وتشدد العرب فى حظر تزويج غير العربى وإن كان ملكا . ومن أمثلة ذلك أن النعمان رفض أن يزوج كسرى بن هرمز ابنته حُرَقَة ، وكان من نتائج هذا الرفض أن قتل كسرى النعمان ، ثم أن قامت حرب ذى قار وانتصر فيها العرب (٣) .

وإن أقدم عربى على تزويج عِلْج سخر منه العرب واحتقروه ، قال الأسعر الجُعْفى فى هجاء أبى حُمْران :

باعوا جوادهم لتسمَنَ أمهم ولكى يعود على فراشهم فتى
عِلجٌ إذا ما بزّ عنها ثوبها وتخامصَتْ قالت له : ماذا ترى

ولما جاء الإسلام قضى على نزعة العصبية الجنسية ، وأحل محلها الدين فى الكفاءة ، نقل عن عمر وابن مسعود وغيرهما — وهو الظاهر من مذهب مالك — الاعتداد بالدين وحده ، لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس

---

(١) لسان العرب ١٥/١٧ وحماسة الخالديين ٣٥٢ مخطوط والحماسة البصرية ٢٢٤ مخطوط. مارد: حصن أو قصر . وكون : جمع واكن أى جاثم يريد أن الحمام يقف على الحصن فلا يذعر لارتفاعه
(٢) الأسرة والمجتمع ٣٣ — ٣٥ (٣) تاريخ الطبرى ٢/١٥٠
(٤) الأصمعيات من مجموع أشعار العرب لوليم بن الورد البروسى ١/٣

لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى». وقوله: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» وغير هؤلاء يعتدون الكفاءة فى الدين والحرية والنسب والصناعة (١). ولكن بعض العرب ظلوا يستمسكون بنعرتهم القديمة، ففى الإسلام زوج إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصارى يحيى بن أبى حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين ألف درهم، فقال شاعر يعيره:

لعمرى لقد جللت نفسك خزيةً ... وخالفت فعل الأكرمين الأكارم
ولو كان جداك اللذان تتابعا ... ببدر لما راما صنيع الألائم

فرد عليه إبراهيم بقوله:

ما تركت عشرون ألفا لقائل ... مقالا فلا تحفل ملامة لائم
وإن أك قد زوجت مولى فقد مضت ... به سنة قبلى وحبُّ الدراهم (٢)

وكان يحيى هذا يهوديا فأسلم (٣)، أو كان أبوه يهوديا فأسلم (٤).

وروى أن يحيى هذا خطب لابنيه بنتى مقاتل بن طَلْبَة بن قيس بن عاصم فأجابه، فقال القُلاخُ بن حَزْن المنقرى:

نُبِّئْتُ خَوْلة قالت حين أنكحها ... لطالما كنتُ منك العارَ أنتظر
أنكحتَ عبدين ترجو فضل مالهما ... فى فيك مما رجوتَ التُّرب والحجر
لله در جياد أنت سائسها ... بَرْذَنْتَها وبها التحجيل والغُرر (٥)

وكرر هذا الهجاء (٦).

وفى العصر الأموى عيّر الكميت اليمانين بأنهم زوجوا بناتهم للفرس وللحبش فى العصر الجاهلى، وافتخر بأن النزاريين لم ينحدروا إلى هذا الدرك:

وما ضربتْ فحولَ بنى نزار ... فوالخُ من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاق ... مطهمة فيلفوا مُبْغَلينا
بنى الأعمام أنكحنا الأيامى ... وبالآباء سمَّينا البنينا (٧)

---

(١) عيون المسائل ٥٩
(٢) الكامل للمبرد ١/٢٨١ وعيون الأخبار ٤/١٦
(٣) عيون الأخبار ٤/١٦ (٤) الأغانى ٩/٣٦ ساسى
(٥) عيون الأخبار ٤/١٦ (٦) الأغانى ٩/٣٦ ساسى
(٧) العقد الفريد ٣/٢٣٣ الفحول: الرجال البينو الفحولة. فوالخ: ضاربون. مبغلين: مهجنين

وكان عقيل بن عُلفة شديد العجرفة والبذخ بنسبه فى بنى مرة ، لا يرى أن له كفئا ، وقد صاهرته قريش وخلفاؤها وأشرافها ، منهم يزيد بن عبد الملك، وسلمة بن عبد الله بن المغيرة، ويحيى وخالد والحارث أبناء الحكم بن أبى العاص (١). ولما خطب إليه عبد الملك بن مروان لأحد بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجة ، قال : أما إذ كنت فاعلا فجنبنى هجناءك (٢) ، فهو لا يرفض غير العربى فحسب ، وإنما يرفض من أمه غير عربية ، ويرفض أحد الأغنياء لأنه هجين ، وإن كان ذا مال كثير :

لعمرى لئن زوّجتُ من أجل ماله ... هَجينا لقد حُبّت إلىّ الدراهم
أأنكح عبداً بعد يحيى وخالد ... أولئك أكفائى الرجال الأكارم
أبى لى أن أعطى الدنية أننى ... أُمُدّ عنانا لم تخنه الشكائم (٣)

٦ — وهم ترفعوا عن تزويج العبد ، والحر المنحدر من عبد . ولم ينفردوا وحدهم بهذا الترفع ، فكذلك كان العبريون واليونان والرومان (٤) ، وما زالت آثار من هذا النظام بأمريكا ، يقول فوليه Alfred fouillée : تحدث مشاهد فى الولايات المتحدة لا تجلب فخراً للأمريكان ، وذلك أن الزنوج يحبون النساء البيض حبا جما ، ولقد يثور بهم هذا إلى أن يرووا شهوتهم بالعنف ، ويقضى القانون بأن يطلى من يأتى ذلك بالقطران ، ويحرق كما تحرق الشموع ، وتضطر الحكومة السود الذين يعيشون فى المنطقة التى حدث فيها الجرم أن يشهدوا إحراق رفيقهم ، وهم لا يفعلون ذلك ولا قريبا منه بالبيض إذا ما ارتكبوا هذا الجرم (٥) .

نعم هنالك فى أمريكا يعيش وسط مائة مليون من الرجال والنساء النازحين من أوروبا اثنا عشر مليونا من أصل إفريقى ، وبين الأبيض والأسود حاجز حصين من اللون يحرص البيض على بقائه وصيانته كما يحرص غيرهم على حدود مملكته ، والصلات الاجتماعية محظورة على جانبى هذا الحاجز العنصرى ، وإذا ما حاول أحد من السود أن يتخطى هذا الحاجز ثار البيض (٦) .

---

(١) الأغانى ١١/٨٢
(٢) تهذيب الكامل ١/٢٦٨ وأخبار النساء لابن قيم ٥٤ وعيون الأخبار ٤/١٢
(٣) الأغانى ١١/٨٦
(٤) أساس العدالة فى القانون الرومانى ٢٩ والاسرة والمجتمع ٣٣ — ٣٧
(٥) الإسلام والحضارة العربية ١/١٤
(٦) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١ ص ٣٣٣ Sir Arthur. Keith

ولام عُمَيْرَةُ بن جُعل قومه بنى تغلب ، لأنهم يزوجون بناتهم من حقراء النسب :

ترى الحاصن الغراء منهم لشارف أخى سلّةٍ قد كان منه سليلها (١)

٨ — وقد انفرد الحُمس — قريش ومن دان بدينها من خزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً ، وكنانة وجديلة قيس وثقيف وعامر بن صعصعة . وكانت لهم مناسك خاصة فى الحج — باشتراطهم فى الخاطب أن يكون على دينهم ، لأنهم قد شددوا على أنفسهم فى الدين وشددوا على الناس (٢) ، فلم يزوجوا بناتهم إلا للحمس أو لمن يتحمس فى دينه .

وهـذا القيد عام فى الشعوب ، ففى الهند لا يصح التزاوج بين البرهميين وغيرهم من الطبقات ، والقوانين اليهودية القديمة تحرم الزواج بين اليهود وأهل الديانات الأخرى حتى النصارى والمسلمين (٣) ، وفى الإسلام لا يصح زواج مسلمة بغير مسلم وإن كان كتابيا ، ولا يجوز زواج مسلم إلا بمسلمة أو كتابية . على أن بعض الفرق الإسلامية ذهبت إلى تحريم الزواج من الفرق الأخرى ، واشتد أبو حنيفة فى مراعاة الإسلام فذهب إلى أن أقدمية الآباء فى الإسلام من مقاييس الكفاءة ، فمن له أب واحد فى الإسلام ليس كفئا لمن لها أبوان ، ولكنه يقف عند حد الأبوين ، فمن له أبوان مسلمان كفء لها آباء .

وقد بقى الاعتداد بالكفاءة فى الحسب إلى الإسلام ، فمذهب أبى حنيفة على أن غير العربى ليس كفئا للعربية ، وأن غير القرشى ليس كفئا للقرشية ، اعتماداً على قول النبى صلى الله عليه وسلم : « قريش بعضهم أكفاء لبعض ، رجل برجل » فلا يصح على هذا المذهب زواج عربية من أعجمى أو قرشية من غير قرشى إلا إذا تنازل أولياؤها عن حقهم فى الكفاءة (٤)

---

(١) المفضليات ٢/٥٨ شارف : كبير . سلة : سرقة ، أى مسروق النسب . الحاصن : الكريمة العفيفه . سليلها : ولدها

(٢) المحبر ١٧٩ وإنسان العيون ١/٢٣٠ ومعجم البلدان ٨/١٣٨ وبلوغ الأرب ٢/٢٨٩ إذا نسكوا لم يسلئوا سمنا ولم يطبخوا إقطا ولم يدخروا لبنا ، ولم يأكلوا ماطبخوا فى الحرم ، ولا يمسون دهنا ولا يطوفون فى ثياب أتوا بها من الحل ، وتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها مع اعترافهم أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، وإنما يطوفون فى ثياب الحمس ، فان لم يجدوا طافوا عراة ، فان طاف رجل منهم أو امرأته فى الثوب الذى جاء به من الحل ألقاه بعد الطواف فلا يمسه ولا ينتفع به ، وكانت العرب تسمى هذا الثوب اللقى . ولكن الإسلام أبطل ذلك (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟)

(٣) الأسرة والمجتمع ٣١ (٤) عيون المسائل ٦٣ والاسرة والمجتمع ٣٦

ولما كتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب إليه وبعث له بمال كثير قسم سعيد المال بين جلسائه ، ثم كتب إلى زياد : أما بعد فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[١] .

حريتها فى اختيار زوجها

أسلفت أن الرجل كان فى خطبته يتحرى مميزات خاصة فيمن يصطفيها شريكة حياته ، وأن الفتاة وقومها كانوا يتوخون فيمن يخطب إليهم مميزات خاصة أيضا ، لأن الزواج رباط وثيق مأمول الدوام ، ولأنه عشرة بين الزوج وزوجته .

وقد استمتعت المرأة العربية بحريتها فى اختيار زوجها ، فلم تكن تقسر على زوج لا ترتضيه ، أو تزوج بغير مشورة ، ولم يكن للآباء ما كان لهم عند اليونان من سلطة مطلقة على البنات لا تحد ، إذ كان للولى أن يزوجها بغير استشارتها ، وكل عقد تبرمه بغير رضاه باطل[٢] ولم يكن للعرب أن يبيعوا بناتهم أو يزوجوهن بغير علمهن كما كان يفعل اليهود . وإنما كان مركز المرأة العربية جديراً بأن نشيد به ، وبأن يشيد به المستشرقون ، يقول نيكلسون : كان مركز المرأة ونفوذها فى الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيما ، فقد كانت النساء حرات فى اختيار أزواجهن ، وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسيئت معاملتهن ، وفى بعض الحالات كن يهبن أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكنّ يعددن عبيداً أو أسارى ، بل أندادا ورفيقات[٣] » .

ولهذه الحرية مظاهر :

١ — كانت المرأة تختار زوجها ، وتزوج نفسها أحيانا ، فعلت ذلك ماوية بنت عفزر من بنات ملوك اليمن إذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة : النابغة الذبيانى وحاتم الطائى ورجل من النبيت ، وقيل هم زيد الخيل وأوس بن حارثة وحاتم ، وآثرت حاتما[٤] ، وفعلت هذا أيضا امرأة من هُذَيل من بنى سهم إذ خطبها تأبط شرا ، فقال لها قائل : لا تنكحيه فإنه وشيك أن يقتل ، فرفضته ، فقال :

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه ... لأول نصل أن يلاقى بَجْمَعَا

---

(١) عيون الأخبار ٤/١٧ (٢) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٤

(٣) Aliterary History of the Arabs. Nickolson. P. 87

(٤) الشعر والشعراء ٧٢ والأغانى ١١/١٠٤ و١٦/١٠٠

فلم تر من رأى فتيلا وحاذرت تأيُّمَها من لابس الليل أروعا(١)

وكذلك فعلت الرَّباب من بنى ذُهل ثم من بنى سدوس ، فقد خطبها خداش بن حابس التميمى بعد ما هام بها زمنا ، وكان أبواها يتمنعان لجمالها وميسمها ، ويردان خداشا ، فأضرب عنها زمانا ، ثم أقبل ذات ليلة راكبا ، فانتهى إلى محلتهم وهو يتغنى بقوله :

ألا ليت شعرى يا رَباب متى أرى لنا منك نُجْحاً أو شفاء فأشتفى
فقد طالما عنيتنى ورددتنى وأنت صفيي دون من كنت أصطفى
لَحَى الله من تسمو إلى المال نفسه إذا كان ذا فضل به ليس يكتفى
فَيُنْكح ذا مال دميما ملوَّما ويترك حرا مثله ليس يَصْطفى

فعرفت الرباب منطقه ، وجعلت تتسمع إليه ، وأرسلت إلى الركب الذين منهم خداش أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا ، وبعثت إلى خداش أن قد عرفت حاجتك ، فاغدُ على أبى خاطبا ، ورجعت إلى أمها فقالت : هل أتزوج إلا من أهوى ؟ قالت : لا ، فما ذاك ؟ قالت : زوجينى خداشا ، قالت أمها : وما يدعوك إلى ذلك مع قلة ماله ؟ قالت إذا جمع المالَ السيء الفعال فقبحا للمال . فأخبرت الأم أباها بذلك فرضى (٢) . وقد سبق ما فعلته المرأة الكنانية حين اختبرت ثلاثة من قومها ، وانتقت ربيعة بن مكدَّم (٣) .

٢ — وكانت كثيرا ما تستشار فى زواجها ، فلا يستبد به وليها كما كان يستبد الأب العبرى واليونانى ، فالخنساء استشارها أبوها حينما خطبها دريد بن الصمة ، لأنها كما قال لدريد : « لها فى نفسها ما ليس لغيرها » ، فرفضت ، مؤثرة بنى عمها ، ولما أراد أخوها معاوية أن يكرهها — وكان صديق دريد ، وصخر غائب فى غزوة — قالت:

تباكرنى حميدة كل يوم بما يولى معاوية بن عمرو
فإلا أُعْط من نفسى نصيبا فقد أودى الزمان إذاً بصخر
أتكرهنى — هبلتَ — على دُريد وقد أَحْرَمْتَ سيد آل بدر
معاذ الله يَرْصَعُنى حَبْرَكى قصير الشِّبْر من جُشَم بن بكر (٤)

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٧ وشرح الحماسة للتبريزى ٢/٢٦
(٢) مجمع الأمثال ١/٤٤٠ (٣) الأغانى ١٥/١٣٢
(٤) الأمالى ٢/١٦١ والأغانى ٩/١١ و١٣/١٣٨ أحرمت : منعتنى من زواجه . حبركى : قصير الرجلين أو ضعيفهما . الشبر : الخطو أو الخير والعطاء .

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدى إلى علقمه بن خصفة الطائى ، قال علقمة لأم الفتاة أريدى ابنتك على نفسها ، فاستشارتها [١] ، وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائى لما خطب إليه الحارث بن عوف المرى ، فإنه استشار ابنته [٢] . واستشار عتبة بن ربيعة بنته هند لما خطبها أبو سفيان وسُهيل بن عمرو [٣] ، وآثرت هند أبا سفيان فحنق عليها سهيل، وقال:

نبّئت هنـــدا تبر الله سـعيها تأبّت وقالت وصفَ أهوج مائق

فلم تنـكحى يا هند مثلى وإننى لمن لم يَمْقنى فاعلمى غيرُ وامق [٤]

على أن أم الفتاة كانت ذات رأى فى تزويج ابنتها ، يستشيرها الأب ، وتشير عليه وتهتدى البنت برأيها . هكذا فعلت زوجة أوس بن حارثة ، فإنه رفض أن يزوج بنته للحارث بن عوف ، ودخل على امرأته مغضباً ، فسألته ، فأخبرها ، فقالت له : إذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ وأشارت عليه أن يتدارك ما كان منه ، ففعل ، وزوجه ابنته [٥]، وكذلك فعلت زوجة علقمة بن خصفة الطائى لما خطب الحارث بن سليل بنتها [٦] . ويظهر أن المرأة كانت أحياناً تغلب زوجها على أمره ، فقد خطب إلى رجل فأبى ، ورضيت زوجته ، ومازالت به حتى زوج ابنته كارها ، وقال : أنكحنا الفَرا فسنرى [٧] .

الإسلام وتزويج المرأة نفسها

١ — جاء الإسلام ، وكان لا بد من التشريع الذى يصون سمعة الأسرة ، فاختلف الفقهاء فى تزويج البالغة العاقلة نفسها ، فذهب الشافعى ومالك إلى منعها من مباشرة عقد زواجها وزواج غيرها ، وعليه كثير من الصحابة ، مستدلين بأدلة ، منها قوله عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولى » وقوله « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل » وقوله : « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها » وذهب أبو حنيفة إلى إثبات هذا الحق لها ، واستدل هو وغيره بأدلة منها قول النبى صلى الله عليه وسلم « الثيب أحق بنفسها من وليها » وقوله : « البكر تُستأذن فى نفسها وإذنها صمتها » .

---

(١) عيون الأخبار ٤/٤٧ ونهاية الأرب ٣/٢١ ومجمع الأمثال ١/١٠٧ والمحاسن والأضداد ١٨٣ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣

(٢) بلاغات النساء ١٤٩ والأغانى ٩/١٤٢ (٣) الأمثال ٢/١٠٤

(٤) العقد الفريد ٣/٢١٢ يمق : يحب (٥) الأغانى ٩/١٤٢ ساسى

(٦) الفاخر ٨٩ ومجمع الأمثال ١/١١٠ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣

(٧) مجمع الأمثال ٢/٢٦٣

والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها الحنفية أن الولى يستأذن المرأة فى زواجها ولا يستبد به . والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها مخالفوهم أن المرأة ليس لها أن تستبد بأمر زواجها ، ولكن لها أن تباشر العقد بنفسها (١) .

وبهذا صان الإسلام مكانة الأسرة من أن تعبث بها الأهواء ، أو تعصف بها النزوات ، وحمى المرأة من سوء القالة ومن الشبهات .

٢ — وعضد الإسلام حق المرأة فى رضاها بزوجها ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قالوا : يارسول الله وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت (٢) .

وللكبيرة التى أكرهت على الزواج أن تفسخه ، فقد كانت خنساء بنت خُذام الأنصارى تحت أنيس بن قتادة ، فقتل عنها يوم أحد ، فأنكحها أبوها رجلا وهى كارهة ، فأتت النبى ، فقالت يارسول الله : إن أبى تفوّت علىّ فزوجنى ولم يشعرنى . قال : « لا نكاح له ، انكحى من شئت » فرد نكاحه وتزوجت غيره (٣) ، واشترت السيدة عائشة بريرة وأعتقتها ، وكان زوجها مغيث مولى ، فخيرها رسول الله ، فاختارت فراقه ، وكان يحبها ويمشى فى طرق المدينة يبكى ، واستشفع إليها برسول الله ، فقال لها فيه ، فقالت : أتأمر ؟ قال : بل أشفع ، قالت : فلا أريده (٤) .

أما الصغيرة فاختلفف فى أمرها ، ألها الخيار إن كان أبوها هو المزوج أم لا؟ وفى رأى مالك وابن حزم أنه ليس لأحد سوى الأب أن يزوج الصغيرة لوفور شفقته ، وضم الشافعى الجد إلى الأب .

وفى الحديث أن قدامة بن مظعون زوج ابنة أخيه عثمان من ابن عمر ، فردها رسول الله وقال إنها يتيمة ، وإنها لا تنكح حتى تستأمر . قال ابن عمر : لقد انتزعت من نفسى بعد أن

---

(١) تيسير الوصول ٣/٣٤٥ — ٣٤٦ وعيون المسائل ٦٧ — ٦٩ وحجة الله البالغة ٢/٩٥

(٢) فتح البارى ٩/١٦٤ وتيسير الوصول ٣/٣٤٦

(٣) فتح المبدى ٣/٢٣٣ والطبقات لابن سعد ٨/٣٣٤ والإصابة ٨/٦٥ والمبسوط ٥/٢

(٤) الإصابة وأسد الغابة ٥/٤٠٩ والطبقات الكبير ٧/١٦٢ والتجريد الصريح ٣/٢٥٥ والمبسوط للسرخسى ٥/٩٨

ملكتها [١]، على أن بعض المجتهدين كابن شبرمة وأبي بكر الأصم لم يثبتا الولاية على الصغيرة لأحد، والحنفية يثبتونها للأب والجد وغيرهما من العصبات [٢].

وكثيراً ما تخيرت المسلمات أزواجهن، فأم كلثوم بنت أبي بكر رفضت أن تتزوج عمر بن الخطاب، فقالت لها عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء [٣]، وكذلك رفضت بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عبدَ الملك ابن مروان، وآثرت عليه يحيى بن عبد الحكم [٤]، وفضلت عائشة بنت طلحة ابن عمها على بشر بن مروان [٥].

الخطبة والأملاك

لا يكاد يختلف نظامهم في الخطبة والأملاك عما يجرى في العالم الإسلامي إلى اليوم، ذلك بأنهم كانوا يخطبون المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بني عمها [٦]، فيقول الخاطب: خِطب، ويقول أهل الزوجة: نِكح، ويقوم ذلك مقام الإيجاب والقبول [٧].

فإذا كان يوم العقد اجتمع القوم، ونحرت لهم الذبائح، وخطب خطباء من آل الزوجين، كما حدث في يوم عقد النبي على السيدة خديجة، فقد خطب عمه أبو طالب معدداً بعض مناقب قريش، ومُنوِّهاً بمناقب ابن أخيه محمد بن عبد الله، وذكر أنه خطب خديجة على مهر قدره اثنتا عشرة أوقية ونَشاً، ثم رد عليه عمها عمرو بن أسد أو ابن عمها ورقة بن نوفل معدداً مناقب قريش ومفاخر بيت عبد المطلب، ومشهداً الحاضرين على قبوله هذا الزواج. ثم أولم النبي صلى الله عليه وسلم، وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويغنين [٨].

وكانت العروس تزين يوم الإملاك بما تملك، ولقد يستعار لها. حدث عبد الواحد ابن أعين عن أبيه قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها وعليها درع قِطْرٍ ثمنَ خمسةِ دراهم

---

(١) المبسوط ٤/٢١٢ — ٢١٥
(٢) عيون المسائل ٧٢
(٣) العقد الفريد ٣/٢٧٥
(٤) العقد الفريد ٣/٢٨١
(٥) الأغاني ١٠/٥٤
(٦) المحبر لابن حبيب ٣١٠
(٧) إنسان العيون ١/٤٥
(٨) إنسان العيون ١/١٥٤

فقالت : ارفع بصرك إلى جاريتى انظر إليها ، فإنها تزهى أن تلبسه فى البيت ، وقد كان لى منهن درع على عهد رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كانت امرأة تقيّن بالمدينة إلا أرسلت إلىّ تستعيره (١) .

وفى يوم الإملاك يحتفل قومها وقومه وينحرون ، ويسمرون الليل غناء وعزفا ورقصاً ، تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب وجاء فى حديثه : « قلت ليلا لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أنك أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ؟ فقال : أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بغرابيل ومزامير . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا . هذا فلان ابن فلان ، تزوج فلانة بنت فلان ، فجعلت أنظر ، وضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مسّ الشمس (٢) .

ولما تزوج السيدة خديجة نحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس (٣) ، ولما زوج النبى بنته فاطمة لعلى بن أبى طالب قال : ياعلى ، لا بد للعرس من وليمة ، فأولم (٤) .

وهم فى احتفالهم بيوم الخطبة أو الزفاف يشبهون الشعوب كلها ، ولكنهم لم يفعلوا ماكان يفعل الرومان إذ كان يقبل جماعة من الفتيان أصدقاء العروس فيأخذون عروسه ويمضون فى منظر يمثل أنهم انتزعوها من أهلها قسراً . وكان العروس الإسبرطى يذهب إلى عروسه ليلا فيأتى بها كأنه اختطفها (٥) . والذى يظهر لى أن تمثيل عادة الاختطاف لم يكن فى العرب ، لأنهم ذوو حمية وغيرة وأنفة ، فلا يرتضى أهل الزوجة ذلك المظهر .

---

(١) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ١١/١٤٩ وفتح البارى ٥/١٧٨ درع : قميص . تقين : تزين وتزف . قطر : ضرب غليظ من البرود فى بعضها قطن . ثمن : منصوب على نزع الخافض

(٢) تاريخ مكة للفاكهى ٧ من كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى

(٣) إنسان العيون ١/١٥٤ وبلوغ الأرب للعطار ٢٩

(٤) بلوغ الأرب فى مآثر العرب للعطار ٣٣

(٥) دائرة المعارف للبستانى ٩/٣٣٦

المهـــر

المهر والصداق

المهر فى الأصل العوض الذى يدفع لأهل المرأة ، أما الصداق فالعوض الذى يدفعه الرجل للزوجة . وكان العبريون والسريان يطلقون كلمة مهر على الثمن الذى يدفع نظير اقتناء الزوجة ، وكان يدفع لأبيها ، لأن الساميين القدماء كانوا ككل القبائل البدائية ينظرون إلى الفتاة على أنها سلعة قيمة تزيد مال أبيها (١) ، ومن الأدلة على أن المهر كان للأولياء قوله تعالى على لسان شعيب لموسى « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك » (٢) ، ويظهر أن العرب كانوا كذلك ، ففى اللغة الناجفة البنت ، لأنها تعظم مال أبيها بمهرها (٣) ، لذلك كانوا يهنئون من ولدت له بنت بقولهم هنيئاً لك الناجفة ، أى المنفجة لمالك ، لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفج (٤) ، وأحيانا كانوا يعبرون عن الزواج بأنه شراء ، قال جَهْم فى امرأة من بنى فقعس باع إبلاله ومهرها ، وتزوجها ثم وجدها عجوزاً فطلقها :

فبانت ولم أُغبن غداة اشتريتها ... وبعت تلاد المال بالثمن البخس (٥)

ولما خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب قال عامر : « انك أتيتنى تشترى منى كبدى . . . (٦) » . وهم أطلقوا كلمة الحُلوان على ما يأخذه الرجل من مهر ابنته أو أخته أو امرأة ما (٧) ، ولم يكن هذا شائعاً ، بدليل أن امرأة فخرت بأن زوجها لم يأخذ من بناته حلوانا : « لا يأخذ الحَلْوان من بناتيا » (٨) .

ولكن هذه التفرقة بين المهر والصداق توارت فى الإسلام ، فالمهر والصداق معاً

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٤١
(٢) سورة القصص ٢٧
(٣) القاموس المحيط مادة نفج
(٤) مجمع الأمثال ٢/٣٢٧
(٥) العقد الفريد ٣/٢١٠ وفى الأصل قبت
(٦) العقد الفريد ٣/١٩١
(٧) المخصص ٤/٢٥ والأمالى ٢/٢٧٦ ولسان العرب ١٨/٢١٠
(٨) لسان العرب ١٨/٢١٠ والأمالى ٢/٢٧٦

ما يستحق به الحرائر من النساء [١] ، وإن ظل بعضهم يطلق الصداق على الإبل التى تساق مهراً ، ويسميها الناقجة ، ويقول : ساق الرجل إلى المرأة صداقها ، قال الشاعر :

وليس تلادى من وراثة والدى ولا شاءُ مالى مستفاد النوافج

فإذا كان الصداق عينا وورقا لا يقال ساق إليها صداقها [٢] .

وجعل الإسلام المهر أو الصداق حقاً للمرأة لا لوليها ، ونهى الأولياء عن أخذه لأنفسهم لقوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » وإن كان كثير من العرب ما زالوا إلى اليوم يستأثرون به وهو حرام [٣] ، لأن المهر ما يجب على الزوج لزوجته فى مقابل ملك استمتاعه بها ، وهو حق خالص لها ، تقبضه هى نفسها أو وكيلها إذا كانت رشيدة ، أو يقبضه ولى مالها إذا كانت صغيرة ، وإذا استهلكه كان ضامنا لمثله أو قيمته [٤] .

وأبطل الاسلام أيضاً زواج الشغار ، وهو نوع من زواج المبادلة ، وسمى شغارا لخلوه من المهر ، والطراز الشائع من هذا الزواج أن يزوج الرجل ابنته أو أخته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته . وكان هذا الضرب من الزواج شائعا عند الساميين قديما ، ومارسه العرب إلى أن جاء الإسلام ، فنهى عنه النبى ، وقال ببطلانه كثير من الفقهاء ، وذهب الحنفية إلى فساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل لكل من الزوجتين [٥] .

نوعه ومقداره

١ — كان يقدم إبلاً أو نقداً ، لأن الثروة عند الشعوب الراعية قطعان من الماشية ، والماشية كالنقد ، « وقد احتفظت اللغات الأوروبية بآثار من هذه الحال البدائية ، الدالة على أن الماشية كانت تستعمل استعمال النقود ، لأنها الثروة الوحيدة ، فهو ميروس يتكلم عن بنات بأنهن أحضرن ثيرانا لوالدهن ، يكنين عن رغبة الناس فيهن ، وأنهم سيدفعون فيهن مالا عظيما . والقانون الإيرلندى يقدر الغرامات والأثمان عادة برءوس الماشية ، وظلت الحال على ذلك إلى العصور الوسطى [٦] » . وكذلك كان الحال عند العرب . وكان مقداره يتفاوت

---

(١) المخصص ٤/٢٥ (٢) الحيوان للجاحظ ١/٣٣٤

(٣) روح المعانى ٤/١٩٨ (٤) عيون المسائل ٨٥ و١٠٦ و٧٠١

(٥) عيون المسائل ٨٨ والنظم الاجتماعية والسياسية ٤٠

(٦) اللغة ٦٢٩ج فاندريس ترجمة الدواخلى والقصاص

باختلاف المقدرة والمكانة والثروة ، فقد مهر عبد المطلب ابن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب[١]. ومهر الحارث بن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة بن خصفة الطائى مائة وخمسين من الإبل وألف درهم[٢] . وزوج ذو الجدين بن قيس بن خالد بنته للقيط بن زرارة على مائة من الإبل ليس فيها مصبورة ولا ناب ولا كزوم[٣] ، وزوج مطرود البجلى ابنته خودة على مائة ناقة ومعها رعاتها[٤]، وكان أهل كندة مشهورين بالتغالى فى مهورهم ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم اذهب ملك غسان وضع مهور كندة[٥] » ، وذكر المحبى أنهم كانوا لا يزوجون بأقل من مائة من الإبل ، وربما مهرت الواحدة ألفا[٦] ، وقد أصدق عمرو بن حجر أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى عقاراً فى كندة ومنحها حاجات قومها لا ترد لأحد منهم حاجة[٧] .

وكان المهر الذى قدمه النبى للسيدة خديجة عشرين بكرة[٨] ، وقيل إنه كان خمسمائة درهم[٩]، وقيل أنه أصدقها اثنتى عشرة أوقية ذهبا ونشاً[١٠] ورأى السهيلى أنه لا تناقض بين رواية البكرات والدراهم ، فمن الجائز أن تكون البكرات عوضا عن الصداق المذكور ، أو أن أبا طالب أصدقها من ماله نقداً ، وزاد عليه النبى تلك البكرات[١١] .

وقد افتخروا بعظمة المهر ، لأنها دليل فى نظرهم على علو الشأن ، قال الأبيرد بن هرثمة العذرى ، وقد مهر الفغماء بنت سنان العذرى خمسين بعيرا :

إنى لسمح إذ أفرّج بينها ... بأكثبة البَقار يا أم هاشم

---

(١) إنسان العيون ١/٥٠

(٢) الميدانى ١/١١٠ والمحاسن والأضداد ١٨٤ وفى جمهرة الأمثال ١/١٨٣ أنه خمس ومائة من الإبل وخادم وألف درهم

(٣) الأغانى ١٩/١٣١ مصبورة : مشرفة على الموت . وفى الأصل مصابرة . ناب : مسنة . كزوم : ذهبت أسنانها هرما

(٤) بلوغ الأرب فى أحوال العرب ٢/٣٣

(٥) البيان والتبيين ٢/٢٨

(٦) ما يعول عليه فى المضاف والمضاف اليه

(٧) العقد الفريد ٣/١٩١

(٨) سيرة ابن هشام ١/٢٠٦

(٩) إنسان العيون ٤/١٥٤

(١٠) بلوغ الأرب للعطار ٢٨ وطبقات ابن سعد ٨/١١٥ الأوقية : أربعون درهما والنش : نصف أوقية فتكون جملة الصداق خمسمائة درهم ذهبا (بلوغ الأرب للعطار ٢٩ وفتح المبدى ٢/١٧٩ والطبقات ٨/١١٥ وإنسان العيون ١/١٥٤)

(١١) إنسان العيون ١/١٥٤

فأفنى صداقُ المحصناتِ أفالها فلم يبق إلا جِلَّةٌ كالبراعم[١]

وقال خالد بن جعفر يمن على هوازن بقتله زهير بن جذيمة :

وجعلتُ مهرَ بناتهم ودماءَهُم عَقْلَ الملوك هجائنا أبكارا[٢]

على أن بعضهم كان يقنع بحسب الخاطب ، ولا يتطلب منه مهرا ، من ذلك أن لفيط ابن زرارة خطب إلى قيس بن خالد الشيبانى ، فزوجه ، وساق عنه المهر ، وهداها إليه من ليلته[٣] .

ومن المهر الضئيل رقاع الجلد التى أجبر المهلهل على أخذها من قبيلة جَنب — وكان قد اعتزل قومه بعد حروبهم مع بكر ، إبقاء عليهم أن تفنيهم الحرب بسبب الثأر لأخيه كليب — وسار إلى اليمن ونزل فى جنب وهم حى من مذحج ، فخطبوا إليه ابنته فمنعهم ، فأجبروه وصدقوها جلودا من أدم — فتحسر وتألم بقوله :

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جشم

أنكحها ققدُها الأراقم فى جَنْبٍ وكان الحباء من أدم[٤]

وذكر الجاحظ أن الأعرابى الفقير ربما صاد ضبا فاحتمله إلى كفيئته فكان مهرها ، وقد قال فى ذلك أحدهم :

أمهرتها بعد المطال ضبين من الضباب سَحْبَلين سَبْطَين

نِعم لعمر الله مهر العرسين[٥]

٢ — أراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يخفف من غلواء العرب فى مهور بناتهم ، وأن يقيم الزوجية على دعائم أخرى من الدين والخلق غير دعامة المال ، فنهى عن المغالاة فى المهور

---

(١) معجم الشعراء ٢٥ البقار : واد . البراعم : شماريخ الجبال

(٢) الأغانى ١٠/١٤

(٣) جمهرة الأمثال ١٨٥ وأمثال العرب للضبى ٢٠

(٤) أشعار المراقسة ٦٩ وعيون الأخبار ٣/٩١ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/١١٨ والمعارف ٣٥ وتهذيب الكامل ٢/١٤ وخزانة الأدب ٢/٢٨ والشعر والشعراء ١٠٠ والكامل لابن الأثير ١/٢٢١

(٥) الحيوان ٦/٣٦ السحبل : الضخم . السبط : الحسن القد والمنظر

بأحاديث كثيرة ، منها « لا تغالوا بالنساء فإنما هن سقيا الله[١] » ، وقوله لسهل بن سعد : « اذهب فاطلب ولو خاتما من حديد » فذهب وطلب ، ثم جاء فقال : ما وجدت شيئا ولا خاتما من حديد ، فقال : « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال معى سورة كذا وسورة كذا ، قال : « اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن[٢] » ، وفى حديث ابن عباس أن النبي زوج رجلا بدون مهر ، على أن يعلم زوجته أربع سور أو خمسا من كتاب الله ، وفى حديث أبى هريرة أن يعلمها عشرين آية[٣] ، وروى عن النبي أن خير النساء أيسرهن صداقا[٤] .

ونهى عمر عن المغالاة فى المهر بقوله : لا تغالوا فى صدقات النساء ، فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة فى الدنيا كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أولاكم بذلك ، ماأصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية[٥] .

على أن ذلك لم ينزع من العرب ما ألفوا ، وظلوا حراصا على عظم المهر ، وظلت النساء مزهوات بكثرته ، يدل على ذلك أن عمر نهى عن المغالاة فى المهور فردت عليه امرأة بقولها: ليس ذلك لك ياعمر ، إن الله يقول : وآتيتم إحداهن قنطارا من ذهب — وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود — فقال عمر : امرأة خاصمت عمر فخصمته[٦] ، وروى أن عمر نفسه أصدق أم كلثوم بنت على أربعين ألفا ، وأن ابنه عبد الله أصدق ابنة أبى عبيد الثقفى عشرة آلاف درهم[٧] . وقد أصدق مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة خمسمائة ألف ، وأهدى إليها خمسمائة ألف ، فقال أنس بن أبى أنس :

بُضْعُ الفتاة بألف ألف كامل ... وتبيت سادات الجنود جياعا

لو لأبى حفص أقول مقالتى ... وأبثه ما قد أرى لالتاعا[٨]

وأصدق عبد الرحمن بن عوف امرأة من الأنصار ثلاثين ألفا[٩] ، وأصدق يحيى بن

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧ (٢) فتح البارى ٩/١٧٨ وتيسير الوصول ٢/٢٨٢
(٣) فتح البارى ٩/١٧٩ وتيسير الوصول ٢/٢٨٢
(٤) تيسير الوصول ٢/٢٨٤ وسنن أبى داود ١/٢١٠
(٥) الطبقات لابن سعد ٨/١١٥ وتيسير الوصول ٢/٢٨٣
(٦) فتح البارى ٩/١٧٥ والكشاف ١/٩٧ (٧) عيون الأخبار ٤/٧١
(٨) المردفات من قريش ٧٠ من نوادر المخطوطات (٩) الطبقات ٣/٨٧

أبى حفصة بنت ابراهيم بن النعمان بن بشير عشرين ألف درهم[١]. وفى رأى الفقهاء أن أقل المهر ما يمكن أن يتمول به ، وهو ما يجب فيه قطع اليد فى السرقة (ثلاثة دراهم وقيل خمسة وقيل عشرة) أو هو أربعون أو خمسون على أنه لا يقدر أقله [٢] ، وخالف فى ذلك المالكية والحنفية ، فعند الحنفية أقله عشرة دراهم ، وهى تساوى الآن خمسة وعشرين قرشا[٣]. ويظهر أن التغالى فى المهور كان يحنق كثيرا من العاجزين عن دفع مثلها ، يقول أعرابى :

يقولون تزويج وأشهد أنه هو البيع إلا أن من شاء يكذب[٤]

وصايا للزوجة عند زفافها :

إذا ما تأهبت البنت لتنتقل من رعاية أبويها إلى كفالة زوجها زودتها أمها وأبوها بوصايا من نتاج الخبرة والتجربة .

١ — فمن وصايا الأمهات ما أوصت به زوجة عوف بن محلم الشيبانى لما زفت بنتها أم إياس إلى عمرو بن حجر ، قالت لها : أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخراً . أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحق السمع والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله ، والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصن له أمرا ، ولا تفشن له سرا ، فإنك ان خالفت أمره أوغرت صدره ، وان أفشيت سره لم تأمنى غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا[٥] .

---

(١) الكامل للمبرد ١/٢٨١ وعيون الأخبار ٤/١٦

(٢) فتح البارى ٩/١٧٥ (٣) عيون المسائل ٩٠

(٤) عيون الأخبار ٤/٧٢

(٥) العقد الفريد ٣/١٩١ ومحاضرات الأدباء ٢/١٢٣ وشرح نهج البلاغة ٤/٣٠٨ ومجمع الأمثال ٢/١٩٢ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٣ ومحاسن النساء لابن هشام ٧ مخطوط وأعلام النساء ١/٦٠

وفى هذه الوصية قوام السعادة الزوجية ، لأنها تريد ابنتها على طاعة زوجها ، وتريدها على العناية بنظافتها ونظافة بيتها ، وأن تراعى راحته فى منامه وطعامه ، وأن تقتصد فى نفقاتها وتربى أولادها ، وتراقب خدمها ، وأن تصون أسراره ، وتشاركه مشاركة وجدانية فى أفراحه وأتراحه .

إنها إن فعلت ذلك كانت زوجة صالحة ، بل كانت مثلا أعلى فى الزجات . وإذا كانت قد نبهتها على النظافة - كما سينبه غيرها - فإنها بتجربتها تتفق مع مايقرره الطب الحديث من أن التهاون فى تنظيف الجسم والأعضاء التناسلية ينفر أحد الجنسين من الآخر ، فتنشأ عن هذه النفرة عوامل نفسية عدة ، كالتقزز والاشمئزاز وغيرهما [١] ، وقد فصلت القول فى أثر الروائح العطرية فى الجاذبية فى موضع آخر [٢] .

وليس يعدم المجتمع أن يكون فيه الخيّر والشرير ، والمسالم والمشاغب ، وأن تكون من الأمهات الشرسة الحريصة على أن تكون ابنتها مثلها ، فقد أوصت امرأة ابنتها بقولها : اختبرى زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه ، انزعى زجّ رمحه ، فإن سكت فقطعى اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه [٣] .

٢ ✗ وللآباء فى هذا المجال إرشاد وتوجيه ، ومن هؤلاء الزبرقان بن بدر ، كان إذا زوج ابنة له دنا من خدرها وقال : أتسمعين ؟ كونى له أمة يكن لك عبدا [٤] . ومنهم ذوالجدين ، قال لابنته لما زفت إلى لقيط بن زرارة : كونى له أمة يكن لك عبدا ، وليكن أكثر طيبك الماء ، واعلمى أن زوجك فارس مضر ، وأنه يوشك أن يقتل أو يموت ، فلا تخمشى عليه وجها ولا تحلقى شعرا [٥] . وكذلك أوصى عامر بن الظرب ابنته بأن تتنظف بالماء [٦] . ولما زفت نائلة بنت الفرافصة الكلبى إلى عثمان رضى الله عنه قال لها : يا بنية إنك تقدمين على نساء

---

(١) الأزمات الزوجية وعلاجها للدكتور محمد زكى شافعى ١٠٣

(٢) الغزل فى العصر الجاهلى ١٠٣ — ١١٢

(٣) عيون الأخبار ٤/٧٧ ومحاضرات الأدباء ٢/١٢٤ والإحياء للغزالى ٢/٤١

(٤) عيون الأخبار ٤/٧٧

(٥) الأغانى ١٩/١٢١ والعقد الفريد ٣/٢١١ وأمثال العرب للضبى ٢٠

(٦) عيون الأخبار ٤/٧٦

قريش ، وهن أقدر على الطيب منك ، فلا تغلبي على خصلتين : الكحل والماء ، فتكحلي وتطيبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر[١] .

وما زال الآباء يوصون بناتهم فى الإسلام ، فمثلا أسماء بن خارجة الفزارى قال لابنته وقد زفها إلى الحجاج: يابنية إن الأمهات يؤدبن البنات ، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الكحل ، وإياك وكثرة المعاتبة ، فإنها قطيعة للود ، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وكونى لزوجك أمة يكن لك عبدا ، واعلمى أنى القائل لأمك :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ... ولا تنطقى فى سَوْرتى حين أغضب
ولا تنقُرينى نقرة الدف مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيَّب
فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهب[٢]

وهذه الوصايا من الآباء تدور حول النظافة ، والطاعة وحسن التبعل عامة .

مكانة الزوجة عند زوجها

يحبها

حظيت المرأة العربية عند زوجها ، وأولاها من تقديره ورعايته وحبه ما يدل على علو مكانتها فى نفسه ، وأنه نظر اليها على أنها شريك فى الحياة جدير بالرعاية والحب والإعزاز ، وأحيانا كان الزواج يسبق بحب ، وكثيراً ما نبتت من الزواج شجرة الحب[٣] . فهذا دريد بن الصمة يحب الخنساء ويتغزل فيها ، ويخطبها إلى أبيها ، ويجىء فى غزله قوله :

أُخناسُ قد هام الفؤاد بكم ... واعتاده داءٌ من الحب[٤]

وكثير من العشاق كانوا يحبون ، ويريدون أن يتزوجوا بمن يحبون ، كالمرقِّش

---

(١) نثر الدر : صورة شمسية بدار الكتب ، وعيون الأخبار ٤/٧٦ والأغانى ١٥/٧٦

(٢) الأغانى ١٨/١٢٨ وفوات الوفيات لابن شاكر ١/١٢ وفى عيون الأخبار ٤/٧٧ أن القائل أبو الأسود

(٣) الغزل فى العصر الجاهلى ١٩ والأغانى ٢/١٢٨ — ١٣٢ الدار

(٤) الأغانى ٩/١١ والأمالى ٢/١٦١

الأكبر [١]، وعُروة بن حِزام [٢]، وعمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء [٣]، وعدّى بن زيد العبادى [٤]، وأبى مالك بن عبد الله بن مسعود [٥]، وعُتبة بن الحُباب بن المنذر بن الجموح [٦]، والمخبل القيسى [٧].

وقد تغزل بعض الشعراء فى زوجاتهم، لأنهم أحبوهن حبا حارا كما يحب الرجل فتاة لا ينالها، فمثلا تغزل زهير بن أبى سُلمَى فى زوجته أم أوفى [٨]. وبدأ معلقته بقوله:

أمن أم أوفى دِمنةٌ لم تكلّم بحومانة الدّرّاج فالمتثلّم [٩]

وامرؤ القيس تغزل فى زوجته أم جُندب بقوله:

خليلىّ مرّا بى على أم جُندُب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تُنظرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب
ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيّب
عقيلة أتراب لها لا دميمة ولاذات خَلْقٍ إن تأملتَ جانب [١٠]

وتغزل حسان بن ثابت فى زوجته الشَّعْثاء [١١]، وحدث هذا أيضا فى العصر الأموى من الحارث بن خالد المخزومى إذ شبب بزوجته أم عمران [١٢].

وإذاً فلم يكن العرب شعبا بدائيا، يجهل عاطفة الحب، ويقيم الزواج على أنه اتصال حيوانى الغرض منه إشباع اللذة وإنسال الولد فحسب، ذلك بأن البدائيين لا يعرفون عاطفة الحب، وقلما تغنوا بشعر يصورها، لذلك لما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة ألجونكون Algonquins لم يجدوا فى لغتهم كلمة تعبر عن الحب، وفى قبيلة

---

(١) الأغانى ٥/١٧٩ الدار والشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨ وديوان طرفة ١١٨
(٢) فوات الوفيات ٢/٣٥ والأغانى ٢٠/١٥٣ والنوادر ١٦١ وتزين الأسواق ٧٧
(٣) الدر المنثور ٣٤٨
(٤) الأغانى ٢/١٢٨ — ١٣٢ الدار
(٥) تزيين الأسواق ٩١
(٦) تزيين الأسواق ٩١
(٧) الأغانى ٢١/ ١٦
(٨) الأغانى ٩/١٥٠
(٩) شرح القصائد العشر ١٠٣
(١٠) دايون امرىء القيس ٣١ جانب: ضخم قصير
(١١) الإصابة ٨/١٢٠
(١٢) الأغانى ٣/٣٣٠ الدار

الهوتنتوت نجد الزواج عملا آليا ، ولا يأبه أحد الزوجين بالآخر ، وكذلك فى ساحل الذهب وعند الاستراليين البدائيين (١) .

والمتأخرون بعامة أقل من المتمدينين ميلا إلى النساء ، حتى لقد يبقى الرجال أعزابا مدة طويله من أعمارهم ، ثم تطرأ عليهم الرغبة فى الاتصال الجنسى . وهم فقراء فى عاطفة الحب الجنسى ، لهذا لايعمر الغرام بالمرأة قلوبهم أو خيالهم (٢) . بل كان العرب شعبا متحضرا يؤسس العشرة بعد الزواج على دعائم من الحب والتعاطف والاعتزاز .

وكانت الزوجة العربية أرفع مكانة من اليونانية والرومانية ، لأن هذه لم تكن تنال مثل ما نالت العربية من حب زوجها وتقديره . « ولم يعرف الأوربيون للمرأة هذه المكانة الرفيعة إلا بعد أن فتح العرب الأندلس ، ونقل عنهم الاسبان والأوروبيون حب المرأة وتقديرها فيما نقلوا » (٣) .

يناديها بلقب التكريم

ومن دلائل حبه وتقديره أنه كان يلقبها بألقاب فيها تكريم وإشعار بالعزازة . فمثلا قيس بن عاصم يقول لزوجته منفوسة بنت زيد الفوارس الضبى وقد آتته بطعام ـ أوحاتم يقول لزوجته :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذى البُرْدَين والفرس الوَرْد

اذا ما صنعت الزاد فالتمسى له ... أكيلا فإنى لست آكله وحدى (٤)

وعروة بن الورد يلقب زوجته بأبيها العظيم :

أقلّى علىّ اللوم يا بنة منـــذر ... ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهرى (٥)

---

(١) قصة الحضارة ٧١ ول ديورانت

(٢) The psychology of Marriage P. 240 Waltee M. Gallichan

(٣) تراث الإسلام ١٥٩/١

(٤) الأغانى ١٤٤/١٢ وتهذيب الكامل ١٠٢/٢ وفى شعراء النصرانية ١٣٣/١ وشرح الحماسة للتبريزى ١٠٠/٤ وحماسة الخالديين ٢٨٩ مخطوط فيه أن القائل حاتم الطائى . ذو البردين : عامر ابن أحيمر بن بهدلة أخذ من المنذر بن ماء السماء بردى ابنه عمرو بن هند فى جمع من وفود العرب مكافأة له لأنه من أعزهم قبيلة وأكثرهم عددا (النقائض ٧١٤)

(٥) شعراء النصرانية ٨٨٣

ولقد يلقبها زوجها باسم ابنها ، إعزازا لها ومسرة ، كقول أوس بن حجر التميمى لزوجته :

ألم تعلمى أمَّ الجُلاس بأننا كرام لدى وقع السيوف الصوارم (١)

وقول عروة فى امرأته سلمى :

ذكرت منازلا من أم وهب محل الحى أسفل ذى النقير
وأحدث معهد من أم وهب مُعرَّسُنا فويق بنى النضير (٢)

وقوله أيضا لزوجته ملقبا بأم مالك تارة وبأم حسان تارة .

سلى الطارق المعْتَرَّ يا أم مالك إذا ما أتانى بين قِدرى ومجْزِرِى
أيُسفرُ وجهى إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون مُنكر؟

وقوله أيضا :

ذرينى ونفس أم حسان إننى بها قبل ألا أملك البيع مشتر
أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمس هامة فوق صيِّر (٣)

وربما ناداها الزوج باسمها مجرداً ؛ إشعاراً بالألفة وقرب النفس إلى النفس، وهذا هو الغالب ، وربما ناداها باسمها مصغراً تدليلا وإيناسا ، وربما كنى عنها بميزة من مميزاتها ، وخاصة من خواص عملها . قال شاعر :

ألم تعلمى ياربة الخدر أننى أبيٌّ إذا رام العدو تهضّمى

وقال أزهر بن هلال التميمى :

أعانكُ ما وليت حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدما (٤)

وقال تأبط شرا :

إلا تكلما عِرْسى منيعة ضمّنت من الله إثما مُستسرّا وعالنا (٥)

وذكرها المثقب العبدى أو علبة بن يزيد بأنها عرسه :

تهزأت عرسى واستنكرت شيبى ففيها جَنَفٌ وازْورار (٦)

---

(١) حماسة البحترى ٢٤٢ (٢) شعراء النصرانية ٨٩٠ ذو النقير : ماء أو موضع لبنى القين ولكلب . (٣) شعراء النصرانية ٩١١ وديوان عروة ١٣ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ ومجموع أشعار العرب ١/٢٩ هامة : طائر يخوج من القبر فى زعمهم يطلب الثأر . صير : قبر (٤) حماسة البحترى ٥١
(٥) الأغانى ١٨/٢١٣ (٦) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط

وصغّر تأبط شراً اسمها فى قوله :

تمـول سُلَيْمى لجاراتهـا أرى ثابتاً قد غدا مُرْمِلا

يشهدها على مفاخره

إذا كان العربى كلفا بأن يشيد بمفاخره ، ويذيع محامده ، فإنه كان كلفا أيضا بتوجيه الخطاب إلى المرأة - زوجته أوحبيبته - وبإشهادها على هذه المفاخر . من ذلك قول عروة بن الورد فى إشهاد زوجته على محامده :

وقد علمت سليمى أن رأيى ورأى البخل مختلف شَتيتُ

وأنى لا يرينى البخل رأى سواء إن عطشت وإن رويت

وأنى حين تشتجر العوالى حوالِى اللب ذورأى زَميت(٢)

وقول حاتم أوقيس بن عاصم لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا فإنى لست آكله وحدى

أخا طارقا او جاربيت فإننى أخاف ملامات الأحاديث من بعدى(٣)

وقول أوس بن حجر :

ألم تعلمى أمّ الجلاس بأننا كرام لدى وقع السيوف الصوارم

وأنا لنعطى الحق منا وأننا لنأخذه من كل أبلج ظالم(٤)

وقول عروة :

سلى الطارق المعترَّ يا أم مالك إذا ما أتانى بين قِدرى ومجزِرى

أيسفر وجهى إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر(٥)

وإنه ليتمادى فى إشهادها على محامده تماديا ، فيتطلب منها أن تسائل المحاربين عن شجاعته لتزهى به ، ويزهى بإعجابها . يقول عامر بن الطفيل :

فلو علمت سليمى عِلم مثلى غداة الروع واصلت الكراما(٦)

---

(١) الحماسه البصرية ١٢ (٢) ديوان عروة وشعراء النصرانية ٩٠٦ زميت : وقور .

(٣) ديوان حاتم ٩ وشرح الحماسة للتبريزى ٣/١٠٠ وفى الأغانى ١٢/١٤٤ وتهذيب الكامل ٢/١٠٢ أن القائل قيس بن عاصم (٤) حماسة البحترى ٢٥٢ (٥) شعراء النصرانية ٩١١

(٦) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢

ويقول :

هلّا سألت بنا وأنت حفيّة ... بالقاع يوم تورّعت نهدُ
هذا مقامى قد سألتِ وموقفى ... وعن المسير فسائلى بعدُ
أسألت قومى عن زياد إذ جَنَى ... فيه السنان وإذ جنى عبد[1]

ويقول عنترة بن شداد :

سلى عنا الفزاريين لمّا ... شفينا من فوارسها الكبودا[2]

ويقول :

يا عبل كم من غمرة باشرتها ... بمثقّف صلب القوائم أسمر[3]

ويتهدد عامر بن الطفيل زوجته بالطلاق إن هى تغاضت عن الحفاوة ببلائه ، يقول :

طُلّقتِ إن لم تسألى أى فارس ... حليلك اذ لاقى صُداء وخثْعَما
أكر عليهم دعْلجًا ولبانُهُ ... إذاما اشتكى وقع الرماح تحمحما[4]

يعتذر لها من فراره

أحيانا كان المحارب يضطر الى أن يفر ، وهو يعلم أن الفرار مخزاة ومعرة ، فيجعل يبرر فراره ، وينتحل لنفسه المعاذير ، ويختص زوجته بأعذاره ، لأنها الشخص الأول الذى يهمه أن يشهد له بالشجاعة ، ويخجله أن يصمه بالجبن .

فرّ أوس بن حجر عن بنى عبس ، وكان فيهم زهير بن جذيمة العبسى وأولاده شأس ومالك وقيس ، فاعتذر لزوجته بأن أعداءه أشداء ذوو دهاء ، ففرّ حتى لا يقتل ، ولم يفر عن جبن ، لأن شجاعته معلومة من قبل :

أجاعلةٌ أم الحُصَيْن خزايةً ... علىَّ فرارى أن لقيتُ بنى عبس
ورهط أبى سهم وعمرو بن عامر ... وبكرا فجاشت من لقائهم نفسى

أو :

لقيت أبا شأس وشأسا ومالكا ... وقيسا فجاشت من لقائهم نفسى
كأن جلود النّمْر جِيبَتْ عليهم ... إذا جعجعوا بين الإناخة والحَبْس

---

(١) الديوان القصيدة ٣ (٢) ديوان عنترة ٥٦ (٣) ديوان عنترة ٨٦
(٤) ديوان عامر القصيدة ١٩ ملحق

فضموا علينا حَجْرَتَيْنا بصادق ... من الرأى حَشّ النار فى الحطب اليَبْس
فَأَبْتُ سليمى لم يُخَرِّقْ عمامتى ... ولا صفحتى وَقْعُ القواضب فى التُّرْس
وليس يعاب المرء من جبن يومه ... إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس (١)

ويعتذر زهير بن هلال لزوجته بأنه لم يفر إلا بعد أن هزم رجاله وتفرقوا ، فلم يجد من الكياسة والحصافة أن يتقدم وحده ، على أنه قد فرّ بعد أن أثخن الجراح فى أعدائه :

أعاتكُ ماوليتُ حتى تبددت ... رجالى وحتى لم أجد متقدّما
أعاتكُ إنى لم أُلَمْ فى قتالهم ... وقد عض سيفى كبشهم ثم صمما
أعاتك أفنانى السلاح ومن يُطِلْ ... مقارعة الأبطال يرجع مكلّما (٢)

ويعتذر شاعر آخر لزوجته بأنه خشى الأسر ، ولم يخش القتل :

قالت سلامة لا أرى لك عادة ... أن تترك الأعداء حتى تُعْذِرا (٣)
لو كان قتلٌ يا سلام فراحة ... لكن فررت مخافةً أن أوسَرا

ولقد نظرت امرأة حماس بن قيس إليه وهو يُعِدُّ حربة يوم فتح مكة ، فقالت له : ما تصنع بهذه ؟ قال : أعدها لمحمد وأصحابه ، فقالت : ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شىء . قال : والله انى لأرجو أن أُخدمك بعضهم . فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل وفر ، وقال لامرأته : اغلقى علىَّ بابى ، فقالت له : فأين ما كنت تقول ؟ فاعتذر لها بأن سادة قريش فروا ، وأن المسلمين غلابون ضرّابون :

إنك لو شهدت الخيل يوم الخندمة ... إذ فرّ صفوان وفر عكرمة
وابو يزيد قائم كالمؤتمة ... ولحقتنا بالسيوف المُسْلِمة
يَفْلِقْن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا نسمع إلّا غمغمة
لهم نهيتٌ خلفنا وهمهمة ... لم تنطق فى اللوم أدنى كلمة (٤)

---

(١) ديوان أوس بن حجر ١٠ والحماسة البصرية ١٢ مخطوط وحماسة البحترى ٥٢ وفى العقد الفريد ١٧٥/١ أن القائل عمرو بن معد يكرب . الحبس : الشجاعة (٢) حماسة الخالديين ٢٤٤ مخطوط وحماسة البحترى ٥١ (٣) المرأة العربية ٢٢/١ (٤) العقد الفريد ١٧٣/١ (القائل اسمه الحارث) وفى سيرة ابن هشام ٢٦/٤ ومعجم البلدان عند الكلام على الخندمة أن القائل حماس بن قيس بن خالد وفى السيرة أيضاً ٢٨/٤ أن القائل الرعاش الهذلى وفى الكامل للمبرد ٣٦٥ طبعة أوروبا أنه أبو عثمان الهذلى الرعاش أو حماس بن قيس . أبو يزيد : حذفت همزة لضرورة الشعر . المؤتمة : التى قتل زوجها فبقى لها أولاد أيتام . المسلمة : المسلمون . الغمغمة : صوت الأبطال فى الحرب . نهيت : نوع من صياح الأسد . همهمة : صوت فى الصدر .

يفخر بحسن عشرته لها :

كان من سراوة الخلق وسمات الرجولة أن يحسن الرجل عشرة زوجته ، لذلك خايل بعضهم بأنه لا يسيء عشرتها ، كقول ذى الأصبع العدوانى أنه يلبى نداء جارته وكنّتها ، ولا يفجع زوجته بشر :

ثم سلا جارتى وكنّتها هل كنت فيمن أراب أو فَرَعا
أو دعتانى فلم أجبْ ولقد تأمن منى حليلتى الفجعا (١)

ومع شهرة التيميات بالدل وصعوبة المراس كن حظيات عند أزواجهن ، ينعمن بدماثة أخلاقهم (٢) .

على أن الرجال لم يكونوا على نسق واحد فى معاملة الزوجات ، وهذا طبيعى ، فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : « كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخبتُ على امرأتى ، فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفزعنى ذلك . . . وفى رواية يزيد بن رومان . كنا ونحن بمكة لا يكلم أحد امرأته إلا إذا كانت له حاجة ، وفى رواية عبيد بن حنش : ما نعد للنساء أمراً ، وفى رواية الطيالسى : كنا لا نعتد بالنساء ولا ندخلهن فى أمورنا » (٣) .

ولكن فى هذا نظراً ، لأن كثيراً من القرشيين كانوا يحفلون بنسائهم أو يشركونهن فى فى أمورهم كما سبق ، وكما سيجىء . ويظهر لى أن خلق عمر كان فيه بعض جفاء فى معاملة النساء ، وربما شركه بعض القرشيين فى خلقه ، وربما توهم بعضهم أن القرشيين مثله . ولسنا نستطيع أن ندعى أن العرب كلهم كانوا يحسنون معاملة النساء ، لأن هذا مغاير للطبائع ، وما زلنا إلى الآن نرى المرأة علية القدر فى بعض البيئات ومهينة فى بعضها الآخر ، من الوطن الواحد . ثم إن حسن المعاملة لم يتدل بالزوج إلى أن يكون خنوعاً لزوجته ، أو إمّعة لا رأى له ،

---

(١) الأغانى ٣/٩٧ الدار . الكنة : امرأة الابن أو الأخ . أراب : فعل ما يريب . فرع : أحش أو تسلل إلى غير زوجته من فرع العروس إذا غشيها أو فرع فى الجبل إذا صعد فيه وفى الأصل فدع الفجع : الأذى (٢) الأغانى ١٠/٥١ ساسى . (٣) فتح البارى ٩/٢٤٥

لأن الخلق العربى مدعوم برجولة وفتوة ، لذلك يقول الشنفرى لزوجته : طلقينى إذا رضيت بمخالفتك لى فيما نهيتك عنه ، لأنك إذا الزوج ، ومن حقك أن تؤدبينى بسوطك :

إذا ما جئتِ ما أنهاك عنه ... ولم أنكر عليك فطلقينى
فأنت البعل يومئذ فقومى ... بسوطك لا أبالك فاضربينى (١)

ويقول عروة إنه لا يصيخ لزوجته إذا أمرته بعقوق :

إذا أمرتنى بالعقوق حليلتى ... فلم أعصها إنى إذاً لمضيع (٢)

وإن فحولة الرجل لتتضح حينما تسىء زوجته إلى ابنه من غيرها ، أو إلى أخى زوجها ، فيردعها ردعاً ، من ذلك أنه كان لعمرو بن شاس ابن يقال له عرار من أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، وكان عرار يشتمها ، فغضب عمرو وهددها بالطلاق إن لم تحسن معاملة ابنه ، لأنه يحبه ويعزه ويحميه :

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد ... عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم
وإن عراراً إن يكن غير واضح ... فإنى أحب الجون ذا المنكب العمم
وإن عراراً إن يكن ذا شكيمة ... تقاسينها منه فما أملك الشيم
فإن كنت منى أو تريدين صحبتى ... فكونى له كالسمن رُبت له الأدم (٣)
وإلا فسيرى مثل ما سار راكب ... تعجل خِمساً ليس فى سيره أمم

وأنف دريد بن الصمة أن تشتم زوجته أخاه ، لأنها إذاً تشتمه أيضا :

أعبد الله لو شتمـــك عرسى ... تساقط لحم بعضى فوق بعض
معاذ الله أن يَشْتُمْنَ عرضى ... وأن يملكن إمرارى ونقضى
إذا عرس الفتى شتمت أخاه ... فليس بحامش الرئتين محْض (٤)

يسمع مشورتها

هذه العشرة التى يتعاطى الزوجان صفوها ، ويتبادلان فيها الثقة والإعزاز جديرة بأن

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/١٢٧ (٢) شعراء النصرانية ٩١٤ (٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ تحقيق شاكر والأمالى ٢/١٨٩ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٨٠ والأغانى ١٠/٦٠ غيرواضح: غير أبيض جميل . العمم : التام الطويل . شكيمة : جفوة . ربت له الأدم : دهن الوعاء بالرب ليصلح السمن الذى فيه ، أى أحسنى معاملته ظاهرة وباطنة بحيث لا يكون فيها تغير كالسمن المربوب وعاؤه . تعجل خمسا : سار مسرعاً إلى الماء ليسقى إبله بعد أن عطشت أربعة أيام . أمم : إبطاء .
(٤) الوحشيات لأبى تمام ١٠١ مخطوط . حامش الرئتين : مر اللحم . محض : خالص النسب .

تمهد للزوجة أحيانا سبيل المشورة على زوجها فيما يعود عليهما بالخير ، وهو لا يجد غضاضة فى أن يستمع إليها ويحقق ما تريد ، ولقد تكون المشورة إصلاحا بين القبائل ، كما حدث لما خطب الحارث بن عوف بُهَيْسة بنت أوس بن حارثة الطائى ، فلما هم بها قالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تتقاتل ؟ — وكان ذلك فى أيام حرب عبس وذبيان — فقال لها : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القوم ، وحملا عنهم الديات ، فانصرفا بأجمل الذكر ، وشاد بهما زهير بن أبى سلمى (١) ، ولقد تشير الأم على زوجها فى تزويج ابنته ، ويرتضى هذه المشورة كما سبق فى اختيار الزوج ، ولقد تكون فى شأن من شئون الحياة كالرحلة مثلا ، فقد أراد الحطيئة أن يسافر ، فأتته امرأته بعد ما أعدّ راحلته ليركب ، فقالت :

اذكر تحنُّننا إليك وشوقنا ... واذكر بناتك إنهن صغار

فقال : حطوا الرحال ، لا رحلت أبدا (٢) .

على أنها كانت ذات أثر عظيم فى تشجيع زوجها وحفز همته ، وخير مثل فى ذلك السيدة خديجة ، فقد آمنت بالنبى ، وصدقت بما جاء من الله ، وآزرته على أمره ، فخفف الله بمؤازرتها عن نبيه ، وكان لا يسمع مما يكرهه من الرد عليه والتكذيب له إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتصدقه وتهون عليه أمر الناس (٣) .

يغار عليها ويحميها .

فى هذه البيئة التى قامت الأخلاق فيها على الإباء ، والاعتزاز بالشرف وحسن الأحدوثة كان لا بد للرجال من الغيرة على العرض ، وكان العدوان عليه يجر حربا وويلا . وقد افتخر العرب بالعفة ، ومدحوا بها ، وهؤلاء المفتخرون بالعفة والمادحون بها غُيُر على النساء ، وما زالت غيرتهم مضرب الأمثال ، لذا قالوا : « كل شىء مَهَّه ماخلا النساء وذكرهن » يريدون أن كل شىء يسير جميل مقبول يحتمله الرجل إلا ذكر الحرم ، فإنه يمتعض منه ولا يطيقه (٤) .

ولهم فى الغيرة حديث عجب ، فمثلا قتل آكل المرار حجر بن عمر بن معاوية الكندى

---

(١) الأغانى ٩/١٤٢ ساسى والمستطرف ٢/٢٢٢ (٢) الأغانى ٢/١٧٧ (٣) سيرة ابن هشام ١/٢٥٩ (٤) مجمع الأمثال ٢/٧٠

أو الحارث بن عمرو بن حجر الكندى امرأته هندا ، لأن عمرو بن الهَبُولة سباها فى غيابه ، فلما قدم تبعه وقتله واستنقذها ، وعلم أنه نال منها ، فربطها فى أذناب الخيل حتى تقطعت أوصالها (١) ، وكذلك فعل الحارث بن عمرو إذ غزاه ابن هبيرة الغسانى فى غيبته ، فأخذ ماله وسبى امرأته ، فأصابها فى الطريق ، ثم لحقه الحارث فقتله ، وتخلص امرأته ، ولما عرف أنها مُسَّت أمرها فوثقت بين فرسين ، ثم أحضرهما حتى تقطعت ، وأنشد :

كل أنثى وإن بدا لك منها آية الود حبها خَيْتَعُور
إن من غره النساء بود بعد هذا لجاهل مغرور (٢)

وأرجح أن الحادثة واحدة ، ولكنها نسبت إلى شخصين ، بدليل تشابهها وأن صاحب العقد يذكر هذين البيتين بعد قصة آكل المرار (٣) .

أما حماية الزوج لزوجته فإنها صورة من حماية العربى للمرأة عامة ، فلا داعى لتفصيل القول فيها الآن . وحسبنا هنا هذه اللمحة ، يقول مالك بن أبى كعب الأوسى إنه يستعيذ بالله من أن تقول زوجته إنه فرّ عنها ، وإنه يجود بآخر قطرة من دمه ليحميها من الأسر :

معاذ الإله أن تقول حليلتى ألا فَرَّ عنى مالك بن أبى كعب
أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا وأنجو إذا غُمّ الجبان من الركب (٤)

وعير عامر بن الطفيل قيسا أنه أسلم زوجته سبية :

وأفْلتنَا على الحوْمان قيس وأسلم عرسه ثم استقاما (٥)

وإذا ما تهاون فى حمايتها نبذته ، ورفضت أن تعاشره ، لأنه فى نظرها فسل لا تعتز فى

---

(١) الأغانى ١٥/٨٢ وسيرة ابن هشام ٤/٢٥٥ . سمى آكل المرار لأنه حنق من سبى امرأته حتى أكل المرار وهو يعبث به ولا يدرى (الأغانى ١٥/٨٢ — ٨٤ و (سيرة ابن هشام (٤/٢٥٥) أو لأنه أكل هو وأصحابه شجر المرار فى غزوة (سيرة ابن هشام ٤/٢٥٦) وأنا أرجح أحد هذين السببين وأستبعد الرأى الثالث وهو أن امرأته قالت لسابيها : كأنى برجل آدم (مسترخى الشفتين) أسود كأن مشافره مشافر بعير آكل مرار ، قد أخذ برقبتك . والمرار شجر مر إذا أكلته الابل قلصت مشافرها فبدت أسنانها . وفى آكل المرار خلاف : أهو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية (سيرة ابن هشام ٤/٢٥٦ والأغانى ٨/٦١ و ١٥/٨٢ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٣) فهو الجد الثالث لامرىء القيس. أم هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمر بن معاوية (هامش الأغانى ١٥/٨٤ والاشتقاق لابن دريد وسيرة ابن هشام ٤/٢٥٥ والقاموس المحيط مادة مر) فهو جد امرىء القيس لأنه عاش حوالى سنة ٤٨٠ م (تاريخ العرب ١/١١٥ فيليب حتى) . (٢) أخبار النساء ٣ ومجمع الأمثال ٢/١٧٧
(٣) العقد الفريد ٢/٧٠ (٤) حماسة الخالديين ١٠ مخطوط . (٥) ديوان عامر القصيدة ٢

رحابه ، ولا تطمئن إلى حمايته . من ذلك أن بنى عبدمناه أغاروا على عجل وحنيفة فى يوم العَدَاب ، ويسمى أيضا يوم الصعاب ، وسبى عمرو بن الحارث أو الحارث بن تولب حسينة بنت جابر العجلى ، وكانت زوجة لابن عمها تمام بن سواده ، ففر عنها فأسرت ، ثم إن زوجها وأباها أتياها ليفادياها ، فرفضت واختارت سابيها وقالت تعير زوجها :

تمامُ قد أسـ ـــتنى لرماحهم وخرجتَ تركُضُ فى عجاج القسطل
وتلومنى ألا أكر عليكم هيهات ذلك منكم لا أفعل

ثم فاداها أخوها ، وسار معها عمرو بن الحارث حتى جوزها أرض تميم ، وقال :

وخيَّرنا حُسَيْنـــة إذ أتاها سَـــوادَةُ ضارعا معه الفداء
وقالت ان رجعتُ إلى تميم مُخَيَّرةً فقد ذهب الحيـــاء
وهبناها لأبْجَرَ إذ أتانا وفيناها غيرها منهم نساء

وفى ذلك يقول جرير للأخطل :

ورأت حسينة بالعداب فوارسا تحْوى النِّهاب وتقسم الأنفالا (١)

الإسلام ومعاملة الزوجات

لا شك أن الإسلام هذب الأخلاق الجامحة وشذب العادات الطالحة ، وسنَّ جديدا من الآداب ، وزاد من عطف الرجال على الزوجات . فقد شرع القرآن الكريم وسائل تأديب الزوج لزوجته « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا »(٢) ، وشرع التحكيم بين الزوجين المتخاصمين » وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » (٣) ، وأوصى النبى عليه الصلاة والسلام بالنساء خيرا فى حجة الوداع « استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٤) . وبين النبى أنه لاغضاضة ولا ضير فى مداعبـــة الرجل زوجته « اللهو فى ثلاث : تأديب فرسك ، ورميك بقوسك ، وملاعبتك أهلك » (٥) . ، وكان صلى الله عليه وسلم أنبل زوج معاملة ، وأظرف زوج عشرة

---

(١) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ — ٥٩ مخطوط (٢) سورة النساء ٣٤ (٣) النساء ٣٥
(٤) تيسير الوصول ٢/٢٥٦ والمغازى للواقدى ٤٣٤ والبيان والتبيين ٢/٣٢ طبعة هارون
(٥) كنز العمال ٧/٣٣١ وعيون الأخبار ٤/٨١

وحسبنا قوله : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى [١] . وقد نهى عن ضرب النساء ، فقيل له يا رسول الله إنهن قد فسدن فقال : « اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم » [٢] وقال فى خطبة الوداع » ، إن الله قد أمر أن تهجروهن وتضربوهن ضربا غير مبرح » وهاله أن يلجأ الأزواج إلى الضرب فى قلة مبالاة ، فقال : « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل ثائراً فريصُ عصبِ رقبتهِ على مُرَيْئَته يقاتلها » وشكت إليه امرأة أن زوجها قد ضربها ضربا شديدا ، فقام فأنكر ذلك وقال : « يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحى » [٣] . وللنبى عليه الصلاة السلام أحاديث كثيرة فى الوصاية بالزوجات والحث على إحسان معاملتهن [٤] .

واهتدى بهديه المسلمون ، وساعدهم على تمتيع النساء أن كثرت أموالهم ، حدث محمد بن ربيعة بن الحارث أن أصحاب رسول الله كانوا يوسعون على نسائهم فى اللباس الذى يصان ويتجمل به ، وإنه رأى على عثمان مطرف خز ثمنه مئتا درهم ، فقال له عثمان : هذا لنائلة كسوتها اياه ، فأنا ألبسه أسرها به . ولا شك أن الإسلام زاد مكانة المرأة عزا وعلوا ، وعضدها فى حريتها فى اختيار زوجها ، وكفل لها معاملة حسنة ، حتى لقد دلّت بعض المسلمات بمكانتهن ، فاشترطن على أزواجهن ،وشططن فى معاملتهم ، فمثلا اشترطت سكينة بنت الحسين على زوجها زيد بن عمرو بن عثمان ألّا يمنعها سفرا ولا مدخلا ولا مخرجا ، بل لقد منعته مرة من زيارتها بالطائف حيث أقامت ببيت لها ، ثم أمرت بالرحيل إلى المدينة ، وأذنت له فجاءها [٥] . وكانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة لعبد الملك بن مروان ، وقد غضبت عليه وهو خليفة ، فاحتجبت عنه حتى شق ذلك عليه ، فأرسل إليها من يحتال فى إرضائها [٦] وقد فعلت ذلك عائشة بنت طلحة مع زوجها مصعب بن الزبير ، حتى أصلح بينهما ابن قيس الرقيات [٧] .

مكانة الزوج عند زوجته

أسلفت القول فى الصفات التى كان يتوخاها الخاطب فى الفتاة ، ليطمئن إلى حياة منزلية هادئة سعيدة ، وما زال الأزواج يمتدحون فى زوجاتهم مظاهر الأنوثة الكاملة التى تتجلى

(١) كنز العمال ٨/٢٥٨ (٢) الطبقات لابن سعد ٨/١٤٧ (٣) كنز العمال ٨/٢٦٠ والطبقات ٨/١٤٨ (٤) كنز العمال ٨/٢٥٨ — ٢٦١ (٥) الأغانى ١٧/٩٣ (٦) الأغانى ٢/١٣٥ ساسى (٧) الأغانى ١٠/٥١

فى لين العريكة ودماثة الخلق وحسن السمع والطاعة ، يقول البراء بن قيس فى زوجته :

كانت إذا غضبتْ علىَّ تظلَّمَتْ وإذا كرهتُ كلامها لم تُثقل (١)

ويمدح عمرو بن أحمد الباهلى المرأة بأنها ليست ثرثارة الحديث ولا مغالبة ، وبأنها كيسة ، لاتتكلم إلا بما ينفع (٢) .

وقد كانت مكانة الرجل عند امرأته عالية ، وتجلى ذلك فى عدة مظاهر .

حبها له

إذا ما انتقلت المرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها فقد شهدت بيتاً آخر جديداً ، تقيم فيه عمرها ، وتغرس آمالها ، وتصل حياتها بزوجها ، تبثه أمانيها وتشكو إليه آلامها ، بل تمتزج بهذا الزوج عواطفها ، فتجاوبه ويجاوبها ، هو رجلها ، وهو حاميها وعائلها ، ووالد بنيها ، فهى إذا تحبه ويسعدها أن يحبها . ولقد تسلك فى تحببها إليه أن تتبعَّل له ، وأن تنجب ، وأن تتذرع بجمالها وكمالها وحسن خلقها ، ولقد يسوقها الحرص على حبه لها أن تتذرع بضرب من الخرافة والوهم ، فتعلق الخرزات ، وتقرأ الرقى ، والمرأة هى المرأة فى كل عصر وفى كل بيئة ، فما زالت بعض النساء يدنَّ بالتعاويذ والرقى والتمائم ، ويعتقدن أنها وسائل ناجعة فى أن يجتذبن أزواجهن ، ويعمرن قلوبهم .

وكانت الخرزات فى الجاهلية أنواعا ، منها : الهِنمة ، وكن يقلن : أَخَّذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة ، ومنها العَطْفة والفَطْسه والكَحْلة والصَّرْفة والسُّلوانة ، أو السُّلوان والهبرة والقبل والقبلة (٣). ومن خرزاتهن أيضا الدَّرْدَبيس ، وهى خرزة سوداء كأن سوادها لون الكبد تشف مثل العنبة الحمراء تتحبب بها المرأة إلى زوجها ، وتوجد فى قبور عاد (٤) ، والقرْزحَلة خرزة تلبسها المرأة ليرضى بها زوجها ولا يبتغى غيرها ولا يشرك معها أحداً (٥) والكرار والهَمْرة ، ورقيتهما : ياكرار كرّيه ، ياهمرة اهمُريه ، إن أقبل فُسرِّيه ، وإن أدبر فضريه (٦) . وقد أنشد ابن برى فى القرزحلة :

لا تنفع القُرَزْحلةُ العجائزا إذا قَطَعْن دونها المَفاوزا (٧)

---

(١) معجم البلدان ٣٨٧/٧ (٢) البيان والتبيين ١٤٠/٢ (٣) لسان العرب ١٠٧/١٦ ومواد الكلمات (٤) لسان العرب ٣٨٤/٧ (٥) اللسان ٧٢/١٤ (٦) اللسان ٤٥٢/٢ (٧) اللسان ٧٢/١٤

وقال شاعر فى الدردبيس وشدة تأثيرها :

قطعت القيد والخرزات عنى فمن لى من علاج الدّردبيس (١)

وقال آخر فى القبل والفطسة والدردبيس :

جمعن من قبلٍ لهن وفطْسة والدردبيس مُقابلاً فى المنظم (٢)

وما من شك فى أن هذه الودعات خرافة ، لكن لم تقتصر على المرأة العربية ، فقد كان الأقدمون يتخذون الودع والأصداف رموزاً لقدرة النساء على أن يلدن ويهبن الحياة ، ثم زاد شأنه إلى أن صار يقى الأحياء خطر الموت ، ويمنح الموتى طول البقاء . لذلك أصبح التمنطق بالودع وسيلة لإغراء الرجال بالنساء ، ففى الملاحم البابلية أن اشتار Ishtar ربة الحب والحرب وأم الحياة جميعها كانت إذا خلعت منطقتها وقفت حركة التناسل حتى تعود إلى لبسها ، واشتهرت منطقة أفروديت Aphrodite بقدرتها على إرغام الناس على الحب ، وكانت قوة برنهلد Brunhild مودعة فى منطقتها (٣) .

ومردّ ذلك إلى خضوع الناس لسلطان القوى الغيبيه فى شئونهم الدنيوية ، وما زالت الكثرة العظمى تخضع لهذا السلطان إلى اليوم ، وليس ذلك مقصوراً على غير المثقفين ، لأن الذين تتيح لهم ظروفهم أعظم الفرص للتعلم والتثقف ينتشر بينهم كثير من الخرافات والأوهام التى لا تمت إلى الأديان الراقية بصلة . وليست الرقى والتمائم وقراءة الكف ونحوها إلا قليلا من كثير من الأمثلة التى تدل على ضروب العرافة والسحر المتعددة ، وما زالت باقية بين الطبقات العالية فى المجتمعات (٤) .

ومن مظاهر حبها لزوجها أنها كانت إذا غاب عنها فى سفر تأخذ ترابا من موضع قدمه وموضع رجله ، معتقدة أن ذلك يسرع بعودته . قالت امرأة من العرب :

أخذت ترابا من مواطىء رجله غداة غـــدا كيما يئوب مُسلّما

وقالت أخرى :

قالت له واقتبضتْ من أثره يارب أنت جاره فى سفره (٥)

ويتجلى هذا الحب فى أن الزوجة كانت تعظم فجيعتها فى زوجها أكثر من فجيعتها فى أخيها

---

(١) اللسان ٧/٣٨٤ (٢) اللسان ٧/٣٨٤ و ٨/٤٥ (٣) تاريخ العـــالم عدد ٦ مجلد ١ ص ٣٧١ — ٣٧٥ اليوت سمث (٤) المرجع السابق ص ٣٦٥ اليوت سمث (٥) بلوغ الأرب ٢/٣٣٩

وخالها ، فقد عاد رسول الله من غزوة أحد ، فلقيته حَمْنة بنت جحش فنعى لها أخاها عبدالله ابن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزه ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير . فصاحت وولولت ، فقال رسول الله « إن زوج المرأة منها لبمكان » لما رأى تثبتها عند مصرع أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها (١) .

خوفها عليه من القتل

مهما تكن المرأة العربية كلفة بالشجاعة وبالبطولة فإنها لابد أن تتخوف على زوجها الردى ، لئلا تحرم حمايته وإعزازه وعشرته ، ولئلا ترمل ، ويتيتم بنوها . فهى معذورة فى أن تحاول أحيانا أن تثنيه عن الحرب وعن الغارات .

وممن صوروا ذلك عروة بن الورد ، فإنه كان قد أجدب هو وصعاليكه ، فأراد أن يخرج ليغزو ، فنهته امرأته خوفا عليه من الردى ، فعصاها وخرج غازيا ، وأصاب إبلا عاد بها على نفسه وصحبه ، وقال :

أرى أم حسان الغداة تلومنى ... تُخَوِّفُنى الأعداءَ والنفسُ أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسرّنا ... ولم تدر أنى للمقام أطوّف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا ... يصادفه فى أهله المتخلف (٢)

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

تقول لك الويلات هل أنت تارك ... ضُبُوّا برَجْلٍ تارةً وبمنْسر
ومُسْتثبتٌ فى مالك العام إننى ... أراك على أقتاد صَرْماءَ مذْكر
فجُوعٌ لأهل الصالحين ، مزلّةٌ ... مَخُوفٌ رداها أن تصيبك فاحذر (٣)

وهو حفىّ بتكرير هذا (٤) .

ويشركه فى هذا الحديث عمرو بن براقه الهمذانى :

تقول سليمى لا تعرضْ لتلْفَةٍ ... وليلك عن ليل الصعاليك نائم (٥)

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٢٧ وابن هشام ٣/٥٠ والمغازى ٢٨٥ (٢) الأغانى ٣/٨٢ الدار وشعراء النصرانية ٨٩٨ وديوان عروة ٢٣ (٣) شعراء النصرانية ٨٨٤ ضبوا : لصوقاً بالأرض لختل الصيد والمراد أصحاب المال ، رجل : رجال . منسر : خيل والمراد خيالة . أقتاد صرماء مذكر : الأقتاد خشب الرحل أو جميع أداته والمراد الرحال. صرماء : مغارة لاماء فيها (أساس البلاغة) مذكر : داهية شديدة أو طريق مخوف والمراد على شفا هلاك . فجوع : تفجع الناس بالسطو عليهم . الصالحين : ذوى المال (٤) ديوان عروة ١٣ و ٢١ (٥) حماسة الخالديين ٥ مخطوط

وعمر بن معد يكرب :

أعاذلُ عُدتى بَزِّى ورمحى وكل مقلِّص سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شبابى إجابتى الصريخَ إلى المنادى [١]

وكعب بن سعد الغنوى يفصل حوارا بينه وبين زوجته فيقول :

لقد أغضبتنى أم قيس تلومنى وما لوم مثلى باطلا بجميل
تقول : ألا يا استبق نفسك لاتكُن تساق لغراء المقام دَحُول
أراك امرأ ترمى بنفسك عامدا مرامى تغتال الرجال بغول
ألم تعلمى ألا يراخى منيتى قعودى ولا يدنى الوفاةَ رحيلى
فإنك والموت الذى ترهبينه على وما عذاله بعقول
كداعى هديل لا يجاب إذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هديل [٢]

هؤلاء الشعراء ومن على شاكلتهم كمضرس بن رِبْعى [٣] قد يكون تصويرهم هذا صادقا ، وقد يكون ضربا من الفخار بالبسالة واقتحام المهالك ، ولكنه على الحالين تعبير عن دخيلة الزوجة ، وخشيتها على زوجها ، لأن الشاعر ما كان ليتخذ عذلها وتخوفها مدرجة إلى فخره إلا وهو على يقين من صوابه فى تصوير نفسية زوجته .

حرصها على ماله :

من أحق من الزوجة المحبة الوفية بالحرص على مال الزوج ؟ إن الأم تحرص على مال ابنها بدافع الأمومة ، غير متأثرة بنفع شخصى تتوقعه ، أما الزوجة فإنها تحرص بدافع المشاركة فى الحياة ، وبدافع شخصى من شعورها بأن هذا المال لها ولبنيها ولزوجها ، وأنها تحقق به آرابها ، فهى أشد من الأم حرصا ، وأشد منها لوما للرجل على الإسراف ، وهى ترى إسرافا ما يعتده الزوج أريحية وواجبا محتوما .

لهذا أكثر الشعراء من تصوير الزوجات لوامات على البذل ، فهل كان ذلك لأنهم يتوسلون بهذا التصوير إلى الفخر بالكرم ؟ أو كان هذا تخيلا من الشاعر أراد به أن يعظم من عزيمته ومروءته ، فهو يكرم حين يلام ؟ أرى أن الرجل كان صادقا فى حديثه عن لوم امرأته ، فليس من المعقول أن يصمَ زوجته أو أمه بالبخل المدَّعى ليمهد به إلى أن يفخر بكرمه وغلبته على اللوم المتخيّل ، لأنه بذلك يسىء إلى نفسه أيضا . وإنما كان الأكمل لفخاره أن

(١) العقد الفريد ١/١٤٣ (٢) الأصمعيات ١/٦٠ (٣) معجم البلدان ٥/٥٤١

تكون أمه كريمة أو رثته الكرم ، وأن تكون زوجته كريمة ، لأنها نشأت على الكرم فى بيت أبيها صهره ، وعاشت مع زوجها الكريم فصادف كرمه فى نفسها هوى .

وإذاً فالراجح فى نظرى أن الشعراء كانوا صادقين فى تصويرهم ، وأن النساء كن أبخل من الرجال ، كما سأبين فى أخلاق المرأة . وقد حاولت ماوية بنت عفزر أن تكف زوجها حاتما عن سخائه فتأبّى عليها ، فلما ضاقت به طلقته[١] ، وفى ذلك قال قصيدته التى مطلعها .

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أوغد ... كذاك الزمان بيننا يتردد

يفخر فيها بكرمه ، ويشيد بآثاره [٢] ، ويظهر أن حاتما كان قد أجهد نفسه فى الدفاع عن مذهبه ، وفى تحبيب السخاء إلى زوجاته ، بضرب الأمثال ، كقوله لماوية :

أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوىّ إنى لا أقول لسائل ... إذا جاء يوما : حل فى مالنا نزر

أماوى ما يُغْنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة ... من الأرض لا ماء هناك ولا خمر

تَرىْ أن ما أهلكت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلتُ به صِفر [٣]

وقوله لنوار وقد حاولت أن تصده عن سخائه فرفض [٤] ، وقوله لزوجتيه معا وقد هددتاه بالطلاق :

فقلت وقد طال العتاب عليهما ... وأوعدتمانى أن تَبينا وتَصْرِما

ألا لا تلومانى على ما تقدما ... كفى بصروف الدهر للمرء محْكَما

فإنكما لامامضى تدركانه ... ولست على ما فاتنى متندما [٥]

وقد أضاف النمر بن تولب قوما وعقر لهم أربع قلائص ، واشترى لهم زق خمر ، فحنقت زوجته ولامته ، فقال لها إن لومك سفه ، وإنك تتخوفين الغد ، ولكنك لا تستطيعين أن تردى الفقر عنى ببخلك ، ثم قال إنها بكت لما سبأ الزق لضيوفه ، على أنه اشتراه بجمل مسن مهزول ، وبكت لأنه نحر لهم قلائص أربعا ، على أنه قد نحر مثلها لغيرهم من قبل ، فهذا البكاء ضلة منها وسفه ، بل إنه تباك لا بكاء . ثم أمرها أن تفسح لإخوته ليستمتعوا

---

(١) ذيل الأمالى ١٥٣ والأغانى ١٠٢/١٦ (٢) الأغانى ١٠٢/١٦ (٣) زهر الآداب ١٨٣/٣ وشعراء النصرانية ١٠٩ والعقد الفريد ٣٣٦/١ وديوان حاتم ١١ (٤) العقد الفريد ٣٣٤/١ (٥) ديوان حاتم وخزانة الأدب للبغدادى ٢٩٠/٢

معه بما يملك ، وقال إنه لابد أن يموت ويترك ماله فماذا يقسره على البخل ؟ ثم ضرب لها أمثلة بمن ماتوا وخلفوا المال لغيرهم :

قالت لتعذلنى من الليل : اسمع ... سفه تبيتك الملامة فاهجعى
لا تجزعى لغدٍ وأمرُ غدٍ له ... أتعجلين الشرّ ما لم تمنعى ؟
قامت تبكّى أن سبأتُ لفتية ... زقّا وخابيةً بعودٍ مُقْطَع
وقريت فى مَقْرًى قلائص أربعا ... وقريت بعد قِرَى قلائص أربع
أتبكّيًا من كل شىء هين ... سفه بكاء العين ما لم تدمع
فإذا أتانى إخوتى فدعيهم ... يتعللوا فى العيش أويلهوا معى
لا تطرديهم عن فراشى إنه ... لابد يوما أن سيخلو مضجعى
هلا سألت بعادياء وبيته ... والخل والخمر التى لم تمنع
لا تجزعى إن مُنْفِسٌ أهلكته ... وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى [1]

وهذا الضرب من المقال كثير [2] .

ولبعض الرجال مع نسائهم البخيلات الحريصات على المال أقاصيص ، كهذه التى رووها عن حُجَية بن المضرّب ، فقد رأى جاريته معها قعب من لبن فقال : أين تذهبين ؟ قالت إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه . فلما أراح راعيه إبله عليه قال لعبديه : أريحا هذه الإبل على أولاد أخى ، فأراحها كلها عليهم ، فغضبت امرأة حجية غضبا شديدا ، فقال قصيدة يتحدث فيها عن غضب زوجته وغيظها ، وعن أنفته أن تهدى إلى أولاد أخيه لبنا فى قعب كما يجاد على السائلين والبائسين ، وأنه أمر عبديه أن ينيخا النوق عند أولاد أخيه ليحتلبوا ما يشاءون ، ولم يعبأ بغضب زوجته وحنقها ، بل إنه أرضى نفسه بهذا الصنيع ، وهو ليس بليد الحس للومها ، وليس أحمق فتخدعه بكحلها لتنسيه ماوجب عليه من رعاية أولاد أخيه ، وإنما هو

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١/٢١٥ تبكى : تهيج للبكاء . سبأ : اشترى للشرب . خابية : جرة عظيمة . عود : مسن من الابل . مقطع : مهزول . قريت فى مقرى : أضفت فى مضيف . فراشى : المراد بيتى . عادياء : أبو السموءل . الخل : جمع خلة وهى الخمر أو حامضتها أو المتغيرة بلا حموضة ، والمراد بالخل والخمر أنه كان يجود بالخمر بنوعيها (٢) ديوان حاتم ٨ والأغانى ١٩/١٥٨ و٢١/١٠ والأمالى ١/٣٨ و١٩ و٢/٤ و٢٨٠ والمفضليات ١/١١٦ و١٢٣ و٢/١٥٦ وشعراء النصرانية ١٢٦ وشرح الحماسة للتبريزى ٤/١١٧ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ١/١٧ و١٥٩ مخطوط والمؤتلف والمختلف ٨٦ والأصمعيات ١/٥ وخزانة الأدب ١/٢١٥ و٢/٢٩٠ وديوان عبيد القصيدة ٢٨

رجل يحتفظ لنفسه بمقومات الرجولة ، فلتعش معه على ما يريد فيعزها ، وإلا فلتفارق ، ثم ذكر الباعث له على حفاوته بأبناء أخيه أنه وفاء لأبيهم وعرفان بجميله :

لججنا ولجّت هذه فى التّغضّب ... ولطّ الحجاب دوننا والتجنب
وخطّت بعود إثمدٍ فوق عينها ... لتُذْهِب عقلى بالنّواكة زينبى
تلوم على مال شفانى مكانه ... فلومى على ما فاتك اليوم واغضبى
ولا تحسبينى بَلْدَمًا إذ نكحته ... ولكننى حُجَيّة بن المضرّب
فإن تجلسى فأنت أقْنَى عيالنا ... وإن تكرهى هذى المعيشة فاذهبى
رحمت بنى مَعْدَان إذ ساف مالهم ... وحُقّ لهم منى ورب المحصّب
ولما رأيت النفسَ ألا تُقرّها ... هدايا لهم فى كل قَعْبٍ مُشَعَّب
رثيتُ لهم لما رأيت سَوَامَهُمْ ... عطاءَ الموالى من أَفيلٍ ومُصْعَب
فقلت لعبْدَيْنَا : أريحا عليهم ... سأجعل بيتى مثل آخر مُعْزِب
وقلت خذوها واعلموا أن عمكم ... هو اليوم أولى منكم بالتكسب
عيالى أحق أن ينالوا خَصاصة ... وأن يشربوا رَنْقا إلى حين مكسب
أحابى بها قبر امرىء لو أتيته ... حَريباً لآسانى على كل مركب
أخى والذى إن أدْعُه لعظيمة ... يجبنى وإن أغضب إلى السيف يغضب (١)

لم تقتصر الزوجة على أن تلوم فى الكرم ، بل لامت أيضا فى إعزاز الخيل وتقديم اللبن لها ، ونحن نعلم أن العرب كانوا يرعون خيلهم ويؤثرونها أحيانا على أنفسهم وأهليهم (٢).

يقول ربيعة بن مقروم :

وجُرْدًا يقرّبن دون العيال ... خلال البيوت يَلُكْن الشّكيما (٣)

وكانوا يخصونها بلبن الإبل تقوية لها وإعزازا ، قال المتلمس :

ابقت لنا الأيام واللّزْ ... بَاتُ والعانى المرَهّق
جُرْدًا بأطناب البيو ... ت تُعَلُّ من حَلَبٍ وتُغْبَق (٤)

غضبت الزوجة من هذا الإعزاز ، ورأت أنه إسراف ، فلامت زوجها ، لكنه لم يصغ

---

(١) المؤتلف والمختلف ١٨٣ والأغانى ٢١/١٠ لط : لزم . بلدم : أحمق ثقيل لحيم . أقفى عيالنا : خيرهم . النواكة : الحمق . ساف : نفد . أفيل : ولد الناقه . مصعب : فحل من الإبل . حريب : فى شدة
(٢) الحياة العربية ١٧٧ — ١٨٣ (٣) المفضليات ١/١٨٣ (٤) ديوان المتلمس ٩ مخطوط .

إليها ، يقول قبيصة بن النصرانى إنها لامته ، وإنها تجهل قيمة الحصان إذا حزب الأمر :

هاجرتى يابنت آل سعد ... أإن حلبتُ لقحةً للورد
جهلتِ من عنانه الممتد ... ونظرى فى عطفه الألدّ
إذا جياد الخيل جاءت تردى ... مملوءة من غضب وحرد (١)

وقال الأعرج المعنىُّ إنها عذلته ، وهى لا تدرى أن الحصان أنفع منها إذا جد الجد ، وأنه سيجزى صاحبه حين الحرب :

أرى أم سهل ما تزال تفجّعُ ... تلوم وما أدرى علام توجّع
تلوم على أن أعطى الورد لقحةً ... وما تستوى والوردَ ساعة تفزع
إذا هى قامت حاسرا مُشْمَعِلّةً ... نخيبَ الفؤاد رأسَها ما تُقنع
وقمت إليه باللجام مُيسّرًا ... هنالك يجزينى الذى كنتُ أصنع (٢)

وكذلك تحدث خُزز بن لَوْذان (٣) وحِبال بن حِسْل (٤) وحاجب بن حبيب الأسدى (٥) وغيرهم .

وعذلت فى الخمر أيضا ، وأكثر الشعراء من الحديث عن عذلها ، قال أبو ذؤيب :

رأتنى صريع الخمر يوما فسؤتها ... بقُران إن الخمر شُعْثٌ صحابها

وضاق أحدهم بلومها فتهددها بالتغالى فى الشراب إن لم تكف عن الملام ، ولايخلو تهديده من تصوير فكه .

غضبت علىّ لأن شربتُ بجزّة ... فلئن أبيتِ لأشربنّ بخروف
ولئن غضبتِ لأشربنّ بنعجة ... دهْساءَ مالئة الإناء سَحُوف
ولئن غضبت لأشربنّ بناقة ... كوماء ناوية العظام صفُوف
ولئن غضبت لأشربنّ بسابحٍ ... نهدٍ أشمّ المَنكبينِ مُنيف
ولئن غضبت لأشربنّ بواحدى ... ولأجعلنّ الصبر منه حليفى (٦)

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٨٩ (٢) معجم الشعراء ٢٥١ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/٣٤٩ مشمعلة : مسرعة . نخيب الفؤاد : طائرة اللب . ميسراً : مهيئاً (٣) البيان والتبيين ٣/١٩٠ (٤) المؤتلف والمختلف ٨٦ (٥) المفضليات ٢/١٦٨ (٦) الأمالى ١/١٥٠ دهساء : محمرة اللون أو عظيمة الإلية . سحوف : عليها طبقتان من الشحم . كوماء : عظيمة السنام . ناوية العظام : سمينة . صفوف : تصف بين رجليها عند الحلب وأن تحلب فى محلبين أو ثلاثة ، فهى غزيرة اللبن . سابح نهد : فرس ضخم

وذهب سُحَيم بن وَثيل الرياحى الى أن الخمر هى الثناء والفخار ، وأنها لب الحياة ، وهى خير من زوجته اللائمة :

تقول حدراء ليس فيك سوى الخمـــــر مَعَابٌ يَعيبه أحـــد
فقلت : أخطأت بل معاقرتى الخمـــــر وبذلى فيها الذى أجد
هو الثنـــاء الذى سمعت به لا سَبَدٌ مُخْلدى ولا لَبَـــد
ويحك لولا الخمر لم أحفل العيـــشَ ولا أن يضمنى لَحَد
هى الحيا والحياة واللهو ، لا أنت ولا ثروة ولا ولد[١]

ويبدو أن الليل كان الظرف الملائم لهذه الملامة ، لأن الزوج حينئذ يخلو الى زوجته وتنفرد به ، ويتناولان معا شئون اليوم ، قال حاتم :

وعاذلتَيْن هبّتا بعد هجعة تلومان مِتْلافا مفيدا مُلَوَّما
تلومان لما غوّرَ النجمُ ضِلّةً فتى لا يرى الإنفاق فى الحمد مَغْرما[٢]

ويقول عبيد بن الأبرص .

هبت تلوم وليست ساعة اللاحى هلا انتظرت بهذا اللوم إصباحى[٣]

ويقول النمر بن تولب :

قالت لتعذلنى من الليل اسمع سَفَهٌ تبيّتك الملامة فاهجعى[٤]

ويقول ضمرة بن ضمرة إن زوجته عجلت بلومه بعد موهن من الليل :

بكرت تلومك بعد وَهْنٍ فى الندى بَسْلٌ عليك ملامتى وعتابى[٥]

وفاؤها له :

إذا ما جفعها الدهر فى زوجها وفت له ماعاشت ، ولهذا الوفاء عدة مظاهر .

(١) فهى تذكره بالخير ، ولقد يتزوجها غيره فلا تنكل عن هذه الذكرى ، بل ترطب بها لسانها على مسمع من زوجها الثانى ، من ذلك أنه لما قتل لقيط بن زرارة تزوج امرأته بنت هانىء بن قبيصة رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد

(١) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ (٢) خزانة الأدب ٢/٢٩٠ (٣) ديوان عبيد القصيدة ٢٨
(٤) خزانة الأدب ١/٢١٥ (٥) الأمالى ٢/٢٨٠ يكرت : المراد عجلت . بسل: حرام

مرة فرجع إلىّ وبقميصه نضحٌ من دماء الصيد، والمسك يضوع من أعطافه، ورائحة الشراب من فيه، فضمى ضمة، وشمنى شمة، فليتنى مت ثمة. ففعل زوجها مثل ذلك يوماً، ثم ضمها، وقال لها: أين أنا من لقيط؟ قالت: ماءٌ ولا كصَدّاء (١).

(٢) ولقد تعاف الزواج بعده، وتقضى حياتها أيّماً، أو تترهب، كما ترهبت هند بنت النعمان بن المنذر لما قتل أبوها زوجها عدى بن زيد، وحبست نفسها فى الدير المعروف بدير هند فى الحيرة، ثم خطبها المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة فى عهد معاوية فرفضت (٢). وكذلك فعلت فى الإسلام نائلة بنت الفُرافصة الكلبية، فإنه لما قتل عثمان خطبها معاوية وألح عليها، فقالت: مايعجب الرجل منى؟ قالوا: ثناياك، فكسرت ثناياها، وبعثت بها إليه فأمسك. ومثلها الرباب بنت امرىء القيس، كانت زوجة للحسين بن على، وكان يحبها وتحبه، يقول فيها وفى بنته سكينة.

لعمرك إننى لأحب داراً تحل بها سكينة والرباب

فلما قتل خطبت، فقالت: والله لااتخذت حموا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣).

وروى الأصمعى عن رجل من بنى ضبة أنه عرض على فتاة تأيمت أن يتزوجها، فأطرقت ساعة، ثم رفعت رأسها، وعيناها تذرفان دموعاً وقالت:

كنا كغصنين من بان غذاؤهما ماء الجداول فى روضات جنات
فاجتثّ صاحبَها من جنب صاحبه دهر يكر بفرحات وترحات
وكان عاهدنى إن خاننى زمن ألا يضاجع أنثى بعد موتاتى
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سُنَيّات
فاصرف عتابك عمن ليس يصرفه عن الوفاء له خَلْبُ التحيات (٤)

(٣) ولقد يدفعها وفاؤها لزوجها أن تحمس أخاه ليثأر له، وتلومه على تغافله عن القصاص لأخيه، كما فعلت أميمة امرأة عروة بن مرة إذ دخلت على أخيه أبى خراش خويلد بن مرة فرأته يلاعب ابنه، فقالت له: يا أبا خراش، تناسيت عروة، وتركت

---

(١) جمهرة الأمثال ٢/١٥٣ ومجمع الأمثال ٢/٢٠٦ صداء: بئر عذبة لم يكن عندهم أعذب من مائها وفيها يقول ضرار السعدى

وإنى وتهيامى بزينب كالذى تطلب من أحواض صداء مشرباً

(٢) الأغانى ٢/١٣١ الدار (٣) المحبر ٣٩٦ وأخبار النساء ٦٢ والمستطرف ١/١٨٥
(٤) عيون الأخبار ٤/٣١ وأخبار النساء ٦١

الطلب بثأره ، ولهوت مع ابنك ، أما والله لو كنت المقتول ماغفل عنك ، ولطلب قاتلك حتى يقتله . فبكى أبو خراش ، وقال :

لعمرى لقد راعت أميمة طلعتى ... وأنى ثوائى عندها لقليل
وقالت أراه بعد عروة لاهياً ... وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسبى أنى تناسيت فقده ... ولكن صبرى يا أميم جميل (١)

(٤) وإنها لتتفجع على زوجها إذا ما اختطفه المنون ، لأنه سندها قد تقوض ، وأملها الفينان قد صوّح ، وقلما تصبر على البلوى ، فتذهب تقص شعرها ، وتخمش وجهها ، وتشق جيبها ، وتلطم خدها ، وتدعو بدعوى الجاهلية . قال طرفة لزوجته :

فإن مت فانعينى بما أنا أهله ... وشقى علىّ الجيب يابنة معبد (٢)

وقال ضابىء بن الحارث البرجمى :

هممت ولم أفعل ، وكدت وليتنى ... فعلتُ فكان المعولات حلائله (٣)

وخشى قيس بن مسعود الشيبانى على ابنته أن تفعل ذلك إذا قتل زوجها لقيط بن زرارة أو مات ، فأوصاها فيما أوصى بألا تخمش وجهها ، ولا تحلق شعرها (٤) . وقد جزت نساء قريش شعور رؤوسهن حزناً على قتلى بدر (٥) . وكان بعضهن من المهتاجات يصفقن وجوههن وصدورهن بنعلين ، يدل على ذلك قول عبد مناف بن رِبْع الهذلى :

يريعُ قلبَ ابنتىْ رِبْعٍ عويلهما ... لاترقدان ، ولا بؤسى لمن رقدا
كلتاهما أبْطنت أحشاؤها قصباً ... من بطن حَلْيَةَ لارطْبا ولا نَقدا
إذا تأوب نوْحٌ قامتا معـــه ... ضرباً أليما بسبتٍ يلعَجُ الجلَدا (٦)

ويدل على ذلك أيضاً قول الخنساء فى رثاء أخيها معاوية :

ولكنى رأيت الصـــبر خيراً ... من النعلين والرأس الحليق (٧)

هذه الفجيعة العظمى التى تفجع بها الزوجة ، فتهيجها وتفقدها رشدها حلت بالمرأة

---

(١) الأغانى ٢١/٤٥ (٢) ديوان طرفة ٣٥ (٣) حماسة البحترى ٥ (٤) العقد الفريد ٣/٢١١ (٥) المغازى ١١٦

(٦) الكامل للمبرد ٣/٢٦٣ ابنتا ربع : أختاه . قصبا : مزمارا يريد أنهما لنواحهما كأن فى جوفهما مزمارا . لارطباً ولا نقداً : ليس القصب رطباً يكتم الصوت ولا متآكلا يسرع إليه العطب فيخفى الصوت . تأوب نوح : عاودهن نوح فى جنح الليـــل . سبت : نعل . يلعج : يهيج . الجلد : الجلد ، والكلمة بسكون اللام وتحريكها كما فى القاموس (٧) لسان العرب ١١/٣٤٥ وديوان الخنساء ١٧٣

اليونانية أيضاً فأحست بأنها أشد وأدهى من فجيعة الأب بابنه والأم بابنها ، قالت أندروماخ إن مصابها بقتل هكطور أشد من مصاب أبيه وأمه وأقاربه :

جلّ عن واجب التأسّي أساكا ولقد هدّ والديك رداكا
إنما لى فوق الجميع شجاكا (١)

ولما جاء الإسلام نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو فى الحزن ، فقال ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية (٢) ، وروى عنه أنه برىء من الصّالقة والحالقة والشّاقّة (٣) .

(٥) وكثيراً ما كانت الزوجة ترثى زوجها ، تصور فى رثائها لوعتها وفجيعتها ، وتتحدث عن مآثره فى قومه . قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية فى رثاء زوجها الجراح إنها تلتذ البكاء بدموع غزار تتحدر من جوانب عينيها ، فقد كان ملاذها وتركها بغير ملاذ ، وكان أبياً حميّا تعتز به وتحتمى بسلطانه وتمشى مختالة فى الناس ، ولكنها اليوم ذليلة تخضع للذليل ، ويُعتدى عليها فتضطر إلى أن ترد المعتدى بيدها :

ياعين بكّى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح
قد كنتَ لى جبلا ألوذ بظله فتركتنى أضحى بأجردَ ضاح
قد كنتَ ذات حمية ماعشتَ لى أمشى البَرازَ وكنت أنت جناحى
فاليوم أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع ظالمى بالرّاح
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حدّ فوارسى ورماحى
وإذا دعت قمرية شَجَناً لها يوماً على فنن دعوت صباحى (٤)

وقد تمثلت السيدة عائشة بهذه الأبيات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (٥) .

وصورت جليلة بنت مرة فجيعتها فى زوجها كليب ، ووجيعتها من قتل أخيها جساس له ، بقصيدة حارة ، يهمنا منها هنا أن قتل زوجها قوض بيتها ، وهدم أملها ، ورماها فأصماها ، وأحرقها بنار الهم والحزن ، حتى لقد تمنت لو أن حياتها كانت فداء لزوجها .

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١٨٩/٢ والأمالى ١/٢ جودى بأربعة : بالموقين واللحاظين أو بشقون أربعة . دعوت صباحى : قلت واسوء صباحى (٢) الأمالى ١/٢
(٣) الأليذة ١١٤٥ (٤) شرح المبدى من مختصر الزبيدى ٣٥/٢ (٥) شرح المبدى ٣٦/٢ الصالقة : الرافعة صوتها فى المصيبة . الحالقة : التى تقص شعرها حزناً . الشاقة : التى تشق جيبها حزناً .

جلَّ عندى فعل جساس فيا حسرتى عما انجلت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به قاطع ظهرى ومدنٍ أجلى
ياقتيلا قوض الدهر به سقف بيتىٍّ جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته واثنى فى هدم بيتى الأول
ورمانى قتله من كثب رمية المُصْمى به المستأصل
يانسائى دونكن اليوم قد خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى من ورائى ولظى من أسفل
ليته كان دما فاحتلبوا درَراً منه دمى من أكحلى (١)

أما حديثهن عن شجاعة الزوج ، وبلائه فى الحروب ، وسيادته ، وكرمه ومحامده فإنه لايغاير مارددە الرجال فى مراثيهم ، كرثاء خرنق لزوجها (٢) ، ورثاء الخنساء مرداس السلمى (٣) ، ورثاء دحتنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة (٤) .

ولم تختلف الزوجات المسلمات عن هؤلاء فى شىء (٥) ، وسأفصل القول فى ذلك فى (شعر المرأة) .

تمـــرُّد

ليس من الطبيعى أن يطَّرد حسن العشرة فى النساء جميعاً ، وأن يكن كلهن على طراز من الخلق الكريم ، وإنما الطبيعى أن يتفاوتن فى ذلك ، وأن يكون بعضهن جاسيات الطبع ، نابيات العشرة .

وقد تحدث الشعر عن هؤلاء أيضاً كما تحدث عن الصالحات .

١ — فالمرأة قد تشغب على زوجها ، كما يقول عامر بن الطفيل إن زوجته أصبحت تلومه على غير ذنب، وإذا ماردّ عليها دعوى أتته بأخرى ، وهذا ضرب من المعاملة لايرضاه

(١) أشعار النســاء مخطوط ٣/٥٠ والوحشيات ١٠٧ مخطوط والكامل لابن الأثير ١/٢١٦ والأغانى ٥/٦٣ الدار ونهاية الأرب ٥/٢١٤ (٢) ديوان خرنق ٣ — ٥ مخطوط وأشعار النســاء مخطوط والأمالى ٢/١٥٨ (٣) ديوان الخنساء ١٩٧ وبلاغات النساء ١٦٨ والأغانى ١٣/٧٢ (٤) الشعر والشعراء ٢٧٢ (٥) مثل رثاء عاتكة بنت نفيل لأزواجها الأربعة (الحماسة البصرية ٨٤ مخطوط وحسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة ١/٢٩٤) ورثاء الرباب لزوجها الحسين بن على (الأغانى ١٤/١٥٨)

على أنه مازال فى طبع النساء إلى اليوم — ثم يرى أنه لا خير فى صلة وهت أسبابها وتزايلت عراها :

وقد أصبحت عرسى الغداة تلومنى ... على غير ذنب هجرها وصدودها
فإنى إذا ماقلت : قُولى ، فانقضى ... أتتنى بأخرى ، خطةٌ لا أريدها
فلا خير فى ود إذا رث حبله ... وخير حبال الواصلين جديدها(١)

ويقول عمرو بن قميئة إن زوجته قد ارتحلت إلى أهلها مغضبة ، وهو راض عن فرقتها هذه ، بل يدعو عليها بالهلاك ، ويقول إنها قد شغبت عليه ، فلا بد أن يقابل شغبها بمثله ، فقد جرب معها اللين والدماثة ، فلم تكن لينة ولا دمثة :

فبينى على نجم شخيصٍ نُحوسُه ... وأشأمُ طير الزاجرين سنيحها
فإن تشغبى فالشَّغْب منى سجية ... إذاشيمتى لم يؤتَ منهاسجيحها(٢)

ويتحدث أعشى بنى مازن أوبنى حرماز (الحارث بن قراد بن سفيان) عن شغب زوجته شاكياً إلى ملك من ملوك العرب ، فيقول إنه خرج يبتغى من خيرات الأرض ، فنازعته زوجته ، وهربت إلى قومها ، ناكثة بعهدها ، ويختم شكواه بأن النساء شر غالب للرجال :

يا سيد الناس وديّانَ العرب ... إليك أشكو ذِرْبَةً من الذِّرب
خرجتُ أبغيها الطعام فى رجب ... فخلّفتنى بنزاع وهرب
أخلفت العهد ولطّت بالذَّنَب ... وهن شر غالب لمن غلب(٣)

٢ — وقد تتبرم بفقر زوجها ، ونحن نعلم أن العرب عاشوا كما عاش غيرهم متفاوتى الفقر والغنى ، وأن الفقر كان أكثر شيوعاً وأوسع دائرة . وكثيراً ماشكا بعضهم آلام الفقر ، وضاقوا ببرم الناس بالفقير أو استهانتهم به ، وكثيراً ما شكا بعضهم تبرم الزوجات بفقر بعولتهن ، فمثلا عروة بن الورد يزيده ضجراً أن تجتوى الزوجة زوجها الفقير ، لأن تنكرها له أشد عليه مرارة من تنكر الناس :

ذرينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم ... وإن أمسى له نسب وخير
ويُقصَى فى النَّدِىِّ وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير(٤)

---

(١) ديوان عامر القصيدة ٦ (٢) ديوان عمرو بن قميئة ١٤ شخيس نحوسه : متعدد شؤمه . سجيح : لين سهل (٣) معجم الشعراء ١٥ الذربة : السليطة اللسان . لطت بالذنب : أصرت على الجد فى رحلتها وفرقتها (٤) ديوان عروة ٢٠ والبيان والتبيين ١/١٩٨ وشعراء النصرانية ٨٨٨

ويشتد البرم بعبيد بن الأبرص فلا يحفل فراق زوجته التى قَلَتْه لفقره ، وأساءت عشرتها له :

تلك عرسى غضبى تريد زيالى ... ألبين تريد أم لدلال ؟
إن يكن طبُّك الفراقُ فلا أحفـ ... ـل أن تعطفى صدور الجمال
كنت بيضاء كالمهاة وإذ ... آتيك نشوان مُرْخِياً أذيالى
فاتركى مطَّ حاجبيك وعيشى ... معنا بالرجاء والتَّأْمال
زعمتْ أننى كبرت وأنى ... قل مالى وضنَّ عنى الموالى (١)

ومنّى سعيد بن عمرو بن نفيل زوجتيه — وقد سألتاه الطلاق لما افتقر — بأن ماله قد يكثر ، فيقتنى العبيد والخدم والإماء ، ويمتعهما ويكسوهما أنفس الكسا :

تلك عرسای تنطقان على عمـ ... ـد لى اليوم قول زور وهُتْر
سالتانى الطلاق أن رأتا مـا ... لى قليلا ، قد جئتمانى بنُكْر
فلعلى أن يكثر المال عندى ... ويعرِّى من المغارم ظهرى
وتُرَى أعبد لنـا وإمـاء ... ومناصيف من خوادم عشر
وتجُرّا الأذيال فى نعمة زو ... لتقولان: ضع عصاك لدهر (٢)

ولقد عبست أم حبيش فى وجه زوجها ذى الخِرَق (خليفة بن حمل بن عامر) وخاصمته ، لأنه افتقر ، ورأت إبله مهزولة لا تحمل إلا خرقاً ، وحضته على أن يجهد فى كسب المال :

ما بال أم حبيش لاتكلمنا ... لما افترقنا وقد نُثْرِى فنتفق
تُقطِّع الطرف دونى وهى عابسة ... كما تشاوس فيك الثائر الحنق
لما رأت إبلى جاءت حمولتها ... غَرْثَى عجافا عليها الريش والخِرق
قالت ، ألا تبتغى مالا تعيش به ... عما نلاقى وشر العيشة الرَّمق (٣)

وكذلك حضت تماضر زوجها عروة بن الورد (٤) ، وبذلك تحدث تأبط شرا (٥) وعبيد (٦) وجابر الطائى (٧)

---

(١) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١٩٩ (٢) البيان والتبيين ١/١٩٩ وفى الأغانى ١٦/٦٠ أن الشعر لنبيه بن الحجاج السهمى ، مناصيف : ج منصف وناصف وهو الخادم ، زول : ظريف (٣) المؤتلف والمختلف ١١٠ وخزانة الأدب ١/٢٧ تشاوس : نظر بمؤخر عينه . غرثى : جياع . الرمق بكسر الميم وفتحها الشىء القليل الذى يحفظ بقية الحياة . (٤) ديوان عروة ٩ (٥) الحماسة البصرية ١٢ مخطوط (٦) البيان والتبيين ١/١٩٩ (٧) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٣٠٤

ويظهر أن هذه الخصلة لم تزايل المرأة بعد العصر الجاهلى ، فقد تحدث أعشى همدان عن تبرم زوجته بفقره :

قالت تعاتبنى عرسى وتسألنى ... أين الدراهم عنا والدنانير
فقلت أنفقتُها والله يُخْلفها ... والدهر ذو مرّة عسرٌ وتيسير
إن يرزق الله أعدائى فقد رزقت ... من قبلهم فى مراعيها الخنازير
قالت : فرزقك رزقٌ غير متسع ... وما لديك من الخيرات قطمير
وقد رضيت بأن تحيا على رمق ... يوما فيوما كما تحيا العصافير (١)

لهذا لما سألت السيدة عائشة رسول الله شيئا من عرض الدنيا زيادة فى النفقة أو غيرها (٢) نزل قوله تعالى : «يأيها النبى قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما» (٣) ، فعرض ذلك على زوجاته ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة (٤) .

٣ — ولقد تتبرم بشبيه وكبرة سنة ، وقد اتفق علقمة بن عبدة (٥) وامرؤ القيس (٦) والأعشى (٧) وعنترة (٨) وعبيد بن الأبرص (٩) والأسود بن يعفر (١٠) وغيرهم من شعراء الجاهلية ، ثم كثير من شعراء الإسلام كجران العود النُّميرى وعمر بن أبى ربيعة ، اتفق هؤلاء على أن الشباب والمال — وما يستتبعان من مجد ومحامد ومتعة طبعا — هما وسيلة اجتذاب المرأة ، ونيل إعجابها :

وربما كانت المرأة أكثر بغضة للشيب من الفقر ، لأن الفقر عارض قد يزول ، أما الشيب فإنه وافد لا يبرح ، وتشتد وطأته حينا بعد حين .

يقول علقمة إنه بصير بنفسية النساء ، عليم بأنهن لا يقبلن على أشيب أو معدم ، وإنما يقبلن على الثرىّ وعلى الفتىّ :

فإن تسألونى بالنساء فإنـــنى ... بصير بأدواء النساء طبيـــب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله ... فليس له من ودهن نصيـــب

---

(١) الحيوان للجاحظ ٦٢/٧ (٢) تفسير الطبرى ٩٩/٢١ (٣) سورة الأحزاب ٢٨ و٢٩
(٤) الطبقات الكبير ٤٧/٨ وتفسير الطبرى ٩٩/٢١ (٥) ديوان علقمة ٣ وعيون الأخبار ٤٥/٤ وحماسة البحترى ٢٨٩ والعقد الفريد ٢١٨/٣ والمفضليات ١١٩/٢ والشعر والشعراء ٥٩ (٦) ديوان امرىء القيس ٩٨ (٧) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ١٣٨/٢ (٨) ديوان عنترة ٥٦
(٩) ديوان عبيد القصيدة ٥ و١٣ (١٠) المفضليات ١١٨/٢

يردن ثراء المال حيثُ علمته وشَرْخ الشباب عندهن عجيب [١]

وقد أعجب أبو عمرو بن العلاء بهذا الرأى « وقال إن صاحبه أعلم الناس بالنساء [٢]

تحدث الشعراء بكراهية زوجاتهم لشيبهم ، وهرمهم ، فمثلا يقول عبيد بن الأبرص إن زوجته تعرض عنه ، وتغلظ فى مقالها له ، وتمط حاجبيها ، لأنها تراه قد كبر :

ألا عتبت علىَّ اليوم عرسى وقد هبت بليل تشتكينى
فقالت لى : كبرتَ ، فقلت هَنَّا لقد أخلفتُ حيناً بعد حين
ترينى آية الإعراض منها وفظَّت فى المقالة بعد لين
ومطتْ حاجبيها أن رأتنى كبرتُ وأنْ قد ابيضت قرونى [٣]

ويحدثنا المثقب العبدى أو علبة بن زيد بأن زوجته سخرت منه لما رأت شيبه ، وجفته وهجرته :

تهزأت عرسى واستنكرت شيبى ففيها جَنَفٌ وازورار
لا تكثرى هُزءاً ولا تعجبى فليس بالشيب على المرء عار [٤]

الإسلام يوصى المرأة بزوجها

أقام الإسلام الحياة الزوجية على دعائم من التعاطف والمشاركة القلبية والثقة المتبادلة والهناءة المستطاعة ، وقد أسلفت أن النبى عليه السلاة والسلام كان حفياً بالزوجات ، يوصى بهن الرجال خيراً . وهو كذلك طالما أوصى النساء بأزواجهن [٥] ، كقوله : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع » [٦] . وقوله : « انظرى أين أنت منه إنما هو جنتك ونارك » [٧] . وقوله « خدمتك زوجك صدقة [٨] ». وقوله « خير النساء من تسرك إذا أبصرت ، وتطيعك إذا أمرت ، وتحفظ غيبتك فى نفسها ومالك » [٩] .

تعـــدد الزوجات

وحدة الزوجة

١ — جرى العالم على وحدة الزوجة ، وعلى تعدد الزوجات ، وقديماً اشترط لابان

(١) المفضليات ١٩٢/٢ (٢) العقد الفريد ٢١٨/٣ (٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣ هنا: تنحى وابعدى (٤) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط (٥) كنز العمال ٢٦١/٨ — ٢٦٨ و ٣٠٢ — ٣٠٤
(٦) كنز العمال ٢٦١/٨ (٧) كنز العمال ٢٦١/٨ (٨) كنز العمال ٢٦٧/٨
(٩) كنز العمال ٢٦٧/٨

على يعقوب ألا يقترن بغير ابنته [١]. وكانت الأسر الشريفة فى مصر وبابيلونيا تشترط على الزوج فى عقد الزواج ألا يقرب الجوارى والإماء، وفى أوراق البردى التى كشفت عنها فى أسوان عقد زواج ينص على تعهد الزوج ألا يقترن بامرأة أخرى غير زوجته، فإن فعل قدّم لها غرماً [٢]، ويذكر ديودور الصقلى أن الكهنة فى مصر كانوا يقتصرون على زوجة واحدة، أما سائر الشعب فإنهم كانوا يعددون الزوجات، ويختارون منهن من يشاءون، على أن هيرودوت ذكر من قبله أن المصرى كان مثل اليونانى يقتصر على زوجة واحدة [٣]. ومن الممكن أن نرجع هذا التباين إلى أن ديودور جاء بعد هيرودوت بأربعة قرون، فمن المنتظر أن تكون العادات التى شهدها هيرودوت قد اندثرت أو تزعزت. وسار الإسبرطيون على نظام آخر، ذلك بأنهم لم يسمحوا للرجل أن يتزوج غير واحدة إلا فى ظروف خاصة، ولكنهم أباحوا للمرأة أن تتزوج عدة رجال فى وقت واحد، وكانت النساء جميعا تقريبا يمارسن هذه العادة [٤].

ولم يستطع الباحثون أن يقروا أى النظامين كان أسبق: وحدة الزوجة أم تعدد الزوجات؟ فبعضهم يرى أن الزواج بواحدة كان هو الأصل عند آبائنا الأقدمين، وآخرون يخالفون هذه النظرية، ويذهبون إلى أن المجتمع ابتدأ بتعدد الزوجات، ويعزز باخوفن Bachofen هذا الرأى، ويرى أن النساء ثرن على هذا النظام فجنح الرجال إلى وحدة الزوجة [٥].

٢ — أما العرب فقد اقتصر بعضهم على زوجة واحدة، واشترط بعض الآباء وبعض النساء على الرجل ألا يتزوج بأخرى. يقول عدى بن زيد:

بنات كرام لم يُرَبْنَ بضَرّة ... دُمًى شرقاتٍ بالعبير روادعا [٦]

وجاء فى حديث بين العجفاء بنت علقمة وثلاث نسوة قول إحداهن: «خير الرجال الذى يكرم الحرة، ولا يجمع الضرة» [٧]، ورفضت ماوية بنت عفزر أن تتزوج حاتما الطائى بعد أن اختارته وآثرته على خاطبيها إلا على شرط أن يسرح زوجته، فأبى، فلما ماتت زوجته رضيته وتزوجته [٨].

---

(١) سفر التكوين إصحاح ٣١ آية ٥ (٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٣ (٣) الحضارة المصرية. لوبون ٧٠ (٤) مركز المرأة فى الإسلام ٢٦ وتاريخ اليونان، جرون ١٣٦/٦

(٥) The Paychology of marriage P. 287 walter. m. gallichan

(٦) الأغانى ١٥٠/٢ الدار، روادع: فيهن أثر الطيب

(٧) جمهرة الأمثال ١٦٢ (٨) الأغانى ١٠٤/١١

كذلك استوثقت حرقفة البلوية من خاطبها مرة بن عوف ألا يتزوج عليها — وكان زوجا لمليكه بنت خصيلة المرية — فحلف لها وأغلظ الحلف ألا يتزوج غيرها ، فرضيته ، ثم خرج بها يسير حتى نظرا نيران أهله ، فقالت حرقفة : ما هذه النيران ؟ فقال : أما هاتيك فنار بنى وامرأتى ، فقالت : أغدرا من أول ليلة ؟ قال : ماغدرت بك ، ولكنى غدرت بسواك [١]

تعدد الزوجات

١ — كان التعدد وما زال نظاما طبيعيا ، كثيراً ماتلجىء إليه الضرورات ، « وقد ظن رجال الدين فى العصور الوسطى أن التعدد نظام ابتكره النبى محمد ابتكاراً لم يسبق إليه » [٢]، ولكنهم مخطئون جد الخطأ ، لأن التعدد أسبق من الإسلام بمئات الأعوام .

١ — ذلك بأن الأمم القديمة كانت تعدد الزوجات ، فالعبريون عدّدوا منذ عهد قديم [٣] يدل على ذلك أن التوراة أباحته ، ولم تحدد العدد ، ثم حدد التلمود العدد [٤]، وما روى عن كثره عدد نساء سليمان [٥] ، ثم عدّدوا فى عصر متأخر ، ولكنهم اشترطوا على الزوج أن يعدل بين نسائه ، فلا يقبل على واحدة ويعرض عن أخرى . وحدد الربانيون العدد بأربع ، مستدلين بأن يعقوب جمع بين أربع ، وذهب بعض العلماء إلى منع التعدد ، ورأى بعضهم أباحته إذا عقمت المرأة الأولى [٦] . وظل اليهود يعددون زوجاتهم فى أوروبا إلى القرون الوسطى ، وهم لايزالون يمارسون التعدد إلى اليوم فى العالم الإسلامى [٧] .

وكانت تعاليم زرادشت تخول الفرس أن يعددوا زوجاتهم ، وأن يتخذوا الحظايا والخليلات ، لأن الشعوب المحاربة فى حاجة دائمة إلى الفتيان [٨]. لذلك عدد الفرس ولم يكن عندهم قانون يمنع التعدد أو يحدده [٩].

وقد عدد الرومان، ويكفى أن نعلم أن الإمبراطور سيلا جمع خمس نساء ، وأن قيصر جمع بين أربع ، وبومبى جمع أربعا . وأن ملك فرنسا داغوبرت الأول جمع بين ثلاث [١٠].

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/٢٠٢ (٢) قصة الحضارة، ول ديورانت ١/٧٠ (٣) حضارة العرب لوبون ٤٨٣ وقصة الحضارة ١/٧٠ (٤) النظم الاجتماعية والسياسة ٦٨ (٥) سفر التثنية أصحاح ١٧ وتاريخ الطبرى ١/٢٦٠ (٦) شعار الخضر ٨٣ (٧) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ (٨) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ ول دورانت (٩) مركز المرأة فى الإسلام ٤٤ وحضارة العرب ٤٨٣ (١٠) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٧٤ .

أما المسيحيون فقد تحايل بعضهم على الشريعة وعدد ، كالإمبراطور قسطنطين وابنه [١] بل إن الامبراطور فلافيوس فالنتنيان Flavius Valentinien سنّ قانوناً يبيح التعدد ، وكان ذلك فى منتصف القرن الرابع الميلادى [٢] ، أباح فيه لرعايا الدولة جميعاً أن يتزوجوا عدة زوجات إذا شاءوا . ولم يحتج الأساقفة ورؤساء الكنائس المسيحية . ومارس التعدد البراطرة الذين خلفوا فالنتنيان ، واستمر العمل بقانونه إلى عصر جستنيان ، حيث حرم التعدد ، على أنه لم ينجح فى تحريمه ، ولم يكن فى هذا التحريم متأثراً بالمسيحية ، لأن أكبر مستشاريه كان غير مسيحى ، لذلك لم يخضع لتحريم التعدد إلا قلة من المفكرين ، أما أكثر الشعب فلم يعيروه طاعة [٣] .

ونحن نعلم أن المنذر بن الحارث بن أبى جبلة الغسانى كان بطريقاً وحاميا للكنيسة الشرقية ، ولكنه قد تزوج نساء كثيرات ، وكذلك النعمان ملك الحيرة تزوج عدة نساء حتى بعد تنصره ، ويظهر أن الكنيسة لم تكن تبالى ذلك مادام هؤلاء الأمراء غير متزوجين كنسيًّا إلا بواحدة [٤] .

وكان مصرحا للأثينى أن يتزوج أى عدد من النساء ، حتى لقد افتخر ديموسين بأن فى عصمته ثلاث طبقات من النساء ، طبقتان منهما تعتبران الزوجات الشرعيات ، والشبيهات بالشرعيات [٥] .

وقد سبق أن المصريين فى عهد ديودور كانوا يعددون ، وكان نبلاؤهم يستمتعون بالإماء وما ملكت اليمين [٦]

على أن شعوبا أخرى كانت تمارس التعدد كالهندوس القدماء والميديين والبابليين والأشوريين [٧] .

٢ — لاعجب إذاً فى أن يعدد العرب فى الجاهلية ، وفى أن يشيع هذا النظام بينهم ، فيمارسه من تواتيه ظروفه ، أو تلجئه حاجة ، أو يتوقع منه خيراً . وقد بزغ الإسلام وفى ثقيف رجال عند كل منهم عشر نسوة ، كمسعود بن معقب وعروة بن مسعود وسفيان ابن

---

(١) مركز المرأة فى الإسلام للسيد الأمير على ٤٢

(٢) Histoire Des Peps. Tome ... 1.. P.. 255.

(٣) مركز المرأة فى الإسلام ٤٢ (٤) أمراء غسان . نولدكه ٣١ (٥) مركز المرأة فى الإسلام ٢٠ و ٣٦ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ والحضارة المصرية القديمة . لوبون ٧١ (٧) مركز المرأة فى الاسلام ٣٤

عبد الله وأبى عقيل مسعود بن عامر وغيلان بن سلمة ، فلما أسلم غيلان وسفيان وأبو عقيل نزل كل منهم عن ست وأمسك أربعا [١] ، وكان عند قيس بن الحارث ثمانى نسوة ، وعند نوفل بن معاوية خمس ، فخيرهما النبى فى أربع [٢] ، وقد كان لعبد المطلب بن هاشم ست نسوة ، ولدن له عشرة رجال وست نساء [٣] ، وكان عند أبى سفيان بن حرب ست ، وعند صفوان بن أمية ست أيضا [٤] . وكان المغيرة بن شعبة قد تزوج سبعين امرأة [٥] . وقد ألف أبو الحسن المدائنى كتابا فيمن جمع أكثر من أربع [٦] .

عداء الضرائر

التعدد نظام اجتماعى شائع فى الأمم ، لكن شيوعه لم يكن كفيلا ، ولن يكون كفيلا بالتخفيف من تباغض الضرائر وتحاسدهن ، لهذا كانت الزوجة تفجع بالضرة ، وكان بعض النساء يشترطن على الزوج ألا يضارهن بأخرى كما سبق .

وكان عداء الضرائر معهوداً معلوما ، حتى إن بنت مرة بن عاهان لما قتلته باهلة لم تجد ماتشبه به ما بينهم وبين باهلة من بغضة إلا داء الضرائر :

إنا وباهلة بن أعصُر بيننـــا داء الضرائر بغضةٌ وتناف [٧]

وكانت المودة لا تصفو بين ضرتين ، وكثيراً ماتشغب الأولى ، فمثلا كانت الوِرْثة بنت ثعلبة زوجة لذهل بن شيبان ، وكان كلما تزوج امرأة شارتّها الورثة وضربتها وأجلتها ، فلما تزوج رقاش بنت عمرو تحرشت بها الورثة ، ثم وثبت عليها لتضربها ، فأمسكتها رقاش وغلبتها ، فقالت الورثة .

ياويح نفسى اليوم أدركنى الكِبَر أأبكى على نفسى العشية أو أذر
فوالله لو أدركت فىّ بقيـــة للاقيتِ ما لاقى صواحبك الأخر [٨]

على أن الأزواج كانوا أحيانا يؤدبون زوجاتهم بالضرائر ، ويعاقبونهن بالتعدد ، يدل على ذلك قول الطهوى :

---

(١) المحبر ٣٥٧ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٣٥ (٢) عيون المسائل ٥٦ (٣) سيرة ابن هشام ١/١١٩ (٤) الإصابة ٨/١٣٩ (٥) كنز العمال ٨/٢٨٨ وفى الأغانى ١٤/١٣٧ أنه تزوج ثمانين أو تسعاً وثمانين أو ثلاثاً وتسعين (٦) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢

(٧) طهارة العرب ٣٢ باهلة . قبيلة (٨) أمثال العرب للضبى ٥٥ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٩٩

لقد خشيت أن يقوم قابرى ولم تمارسك من الضرائر
ذات شذاة جمة الصراصر حتى إذا جرس كل طائر[١]
قامت تعنظى بك سمع الحاضر تصر إصرار العقاب الكاسر

ثم إن المرأة تحدثت بغيرتها فى غير مواربة ، من ذلك أن ليلى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فقبل ، ثم عادت إلى قومها تخبرهم ، فقالوا : أنت امرأة غيرى ، وهو صاحب نساء ، ارجعى فاستقيليه ، فرجعت وقالت : إنك نبى الله وقد أحلّ لك النساء ، وأنا امرأة طويلة اللسان ، لا صبر لى على الضرائر ، فأقالها[٢] . ولما خطب النبى هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية قالت له : فىّ خلال ثلاث : أنا كبيرة السن ، وأنا امرأة معيلة ، وأنا امرأة شديدة الغيرة . فقال : أنا أكبر منك سناً ، وأما العيال فإلى الله ، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها عنك . وتزوجها[٣] .

ولم يكن الإسلام والتدين بقدير على أن يجتث من المرأة غيرتها ، ومن الشطط أن نتطلب منه ذلك ، وإلا فما بال عائشة أم المؤمنين كانت غيرى شديدة الغيرة ؟ كانت تظهر غيرتها فيما تقول وفيما تعمل[٤] . من ذلك قولها : دخل علىّ رسول الله فقلت : أين كنت ؟ قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة ، فقلت : ما تشبع من أم سلمة ، فتبسم . فقلت : ألا تخبرنى عنك لو أنك نزلت بعُدْوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت ، أيتهما كنت ترعى ؟ قال : التى لم ترع . قلت : فأنا لست كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل ، غيرى . فتبسم رسول الله[٥] .

وكانت تغار حتى من ضرتها المتوفاة ، التى توفيت قبل أن تكون هى زوجة ، ذلك بأن النبى كان عظيم الوفاء والحب للسيدة خديجة ولذكراها ، وكانت السيدة عائشة تغار من ذلك ، قالت : « ما غرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة ، لكثرة ذكر رسول الله إياها وثنائه عليها »[٦] . ولم تضبط غيرتها يوماً ، وقد سمعت الرسول يكثر من ذكر خديجة ويطريها ، فقالت : هل كانت إلا عجوزا ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها ،

---

(١) طهارة العرب ٣٢ ذات شذاة ، ذات خصومة وحدة . جمة الصراصر : الصراصر جمع صرصرة وهى الصوت الشديد ، والمراد صخابة جهارة بالسوء من القول . جرس : صوت والمراد الصباح الباكر . تعنظى : تذكرك بالفحش لتسمع الحى . تصر : تنصب أذنها للاستماع .

(٢) الإصابة ١٨١/٨ (٣) الإصابة ٢٠٣/٨ والطبقات ٦٣/٨ (٤) أخبار النساء ٩ وعيون الأخبار ١٩/٤ (٥) الطبقات ٥٥/٨ وفتح المدى ، ج ٣ (٦) فتح البارى ٢٨٥/٩

فغضب وقال : والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس . . . » قالت عائشة : فقلت فى نفسى : لا أذكرها بسيئة أبداً (١) .

وقد اتفقت عائشة وسودة وصفية — حين علمن أن النبى مكث عند حفصة أطول مما كان يمكث وشرب عندها عسلا — على أن يدعين أن فى فم النبى رائحة مغافر فآلى ألا يذوق العسل (٢) فنزل قوله تعالى : « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » (٣) وسواء أكان هذا هو السبب فى نزول الآية أم كان السبب أن النبى خلا بجاريته مارية فى يوم حفصة ببيتها أو فى يوم عائشة ، فما زالت به حتى حلف ألا يقربها (٤) ، سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الغيرة محققة فى الحالين ، لأنهن أردن تبغيض عسل صفية إلى النبى ، فزعمن أنه مغافر (٥) ، أو أردن الحيلولة بينه وبين جاريته مارية .

وربما كان الرجل يبرع فى حيلة لطيفة يطفىء بها جذوة من الغيرة ، كما فعل عبد الله ابن رواحة ، ذلك بأنه أصاب جارية له ، فسمعت به امرأته ، فأخذت شفرة وأتته فقالت : أفعلتها يابن رواحة ؟ قال مافعلت شيئا . فقالت : لتقرأن قرآنا وإلا بعجتك بها . قال : ففكرت فى قراءة القرآن ، وأنا جنب فهبت ذلك ، وهى امرأة غيرى وفى يدها شفرة ، لا آمن أن تأتى بما قالت ، فقلت :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

فلما سمعت ألقت السكين ، وقالت . آمنت بالله وكذبت البصر ، ثم أتيت النبى فأخبرته بذلك ، فضحك ، وأعجبه ماصنعت (٦) .

على أن بعض الرجال فى الإسلام كان يتحامى هذه الحياة المشوبة ، من هؤلاء أعرابى شاعر يصور فى أسلوب فكه بلواه من زواج أثنتين ، ويوصى بالعزوبة .

---

(١) أسد الغابة ٥/٤٣٨ والاستيعاب ٢/٧٤١ (٢) الطبقات ٨/٥٩ وتفسير الطبرى ٢٨/١٠٢ وتفسير النيسابورى ٢٨/٩٩

(٣) التحريم ١ (٤) تفسير الطبرى ٢٨/١٠٠ والنيسابورى ٢٨/٩٩ والجلالين ٤٧٦

(٥) المغافر : شىء ينضحه الثمام والعشر والعرفط مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل ولكن له رائحة كريهة (القاموس مادة غفر وغثر وتفسير النيسابورى ٢٨/٩٩) (٦) أخبار النساء ٤٤

تزوجت أثنتين لفرط جهلى ... بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفا ... أُنَعَّم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تُضحى وتُمسى ... تُداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذى يُهيج سخط هذى ... فما أعرى من احدى السَّخطتين
وألقى فى المعيشة كل شرٍّ ... كذاك الضُّر بين الضَّرتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى ... عتاب دائم فى الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً ... من الخيرات مملوء اليدين
فعش عَزَباً فإن لم تستطعه ... فضَرْباً فى عِراض الجَحْفلين (١)

هل فى التعدد منقصة للمرأة ؟

عرفنا أن الأمم كانت تمارس تعدد الزوجات ، وأنه لم يكن مقصوراً على عرب الجاهلية، ولم يكن بدعة إسلامية ، بل إن الاسلام حدّد العدد المطلق ، وأوصى بالمعدلة بين الزوجات.

وقد ظهر لكثير من الباحثين والمؤرخين وعلماء الاتنوجرافيا كالأساتذة وستر مارك وهوبوز وهيلير وجنسبرج (Westermarck, Hoboose, Wheeler and Gensberg) أن هذا النظام لم يبد فى صورة واضحة إلا فى الشعوب المتقدمة فى الحضارة ، وأنه قليل الانتشار أو معدوم فى الشعوب البدائية المتأخرة (٢) .

ويعزز لوى Lowie ذلك بقوله فى تحليله العوامل النفسية لتعدد الزوجات : إن هذا النظام ليس دليلا على انحطاط المرأة ، أو على الشعور بضعتها ومهانتها ، وليس الدافع اليه الانغماس فى الشهوة والتهالك عليها، إذ قد يحدث أن تدفع المرأة زوجها إلى الاقتران بأخرى، لشدة رغبتها فى طرح جزء من أعباء واجباتها المنزلية على عاتق امرأة أخرى ، وقد يكون الدافع اليه الرغبة الطبيعية فى النسل وكثرة الذرية (٣) .

وكذلك يذهب جستاف لوبون إلى أنه نظام حسن ، يرفع المستوى الأخلاقى فى الأمم التى تدين به ، ويزيد الأسر ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تجدهما فى أوروبا (٤).

---

(١) الأمالى ٢/٣٥ وسمط اللآلىء ٢/٦٦٩ ضرباً فى عراض الجحفلين : تعرض للموت والاستشهاد .
(٢) الأسرة والمجتمع ٨٢ (٣) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٤
(٤) حضارة العرب . لوبون ٤٨٣

ويرد منسينور لوروا على الذين ذهبوا إلى أن التعدد أثر للاختلاط بين الرجال والنساء بأنه قد استيقن أن هذا الاختلاط ليس له أثر فى أية ناحية من إفريقية - حيث يكثر التعدد - إلا فى قطعان البقر الوحش ، ويؤكد أن تعدد الزوجات ليس نتيجة لحياة بدائية همجية كما يزعم الماديون ، وإنما هو أثر لحضارة قديمة غربت شمسها (١) .

وليس من موضوعى أن أبسط حكمة التعدد والأحوال التى تلجىء اليه ، وحسبى أن التعدد ليس دليلا على مهانة المرأة ، لأخلص من ذلك إلى أن العرب لم يكونوا شعبا همجيا بدائيا ، وأن المرأة العربية لم تكن مهينة القدر .

وإذاً فقد بطلت دعوى انحطاط المرأة العربية التى اعتمد القائلون بها على تعدد الزوجات .

وإنى لأسأل : أيهما أدل على ضعة المرأة فى نظر زوجها ، وضعته هو فى نفسه ، أن يتزوج أخرى أو أخريات زواجا متعارفا عليه معلوما للناس أم يتخون نفسه ورجولته وزوجته فيجعل يخادن غيرها من النساء ؟

إن الرجل الغربى لا يكاد يقتصر على زوجة واحدة ، بل يُخالّ غير زوجته ، ولقد تضطر هى أيضا إلى أن تخال غيره ، وفى هذا فساد وضلال وانحلال ، لذلك آثر كثير من مفكريهم نظام التعدد .

« وإن رجال الأكليروس أنفسهم كانوا يتخذون أكثر من زوجة ، شرعية أو غير شرعية ، على الرغم مما تقتضيه قداستهم »(٢) .

ثم إن الإسلام راعى الأحوال التى قد تلجىء إلى التعدد ، فأقره فى حدود معلومة ، وجعل الحد الأقصى أربع نسوة ، وأوجب العدل بينهن ، وما من شك فى أن الإسلام كان يحدب على النساء ويرفع من قدرهن ، فلو أن التعدد منقصة للمرأة لحظره الإسلام حظراً كما حظر الزيادة على أربع . وقد جهل بعض أعداء الاسلام هذا كله ، فزعموا أن النبى هو الذى أباح تعدد الزوجات ليستجلب الرجال إلى دينه ، بل زعم بيرون أنه أراد بذلك استمالة الرجال والنساء . وبلغ من تعصب رينان فى كتابه (ابن رشد) أن وصف الإسلام بأنه دين الخنازير والقوم المنهمكين فى الشهوات . وزعم الأب بروغلى أن تعدد الزوجات نتيجة للإسلام (٣) .

---

(١) Monseigneur Leory. La Reeligion des Primitifs· P. 95

(٢) مركز المرأة فى الإسلام ٣٩ (٢) الإسلام . الكونت هنرى دى كاسترى . ترجمة أحمد فتحى زغلول ٥٢

ويحسبنا فى الرد على هؤلاء أنهم يجهلون ما كان قبل الإسلام عند العرب وعند غيرهم من الأمم ، وأنهم يجهلون أو يتجاهلون ما أضفى الإسلام على المرأة من رعاية وتقدير . وقد اعترف كثير من الغربيين بفضل الإسلام على المرأة ، يقول مسيو ريفيل : إننا لا نجد عملا أفاد النساء ورفع من قدرهن أعظم مما أتى به النبى محمد ، فهن مدينات له بأمور كثيرة ، وفى القرآن آيات ساميات فى تقرير حقوقهن ، وما يجب لهن على الرجال (١) .

أنكحة الجاهلية

قلت فيما سبق إن الرجل كان يخطب المرأة إلى نفسها أو إلى وليها ، فيجاب أو يرفض ، فإذا أجيب إلى طلبه مهر زوجته ، ثم جمع من قومه وجمع ولى الزوجة من قومها ، واحتفلوا بهذا الزواج ، فهو إذا زواج قائم على الإيجاب والقبول ، وهو الضرب الذى كان شائعا فى العرب ، وجاء الإسلام فأقره .

على أنهم كانوا يعرفون ضروبا أخرى من اتصال الرجل بالمرأة ، ذكرت السيدة عائشة أربعة منها ، لعلها كانت أكثرها شهرة .

قالت : إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء (٢) .

١ — « فنكاح منها نكاح الناس اليوم — فى الإسلام — يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو إبنته فيصدقها ثم ينكحها » . وقد أقر الإسلام هذا النوع ، وكان قد ساد وعم فى آخر العصر الجاهلى وصار هو القاعدة ، حتى إن المرأة إذا ولدت عن الدعارة أو نكاح الرهط نسب وليدها إلى شخص واحد (٣) . وليس بعجيب أن يوافق الإسلام ما أطبق عليه عرب الجاهلية من نظام يكفل للمرأة صيانة ومعزة ، ويصون الأسرة شرفها واستقرارها ، لأن الإسلام أقر كثيراً مما تعارفوا عليه من صالح العمل وطيبه ، فمثلا كانوا يقطعون يد السارق اليمنى ، ويصلبون قاطع الطريق ، يقول مالك بن عميلة - فى مليح ومدرك بن عوف وكانا قد سرقا حلى الكعبة فى الجاهلية — يخاطب حميد بن زهير بن عم مليح :

تمنى حميدٌ أنه كان حيْضةً ... ليالى بانت من مليح أصابعُه
ليالى بانت كفه من ذراعه ... فأصبح لا يدنو لقرن ينازعُه

---

(١) المرجع السابق ٢٨ (٢) فتح البارى ١٥٨/٩ وإنسان العيون ٤٧/١ والاعتصام للشاطبى ١٨٤/٢ (٣) Muslem Law P. 24

ودِرْواسَ مخزومٍ تركنا مجدّلا بما قدمت أظفاره وأشاجعُه
فأمسى تليلاً للسباع تنوبه تسيل دما آرابه وكراسعُه (١)

وكانوا لا يأكلون الميتة ، فإن حارثة بن أوس الكلبي يقول :

لا آكل الميتة ما عُمِّرت نفسي وإن برح إملاقي (٢)

ومما دعا إليه الاسلام وكانوا يمارسونه : المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب والختان والاستنجاء وتقليم الأظافر الخ (٣) ، وسنرى أنهم كانوا يحرمون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ، ويكرهون الجمع بين أختين ، والزواج بامرأة الأب .

وإذا ما عرفنا أن هذا الضرب من الزواج كان هو الشائع عند العرب فى الجاهلية ، وأن الرجل كان يدفع مهراً للزوجة ، كان لنا أن نحكم بأنهم لم يكونوا همجا أو متأخرين فى نظمهم الأسرية عن الأمم المتحضرة التى عاصروها . ذلك بأن الزواج مر بمراحل ثلاث : الاختطاف والشراء ، والعقد ، وكان العقد عملا تقديريا للمرأة ، وفى بعض الأحيان كان يقدم لها مهر ، وقد جرى عليه اليونان والرومان (٤) .

٢ — « ونكاح الآخر — الصنف الآخر — كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد » .

وهذا الضرب لم يكن يتعارض مع النسب إلى الأب ، لأن الوليد ينسب إليه « وهو يخالف نظام تعدد الأزواج للزوج ، لأن الولد فى هذا النظام يتبع أمه » (٥) .

وقد سبق فى الموازنة بين العربية وغيرها أن كثيرا من الأمم كانت تزاول نكاح الاستبضاع ، فأفلاطون قد ذهب إلى شيوعية النساء بين الرجال ، وبخاصة الحكام ، فلا يخص أحد نفسه بإحداهن ، والنسل الناتج مجهول النسب وملك للدولة ، فلا يعرف والد ولده ، ولا مولود أباه (٦) .

---

(١) المحبر ٣٢٨ درواس : لقب مدرك بن عوف . كان حيضة لم يولد . الأشاجع : أصول الأصابع فى الكف . تليل : ملقى على عنقه وخده . آرابه . أجزاء يده المقطوعة . كراسعه : جمع كرسوع وهو طرف الزند الذى يلى الخنصر (٢) المحبر لابن حبيب ٣٢٩ (٣) المحبر ٣٢٩

(٤) The Psychology of Marriage P. 238 waltee M gallichan

(٥) Muslem Law P. 22 (٦) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و١٣١ — ١٣٥

وليكورغ مشرع إسبرطة أباح شيوع النساء ، وسمح للزوجة أن تبيح نفسها لصاحبها بإذن زوجها ، وأباح للزوج أن يدفع زوجته للاستبضاع من آخر ، على أن يكون الولد للزوج (١).

وأباحت شريعة سولون للمرأة أن تستبضع من غير زوجها إذا عجز عن مباشرتها (٢).

وقد أقرت شريعة مانو نظام الاستبضاع عند الهنود ، لأنها كانت تعد العقم كارثة ، وكانت تحض على الإكثار من النسل ولا سيما الذكور « ولذا تداركت العقم بطريقتين : الأولى أن يزوج الرجل — الذى عقم — ابنته ، على أن يكون مولودها الذكر ابنا له ، والثانية أنها أوجبت على الرجل العقيم أن يستولد امرأته من أحد إخوانه أو أقاربه »(٣).

وذكر العالم الألمانى جريم Grimm عن الجرمان القدماء أنهم كانوا يتوخون من الزواج الحصول على وارث شرعى ، حتى إنه كان يحق للرجل أن يطلق امرأته إذا ما تحقق عقمها ، ويأخذ غيرها من غير معارضة (٤) ، وذكر أن الرجل العاجز عن المباشرة الزوجية كان يجب عليه — مادامت زوجته راضية عنه — أن يحملها على ظهره ، وينقلها إلى رجل آخر يرضيها (٥). وقد ورد فى بعض القصائد القديمة عن القديسة اليصابات أن أحد فرسان تورنغ لما استوثق من عجزه عن إنجاب وارث له مثل أمام الأمير لودفج زوج اليصابات ، وطلب منه أن يطأ امرأته (٦) ، ويذهب ولكن إلى أن هذه العادة التى كان يزاولها بعض العرب تختلف عما كان عند بعض الشعوب ، « ذلك أنه كان يحق للمرأة نفسها أن يستمتع بها غير زوجها إذا لم تنجب من زوجها أولادا » (٧).

أريد أن أعتمد على شيوع هذا النوع من الخلاط الجنسى بين شعوب شتى لأخلص إلى أنه لم يقتصر على العرب كما كان يذاع .

على أنه ضرب شاذ نادر يتنافى والأخلاق العربية من غيرة وحمية ونخوة واعتداد بالنفس وفخار بعفة الزوجة ، فلا يلجأ إليه إلا رجل عاجز عن مباشرة زوجته ، أو فسل ساقط المروءة . وإذا فليس دليلا على مهانة المرأة العربية .

وقد سجّل النمر بن تولب — الشاعر المخضرم — هذا النوع ، ذلك أنه كان للقمان بن عاد أخت محمقة ، وكذلك كان زوجها ، فقالت لإحدى نسوان لقمان : هذه ليلة طهرى ، وهى ليلتك

---

(١) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة فى التاريخ والشرائع ٧٣ (٢) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة فى التاريخ والشرائع ٧٣ (٣) Question feministe. Rosler. P. 143 .

(٤) الأمومة عند العرب ٢٥ (٥) الأمومة عند العرب ٢٦ (٦) الأمومة عند العرب ٢٥

(٧) الأموية عند العرب ٢٥

فدعيني أنام فى مضجعك ، فإن لقمان رجل منجب ، فعسى أن يقع علىّ فأنجب ، فوقع على أخته فحملت بلُقَيْم ، فهو قول النمر بن تولب :

لقيمُ بن لقمان من أخته ... فكان ابن أختٍ له وابنما
ليالى حُمِّق فاستحصَنَتْ ... عليه فغُرَّ بها مُظْلِما
فأحبلها رجل مُحْكِمٌ ... فجاءت به رجلا محكما[1]

٣ — « ونكاح آخر ، يجتمع الرهط ، دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرّت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، إنى ولدت فهو ابنك يافلان ، تسمّى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لايستطيع أن يمتنع به الرجل » .

وهذا النوع هو نكاح المشاركة أو نكاح الرهط ، وهو الذى ذكره سترابون عن أهل اليمن ، وقد أسلفت قوله والرد عليه فى نسب الولد إلى أمه .

على أن هذا الضرب من الاتصال الجنسى نظام اجتماعى بدائى كان فاشيا بين الساميين القدماء ، وربما كان دخيلا على العرب من الفرس زمن حكمهم لليمن ، وتسلطهم على الحيرة ، لأنهم كانوا يمارسون الإباحة الجنسية فى عهد الساسانيين ولاسيما جماعة المانويين ، وربما طرأ على العرب من شرقى إفريقية ، لأن بعض القبائل كانت تتبع هذا النظام هناك ، وما زالت تدين به [2] ، وقد حدّث هيرودوت عن بعض الحبش المقيمين على سطح البحر الأحمر أن النساء عندهم مشتركة ، ومتى كبر الأولاد أُعطى كل من الرجال ماشابهه من الأولاد [3] .

وكان تعدد الرجال للمرأة الواحدة شائعا فى العصور القديمة [4] ، وما زال النائر ـ أعيان الملابار فى الهند ـ يجرون عليه ، كما ذكر باخوفين Bachofin فى كتابه (آراء القدماء فى القرابة) [5] .

لم يشع هذا النوع فى العرب ، ولم يتعدّ قلة منهم ، وإن ادعى بعض الباحثين أن الشيوعية فى النساء كانت نظاما شائعا بين العرب ، وقد رددت عليهم فى النسب إلى الأم . ومن التعسف بل من الخطأ الفاحش أن نعتسف الشيوعية من قول عنترة :

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٢١ طبعة هارون والبيان والتبيين ١/١٨٤ مظلم : فى الظلام
(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ١٦ (٣) الأمومة عند العرب ٣٣ (٤) Studies in Ancient History. mac Lennan P. 276 (٥) الأمومة عند العرب ٢٨

إن الرجال لهم إليك وسيلة وابن النعامة يوم ذلك مركبي (١)

٤ — « والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن ليدخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطته به ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك . فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم » وهذا النوع كان محصورا فى الإماء وسأعرض له بتفصيل عند الكلام على الإماء .

٥ — على أن السيدة عائشة لم تذكر نكاح المتعة ، وربما أغفلته لأنه يشبه النكاح العام ، غير أنه محدود الأجل . وكان العرب يعرفونه ويمارسونه ، وأباحه النبى فى بعض غزواته ثم حرّمه (٢) .

وإليه يشير عمر بن قعاس المرادى بقوله :

ألا رجلٌ جزاه الله خيراً يدل على مُحصّلة تبيتُ

ترجّل لِمتى وتقُمّ بيتى وأعطيها الإتاوة إن رضيت (٣)

وكان اليهود يمارسون نكاح المتعة ، ثم نهى الكتاب عنه (٤) .

٦ — ولم تذكر نكاح الشغار ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه زواج فردى كالزواج العام إلّا أنه لا مهر فيه ، وهو أن يزوج الرجل ابنته أو موليته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو موليته ، ولا صداق فيه لكلتيهما . وقد نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم (٥) ، وقال ببطلانه كثير من الفقهاء ، وصححه الحنفية ، ولكنهم قالوا بفساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل (٦) ، وهذا النوع من الزواج كان معروفاً عند الأمم السامية قديماً (٧) ، ولا تزال له بقايا فى كثير من الأمم المتمدينة (٨) .

---

(١) ديوان عنترة ٢٠ ابن النعامة ، فرسه

(٢) فتح البارى ٩/١٠٢ و ١٤٤ — ١٤٩ و ١٨٢ و ٧/٣٦٩ وصحيح مسلم ٤/١٣٠ — ١٣٥ والمبسوط ٦/١٥٢ وتفسير الطبرى ٥/٨ والكشاف ١/٢٠٠ وروح المعانى ٥/٦ والسنن الكبرى ٧/٢٠٠ — ٢٠٢ (٣) خزانة الأدب ٢/٢٤٦ أنشد الأزهرى هذا البيت وما بعده فى التهذيب بفتح صاد محصلة وقال : هما لأعرابى أراد أن يتزوج امرأة بمتعة . وفى لسان العرب مادة حصل أن المحصلة بكسر الصاد هى التى تحصل تراب المعدن أو التى تميز الذهب من الفضة ، وذكر البيتين وقال إن الأزهرى قال تبيت أى تبيتنى عندها لأجامعها ، والجوهرى قال تبيت تفعل كذا . والذى أراه أن الكلمة بكسر الصاد والشاعر يريد أنها خبيرة بالرجال فهى تميزه وتؤثره (٤) شعار الخضر ١٠١ (٥ السنن الكبرى للبيهقى ٧/١٩٩ (٦) فتح البارى ٩/١٤٠ والمبسوط ٥/١٠٥ (٧) النظم الاجتماعية ٤٠ (٨) الأسرة والمجتمع ١١٤

المحرّمات فى الجاهلية والإسلام

١ — حرم العرب على أنفسهم أنواعا من الأقارب . ثم جاء الإسلام فأقر هذا التحريم. كانوا لا ينكحون الأمّهات والبنات والأخوات والعمات والخالات(١) ، وذهب ابن عباس وغيره إلى أنهم كانوا يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين(٢) .

وقد تباعد أهل مكة فى المناكح عن البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة ونفورا من المجوسية ، ونزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم(٣) .

ولا شك أنهم بهذا التحريم سموا على كثير من الشعوب القديمة ، لأن زواج الأخت الشقيقة كان مباحاً عند الأشوريين والفرس والمصريين ، فقد تزوج بطليموس فيلادلفيوس شقيقته — فى مصر — وتزوج قمبيز شقيقته — فى فارس — وجاء فى كتاب زرادشت أن اقتراناً كهذا من أفضل القرب . وما زال المجوس إلى اليوم على آثار أجدادهم . وكان الإسبرطيون يبيحون زواج الأخت لأم (٤).

أما زواج الأخت لأب فقد كان مباحاً فى كثير من الشعوب المتحضرة القديمة كالعبريين واليونان والفينيقيين وبعض شعوب الصقالية (٥)

وقد تزوج الملك اليهودى هيرود أخته هيرودية وزوجها لا يزال على قيد الحياة ولم يرتض يوحنا المعمدان هذا الزواج ، فندد بالملك وبأخته تنديداً ، وأمره بتطليقها فراراً من غضب الله ، لكن هيرود استجاب له بأن قتله (٦)

وكان الفراعنة والبطالسة يتزوجون الأخوات على الإطلاق (٧)

أما زواج البنت فقد جرى عليه الفرس والميديون (٨)

وكان العبرانيون يتزوجون بنات الأخ ، يدل على ذلك أن عيسى عليه السلام بعث يحيى بن زكريا فى اثنى عشر حواريا يعلمون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ (٩) .

---

(١) الملل والنحل على هامش الفصل ٣/٢٣١ وبلوغ الأرب للعطار ٣١ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١/٩٩ (٢) تفسير الطبرى ٤/٢١٧ — ٢١٩ وروح المعانى ٤/٢٦١

(٣) معجم البلدان ٨/١٣٧ (٤) دائرة المعارف للبستانى ٩/٣٣٨ (٥) قصة الحضارة ١/٧٣ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ والأسرة والمجتمع ٤٧ (٦) عبقرية المسيح . العقاد ١١٥

(٧) الأسرة والمجتمع ٤٧ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ وقصة الحضارة ١/٧٣ (٨) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧ والأسرة والمجتمع ٤٧ (٩) تاريخ الطبرى ٢/١٣

لكن ذلك مازال قائما ، لأن طائفة الربانيين (الربائيم) وهم سواد اليهود يبيحون زواج الرجل بابنه أخيه وابنة أخته وابنة امرأة أبيه . والسامرة والقراءون يمنعون ذلك [١] .

أما نكاح زوجة الأب فإن العرب لم يحرموه ، بدليل قوله تعالى: « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف »[٢] والآية تعنى رجالا خلفوا آباءهم على أزواجهم[٣] وقد سجل ذلك عمرو بن معد يكرب إذ قال فى زوجته التى خلف أباه عليها :

فلولا إخـــوتى وبَنىَّ منها ملأتُ لها بذى شُطُب يمينى
لَصَلْصلةُ اللجام برأس طِرْف أحبُّ إلىَّ من أن تنكحبنى [٤]

ولما جاء الإسلام حظر نكاح امرأة الأب ، وفسخ زيجات أربعا كانت قائمة [٥]

على أن العرب كانوا يمقتون هذا النوع ، ويسمون المولود عليه المَقْتى ، ومن ثم قال تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » كأنه قال فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح ، قبيح ممقوت فى المروءة [٦] ، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضَّيزن ، ويتهمونه بأنه فارسى يدين بالمجوسية ، قال أوس بن حجر .

والفارسية فيكم غير منكرة فكلكم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلَف [٧]

ولم يكن هذا النوع شائعا إذا ، لأن أحق شخص بامرأة المتوفى ابن زوجها الأكبر ، وقلما يقدم عليه لقبحه .

وقد ظلت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، ذلك أن منظور بن زبّان كان قد تزوج امرأة أبيه ، ولم تزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما ، وقال :

لَعمرُ أبى دِينٌ يفرق بيننا وبينك قسْراً إنه لعظيم

وهجاه حجر بن معاوية بقوله :

لبئس ماخلف الآباء بعدهم فى الأمهات عِجان الكلب منظور
قدكنت تغمزها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمز معذور [٨]

---

(١) العقائد عمر عنايت ٨٠ — ٨٢ (٢) سورة النساء ٢٢ (٣) تفسير الطبرى ٤/٢١٧
(٤) لسان العرب مادة نكح (٥) الإصابة ٨/٥٤ والمعارف ٣٧ و٥٠ والأغانى ٣/١٢٣ و١/١٧ والملل والنحل ٣/٢٣٢ وأسد الغابة ٢/٢٣٨ والروض الأنف ١/١٤٦ والمحبر ٣٢٥ والكشاف ١/١٩٧ وإنسان العيون ١/٤٤ والمبسوط ٤/١٩٨ وروح المعانى ٤/٧٠١ والمستطرف ٢/٧٢ ومعجم البلدان ٨/١٣٧ (٦) الكشاف ١/١٩٧ (٧) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٧/١٢٢
(٨) الأغانى ١١/٥٣

كذلك لم يحرم العرب الجمع بين الأختين بدليل قوله تعالى « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف ».

وقد ألف أبو الحسن المدائنى كتابا فيمن جمع بين أختين[١] وبعضهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه، ثم حرمه الإسلام[٢] وإن بقى أثره إلى عهد عمر، فقد فرق بين أختين عند رجل من جذام، حلف أنه لايعلم أن الإسلام حرم الجمع بين الأختين[٣].

على أن العرب لم ينفردوا بهذا الضرب، فقد كان العبريون يجمعون بين الأختين كما جمع يعقوب بن إسحق بنتى خاله لبان: راحيل وليا، وأنجبتا له، وكان الناس يومئذ يفعلون ذلك إلى أن بعث موسى عليه السلام، وأنزلت عليه التوراة[٤]

٢ — وإذاً فقد كان العرب يحرمون ماحرم الإسلام فى قوله تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعتكم، وأخواتكم من الرضاعة، وأمهات نسائكم، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم »[٥]

وزاد الإسلام تحريم امرأة الأب، والجمع بين الأختين، وبين المحارم مطلقا، فقد نهى رسول الله أن تنكح المرأة على عمتها أو العمة على بنت أخيها، والمرأة على خالتها، أو الخالة على بنت أختها، لا تنكح الصغرى على الكبرى، ولا الكبرى على الصغرى[٦].

ولا شك أن العرب بمقتهم نكاح امرأة الأب، وبتباعدهم عن الجمع بين الأختين، وبتحريمهم ما حرم الإسلام بعد، قد تساموا عن أمور كانت بين الساميين وغيرهم ذكرتها التوراة[٧].

ولم يتقول مختلق أوشعوبى على عربى أنه تزوج أمه، كما تزوج مارك أنطونيو فاربوس هليوجا بال أمه، وكان يعبد الشمس كملوك الفرس، ويقدم لها الفرابين من أجمل بنات

---

(١) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢
(٢) المحبر ٣٢٧ وإنسان العيون ١/٤٤ والملل والنحل ٣/٢٣١ وروح المعانى ٤/٢٦١
(٣) فتوح الشام للبصرى ٢٣٧ (٤) تاريخ الطبرى ١/١٦٣ (٥) النساء ٢٣
(٦) حجة الله البالغة ٢/٩٧ (٧) سفر اللاويين الإصحاح ١٨ آية ٦ــ٣٠ وحضارة العرب ٤٨٧

إيطاليا ، وقد قتله جنده هو وأمه سنة ٢٢٢ م[١] ، وكان الكنعانيون يأتون المحارم كلها[٢].

أما دعوى زواج لفيط بن زرارة بنته . فقد فندتها فيما سبق .

وبذلك امتاز العرب من الأمم التى كانت تبيح الأخت والبنت وبنت الأخ كما سبق ، وامتازوا من العبريين الذين حرمت عليهم عماتهم وخالاتهم ، ولكنهم جروا على الزواج بهن[٣] . وامتازوا من الرومان فى زمن القيصر كلوديوس لأنهم أباحوا فى عهده ابنة الأخ وابنة الأخت حتى نقض قسطنطين ما أباحوا[٤] .

٣ — وللإسلام الفضل فى تحريم نظامين كان العرب يضارون بهما النساء .

١ — أولهما العضل ، ذلك أن الورثة كانوا يمنعون المرأة المتوفى عنها زوجها من التزوج ، لتفتدى بما ورثت من زوجها ، أو تعطيهم الصداق الذى أخذته . وكان الأزواج أيضا يمسكون زوجاتهم أحيانا من غير حاجة إليهن ، فيضارونهن ويضيقون عليهن ، ليستردوا بعض ما آتوهن بأن يختلعن بمهورهن . وقيل كان الرجل القرشى بمكة ينكح المرأة الشريفة وربما لا توافقه ، فيفارقها على ألا تتزوج إلا بإذنه ، فان أعطته وأرضته أذن لها ، وإلا عضلها[٥].

هذا هو العضل فى رأى المفسرين والفقهاء ، وهو فى اللغة التضييق ، ومنع المرأة الزواج ظلما[٦] ، وليس يهمنا أن يكون العاضل هو الوارث ، أو الزوج ، أو غيرهما ، فإن الأب قد يعضل بناته ، كذلك الذى عضلهن ومنعهن الأكفاء ، فتأذين ، فزوجهن[٧] .

وواضح أن عضل الورثة كان الغرض منه أن تبقى فى العشيرة ثروة الرجل المتوفى ، وأن عضل الزوج كان الباعث عليه أن يسترجع ما قدم من صداق . أما عضل الأب فليس له من باعث إلا الأنفة والغيرة ، أو الأثرة ، وهو على أى حال عمل شاذ مباين لما كان عليه الآباء .

---

(١) Histoire Des Popes. Tome 1. P. 187 Paris

(٢) شعار الخضر فى الأحكام الشرعية للاسرائيليين ١٣ (٣) دائرة المعارف للبستانى ٩ ٣٣٨

(٤) المرجع السابق ٩/٣٣٨

(٥) فتح البارى ٨/١٨٥ وروح المعانى ٤/٣٤٢ (٦) القاموس المحيط مادة عضل

(٧) الأمالى ٢/١٠٥

لكن العرب لم يتوحدوا بهذا العمل ، فقد كان العبريون يعتدون المرأة جزءاً من متاع الرجل ، تورث كما يورث ماخلّف ، وللوارث أن يبيعها أو يعضلها[١] .

ومن نعم الاسلام على النساء أن حظر العضل : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا »[٢].

ب — ثانيهما الزواج بالميراث . ذلك أن الرجل كان إذا مات وترك زوجة ألقى عليها ابنه أو قريبه ثوبه فمنعها الناس ، فإن كانت تعجبه تزوجها وإلا حبسها حتى تموت . وفى رواية البخارى وأبى داود أن أولياء الرجل كانوا أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاء زوجها ، وإن شاء منعها الزواج حتى تموت أو ترد عليهم مهرها ، فهم أحق بها من أهلها[٣] .

وكان الولد الأكبر إذا ما طرح ثوبه على امرأة أبيه أن يتزوجها بغير مهر ، وله أن يزوجها أحد إخوته بمهر[٤] ، وله أن يعضلها كما سبق ، فلا ينفق عليها ولا يخلى سبيلها لتلحق بأهلها . وقد شكت كبيشة بنت معن إلى النبى صلى الله عليه وسلم ابن زوجها محصن ابن أبى قيس بن الأسلت لما فعل بها ذلك ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » ، ثم شكت إليه نسوة أخر كما شكت كبيشة فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن »[٥] .

ولم ينفرد العرب بهذا النظام ، فقد كان شائعاً عند الإسرائيليين والبابليين والآشوريين ، وكان عند الساميين يعتبر حقاً يتضمن الملكية ، وإذ كانت الزوجة تعد جزءاً من متاع الرجل فإنها كانت تورث كما يورث غيرها من ماله ، وللوارث أن يبيعها أو يعضلها[٦] . بل إن شريعة موسى أوجبت على أخى الزوج أن يتزوج زوجة أخيه المتوفى ، وإذا لم يفعل شكته إلى الشيوخ ، فإذا أصر خلعت نعله من رجله أمامهم ، وبصقت فى وجهه ، وصرخت

---

(١) النظم الاجتماعية ٦٧ و ١٧٠ (٢) النساء ١٩ (٣) الكشاف ٤/٢٠٧ وروح المعانى ٤/٢٤١
(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ٣/٢٣٢ والمستطرف ٢/٧٢
(٥) المحبر ٣٢٦ والبخارى ٦/٢٨٨ وروح المعانى ٤/٢٤١ (٦) النظم الاجتماعية ٦٤ـ٦٧

قائلة : « هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه » ، فيسمى مخلوع النعل[١] ، وتصبح المرأة بعد خلع النعل حرة . لها أن تتزوج من تشاء ، فكأن خلع النعل طلاق[٢] .

وواضح أن الغرض من الزواج بالميراث كالغرض من العضل ، إنما هو البقيا على ثروة المتوفى والاحتفاظ بها فى العشيرة ، والتحلل من تقديم مهر جديد ، وميراث الزوجة هو السبيل إلى ذلك .

الطلاق

ضرورته

هل من الحتم اللازب أن يتخطى الزوجان مراحل العمر متماسكين بعلاقة وثيقة مصفاة لا تنفصم ولا تترنق ؟ أن هذا مخالف لنواميس الاجتماع ، مناقض لطبائع الناس ، مباين للمشاهد فى كل مجتمع .

لقد كانت الحياة الزوجية فى كل قبيل تهزها هزات عنيفة تقوض أركانها ، وما زالت إلى الآن عرضة لرجات قوية تهدم بنيانها ، فكان من الطبيعى أن يفزع العالم القديم إلى الطلاق ، وكان من تنظيم الأسرة أن تبيحه الشرائع السماوية الثلاث فى حدود وقيود .

فهل عرف العرب الطلاق ؟ وعلى أى الصور عرفوه ؟ وهل كان هذا الحق حكرة للرجل يستأثر به ؟ أو أن المرأة كان لها نصيب من هذا الحق ؟ ثم ما الصورة التى نستشفها من نظام الطلاق ، لنتصور مكانة المرأة فى المجتمع العربى ؟ وماذا كانت نظرة الإسلام إلى ما تعارف عليه العرب من صور الطلاق ؟

الطلاق عند الأمم

مارس العبرانيون الطلاق[٣] ، وخولت القوانين العبرية القديمة الرجل أن يطلق

---

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع ٤٨ (٢) النظم الاجتماعية ٦٥

(٣) الإسلام والحضارة العربية ١/٨٠ ودائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٧ والمرأة فى العصور ٨٥

زوجته ، ولم تخول الزوجة أن تطلب الطلاق[١] ، ولم تمنح المرأة العبرية حق المطالبة بالطلاق إلا فى عصور متأخرة ، إذ أباح الفراعون للمرأة أن تطلب الطلاق[٢] ، وليس قبولها الطلاق شرطاً لوقوعه[٣] . وإذاً فلم يكن من حقها أن تطلق زوجها .

ثم جاءت المسيحية فضيقته جدا ، حتى لقد روى عن المسيح أنه حرمه ، ذلك أن تلاميذه سألوه عنه فقال لهم : « من طلق زوجته وتزوج أخرى يزنى ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت آخر تزنى[٤] » ، ولكن الكنائس أباحته فى ظروف خاصة ، سواء فى ذلك الكنيسة الرومية والمذهب الأرثوذكسى والمذهب البروتستانتى[٥] . والكاثوليك يحرمون الطلاق لكنهم يفسخون العقد لأسباب قليلة كزنا المرأة ، ويعدون هذا انفصالا لا طلاقاً ، ولا يجوز لأحد الزوجين أن يتزوج بعده[٦] .

وإذا ماعدونا التشريع السماوى وجدنا أن الرومان قد زاولوه وأنه شاع فى عهد الجمهورية الأخيرة ، وانتشر طمعاً من الرجال فى المال ، وإعجاباً بالجمال ، وغراماً بالنساء . وقد طلق الخاصة والقياصرة كما طلق الشعب ، فإن يوليوس قيصر طلق مرتين ، وأنطونيو طلق ثلاثاً ، وأوكتافيو طلق أربعاً . وظل الطلاق منتشراً حتى خففت المسيحية من شرّته ، ثم حظر حظرا[٧] .

لكن الزوجة الرومانية لم تخوّل المطالبة به ، فإذا حاولت الفراق عرضها عملها للعقاب الصارم[٨] .

وكذلك مارسه الأثينيون بدون قيد أو شرط ، وجعلوه حقاً للرجل وحده ، فلا نصيب للمرأة منه[٩] . وقد أقرته شريعة سولون ، ومنحت المرأة ما كانت محرومة منه . أما ليكورغ فقصر حق التطليق على الرجال[١٠] .

وكان حق الطلاق مباحاً للزوجين فى بابل[١١] .

---

(١) الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة فى الاسلام ٧٣ والاسلام والحضارة العربية ١/٨٠ (٢) شعار الخضر ١٢٦ (٣) الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ (٤) انجيل مرقس الاصحاح ١٠ (٥) الأسرة والمجتمع ١٢٧
(٦) دائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٧
(٧) دائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٦ والاسلام والحضارة العربية ١/٨٠ (٨) مركز المرأة فى الإسلام ٧٣ للسيد أمير على الهندى (٩) مركز المرأة فى الإسلام ٧٣
(١٠) دائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٦ (١١) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص٣٨٧ Mrs Ray Strachey

دواعى الطلاق عند العرب

ليس بمستطاع أن نتعرف بواعث الطلاق كلها ، وبحسبنا أن نمثل ببعضها . فقد يكون من بواعثه الفقر ، فمثلا سألت نبيه بن الحجاج السهمى زوجتاه أن يطلقهما لأنه افتقر :

تلك عِرْساى تنطقان على عَمْـ ـد لى اليوم قول زور وهتْر
سالتانى الطلاق أن رأتا ما لى قليلا ، قد جئتمانى بنُكْر[1]

ولقد ينضم الكبر فى السن إلى الفقر ، وفى هذين يقول عبيد بن الأبرص :

تلك عرسى غضبى تريد زِيالى ألبينٍ تريد أم لدلال
زعمت أننى كبرت وأنى قل مالى وضَنَّ عنى الموالى
وصحا باطلى وأصبحت شيخا لا يواتى أمثالَها أمثالى[2]

وبسبب الكبر طلق عمرو بن عُدُس دختنوس بنت عمه لقيط بن زرارة ، لأنه كان شيخاً هرما فرآها يوما تتأفف منه ، فقال لها : أيسرك أن أفارقك ؟ قالت : نعم ، فطلقها[3] .

وربما يدفع إلى الطلاق أن تتطاول الزوجة على قوم الزوج وتنال منهم ، فيندفع بعصبيته لهم إلى تطليقها ، فمثلا كان حسان بن ثابت زوجا لعمرة بنت الصامت الأوسية وكانا متصافيين متحابين ، ولما أجار الأوس مخلَّد بن الصامت الساعدى قال أبو قيس ابن الأسلت :

أجرتُ مُخَلَّداً ودفعت عنه وعند الله صالحُ ما أتيت

فتكلم حسان فى أبى قيس بكلام أغضب عمرة ، فعيرته أخواله ، وفخرت عليه بالأوس . فغضب لهم فطلقها[4] ، وكذلك طلق دريد بن الصمة زوجته أم معبد لأنها عاتبته على جزعه على أخيه عبد الله ، وصغرت من شأنه وسبّته . فطلقها وقال فيها :

أعبدَ الله إن سبَّتْكَ عِرْسى تقدم بعضُ لحمى قبل بعض

---

(١) الأغانى ١٦/٦٠ وفى البيان والتبيين ١/١٩٩ أن القائل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وعند الزمخشرى أنه زيد بن عمرو بن نقيل (٢) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١٩٩
(٣) مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٤ والأغاني ١٠/٣٨ وتاج العروس ٤/١٤٧ .
(٤) الأغانى ٣/١٤ الدار .

إذا عرْسُ امرىء شتمت أخاه فليس فؤاد شانئه بحمْض
معاذ الله أن يشتمن رهطى وأن يملكن إبرامى ونقضى[١]

وشبيه بذلك أن عمرو بن شاس كان له ابن أسود من أمة ، يقال له عِرار ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، فهددها بالطلاق فى قوله :

فإن كنت منى أو تريدين صحبتى فكونى له كالسمن رُبّتْ له الأدم
وإلا فسيرى مثل ماسار راكب تعجل خمْساً ليس فى سيره أمم[٢]

ولقد يطلق الرجل امرأته لأنه لا يأنس إليها ، ولا يجد فيها الخلال التى يريد ، كما فعل الأعشى لما تزوج امرأة من عنزة فلم يرضها ، ولم يستحسن خلقها ، فطلقها وقال :

فبينى فإن البين خير من العصا وألا تَرَىْ لى فوق رأسك بارقه
وماذاك عندى أن تكونى دنيئة ولا أن تكونى جئت عندى ببائقه
وياجارتا بينى فإنك طالقه كذاك أمور الناس غادٍ وطارقة[٣]

ولقد يطلقها لأنه يجد فيها ميلا إلى غيره وتبرماً به ، كما طلق الحارث بن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة لما رأى إعجابها بشبان من قومها[٤].

وربما يتوسم الرجل فى المرأة التى خطبها شباباً وجمالا ، فإذا هى عجوز شمطاء ، فلا يجد بدا من تسريحها . حدث هذا لجهْم ، إذ خطب من بنى فقعس ، وباع إبلاً له ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزاً مولية ، فطلقها وقال :

وما لمتُ نفسى مذْ فطمْتُ بلَحْيَةٍ كما لمت نفسى فى عجوز بنى شمس
فبانَتْ ولم أُغبَنْ غداةَ اشتريتها وبعتُ تلادالمال بالثمن البخس[٥]

أنواع الطلاق عند العرب .

١ — كانت العرب تطلق فى الجاهلية ثلاثاً على التفرقة ، والزوج أحق بزوجته إلى أن يستوفى ثلاث طلقات ، فإن استوفاها انقطع سبيله إليها[٦] ، وفى ذلك يقول الأعشى لزوجته .

---

(١) الأغانى ٥/٩ ساسى
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ تحقيق شاكر . ربت له الأدم : الأدم جمع أديم وهو الجلد المدبوغ تتخذ منه الزقاق والأوعية ونحوها ، ورب الوعاء دهنه بالرب وهو خلاصة التمر بعد طبخه وعصره ليمنع فساد السمن . يقول لها : عامليه برعاية كما تستصلحين السمن بدهن وعائه
(٣) ديوان الأعشى ١٨٣ وشعراء النصرانية ٣٦٣
(٤) مجمع الأمثال للميدانى ١/١١١ والمحاسن والأضداد ١٨٤ (٥) عيون الأخبار ٤/٤٧
(٦) المحبر ٣٠٩ والملل والنحل على هامش الفصل ٣/٢٤٣ وبلوغ الأرب للألوسى ٢/٤٩

فبيني حَصان الفرج غير ذميمة ... وموموقةً فينا كذاك ووامقه
وذوقي فتى قومٍ فإني ذائقٌ ... فتاةَ أناسٍ مثل ما أنت ذائقه
فبيني فإن البينَ خيرٌ من العصا ... وألا تَرَيْ لي فوق رأسك بارقه
وياجارتا بيني فإنك طالقه ... كذاك أمور الناس غادٍ وطارقه (١)

فكرر الطلاق ثلاث مرات متفرقات .

وكان هذا هو الغالب . وقد التزم أهل مكة هذا التفريق ، يدل على ذلك قول ابن عباس إذ سئل عن طلاق العرب : كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ثم هو أحق بها ، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً ، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها (٢) .

وأحياناً كانوا يوقعون الثلاث دفعة واحدة ، يدل على ذلك قول الشاعر :

فإن تَرْفقي ياهند فالرفق أيمن ... وإن تخْرُقي يا هند فالخُرْقُ أشأم
فأنت طلاقٌ والطلاق عزيمة ... ثلاثٌ ومن يَخْرُق أعقُّ وأظلم
فبيني بها أن كنت غير رفيقة ... وما لامرىء بعد الثلاث مُقدَّم

ولكن طلاق الثلاث دفعة واحدة فى الإسلام كان لايقع إلى عهد عمر إلاطلقة واحدة ، روى مسلم عن ابن عباس أن الطلاق كان فى عهد رسول الله وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم (٣) .

على أنه وردت آراء أخرى فى أن العرب كانوا يطلقون ويراجعون ، ولاحد لهم ينتهون إليه ، وكانوا يضارون النساء بذلك ، فنزل قوله تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان (٤) » . ولكنى أرجح أن هذا لم يكن نظاماً عاماً ، لأن رأى ابن عباس أجدر بالقبول ، وأقرب إلى المعقول ، ولأن بعض ماروى عن هذا الإطلاق غير مقبول ، وكيف نقبل ما ذكره ابن زيد أن الرجل كان يطلق امرأته مائة ثم إذا أراد أن يراجعها كان ذلك له (٥) ؟ وكيف نقبل ماذكره الرازى أن الرجل كان له أن يطلق امرأته ألفاً ثم يراجعها بعد كل مرة (٦) .

---

(١) ديوان الأعشى ١٨٣ والأغانى ٨/٨٠ ساسى
(٢) معجم البلدان ٨/١٣٨
(٣) تفسير القرطبى ٣/١٣٠ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٣٣٦
(٤) تفسير الطبرى ٢/٢٧٦ والنيسابورى على هامش الطبرى ٢/٣٦١ وتفسير القرطبى ٣/١٢٦
(٥) تفسير الطبرى ٢/٢٧٦ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٣٣٣
(٦) تفسير الرازى ٢/٣٧٢

ومهما يكن من شيء فإن الإسلام قد وافق العرب كلهم أو أكثرهم فى أن جعل الطلقات ثلاثاً ، ثم زاد أموراً ، منها أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الطلقة الثالثة إلا إذا تزوجت غيره . ثم إن العرب كانوا يطلقون ثلاثاً دفعة واحدة ، ولما جاء الإسلام اختلف الفقهاء فى حكم هذا الجمع ، فذهب جمهور الفقهاء إلى وقوع الطلاق ثنتين أو ثلاثاً دفعة واحدة ، وذهب بعض المجتهدين والمحققين إلى وقوعه واحدة (١).

٢ — الخلع

وكان من صور الطلاق فى الجاهلية أن تفتدى المرأة من زوجها بمالها وتختلع منه إذا أساء عشرتها (٢) ، من ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابنَ أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : « يا بنى ارفع عصاك عن بكرتك ، فإن كانت نفرت من غير أن تنفر فذلك الداء الذى ليس له دواء ، وإن لم يكن بينكما وفاق ففراق الخلع أحسن من الطلاق ، ولن تترك مالك وأهلك » . ورد عليه صداقه وخلعها (٣) ، وكذلك خلع دعج ابن عبد الله من رجل إيادى زوجته وتزوجها (٤) .

ولما جاء الإسلام أقر الخلع (٥) ، مراعاة لصالح المرأة ، لأنها قد تبغض زوجها ، وتتأذى بعشرته ، ويأبى هو أن يخلصها ، حرصاً عليها ، أو نكاية لها ، أو أسفاً على ما أنفق من ماله فى زواجها . قال تعالى : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (٦) .

ولقد يكون فى الخلع رعاية لصالح الزوج أيضاً ، فيما إذا أتت الزوجة بفاحشة مبينة كما فى الآية ، والمراد بها النشوز وسوء الخلق أو الزنا (٧) . وقد كشفت جميلة بنت عبد الله ابن أبى للنبى صلى الله عليه وسلم عن كراهيتها لزوجها ، ورغبتها فى فراقه ، فقال زوجها : إنى أعطيتها أفضل مالى ، حديقة ، فلتردد علىّ حديقتى ، فأمرها النبى بردها عليه ، وفرق بينهما (٨) ، ورويت هذه الحادثة بطرق أخرى ، ولكنها كلها تدل على أن العرب كانوا يعرفون الخلع ، وإلا ما طلب الأزواج مالهم قبل الفرقة .

---

(١) تفسير القرطبى ٣/١٣٠ وعيون المسائل ١٤٥ — ١٦٠

(٢) الكشاف ١/١٩٧

(٣) أوائل الأوائل لأبى هلال العسكرى ٣٤ مخطوط وفتح البارى ٩/٣٤٦ وعيون الأخبار ٤/٧٦

(٤) الفاخر الكوفى ٤٩ (٥) تفسير القرطبى ٣/١٣٧ (٦) البقرة ٢٢٨

(٧) روح المعانى ٤/٢٤٢

(٨) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٢١٣ وتفسير الطبرى ٢/٢٨٠ والنيسابورى ٢/٣٦٣

على أن الإسلام حذر الزوجة أن تختلع أو تطلب الطلاق من غير حاجة ، أو خضوعا للهوى ، لقوله تعالى : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » ، والمراد النشوز والبغضة من الزوجة ، والتقصير فى الحقوق من الزوج ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير ما بأس به لم ترح رائحة الجنة » و « أيما امرأة سألت زوجها طلاقا فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » و « المختلعات هن المنافقات[1] » .

٣ ـ الظهار

قال الشافعى رضى الله عنه : « سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : « كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث : الظهار ، والإيلاء ، والطلاق . فأقر الله تعالى الطلاق طلاقا ، وحكم فى الإيلاء والظهار بما بيّن فى القرآن »[2] . ذلك بأن الرجل كان يظاهر من زوجته فى الجاهلية ومطلع الإسلام بقوله لها : « أنت علىّ كظهر أمى » يريد تحريمها على نفسه تحريماً مؤبداً ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لخولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت حين فزعت اليه لما ظاهر منها زوجها : « حرمت عليه[3] » ، ثم أنزل الله تعالى حكم الإسلام . وقيل إنهم كانوا يعدونه طلاقا ، ويجيزون للمظاهر أن يتزوج زوجته ثانياً[4] ، ولكن جواب الرسول لخولة يناقض هذا ، وربما كان الأكثر يحرمون بالظهار ، والأقل لا يحرمون به .

أما حكم القرآن الكريم فى الظهار فواضح من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل[5] » ، ومن قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور ، والذين

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى ٣١٦/٧ وتيسير الوصول ٣٣٨/١

(٢) بلوغ الأرب ٥٠/٢

(٣) تفسير الطبرى ٣/٢٨ والقرطبى ٢٧٠/٢٨ وطبقات ابن سعد ٢٧٦/٨

(٤) تفسير الطبرى ٦/٢٨ والنيسابورى ٨٢/٢١ والمبسوط ٢٢٤/٦

(٥) سورة الأحزاب ٤

يظاهرون من نسائهن ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » (١) .

وبهذا أبطل الإسلام الظهار وحرمه ، ونفى الخالق تعالى أن يكون لرجل قلبان فى جوفه وقاس لهم على هذا المستحيل أن يزعم الرجل أن زوجته محرمة عليه كأمه ، ثم جعل عقوبة الظهار الكفارة .

٤ — الإيلاء

كان الإيلاء من أنواع الفرق فى الجاهلية كما ذكر الشافعى (٢) والقرطبى (٣) ، يولى الرجل من زوجته السنة والسنتين وأكثر ، إيذاء لها ، فلا يقربها . فلما جاء الإسلام عين للرجل مدة يراجع فيها نفسه ، ثم يطلق ان شاء أو يفىء فى يمينه « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » (٤) فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكمى (٥) .

حق المرأة فى الطلاق .

١ — تميزت المرأة العربية بأن لها الحق فى أن تكون العصمة بيدها فتطلق الرجل ، وبأن لها أن تطالب الرجل بالطلاق ، سواء أكان على بدل أم لم يكن . وهذا حق لم تظفر به امرأة فى الأمم التى عاصرت العرب . « فكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال فى الجاهلية ، وكان طلاقهن أنهن إن كن فى بيت من شعر حولن الخباء ، فإن كان بابه قبل المشرق حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمن حولنه قبل الشام ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقته فلم يأتها (٦) » ولعل السبب فى هذا المظهر أن الخباء كان عند الساميين ملكا للمرأة ، وهو عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضر (٧) ، فإذا جاء الرجل ووجد المرأة قد حولت باب خبائها علم أنها قد أعرضت عنه وطلقته . أما الحضريات فكانت لهن طريقة أخرى فى الإعلام بالتطليق ، ذلك أنهن لا يعالجن للزوج طعامه إذا أصبح (٨) .

---

(١) المجادلة ١ — ٤ (٢) بلوغ الأرب ٢/٥٠

(٣) تفسير القرطبى ٣/١٠٣ (٤) سورة البقرة ٢٢٦ و٢٢٧ (٥) تفسير القرطبى ٣/١٠٣

(٦) الأغانى ١٦/١٠٢ وذيل الأمالى ١٥٣ (٧) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٧

(٨) مجمع الأمثال للميدانى ١/٣١٨

ومن هؤلاء اللائى امتزن بحق التطليق سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب بن هاشم، إحدى نساء بنى عدى بن النجار، كانت لا تتزوج إلا وأمرها بيدها، فإذا كرهت من زوجها شيئاً تركته (١)، وأم خارجة عمرة بنت سعد البجلية، ومارية بنت الجعيد العبدية، وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج السلمية، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية، والسوداء العنزية الهزانية (٢) ومنهن ماوية بنت عفزر، وقد طلقت زوجها حاتما الطائى لما تخرق فى كرمه وضاقت به (٣).

وقد ورد فى الشعر ما يثبت ذلك، قالت امرأة من بنى جذيمة بن عامر وقد أوقع بهم خالد ابن الوليد بالغُمَيْصاء:

فكائنْ ترى بالغُمَيْصاء من فتى ... أصيب ولم يَجْرَحْ وقد كان جارحاً
ألظَّتْ بخُطَّاب الأيامَى وطلَّقَتْ ... غداتئذٍ منهن من كان ناكحاً (٤)

ويقول عبيد بن الأبرص لزوجته:

وعيشى بالذى يغنيك حتى ... إذا ما شئت أن تَنْأَى فبينى (٥)

ويقول الشنفرى:

إذا ماجئت ما أنهاك عنه ... ولم أنكر عليك فطلقينى (٦)

وحتى على فرض أن هذا تهكم من الرجل فإنه دليل على أن للمرأة أن تطلب الطلاق.

٢ — وكان للمرأة أن تطلب الطلاق، فلم تكن كغيرها من نساء الأمم المعاصرة لا رأى لها ولا اختيار. وهى إما أن تطلب الطلاق بالاختلاع كما سبق، وإما أن تطلق بغير اختلاع كما حدث عبيد بن الأبرص عن زوجته:

تلك عرسى غضبى تريد زيالى ... ألبين تريد أم لدلال
إن يكن طَبُّك الفراقُ فلا أحفـ ... ـل أن تعطفى صدور الجمال (٧)

وكما حدث سعيد بن عمرو بن نفيل عن زوجتيه:

تلك عرسای تنطقان على عمـ ... ـد لى اليوم قول زور وهَتْر

---

(١) الأغانى ١٣/١١٩ والميدانى ١/٣١٨
(٢) الأغانى ١٦/٩٩ وذيل الأمالى ١٥٣
(٣) الميدانى ١/٣١٨ والمحبر ٣٩٨
(٤) سيرة ابن هشام ٤/٥٧ ومعجم البلدان ٦/٣٠٧ ألظت: لزمت. الغميصاء: موضع قرب مكة
(٥) ديوان عبيد القصيدة ١٣
(٦) الوحشيات لأبى تمام ٢٧ مخطوط وأخبار النساء ٥٤
(٧) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١٩٩

سالتانى الطلاق أن رأتا ما لى قليلا قد جئتما بنُكْر[١]

ويقول أبو قُرْدُودة :

كُبَيْشة عِرْسى تريد الطلاقا وتسألنى بعد وَهْنٍ فراقاً[٢]

وقد سألت ضُباعة بنت عامر بن قرط زوجها عبد الله بن جدعان أن يطلقها ، لأنه كان كبيراً وعاشت معه زماناً لا تلد ، ولأن هشام بن المغيرة المخزومى أغراها بطلب الطلاق ، فقال لها عبد الله : أخاف أن تتزوجى هشام بن المغيرة ، قالت : لا أتزوجه . قال : فإن فعلت فعليك مائة من الإبل تنحرينها بين إساف ونائلة ، وتغزلين لى خيطا يقطع مابين الأخشَبَيْن ، وتطوفين بالبيت عريانة . فأرسلت إلى هشام تخبره ، فأرسل إليها : ما أيسر ما سألك ، ومايَلْويك هذا ، وأنا أيسر قريش فى المال ، ونسائى أكثر نساء رجل من قريش ، وأما طوافك بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشاً أن يخلوه لك ساعة ، فلا تأبَىْ عليه . فقالت لزوجها ، فإن تزوجت هشاماً فعلىَّ ما قلت . فطلقها ، فتزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجُزُر ، وجمع نساءه فنسجن ثوباً يسع مابين الأخشبين ، ثم طافت بالبيت عريانة[٣].

على أن المرأة كانت لبقة فى تصرفها بعصمتها ، لاتطلق زوجها حماقة وهوى ، وإنما كانت تحرص على رباط الزوجية ، لاتفصمه إلاإذا لم تجد بدا من فصمه ، يدل على ذلك أن هؤلاء اللائى كانت العصمة بأيديهن لم يتلاعبن بها ، يدل على ذلك أن ماوية لم تطلق حاتما إلا بعد ما يئست من كفه عن التخرق فى كرمه ، ولخشيتها على مستقبلها ومستقبل بنيها إن أنجبت منه[٤]. ويدل على ذلك أن رجلا من آل أبى طالب غضب على امرأته يوماً فقال لها : أمرك بيدك . فقالت : أما والله لقد كان فى يدك عشرين سنة فحفظته وأحسنت صحبته ، فلا أضيعه إذ كان فى يدى ساعة من نهار ، وقد رددت عليك حمقك . فأعجبه قولها وأحسن صحبتها[٥] .

٣ — ثم جاء الإسلام فأبقى على حق المرأة فى الطلاق إذا اشترطته على الزوج . وإلى ذلك ذهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة[٦]، وأباح لها أن تختلع ، وأن تطلب التفريق لعيب فى الزوج ، أو لامتناعه عن الإنفاق ، أو لسوء عشرته ، أو لغيبته الطويلة[٧] ، وأباح للتى زوجت صغيرة أن تفسخ زواجها عند بلوغها ، أو أن تمضيه[٨] .

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٩ وفى الأغانى ١٦/٦٠ أنه نبيه بن الحجاج

(٢) الحيوان للجاحظ ٥/٤٦٣ هارون

(٣) الإصابة ٨/١٣٣ و ٤/٣٥٣ ورسالة القيان للجاحظ ٥٧ وأشعار النساء للمرزبانى ٢٤

(٤) الأغانى ١٦/١٠٢ (٥) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢ (٦) عيون المسائل ١٦٩

(٧) عيون المسائل ٢٠٥ . (٨) عيون المسائل ٧٧

والفكرة العامة التى تستنبطها أن الإسلام أبقى على بعض النظم العربية الصالحة فى الطلاق، وأبطل الإيلاء على أنه طلاق ، وحرم الظهار ، وصان للمرأة حقها فى الطلاق إذا كانت قد شرطت ذلك على زوجها ، ثم إنه بغض الطلاق إلى الرجال ، فقد ورد فى القرآن الكريم : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »(١) و « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة »(٢) و « إن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما »(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق(٤) ، وقال أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة(٥) ، وذهب الفقهاء إلى أنه قد يكون محرماً وقد يكون مكروهاً(٦) ، كما أنه قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً(٧).

وما من شك فى أن الطلاق نظام طبيعى لا مفر منه أحياناً ، وليس أدل على ذلك من لجوء بعض المسيحيين إليه ، « والأفضل أن يقتصر الإنسان على امرأة واحدة لا يبدلها ولكن قد يحدث زواج غير موفق ، فعلينا أن نسن قوانين تخول الرجل أن يفصم هذه الزيجة التى لا مندوحة من تغييرها ، مراعاة لصالحه وصالح المجتمع »(٨).

حسرة بعد الطلاق

قد يثور الزوج ، وقد تهتاج المرأة ، وقد تنزل بهما عارضة فيفترقان ، وهذه حال طبيعية لا منجاة منها ، فإذا ما وجدنا الرجل يندم على الطلاق ويتحسر على سعادة قد ذهبت ، وإذا ألفينا المرأة المطلقة تُثنى على زوجها ، وتأسف على صلة قد انقطعت كان لنا أن نوقن بأن العلاقة الزوجية فى العصر الجاهلى كانت وطيدة الدعامة ، علية المكانة .

١ — أما الزوج فكثيراً ما حزن وندم ، وإذا كانت أخبار حزنه وندمه أكثر من أخبار المرأة فذلك لأنه هو المطلِّق فى الأعم الأغلب ، ثم لأنه لا يخجل من البوح بما يمضه من الألم والندم والحنين إلى زوجته التى طلقها ، أما الزوجة فإنها فى موضع المرغوب عنها ، فلا تكشف عن حسرتها وندمها ، وهى إلى ذلك تستحى أن تعلن توجعها وتلهفها على أن تعود .

---

(١) النساء ١٩ (٢) الطلاق ١ (٣) النساء ٣٥
(٤) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٣٢٢ (٥) حجة الله البالغة للدهلوى ٢/١٠٣
(٦) المبسوط للسرخسى ٦/٢ (٧) عيون المسائل ١٤٧
(٨) The Psychology of Marriage P. 240 Walter M. Callichan

كانت أم أوفى زوجة زهير بن أبى سلمى ، وقد ولدت له أولاداً ماتوا ، ثم تزوج فغارت ، وطلبت الطلاق فطلقها ، لكنه حسب أنها ملته لطول عشرتها له ، وأقسم أنه حسير النفس لفرقتها ، وهى لا تبالى بالفرقة ، وأوصاها ألا تتقول عليه لآلها فتدعى أنه أساء عشرتها ، ثم ذكرها بما كان بينهما من صلة الأولاد والمودة ، وبرعايته لها وتمتيعها :

لعمرك والخطوب مُغَيِّرات ... وفى طول المعاشرة التقالى
لقد باليتُ مظعنَ أم أوفى ... ولكنْ أم أوفى لا تبالى
فأما إذا ظعنتِ فلا تقولى ... لذى صِهْرٍ أُذِلْتِ ولم تُذالى
أصبتُ بنىَّ منك ونلتِ منى ... من اللذات والحُلل الغوالى (١)

وكان لسلمى بن ربيعة زوجة ، وقد فارقته لأنه يستهلك ماله ، ويعرض نفسه للمعاطب ، ولحقت بقومها ، فأخذ يتلهف عليها ويتحسر ، ويبكى بكاء حاراً :

حلَّت تُماضر غُرْبَةً فاحتلت ... فَلْجًا وأهلك باللِّوى فالحَلَّة
وكأن بالعينين حب قرنفل ... أو سنبلا كحلت به فانهلّت (٢)

وقد تهيب أبو قُرْدودة أن يطلق لأنه يحب زوجته الحسناء ، فلا يطيق صبراً على فراقها ، ولكنها أصرت على الفراق فآلمته وأبكته :

كُبَيْشة عرسى تريد الطلاقا ... وتسألنى بعد وَهْن فراقا
كبيشة إذ حاولتْ أن تبيـ ... ـنَ يستبقُ الدمع منى استباقا
وقامت تريك غداة الفراق ... كَشْحًا لطيفا وفخذا وساقا
ومنسدلا كمثانى الحبال ... توسعه زَنْبَقًا أو خِلاقا (٣)

ولما تحايلت على عروة بن الورد امرأته ولحقت بأهلها أرق لما شام البرق من ناحيتها ، ودعا لدارها بالسقيا ، وتحسر وتذكر ، وتغزل فيها :

أرقت وصحبتى بمضيق عَمْقٍ ... لبرق من تهامة مستطير

---

(١) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغانى ٩/ ١٥٠ ساسى (٢) شرح التبريزى للحماسة ٢/ ٥٥ غربة : دار بعيدة . الحلة : موضع فى بلاد بنى ضبة . فلج : واد فى طريق البصرة وبين الحلة وفلج مسير عشر . القرنفل والسنبل : من أخلاط الأدوية التى تحرق العين وتسيل دموعها .

(٣) الحيوان للجاحظ ٥/ ٤٦٣ هارون . منسدلا : شعرا مسترسلا . الزنبق : دهن الياسمين . قال الأزهرى وأهل العراق يقولون لدهن الياسمين دهن الزنبق . الخلاق : ضرب من الطيب وهو الخلوق .

سقى سَلمى وأين ديار سلمى ... إذا كانت مُجَاورَة السرير
إذا حلت بأرض بنى علىٍّ ... وأهلى بين إمَّرَةٍ وكير
ذكرت منازلا من أم وهب ... محل الحى أسفل من نقير
وأحدثُ معهد من أم وهب ... مُعَرَّسنا بدار بنى النضير
وقالوا ما تشاء فقلت ألهو ... إلى الإصباح آثرَ ذى أثير
بآنسة الحديث رُضابُ فيها ... يُعيدُ النوم كالعنب العصير
سقونى الخمر ثم تكنفونى ... عداةُ الله من كذب وزور
وقالوا لست بعد فداء سلمى ... بمغنٍ ما لديك ولا فقير
فيا للناس كيف غلبتُ نفسى ... على شىءٍ ويكرهه ضميرى (١)

ولقد يأسى بعض الأزواج إرعاءً على ولده من مطلقته ، لا حسرة على الزوجة ، لأنها ذات شغب وصخب ، يقول الغَزْر لما فارقته زوجته الناقمية .

أجدَّ فراق الناقمية فانتوت ... أم البينُ يَحْلَوْلِى لمن هو مولع ؟
لقد كنت أهوى الناقمية حقبة ... وقد جعلت أقران بين تَقطَّع
فلولا بُنَيَّاها هُبَيْرةُ إنه ... بُنَىَّ الذى يَشْفى سقامى، وصَعْصع
لكان فراق الناقمية غبطة ... وهان علينا وصلها حين يُقْطع (٢)

بل لقد بلغ الحزن بعبد الله بن العجلان لما طلق زوجته هند ثم تزوجت غيره أن مات أسفاً عليها ، ذلك بأن أباه اضطره إلى تطليقها اضطراراً فقال :

فارقتُ هنداً طائعاً ... فندمت عند فراقها
فالعين تذرى دمعها ... كالدر من آماقها
متحلّباً فوق الرداء ... يحول من رَقْراقها (٣)

---

(١) الأغانى ٢/٧٧ الدار وديوان عروة ١١ والشعر والشعراء ٢٦٠ مضيق عمق : موضع قرب المدينة . السرير : موضع ببلاد بنى كنانة . امرة : منزل فى طريق مكة من البصرة . كير : جبل بأرض غطفان . نقير : موضع بين هجر والبصرة . آثر ذى أثير : أول كل شىء .

(٢) أمثال العرب الضبى ٢٢ . يحلولى : يحسن . هبيرة وصعصع : ولداه منها .

(٣) الأغانى ١٩/١٠٢

وقال :

فما مُعْوِلٌ تبكى لفقد أليفها ... إذا ذكرتْهُ لا يكف زفيرها
بأغزر منى عَبْرَةً إذ رأيتها ... يُحَثّ بها قبلَ الصباح بعيرها(١)

وله فيها غزل وحنين كثير (٢) . وكذلك حزن عمرو بن شاس لما طلق زوجته (٣) ، وحسان بن ثابت إذ طلق امرأته عمرة (٤) .

٢ — وما زال بعض الرجال يأسون بعد الطلاق إلى الإسلام ، من هؤلاء عبد الله ابن أبى بكر ، كان قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل ، وكانت من أجمل نساء قريش ، فلما دخل بها غلبته على عقله ، وأحبها حباً شديداً ، فأمره أبوه أن يطلقها ففعل بعد لأى ، ثم جزع جزعا شديداً ، حتى عاف الطعام والشراب ، وأنشد :

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير شىء تُطَلَّق
لها خُلُق سمح ورأى ومنصب ... وخُلْق سوىٌّ فى الحياة ومصْدَق
أعاتك لا أنساك ما هبت الصَّبا ... وما ناح قمرى الحمام المطوَّق
أعاتك لا أنساك ما حجّ راكب ... وما لاح نجم فى السماء محلِّق
أعاتك قلبى كلَّ يوم وليلة ... إليك بما تخفى الصدور معلَّق
ولولا اتقاء الله فى حق والدى ... وطاعته ما كان منا التَّفرُّق

فبلغ أبا بكر شعره ، فأمره فراجعها (٥) ، وفرح بمراجعتها ، وفاضت فرحته شعراً طروبا كما فاض حزنه من قبل شعراً غضوبا(٦) .

٣ — أما الزوجة فقد أثر عنها أحيانا ما ينبىء عن عرفانها جميل زوجها ، وتقديرها حسن عشرته بعد الطلاق ، فمثلا أغار عروة بن الورد على مزينة ، وأصاب منهم امرأة اسمها سلمى ، فاستاقها وأعتقها واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ،

---

(١) الأغانى ١٩/١٠٤ (٢) الأغانى ١٩/١٠٢ — ١٠٥ (٣) جمهرة الأمثال ١٧٣
(٤) الأغانى ٣/١٤ الدار (٥) المردفات من قريش للمدائنى من نوادر المخطوطات ٦٢ ونزهة الأبصار والأسماع ١٣ وأسد الغابة ٥/٤٩٨ والاستيعاب ٢/٧٦٨ والأغانى ١٦/١٢٨
(٦) المردفات من قريش ٦٢

ثم كرهت أن تكون سبيّاً ، وأن تنادى بأنها أمة عروة ، فاحتالت على عروة حتى أتت قومها ، فاختارتهم ، فطلقها عروة ، فأقبلت عليه قائلة : « يا عروة أما إنى أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفا ، وأقل فحشاً ، وأجود يداً ، وأحمى لحقيقـــة ، وما مر علىّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلىّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر فى وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشدا إلى ولدك وأحسن إليهم »[1] .

وكذلك لما أسلم قيس بن عاصم ، وعنده امرأة من بنى حنيفة — أبى أبوها وأهلها أن يسلموا ، وخافوا إسلامها ، وأقسموا أنها إن أسلمت لم يكونوا معها فى شىء ما بقيت — طالبته بالفرقة ، ففارقها ، فلما احتملت لتلحق بأهلها أثنى عليها بقوله : « أما والله لقد صحبتنى سارّة ، ولقد فارقتنى غير عارّة ، لا صحبتك مملولة ، ولا أخلاقك مذمومة ، ولولا ما اخترت ما فرق بيننـا إلا الموت ، ولكن أمر الله ورسوله أحق أن يطاع » . فقالت له : « أنبئت بحسبك وفضلك ، وأنت والله إن كنت للدّائم المحبة ، الكثير المودة ، القليل اللائمة ، المعجب الخلوة ، البعيـد النبوة ، ولتعلمن أنى لا أسكن بعدك إلى زوج » فقال قيس : « ما فارقت نفسى شيئا قط فتتبعته كما تتبعتها[2] » .

العـــدة

عرف العرب الطلاق ، وجروا على طرق عدة فى ايقاعه ، ولم تقف بهم معرفتهم عنـد ذلك ، بل قرروا العدة بعد الوفاة استبراء للرحم ، وحداداً على الزوج ، « وكانت مشهورة معلومة فى الجاهلية ، لا يكادون يتركونها »[3] ، يدل على ذلك ما ذكره البخارى أن امرأة توفى عنها زوجها ، فخشوا على عينيها ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنوه فى الكحل ، فقال : « لا تكتحل ، قد كانت إحداكن تمكث فى شر أحلاسها (أو شر بيتها)

---

(١) الأغانى ١٨٥/٢ ساسى

(٢) الأغانى ١٤٩/١٢ (٣) تفسير القرطبى ١٢٦/٣ وحجة الله البالغة ١٠٦/٢

فإذا كان حولٌ فمر كلب رمت ببعرة . فلا ، حتى تمضى أربعة أشهر وعشراً »[١] . وتفصيل ذلك أن المرأة كانت إذا توفى عنها زوجها دخلت حِفْشاً ولبست شر ثيابها ، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم تؤتَى بدابة : حمار أو شاة أو طائر ، فتفتض به ، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره . وكانت ترمى بالبعرة أمامها ، فيكون ذلك ، احلالاها ، أو ترمى بها كلبا أو غيره ، لترى من حضرها أن مقامها حولا أهون عليها من بعرة ترمى بها كلبا أو غيره ، أو أن رمى البعرة إشارة إلى رميها العدة كما ترمى البعرة [٢] .

وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، لقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » [٣] وهذه المدة كفيلة ببيان الحمل إن كان حمل .

أما المطلقة فقد ذكر أنها كانت تعتد فى الجاهلية ، ولكن لم يرد تفصيل لطريقة عدتها ، وأجلها . وذكر أيضا أنها كانت لا تعتد ، وأن بعض النساء ولدن من أزواجهن الأولين وهن فى عصمة الآخرين [٤] . ويعزز ذلك أن عمر رضى الله عنه بلغه أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف فى عدتها ، ففرق بينهما ، وعاقبهما ، وقال : لا تنكحها أبداً ، وجعل الصداق فى بيت المال ، وعلم علىٌّ ذلك ، فقال : رحم الله أمير المؤمنين ، ما بال الصداق وبيت المال ؟ إنما جهلا ، فينبغى أن يردهما إلى السنة . قيل : فما تقول أنت فيهما ؟ قال : لها الصداق بما استحل من فرجها ، ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما ، وتكمل عدتها من الأول ، ثم تعتد من الثانى عدة كاملة ثلاثة أقراء ، ثم يخطبها إن شاء . فبلغ ذلك عمر ، فخطب الناس بقوله : أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنة [٥] .

لكنى أرجح أن ترك العدة كان جهلا ، وأن الحوادث التى كانت فيها ولادة من الأول على فراش الثانى قلة ، منشؤها الجهل أو الانخداع بأنه لاحمل من الزوج الأول .

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٣/٢٥٧ وفتح البارى ٩/٤٢٨

(٢) فتح البارى ٩/٤٢٨ والتجريد الصريح ٣/٢٥٧ الحفش : البيت الصغير . الأحلاس : ج حلس وهو الثوب أو الكساء الرقيق . تفتض به : تمسح به جلدها . قال ابن قتيبة : سألت الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماء ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض أى تكسر ما هى فيه من العدة تمسح به قبلها وتنبذه فلا يعيش بعدما تفتض به

(٣) البقرة ٢٣٤ (٤) المحبر ٣٣٨ (٥) تفسير القرطبى ٣/١٩٤

الفصل الثالث

البنت

كشفت الدراسة السابقة للأم وللزوجة عن مكانة عالية للمرأة فى المجتمع العربى ، وعن تفوقها على غيرها من معاصراتها .

فكيف صور الشعر الجاهلى البنت ؟ وما مكانتها التى رسمها لها ؟

حب بعضهم للبنات

١ — الفكرة الشائعة إلى الآن أن البنات كن بغيضات إلى الآباء جميعاً ، ولكن فى هذا الحكم بعض الحيف ، لأن كثيراً من الآباء كانوا يحبون بناتهم ويعزونهن ، ويحدبون عليهن ، فقد دخلت أم الحكم على أبيها الزبير بن عبد المطلب ، فهش لها ، وقال :

يا حبذا أم الحكمْ كأنها ريمٌ أجمّ[1]

يا بعلها ماذا يَشم ساهَمَ فيها فسهمْ

وكان لمعن بن أوس — الشاعر المخضرم — ثلاث بنات ، وكان يؤثرهن ويعتز بهن ولا يحب أن يكون له بهن رجال ، لأن فى الإناث من هن أصلح من الذكور ، ولأنهن وفيات لآبائهن ، يمرضنهم إذا مرضوا ، ويعدنهم إذا سقموا ، وينحن عليهم إذا ماتوا :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهن لا تُكْذَبْ نساء صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملنه ونوائح[2]

ويقول حسان بن الغدير فى تحبيب البنات :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البواكى والجُيُوبُ النواصح[3]

ويتجلى حب الأب لابنته فى قول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية لما خطب إليه بنته عميرة : يا صعصعة إنك أتيتنى تشترى منى كبدى ، وأرحَمَ ولدى عندى ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب[4] . وفى قول عتبة لابن أخيه عثمان بن عنبسة

---

(١) الأمالى ٢/١١٧ أجم : ليس له قرنان وفى رواية الأمالى أحم . يشم : يختبر . ساهم فسهم : قارع فقرع وغلب . (٣) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦٧ ومحاضرات الأدباء ١/٢٠٤ والأغانى ١٠/١٥٧ (٣) المؤتلف والمختلف ١٦٤ (٤) العقد الفريد ٣/٢١٠ ومجمع الأمثال ١/٢٨٦

وقد خطب إليه ابنته : مرحباً بابن لم ألده ، أقرب قريب خطب إلىّ أحب حبيب . . . . قد زوجتكها وهى أَلْوَطُ بقلبى ، فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تهنها فيصغر عندى قدرك[1] .

ولقد يتجلى حب الأب لابنته فى خشيته عليها من الحزن بعد موته ، فمثلا تخوف لبيد أن تخمش بنتاه الوجه ، وتحلقا الشعر ، تفجُّعاً عليه إذا مات ، ونصحهما ألا تماديا فى الحزن وأن ترضيا بقضاء الله :

تمنَّى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
وفى ابنَىْ نزار أسوة إن جزعتما ... وإن تسألاهم تخبرا منهم الخبر
فإن حان يوم أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا حليفه ... أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر[2]

بل روى ما يدل على عطف الأب على ابنته وهو يجود برمقه ، فإنه لما طعن لقيط بن زرارة يوم شعب جبلة بقى يوماً ثم مات ، وجعل يقول عند موته :

يا ليت شعرى عنك دُخْتَنُوس ... إذا أتاها الخبر المرْموس
أتحلق الرأس أم تميس ... لا بل تميس إنها عروس[3]

وكأنما لم يجد جَحْدر بن ضبيعة ما يوثق به قسمه على الجلاد والكفاح حين تشتجر السيوف والرماح غير أن يدعو على ابنته باليتم ، قال فى يوم التحاليق — من أيام البسوس لبكر على تغلب — :

قد يَتِمَتْ بنتى وآمت كَنَّتى ... وشَعَثَتْ بعد ادِّهانٍ جُمَّتى
ردّوا علىَّ الخيل إن ألمت ... إن لم أناجزها فجزوا لِمَّتى[4]

على أن البنت كانت مدللة فى صغرها ، تلعب بالعرائس والدمى ، وتحلَّى بما تحلَّى به البنات ، قال امرؤ القيس :

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/١٢٣

(٢) ديوان لبيد ١ والأغانى ١٤/٩٨ (٣) الأغانى ١٠/٣٨ ساسى (٤) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٣٣ والمرزوقى ٢/٥٠٧ الكنة : زوجة الأخ أو الابن والمراد هنا امرأته هو . ادهان : المراد به هنا دهان الرأس والعناية بالشعر وفى رواية التبريزى بعد الرهان وهو تحريف .

وهى إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوارٍ من لعب[١]

٢ — ثم جاء الإسلام فزادهن عزازة ، فقد أوصى بهن النبى خيراً ، كقوله : من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار . وقوله : من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله تعالى الجنة . وله فى هذا أحاديث شتى[٢] .

وجاء فى حديث عن السيدة عائشة أنها كانت تلعب مع الجوارى بالبنات (التماثيل الصغار يلعب بها) بعد زفافها فإذا دخل رسول الله خرجن ، وإذا خرج دخلن ، وقد قدم رسول الله من غزوة تبوك ، فوجد فى سترها بنات لها ، فقال : ما هذا ؟ قالت : بناتى . ورأى بينهن فرساً له جناحان ، فقال : ماذا أرى وسطهن ؟ قالت : فرس ، قال : وما هذا الذى عليه ؟ قالت : جناحان . قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه[٣] .

وكانت قبل زفافها تلعب على المرجوحة[٤] ، وأرجح أنها كانت تلعب بالدمى فى بيت أبيها ثم استأنفتها فى بيت الرسول .

وروى عن أم زينب بنت نبيط بن جابر أن رسول الله حلّى أمها وخالتها برعاث من ذهب ولؤلؤ[٥] .

وكان رسول الله المثل الأعلى فى العطف على البنات ، كان يصلى وهو يحمل على عاتقه حفيدته أمامة بنت أبى العاص[٦] ، وكان يقبل بنته السيدة فاطمة إذا قدم من سفره ، وكان يكنيها بأمه[٧] .

وقد رفض بعض الآباء أن يزوجوا بناتهم إلا بعد الاستيثاق من الزوج ألا يجمع الضرة ، كما سبق .

وكذلك رفض رسول الله أن يتزوج علىّ بن أبى طالب ضرة على ابنته لأنه كان يغار على بناته غيرة شديدة ، ذلك أنه لما علم أن علىّ بن أبى طالب يريد أن يتزوج على فاطمة غضب وصعد المنبر وقال : إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنوا فى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم

---

(١) ديوان امرىء القيس ٥٥ والكنز الثمين ١٩٦

(٢) تيسير الوصول ١/٤٧ وكنز العمال ٨/٢٧٧

(٣) سنن أبى داود ٢/١٩٧ و٢٠١ والإحياء ٢/٣٤٥ وربيع الأبرار للزمخشرى والقاموس المحيط والصحاح والطبقات ٨/٤٠ (٤) الطبقات ٨/٤٠ (٥) الإصابة ٨/٤٧ وأسد الغابة ٥/٤٢١ و٥٨٥ (٦) الإصابة ٨/١٤ وهى بنت بنته زينب (٧) أسد الغابة ٥/٥١٩ والإصابة ٨/١٥٧

لا آذن . ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنما هي بُضْعة مني ، يُريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما آذاها[١] .

وقد اقتدى به كثير من المسلمين فى عطفه على البنات مثل حِطان بن المعلّى فى قوله :

لولا بُنيّات كزُغْب القَطا ... رُدِدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرَبٌ واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عينى من الغمض[٢]

ويشبهه فى حدبه أبو خالد القنانى[٣] واسحق بن خلف[٤] والمرار بن منقذ[٥] على أن هؤلاء جروا أيضا على عرق من حدب الآباء فى الجاهلية ، إذ ليس من الطبيعى أن يبدل الإسلام طباع العرب من النقيض إلى النقيض فى برهة من الزمن ، فيسلخهم من حباتهم الأولى سلخاً فى بضعة أعوام ، لأن خروج الأفكار من عقول الجماعة صعب كدخولها[٦] ، فلا بد للانسلاخ من عاداتهم الأولى من زمان طويل يكفل تحولهم فى تؤدة .

لذلك لم يكن عجبا أن أحب العرب البنات ، وعطفوا عليهن . ولم يكن عجبا أن أبغضهن بعضهم حتى فى الإسلام كما سيجىء .

على أنهم ما كانوا يتيمنون بالبكر الذكر ، فإن كان البكر ابن بكر تشاءموا به ، وإن كان ابن بكرين فهو فى الشؤم مثل قيس بن زهير ، فإنه كان أزرق وبكراً ابن بكرين . ثم إنهم كانوا يحبون أن تبكر البكر بجارية[٧] .

ويعلل الجاحظ لذلك بأنهم كانوا لا يعنون بحياة الولد البكر كما يعنون بحياة الثانى ، فهم يؤثرون أن تبكر البكر بجارية ، لشدة خوفهم على الذكر . ولكن هذا التعليل لا يتفق

---

(١) فتح البارى ٩/٢٨٦ وسنن أبي داود ١/٢٠٦ وأسد الغابة ٥/٥٢١ والإصابة ٨/١٥٧
(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٨٧ (٣) المرزوقى ١/٢٨٤ (٤) المرزوقى ١/٢٨٢
(٥) المفضليات ١/٨٩
(٦) روح الاجتماع . جستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩
(٧) الحيوان للجاحظ ٣/١٧٤ هارون

مع قوله إنهم كانوا يتشاءمون بالبكر (الذكر) وإنهم كانوا أشد تشاؤما بالبكر ابن البكر وابن البكرين ، فالعلة إذا تشاؤم لا خوف على الوليد .

ولقد يكون مبعث تشاؤمهم أنهم اعتقدوا أن ابن البكر أو البكرين يجيء فى شرخ شباب والديه وفورتهما فيرث عنهما نزقا لا يصح أن يوصف به الرجل ، أما الأنثى فإن طبيعتها السالبة تخفف من حدة النزق والرعونة .

تمدح تكريماً لأبيها

كانت البنت تكرم مرضاة لأبيها ، وتعظيما له ، ولم يمدحها المادح إلا لأنه يعلم عزازتها على أبيها ، وأن مدحها تبجيل له . يدل على ذلك أن أوس بن حجر كان قد سقط من فوق ناقته ، وآواه فضالة بن كلدة ، وكانت تمرضه حليمة بنت فضالة حتى برئ ، فقال :

لعمـــرك ما ملت ثواء ثويها ... حليمة إذ ألقى مراسىَّ مقعدى
ولكن تلقت باليـــدين ضمانتى ... وحَلّ بشَرْج فالقبائل عُوَّدى
ولم تلهها تلك التكاليف أنها ... كما شئت من أكرومة وتخَوُّد
سأجزيك أو يجزيك عنى مُثَوِّبٌ ... وقَصْرُك أن يثنى عليك ويحمد[1]

ولما أغار النعمان بن وائل بن الجُلَاح الكلبى — قائد الحارث بن أبى شمر — على بنى ذبيان ، وسبى سبيا من غطفان ، وأخذ عَقْرَب بنت النابغة ، سألها من أنت ؟ فقالت : أنا بنت النابغة ، فقال لها . والله ما أحدٌ أكرم علينا من أبيك ، ولا أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلاها ، ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا ، فأطلق له سبى غطفان وأسراهم ، فقال النابغة فى مدحه :

يقودهم النعمان منـــه بمُحْصَفٍ ... وكَيْد يغم الخارجىَّ مُناجد
فآب بأبكار وعُونٍ عقائل ... أوانس يحميها امرؤ غير زاهد
غـــــرائر لم يلقين بأساء قبلها ... لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافد
أصاب بنى غيظ فأضحوا عباده ... وجللها نُعْمَى على غير واحد
فسكّنتَ نفسى بعدما طار روحها ... وألبستنى نُعْمَى ولستُ بشاهد[2]

(١) الأغانى ١٠/٧ ساسى . (٢) شعراء النصرانية ٦٦٨

يعتد أبوها برأيها وبجوارها

١ — أليست استشارة الرجل لابنته دليلا على إعزازها وتقديرها ؟ لقد كان أبوها يستشيرها فى زواجها كما سبق ، وكان يستشيرها أيضاً فى أموره الخاصة ويستصوب رأيها . هكذا كان يفعل لقيط بن زرارة ، فيرجع إلى رأى ابنته دختنوس ، ويستصحبها معه فى غزواته ، ويرجع إلى رأيها[١] . وهكذا كان يفعل عامر بن الظرب ، فقد كانت ابنته عَمْرة تقرع له العصا إذا سها فى الحكم ، وفيه يقول المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما[٢]

ولقد بلغ بالبنت حسن الرأى وعلو القدر إلى أن تصلح ما بين أبيها وجدها ، كما فعلت الجُمانة بنت قيس بن زهير العبسى ، إذ قالت لأبيها لما تنازع مع حميه الربيع بن زياد العبسى فى درع لقيس اغتصبها الربيع : دعنى أناظر جدى ، فإن صلح الأمر بينكما وإلا كنت من وراء رأيك . فأذن لها ، فأتت جدها الربيع فقالت : إذا كان قيس أبى فإنك جدى ، وما يجب من حق الأبوة علىّ إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعثه العناية ، وتجلى عن محْضه النصيحة . إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادى أظلم ، وليس قيس ممن يخوف بالوعيد ولا يردعه التهديد ، فلا تركن إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ، والحرب متلفة ، والسلم أرخى للبال . ثم قالت :

أبى لا يرى أن يترك الدهرَ درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى
فرأى أبى رأىُ البخيـــل بماله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

فرق جدها ورد الدرع إلى أبيها وتصافيا[٣] . ولكن الصفاء كان مؤقتا لأن أسبابا أخرى أشعلت الحرب بينهما[٤] .

٢ — وإذا أجارت نفذ أبوها إجارتها ، ولو أنها تشعر بضعتها ما أجارت ، ولو أن أباها لا يعتد بها ما أمضى إجارتها . من ذلك أن عمرو بن عبد الملك طلب مروان بن زنباع العبسى ، فخرج هاربا حتى أتى أبيات بنى شيبان ، فلجأ إلى أعظمها — وكان لجماعة بنت

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢١٢ (٢) الأغاني ٥/٣ الدار ولسان العرب مادة قرع
(٣) بلاغات النساء لابن طيفور ١٢٥ (٤) الأغاني ١٦/٢٨ وشعراء النصرانية ٩٢١ والكامل لابن الأثير ١/٢٠٤

عوف الشيبانى — فاستجارها ، فأجارته ، ثم لحقته خيل عمرو ، فبعثت جماعة إلى أبيها أنها قد أجارته ، فحماه من مطارديه[١] . وكذلك أجارت فُكيْهة بنت قتاد السليكَ بن السُّلَكة من بعض قومها ، فلما أدركوه قامت دونه ، وكشفت خمارها عن شعرها ، وصاحت بإخوتها فجاءوها ، ودفعوا عنه حتى نجا من القتل ، فمدحها السليك بقوله :

لعمر أبيـــك والأنبـاء تَنْمى لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الْخفرات لم تفضح أباها ولم ترفـــع لإخوتهـا شَنارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا[٢]

٣ — وقد أبقى الإسلام على حقها فى الإجارة ، لأنها تكريم لها وإعزاز ، من ذلك أنه لما أسر أبو العاص بن الربيع فى غزوة بدر ، وشرعت قريش تفدى أسراها ، بعثت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم — وكانت بمكة — بمال فى فداء زوجها أبى العاص ، وفيه قلادة لها كانت السيدة خديجة أدخلتها بها على أبى العاص — وهو بن أختها — ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا . فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه ، وردوا عليها الذى لها . ثم فرق الإسلام بينهما ، وجاءت زينب إلى المدينة . وبعد مدة قابلت سرية لرسول الله أبا العاص عائداً من الشام ، فأصابوا ما معه ، وهرب منهم ، ولكنه أقبل فى الليل حتى دخل على زينب فاستجار بها ، فأجارته . وفى صلاة الصبح صرخت من صُفة النساء : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلم رسول الله أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف فدخل على ابنته ، فقال لها : أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له . ثم أسلم أبو العاص ، فرد عليه رسول الله زينب بالنكاح الأول ، ورد عليه ماله[٣]

وفى الإسلام أيضاً أجارت أم هانىء بنت أبى طالب رجلين من أحمائها ، فأجارهما النبى صلى الله عليه وسلم .[٤]

---

(١) أخبار النساء لابن قيم ٦٥ (٢) المحبر ٤٣٣ والأغاني ١٨/١٣٧ والمحاسن والأضداد ٥٥
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٧ و٣٠٤ وتاريخ الطبرى ١/٢٩١ وتاريخ اليعقوبى ٢/٧٣ والإصابة ٨/٩٢ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٠ (٤) سيرة ابن هشام ٤/٣٠ .

كنايته باسمها

ومن مظاهر تقدير البنت وعزازتها أن الآباء كثيراً ما كانوا يُكنَون بأسماء بناتهم كما يكنون بأسماء أبنائهم . يقول أوس بن حجر مفتخرا بنصرهم وببسالة أبى ليلى :

وجاءت سُلَيْمٌ قضها وقضيضها ... بأكثر ما كانوا عديدا وأوكعوا
وجئنا بها شهباء ذات أشلةٍ ... لها عارض فيه الأسنة تلمع
فردَّ أبو ليلى طفيلَ بن مالك ... بمنعرج السُّوْبان لا يَتَقَصَّع[1]

ويقول راشد بن شهاب اليشكرى فى هجاء قيس بن مسعود الشيبانى :

فمهلا أبا الخنساء لا تشتمنّنى ... فتقرع بعد اليوم سنك بالندم[2]

وأمثال هذا كثير ، مثل حذيفة — أوسهيل — بن المغيرة كان يكنى أبا أمية[3] ، وربيعة ابن رياح والد زهير اشتهر باسم أبى سُلْمَى[4] ، ووالد حنظلة الطائى كنى بأبى عفراء[5] ، ومسافر ابن أبى عمرو بن أمية كان يكنى بأبى أمية[6] ، والنابغة الذبيانى كان يسمى أبا أُمامة[7] ، ولقب معن أحد أجداد أعشى باهلة باسم بنته فسمى أبا باهلة[8] ، وكنى مالك بن عمرو بن ثابت بأنه أبو حنّة[9] ، وجابر بن أسامة الجهنى بأبى سعاد[10] ، وعمرو بن عبد الله الجمحى بأبى عزة[11] ، وحاتم الطائى بأبى سَفَّانة[12] ، وهنالك أبو أمامة[13] ، وأبو ريطة[14] وأبو آمنة[15] ، وأبو جميلة[16] ، وأبو أسماء ، وأبو كدراء العجلى[17] ، وأبو نايلة[18] ، وأبو لبابة[19] . ويظهر أن اليهود الذين عاشوا بالحجاز حاكوا العرب فى ذلك ، لأن أبا الحارث الذى أجلى عمر آله إلى أريحاء بفلسطين كان يسمى أبا زينب[20] .

وإذا كان الأب يكنى باسم ابنته إعزازا لها فإنه كان يتجه إليها بفخره كما كان يتجه به إلى محبوبته وزوجته . قال ثعلبة بن عمرو :

أأسماء لم تسألى عن أبيك ... والقوم قد كان فيهم خطوب

---

(١) ديوان أوس ١١ وأساس البلاغة مادة شل . أوكعوا : جاءوا بأمر شديد . أشلة . جمع شليل وهو ما يلبس تحت الدرع . لا يتقصع : لا يخرج من نقب الجبل (٢) المفضليات ٢/١٠٨
(٣) الإصابة ٨/٢٠٣ (٤) الأغانى ٩/١٣٩ (٥) الأغانى ٩/٩٨ (٦) الأغاني ٨/٤٦
(٧) الأغانى ٩/١٥٤ وخزانة الأدب ٢/٥ (٨) خزانة الأدب ١/١٣٠ (٩) الطبقات الكبير ٣/٤٥ (١٠) أسد الغابة ٥/٢٠٨ (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٩١ (١٢) أسد الغابة ٥/٤٧٥
(١٣) المعارف ٣/٢٧ (١٤) أسد الغابة ٥/١٩٨ (١٥) أسد الغابة ٥/١٣٢
(١٦) أسد الغابة ٥/١٦٠ (١٧) الوحشيات لأبي تمام ٦٢ مخطوط (١٨) المغازى ١٨٧
(١٩) المعارف ٢٥٨ (٢٠) المغازى ٢٧١

إن عَرِيبا وإن ساءنى أحب حبيب وأدنى قريب

ثم أخذ يعدد مفاخره ، ويصف مهره ونكايته بعدوه[١].

بغض بعضهم للبنات

١ — رغب كثير من العرب عن البنات ، وذاعت بغضتهم واشتهروا بها . فقد قيل لأعرابى ، ما ولدك ؟ قال : قليل خبيث ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لاعدد أقل من الواحد ولا أخبث من بنت[٢] . وقد هجر أبو حمزة الضبى خيمة امرأته حين ولدت بنتا . وكان يَقيل ويبيت عند جيرانه ، فمر بخبائها يوما ، فسمعها تتغنى لابنتها بقولها :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك فى أيدينا

وإنما نأخذ ما أُعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

فثاب إلى رشده ، وولج الخباء فقبل رأس زوجته . وقبل ابنته[٣] . وكانوا إذا هنئوا بها قالوا : آمنكم الله عارها ، وكفاكم مئونتها ، وصاهرتم القبر[٤]

وقد سجل القرآن الكريم هذه البغضة فى مواضع شتى ، قال تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون * وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء مايحكمون »[٥] وقال . « ويجعلون لله ما يكرهون »[٦] وقال . « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ، إنكم لتقولون قولا عظيما[٧] » وقال : فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون »[٨] وقال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم »[٩]. على أن بعض النساء شاركن فى هذه البغضة ، قالت امرأة محمقة إنها لاتبالى أن تلد حمقا ، لأنهم ذكور .

---

(١) سمط اللآلىء ١/٥٢ والمفضليات ٢/٥٣ (٢) اللطائف والظرائف ٦٨ ونزهة الأبصار والأسماع ٤٤ (٣) البيان والتبيين ١/١٨٦ و٤/٤٧ هارون (٤) محاضرات الأدباء ١/٢٠٤
(٥) النحل ٥٧ — ٥٩ (٦) النحل ٦٢ (٧) الإسراء ٤٠ (٨) الصافات ١٤٩ — ١٥٤
(٩) الزخرف ١٧

وما أبالى أن أكون مُحْمقه إذا رأيت خُصْيَةً معلَّقه[١]

وقالت قابلة لامرأة اسمها سحابة وقد ضربها المخاض ، وهى تُطْلق على يديها :

أيا سحاب طرِّقى بخـــير وطرِّقى بخُصْية وأَيْر
ولا تُرينا طرف البُظَـــيْر

٢ — ولم تقتصر هذه البغضة على الجاهليين ، فقد كان بعض المسلمين يبغضون البنـات ، على تنديد القرآن والحديث ببغضة أسلافهم للبنات . فليس من الإنصاف أن يوصم الجاهليون وحدهم بهذه الوصمة .

فقد رأى عمرو بن العـاص معاوية ومعه ابنته عائشة ، فقال : من هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه تفاحة البيت . فقال عمرو : انبذها عنك ، فإنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويؤرثن الضغائن . قال : لاتقل كذا ياعمرو ، فوالله مامرّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأحزان إلا هن . فقال عمرو : ما أراك إلا حببتهن إلى[٣] .

وكذلك كان عقيل بن عُلَّفة يؤثر موت البنت على أن تحيا وتتزوج ، وإن عظم الزوج وكثر المهر .

إنى وإن سيق إلىّ المهْر ألف وعبدانْ وذَوْدٌ عَشْر
أحبّ أصهارى إلىّ القبر[٤]

وكان إسحاق بن خلف البَهْرانى يود أن تموت أميمة وهو يعلم أنها كلفةٌ بحياته ، غير أنه فى تعجله موتها صور حبه لها وحدبه عليها وحزنه من بكائها عليه إذا مات .

لولا أميمة لم أجزع من العـدم ولم أُحِبْ فى الليـالى حِنْدِس الظُّلم
وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى ذلَّ اليتيمة يحفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنتُ أبكى عليها من أذى الـكلم
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزّال على الحُرَم

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦٢ السندوبى (٢) شرح الحماسة للمرزوقى ٤/١٦٨ والحيوان ٥/١٨١ تحقيق هارون والبيان والتبيين ١/١٦٣ السندوبى . طرقى : المراد بشرى بخروج الجنين
(٣) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦٨ ونزهة الأبصار والأسماع ٤٤ (٤) زهر الآداب ٢/١٧٤ تحقيق زكى مبارك ، وذكر أنه ابن علقمة ، والصـواب علفة كما فى المؤتلف والمختلف للآمدى ١٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ٣٠١ وشرح الحماسة للتبريزى ١/٢٠٩ و٣/٢٣ و٨٦ وطبقات الشـعراء لابن سلام ٥٦١

إذا تذكرت بنتى حين تندبنى فاضت لعبرة بنتى عبرتى بدم[١]

فلما ماتت قال أبياتا منها :

فالآن نمت فلا همٌّ يؤرقنى بعد الهدوء ولا وَجْدٌ ولا حُلُمُ

لِلْموتِ عندى أيادٍ لست أنكرها أحيا سرورا وبى مما أتى ألم[٢]

وعدّ عبيدالله بن عبدالله بن طاهر وسائل الستر التى يرجّيها كل أب لابنته ، وفضّل القبر عليها جميعا :

لكل أبى بنت يُرَجّى بقاؤُها ثلاثة أصهار إذا ذُكر الصِّهر

فبيت يغطيها وبعْل يصونها وقبر يواريها ، وخيرهم القبر[٣]

وروى أن الأحنف بن قيس لما بشر بابنته بكى ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

وكيف لاتأخذنى العبرة ، وهى عورة ، هديتها سرقة ، وسلاحها البكاء ، ومَهْناها لغيرى[٤]

أما أبو العلاء المعرى فكان أشد بغضة للبنات من البنين . ويرى فى دفنهن مكرمة .

وإن تعـط الأناث فأى بؤس تَبَيَّنُ فى وجـــوه مُقَسَّمات

. . . . . .

ودفنٌ والحـوادثُ فاجعاتٌ لإحداهن إحدى المكرمات[٥]

الوأد

كيف يطيق أب أن يبوىء ابنته حفرتها بيديه ؟

وأين ذهبت عاطفة الأبوة وآصرة الإنسانية وخلق الرحمة والشفقة ؟

إن الوأد صورة بشعة تستدر الدموع ، وتستثير الألم ، فكيف صبر الأب عليه ؟

وكيف احتملت الأم آلامه ؟ وهل يتفق الوأد مع ما قدمت من عزازة المرأة أماً وزوجة وابنة ؟

---

(١) فوت الوفيات لابن شاكر ١/١٠ وزهر الآداب ٢/١٧٤ (٢) زهر الآداب ١/٢٠٤ و٢/١٧٤
(٣) زهر الآداب ٢/١٧٤ (٤) محاضرات الأدباء ١/٢٠٤ (٥) اللزوميات ١/١٥١

سبب الوأد

١ — ذكر القرآن الكريم أن بعضهم كانوا يئدون مخافة الفقر أن ينزل بهم ، فيضيق وجدهم عن الإنفاق على الذكور وعلى الإناث معاً ، قال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم »(١) . وذكر أن بعضهم كانوا يئدون تخففا من الأولاد ، لأنهم عاجزون عن الإنفاق عليهم « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »(٢) . لهذا قدم الله تعالى رزق الآباء على رزق الأبناء فى مقام توقع الفقر والخشية منه فى المستقبل ، وقدم رزق الأبناء على رزق الآباء فى مقام الفقر الواقع الحادث(٣) فالأولون هم الأغنياء والآخرون هم الفقراء .

كان الوأد أثراً من آثار الفقر المتخوف أو الحادث ، لأن البيئة شحيحة بالزاد ، ضنينة بالخير ، كثيرة الفواجع والمجاعات ، ليس بها زرع يمون سكانها ، ولا صناعات ينشرونها فى الآفاق ، فتدر عليهم الأموال ، والإناث فى هذه البيئة عبء على الآباء ؛ لأنهن يأخذن ولا يعطين ، وينفقن ولا يكسبن ، « ولا شك أن الوأد عادة منكرة ، ولكن المجاعات الكثيرة نتيجة لندرة الأمطار دفعت إليها »(٤) .

وإذا كان العرب قد اضطروا إلى استكمال حاجتهم بالإغارة على القبائل المجاورة فإنهم قداضطروا أيضاً إلى الوأد خشية الإملاق(٥) . وكان العرب الذين يئدون يعتقدون أن الوأد يدل على الأريحية ، كما كان بعضهم يباهى به ، وبعضهم يقترفه منجاة من احتمال متاعب من بنات قد يؤسرن . ولكن القرآن الكريم يذكر الفقر وحده ، وهذا حق ؛ لأن البيئة مجدبة جدا ، وقد ذكر مستر داوتى كثيراً من المشقات التى يقاسيها سكان الصحراء فى أكثر شهور السنة ، حيث لا يجد الطعام إلا الأغنياء(٦) .

ومما يدل على أن الوأد كان فى الأغنياء أيضاً أن مهلهل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتا أن تقتلها ، فأمرت خادماً لها أن تغيبها عندها ، ثم بدا له فأمرها بإحسان تربيتها ،

---

(١) الإسراء ٣١ (٢) الأنعام ١٥١ (٣) روح المعاني ٨/٥٤

(٤) Nicholson. P.90

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٦٧ (٦) Moslem Law. P. 26

فكبرت حتى تزوجت[١] ، وسنرى أن كثيراً من الأغنياء وأدوا .

وكان الوأد مقصوراً على الإناث ، وإذاً فالمراد من الأولاد فى الآيتين الكريمتين الإناث ، وهذا هو المفهوم من حديث صعصعة بن ناجية ، ذلك بأنه خرج يبحث عن ناقتين له ، فمر على قوم من بنى أنمار من تميم ، وإذا شيخ يوقد ناراً فى مقدم بيته ، ونساء قد اجتمعن إلى امرأة ماخض ، وتكلمت النساء فقلن : « قد جاء » يعنين الولد ؟ قال الشيخ : « إن كان غلاما فوالله ما أدرى ما أصنع به ، وإن كانت جارية فلا أسمعن صوتها ، اقتلنها » قلت : « ذرها فإنها ابنتك ورزقها على الله » ، قال « إنى أراك بها حفياً فاشترها منى» فأعطيته ناقتين وجملا[٢]

فهذا الرجل حيران ، ماذا يصنع بابنه الذكر ؟ وكيف يطعمه ؟ ولكنه لم يهم بقتله ، بل اعتزم قتل الأنثى .

٢ — وقد ذكر المؤرخون والمفسرون أن من أسباب الوأد الغيرة على البنات أن يسبين أو يزوجن بغير أكفاء[٤] ، وقالوا إن أول من فعل ذلك قيس بن عاصم ، ذلك بأن تميم منعت الإتاوة عن النعمان بن المنذر، فحاربهم وسبى نساءهم ، ثم وفد قيس على النعمان ليسترد السبايا ، فآثرن العودة إلا بنته فقد آثرت سابيها على أبيها ، فانصرف قيس فوأد كل بنت، وجعل ذلك سنة كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب ، فكان كل سيد تولد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة[٥] ولما وفد قيس بن عاصم على رسول الله سأله بعض الأنصار عن وأده ، فأخبرهم أنه ما ولدت له بنت إلا وأدها[٦] ، وحدث رسول الله بقوله : كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة فى البنات ، فما ولدت لى بنت قط إلا وأدتها[٧]. وقد أمره النبى أن يعتق عن كل موءودة رقبة ، فقال له أبو بكر : فما الذى حملك على ذلك وأنت

---

(١) الأغانى ٩/١٧٥ ساسى . (٢) تفسير الطبرى ١٥/٧٥ والنيسابورى ١٥/٣٣ والكشاف ١/٥٤٦ والاعتصام ٢/١٨١ (٣) النقائض ٦٩٧

(٤) النيسابورى ١٥/٣٣ و١٤/٧٧ والكشاف ٢/٥٢٦ والقرطبى ١٠/١١٧ والاعتصام ٢/١٨١ وروح المعانى ٨/٣٢ (٥) الأغانى ١٢/١٤٤ والكامل للمبرد ١/٢٨٨ وصحيح البخارى فى الوأد ومجمع الأمثال ١/٣٨٩ وشرح ابن أبى الحديد ٣/٢٤٢ ونهاية الأرب ٣/١٠٧ وفى الأغانى أن التى امتنعت بنت أخته (٦) الأغانى ١٢/١٤٣ (٧) الأغانى ١٢/١٤٣

أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك . فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر (١) .

وإنى أشك فى أن يكون قيس هذا أول وائد ، لأنه أدرك الإسلام ، وأسلم (٢) ، فليس بمعقول أن ينشأ الوأد قبيل الإسلام بسنوات ، ثم يشيع فى بعض قبائل العرب فى زمن وجيز ، ثم ليس بمعقول أن يحاكى العرب قيس بن عاصم ويشايعوه فى عمله ، لأن حادثته فردية لا ينشأ عنها عمل إجماعى ، وكان حريا بالعرب أن يعيروه لا أن يحاكوه .

على أنهم اختلفوا فى أول وائد، فقيل إنه قيس ، وقيل إنه أمير من ربيعة ، وذكروا فى سبب وأده قصة تشبه تمام الشبه قصة قيس (٣) ويرجع بعضهم القهقرى إلى زمن أبعد ، فينسب الوأد الأول إلى لقمان بن عاد ، لأنه كان يقتل نساءه انتقاما ، بعد أن خُنّه ، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل كان أول من تلقاه صُحر ابنته فوثب عليها فقتلها ، وقال : أنت أيضاً امرأة ، فضربت العرب المثل بقتله صُحراً ، قال خُفاف بن ندبة :

وعيّاش يُدِبُّ لى المنايا وما أذنبت إلا ذنب صحْر

وقال عروة بن أذينة :

أتجمع تيماما بليـــلى إذا نأت وهجرانها ظلما كما ظُلمت صُحْر (٤)

وسواء أكان الوائد الأول معلوما أم مجهولا فإنى أرجح أن الخوف من العار كان باعثاً من بواعث الوأد ، لأن الحروب والغارات كانت لا تخبو نارها ، وكان السبى من آثارها ، والعرب غُيُر على النساء ، والسبى معرّة فى نظرهم كما سنرى فى فصل السبايا .

وإذا كان القرآن الكريم قد اقتصر على ذكر الفقر والخوف من الفقر ، ولم يشر إلى السباء ، فإن ذلك راجع إلى أن الفقر والخوف منه مردّهما إلى الله تعالى ، وإليه الأمل فى زوالهما ، أما السبى فمرجعه إلى العباد وحروبهم ، والحروب لا مندوحة عنها ، والسبى نتيجة من نتائجها ، فكيف ينهاهم القرآن الكريم عن الوأد مخافة السبى وهو لا محيد عنه ؟

نعم كان السبى — كما سأبين فى السبايا — متوقعاً لا مفر منه « فكان الدافع إلى الوأد النزوع إلى المحافظة على الشرف ، لأن الآباء كانوا يخشون إطعام أفواه لا فائدة فيها ، ويخشون

---

(١) محاضرات الأدباء ١/٢٠٥

(٢) الأغانى ١٢/١٤٣ (٣) بلوغ الأرب ٣/٤٢ (٤) الحيوان للجاحظ ١/٢١ هارون

أيضاً أن يصيبهم العار من وقوع بناتهن فى قبضة الغالبين[١] .

٣ — وقد ذهب الدكتور على عبد الواحد وافى إلى أن وأد البنات دون الذكور راجع إلى عقيدة دينية قديمة .

وذلك أنهم اعتقدوا أن البنات رجس من خلق الشيطان ، أى من خلق إله غير آلهتهم ، فتخلصوا منهن .

وله أدلة على نظريته هذه من الآيات القرآنية الكثيرة التى تربط وأد البنات بنظام من العقيدة ، كقوله تعالى « ويجعلون لما لايعلمون — أى لآلهتهم التى لاعلم لها لأنها جماد — نصيبا مما رزقناهم — من الزروع والأنعام — تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم - أى لآلهتهم - ما يشتهون - أى البنين . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم »[٢] .

وهو يذهب إلى أن هذا نوع من الوأد مقصور على البنات . غير الوأد الذى سببه الفقر[٣]

٤ — وقيل إن بعضهم كان يئدنوعا من الإناث هن الزرقاء ، والشَّيْماء - السوداء أو التى فى بدنها بقع تخالف سائره ، والبرْشاء - التى بها نكت صفار تخالف بقية لونها - والكسحاء ، وسبب هذا الوأد التشاؤم من هؤلاء[٤] . وإن صح هذا فلعل سببه أن اليأس من تزويجهن كان مشفوعا إلى التشاؤم منهن ، وربما كان السببان معا مشفوعين إلى الفقر أو مخافة الفقر .

طريقة الوأد

تنوعت وسائل الوأد ، فبعضهم كان يحفر حفيرة ، تمخض المرأة على حافتها فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة ، وإن ولدت ولدا احتفظت به ، وبعضهم كان يرميها من شاهق جبل ، ومنهم من كان يغرقها ، ومنهم من كان يذبحها[٥] .

والأعم الأكثر أن توأد البنت حين ولادتها ، وإن وردت أخبار عن وأد فى الكبر ، فقد ذكر قيس بن عاصم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأته ولدت بنتا فى سفره ، فدفعتها إلى أخوالها ، فلما قدم من سفره أخبرته أنها ولدت ولداً ميتا ، ومضت سنون حتى

---

(١) Nicholson P. 91

(٢) سورة النحل ٥٦ — ٥٩ (٣) الأسرة والمجتمع ١١٩ — ١٢٣ ومجلة الرسالة ٣ مارس سنة ١٩٤١ (٤) إنسان العيون ١/٥٠ والروض الأنف ١/١٤٨ (٥) تفسير الطبرى ١٤/٨٤ والكشاف ٢/٥٢٦ والنيسابورى ١٤/٧٧

كبرت الصبية ويفعت فزارت أمها يوما ، فرآها قيس فأعجبته ، فسأل عنها ، فبكت أمها وقالت له : هذه ابنتك وقصت عليه حيلتها . قال : فأمسكتُ حتى اشتغلتْ عنها ، ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة ، فجعلتها فيها ، وجعلت أقذف عليها التراب ، وهى تقول : يا أبت أمغطِّى أنت بالتراب ؟ أتاركى أنت وحدى ومنصرف عنى ؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى واريتها وانقطع صوتها ، فما رحمت أحدا ممن واريته غيرها . فدمعت عينا النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال إن هذه لقسوة وإن من لم يرحم لا يرحم[١] . ويذكر الزمخشرى أن الرجل كان إذا أراد أن يستحيي بنته ألبسها جبة صوف أو شعر ، وأرعاها إبله أو غنمه فى البادية ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، ثم يدفعها فيها ويهيل عليها التراب[٢] .

وأرى أن إمهال البنت حتى تكبر ثم وأدها أمر بعيد الاحتمال ، فما الذى زين لأبيها أن يستحييها إلى هذه السن ؟ ولماذا لم يتخلص منها وهى وليدة ؟ لماذا أبقاها سنوات ينفق عليها ويتعلق بها وتتعلق بها أمها ثم يقتلها ؟

هل اقتصر الوأد على الإناث ؟

لم يقتصر القتل على الإناث ، بل تعداهن إلى الذكور ، بدليل قوله تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . . . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين»[٣] . وذلك أن أهل المدر والحرث كانوا يقسمون ما حرثوا قسمين : قسما لآلهتهم وقسما لله ، فإن سقط فيما لآلهتهم شىء مما لله تركوه وأقروه ، وإن سقط فيما جعلوه لله شىء مما لآلهتهم ردوه[٤] ، فوبخهم الله على زعمهم وسوء فعلهم ، ثم شبه بضلالهم هذا ضلالا آخر ، هو أن شركاءهم من الشياطين أو سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بالنحر للآلهة ، وكان الرجل فى الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً

---

(١) الأغانى ١٢/١٤٣ (٢) الكشاف ٢/٥٢٦ (٣) الأنعام ١٣٦ — ١٤٠
(٤) المحبر ٣٣١

لينحرن أحدهم ، كما حلف عبد المطلب فى ابنه عبد الله[١] ، فقد نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالا أن ينحر أحدهم الكعبة شكرا لربه ، فلما استكمل أولاده العدد همّ بإنجاز ماوعد ، وأجال القداح بينهم ، فكان الذبح نصيب عبد الله ، فحماه أخواله بنو مخزوم ، وأشاروا على عبد المطلب أن يحتكم إلى كاهنة بنى سعد ، فحكمت بالدية مائة بعير فداء لعبد الله[٢] .

ويظهر من نص الآيات القرآنية النهى عن قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثا[٣] .

على أننا لم نعرف حادثا للهمّ بقتل الولد الذكر غير حادث عبد المطلب .

هل كان الوأد عاما ؟

ذهب المتنقصون من قدر العرب عامدين أو غير عامدين إلى أن الوأد كان عاما فى القبائل كلها ، ونقل الميدانى عن الهيثم بن عدى أنه كان فى قبائل العرب قاطبة ، يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قل إلا فى تميم ، فإنه تزايد فيهم قبل الإسلام[٤] .

وذهب الباقون إلى أنه كان فى بعض القبائل ، ولم يكن فى جميعها ، وذكروا هذه القبائل وهى : تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل[٥] ، وممن لم يئدوا : الطُّلْس وهم جميع أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك ، وعجيب وإياد بن نزار[٦] . وهذا هو الحق ، لأن إعزاز بعضهم للبنات — كما سبق — يتنافى وذلك الوأد العام ، ولو أن الوأد كان عاما فى العرب كما ذهب الهيثم بن عدى لقلت النساء قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات كما رأينا . ولو أنه كان عاما لتباهى به الشعراء ، ولهجوا الذين لا يئدون ، لأن الوأد فضيلة وتركه رذيلة

الأم والوأد

هنا تصمت المراجع والأخبار والأشعار صمتا عجيبا ، فلا تنقع غلتنا ، بل لا تبل بعض صدانا إلى معرفة حال الأم من وأد ابنتها ، أكانت تشارك الأب فى كراهيته لابنتها ؟ أم كانت تحبها وتؤثر بقاءها وتبكى لوعة وشجى حينما يختطفها أبوها ليئدها ؟ .

وكل ماعثرت عليه أن كبيرة بنت أبى سفيان — مخضرمة — قالت لرسول الله صلى الله

---

(١) الكشاف ١/٣١٢ والاعتصام ٢/١٨٣ وروح المعاني ٨/٣٢

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٦٧ والكامل لابن الأثير ١/٢١٥ وإعلام النبوة ٢٦ (٣) الاعتصام ١٨٣ وبلوغ الأرب ٣/٤٤ (٤) مجمع الأمثال ١/٣٨٩ وبلوغ الأرب ٣/٤٢ (٥) الكامل للمبرد ١/١٨٨ وشرح ابن أبى الحديد ٣/٢٤٢ (٦) المحبر ١٧٩ و١٨١

عليه وسلم : إنى وأدت أربع بنين لى فى الجاهلية ، فقال : أعتق أربع رقاب[١] ، والظاهر أنها تريد أربع بنات

وأستنتج من حادثة قيس بن عاصم السابقة أن امرأته كانت حريصة على استحياء ابنتها ، لأنها أخفتها عند أخوالها ، ثم بكت لما توجست أنه سيقتلها[٢] ، ثم إن صعصعة بن ناجية مر برجل يحفر حفرة وامرأته تبكى ، وأخبرته أنه يريد وأد ابنتها فرق لها صعصعة وفداها[٣].

على أنى أفزع إلى الأمومة أستنبئها ، فتخبرنى صادقة أن النساء كن فى القبائل الوائدة حسيرات القلوب كسيرات النفوس ،غزيرات الدموع ، وأن غريزة الأمومة وطبيعة الأنوثة لا تقر هذه القسوة ، ولا ترتضى أن تنتزع منها ثمرة من ثمراتها لتقدم طعمة للثرى .

ولم تكن المرأة العربية وحدها هى التى سُلبت بناتها فرضيت أو كظمت لوعتها ، فقد كانت المرأة فى أثينا خاضعة للزوج ، حتى إنه إذا شاء انتزع من الأم ابنتها وتركها فى الجبل أوفى الطريق فى جرة من الفخار ، تبكى بكاء يفتت الأكباد ،إلى أن تلفظ أنفاسها . ولا تستطيع الأم أن تعارضه أو تنطق بكلمة[٤] .

إحياء الموءودات

سيدان من سادات العرب حملا لواء الرحمة ، وأنقذا من ظلمات الحفائر بنات كثيرات ، هما صعصعة بن ناجية وزيد بن عمرو بن نفيل .

أما صعصعة جد الفرزدق فقد سمى محيى الموءودات ، وكان السبب فى مكرمته هذه أنه مر برجل من قومه — تميم — يحفر بئرا ، وامرأته تبكى ، فقال لها صعصعة : مايبكيك ؟ قالت : يريد أن يئد ابنتى هذه ، فقال له : ماحملك على هذا ؟ قال : الفقر ، قال : فإنى أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما تعيشون بألبانهما ، ولا تئد الصبية . فرضى الرجل، فأعطاه الناقتين وجملا فحلا ، وقال فى نفسه : إن هذه لمكرمة ماسبقنى إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها . فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة ، وقيل أربعمائة ، وقيل ستا وتسعين ، وقيل ثلاثمائة وستين[٥] وقيل مائتين وثمانين[٦] وقيل مائة

---

(١) الإصابة ١٧٦/٨

(٢) الأغانى ١٤٣/١٢ (٣) الأغانى ٤/١٩ (٤) تاريخ العالم عدد٧ مجلد ١ ص٣٩٠ Mrs Ray Strachey (٥) الأغاني ٣/١٩ — ٥ (٦) الكامل للمبرد ٢٨٩/١

وأربعا[١] . وليس من المنتظر أن يبلغنا العدد الحقيق أو القريب منه ، لأن المبالغة والتنفج والمباهاة لابد أن تضاعف العدد أو تضخمه . ولقد يكون من الصواب أيضا أن كثيرا من الفقراء ادعوا أنهم سيئدون لينالوا من عطاء صعصعة .

وقد خايل الفرزدق بإحياء جده للوئيدات فى عدة قصائد ، كقوله :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى ... متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر

أجار بنات الوائدين ومن يجر ... على الفقر يُعْلَمْ أنه غير مُخْفِر

على حين لا تحيا البنات وإذ هُمُ ... عكوفاً عل الأصنام حول المدوَّر

أنا ابن الذى رد المنيـــة فضلُه ... فما حسبٌ دافعت عنه بمعور

وفارقِ ليلٍ فى نساء أتت أبى ... تمارس ريحاً ليلها غير مقمر

فقالت : أجرلى ما ولدتُ فإننى ... أتيتك من هزل الحمولة مقتر

رأى الأرض منها راحة فرمى بها ... إلى جدد منها إلى شر مخفر

فقال لها فيئى فإنى بذمتى ... لبنتك جارٌ من أبيها القنَوَّر[٢]

وقال أيضاً :

وجدى الذى منع الوائدات ... وأحيا الوئيد فلم يوأد[٣]

وروى أن غالب بن صعصعة وفد على النبى وأخبره بفعال أبيه فى الموءودات ، فاستحسنه وسأله ، هل له فى ذلك من أجر ؟ فقال : نعم[٤] : وروى أن صعصعة نفسه قدم على النبى فأسلم ، وقص عليه إحياءه للوئيدات ، وسأله : هل لى فى ذلك من أجر؟ فقال : هذا باب من البرِّ لك أجره إذ من الله عليك بالإسلام[٥]

وأما السبد الآخر فزيد بن عمرو بن نفيل القرشى ، كان يستحيي الموءودات ، فإذا بصر برجل يهم بوأد ابنته قال له : لا تقتلها ، أنا أكفيك مئونتها . ويأخذها ، وينفق عليها حتى تكبر ، ثم يقول لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مئونتها[٦] . وقيل إنه أحيا ستاً وتسعين موءودة[٧]

---

(١) المحبر ١٤١ والنقائض ٢٦٤ (٢) الأغانى ٢/١٩ وديوان الفرزدق ٤٧٧

(٣) الأغاني ٤/١٩ (٤) الأغانى ٢/١٩ (٥) الأغانى ٤/١٩

(٥) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ١١٣/٣

(٦) بلوغ الأرب للألوسى ٤٥/٣

الوأد عند غير العرب

لم يكن العرب بدعاً فى وأد البنات ، لأن بعض الأمم القديمة فعلت بالبنين فعلا أبشع من فعل العرب .

فالفينيقيون كانوا يعبدون الطبيعة ، ويرمزون لها بصنم اسمه بَعْل يمثل إله النور المسمى مولوخ ، واتخذوا له زوجة أشركوها فى الألوهيـة سموها عشتروت (الزهرة) وكانوا فى عبادة عشتروت يستبيحون النساء عامـــة ، وفى عبادة مولوخ يضحون بالأولاد إحراقا فى النار الملتهمة (١) .

وكان الأب الإسرائيلى يستطيع أن يبيع أبناءه ذكوراً وإناثاً للرق ، وقد حدّت التوراة فيما بعد من هذا الحق ، لكن الأب ظل يملك أن يقتل أبناءه سواء أكانوا كباراً أم صغاراً (٢) .

وكان الإسبرطيون يقتلون المشوهين والمرضى والضعاف من الأولاد عقب ولادتهم ، ويتركونهم فى القفار طعاما للوحوش والطيور . ولقد تتحقق الأم نفسها من صلاحية ولدها للحياة فتغمسه فى دن من النبيذ مدة ، فإن عاش دل على قوة بنيته وجدارته بالحياة فيربّى ، وإن مات فقد تخلص المجتمع من إنسان ضعيف لا يستحق أن يعيش . وكان هذا النظـام أو ما يقرب منه سائدا فى أثينا وروما . وقد أقره فلاسفة اليونان وفى مقدمتهم أفلاطون وأرسطو (٣) .

وفى روما كان يحمل الطفل عقب ولادته ويوضع عند قدمى والده ، فإما أن يرفعه فيصير فرداً من الأسرة ، وإما أن يحمله إلى مفترق الطرق ليموت أو ليصير من الرقيق (٤) .

وقد اعتاد الصينيون أن يلقوا أبناءهم وبناتهم فى البحر إذا مسهم عوز (٥) .

ولم تكن هذه الشعوب لتفرق فى القتل بين الذكر والأنثى . على أن بعض الشعوب البدائية وغيرها كانت تقتل الأولاد كلهم أو بعضهم لأسباب اقتصادية أو دينية ، فبعض العشائر الأسترالية تختص الذكور بالقتل ، وبعضها تختص الإناث ، وفى بعضها تقتل الأمهات بعض أولادهن بغير تفرقة بين ذكور وإناث (٦) ، وبعضهم لا يتركون للأم إلا ولداً أو اثنين ، ويربون الآخرين إلى سن العاشرة ثم يذبحونهم ويأكلونهم ، وتبكى الأم قليلا ثم

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع لمحمد جميل بيهم ٤٤

(٢) سفر الملوك الثاني ١:٤ وسفر الخروج ٢١:٧ وسفر التكوين ٣٨: ٢٤ وسفر التثنية ١٨:٩
Israeil from its Begining. 1ç0. Abolphe. Iods.

(٣) جمهورية أفلاطون ١٣٤ والأسرة والمجتمع ١١٨ وتاريخ التربيـة لمصطفى أمين ٣٥ و٤٧ وتطور النظرية التربوية ٥٢ لصالح عبد العـزيز (٤) تطور النظرية التربوية ١١٥ (٥) باكورة الـكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٧٣ (٦) الاسرة والمجتمع ١١٩

لاتأبى أن تأخذ نصيبها من لحم ابنها طعاما (١) . وما زال الاسكيمويئدو البنات بعد ولادتهن بزمن قصير ، لأن حياتهم شاقة ذات شظف وفقر (٢) . وللزوجين فى تاهيتى أن يقتلا طفلهما دون أن يلومها أحد (٣) .

الوأد ومكانة المرأة العربية

أسلفت أن الوأد عند العرب لم يكن عرفا عاما ، وأن قليلا من القبائل مارسته ، وحتى هذه القبائل نفسها لم يفش الوأد فى أفرادها جميعا ، وإلا فكيف يستمتعن بالحياة ، وبنجبن الأبناء ؟ كيف نجا من الوأد آلاف من النسوة اللاتى أدركن الإسلام وعددن صحابيات ؟

وبينت أن اليونان والرومان وغيرهم كانوا أقسى على أبنائهم من العرب ، إذ قتلوا الذكور والإناث .

على أن الوأد للفقر ليس دليلا على انحطاط مكانة المرأة ، ذلك أنه (حينما تضطرب الحياة نتيجة لحروب طاحنة ، أوأزمات مالية قاسية ، أو زلازل وبراكين مدمرة قد تتغلب الغريزة الخاصة بالطعام على غريزة الأمومة والأبوة ، فيضطر الوالدان إلى بيع أبنائهما أوتركهما (٤)، فمثلا كان الإسرائيلى يبيع نفسه أو أولاده إذا احتاج (٥)، فالوأد فى حالة العوز إبقاء على النفس ، ولتجنيب البنت ما تقاسى من شظف وجوع ، وليس فى هذا مهانة لها .

أما الوأد خشية العار من سبى يقع فليس حجة على ضعة المرأة عند العرب ، بل إنه دليل على صيانتها وإعزازها وحمايتها وتجنيبها وتجنيب قومها ما قد يلوثهم من معرة سبائها ، وفخر عدوهم بامتلاكها ، ومعيشتها بين أعداء قومها معيشة الذليلة الكسيرة .

حب البنت لأبيها

تتعلق البنت بأبيها منذ طفولتها ، تجد فيه حاميها وعائلها وراعيها ، فإذا ما زوجت ظلت تحبه وتذكره وتشتاقه ، ولا شك أنها كانت تؤثر أباها على زوجها « لأن روابط العاطفة فى الجماعات الأولى كانت بين البنت وأبيها وبين الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته » (٦) . ومن مظاهر حبها لأبيها :

١ — أنها تتخوف عليه أن يقتل فى حرب ، فتحاول أن تثنيه ، لأنه رجلها ، وليس لها

---

(١) مقدمة الحضارات الأولى ٠ لوبون ٣٧

(٢) النظم الاجتماعية ١٥ (٣) قصة الحضارة ١/٦٨

(٤) Introduction to Social. Peychology by Mukerjee and Elmer P.271

(٥) التاريخ للسامرى ٣١ (٦) قصة الحضارة ١/٥٨

أب غيره . يقول سلامة بن جندل :

تقول ابنتى إن انطلاقك واحدا ... إلى الرَّوع يوماً تاركى لا أباليا
دعينا من الإشفاق أو قدمى لنا ... من الحدثان والمنية واقيا
ستتلف نفسى أو سأجمع هَجْمَةً ... ترَىْ ساقييها يألمان التراقيا (١)

ويزمع السفر فتحاول أن تثنيه ، وحشة فى بعده ، وخشية عليه من ضر ، حتى لقد استشفعت بنت الأعشى بشريف من العشيرة ليصرف أباها عن رحلته ، فلما يئست دعت ربها أن يحفه برعايته ليئوب إليها سالما :

تقول بنتى وقد قرَّبتُ مرتحلا ... يارَبِّ جنِّبْ أبى الأوصاب والوجَعا
واستشفعتْ من سَراة الحى ذا شَرَف ... فقد عصاها أبوها والذى شَفَعا
عليكِ مثلُ الذى صَلَّيتِ فاغتمضى ... نوما فإن لجنب المرء مُضْطَجعا
واستخبرى قافل الركبان وانتظرى ... أوْبَ المسافر إن رَيْثاً وإن سَرَعا
كونى كمثل التى إذْ غاب وافدها ... أهدتْ له من بعيد نظرةً جزَعا
ولا تكونى كمن لا يرتجى أوَبًا ... لذى اغتراب ولا يرجو له رجَعا (٢)

على أنه يصور فى موضع آخر عواطف ابنته ، من حبها له وشفقتها عليه ، وشعورها بآلام اليتم فى بعاده ، وإيثارها لقربه ، وأنها تقنع من كل شىء وترضى به ما دام أبوها بجوارها ، وهى تتوجس أن يصيبه مكروه فى رحلته ، ولا طاقة لها باحتمال فقده ، ولن تجد بعده عطوفا أو معيناً ، لأنها على ثقة من أن الناس سيجفونها ، والأقارب سيهجرونها . ولكنه شرع يواسيها ويخفف عنها بأمثال يضربها من أسفاره الماضية وأوبته سالما ، ومن مفاجآت القدر للمقيم وإن كان ملكا ممنَّعا ، أو إنسانا آخر فى برج مشيد :

تقول ابنتى حين جدّ الرحيـــل أرانا ســـواءً ومن قد يَتِمْ
أبانا فلا رِمْتَ من عنـــدنا ... فإنا بخـــير إذا لم ترِمْ

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٢ مخطوط والوحشيات ٧٣ مخطوط . هجمة : جماعة من الإبل أقلها أربعون وأكثرها مائة . التراقى : جمع ترقوة وهى مقدم الحلق فى أعلى الصدر والمراد أن اللذين يسقيان هذه الإبل يتعبان من كثرتها ويتبين تعبهما فى حركة صدريهما .

(٢) ديوان الأعشى ١٠١ تحقيق محمد حسين و٧٣ تحقيق رودلف جيير والموشح ٥٢ وخزانة الأدب ٢/١٠٤ صليت : دعوت . مرتحل : جمل يوضع عليه الرحل . يشير إلى قصة اليمامة حين غاب عنها أخوها ورحل يلتمس عون حسان فظلت ترقب عودته فى شوق وأمل بنظرات جازعة ، وقد أكمل القصة بعد ذلك فى ستة أبيات

ويا أبتـا لا تزل عنـدنا فإنا نخاف بأن تُحْتَرَم
أرانا إذا أضمرتك البـلا دُنُجْفى وتُقْطَعُ منا الرَّحِم[1]

٢ — هذا الحب الذى يدفعها إلى الخوف عليه والرغبة فى قربه ، يدفعها أيضاً إلى أن تتعلق بما يطمئنها على حياته ، فتود أن يظل شابا قويا ، وتجزع إذا مارأته قد هرم وضعف . يقول ذو الإصبع العدوانى وقد بكت بنته أمامة إذ رأته فى كبرته قد نهض فسقط وتوكأ على العصا :

جزعت أمامة أن مشيتُ على العصا وتذكرتْ إذ نحنُ مِ الفتيانِ

وسلاَّها بأمثال من تغير الأحوال ، ثم قال :

لا تعجبنَّ أمامُ من حَدَث عَرَا فالدهرُ غيَّرنا مع الأزمان[2]

وقد ظلت عاطفة البنوة هذه إلى ما بعد العصر الجاهلى ، وظلت البنت تبكى بعاد أبيها ، فقد خرج مالك بن الريب مع سعيد بن عثمان ، فتعلقت ابنته بثوبه وبكت ، وقالت له : أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى ، فبكى ، وقال :

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى بدخيل الهموم قلبا كئيبا
وهى تذرى من الدموع على الخـ ـدين من لوعة الفراق غُروبا
عبرات يكدن يحرحن ما جُزْ ـن به أو يدعْنَ فيه نُدوبا
حذر الحتف أن يصيب أباها ويلاقى فى غير أهل شَعوبا
اسكتى قد حززت بالدمع قلبى طالمـا حزّ دمعكن القلوبا
فعسى الله أن يدافع عنى ريْبَ ما تحذرين حتى أءوبا[3]

٣ — وإن حبها لأبيها ليحملها على أن تضن بماله كما ضنت الأم والزوجة ، فمثلا عاتبت سلمى بنت الأسود بن يعفر أباها ؛ لأنه يضيع ماله فيما ينوب قومه من حِمالات ، وفيما يمنحه فقراءهم ، ويعين به مستمنحهم ، فقال :

وقالت لا أراك تليق شيئا أتُهْلِكُ ما جمعتَ وتستفيد ؟
فقلت بحسبهـا يُسْرٌ وعارٌ ومُرْتَحَلٌ إذا رحل الوفود

---

(١) ديوان الأعشى ٧٣ نشره رودلف جيبر والأغانى ٨/١٣٧ وخزانة الأدب ٢/١٠٤
(٢) الأغاني ٣/١٠٩ الدار (٣) الأغانى ١٩/١٦٧

وأخذ يدافع عن مذهبه ويضرب لها الأمثال(١).

٤ — وإذا ما فجعها الدهر فى أبيها حزنت حتى يمضها الحزن، وبكت حتى يحرقها البكاء، وفعلت ما يفعل النسوة الحزينات، قال لبيد :

تمنّى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضَر

فإن حان يوما أن يموت أبوكما ... فلا تَخْمشا وجها ولا تحْلقا الشعَر(٢)

وقال فى رثاء أربد مخاطبا ابنته منى :

يامىَ قومى فى المآتم واندبى ... فتى كان ممن يبتنى المجد أروعا

وقولى ألا لا يُبْعد الله أَرْبَدًا ... وهَدَّى به صَدْعَ الفؤاد المرجَّعا(٣)

وقال أبو ذؤيب الهذلى فى توقعه ماتفعل بناته بعد موته من ضرب صدورهن بالنعال :

وقام بناتى بالنعال حواسرا ... وألصقن وَقْعَ السِّبْتِ تحت القلائد(٤)

وصور عبد مناف بن رِبْع الهذلى تصويرا أليماً ماتفعل أختاه على أبيهما من عويل وأرق ونشيج منبعث من الأعماق، كأن فى جوف كلتيهما مزمارا لا يفتأ يصوِّت، ومن صَفْق الصدر بالسِّبت صفقا يخدش الجلد :

ماذا يَغيرُ ابنتى ربعٍ عويلُهما ... لا ترقدان ولا بُؤْسَى لمن رقدا

كلتاهما أُبْطِنَتْ أحشاؤها قصباً ... من بطن حَلْيَةَ لا رطْبا ولا نَقدا

إذا تأوّب نَوْحٌ قامتا معه ... ضرباً أليما بسبْتٍ يلعَجُ الجلدا(٥)

ولقد كانت أحياناً تبكى أباها فى المواسم، فإنه لما قتل رجل من جهينة حصينَ بن عمرو الكلابى قامت صخرة ابنة عمرو تبكيه فى المواسم، حتى ضرب بها المثل، قال الأخنس :

كصخرةَ إذ تسائل فى مراح ... وفى جَرْم وعلمُهما ظنون

تسائل عن حُصَيْن كل ركب ... وعند جُهَينة الخبر اليقين(٦)

والآباء فى كل عصر على يقين من فجيعة بناتهم فيهم، وبكائهن إياهم، يقول أبو فراس الحمدانى قبيل وفاته ٣٥٧ هـ مخاطبا ابنته :

---

(١) الأغانى ١١/١٣٣ ساسى (٢) الوحشيات ١٣٣ مخطوط والموشح ١٧

(٣) ديوان لبيد ٦ (٤) البيان والتبيين ٣/١١١ هارون . السبت : النعال المدبوغة بالقرظ

(٥) سمط اللآلى ١/٢٢١ وتهذيب الكامل ٢/١٩٦ يغير : يفيد . رطب : لين يخفى الصوت . نقد: متآكل . تأوب نوح : عاودهن النواح ليلا . الجلد : بكسر اللام هو الجلد بسكونها. (٦) لسان العرب ١٦/٢٤٣ مراح : حى من قضاعة .

أبنيَّتى لا تجـــــزعى كل الأنام إلى ذهـــاب
نوحى عـــــلىَّ بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا كلمتـــــنى فعييتُ عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يُمَتَّعْ بالشباب[1]

٥ — وإذا قتل أبوها أشعلت الحفيظة فى صدور وليائه ، أليثأروا له ، فيشفوا بعض ما تجد من مض الحزن ولوعة الأسى ، فقد حمست أمامة بنت كليب عمها المهلهل ليثأر له ، قال المهلهل :

تسائلنى أمامة عن أبيهـا وما تدرى أمامة عن ضميرى
فلا وأبى أمامة ما أبوهـا من النَّعَم المؤبَّل والجَزور[2]

ولما قتل حذيفة قالت ابنته هند تحرض قومها على الطلب بدمه :

فيـا لبنى ذبيان بكُّوا عميدكم بكل دقيق الحد أبيض باتر
وكل رُدَيْنى أصم كعـــوبه ينوء بنصل كالعقيقة زاهر
وكل أسيل الخد طـاوٍ كأنه ظليم ، وجرداء النسالة ضامر
فإن أنتم لم تُصْبحوا القوم غارة يُحدث عنها وارد بعـد صادر
وترموا عُقَيْلاً بالتى ليس بعدها بقاء فكونوا كالإماء العوائر[3]

٦ — ثم ترثيه ، فتصور فجيعتها فيـه ، وتعدد مناقبه ، وتشيد بمفاخره ، كما فعلت الأم فى رثاء ابنها والزوجة فى رثاء زوجها .

ومن أمثلة ذلك أن هند بنت عتبة ترثى أباها يوم بدر بأن هلك أبيها لا مثيل له ، وأن الفاجعة التى نزلت بهـا تنسى المفجوعات فجيعتهن وتستدرد موعهن مواساة لهـا ، وأنها كانت تخشى هذا اليوم من قبل ، ثم نزل بها ما خشيت ، فطار عقلها وعزب رشدها :

لله عينـــــا من رأى هُلْكا كهـــلك رجاليـــه
يارُبَّ باك لى غـــــداً فى النائبـــــات وباكيـــه
. . . . . .

---

(١) وفيات الأعيان ١/١٢٧ (٢) رياض الأدب فى مراثى شـواعر العرب للأب لويس شيخو ٦ المؤبل : الكثير .

(٣) رياض الأدب ٤٧ جرداء النسالة : قليلة الشعر . العوائر : الجماعات المتفرقة من الجراد ، فيكون المراد الإماء المتداولات فى كل مكان . وأرجح أن فى الكلمة تحريفاً ، صوابه (الأعاور) والمفرد أعور ومعناه الضعيف الجبان الذى لا خير فيه .

قد كنت أحـــذر ما أرى فاليـــوم حُقَّ حذاريه
قد كنت أحـــذر ما أرى فأنا الغـــداة مُواميه
يارب قائلة غـــدا ياويح أم معـــاويه (١)

وتقول أيضاً فى رثاء أبيها وعمها شيبة .

من حَسَّ لى الأخوين كالـــغصنين أو من رَاهُما
. . . . . .
ويْـــلى على أبوى والقـــبر الذى واراهما (٢)

وتصور صفية بنت مسافر عينها قد جرحها الدمع كأنها رمدَى قرّحها الرمد ، وإنها لتبكى منذ انبلاج الفجر ، وحق لها أن تبكى طويلا ؛ لأن البيت قد خرب بقتل أبيها وقومها :

يامن لعينٍ قذاها عائرُ الرمـد حدَّ النهار وقرنُ الشمس لم يَقِدِ
. . . . . .
كانوا سُقوب سماء البيت فانقصفت فأصبح السَّمْكُ منها غيرَ ذى عمد (٣)

ولما قتل النبى صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث رثته ابنته قتيلة ، وعاتبت النبى ، وودت لو أنه كان قد عفا عنه ، ثم نفثت نفثات حدثت بهن راكبا من مكة إلى المدينة ، مؤملة أن يبلغ قبر النضر بعد أيام خمسة ، راجية له السلامة فى رحلته ، ليسرع بتحية منها إلى القتيل العزيز النضر ، ومع التحية بلاغ تحب أن يصل إلى النضر أن عبراتها بعضها مسفوح وبعضها مكظوم يَخْنُق ، ثم تسائل نفسها : أيسمعنى النضر إن ناديته ؟ وتؤمن بالواقع الأليم فتقول : وكيف يسمعنى ميت مقبور ؟

ياراكباً إن الأُثَيْل مَظِنَّةٌ من صبح خامسة وأنت مُوَفَّقُ
أبلغ بها مَيْتا بأن تحيـة ما ان تزال بها النجائب تَخْفِقُ
منى إليـك وعبرةً مسفوحةً جادت بواكفها وأخرى تَخْنُق
هل يَسْمَعَنَّ النضر إن ناديتُه أم كيف يَسْمَعُ ميت لا ينطِق؟ (٤)

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤١٦ النائبات : نوائب الدهر . مواميه : مختلطة العقل .
(٢) الأغاني ٤/٢١٠ الدار . حس : أحس
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٤١٧ قذاها : آذاها . عائر الرمد : ألمه أو قرحته . حد النهار : أوله . لم يقد : لم يكمل ضوؤه . سقوب : عمد الخباء التى ترفعه
(٤) حماسة الخالديين ٦٧ مخطوط وفيه أن الشعر لليلى بنت النضر وفى المرجع نفسه ٣٧٢ أنه لقتيلة بنت النضر وفى معجم البلدان مادة أثيل أن الشعر لبنت النضر وفى لسان العرب ١٢/١١٢ أنه لقتيلة بنت النضر وكذلك فى حماسة البحترى ٤٣٤ وأسد الغابة ٥/٥٣٣ وفى سيرة ابن هشام ٢/٤٢٠ والأغانى ١٩/١ الدار أنه لقتيلة أخت النضر . الأثيل : موضع قرب المدينة دفن النضر به

وكثير غير هؤلاء مات آباؤهن فصورن لواعجهن ، وشدن بفضائل آبائهن .[١]

٧ — وإنه ليسرها أن يشبه ابنها أباها ، ولقد تتسامى بمجد أبيها فترى من العسير على ابنها أن يلحق به ، تقول منفوسة بنت زيد الفوارس وهى ترقص ابنها حكيم بن قيس بن عاصم

أشبه أخى أو أشبهنْ أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا
تقْصُر أن تناله يداكا

وهى بذلك ترد على زوجها فى قوله لابنه وهو يرقصه :

أشبه أبا أمك أو أشبه عَمَلْ ولا تكونن كهلوفٍ وكَلْ
يصبح فى مضجعه قد انجدل وارقَ إلى الخيرات زَنئاً فى الجبل[٢]

وتقول السيدة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم وهى ترقص ابنها الحسين :

إن بنىّ شبه النبىّ ليس شبيها بعلى[٣]

إيثارها قومها على قوم زوجها

بلغ بالمرأة إعزازها لأبيها وأخيها وقومها واعتزازها بهم أنها لم تغتفر لزوجها أن يتجنى على أخيها وينقصه ، من ذلك أن لبيد بن عنبسة الغسانى — والى ربيعة من قبل ملك اليمن — تزوج الزهراء أخت كليب ، وفى حديث بينهما أحست أنه يحقر من شأن أخيها كليب ، فقالت له : لا أعلم فى العرب ذا لبدة أشد منه . فهاج لبيد ولطمها ، وقال لها : أنت أمتى فاقبلى ما يأتيك منا نحن الملوك . فقالت له : أنا أكرم منك . وفارقته غضبى ، حتى انتهت إلى كليب وقالت له :

ما كنت أحسب والحوادثُ جمةٌ أنا عبيدُ الحىّ من قحطان
حتى علتنى من لبيدٍ لطمةٌ سُجرَتْ لها من حرها العينان
إن ترضَ تغلبُ وائلٍ بفعالهم تبكن الأذلةَ عند كل رِهان

فاهتاج كليب وقصد إلى لبيد ، وجَلّله بسيفه ، فقامت الحرب بين اليمن وبين ربيعة ومضر وإياد وطيىء وقضاعة ، وتقدمهم كليب ، وظفر هؤلاء باليمن فى موقعة خَزازَى ، وتحرروا من سلطانهم[٤] .

---

(١) الأغاني ١٦/٣٠ و١٠/٣٩ وأمثال العرب الضبى ٣٣ ومعجم البلدان ٢/٧٧٩ وسيرة ابن هشام ٤/٨٤ وحماسة البحترى ٢١٢ وبلاغات النساء ١٧٩ و١٨٩ .

(٢) لسان العرب مادة وكل والأغاني للأطفال عند العرب لأحمد عيسى ٥٥ هلوف : ثقيل بطين لا غناء عنده . وكل : ضعيف . زنئا : صعوداً (٣) الأغاني للأطفال عند العرب ٢٧

(٤) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المراقسة للسندوبي ١٩

وهى لا ترضى أن يباغت زوجها قومها ، فيغزوهم وينتصر عليهم ، لذلك تنذرهم بنفسها ، كما فعلت سلمى بنت عمرو ، فى حرب بين الأوس والخزرج جمع أحيحة بن الجلاح الأوس لبنى النجار ليغزهم ، وكانت عنده سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية ، وله منها ولد اسمه عمرو ، وكان يومئذ فطيماً أو دون القطيم ، فلما قارب أحيحة أن يغير عمدت إلى ابنها فربطته بخيط أوجعه ، فبات يبكى وهى تحمله ، وبات أحيحة معها ساهراً يقول : ويحك ما لابنى ؟ فتقول : والله ما أدرى ، حتى إذا ذهب الليل أطلقت الخيط من الصبى فنام ، فلما هدأ قالت : وارأساه ، فبات أحيحة يعصب لها رأسها ، ويقول : ليس بك بأس ، حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقله قالت له : نم أنت فقد ذهب عنى ما كنت أجد . وإنما فعلتْ به ذلك ليثقل رأسه وليشتد نومه بعد طول السهر . فلما نام قامت وتدلت من الحصن وانطلقت إلى قومها فأنذرتهم بما جمع لهم أحيحة ، فحذروا وأعدوا واجتمعوا ، فلما أقبل أحيحة فى قومه وجد القوم على حذر ، فلم يكن بينهم كبير قتال ، ثم رجع فلم يجد سلمى ، فعرف أنها خدعته وأنذرت قومها ، فطلقها ، وتزوجها بعده هاشم بن عبد مناف فولدت له عبد المطلب . وسماها قومها المتدلية ، وقال أحيحة فى ذلك قصيدتين[١] .

وقد تنذرهم برسول لأنهم منها بعيد ، كما فعلت هند من بنى نهد لما رأت قوم زوجها بنى عامر قد جمعوا لغزو بنى نهد ، فقالت لغلام فقير يتيم من بنى عامر : لك خمس عشرة ناقة على أن تأتى قومى فتنذرهم ، فرضى ، وحملته على ناقة لزوجها ، وزودته طعاما وشرابا ، فركب وأنذرهم ، فاجتمعوا واستعدوا ، ووافتهم بنو عامر ، فاقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه العامريون ، وفى ذلك يقول عبدالله بن العجلان من قصيدة :

ألم يأت هنداً كيفما صُنْـــعُ قومها ... بنى عامر إذ جاء يسعى نذيرُها[٢]

وقد تنذر قومها برسالة رمزية ، كما أنذرت زهير بن جناب أخته — وكانت متزوجة فى بنى القين بن جسر — بأن قوم زوجها يعتزمون الغارة عليه ، وذلك بأن أرسلت إليه رسولا معه صرة فيها رمل ، وصرة فيها شوك وقتاد ، فقال زهير إنها تخبركم بعدو كثير ذى شوكة ، وأشار عليهم بالارتحال ، فقال الجلاح بن عوف : لا نرتحل لقول امرأة . فظعن زهير وأقام الجلاح ، فصبحه بنو القين ، فقتلوا عامة قومه ، واستاقوا أموالهم وماله ، ثم قاتلهم زهير وهزمهم[٣] . وكذلك أنذرت امرأة من هذيل قومها[٤] .

---

(١) الأغانى ١٣/١١٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٤٢ (٢) الأغاني ١٩/١٠٤
(٣) الكامل لابن الأثير ١/١٨٠ والأغاني ٢١/٦٧ (٤) الأغاني ١١/١٤

الفصل الرابع
الأخت والقريبة

حظيت البنت عند أبيها ، وحظيت الزوجة عند زوجها ، وتبوأت الأم مكانة علية فى نفوس بنيها ، فمن الطبيعى أن تنال الأخت عزازة أخيها ، وأن تسعد القريبة بحب ذويها .

الأخت

أحب الأخ أخته وأعزها ، وأحبت الأخت أخاها واعتزت به .

١ — وأى دليل على الإرعاء والحب أقوى من أن يقاسم الأخ أخته ماله مرات ، جاء فى حديث الخنساء للسيدة عائشة قولها : زوجنى أبى رجلا مبذراً ، فأذهب ماله ، فأتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين ، فأعطانى خيرهما ، ثم ضيع زوجى ماله مرة أخرى ، فقسم أخى ماله شطرين فأعطانى خيرهما . فلما كانت المرة الثالثة قالت امرأته : أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها الخيار ؟ فقال :

والله لا أمنحها شِرارها ... وهى حَصَانٌ قد كفتنى عارها

وإن هلكتُ خَرَّقت خمارها ... واتخذت من شعر صِدارها[1]

وأى شىء أدل على الإرعاء والحب من أن يتخير الرجل زوجته ثيبا حتى لا تضار أخواته كما تضارهن الشابة ؟ حدث جابر أن رسول الله سأله : هل نكحت يا جابر ؟ فقال نعم . فقال رسول الله : ماذا ؟ أبكراً أم ثيبا ؟ فقال : بل ثيبا . قال الرسول : فهلا جارية تلاعبك ؟ فقال جابر : يا رسول الله إن أبى قتل يوم أحد ، وترك لى تسع أخوات فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن ، ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن ، فقال الرسول : أصبت[2] .

٢ — وكان الأخ يستمع لمشورة أخته ، ويذعن لرأيها فى أمور شتى ، من هذا أن سفانة ابنة حاتم الطائى — بعد أن أطلقها النبى من السبى وكساها وأعطاها — لحقت بأخيها عدى وكان قد فر إلى الشام هاربا ، فرغبته فى الإسلام ، وأن يلحق برسول الله سريعا ، وجاء

---

(١) الإصابة ٦٨/٨ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والمحاسن والأضداد ١٤٣ (٢) فتح البارى ٢٧٥/٧ وكنز العمال ٢٨٨/٨

فى كلامها « فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت » فقال لها : « والله إن هذا للرأى » وقدم على رسول الله وأسلم(١) .

وكان الأخ يحمى أخته حتى من زوجها القوام عليها ، فلا يغضى عن مساءة زوجها إياها ، ولا يغتفر له أن يستذلها . من ذلك أن بَكْرة بنت مَليص من بنى مُقَلِّد بن كليب كانت تحت تميم بن علاثة من بنى سَليط ، فضربها فشجها ، فلقى أخوها زوجها ، فلامه على ضربه وشجّه إياها ، فوقع بينهما شجار ، فشج تميم أخا بكرة أيضا ، فانتقم الأخ لنفسه ولأخته ، فشج الزوج فأمّه(٢) .

وقد سبق أن كليب وائل ثار حينما استغاثت به أخته من زوجها لبيد بن عنبسة إذ لطمها واستذلها وتنقص من قدر أخيها ، وكان من أثر ثورته حرب زبون بين اليمنيين وربيعة ومضر ومن حالفهما(٣) .

٤ — ويحمى من تجيره إعزازاً لها واعتداداً بحمايتها ، وقد ضرب المثل بفكيهة ، فقيل: أوفى من فكيهة ، وهى امرأة من بنى قيس بن ثعلبة ، كان من وفائها أن السليك بن السلكة غزا بكر بن وائل ، فبصروا به ، فعدا حتى ولج دار فكيهة فاستجار بها ، فأدركوه وحاولوا أن ينتزعوه منها ، ونزعوا خمارها ، فاستغاثت بإخوتها ، فجاءوا عشرة ، فمنعوهم وأجاروا السليك ، وفى ذلك يقول مادحاً لها :

لعمر أبيك والأنباء تنمى ... لنعم الجار أخت بنى عُوارا
من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لإخوتها شَنَارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف وانتزعوا الخمارا(٤)

٥ — وكان يغار عليها كما يغار على زوجته ، من ذلك أن القَتّال ـ عبدالله بن المضرحى ـ كان يتحدث إلى ابنة عمه ، فقدم أخوها زياد ورآهما ، فنهى القتال وحلف لئن رآه ثانية ليقتلنه ، وبعد أيام رآه يحدثها ، فأخذ السيف ليضربه ، فبصر به القتال فخرج هاربا ، فتبعه زياد ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله وبالرحم ، فلم يلتفت إليه ، فعطف القتال على زياد فقتله وقال :

نهيتُ زياداً والمهامُه بيننا ... وذكّرته أرحام سَعْد وهَيْثم

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٤٨ وأسد الغابة ٥/٤٧٥
(٢) النقائض ٢ أمه : أصاب أم رأسه . (٣) أخبار المراقة ١٩ وكتاب بكر وتغلب ١٥
(٤) المحاسن والأضداد ٥٥ والمحبر ٤٣٣ والأغانى ١٨/١٣٧

فلما رأيت أنه غير منتهٍ ... أملتُ له كفى بلدْنٍ مقوَّم

ولما رأيت أننى قد قتلته ... ندمت عليه أى ساعة مَنْدم[١]

بل لقد غار الأخ على أخته من أن يتغزل فيها شاعر ، لأن فى غزله تشهيراً بها ، وجرحاً لشرف آلها . علم الإصبع بن محصن أن مالك بن الصمصامة يحب أخته جنوب ، فآلى يمينا لئن عرض لها أو زارها ليقتلنه ، ولئن عرَّض بها فى شعره أو ذكرها ليأسرنه ، ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته فى نادى قومه . فبلغ ذلك مالكا ، فقال فى قصيدة :

فما الحلق بعد الأسر شرٌّ بقيةً ... من الصد والهجران وهى قريب

أحب هبوط الواديين وإننى ... لمشتهٍ بالواديين غريب

أحقاً عباد الله أن لست خارجا ... ولا والجاً إلا علىَّ رقيب[٢]

لهذا كان الغزل بالأخت يتخذ أحيانا وسيلة للكيد والإغاظة والتجريح ، كما تغزل قيس ابن الخطيم بعمرة بنت رواحة فى تمهيده للفخر بانتصار الأوس على الخزرج فى يوم بعاث :

أتعرف رسماً كاطِّراد المذاهب ... لعَمْرة وَحْشاً غير موقف واكب

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب[٣]

فرد عليه عبد الله بن رواحة عدواناً بعدوان ، وتغزل فى ليلى بنت الخطيم أخت قيس :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانب ... نَعَمْ فرشاش الدمع فى الصدر غالبى[٤]

وكذلك تغزل حسان بن ثابت بليلى بنت الخطيم فى فخره بانتصار الخزرج على الأوس فى يوم الربيع[٥] ، فأجابه قيس بغزل تناول فيه عمرة زوجة حسان[٦] .

٥ — ما من شك فى أن إعزاز الرجل لأخته يستتبع إعزازه أيضاً لابن أخته ، ولقد فصلت القول فى الخال ومكانته فى نفس ابن أخته ، ومنزلة ابن أخته من نفسه ، وحسبى أن أذكر هنا أن ابن الأخت كان كثيراً ما يعد من العشيرة ، ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار يوما ، فقال لهم : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا إلا ابن أختنا لنا . فقال رسول الله : ابن أخت القوم منهم[٧] .

---

(١) الأغانى ٢/١٥٩ ساسى (٢) الأغانى ١٩/٨٣

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٠ وطبقات الشعراء ١٩٠

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٨٨ (٥) ديوان حسان ٤١٦ والأغانى ٣/١٢ (٦) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغانى ٣/١٢

(٧) فتح البارى ٦/٤٠٢ وصحيح البخارى ١٤/١٢٣

لذلك كانت قريش والحُمْس يشترطون على من يزوجونه من الحلة أن يكون بنوه حُمْساً مثلهم[١] ويمدح أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ابن أخته زهير بن عاتكة بنت عبد المطلب بقوله :

ونعم ابن أخت القوم غير مكذب زهيرٌ حساماً مفرداً من حمائل[٢]

وإذا كان بشامة بن الغدير لم يورِّث ابن اخته زهير بن أبي سلمى كما ورّث غيره ، فإن زهيراً كان يعتقد أنه ذو حق فى أن ينال من مال خاله كما نال إخوته وعصبته ، فقد قال له : ماذا قسمت لى يا خالاه ؟ فقال له : شعرى . ثم أعطاه من ماله أيضا[٣]

٦ — وكذلك أحبت الأخت أخاها ، واعتزت به ، وكثيراً ما كانت تؤثره على زوجها ، لأن روابط العاطفة فى الجماعات الأولى كانت بين الأب وابنته والأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفى كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ولا يرى زوجته إلا زائراً . بل إن الأخ فى المدنية القديمة كان أعز على المرأة من زوجها ، فزوجة أنتا فرنيز أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة دارا ، كذلك أنتجونا ضحت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها . والفكرة القائلة بأن زوجة الرجل أقرب إنسان إلى قلبه فكرة حديثة ، وغير محققة إلا فى بعض الأمم[٤] » ولم تطق الزهراء بنت وائل أن يتنقص زوجها لبيد بن عنبسة الغسانى من قدر أخيها كليب ، فقالت له فى عزة وغضب : لا أعلم فى العرب ذا لبْدة أشد من كليب . فهاج لبيد ولطمها ، فقالت له : أنا أكرم منك ، وذهبت مغضبة إلى أخيها[٥] .

أليس من الطبيعى إذاً أن تندب الأخت أخاها إذا اخترمه المنون ؟ بلى لقد كانت تندبه بقلبها ولسانها ودموعها ، وكانت ترثيه متفجعة متوجعه .

وكانت الخنساء كغيرها من الجاهليات قد حلقت رأسها ، والتدمت بنعليها حزناً على أخويها ، تقول فى ذلك :

ولكنى رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق[٦]

---

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/١١٥ (٢) المواهب الفتحية ١/١٦٢

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٦٣ تحقيق شاكر . والأغانى ٩/١٥٠ ورسالة الغفران للمعرى ٥٤٧ تحقيق عائشة عبد الرحمن

(٤) قصة الحضارة ول ديورانت ١/٥٨ (٥) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المرقسة ١٩

(٦) ديوان الخنساء ١٧٣ والكامل للمبرد ٢/٢٦٢ ولسان العرب ١١/٣٤٥ قال المبرد : كانت المرأة إذا أصيبت فى حميم جعلت فى يدها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها

وكانت تلبس صداراً من شعر حزناً على أخويها اللذين قتلا فى الجاهلية ، فدخلت على عائشة فقالت لها : يا خنساء هذا نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ما علمت، وقصت عليها إكرام صخر لها ، وقوله لامرأته :

ولو هلكتُ خَرَّقتْ خمارها واتخذتْ من شعر صـــدارها

وقالت : فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدار ، ونذرت ألا أنزعه حتى أموت[1] .

وليس يعنينى كثيراً أن تمجد الأخت أخاها ، وتؤبنه بذكر محامده ، لأن غيرها من الراثين والراثيات يشركونها فى ذلك ، وإنما يعنينى ما ينبىء عن حرقتها ولهيب حزنها . وإنى لأحس حرارة الحزن فى كثير من مراثى الأخوات الإخوتهن ، ولا شك أن زعيمتهن فى هذا الضرب الخنساء ، وأنها المقدمة فى هذا الفن ، فقد تميزت بكثرة مراثيها لأخويها ولا سيما صخر ، وتفردت مراثيها بصدق العاطفة وحرارتها ، فكانت جديرة بالزعامة فى النساء الشاعرات ، وكانت زعامتها منفذاً لنحلها قصائد لم تقرضها .

ويطول بى المقال إن أنا حاولت أن أستشهد من رثاء الخنساء ، وحسبى أن أستدل من إحدى مراثيها على توهج حزنها ، وتضرم لوعتها ، وتذكرها أخاها صخراً ليلها ونهارها ، وصباحها ومساءها ، وأن هذه الذكرى لتحتدّ فى الصباح والمساء ، لأنهما زمن الغارة ، وزمن الضيافة ، وأن حزنها ليشتد بها حتى لتكاد تبخع نفسها ، ولا يعزيها بعض العزاء إلا أنها ترى الموت حقاً على الناس ينزل بهم ، فيبكى الأحياء ويمضهم ، وهى ترى حولها كثيراً من الباكين والباكيات . ثم خَيل لها حزنها الأليم أنه لا مثيل له ، وخيل لها حبها لأخيها أنه فقيد لا فقيد مثله ، فقالت إن البواكى لا ينحن على عزيز عظيم كأخى ، ولكنى أتأسّى بهن، ثم أقسمت أنها ستظل وفية له ذاكرة حتى يحين حينها، ولن يتطرق سرور إلى قلبها ، بل ستعيش حياة كئيبة سوداء لا لذة فيها ولا أنس ، وكيف تستطيب الحياة بعد ما ضم التراب أخاها الحبيب ؟ وهى بذلك كله تكشف عن ألم ممض ، وحزن دفين ، ودمع غزير سخين ، وزفير متلهب :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
ولكن لا أزال أرى عُجولا ونائحة تنـــوح ليوم نَحْس

---

(١) الإصابة ٨/٦٧ والشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ٢/١٩٢ والمحاسن والأضداد ١٤٢

هما كلتاهما تبكى أخاها عشية رُزْئِهِ أو غبَّ أمس
وما يبكين مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسّى
فقد ودعتُ يوم فراق صخر أبى حسّان لذاتى وأنسى
فيا لهفى عليه ولهف أمى أيصبح فى الضريح وفيه يمسى؟(١)

وتتجلى اللوعة أيضاً فى أن أم عمرو بنت مكدّم ترثى أخاها ربيعة بن مكدم بأن دمعها مدرار لا يرقأ ، وحزنها شديد لايهدأ ، ولو أن حب الأخت لأخيها ووجدها عليه يرجعانه أو يحفظانه لحق لها أن تطلب رجعة أخيها أو خلوده . ولو أن الفداء يقى إنساناً الموت لفدته بأهلها جميعاً ، وبمالها :

ما بال عينك منها الدمع مُهْراق سَجْلاً فلا عازب منها ولا راقِ
أبكى على هالك أودى وأورثنى بعد التفرق حزناً حره باق
لو كان يُرْجع ميتاً وجد مشفقة أبقى أخى سالماً وجدى وإشفاقى
أو كان يُفْدَى لكان الأهل كلهم وما أثمِّر من مال له واق
فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة وما سَرَتْ مع السارى على ساق
تبكى لذُكْرَتِهِ عينٌ مفجّعة ما إن يجف لها من ذكره ماق(٢)

ومثل هذا الضرب كثير فى رثاء النساء(٣) .

القريبة

١ — امتدت عزازة الأم والبنت والزوجة والأخت إلى الخالة والعمة والقريبة ، فكانت المرأة العربية عزيزة ، تستمتع بعزتها من مناح عدة ، وتشعر بأن رجالها يقدرونها ويحمونها ، ولقد تسعد فى آن واحد بزوج يحب ، وأب يحدب ، وأخ يعطف ، وابن يبر ، وقريب يحنو . فمثلا حزن السليك بن السلكة السعدى — أمه جارية حبشية — لأنه لم يجد المال الذى يفتدى به خالاته من السبى :

أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة بين الرجال

---

(١) ديوان الخنساء ١٥١ أبو حسان : كنية من كنى صخر (٢) بلاغات النساء ١٧٧
(٣) قتيلة أخت النضر بن الحارث (بلاغات النساء ١١٩) وهند بنت حذيفة (بلاغات النساء ١٧٣) وصفية بنت عبد المهلب (سيرة ابن هشام ١٥٦/٣) والفارعة بنت شداد (الحماسة البصرية ٩٢) وليلى بنت كليب (أشعار النساء للمرزبانى ٤٩/٣) وعمرة بنت مرداس (الأغانى ٦٩/١٣) وعمرة الهذلية (حماسة البحترى ٤٣٠) والخرنق (ديوان الخرنق ٢) .

يشق على أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالى[١]

وكثيراً ما يفدى الرجل بأمه وخالته أو بخالته وحدها ، دلالة على عزازتها وحبه لها ، قال حاتم فى رده على زوجته وقد لامته على كرمه .

فمهلا فداك اليوم أمى وخالتى فلا يأمرنّى بالدنية أسود[٢]

وفدّى عمرو بن قميئة رفاقه الشجعان بخالته :

فقلت لهم سيروا فدًى خالتى لكم أما تجدون الريح ذات سَهام[٣]

وفدى حاجز بن عوف الأزدى رِجْليه — وقد نجاه جريه من أعدائه — بأمه وخالته :

فدى لكما رجلىّ أمى وخالتى بسعيكما بين الصفا والأثائب[٤]

ومن إعزاز القريبة أن يجير لها قريبها كما يجير لأمه وابنته وأخته وزوجته . من ذلك أن مسعود بن معتّب الثقفى — حين دارت حرب بين كنانة وقيس — ضرب خباء على امرأته سُبيعة بنت عبد شمس وقال لها : من دخله من قريش فهو آمن . فجعلت توصل فى خبائها ولكن قيسا انهزمت ، وخاب ظن زوجها ، وهرع القيسيون إلى خباء سبيعة يستجيرون بها ، فأجار لها حرب بن أمية ، وقال : ياعمة من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن . فنادت بذلك ، فاستدار القيسيون بخبائها ، وسمى الموضع مدار قيس .[٥]

وكذلك أجار النبى صلى الله عليه وسلم لعمته أم هانىء اثنين من أحمائها يوم فتح مكة .[٦]

وتقتضى عزازة الخالة أن يثور ابن أختها لغضبها ، فإذا ما رجعنا إلى حرب البسوس ألفينا السبب المباشر لهياجها أن كليبا قتل ناقة رجل من جرم اسمه سعد ، كان جارا للبسوس خالة جساس ، فغضبت البسوس وتألم جارها ، فوعدها جساس أن يعوضه عن ناقته ناقة ، فأبت ، فزادها إلى عشر ، فلما كان الليل رفعت صوتها لتسمع جساسا ، وهى تخاطب جارها الجرمى :

أيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل فإنك فى قوم عن الجار أموات

ودونك أذوادى إليك فإننى محاذرةٌ أن يغدروا ببنيّاتى

لعمرى لو أصبحتُ فى دار منقذ لما ضيم سعد وهوجار لأبياتى

---

(١) الكامل للمبرد ١/٢٥١ (٢) حماسة البحترى ٢٣١ وديوان حاتم ٦ وشعراء النصرانية ١١٢

(٣) ديوان عمرو بن قميئة ٢٢ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ١/٢٥ مخطوط . ذات سهام : ذات توهج (٤) الأغانى ١٢/٤٩ (٥) الأغانى ١٩/٧٩ (٦) سيرة ابن هشام ٤/٣١

ولكننى أصبحت فى دار غُربةٍ متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتى

فلما سمع جساس قولها سكنها ووعدها أن يعقر فى غده جملا أعظم من سراب — ناقة جارها — ووفى بما وعد ، فقتل فى غده كليبا ، وقامت حرب البسوس [١].

وتستتبع عزازة الخالة أن يعز الرجل ابنها ، فإنه لما غزا عمرو بن هند طيئا وأسر منها ، وكان فى الأسرى قيس بن جحدر ، وهو ابن خالة حاتم الطائى ، وفد حاتم على عمرو ، وسأله أن يطلق الأسرى ، فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، فاستعطفه حاتم بقوله :

فككت عديا كلها من إسارها فأَفْضِلْ وشَفِّعْنى بقيس بن جحْدر

أبوه أبى والأمهات امّهاتنا فأنعمْ فدتك اليوم نفسى ومعشرى

فأطلقه [٢].

٢ — وكانت المرأة تقدر هذه القرابة وترعاها ، وتعتز بها ، ففى يوم أحد حُمل شماس ابن عثمان المخزومى إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة ، فقالت أم سلمة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم : ابن عمى يدخل على غيرى ؟ فقال رسول الله : احملوه إلى أم سلمة . فحمل إليها ، فمات عندها .[٣]

ومن رعايتها لهذه القرابة إيثارها الزواج بالأقارب ، وتفضيلها قومها على قوم زوجها كما سبق .

أما حزنها على ابن أختها أو ابن أخيها أو قريبها فإنه يتمثل فى كثير من المراثى ، كرثاء أمية بنت عبد شمس لابن أخيها أبى سفيان بن أمية ، ولقتلى قومها فى حروب الفجار :

أبَى ليلكِ لا يذهبْ ونيط الطرف بالكوكب

وهذا الصبح لا يأتى ولا يدنو ولا يقرب

بعَقْر عشيرة منا كرام الخِيم والمنصب

ألا يا عين فابكيهم بدمع منك مستغْرَب

فإن أبك فهم قومى وهم ركنى وهم منكب

وهم أصلى وهم فرعى وهم نسبى إذا أنسب

وهم مجدى وهم شرفى وهم حصنى إذا أَرْهب

(١) الكامل لابن الاثير ١/٢١٥ وأخبار المراقسة ٢٣

(٢) الأغانى ١٩/١٢٨ (٣) المغازى ٣٠٢ .

وهم رحى وهم تُرْسى وهم سيفى إذا أغضب
. . . . . [1]

ومرثيتها تكشف عن حزن ، وأرق ، وحسرة ، وفخار . وكذلك رثت الخرنق قومها[2] وريطة بنت عاصم[3] ، وهند بنت عتبة[4] ، وصفية بنت مسافر[5].

(١) الأغانى ١٩/٨٠ ستغرب : بالغ منتهاه (٢) ديوان الخرنق مخطوط
(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٦٩ (٤) سيرة ابن هشام ٢/٤١٦
(٥) سيرة ابن هشام ٢/٤١٧

الفصل الخامس

حقوق المرأة المالية

كان العرب فى منزلة وسط بين الملكية وما يشبه الاشتراكية ، ذلك بأن « الخيمة وأثاثها ملك للفرد ، أما الماء والمرعى والأرض الصالحة للزرع فهى ملك شائع للقبيلة كلها »(١)

وقد ذكر سترابون أن اشتراكية الأسرة فى الملكية كان النظام الشائع فى اليمن ، لكن الرجل الأكبر هو المهيمن على الثروة .(٢)

وفى هذا النظام الوسط بين الملكية والاشتراكية كان للفرد أن يقتنى ويحوز ، وللقبيلة أن تقتطع منه ما تحتاج اليه فى تحمل الديات ودفع المغارم والإنفاق على الغارات وإكرام الوافدين .

ملكية المرأة :

اشتركت المرأة فى هذه الملكية ، ولكن فى طور متأخر أجحف الرجال بها ، وكثيراً ما كانت تعجز عن المطالبة بنصيبها ، وتعجز عن نيله بالقوة . على أنها كانت فى هذا الطور تمتلك بأن يتدخل قريب من أقاربها لينيلها حقها .(٣)

١ — ولست أشك فى أن المرأة الجاهلية كانت تملك ، فالقرآن الكريم يثبت ملكيتها ، والشعر يذكرها ، والأخبار كثيرة فيها . قال تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »(٤) . وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من يتامى النساء اللائى يتولون شئونهن ، لا رغبة فيهن ، بل فى ما لهن ، وكانوا يسيئون صحبتهن ويتربصون بهن الموت ليرثوهن ، وقد سأل عروة بن الزبير السيدة عائشة رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت : يابن أختى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشاركه

(١) تاريخ العرب ١/٣٣ فيليب حتى (٢) Muslem Law. P. 21

(٣) Muslem. Law P. 28 (٤) النساء ٣

فى ماله ويريد أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن[١] . وروى عنها أيضاً فى تفسير قوله تعالى : « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما »[٢] أن المراد اليتيمة التى تكون عند الرجل ، لعلها أن تكون شريكته فى ماله وهو أولى بها ، فيرغب عنها أن ينكحها ، فيعضلها ليحتجز مالها ، ولا ينكحها غيره حتى لا يشركه أحد فى مالها[٣] . والرواة جميعاً على أن لليتيمة مالا[٤] .

٢ — أما الأخبار التى تثبت ملكية النساء فمستفيضة . يقول حاتم الطائى لامرأته وقد لامته على البذل إن مالك كثير مصون ، فلماذا تلومينى على أن أسخو بمالى .

تلوم على إعطائى المال ضِلّة ... إذا ضن بالمال البخيل وصَرَّدا
تقول : ألا أمسك عليك فإننى ... أرى المال عند المُمْسكين معبَّدا
ذرينى وحالى إن مالكِ وافر ... وكل امرئ جار على ما تعوَّدا[٥]

وقد كانت أم حاتم عُتْبة بنت عَفيف كريمة ، لا يسألها أحد شيئاً إلا أعطته ، وكانت ذات يسار ، ولا تمسك شيئاً ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، ثم دفعوا إليها صِرْمة من إبلها[٦] ، فهى مثرية ذات مال خاص بها ، وإخوتها يرون سفهاً فى بذلها فيحجرون عليها ، ثم بعد حين يردون عليها قطيعاً من إبلها .

كذلك روى أن بنت مهلهل بن زيد أخت زيد الخيل كانت تملك مائة من الإبل مع فحلها[٧] ، وأن هند بنت صعصعة جد الفرزدق قالت : من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لى أن أضع خمارى معهم فلها صِرْمتى[٨] ، وكان لضُباعة بنت عامر بن قرط مال كثير[٩] ، وكانت السيدة خديجة صاحبة مال ومتاجر ، وكانت تستأجر رجالا من قريش ليتاجروا لها ، وقد تاجر لها النبى صلى الله عليه وسلم فى اليمن وفى الشام ، وتقاضى منها أجره أربع بكرات أو قلوصين[١٠] . وفى حديث السيدة أسماء للرسول قولها : يا رسول الله مالى

---

(١) فتح البارى ٩/٩١ وتفسير الطبرى ٥/١٩٣ وروح المعانى ٤/١٨٩ (٢) النساء ١٢٧
(٣) فتح البارى ٩/١٦٠ وتفسير الطبرى ٥/١٩٢ (٤) تفسير الطبرى ٥/١٩١ — ١٩٥
(٥) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠ (٦) الأغانى ١٦/٩٣ وذيل الأمالى ٢٣
(٧) الأغانى ١٦/٤٩ — ٥٠ (٨) النقائض ٢٦٤ (٩) أشعار النساء للمرزبانى ٢٤
(١٠) إنسان العيون ١/١٤٧ — ١٥٢

مال إلا ماأدخل علىّ الزبير فأتصدق . قال : « تصدقى ولا تُوعِى فَيُوعَى عليك [١] . ومعنى ذلك أن لغيرها من النساء ما لا يتصدقن منه ، أو أنها مظنة أن يكون لها مال كغيرها تتصدق منه .

الملكية بين المرأة العربية وغيرها

هذا الحق الذى خُولته المرأة العربية فى الجاهلية لم تنله إلا المرأة المصرية ، لأن النساء فى مصر القديمة كن يملكن (حوالى ٤٠٠٠ ق م) أكثر الأراضى ، وذلك بأن التركة كانت تورث فى الأعم الأغلب بطريق النسب إلى الأم [٢] . والمرأة البابلية ، لأن النساء كن يمتلكن ، وكن حرات فى أن يتعاقدن ، وكن يرثن [٣] .

على أن أكثر النساء كن محرومات منه ، كالمرأة العبرية واليونانية .

ولم يكن القانون الإنجليزى الذى سن فى القرن الثامن عشر بأعظم حدبا على حق المرأة فى التملك ، فقد حرمها كل حقوقها المالية تقريباً ، فنزلت عن ثروتها عند الزواج ، ورأى المشرعون فى ذلك صوناً للمرأة ورعاية ، حتى قال بلاكستون Blackstone فى شرحه على قوانين انجلترا ١٧٦٥ م : إن القيود التى ترزح تحتها المرأة يراد بها فى الغالب حمايتها وخيرها ، لأن القانون الانجليزى يؤثرها بعطف شديد [٤] .

ولم تُخوَّل المرأة الإنجليزية حق التملك إلا منذ ١٨٨٢ م مع أنها كانت تزاول أعمالا ، ولكن أجرها للأب أو للزوج [٥] ، فهى محرومة حق الملكية ، وحق التصرف .

وما زالت المرأة الفرنسية المتزوجة محظوراً عليها تصرفها فيما تمتلك إلا بإقرار زوجها ، ما لم تشترط فى عقد الزواج أنها حرة فى تصرفها المالى بعد الزواج [٦] .

حرية المرأة فى التصرف المالى

ليس حق الملكية وحده دليلا على علو مكانة المرأة ، فإن المرأة الرومانية كانت تملك ، ولكنها محرومة حق التصرف المالى ، وزوجها هو الوصى على مالها ، وله أن يقيم وصياً

---

(١) صحيح البخارى بشرح الكرماني ١٢٦/١١ لا توعى : أى لا تبخلى .

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٨ Mrs Ray Strachey

(٣) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٦ Mrs Ray Strachey

(٤) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray Straehey (٥) المرأة فى العصور ٩٤

(٦) القانون المدنى الفرنسى . بلانيول وريبير ص ٦٢٠ بند ١٨١٠ و ١٨١٩

يخلفه بعد موته . كذلك كانت المرأة العبرية فى طور متأخر تملك بالميراث ، ولكن زوجها هو السيد والوصى ، وحتى النذر الذى كانت تنذره لا قيمة له ما لم يؤيده زوجها .

أما المرأة العربية فقد استمتعت بالحقين معاً : التملك والتصرف . ويظهر أن الحضريات عامة كن أكثر أملاكا وأعظم حرية فى تصريف شئونهن المالية .

ومن أمثلة هؤلاء السيدة خديجة بنت خويلد ، فقد كانت تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم بشىء تجعله لهم [١] . وأسماء بنت مخرِّبة أم عبد الله ابن أبى ربيعة كانت تتاجر فى العطور بالمدينة ، وكانت تجلبها من اليمن [٢] . وكانت تبيع عطرها إلى أجل مسمى [٣] . ومليكة والدة السائب بن الأقرع كانت تبيع العطر زمن النبى صلى الله عليه وسلم [٤] . وكانت مَنْشم عطارة يغمسون أيديهم فى طيبها ويتحالفون عليه أن يستميتوا فى الحرب ، أو كانت تبيع الحنوط أيضاً ، وسموا حنوطها عطراً لأنهم أرادوا به طيب الموتى [٥] . وقد حدثت قَيْلة أم بنى أنمار أنها جاءت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المروة فى إحدى عُمَره فقالت : « يا رسول الله إنى امرأة أبيع وأشترى ، فربما أردت أن أشترى السلعة فأعطى بها أقل مما أريد أن آخذها به ، ثم زدت ثم زدت حتى آخذها بالذى أريد أن آخذها به ، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستُمتُ بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ، ثم نقصتُ ثم نقصتُ حتى أبيعها بالذى أريد أن أبيعها به . فقال لها الرسول : لا تفعلى هكذا يا قيلة ، ولكن إذا أردت أن تشترى شيئاً فأعطى به الذى تريدين أن تأخذيه به ، أُعطيتِ أو مُنعتِ . وإذا أردت أن تبيعى شيئاً فاستامى الذى تريدين أن تبيعيه به أُعطيت أو مَنعت » [٦] .

ومعلوم أن ممارسة التجارة باب واسع من أبواب التصرف المالى .

ولقد خولتها حرية التصرف المالى أن تخالف أباها وإخوتها ، فقد كانت غنية بنت عفيف أم حاتم من أسخى الناس وأقراهم للضيف ، وكانت لا تبقى على شىء تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، فمكثت دهراً ، ثم أعطوها صرمة من إبلها ، فسألتها امرأة محتاجة ، فأعطتها الصرمة وقالت :

لعمرى لقدما عضنى الجوع عضة ... فآليت ألا أمنع الدهرَ جائعا
فقولا لهذا اللائمى اليوم أعطنى ... فإن أنت لم تفعل فَعضَّ الأصابعا

---

(١) أسد الغابة ١/١٦ وتاريخ الطبرى ٢/١٩٦ (٢) الإصابة ٨/١٠ والأغانى ١/٦٤
(٣) الطبقات الكبير ٨/٢٢٠ (٤) الإصابة ٨/١٩١ (٥) مجمع الأمثال ١/٣٤٨
(٦) الطبقات الكبير ٨/٢٢٨

فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركى يابن أمّ الطبائعا (١)

وكانت سفانة بنت حاتم من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتهبها الناس ، فقال لها : يابنية إن الغويّين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإما أن أعطى وتمسكى وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، وقال : وأنا والله لا أمسك أبداً . قالت : فلا تتجاور ، فقاسمها ماله وتباينا (٢) . وقد سبق فى الخلع والعضل ما يدل على حريتها فى التصرف المالى .

المرأة والميراث

المؤرخون والمفسرون مطبقون جميعا على ان المرأة كانت مسلوبة حق الميراث ، لأن أهل الجاهلية لم يورثوا النساء ولا الصغار من الغلمان،وقالوا : لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة (٣) . وقالوا إن العرب ظلوا على ذلك إلى أن مات أوس ابن ثابت — وقيل أوس بن مالك ، وقيل ثابت بن قيس — وترك ابنتين وابنا صغيراً ، وزوجته أم كحة — أو بنت كحة أو أم كحة أو أم كلثوم — فجاء ابنا عمه فأخذا ميراثه كله ، ولم يتركا لامرأته وأولادها شيئا ، لأنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً ، فقالت امرأته لهما : تزوجا اليتيمتين — وكان بهما دمامة — فأبيا ، فأتت رسول الله فأخبرته ، فدعاهما ، فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرسا ، ولا يحمل كلاً ولا ينكى عدواً . فقال : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن . فانصرفوا ، فأنزل الله الآية الكريمة : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (٤) . ثم نزلت بعد ذلك « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » (٥) . ثم نزلت (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . . . . والله عليم حليم) (٦) .

---

(١) الأغانى ١٦/٩٣ وذيل الأمالى ٢٣ (٢) ذيل الأمالى ٢٣ والأغاني ١٦/٩٤
(٣) تفسير الطبرى ٤ ، ١٨٥ و ٥/١٩١ والكشاف ١/١٩٠
(٤) النساء ٧ (٥) النساء ١٢٧ (٦) النساء ١٢

لكن ذلك فى حاجة إلى مناقشة وتمحيص :

١ — فلو أن حرمان المرأة من الميراث عرف عام فى العرب ماشكت أم كحة للرسول أنها وأولادها قد حرمن الميراث ، وإنما تدل هذه الشكاة على أن أولياء الميت كانوا عادة يعطون الزوجة والبنات بعض ماترك ، وهم فى هذه الحادثة ضيقوا على الزوجة وأولادها واحتازوا التركة كلها ، فلم تجد بداً من أن تستنجد برسول الله ، فكان حكم القرآن فيصلا بين المرأة والرجل إلى اليوم .

٢ — ثم إننى أجد فى الطبرى نصاً آخر أستنتج منه أن الثروة كانت من نصيب الولد الأكبر وحده لأنه يقول : « فكانوا لايعطون الميراث إلا من قاتل ، ويعطونه الأكبر فالأكبر [١] .

ويمعارضة هذا النص بسابقه أستنتج أن الذكور الكبار والمقاتلين كانوا يفضلون على الذكور الصغار وعلى الإناث فى تقسيم الغنائم والأسلاب ، لأن عبء القتال ، وتبعة الثأر ، وحماية الحوزة كانت كلها على الرجال وحدهم دون الأطفال والنساء ، فحق لهم أن يستأثروا بالأسلاب ، لأنهم هم الذين غنموها ، وهم الذين ألقوا بأنفسهم فى معامع القتال .

٣ — وإذا كان النظام العام ألا ترث المرأة فمن أين حصلت النساء على ما ملكن ؟ حتى لقد كان بعضهن ثريات مشهورات الثروة كما سبق . ومن أين حصلن على المال الذى كان يزين لبعض الرجال أن يعضلوهن حتى يفتدين أنفسهن ، أو حتى يمتن فيرث الرجال ما خلفن ؟

قد يقال إنهن حزن هذا المال عن هبة أو وصية أو عطاء ، وأنا لا أجحد هذا ، ولكنى أرى أن التى تنال مالاً بهبة أو وصية أو عطاء أجدر بأن تناله أيضا بالمشاركة فى التركة على أى وجه من وجوه المشاركة .

والقرآن الكريم أوصى بالرعاية على اليتامى فى مالهم ، وحظر أكله بالباطل ، وحبب إلى المسلمين نكاح اليتامى على أن يُعطين صداقهن كاملا «وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا » [٢] « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » [٣] « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » [٤] وقد أوصى النبى باليتامى أصحاب المال خيرا ، وحذر الأوصياء من العدوان على مالهم . ومن المعقول

(١) تفسير الطبرى ٤/١٨٥ (٢) النساء ٢ (٣) النساء ٣ (٤) النساء ٦

أن يكون بعض هؤلاء قد ورثوا قبل مشرق الإسلام ، وأن يكون آخرون قد ورثوا فى مشرق الاسلام ، لأن القرآن الكريم ينص على أن اليتامى كان لهم مال قبل أن تنزل السورة (وآتوا اليتامى أموالهم . .) وذلك أن بعض الأوصياء كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون لليتيم الردىء والخسيس مكانه ، فنهاهم الله عن هذا التبديل ، ونهاهم عن خلط مال اليتامى بمالهم حتى لا يأكلوه . وقد تشدد بعض الأوصياء فى تحرزهم حتى كرهوا أن يخالطوا اليتامى ، فنزل قوله تعالى « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم » .(١)

كذلك ينص القرآن الكريم على أن الإناث اليتامى كان لهن مال « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ، والمراد كما قالت السيدة عائشة أن تكون اليتيمة منهن فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من صداقها ، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق ، أو أن تكون اليتيمة ذات مال فلعلّ وليها ينكحها لمالها وهى لا تعجبه ، ثم يسىء صحبتها ، فنهوا عن هذا .(٢)

٤ — وقد عثرت على نصوص فريدة تكشف الحجاب عن هذه الحقيقة : أن المرأة كانت ترث ، وهى نصوص كالشعاع الذى ينبعث من خلال السحب الكثيفة يعلن أن الشمس ها هنا ضوؤها لكنه لم يذهب كله ، ولم تغرب الشمس . هى كالأثر الوحيد الذى بقى سليما على عوادى الدهر وعوادى الناس فى أكداس من آثار مهشمة ، ونقوش ممسوخة ، وألواح محطمة .

(ا) يقول ابن حبيب : « ورّث ذو المجاسد وهو عامر بن جُشم بن غَنْم بن حُبَيّب ابن كعب بن يشكر ماله لولده فى الجاهلية ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، فوافق حكم الإسلام »(٣)

(ب) ويذكر ابن حزم الأندلسى أن عامر بن جشم أول من أعطى الذكر حظين والأنثى حظا(٤). ولم يكفل البقاء لهذا الأثر أن ذا المجاسد ورث بناته ، وإنما كفل له البقاء أنه فَرَى فَرْياً عجباً اتفق مع ما شرع الإسلام ، ولولا هذا لضاع ما عمله ذو المجاسد كما ضاع ما عمل غيره .

---

(١) تفسير الطبرى ٤/١٥٤ (٢) تفسير الطبرى ٤/١٥٥ وسنن أبى داود ١/٢٠٥
(٣) المحبر لابن حبيب ٢٣٦ (٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٩٠

(ح) ووجدت الواقدى يذكر فى قصة أم كحة أنها قالت للنبى عليه الصلاة والسلام : لقد مات بعلى فانتقل الميراث إلى أخيه ، وبقيت بناته بدون مال ، ولكن أنَّى للبنات أن يتزوجن إذا لم يكن لديهن مال ؟ (١) . فهذه الزوجة تشكو إلى النبى أن عم بناتها قد استأثر بمال زوجها ، وتقرر حقيقة كانت شائعة ، هى أن البنات الثريات مرغوبات ، وتعجب من أن يُقبل أحد على بناتها وهن لا مال لهن ، وتصرخ من استئثار الرجل بتركة أخيه ، ومعنى هذا أنها كانت تتوقع كما يتوقع غيرها من هذا العم أن يترك لبنات أخيه نصيبا من تركة أبيهن .

(ى) ثم أجد نصاً رابعا فى الطبرى صريح الدلالة : « كان جابر بن عبد الله الأنصارى ثم السلمى له ابنة عم عمياء ، وكانت دميمة ، وكانت قد ورثت عن أبيها مالا ، فكان جابر ترغب عن نكاحها ، ولا ينكحها ، رهبة أن يذهب الزوج بمالها ، فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وكان ناس فى حجورهم جوار أيضا مثل ذلك ، فجعل جابر يسأل النبى : أترث الجارية إذا كانت قبيحة عمياء ؟ فجعل النبى يقول : نعم » (٢) . ولا شك أن هـــذه كانت ورثت فى الجاهلية ، بدليل أن جابرا رغب عن أن يتزوجها ، وعضلها . وفى سؤال جابر أترث الجارية القبيحة العمياء ؟ دليل على أن مبعث الاستنكار أو العجب أنها مُوفة لا أنها أنثى .

(ه) كذلك وجدت أن ضُباعة بنت عامر بن قرط ورثت من زوجها هوذة بن على الحنفى مالا كثيرا ورجعت به إلى قومها (٣) .

٥ — لست أشك إذاً فى أن المرأة كانت ترث فى كثير من الأحيان ، وأن بعض الناس كانوا يحرمونها حقها فى التركة بغيا منهم وعدوانا . ولكن لم تكن المرأة ذات حق معلوم مقرر كهذا الذى حدده القرآن الكريم ، وإنما كان العرب يسيرون مع المرأة على نظام يشبه التخارج فى الإسلام ، فيرضونها بمقدار من المال قل أو كثر . وليس فى هذا الحرمان ما يغض من قدر المرأة ، لأن هؤلاء الذين حرموها كانوا يخارجونها على قدر من التركة .

ولو أن خَتَنَ أم كحة خارجاها هى وأولادها على شىء من تركة زوجها ما شكت إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

ولا غرابة فى هذا ، فإن بعض المسلمين فى مصر يفعلون ذلك إلى الآن ، ولقد يخص الوالد بنيه الذكور بقسط من ثروته ، ويدع الباقى ليقتسمه البنون والبنات بعد وفاته .

---

(١) المغازى ١٤٧ (٢) تفسير الطبرى ٥/١٩٣ (٣) أشعار النساء للمرزبانى ٢٤

ولقد يكسر بعضهم ماله كله على الذكران ويدع الإناث ، أو يخصهن بنصيب ضئيل . فهل معنى ذلك أن هذا نظام عام فى المسلمين ؟ أو أنه هو نظام الإسلام ؟ لا . كذلك كان العرب يفعلون فى توريث البنات ، كما كانوا يفعلون فى الزواج ، أكثرهم لا ينكح امرأة الأب ، ولا يجمع بين الأختين ، وأقلهم كان يفعل ذلك . « ومازالت بعض الأسر الكبيرة فى داخل سوريا ولبنان — وهم الإقطاعيون الذين يرغبون فى أن يبقوا على نفوذهم وثرائهم — لا يورثون النساء ، لأن تقسيم الثروة وإشراك الصهر الغريب فيها يضعفهم ، لذلك يلجأ بعضهم إلى حرمان بناتهم من الميراث ، ويعوضونهن نقداً ، ويحتفظون بالأرض للذكور »[1] .

ومالنا لا نعود القهقرى إلى عهد عمر رضى الله عنه ، لنجد غيلان بن سلمة الثقفى قد أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبى : اختر منهن أربعا ، فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر ، فقال : إنى لأظن الشيطان فيما يسترق السمع سمع بموتك فقذفه فى نفسك ، ولعلك لا تمكث إلا قليلا . وأيم الله لتراجعن نساءك ، ولترجعن فى مالك أو لأورثهن منك ، ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبى رِغال »[2] .

ذكور لا يرثون

وإذا كانت المرأة قد حرمت الميراث أحياناً ، عسفا من إخوتها أو ولى المتوفى فإن هذا الحرمان لاينافى مكانتها العالية التى أسلفتها فى مواضع شتى ، لأن الذكور كانوا يحرمون أيضاً ، وقد سبق أن الصغار كانوا يرثون . وقد مات أبو طرفة — وطرفة صغير — فأبى أعمامه أن يقسموا له ماله ، فقال .

ما تنظرون بمال وردة فيكم ... صغر البنون ورهط وردة غُيَّب
قد يبعث الأمرَ العظيمَ صغيرُه ... حتى تظل له الدماء تَصَبَّب[3]

وكان الحطيئة ينسب إلى أوس بن مالك العبسى تارة ، وإلى الأفغم بن رباح الشيبانى تارة ، وقد أتى أخويه من أوس يطلب منهما بعض المال ، فرفضا ، فهجاهما ، ثم لحق بإخوته من بنى الأفغم ومدحهم ، ومن مدحه قوله :

---

(١) عائشة أم المؤمنين لزاهية قدورة ٣٦ (٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ١٣٩ وكنز العمال ٨/ ٢٩٠ أبو رغال : رجل من ثمود أو هو دليل الحبشة فى سيرهم إلى مكة
(٣) خزانة الأدب ٢/ ١٨٦

قومى إذا انتسبوا ففرعهـــم فرعى وأثبتُ أصلهم أصـــــلى

وسألهم ميراثه من الأفغم ، فأعطوه نخيلات لم تقنعه ، فسألهم ميراثه كَمَلاً ، فلم يعطوه شيئا ، فغضب عليهم ، وهجاهم ، وانسلّ من النسب إليهم ، وانتسب إلى أوس بن مالك[١] .

ثم إن الزوج كان لا يرث زوجته أحيانا « لأن الحرة إذا ماتت آلت أملاكها إلى أولادها ، فإن لم يكن لها أولاد فإلى إخوتها وأقاربها من القبيلة . أما الرقيقة فإن زوجها كان يستولى على أملاكها ، فإن مات الزوج لم ترث منه الرقيقة شيئا بل تسلم إلى بنيها منه أو إلى ورثته »[٢] .

امتياز المرأة العربية بالميراث

وإذاً فقد تميزت المرأة العربية من نساء العالم القديم ، لأنهن كن محرومات من الميراث فى قانون حمورابى والقوانين الأشورية . ولم يكن لهن إلا المهر يدفعه الأب لابنته ، فإذا مات قبل أن يمهرها منحها إخوتها جزءاً من ريع ماخلف أبوهم ، أما العين فلهم وحدهم[٣] .

وكانت المرأة العبرية لا ترث قديما ، بل لقد كانت تورث كما يورث متاع الرجل ، ثم ورثت البنت أباها فى عصر متأخر إذا لم يكن له أبناء ، فإذا خلف ذكراً حجبها ، فلا ترث شيئا[٤] ، وإذا ماورثت فعليها أن تتزوج رجلا من أسرة أبيها من قبيلته ليرث كل من بنى إسرائيل نصيب آبائه ولا ينتقل ميراث قبيلة إلى أخرى[٥] ، وبذلك تنتقل أملاك المرأة إلى تصرف زوجها ، فكأنها لم ترث شيئا . أما الزوجة فلا حق لها فى ميراث زوجها ، بل ظلت تورث كما تورث تركته[٦] .

كذلك لم ترث المرأة اليونانية ؛ فإذا مات أبوها ورثه إخوتها ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجت أكبر الوارثين الأقربين ، فهى ذات صلة بالتركة لكنها لا تنال منها شيئا ، وولدها من هذا الزوج ينسب إلى جده لأمه ، وإليه ينتقل ما خلف هذا الجد[٧] .

---

(١) خزانة الأدب ٢/١٧٤ (٢) Muslem Law P. 34

(٣) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧١ (٤) النظم الاجتماعية ١٧٠ (٥) The Holy Bible Numbers 36. 8—9 وسفر العدد إصحاح ٣٦ آية ٨ و٩ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠

(٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٤

ولم ترث المرأة الحبشية مخافة أن ينتقل الملك بالزواج إلى الأجانب ، إلا إذا فقد الورثة من الذكور إلى الدرجة السادسة . وكان مثل هذا القانون عند الفرنجة [١] .

الإسلام وتوريث النساء

ومهما يكن من شيء فقد كفل الإسلام للمرأة حقا معلوما ، ونصيبا مقرراً مقدراً مفروضا فى التركة ، فاستكملت المرأة حقوقها المالية . ولا شك أن نظام التوريث فى الإسلام قد استوفى العدل والإنصاف والرحمة جميعا ؛ لأنه فرض للمرأة نصف الرجل ، والرجل هو المكلف الإنفاقَ على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده منها وإن كانت ذات مال ، وهو المكلف البذلَ فى وجوه أخرى لا تكلفها المرأة . فالإسلام سخّى فى فرضه للأنثى نصف الذكر ، « ويظهر من مقابلة الإسلام بالقوانين الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات — اللاتى يزعم بعض الناس أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف — حقوقا فى الميراث لا مثيل لها فى قوانيننا [٢] » .

لهذا فإن ليفى Levy يجافى الحق فى دعواه أن حق الملكية والميراث فى الإسلام نظرى لا عملى ، وأن البنات لا يرثن فى كثير من القبائل [٣] . لأن حرمان المرأة ميراثها معصية لله لا يجرؤ عليها إلا شذاذ من الناس ، وهؤلاء الشذاذ كثيراً ما يقدرون للنساء نصيبا ، سواء أكان المقدر لهذا النصيب الأب قبل موته — إذ قسم أكثر أملاكه على الذكور ببيع صورى وترك بعضها ليقتسمه الذكور والإناث بعد وفاته ، أم وزع أملاكه على الذكور جميعا بنسب يراها — أم أن الذكور اتفقوا مع الإناث على أن يخرجن من التركة لقاء نصيب معين .

---

(١) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٦٩

(٢) حضارة العرب . جستاف لوبون ٤٧٤

(٣) An. Introduction to the Sociology of Islam by Levy P. 141

الباب الثانى

المرأة فى الحياة العامة

جلوت صور المرأة فى الحياة الأسرية فى الباب الأول ، والآن أشرع أجلو صورها فى الحياة العامة .

والبابان معاً دراسة للمرأة فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وهما متصلان اتصالا يقرب من التداخل أحيانا ، لكن دواعى الفصل بينهما أقوى من دواعى الإدماج والوصل ، ذلك بأن المرأة أما وزوجة وبنتا وأختا وقريبة وذات حق فى حيازة المال وامتلاكه ألصق بحياة الأسرة ، وأوثق صلة بنظامها ، من صلتها بحياة المجتمع ونظم القبائل ، فهى فى هذا الباب عضو فى أسرة وإن لم يزايلها اشتراكها فى المجتمع .

أما المرأة من حيث أخلاقها ومشاركتها فى الحروب وأعمالها وصناعاتها وسفورها وحجابها فإنها أقوى وشيجة بالحياة العامة ، وبنظم المجتمع كله ، فهى هنا عضو فى جماعة ، أو فرد فى قبيلة ، وإن لم تنفك عنها سمتها الأسرية .

وإذاً فقد كانت دراسة المرأة فى الباب الأول لإبراز مكانتها وقيمتها فى الأسرة ، أما دراستها فى هذا الباب فهى لجلاء أعمالها ومكانها فى القبيلة وفى المجتمع كله .

الفصل الأول

أخلاق المرأة

شجاعتها النفسية

سأتحدث فى فصل الحرب عن شجاعة المرأة العملية ، إذ قادت الجيش ، وأسهمت فى الحرب ، والان أتحدث عن شجاعتها النفسية ، وجراءتها القلبية . وللمرأة فى هذا المجال نصيب أى نصيب . فهى لا تتطامن وإن كان الهلاك محدقاً ، ولا تذل وإن رأت النكال محققاً . فقد أقسم عمرو بن هند بعد يوم أُوارة ليحرقن من بنى حنظلة مائة ، فأحرق ثمانية وتسعين ، ثم أقبل وافد من البراجم فأتم به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا الحمراء بنت ضَمْرة بن جابر . . . . . بن دارم ، فقال : إنى لأظنك أعجمية . فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم . قال : فمن زوجُك ؟ قالت : هَوْذَة بن جَرول ، قال : أين هو ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعرف مكانه حال بينى وبينك . فقال : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار . فقالت : أما والذى أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهادك ، ويسلبك ملكك ، ماقتلت إلا نساء أعاليها ثُدِىٌّ ، وأسافلها حُلِىّ . قال : اقذفوها فى النار . فالتفتت ، فقالت : ألا فتًى يكون مكان عجوز ؟ فلما أبطئوا عليها قالت : صارت الفتيانُ حُمَمًا . فأحرقت [1] .

وكانت تستطيع أن تنجو إذا ألانت القول ، وخضعت للملك الجبار الحانق ، ولكنها كانت جريئة مغيظة ، فجبهته بما لم يكن يتوقع .

---

(١) الأغاني ١٩/١٢٩ ومجمع الأمثال ١/٣٦٠

ولقد يطبق قومها على خطأ فلا تحفل بإطباقهم ، ولا تكترث بلومهم لها ، من ذلك أن يزيد ابن عبد المدان كان قد أسر عامر بن مالك ملاعب الأسنة وأخاه عبيدة بن مالك، ثم أطلقهما ، فلما مات يزيد رثته أختهما زينب بنت مالك وذكرت نعمته مرتين [١] . فلامها قومها وعيروها أن بكته ، فردت عليهم بقولها :

ألا أيها الزارى علىَّ بأننى ... نِزايَةَ أبكى كريما يمانيا
ومالى لا أبكى يزيدَ وردَّنى ... أُجُرَّ جديداً مدْرعى ورداثيا [٢]

ومن شجاعتها أنه بعد فتح مكة بايع الرسول الرجال ثم النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة تخشى مافعلت يوم أحد ، فقال رسول الله : تبايعنى على ألا تشركن بالله شيئا . فقالت هند . والله إنك لتأخذ علينا ما لم تأخذه على الرجال ، وسنؤتيكه . قال : ولا تسرقن، قالت : والله إن كنتُ لأصيب من مال أبى سفيان الْهَنة والْهَنة ، وما أدرى أكان ذلك حِلًّا لى أم لا . فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزنين . قالت : يا رسول الله هل تزنى الحرة ؟ قال : ولا تقتلن أولادكن . قالت : قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب . . . . . قال : ولا تعصينى فى معروف . قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف [٣].

وشجاعة هند تتجلى فى قولها : ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ، وفى قولها . إنك تأخذ علينا ما لم تأخذه على الرجال .

وقد تزعمت أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية بنات جنسها ، وكانت نقيبتهن إلى النبى ، تطالب بحقوق المرأة ، وتريد أن تساويها بالرجل فى الثواب ، وأعلمته أنها سفيرة النساء إليه ، ودللت على مطلبها بما أعجب رسول الله ، ووفقت فى سفارتها ، وعادت مزهوة بما نالت لبنات جنسها من خير . ذلك أنها قالت لرسول الله : إنى رسولُ مَنْ ورائى من جماعة النساء ، يقلن بقولى وعلى مثل رأيى ، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن مشر النساء مقصورات مخدَّرات قواعد بيوت . . وحاملات

---

(١) الأغانى ١٠/١٤٣ (٢) الأغاني ١٠/١٤٣
(٣) تاريخ الطبرى ٣/١٢١ والمغازى ٤١٦ والطبقات الكبير ٨/١٧٢

أولادكم، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم فى الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت إلى أصحابه وقال لهم : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ فقالوا : لا يارسول الله. قال انصرفى يا أسماء ، وأعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعّل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرتِ . فانصرفت وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله (١) .

ولم تطغ هيبة عمر بن الخطاب ورهبته على شجاعة المرأة فتسكت عما ترى فى قوله من مخالفة القرآن، والانتقاص من حقوق النساء ، فى حين سكت الرجال . ذلك أن عمر قال : أيها الناس ما هذه الصداقات التى قد مددتم إليها أيديكم ؟ لا يبلغنى أن أحداً جاوز بصداقه صداق النبى صلى الله عليه وسلم . فقامت امرأة برزة فقالت : ما جعل الله لك ذلك يابن الخطاب ، وقد قال الله عز وجل : « وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فقال عمر : ألا تعجبون ؟ أمير أخطأ وامرأة أصابت (٢) .

استمساكها بعقيدتها

إذا دان الإنسان بعقيدة وأشربتها روحه فأخلص لها ، ثم ابتلى فيها فنافح عنها بنفسه ودمه وماله فهو عزيز النفس ، قوى الشخصية ، ذو رأى يخضع له ، وليس إمّعة تبيعاً . فهو يلاحى عن عقيدته حتى يتبين له بطلانها ، فينزعها من نفسه غير أسيف عليها .

كان كثير من رجال الجاهلية على ذلك ، فماذا كان نصيب النساء ؟

١ — صبرن على الأذى ، وفدين عقيدتهن بأنفسهن إذ اعتصمن بالشرك ، ونافحن عنه . ولست أشيد بهن إعجاباً بعقيدتهن أو إيثاراً لهن ، وإنما أريد أنهن ذوات عقيدة نافحن عنها ؛ لأنها فى رأيهن الحق ، فلما استبان لهن ضلالها ، وشرح الله صدورهن للإيمان سارعن إليه بقدر ماكن ينفرن منه ، وأخلصن له بقدر ماكن يبغضنه . وهن فى هذا شبيهات بعمر ، كان من أشد المشركين بغضة للإسلام وللنبى ، فلما هداه الله إلى الحق كان أحد رجلين رجا المسلمون أن يعز الله بهما الإسلام .

---

(١) الاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة ١٤٩ مخطوط ونزهة الأبصار والأسماع فى أخبار ذوات القناع ٣٩ وصحيح مسلم . (٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١/٣٧٥ وبلاغات النساء ١٢٨

وهؤلاء المشركات كثير ، منهن العَصْماء بنت مَرْوان من بنى أمية ، كانت تحت يزيد ابن يزيد بن حِصْن الخطمى ، وكانت تؤذى النبى وتعيب الإسلام ، وتحرض على الرسول ، وتهجو المسلمين بشعرها ، كقولها :

فباسْتِ بنى مالك والنَّبيت ... وعَوْف وباست بنى الخزرج
أطعتم أتاوىَّ من غيركم ... فلا من مُراد ولا مَذْحج
تُرَجُّونه بعد قتل الرءوس ... كما يُرتَجَى مَرَقُ المُنْضج (١)

فآلى عُمَيْر بن عدىّ الخطمى أن يقتلها إذا رد الله الرسول من بدر إلى المدينة ، ووفى بنذره فقتلها ، وأشاد حسان بن ثابت بعمير .

ومنهن أم جميل بنت حرب بن أمية ، كانت زوجة لأبى لهَب ، وقد أظهرت صنوف العداوة للنبى ، وأثارت عليه حقد زوجها ، فانضم إلى أخيها أبى سفيان فى مناهضته للدعوة . وكانت كسابقتها تهجو النبى بشعرها كقولها .

مُذَمَّماً عصَيْنا ... وأمره أبَيْنا
ودينه قَلَيْنا

وفيها وفى زوجها نزلت سوره المسد (٢)

ولقد يسلم ابنها وزوجها ، وتأبى هى الإسلام ، فقد أسلم الطفيل بن عمرو الدوسى ، وعاد إلى قومه ، ودعا أبويه إلى الإسلام فأسلم أبوه ولم تسلم أمه (٣) .

ولقد تعير زوجها إسلامه ، وتؤنبه وتنتقصه جهرة ، تريد أن يثبت على الشرك ، وأن يبلى فى مكافحة الإسلام ، فإن زوجة العباس بن مرداس بنت الضحاك بن أبى سفيان لما علمت بإسلام زوجها قوضت خيمتها ، وارتحلت ، وقالت تؤنبه وتهيجه بثنائها على المسلمين :

ألم ينه عباسَ بنَ مرداس أننى ... رأيت الورى مخصوصة بالفجائع
أتاهم من الأنصار كل سَمَيْدع ... من القوم يحمى قومه فى الوقائع
بكل شديد الوقْع عَضْبٍ يقوده ... إلى الموت هام المُقْربات البَزائع
لعمرى لئن تابعتَ دين محمد ... وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لبدلتَ تلك النفس ذلا بعزة ... غداة اختلاف المرْهَفات القواطع

---

(١) المحبر ٢٨٣ والمغازى ٣ و١٧٢ الأتاوى : الرجل الغريب (٢) تفسير الطبرى ٣٠/٢١٩ وسيرة ابن هشام ١/٣٧٨ مذمما : قال ابن إسحاق كانت قريش تسمى رسول الله مذمماً ثم يسبونه . وفى القاموس مادة ذم أن المذمم المذموم جدا (٣) الأغانى ١٢/٥١

وقومٍ هم الرأس المقدَّم فى الوغى وأهل الحِجا فينا وأهل الدسائع

سيوفهم عِزّ الدليل ، وخيلهم سهام الأعادى فى الأمور الفظائع[١]

وفى يوم فتح مكة رأى أبو سفيان جيش المسلمين ، وأيقن أنه لا طاقة لقريش به ، فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن (وكان قد سمع من النبى حين أسلم أن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن) فقامت إليه امرأته هند ، فأخذت بشاربه وقالت : اقتلوا الحميت الدَّسِم الأحْمَس ، قُبِّح من طليعة قوم . فقال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم[٢] . وفى رواية أنها قالت : اقتلوا هذا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه ، وفى أخرى أنها قالت : اقتلوا الشيخ الأحمق ، هلا قاتلتم ودافعتم عن أنفسكم وبلادكم[٣] . وفى رابعة أنها أخذت برأسه وقالت له : بئس طليعة القوم أنت ، والله ما خُدِشت خدشاً ، يا أهل مكة عليكم الحميت الدسم فاقتلوه[٤] ، وتذهب رواية خامسة إلى أنها أخذت بلحيته فلطمته وقالت : اقتلوا الشيخ الأحمق فإنه قد صبا[٥] .

والروايات كلها توحى بمعنى واحد هو سخطها على زوجها ، وبرمها بإسلامه ، وتعييره الجبن والخور ، وتحريضها على قتله .

على أن نساء ثقيف قد حزنَّ أشدَّ الحزن لما هدم الطاغية المغيرةُ بنُ شعبة وأبو سفيان ابن حرب بأمر من النبى ، وخرجن حسَّرا يبكين عليها ، ويقلن إنها كانت عظيمة تعبد وتدفع عنهن الشرور ، ويعبن قومهم بالضعف واللؤم ، لأنهم لم يحسنوا الدفاع عنها .

ألا ابكين دُفَّاعْ أسلمها الرُّضَّاعْ

لم يُحسنوا المِصاعْ[٦] .

---

(١) الأغانى ١٣/٦٤ السميذع : السيد الكريم الشريف الشجاع . المقربات : جمع مقربة وهى الفرس التى يكرمها صاحبها ويقربها . البزائع : جمع بزيعة وهى الخفيفة . وفى الأصل برائع وهى جمع بريعة أى فائقة الجمال . الصنائع : جمع صنيعة وهى الإحسان والكرم . الدسائع : جمع دسيعة وهى العطية الجزيلة والمائدة الكريمة والقوة .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٢٣ الحميت : وعاء السمن والزق الصغير والزق بلا شعر . الأحمس : إما أنها تريد أنه من الحمس وهم قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم لتحمسهم فى دينهم ، وفى هذا تفظيع لإسلامه ، وإما أنها تتهكم به ، لأن الأحمس الشجاع . وأرجح أن الكلمة محرفة أصلها الأحمش بالشين وهو السمين لأن الحميش الشحم أو أن أصلها الأحمق بدليل الرواية الأخرى . (٣) إنسان العيون ٣/٩٤

(٤) تهذيب الكامل ١/٦٣ (٥) المغازى ٤١٣ (٦) تاريخ الطبرى ٣/١٤٢ دفاع : شىء عظيم يدفع به مثله . الرضاع : اللئام . المصاع : الضرب بالسيف

ولما قبض رسول الله ذهب بنعيه إلى حضرموت رجل من كليب يقال له جَهْبَل ابن سيف ، وكان بها ست نسوة من كندة وحضرموت يتمنين موته، ففرحن وخضبن أيديهن بالحناء ، وضربن بالدفوف ، وخرج إليهن بغايا حضرموت ففعلن كفعلهن ، وكانت البغايا نيفاً وعشرين امرأة ، فكتب امرؤ القيس بن عابس الكندى إلى أبى بكر :

شمت البغايا يوم أعلن جَهْبَلٌ ... بنعىِّ أحمدٍ النبى المهتدى

. . . . . .

اشفِ الغليل بقطعهن فإنها ... كالجمر بين جوانحى لم تبرد

وكتب إليه شداد بن مالك :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته ... أن البغايا رُمْن كل مرام

أظهرن من موت النبى شماتة ... وخضبن أيديهن بالعُلّام

فاقطع هُدِيتَ أكفهن بصارم ... كالبرق أومض فى متون غمام

فكتب أبو بكر إلى عامله على كندة أن يقطع أيديهن ، ففعل [1] .

٢ — أسلمت بعض النساء فى مطلع الدعوة، وكان منهن إماء ، ولكنهن صبرن وصابرن ، واحتملن صنوف الإيذاء والتعذيب ، وجهد ساداتهن فى ردهن عن الإسلام فما استطاعوا . منهن أم عُبَيْس — أو عُنَيْس — ، وزِنِّيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر ، فزعمت قريش أنه ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان ، فرد الله بصرها . ومنهن النَّهْدية وبنتها ، وقد مرّ بهما أبو بكر حين بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبداً ، فراجعها أبو بكر ، فقالت أنت أفسدتهما فأعتقْهما ، فأعتَقَهما . ومنهن جارية بنى مؤمل التى كان يعذبها عمر بن الخطاب لتترك الإسلام ، ويضربها حتى إذا ملّ ضربها قال : إنى لم أتركك إلا ملالة ، فتقول كذلك فعل الله بك ، فاشتراها أبو بكر فأعتقها . ومنهن أم عمار بن ياسر ، كان بنو مخزوم يعذبونها برمضاء مكة إذا حمت الظهيرة ، فيمر بها — وبزوجها وابنها عمار — رسول الله فيقول : صبرا يا آل ياسر موعدكم الجنة . ولما ضاق بها بنو مخزوم قتلوها [2] .

وقد هاجرت بعض المسلمات مع أزواجهن إلى الحبشة ، وتركن الوطن والأهل حفاظا على عقيدتهن ، وفراراً بدينهن ، كرقية بنت الرسول ، وسَهْلة بنت سُهَيْل بن عمرو ، وأم سَلَمة بنت أمية ، وليلى بنت أبى حَثْمة ، وأسماء بنت عُمَيْس ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ،

(١) المحبر ١٨٤ — ١٨٨ والقاموس مادة جهبل . (٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٠ — ٣٤٢

وأمينة بنت خلف ، وغيرهن [١] . وقد آمنت أم كلثوم بنت عقبة وحدها دون قومها وهاجرت وحدها [٢] .

على أن المرأة التى أسلمت لم تكتف باستمساكها بدينها وصبرها على الأذى ، ونزوحها عن الوطن ، بل لقد دافعت فيما بعد عن هذا الدين بيدها كما يدافع الرجال .

ويحسبنا من التنويه بحمايتها لعقيدتها وتمسكها بها أن فاطمة بنت الخطاب بكرت إلى الإسلام هى وزوجها سعيد بن زيد ، وكان أخوها عمر لم يسلم ، وكان ذا شكيمة وقسوة على المسلمين ، فخرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهو يعتزم أن يقتل النبى لأنه فى رأيه صابىء ، قد فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فعلم فى طريقه أن أخته فاطمة وختنه سعيدا قد أسلما ، فرجع إليهما ، وكان عندهما خَبَّاب بن الأَرَتّ يقرئهما صحيفة فيها سورة طه . فلما أحسوا به اختبأ خبّاب فى مخدع ، وخبأت فاطمة الصحيفة تحت فخذها ، فبطش عمر بسعيد ، فقامت إليه أخته لتكفه ، فضربها فشجّها ، فقالت له : قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى ما بأخته من الدم ندم ورقّ وطلب منها الصحيفة ، فقالت له : إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فاغتسل فأعطته الصحيفة فقرأها وأسلم [٣] .

أية شجاعة هذه ؟ لقد كان الرجال يرتعدون من عمر ، لأنه شديد التنكيل بمن أسلم ، وكان من المتوقع أن تكون أخته أشد فرقًا منهم ، لأنها دانت بما يبغض ، وانحازت إلى ألدائه ، لكنها لم تهب أخاها الجبار حين أسلمت ، ولم تفزع منه حين انكشف له إسلامها ، بل لقد جبهته بأنها أسلمت فليفعل بها ما يريد ، وجبهته بأنه مشرك لا يتسامى إلى أن يمس الصحيفة ، وكانت شجاعتها هذه نعمة وبركة ، لأن عمر أسلم حينئذ ، وآزر الإسلام بقوته وشخصيته وعبقريته .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ـ٣٥٣ وإنسان العيون ١/٣١٩ (٢) الاصابة ٨/٢٧٥

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٣٦٤ ـ ٣٦٨

عزة نفسها

لم يُؤْثَر عن المرأة العربية استخذاء أو تخاضع ، وإنما كانت كالرجل شمماً وإباء ، واعتزازاً بالكرامة ، واعتداداً بالنفس .

ولقد يهبط الدهر بها من سماء المُلك إلى ثرى الشعب ، وتتلفت حواليها فتجد الدولة غير الدولة ، والصولة غير الصولة ، لكنها تظل كما كانت عزيزة أبية ، تجْبَهُ الوالى الجديد الظافر بما لا يتوقع . من ذلك أن خَرْقاء[١] بنت النعمان ، أو هند[٢] بنت النعمان ، أو الحُرَقة[٣] بنت النعمان لقيت سعد ابن أبى وقاص أمير القادسية بعد هزيمة الفرس وقتل رستم ، فى حشد من قومها وجواريها ، فقال سعد : أيتكن خرقاء ؟ قالت : هأنذه . قال : أنت خرقاء ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك فى سؤالك ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، كنا ملوك هذا المِصْر ، يُجْبَى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا ، وشتت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد ليس يأتى قوماً بمسرة إلا ويعقبهم حسرة :

فبينا نَسُوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحن فيهم سوقة ليس نُعْرَف
فأفٍّ لدنيـــا لا يدوم نعيمهـــا ... تقلّبُ تارات بنـا وتُصَرِّفُ

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها[٤] .

وفى رواية أخرى أن الذى لقيها خالد بن الوليد بعد فتح الحيرة ، فقال لها : أسلمى حتى أزوجك رجلا شريفاً مسلماً . فقالت : أما الدين فلا رغبة لى فيه غير دين آبائى (النصرانية) وأما التزويج فلو كانت فىّ بقية لما رغبت فيه ، فكيف وأنا عجوز هرمة أترقب المنية بين اليوم وغد ؟ فقال: هذا فرض علينا أوصانا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قالت : مالى حاجة غير هذا ، فإنى ساكنة فى هذا الدير الذى بنيته ، الملاصق لهذه الأعظم البالية من أهلى ، حتى ألحق بهم . فأمر لها بمعونة وكسوة . فقالت : أنا فى غنىً عنه ، ماطلعت الشمس بين الخورنق والدير إلا على ما هو تحت حكمنا ، فما أمسى المساء حتى صرنا خولاً لغيرنا . وأنشدت البيتين السابقين[٥] .

---

(١) مروج الذهب ١/٢٠٥ (٢) معجم البلدان ٤/١٨٣ والكامل ١/٢٧٧ وتهذيب الكامل ٢/١١٩ والأغاني ١٤/١٣٦ (٣) نزهة الأبصار والأسماع ٣٥ (٤) مروج الذهب ١/٢٠٥ ونزهة الأبصار ٣٥ وخزانة الأدب ٣/١٨٢ (٥) معجم البلدان ٤/١٨٣

وروى أن المغيرة بن شعبة خطبها وهو والٍ على الكوفة ، وكانت مترهبة فى ديرها ، وكانت قد عميت ، فقالت : لو كنت جئتنى لجمال أو لمال لأجبتك ، ولكنك أردت أن تتشرف بى فى محافل العرب ، فتقول : تزوجت ابنة النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير فى اجتماع أعور وعمياء [١] ؟

وإذا كانت عزة النفس قد تجلت فى ابنة الملك فإنها قد تجلت فى كثيرات من غير بنات الملوك ، من ذلك أن تقلى المرأة زوجها الذى فجعها بضرة ، كما فعلت زوجة زهير ابن أبى سلمى [٢] . وأن تنفر من السبى كما سبق فى السباء ، وأن تثور لعدوان زوجها على كرامة قومها كما فعلت أخت كليب مع زوجها لبيد بن عنبسة [٣] .

ومن هؤلاء بنت السُّلَامِىّ ، فإن أباها كان قد أخذ الشنفرى من بنى شَبَابة بعد أسره وكفله حتى صار كابنه ، فقال الشنفرى لبنت السلامى يوماً : يا أخية اغسلى رأسى ، فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته [٤] .

ومنهن سلمى الكنانية ، فقد سباها عروة بن الورد ، فأعتقها وتزوجها ، وعاشت معه بضع عشرة سنة ولدت له فيهن أولاداً ، ولكنها كانت ضيقة الصدر بهذه الحياة ، لأنها أَنِفتْ أن تقول النساء إنها سبية ، وأنفت أن يتزوجها عروة قسْراً ، فاحتالت عليه ، حتى عادت إلى قومها ، واضطر إلى تطليقها ، وتحسر فى شعر [٥] .

وكذلك فعلت امرأة تولب ، فلما فارقته حزن ونفث حزنه فى شعر [٦] .

وقد ذكرت فى السبايا أن فاطمة بنت الخرشب رمت نفسها من فوق جمل قيس من زهير فراراً من أن يسبيها فيلحق بها وبأبنائها عار السّباء [٧] .

على أن عزة النفس تبدو فى صنيع بُهَيْسة بنت أوس الطائى ، فإنه لما تزوجها الحارث ابن عوف ، أمر أبوها أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها ، وأمر ببيت فضرب لها وأنزلها وزَوْجَها فيه ، فلما مد الحارث يده إليها قالت له : مهْ أعند أبى وإخوتى ؟ هذا والله ما لا يكون . فارتحلُ بها ، وأراد أن يمسها فى الطريق فرفضت قائلة : أكما يُفعَل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة ؟ لا والله حتى تنحر الجُزُر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلى [٨] .

---

(١) الأغاني ١٤/١٣٦ والكامل ١/٢٧٧ وتهذيب الكامل ٢/١١٩

(٢) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغانى ٩/١٥٠ ساسى (٣) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المراقسة ١٩ (٤) الأغاني ٢١/٨٧ (٥) ديوان عروة ١١ والأغاني ٢/٧٦ والشعر والشعراء ٢٦٠ (٦) الأغاني ١٩/١٥٩ (٧) الأغانى ١٦/٢١ (٨) الأغانى ٩/١٤٣

عفتها

١ — قامت الأخلاق العربية على دعائم ، منها الاعتزاز بالشرف ، والحرص على حسن الأحدوثة ، وسمعة الأسرة وصيانة المرأة ، فكان لا بد للرجال والنساء من العفة ، ومن التعفف ؛ لأن العدوان على العرض قد يجر ويلا ، ويشعل حربا ، ولأن المجانة ليست من سمات السادة .

لذلك أكثر الرجال من الفخر بعفتهم وبصيانتهم حرمة جيرانهم (١) . وكثيراً ما مدحوا ورثوا بالعفة (٢) .

والعرب غيرٌ على النساء إلى حد المغالاة ، وهم يبيحون للرجل أن يذكر أى شىء إلا النساء ، وفى أمثالهم ، كل شىء مَهْهٌ ما خلا النساء وذكرهن (٣) .

لذلك لما نزل الحطيئة ببنى مُقلِّد بن يربوع وسألوه عما يرضى وعما لا يرضى جاء فى قوله : « ولا تجعلوا فناء بيتى مجلساً لكم ، ولا تُسْمعوا بناتى غناء شبابكم » (٤) .

ولذلك افتخروا بحماية زوجاتهم من العهّار ، كقول أحدهم فى أمته أو فى امرأته :

حَمَيْتُ عن العُهّار أطهار أمه وبعض الرجال المدَّعَيْنَ غُثاء (٥)

وهدد الإصبع بن محصن مالكَ بن الصمصامة بالقتل إن عرض لأخته ، وبالأسر وجزّ الناصية إن تغزل فيها ، فقال مالك :

فما الحلْقُ بعد الأسر شرٌّ بقيـــة من الصد والهجران وهى قريب

. . . . . (٦)

وهمّ عبد الله بن المضْرَحىّ أن يقتل ابن عمه لما رآه واقفاً يحدث أخته ، وكان قد أنذره من قبل (٧) .

٢ — فى هذا المجتمع الذى يقدر العفة ، فيعف فيه الناس أو يتعففون ، ولا يجاهرون بالفحشاء ، إلا قلة من الشعراء جاهروا بفحشهم كما سبق ، فى هـذا المجتمع كانت عفة المرأة

---

(١) الأغاني ٣/٩٧ وديوان حاتم ٣ و١٧ وديوان أوس بن حجر ٢٤ وديوان قيس بن الخطيم ٥ و١١ و٢٩ وديوان عنترة ١٨٥ ومجالس ثعلب ١/٢٥٣ وشعراء النصرانية ١٢٢ و٦٤٨

(٢) ديوان الخنساء ٦٨ و٧٠ و٨٢ وبلاغات النساء ١٦٨ وديوان الخرنق ٩ مخطوط ومراثى شواعر العرب ١٤٧

(٣) الميدانى ٢/٧٠ وجمهرة الأمثال ٢/١٣٠ مهه : يسير محتمل .

(٤) الأغاني ٢/١٧٩

(٥) شرح التبريزى للحماسة ١/١٤٣ غثاء : ساقطون لا قيمة لهم

(٦) الأغانى ١٩/٨٣

(٧) الأغاني ٢٠/١٥٩

أعظم حلاها ، وأفخر خلالها ، وكانت المرأة العفيفة الممنعة هى المثل الأعلى فى نظر الرجال ، لأنهم كانوا يدينون بما قاله على بن أبى طلب من بعد « خيارُ خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شىء يعرض لها »[١] .

وقد قرر أرسطو أن مزايا المرأة الجسمية هى الفراهة والجمال ، ومزاياها النفسية هى العفة والعمل فى غير ابتذال ، وأن الأمم التى لا تعنى بخلق المرأة تفقد نصف السعادة التى فقدها اللاسيديميون . Les· L'acédemoniens[٢] .

وقد صرح سُلَيْكُ بن السُلكة بأن قلبه يعاف المرأة التى تجود بوصلها ، ويعلق بالممنعة التى لا تأتى ريبة :

يَعَافُ وصالَ ذات البـــذْل قلبى وأتبعُ المُمْنَعَّة النَّـــوَارا[٣]

٣ — وللعفة مظاهر شتى ، فقد تكون فى أن تخالط المرأة الرجال وتحدثهم ، على أن تتصون فلا يسمعون منها ولا تسمع منهم غير العف من القول ، يقول فى ذلك سويد ابن أبى كاهل :

تُسْمِعُ الحُـــدّاثَ قولا حسنا لو أرادوا غـــيره لم يُسْتَمَع[٤]

ويقول كعب بن رواع :

ويخالهـــا المرحُ السفيهُ تحبه ونوالهُـــا غيرَ الحديث بعيد[٥]

وقد تضرب عفتها وهيبتها حجاباً بينها وبين الناس ، فلا يجرؤ أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته وأرضت أوبته ، قال علقمة بن عبيدة :

مُنَعَّمَةٌ ما يســـتطاع كلامهـــا على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعـــل لم تُفْشِ سره وتُرْضِى إياب البعل حين يئوب[٦]

لذلك احترق الشعراء الغزلون بوهج الحرمان ، وطالما عبروا عن حرمانهم بشعر حزين ناطق بالأنين .

ولقد يفخر الزوج بعفة زوجته ، كقول معن بن أوس :

لعمرك ما عِرسى بدارِ مَضيعَـــةٍ وما بعلها إن غاب عنها بخائف[٧]

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤/٣٤٦ (٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٠١ إبراهيم سلامة
(٣) الأغاني ٤/٣٦٤ (٤) المفضليات ١/١٩٠ (٥) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٢٨
(٦) المفضليات ٢/١٩١ وديوان علقمة ٣ (٧) ديوان معن ٣٥

ولقد تفتخر هى بعفتها ، فقد قالت الخنساء لبنيها : « والله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم » (١).

وقد شاد أخوها صخر بعفتها حين تسخطت زوجته ، لأنه يقاسم أخته ماله ، ويعطيها خير النصفين :

والله لا أمنحها شِرارَه ـــــا وهى حَصَانٌ قد كفتنى عارها (٢)

وهم يعجبون بالمرأة الطيبة السمحة التى لا تتناولها الألسن ، يقول الشنفرى :

فياجارتى وأنت غير مُليمـــةٍ إذا ذُكِرَتْ ولا بذات تَلَفُّت
أميمةُ لا يُخْزِى نَثاها حليلَهـــا إذا ذُكر النسوان عفت وجلَّت
إذا هو أمْسى آب قرةَ عينـــه مآب السعيد لم يَسَـــلْ أين ظلت
تَحُلُّ ـ بمنجاةٍ من اللوم ـ بَيْتَهَا إذا ما بيـــوتٌ بالملامة حُلَّت (٣)

والحوادث الدالة على عفتها كثيرة ، منها أن سهل بن مالك نزل ضيفاً على أخت حارثة ابن لأْم ـ لأنه قصده فلم يجده ـ فأكرمته ، ورآها جميلة فوقع فى نفسه منها شىء ، فجلس بفناء الخباء يوماً وجعل ينشد :

يا أخت خـــير البدو والحضاره كيف ترين فى فـــتى فزاره ؟
أصبح يَهْوَى حُـــرَّةً مِعْطاره إياك أعـــنى واسمعى يا جاره

فلما سمعت قوله عرفت أنه يعنيها ، فقالت : ما يقول هـذا ذو عقل أريب ، ولا رأى مصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقم ما أقمت مكرماً ، ثم ارتحل متى شئت مسلماً (٤) .

بل لقد بلغت العفة بها أن تبغض من يسىء الظن بها وإن كان زوجها ، فقد شك الفاكه ابن المغيرة فى زوجته هند بنت عتبة ـ وكانت بريئة ـ وقضى الكاهن ببراءتها ، فأرادها الفاكه على أن تعود إليه فرفضته ، وتزوجها أبو سفيان (٥) .

---

(١) طهارة العرب ١٥ (٢) الإصابة ٦٧/٨ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والمحاسن والأضداد ١٤٣ (٣) الأغانى ٩١/٢١ والمفضليات ١٠٦/١ تحل بيتها : تنزله
(٤) مجمع الأمثال للميداني ٤٣/١ (٥) المستطرف ٧٣/٢ وشرح نهج البلاغة ١١٢/١

وهى تأنف من الزنا وتجهر بذلك أمام الرسول ، بل تجد فى المباشرة المشروعة شيئاً ، فكيف بالمحرمة ؟ ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تلا على النساء اللاتى بايعنه « ولا تزنين » قالت هند : وهل تزنى الحرة ؟ (١) . وفى رواية أنها قالت : ما أقبحه حلالا فكيف به حراماً ؟ (٢).

٤ — ولست أريد بهذا القول أن أزعم للمرأة العربية طهارة الملائكة ونقاوة القديسات ، لأن المرأة كالرجل بشر يعتريه الشر ، وتسيطر عليه الغريزة ، فلا بد أن تجافى بعض النساء العفة ، فيعلم خبر بعضهن ، ويخفى خبر الأخريات ، ولكن المكشوفات والمستورات جميعاً قلة ضئيلة فى المجتمع العربى القائم على الغيرة وحماية العرض والضن بالمرأة عن سوء الظن .

من هؤلاء فاقرة زوجة مُرَّة الأسدى ، فقد غاب عنها أعواماً فهويت عبداً لها كان يرعى ماشيتها ، وترددت طويلا ، ثم لانت له . لكنها ندمت فيما يزعمون فقالت : « خيرٌ قليل وفضحتُ نفسى » . وأقبل زوجها فعلم ، فشهقت شهقة أماتتها . فقال مرة :

لحا الله ربُّ الناس فاقـــرَ ميتةً ... واهْوِنْ بها مفقودةً حين تُفقَـــدُ

لعمرك ما تقتادنى منك لوعـــة ... ولا أنا من وجـــدٍ عليك مسهَّد

ثم قتل العبد (٣) .

ومنهن رَقاش الطائية ، كانت زعيمة فى قومها تغزو بهم ، وكانت كاهنة لها حزم ورأى ، زعموا أنها حملت من خادمها — وكان أسيراً جميلا من إياد — فدعاها قومها للغزو فأمهلتهم حتى تضع ، فلما وضعت قال شاعرهم :

نُبِّئتُ أن رقاش بعـــد شماسها ... حبلت وقد ولدتْ غلاماً أكحلا

فالله يُحظيها ويرفع بُضْـــعَها ... والله يُلقحها كشافا مُقْبِـــلا

كانت رقاش تقود جيشاً جحفلا ... فصبت وأحر بمن صبا أن يحملا (٤)

٤ — قصة الفطيون

أما اسم هذا الرجل فمختلف فيه ، أهو الفطْيَوْن (٥) أم الفَيطُون (٦) ، أم القَيْطُون (٧) ، أم القيطور (٨).

(١) الإصابة ٨/٢٠٥ والطبقات الكبير ٨/٤ (٢) طهارة العرب ١٢
(٣) مجمع الأمثال للميداني ١/٢٢ (٤) مجمع الأمثال ١/٢٦٣
(٥) الروض الأنف ٢/٢٤ ومعجم البلدان ٧/٤٢٨ والمحاسن والأضداد ٢١٦
(٦) معجم البلدان ٧/٤٢٩ ومعجم ما استعجم ٢/٣٧١ وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ٨٤
(٧) خلاصة الوفا ٨٣ والأخبار الطوال للدينورى ٤٣ والبدء والتاريخ للمقدسى (٨) خلاصة الوفا ٧٩

والراجح أن أى كلمة من هذه ليست علماً عليه ، لأن الكلمة تدل على من رأس اليهود وولى أمرهم ، كما أن النجاشى تدل على من ملك الحبشة [١] .

وأما القصة فملخصها أنه كان ملكا على يهود المدينة ، وكان يفتض العرائس قبل أزواجهن سواء أكن عبريات أم عربيات ، فلما تقوى الأوس والخزرج وتزعمهم مالك بن العجلان ، وتزوجت أخته فَضْلاء أنفت أن يفعل بها ما يفعل بغيرها ، واستثارت أخاها ، فاشتمل على سيفه وتنكر مع النساء ، ودخل على الفطيون فقتله [٢] .

وفى رواية أخرى أن القيطون ابن عم أسعد بن عمرو بن ربيعة بن مالك بن صُبَيح ، وكان ملكا على تهامة والحجاز من قبل ابن عمه أسعد ، ثم نزل يثرب واعتدى وتجبر ، حتى أمر ألا تهدى امرأة إلى زوجها قبل أن يبدءوه بها ، إلى أن زوجت أخت مالك بن العجلان ، فقتله مالك ، وعلم أسعد بن عمرو بذلك فسار إليهم وانتقم منهم [٣] .

وقد رووا قصة أقدم من هذه وشبيهة بها ، نسبوها إلى عِمْليق — أو عُمْلوق — ملك طسم وجديس ، وقالوا إنه بلغ من طغيانه ألا تزف امرأة من جديس قبل أن يبدأ بها ، ثم قتله رجل من جديس بعد أن هاجته أخته المعتدى عليها ، واستنجدت جديس بملك اليمن أو ملك نجران — ذو جيشان أو ذو حسان أو حسان — فانتقم من جديس [٤] .

وهذه القصة وتلك تغايران ما كان العرب يأخذون أنفسهم به من الأنفة والغيرة على النساء وشراء العرض بالمهج والأرواح . فليس بمعقول أن يصبروا على عهارة الملك وفجوره ببناتهم حيناً من الدهر ، حتى يقيض الله لهم رجلا منهم يتنكر ليغتال الملك العاهر .

وإن كان الفطيون يهوديا فليس ميسوراً له أن يستبيح هذا العمل البشع المنافى لدينه دون أن يجد حَرَدًا ومقاومة عنيفة من شعبه ورجال دينه ، على أن اليهود بالمدينة لم يكن عليهم ملك فى أى عهد من عهودهم :

وبين القصتين تشابه أو تماثل تام ، فكل من الرجلين طاغيـــة ، وكل منهما يفترع العرائس قبل أزواجهن ، والناس يسكتون على هذا الجبروت ردَحا من الزمان ، ثم تستثير

---

(١) الروض الأنف ٢/٢٤ (٢) خلاصة الوفا ٧٩ — ٨٠ و٨٢ — ٨٤ ومعجم البلدان ٧/٤٢٨ — ٤٣٠ والروض الأنف ٢/٢٤ والبدء والتاريخ للمقدسى (٣) الأخبار الطوال للدينورى ٤٣ (٤) مروج الذهب ١/٢٤٣ والأخبار الطوال ١٧ والمعارف ٢١١ وأخبار النساء ١٦ والأغانى ١٠/٤٥ — ٤٧ ومعجم البلدان ٨/٥١٦ وخزانة الأدب ٢/٨٩ والمحاسن والأضداد ٢١٤ وتاريخ حضرموت السياسى ٣٦ ومنتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان الحميرى ١٧

أخت أخاها فى القصتين فيقتل الملك الظالم ، وبعد مقتله يستنجد الأقربون اليه بملك آخر . وهذا التماثل التام يحمل على استبعاد القصتين كلتيهما ، بهذا التفصيل .

على أن أوروبا كانت تخضع لمثل هذا النظام فى عهد الإقطاع ، فكان للسيد فى أوائل هذا العهد حق الليلة الأولى ، وذلك أنه يجوز له أن يفض بكارة العروس قبل أن يباشرها زوجها ، وربما كان السيد يمثل فى ذلك حقوق القبيلة القديمة[١] .

وذكر المستشرق جورج سيل أن مثل هذا كان شائعا فى بعض مقاطعات انجلترا وأسكتلندا فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الميلاد[٢] . وكان الليبيون يقدمون العذارى وهن على أهبة الزفاف إلى الملك ، فمن أعجبته افتضها[٣] .

حياؤها

حياء المرأة وثيق الصلة بعفتها وتصونها ، والحياء يتناول مالا تتناول العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة لكنها تبدى بعض محاسنها للرجال ، وتبتسم لهم ، وتخضع فى القول ، ولكن المرأة الحيية لا تفعل ذلك .

وقد اتهم شوبنهور المرأة بأنها أقل حياء من الرجل ، لأنها لا تعرف الحياء بمعزل من غريزة الاحتجاز الجنسى ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحى النساء ، فيسترون فى الحمامات العامة ، ولكن المرأة لا تستتر على المرأة إلا لعيب جسدى تواريه[٤] . لكن ذلك موضع نظر ، لأن المرأة تستحى حيث لا احتجاز ، ولأن بعض النساء لا يستحى من بعض كما أن بعض الرجال لا يستحى بعضهم من بعض ، ولكن النساء يستحين من الرجال . وحياء المرأة من مكملاتها الخلقية فى نظر الرجل ، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها ، وقد أعجب به العرب ، لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والاشادة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة . قال أوس بن حجر إن ضحكهن تبسم .

نواعمُ ما يضحكن إلا تبسما ... إلى اللهو قد مالتْ بهن السوالف[٥]

وقال حاتم :

يضىء لها البيتَ الظليلَ خصاصُهُ ... إذا هى يوماً حاولتْ أن تَبَسّما[٦]

---

(١) قصة الحضارة . ول ديورانت ١/٦٨ (٢) عصر ما قبل الإسلام ٤٧
(٣) دائرة المعارف للبستانى ٩/٣٣٧ (٤) هذه الشجرة ١٢١ العقاد
(٥) ديوان أوس بن حجر ١٤ (٦) الأغانى ١٥/١٥٩

وأعجب الشنفرى بها وهى تمشى مقنعة لاتتلفت ، وعيناها إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء ضائع ، وإذا كلمت رجلا أوجزت :

لقد أعجبتنى لاسقُوطا قناعُهـــا إذا ما مشت ولا بذات تلفُّت
كأن لهـــا فى الأرض نِسْياً تقصه على أمِّهَا وإن تكلمك تَبْلَت (١)

وقال عنترة إنها غضيضة الطرف (٢) ، ومدحها الأعشى بأنها لا تتجسس على أخبار جاراتها ولا تختتل أسرارهن (٣) .

ولقد شهد أعداء القوم بعفة نسائهم ، فقد سبى زهير بن جَنَاب نساء من غطفان ، ثم رد إليهم السبايا ، وقال من قصيدة :

فلم تَصْبُرْ لنا غطفان لمـــا تلاقينا وأُحْرِزَتِ النســـاء
فلولا الفضلُ منـــا ما رجعتم إلى عذراء شيمتُهـــا الحياء (٤)

كرمهـــــا

اشتهر العربى بكرمه وبشجاعته ، وكان الكرم والشجاعة معاً الفضيلتين الكبريين فى الحياة البدوية ، وكانت المرأة كريمة وإن لم تبلغ الرجل فى كرمه . فمثلا كانت غنيّة بنت عفيف أم حاتم الطائى من أسخى النساء وأقراهن للضيف ، وكانت لا تمسك شيئاً تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها ، فمكثت دهراً لا تنال يدها شيئاً مما تملكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة ، وارعوت أعطوها صِرْمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها ، فقالت لها : دونك هذه الصِّرمة فخذيها ، فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلا شيئاً ، ثم أنشأت تقول :

لعمرى لقدما عَضَّنى الجوع عضة فآليت ألا أمنع الدهـــرَ جائعاً
فقولا لهـــذا اللائمى اليوم أعفنى فإن أنت لم تفعل فعضَّ الأصابعا
فماذا عسيتم أن تقـــولوا لأختكم سوى عذلكم أوعذل من كان صانعا

---

(١) الأغانى ٢١/٩١ والمفضليات ١/١٠٧ ومحاضرات الأدباء ٢/١٣٦ النسى : الشيء المفقود . تقصه : تبحث عنه . أمها : قصدها الذى تريده . تبلت : تقطع كلامها لاتطيله

(٢) ديوان عنترة ١٤٣ (٣) شعراء النصرانية ٣٦٧ (٤) الكامل لابن الأثير ١/١٧٩

وماذا ترون اليوم إلا طبيعـــة فكيف بتركى يابن أم الطبائعا [١] ؟

وكانت سفّانة بنت ابنها حاتم كجدتها وكأبيها فى الجود ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الابل فتهبها الناس ، فقال لها أبوها يا بنية إن الغوِيين إذا اجتمعا فى المـال أتلفاه ، فإما أن أعطى وتمسكى وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت ، والله لا أمسك أبداً . فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً . قالت فلا تتجاور . فقاسمها ماله وتباينا [٢] .

وكانت تُبيْتة من شاعرات العرب وكرمائهن ، وكان زوجها كريماً لم يوجد أكرم منه فى زمانه ، وقد أتاه أخو امرأته يوما فأعطاه بعيراً من إبله ، وقال لامرأته ، هاتى حبلا ، فقالت ، ما بقى عندى حبل ، فقال : على الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها وقالت :

حلفت يمينا يابن قُحْفانَ بالذى تَكَفَّل بالأرزاق فى السهل والجبل
تَزَالُ حِبالٌ مُحْصَدَاتٌ أُعِـدُّها لها مامشى منها على خفـــه جمل
فأعط ولا تبخل لمن جاء طالبا فعندى لها خُطْمٌ وقد زالت العلل [٣]

وقد نزل ببعضهن ضيفان فأكرمنهم ، مثل أخت حارثة بن لأم [٤] ، وشذرة أم الزبرقان ابن بدر ، فقد أكرمت الحطيئة وأولاده ، وقيل إن التى أكرمته هنيدة بنت صعصعة زوجة الزبرقان [٥] .

لكن الأنباء عن كرمها قليلة ، لأنها أقصر باعا من الرجال فى هذا المجال ، ذلك بأن مالها أقل ، وهى فى أكثر الأحيان لا مال لها إلا مال الزوج أو الأب ، ثم إنها ليست مختلطة بالرجال اختلاطاً يبعثها على الكرم ويمهد أمامها الطريق إلى الشهرة به .

---

(١) ذيل الأمالى ٢٣ (٢) ذيل الأمالى ٢٣ (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٦٧ خطم : جمع خطام ما يوضع فى أنف الجمل (٤) مجمع الأمثال ١/٤٣ (٥) الأغانى ٢/١٨٠

بخلها

١ — أسلفت المقال فى أن المرأة كانت ضنينة بمال زوجها ، حريصة على مال ابنها وأخيها ، وأنها طالما لامتهم فى الكرم ، وطالما لامتهم فى الخمر والميسر وإيثار الخيل بالعناية ، لذلك يقول زهير فى مدح حِصْن بن حُذَيْفة بن بدر .

بَكَرْت عليه غدوة فوجدته ... قعوداً لديه بالصَّريم عواذله
يُفَدِّينه طَوْرا وطورا يلمنه ... وأعياً فما يدرين أين مخاتله
فأعرضْنَ منه عن كريم مُرَزَّأ ... جَموع على الأمر الذى هو فاعله (١)

وقد عاتبت سلمى بنت الأسود بن يَعْفُر أباها على إضاعته ماله فيما ينوب قومه من ديات ، وما يمنحه فقراءهم ويعين به مستمنحهم ، فقال لها :

وقالت لا أراك تُليقُ شيئاً ... أتُهْلِك ما جمعتَ وتستفيد (٢)

٢ — وقد تحدث الشعراء عن لوم الزوجات والأمهات والبنات والأخوات فى البذل ، وأكثروا من هذا الحديث كما سبق فى فصول الأم والزوجة والبنت والأخت . ولا شك أنهم صادقون فيما حدثوا ، وإلا فكيف يفترى إنسان على أمه وبنته وزوجته وأخته فيصمها بالبخل ، وهو يعلم أن فى هذا منقصة له ؟ وليس من الصواب أن يدّعى أنها لامته على الكرم ، وأنه خالفها ، ليتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم كرمه والفخار بنفسه ، لأن هذا التخيل نفسه منقصة له . اذاً كان الشعراء صادقين فى تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما كان هذا منهن حرصاً على مال الرجال ، وربما كان بخلا . ومهما يكن من شىء فإن النساء كن أقل من الرجال كرما ، وكن أحرص على المال منهم ، ولعل أسباب ذلك أنهن أحفل بالثروة ، وتنميتها ، وأنهن لايخالطن الناس كما يخالط الرجال ، فلا يحفلن بأحاديث الكرم كما يحفلون ، ثم لأنهن أحسن تدبيراً للمال من الرجال ، وهن ربات البيوت يباشرن حاجاتها ، ويعددن طعامها ، ويفكرن فى غدها ، ثم إنهن أميل إلى الجانب العملى ، فلا يحفلن بثناء ينقص المال ويسبب الخصاصة ، بينما قد يغفل الرجل عن غده وهو فى نشوة الثناء وأريحية العطاء ، وأخيراً هن يؤثرن أنفسهن إلا على بنيهن ، والرجال كثيراً ما يؤثرون غيرهم على أنفسهم .

---

(١) شرح ديوان زهير لثعلب ١٤٠ وشعراء النصرانية ٥٧٩ (٢) الأغاني ١١/١٣٣

فليس بعجيب أن يكن أحرص من الرجال على المال ، وأن يدبرن للأبناء طعامهم ويقتصدن فيما يقدمن لهم إلى حد الإقلال أحيانا ، يقول الشنفرى :

وأمُّ عيال قد شهدتُ تَقوتُهم ... إذا أطعمتهم أو تَحَتْ وأقلَّت
تخاف علينا العَيْلَ إن هى أكثرتْ ... ونحنُ جياع أىَّ آل تألَّت
وما إنْ بها ضِنٌّ بما فى وعائها ... ولكنها من خيفة الجوع أبقت (١)

بين أخلاقها فى الإسلام وفى الجاهلية

١ — ذاعت شجاعة كثيرات من المسلمات كأم الخَيْر بنت الحُرَيْش البارقية ، فقد حرضت جند علىٍّ يوم مقتل عَمَّار بن ياسر على معاوية ، ولما آلت الخلافة إليه بعث إليها وذكَّرها خطبتها الحماسية الثائرة وقال لها : والله لو قتلتك ما حَرِجْت فى ذلك . فقالت : والله مايسوءنى يابن هند أن يجرى الله ذلك على يدىْ من يسعدنى الله بشقائه (٢) .

ومثلها سَوْدة بنت عمارة ، حرضت المسلمين يوم صِفِّين على قتال معاوية بأبيات منها:

شمِّرْ كفعل أبيك يا بن عمارة ... واقصد لهند وابنها بهوان

ثم وفدت على معاوية فى خلافته فذكرها ما قالت ، فقالت . إى والله ما مثلى من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب . . . . . (٣) .

وكذلك فعلت الزرقاء بنت عدىّ الهمدانية فى يوم صفين ، وقال لها معاوية لما أُوفدت عليه : قد أشار علىٌّ بعض من عرفك بقتلك ، فقالت له : لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته (٤)

ومثلهن آمنة بنت الشريد ، ولها مع معاوية حوار طويل يدل على الجرأة والاعتزاز (٥).

٢ — ومن الأمثلة العالية فى الاستمساك بالعقيدة والدفاع عن الرأى وفى الشجاعة العظمى أسماء بنت أبى بكر ، فقد دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير بعد ما خذله الناس فشكا إليها ، واستشارها فقالت : إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه ، فقد قتل عليه

---

(١) المفضليات ١/١٠٨ أوتحت : أعطت قليلا . العيل والعيلة : الفقر . أى آل تألت : أى ساسة ساست (٢) بلاغات النساء ٤١ والعقد الفريد ١/٢١٧
(٣) العقد الفريد ١/٢١١ وبلاغات النساء ٣٥ (٤) العقد الفريد ١/٢١٣ وبلاغات النساء ٣٧
(٥) أعلام النساء ١/٤ — ٦ عمر كحالة

أصحابك ، ولا تقل إنى كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى ، فليس هـذا فعل الأحرار ، والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة سوط فى ذل ، . قال إنما أخاف أن يمثلوا بى . قالت : يابنى إن الشاة لاتألم السلخ بعد الذبح [١] .

٣ — وذاع كرم كثيرات من المسلمات ، وإذا كان كرم الجاهلية يراد به أحياناً حسن الأحدوثة ، والتباهى ، وتجنب اللوم فإن كرم المسلمات كان ابتغاء وجه الله ، وكان عطفاً على المحتاجين . فقد حدّث البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلمهن فى الصدقة فأخذن ينزعن الفتخَ والخواتيم والخُرْصَ والسِّخاب والقرَطة والعقود والأطواق والخلاخيل ويلقينها فى ثوب بلال ، وكان قد بسط ثوبه ليضعن فيه صدقاتهن [٢] .

وكذلك فعلت النساء لما نزلت الآية الكريمة « إن المُصَّدِّقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » .

وقد ذكر ابن سعد أن السيدة عائشة كانت صائمة ، وقد بعث إليها ابن الزبير نحو مائة ألف ، فتصدقت بها ، فلما دنا الإفطار طلبت من أم ذَرَّة أن تأتيها بإفطار ، فقالت أم ذرة : أما استطعتِ فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت لا تعنفينى ، لو كنت أذكرتنى لفعلت [٣] . ويذكر أنها تصدقت بسبعين ألفاً وإنها لترقع جانب درعها [٤] .

وقداشتهرت بالكرم كثيرات مثل زينب بنت جحش ، وسُكَينة بنت الحسين ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية [٥] .

٤ — أما عفتهن فى الإسلام فليست فى حاجة إلى بيان ، لأن الإسلام حاط المرأة والأسرة بسياج حصين من العفة والحياء .

٥ — والذى أستخلصه من أخلاقها فى الجاهلية وفى الإسلام أن الإسلام قوّى فى المرأة بعض الفضائل ، فرغبها فى الكرم على أنه صدقة وقربى إلى الله وواجب اجتماعى على الأغنياء للفقراء ، وزادها حرصاً على العفة بحضه عليها وتشديده العقاب للزانى والزانية ، ونمّى حياءها ،

---

(١) بلاغات النساء ١٣٠ — ١٣١ وتاريخ الطبرى ٢٠٣/٧

(٢) فتح البارى ٢٧٨/١٠ الفتخ : جمع فتخه الخاتم الكبير فى اليد أو الرجل أو الحلقة من فضة كالخاتم لا فص له . الخرص : حلقة الذهب والفضة أوحلقة القرط أوالحلقة الصغيرة من الحلى . السخاب : قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جواهر (٣) الطبقات ٤٦/٨ والإصابة ١٤١/٨

(٤) الطبقات ٤٥/٨ (٥) الإصابة ٩٢/٨ وبلاغات النساء ١٢٩ والطبقات الكبرى لابن سعد .

وأبقى على أخلاقها الأخرى من الشجاعة والاستمساك بالعقيدة ، وعزة النفس . ثم حلاها بنوع آخر من الفضائل كالصبر والقناعة والصفح ، وحرم فجور الاماء وكسب البغايا . فلم يكن فى أمهات فضائل المرأة المسلمة خلق جديد لا عهد لها به ، وحسبها فخراً أن الأخلاق العالية التى دعا إليها الإسلام كانت من حلاها . وليس طبيعياً أن تكون المرأة فى الجاهلية محرومةً الأخلاق الكريمة ثم نراها تتصف بها فى مطلع الإسلام ومستهله ، لأن الجديد من الأخلاق محتاج إلى أن يعمر طويلا حتى يصير خلقاً عاماً « ويجب لكى يكون للبيئات والتوالد أبلغ الأثر فى تكوين العرق — وهو نوع من الناس ذوى أخلاق مشتركة تنتقل إليهم بالوراثة المنتظمة — أن يتوالى التطور بفعل الوراثة المتتابعة المستمرة قروناً كثيرة سائراً نحو غرض واحد[١] » .

فلم يكن مستطاعا أن ينسلخ العرب نساء ورجالا من أخلاقهم الجاهلية انسلاخاً تاماً على أثر اعتناقهم للإسلام ، لأن ذلك الانسلاخ يقتضى زماناً طويلا لتتحول الأخلاق فى تؤدة « وعلى مافى السجايا الخلقية من الثبات نراها تقدر كالصفات الجثمانية أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل ، ولاسيما بالبيئة المادية والمؤثرات الأدبية والتوالد »[٢] . وإن خروج الأفكار من عقول الجماعة صعب كدخولها[٣] . وقد جاء الإسلام فوجد فى العرب فضائل ورذائل ، أما الفضائل فشجعها ونماها ، وأما الرذائل فأبطلها وحرمها ومحاها .

فليس بصحيح « أن الجود والوفاء بالعهود والشجاعة والفطن وما جرى فى هذا السنن من فضائل الرجال لو مدح النساء به لكان نقصاً عليهن وذماً لهن[٤] » ، لأن الجود والوفاء والشجاعة والاستمساك بالعقيدة والعفة فضائل يمدح بها الرجال ، وقد مدحت بها النساء فى الجاهلية والإسلام .

---

(١) حضارة العرب . لوبون ٧٨ (٢) حضارة العرب . لوبون ٨١

(٣) روح الاجتماع . جستاف لوبون ٧٦ و٧٧ و٩٩ (٤) زهر الآداب للحصرى ٢/٥٥

الفصل الثاني

المرأة سافراً ومحتجبة

شغلت قضية السفور والحجاب العالم الإسلامى والعربى رَدَحاً من القرن العشرين ، واحتكم أنصار السفور إلى التاريخ وإلى الدين ، واستند أنصار الحجاب إلى التاريخ وإلى الدين ، ثم قضى التطور بالغلب لدعاة السفور ، فسفرت نساء فى مصر وفى غير مصر ، لكن الحجاب ما زال صفيقاً فى بعض البلاد العربية ، رقيقاً فى بعضها الآخر .

كذلك كان شأن السفور والحجاب فى العصر الجاهلى ، فنحن نجافى الحق إذا زعمنا أن النساء العربيات كن كلهن سوافر ، ونحن نجانب الصدق إذا حكمنا بأنهن كلهن كن محجبات ، لأن العربيات مارسن السفور ومارسن الحجاب .

السفور

١ — كان كثير من النساء سوافر مكشوفات الوجوه ، إذْ لم يكن بين رجال العرب وبعض النساء حجاب ، « ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفَلْتة ولا لحظة الخُلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث . ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً فى الجاهلية ولا حراما »[1] .

وقد ذكر الأصمعى أن المرأة كانت تلقى خمارها لحسنها وهى على عفة[2] .

---

(١) رسالة القيان من ثلاث رسائل للجاحظ ٥٦ (٢) شرح المفضليات لابن الأنبارى ١/١٢٠

وكانت نساء الأنصار لا يختمرن ، حتى نزل قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن . . . . . » (١) . وفى تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيما » (٢) . ما يثبت أن بعضهن كن سافرات ، لأن الغرض من الآية أن يأمر النبي النسوة الحرائر ألا يتشبهن بالإماء فى ملابسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن ، فلا يكشفن شعورهن ووجوههن ، بل يجب عليهن أن يدنين من جلابيبهن ؛ لئلا يعرض لهن فاسق بأذى من قول إذا علم أنهن حرات (٣).

٢ — وكان بعضهن قد أسرفن فى سفورهن وتبرجهن ، فنهاهن الله عن ذلك بقوله لنساء النبي : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (٤)، ولم يتفق المفسرون على زمن الجاهلية الأولى ، فهى القديمة التي كانت فى زمن إبراهيم عليه السلام ، أو هى التى بين آدم ونوح ، أو بين إدريس ونوح ، أو هى زمن داود وسليمان . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد . وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر ، وقيل إن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، وليست لها أخرى ، وإنما أريد بالأولى الجاهلية القديمة (٥) . وقيل إن الجاهلية الأولى كانت قبل الإسلام ، وفى الإسلام نفسه أخلاق منها ، فقد قال النبي لأبى الدرداء — وقد قال لرجل ينازعه يابن فلانة لأم كان يعير بها فى الجاهلية — يا أبا الدرداء إن فيك جاهلية . قال : أجاهلية كفر أم إسلام ؟ قال : بل جاهلية كفر . وقال النبي : ثلاث من عمل أهل الجاهلية لا يدعهن الناس : الطعن بالأنساب ، والاستمطار بالكواكب ، والنياحة (٦) .

والذى أرجحه أن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، لأن القرآن ينهاهم عن عمل شهدوه أو سمعوا به ، وليست كلمة (الأولى) مقابلة لكلمة (الأخرى) التى يتوقعها السامع ، بل هى وصف للجاهلية دال على أنها مضت وولى عهدها . وهذا التعبير شبيه بقول الشاعر: « على لاحبٍ لا يُهْتَدَى بمَنَاره » فليس المراد أن فى الطريق مناراً لا يهدى ، وإنما المراد

---

(١) سورة النور ٣١ (٢) سورة الأحزاب ٥٩ (٣) تفسير الطبرى ٢٢/٣٣ والنيسابورى ٢٢/٣٢ والرازى ٥/٢٤٩ والطبقات الكبير ٨/١٢٧

(٤) سورة الأحزاب ٣٣ (٥) تفسير النيسابورى ٢٢/١٠ (٦) تفسير الطبرى ٢٢/٤

أنه طريق لا منار فيه يهتدى به السائر ، وكقول الشنفرى فى لاميته : ولست بمحيار الظلام . . . . . (١) .

فظاهر لفظه أنه لا تبلغ منه الحيرة ما تبلغه ممن اشتدت حيرته فى الظلام ، ولكن هذا ليس مراده ، وإنما مراده أنه لا تقع له حيرة أصلا .

ومهما يكن من أمر الجاهلية الأولى فقد بالغوا فى تشويهها مبالغة بعيدة من الصواب ، فزعموا أن المرأة كانت فى هذه الجاهلية تلبس درعاً من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال (٢) . والصحيح أن المراد بالتبرج فى الآية الكريمة التبختر والتكسر فى المشية والخضوع بالقول وإظهار الزينة والمحاسن للرجال (٣) ، فقد روى عن قتادة أنهن كانت لهن مشية وتكسر ، وروى عن ابن نُجَيح أنهن كن يتبخترن ويظهرن زينتهن ويبرزن محاسنهن » (٤) .

وقد فهمت بعض المسلمات أن الأمر هنا خاص بنساء النبى ، فظللن على سفورهن ، مثل سُكَيْنة بنت الحسين (٥) . وروى عن عطاء أنه كان يَكْره أن تطوف المرأة بالبيت وهى منتقبة ، حتى أخبرته صفية بنت شيبة أنها رأت عائشة تطوف منتقبة ، فرجع عن رأيه (٦) ، ورويت عن عائشة أخبار عدة تثبت أن بعض النساء كن يسفرن ، من ذلك قولها إن نساء الأنصار لما نزلت سورة النور عمدن إلى حُجُور فشققنهن فاتخذن خُمُرا (٧) . وقولها : يرحم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها (٨) . وقد دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن وعليها خمار رقيق يشف عن جيبها ، فشقته عائشة وأبدلتها به خماراً كثيفاً (٩) ، وروى عن أم سلمة أنه لما نزلت « يدنين عليهن من جلابيبهن » خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية (١٠) .

٣ — وكانت هنالك حالات لا مندوحة فيها عن السفور حتى من المحجّبات ، فكن يسفرن فى المناحة ، لأن الفجيعة والحزن والنواح تنحرف بالمرأة عما اعتادت من تستر

---

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ٢٣ (٢) النيسابورى ٢٢/١٠
(٣) لسان العرب مادة برح (٤) الطبرى ٢٢/٤ (٥) الأغانى ١٤/١٥٩ و ١٠/٥١
(٦) أخبار مكة للأزرقى ٢/١٠ (٧) سنن أبى داود ٢/١١٨ حجور : جمع حجر وهو ما بين اليدين من الثوب (٨) المرجع السابق ٢/١١٩ وتفسير الطبرى ١٨/٩٤ (٩) الطبقات الكبير ٨/٤٤
(١٠) سنن أبى داود ٢/١١٨

وتقنع ، يدل على ذلك قول مهلهل فى رثاء كليب إنهم كانوا يغارون على نسائهم أن يبرزن من خدورهن ، فلما قتل كليب خرجن حواسر عواطل من حليهن :

كنا نغار على العَـــواتق أن تُرَى ... بالأمس خارجةً عن الأوطان
فخرجن حـــين ثوى كليبٌ حسَّرا ... مُسْتَيْقنات بَعْـــدَه بهوان
فترى الكواعبَ كالظباء عواطلا ... إذْ حان مصرعُهُ من الأكفان
يَخْمشن من أدَم الوجوه حواسرا ... من بعده ويَعِدْنَ بالأزمان (١)

وقوله :

وإذا تشاء رأيتَ وجهاً واضحـــا ... وذراع باكية عليها بُرْنُسُ
تبكى عليكِ ولستُ لائمَ حـــرة ... تأسَى عليك بعبرة وتنفُّس (٢)

وقول الربيع بن زياد العبسى :

من كان محزوناً بمقتـــل مالك ... فليأت نسوتنا بوجـــه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنـــه ... يلطمـــن أوجههن بالأسحار
قد كن يَخْبَأْنَ الوجوه تستُّرا ... فاليوم حـــين برزن للنظّار
يضربن حُـــرّ وجوههن على فتًى ... عفّ الشمائل طيب الأخبار (٣)

وكن يسفرن إذا أيقنّ هزيمة قومهن وخشين السبى ، فيتشبهن بالإماء حتى يُزْهَدَ فيهن ، ويتأهبن للفرار سافرات ، يقول قيس بن الخطيم :

صَبَحنا كُمُ شُهْبَاء يَبْرُقُ بَيْضُها ... تُبينُ خلاخيلَ النساء الهوارب (٤)

ويقول الأفوه الأودى :

يوم تبدى البيض عن لَمْـــع البُرَى ... ولأهل الدهر فيها صَعْصَعَة (٥)

ويقول طرفة :

سائلوا عنا الذى يعرفنا ... بقُوانا يوم تَحْـــلاق اللِّمم

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/١٨٩ وشعراء النصرانية ٢/١٦٢ عواتق : جمع عاتقة وهى الجارية أول ما أدركت أو التى لم تتزوج (٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٢/١٩٧ وأخبار المراقسة ٥٦
(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٢٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٠٧
(٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط وجمهرة أشعار العرب ٢٥٢ (٥) ديوان الأفوه الأودى ١٧ مخطوط

يوم تبدى البيضُ عن أَسْوُقها ... وتَلُفُ الخيلُ أعراجَ النَّعَم (١)

ويقول عوف بن عطية التميمى :

ولنعم فتيانُ الصباح لقيتُم ... وإذا النساء حواسر كالعُنْقُر

من كل واضعة الخمار وأختها ... تسعى و منطقُها مكانَ المِئْزر (٢)

ويقول مهلهل :

على أنْ ليس يُوفى من كليب ... إذا برزَت مخبَّأة الخُدور (٣)

ويقول سَبْرة بن عمرو الفقعسى فى هجاء بنى نهشل إن نسوتهم تشبهن بالإماء مخافة السباء فبرزن مكشوفات :

ونسوتكم فى الرَّوع باد وجوهها ... يُخَلْنَ إماء والإماءُ حرائر (٤)

ويقول الأعرج المَعْنىّ فى رده على امرأته التى عذلته لعنايته بحصانه :

تلوم على أن أعطىَ الوود لقْحَةً ... وما تستوى والوردَ ساعة تَفْزع

إذا هى قامت حاسراً مُشْمَعِلَّةً ... نَخيبَ الفؤاد رأسها ما تُقَنَّع (٥)

ولقد يسفرن إدلالا بجمالهن أو مكانتهن ، أو خضوعاً لعرف قبيلتهن ، يقول المسيَّب ابن علس :

أرحَلْتَ من سَلْمَى بغير متاع ... قبل العُطاس ورُعْتَها بوادع

إذ تستبيك بأَصْلَتىٍّ ناعم ... قامت لتفتنه بغير قناع (٦)

ويقول الشنفرى :

عُفَاهِيَّةٌ لا تَقْصُر الستر دونها ... ولا تُرْتَجَى للبيت إن لم تُبيِّت (٧)

وقد تقدم فى الفصول السابقة أن المرأة كانت تغشى مجامع الرجال ، وتخطب ، وتنشد الشعر ، وتحرض على القتال ، وتقاتل ، وتخدم الجرحى ، وهذا يستدعى أن يكون وجهها مكشوفاً للناظرين .

---

(١) ديوان طرفة ١٠٤ وشعراء النصرانية ٣١٤ والأغانى ٥/٤٤ الأعراج : جمع عرج وهو القطيع من الإبل (٢) المفضليات ٢/١٢٧ العنقر : أصول القصب والبقل والبردى ما دام أبيض . منطقها مكان المئزر : سقط إزارها من فزعها فظهر منطقها (٣) الأغانى ٥/٥٣ (٤) شرح الحماسة للتبريزى ١/١٢٧ وللمرزوقى ١/٢٣٨ (٥) معجم الشعراء ٢٥١ (٦) المفضليات ١/٥٨ وديوان المسيب الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ وسمط اللآلى ١/١٧٨ متاع : متعة . العطاس : الصبح . أصلتى : خدناعم حسن (٧) الأغانى ٢١/٩١ عفاهية : ممتلئة .

الحجـــــاب

لم تكن النساء كلهن سافرات ، وإنما سفر بعضهن ، وتحجب بعضهن فغطين وجوههن ، وليس فى هذا تناقض أو شذوذ ، لأن المجتمعات كثيراً ما تتباين عاداتها ، وتتغاير نظمها فى البيئة الواحدة والعصر الواحد . ففى مصر اليوم سافرات ومحتجبات ، فى المدينة الواحدة ، والقرية الواحدة ، وسفور المرأة فى القاهرة والإسكندرية غير سفور المرأة القروية ، وحجاب هذه غير حجاب أولئك .

أما دعوى فير weir أن الحجاب لم يكن معروفاً فى الجاهلية [١] فغير صحيحة ، تدحضها الأخبار ، وتبطلها الأشعار .

١ — الأخبار صحيحة فى ممارسة النساء للحجاب ، منها أنه كان السبب فى اليوم الثانى من أيام الفجار الأول أن شباباً من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة جميلة وسيمة من بنى عامر بسوق عكاظ ، وسألوها أن تسفر فأبت ، فامتهنها أحدهم ، فاستغاثت بقومها فقامت حرب [٢] .

ومنها أن السبب فى اعتلاق عبد الله بن علقمة بصاحبته حُبَيْش أنه نزل ضيفاً عند آلها ، فأجلسوه فى متحدَّث لهم ، فخرجت حبيش وعلى وجهها سِبٌّ أخضر ، فضربه الهواء فانكشف وجهها ويداها . فهام بها عبد الله [٣] .

وكانت هند بنت صعصعة جد الفرزدق تفاخر بقولها : من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لى أن أضع خمارى معهم فلها صِرْمتى : أبى صعصعة ، وأخى غالب ، وخالى الأقرع ، وزوجى الزبرقان بن بدر . وهى ذات الخمار ، لأنها دخلت على هؤلاء الأربعة فألقت خمارها ، فقالوا لها : ما هذا ، ولم تكونى متبرجة ؟ فقالت : داخلتنى خيلاء حين رأيتكم ، فأى امرأة من العرب وضعت خمارها عند مثلكم فلها صرمتى [٤] .

وفى أمثالهم ما يؤيد معرفتهم الحجاب ، كقولهم (إن العَوَان لا تُعَلَّمُ الخِمْرة) [٥] ، أى لا تحتاج إلى تعلم الاختمار ، يضرب مثلا للرجل المجرب .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢٦٦/٦ T. h. Weir (٢) الأغانى ٧٤/١٩ (٣) تزيين الأسواق ٨١ داود الأنطاكى . (٤) النقائض ٢٦٤ (٥) مجمع الأمثال ١٧/١ وجمهرة الأمثال ٦١/٢ ولسان العرب مادة خمر . العوان : الثيب أو بنت الثلاثين .

٢ — والشعر الجاهلى حافل بذكر الحجاب كما حفل بذكر السفور ، فمثلا يقول النمر بن تولب فى امرأته التى هجرته :

وصدّت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضنّت بحاجب (١)

ويقول الربيع بن زياد العبسى بعد مقتل مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
قدكن يخبأن الوجوه تستّرا فاليوم حين بدون للنظار
يَخْمشن حُرّات الوجوه على امرىء سهل الخليقة طيب الأخبار (٢)

ويتغزل الحطيئة فى قوام محبوبته ووجهها ، ويكنى عن وجهها بأنه موضع النقاب :

طافت أمامة بالركبان آونة يا حُسْنَهُ من قوامٍ مّا ومُنْتَقبا (٣)

ويعجب الشنفرى بحبيبته وهى منتقبة لا تكشف وجهها :

فقد أعجبتنى لا سقوط قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفّت (٤)

وتحرض أم عمرو بنت وقدان قومها على الثأر بأنهم إن لم يثأروا فعليهم أن يدعوا السلاح ويتكحلوا ويتنقبوا كالنساء :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح ووحّشوا بالأبْرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نُقُبَ النساء فبئس رَهْطُ المرْهَق (٥)

ولقد يتمثل الحجاب فى أن تتخدر المرأة فلا يراها إلا الأقربون ، ولا تبرز إلا فى الفواجع . يدل على ذلك قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
فإن تكن النساء مخبّآتٍ فحُقّ لكل مُحْصَنَةٍ هداء (٦)

وفى قول مهلهل يرثى كليبا :

على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبّأة الخدور (٧)

---

(١) الأغانى ١٩/١٥٩ (٢) النقائض ٨٦ (٣) خزانة الأدب ٢/٣٩٥ (٤) الأغانى ٢١/٩٠ (٥) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٥٥ وحشوا بالأبرق : كونوا مع الوحوش بالأرض الرملية الحجرية . المرهق : الذليل المضيق عليه (٦) شرح ديوان زهير لثعلب ٧٤ (٧) الأمالى ٢/١٣٢ وكتاب بكر وتغلب ٧١

وفى قول عدى بن زيد :

يُسارقْنَ م الأستار طَرْفا مُفَـــترًا ويُبْرِزْنَ من فَتْق الخدور الأصابعا[١]

٣ — وإذا كان المراد بالحجاب لبس الخمار ونحوه فإنه لم يكن مقصوراً على العرب ، بل كان شائعاً منذ أقدم العصور فى بابل وأشور وفارس والروم والهند [٢] ، فقد كانت النساء الرومانيات مغاليات فى الحجاب فى العهد الأول للجمهورية ، حتى إن القابلة كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ، ووجهها ملثم ، وعليها رداء طويل يلامس كعبيها ، وفوقه عباءة لا تبدى شيئاً من قوامها . ثم تغيرت الحال فى عهد الإمبراطورية ، حتى هالت بعض المصلحين ، وهبّ (كاتون) ينذر بالخطر المحدق الذى سيلتهم كل شىء [٣] .

كذلك عرف الفرس القدماء الحجاب ، وعدوا كشف المرأة أو الرجل عن شىء من جسده غير الوجه مظهراً منافياً للاحتشام والأدب . وكانت النساء يغطين أجسامهن من قمة الرأس إلى إخمص القدم [٤] . وبعد حكم دارا الأول كان احتجاب نساء الطبقة الراقية عن المجتمعات نظاماً ضرورياً مراعى ، فصرن لا يجسرن على الخروج إلا فى هوادج تغطيها الستائر ، وحظر عليهن أن يخالطن الرجال فى مجتمع خاص أو عام . بل لقد منعت المتزوجات من رؤية أدنى الرجال إليهن قرابة حتى الآباء والإخوة . ونشأ عن ذلك أننا لم نجد للنساء ذكراً أو صوراً فى النقوش أو التماثيل التى خلفتها إيران القديمة . أما الخليلات والمحظيات فكن على ضد ذلك ، يتمتعن بحرية عظيمة ، لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن مواليهن وضيوفهم [٥] . وشاع الحجاب عند الهنود أيضاً ، حتى فى عصر المهاباراته . وعرفه الأثينيون القدماء [٦] ، وقد ورد فى الإلياذة قول هكتور : « لست أرضى العار إذا اشتجرت النصول بين الطروادين والطروادیات الطويلات النقاب » ، ومن هذا ، ومن ذكر قناع إيقاب ، وبرقع هيلانة ، وبراقع النساء والربات ، نعرف أن اليونانيات استعملن النقاب [٧] .

على أنه ما زال شائعاً إلى العصور الوسطى وما بعدها ، وما زالت له آثار ، ولم تغير منه النصرانية شيئاً [٨] ، لذلك كان ذائعاً فى الدولة البيزنطية [٩] ، وإن لم يكن عاماً [١٠] .

---

(١) الأغانى ٢/١٥٠ (٢) الإسلام والحضارة العربية محمد كرد على ١/٨٨
(٣) المرأة المسلمة ١٢٣ فريد وجدى (٤) قصة الحضارة الفارسية ١٩ ول دورانت
(٥) المرجع السابق ٦٠ (٦) مركز المرأة فى الإسلام ٢٤ السيد أمير على الهندى
(٧) الالياذة ٤٧٥ (٨) التمدن الاسلامى ٥/٧٧ جرجى زيدان (٩) مركز المرأة فى الإسلام ٢٤ (١٠) الامبراطورية البيزنطية ٣٤ نورمان بينز

٤ — ثم جاء الإسلام ففصل فى مشكلة السفور والحجاب ، قال تعالى : «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» (١).

وقال تعالى : «يا أيها النبى قل لأزوجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن» (٢).

واختلف فى الإدناء الذى أمرن به ، فقال بعضهم هو أن يغطين رءوسهن ووجوههن فلا يبدين إلا عيناً واحدة . وقال بعضهم بل يشددن خُمراً على جباههن . وروى عن ابن عباس أن إدناء الجلباب هو أن تتقنع وتشد جبينها ، وعن قتادة أن يقنعن على الحواجب (٣). وذهب آخرون إلى أن المراد ستر الرءوس والأعناق والنحور (٤).

وبذلك حرم على المرأة المسلمة أن تكشف عن مواضع زينتها أمام أجنبى ليس من المحارم ، إلا ما اقتضت الضرورة أن يظهر ، كالوجه والكف ، لأن فى إخفائهما تضييقاً وحرجا (٥).

ونهى الإسلام عن التبرج كما سبق .

وهو بذلك يدرأ الفتنة ، ويقى النفوس نزواتها ، لذلك أحل للعجائز اللائى لا أرب فيهن ما لم يحله للشابات والجميلات ، يقول تعالى : «والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة» (٦).

وقد صور الشعراء بعضهن مختمرات ، فعمر بن أبى ربيعة يقول فى إحدى صواحبه :

واشتكت شدة الإزار من البهـ ـر وألقت عنها لدىّ الخمارا (٧)

---

(١) سورة النور ٣١ (٢) سورة الأحزاب ٥٩ (٣) تفسير الطبرى ٢٢/٣٣ والنيسابورى ٢٢/٣٢ والرازى ٥/٢٤٩ والطبقات الكبير ٨/١٢٧ (٤) تفسير الجلالين ٢٩٥

(٥) تفسير الطبرى ١٨/٩٤ والنيسابورى ١٨/٧٦ والبيضاوى ٤٧٦ والجلالين ٢٩٥

(٦) سورة النور ٦٠ (٧) الأغانى ٣/٩٧ ساسى

وقد جلس هو والغريض فى نسوة مقنعات بأخمرتهن [١]. والحارث بن خالد يقول فى امرأة مختمرة وهى تحج :

يقعـــدن فى التطواف آونـــةً ويطفن أحياناً على فُـــــتُر
ففرغن من ســـبع وقد جَهَدَتْ أحشاؤهن موائلَ الخُمُـــر [٢]

على أن قلة من المسلمات كانت تسفر ، وزعيمتهن فى ذلك عائشة بنت طلحة ، كانت لا تستر وجهها من أحد [٣] ، وسكينة بنت الحسين ، كانت برزة أديبة تجالس الجلة من الرجال والأدباء [٤] . وقد أشرفت هند بنت النعمان بن بشير على وفد عند زوجها وهى سافر ، وكذلك كانت تسفر امرأة عبد الملك بن مروان [٥] . وكانت عمْرة صاحبة أبى دَهْبَل — وهب بن زمعة الشاعر الإسلامى — امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار [٦] .

وفى حديث لُنَصَيْب أنه جالس هو وكُثيِّر والأحوص نساء بارزات لا عهد لهم بهن ، وسمعوا الغناء ، وتغدوا بالْعَقيق جميعاً [٧] .

وكانت خَرْقاء العامرية حبيبة ذى الرُّمه تقعد للحجيج وتحادثهم ومعها فاطمة ابنتها [٨] .

ولقد كان الباعث لهن على السفور فى الإسلام كما كان فى الجاهلية : الزهو بالجمال ، والاعتداد بالتصون ، والاعتزاز بالعفة ، فقد عاتب مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة فى سفورها فقالت : إن الله تبارك وتعالى وَسَمنى بميسم جمال فأحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله علىهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىَّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد [٩].

وقد سجل الشعراء هذا السفور ، كقول عمر أبى ربيعة :

ولما تفاوضنا الحديث وأســـفرت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعـــا
. . . . . [١٠]

وقول الشماخ :

« أطارت من الحسن الرداء المحبَّرا »

---

(١) الأغانى ٦/٨٣ ساسى (٢) الأغانى ٣/٩٧ ساسى (٣) الأغانى ١٠/٥١
(٤) الأغانى ١٤/١٦٥ (٥) العقد الفريد ٣/٢٨٩ (٦) الأغانى ٦/١٥٠
(٧) الأغانى ١/١٣٧ ساسى (٨) الاغانى ١٦/١١٩ (٩) الأغانى ١٠/٥١ وزهر الآداب ١/٢٣١
(١٠) شرح الحماسة للتبريزى ٣/١٢٧

لأنها مدلة بجمالها فلا تختمر ، ولا تستر شيئاً من الناظرين [١].

وإذاً فالحجاب الذى دعا إليه الإسلام سهل ميسور مقبول، وهو شبيه بما كان فى الجاهلية وبما نرى اليوم فى البوادى والقرى .

ولكن بعض المسلمين تشددوا فيه ، ثم تأكد وثبت منذ أصدر المتوكل والقادر بالله العباسى أمرهما بمنع النساء من الصلاة فى المساجد ومخالطة الرجال فى المحافل والمجتمعات ، [٢].

وكلما ضعفت مكانة المرأة وساء ظن الرجال بها ، وساء ظنها بهم، علت حولها الأسوار ، وخيفت عليها الأنظار ، وعاشت فى منزل أشبه بالحصن ، كالوردة فى أصيص مغلق .

خُمُرها وملابسها

[١]

كانت أغطية رءوسهن منوعة ، ولها أسماء شتى منها :

١) الخِمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . وهو شقة على الرأس تلف على جزء من الوجه ، فهو يشبه مايسمى فى عصرنا (الطرحة) ، ومن أسمائه النَّصيف [٣] ، والقناع [٤] . والبُرْقع [٥]، والسِّب [٦].

٢) وإذا كان الغطاء وحده فهو المِقْنَع والمِقْنعة ، وهى أصغر من القناع [٧] .

٣) والنِّقاب القناع على مارنِ الأنف ، وهو على وجوه . قال الفراء : إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينها فتلك الوَصْوَصة ، فإن أنزلته دون ذلك إلى المحْجر فهو النقاب ، فإن كان على طرف الأنف فهو اللِّثام . وقال ابن سيرين : النقاب محدث ، أراد أن النساء ما كن ينتقبن أى يختمرن . قال أبو عبيد : ليس هذا وجه الحديث ، ولكن النقاب عند العرب هو الذى يبدو منه مَحْجر العين ، ومعناه أن إبداءهن المحاجر محدث ، إنما كان النقاب لاحقاً بالعين ، وكانت تبدو إحدى العينين والأخرى مستورة ، وكان اسمه عندهم الوصوصة والبرقع [٨] .

---

(١) الكامل للمبرد ١/٤٩١ (٢) الإسلام والحضارة العربية ١/٨٩ (٣) لسان العرب والقاموس المحيط مادة خمر (٤) القاموس مادة قنع (٥) القاموس المحيط مادة برقع (٦) القاموس مادة سب (٧) لسان العرب والقاموس مادة قنع . (٨) لسان العرب والقاموس مادة نقب والقاموس مادة لثم ولفم

٤) والوَصْواص النقاب على مارن الأنف لا تظهر منه إلا العينان ، وهو البرقع الصغير [١] ويسمى البُخْنُق [٢] .

٥) البرقع والبرقوع ، وهو للدواب ، ولنساء الأعراب ، فيه خرقان للعين ، والبرقع المَوْصوص هو الصغير العينين [٣] .

٦) القناع ، ما تتقنع به المرأة من ثوب ، تغطى رأسها ومحاسنها به ، وهو أكبر من المقْنع والمِقْنعة . وذهب الأزهرى إلى أنه لافرق عندالثقاة من أهل اللغة بين القناع والمقنعة ، ويظهر أنه كان فى صدر الإسلام من لبس الإماء ، فقد رأى عمر جارية عليها قناع فضربها بالدرة وقال : أتَشَبَّهين بالحرائر ؟ [٤] .

٧) البُخْنُق : برقع يغشى العنق والصدر ، والبرنس الصغير . وهو ابن سيده أنه البرقع الصغير . وهو أيضاً خرقة تلبسها المرأة فتغطى رأسها ما قَبَل منه وما دَبَر غير وسط الرأس . وقال الجوهرى هو خرقة تقنع بها الجارية ، وتشد طرفيها تحت حنكها لتقى الخمار من الدهن ، وتحفظ الدهن من الغبار [٥] .

٨) وفى الشعر ذكر لهذه الخُمُر .

فمن ذكر الخمار قول صخر فى أخته الخنساء :

ولو هلكتُ خَرَّقَتْ خِمارها ... وانحدتْ من شَعرِ صـــدارها [٦]

وقول المرار بن منقذ :

وهوَى القلبِ الذى أعجبـــه ... صورة أحسنِ من لاثَ الخُمُر [٧]

ومن ذكر القناع قول عنترة :

إن تُغْدِ فى دونى القنـــاع فإننى ... طَبٌّ بأخذ الفارس المستَلْئِم [٨]

وقول عروة بن الورد :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته ... ولم يُلْهنى عنـــه غزال مقنَّع [٩]

---

(١) لسان العرب مادة وصوص (٢) القاموس مادة بخق (٣) لسان العرب مادة برقع
(٤) لسان العرب مادة قنع (٥) لسان العرب مادة بخنق والقاموس مادة بخق
(٦) تهذيب الكامل ١٩٢/٢ والشعر والشعراء ١٢٤ والإصابة ٦٧/٨ (٧) المفضليات ٨٧/١
(٨) لسان العرب مادة قنع وشرح المعلقات السبع لابن الانبارى مخطوط ٥٨ تغدفى : ترخى على وجهك
(٩) شعراء النصرانية ٩١٣

ومن ذكر البرقع قوله النابغة الجعدى يصف خشفا :

وخدّاً كبُرْقُوع الفتاة مُلَمَّعاً ورَوْقَيْن لمّا يَعْدُ أن يتقشّرا

وقول توبة :

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداةَ سفورها (١)

ومن ذكر الوصواص قول المثقب العبدى :

ظهرن بكلة وسَدَلن رَقْما وثقّبن الوصاوص للعيون

ويروى ، أرين محاسنا وكنّ أخرى .

وأنشد ابن برى لشاعر :

يا ليتها قد لبست وَصْواصا (٢).

ومن ذكر النصيف قول النابغة فى المتجردة :

سقط النّصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليد (٣)

وقول ثعلبة بن صُعَيْر فى وصف النعامة : إنها حضنت بيضها بجناحيها وهى فى خبائها فلم يبد إلا وجهها ، كالمرأة من الخُمْس تتقنع ولكن يبدو بعض رأسها ووجهها .

فبنت عليه مع الظلام خباءها كالأَخْمَسيّةِ فى النّصيف الحاسِر (٤)

وقول ليلى بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد :

بكت تغلّبُ الغَلْباء يوم وفاته وأُبْرِزَ منها كلُّ ذات نصيف (٥)

ومن ذكر السبّ قول معن بن أوس :

إذا ما لبسن الحَلْىَ والوشْىَ أشرقت وجوه وَلَبّاتٌ يُسَلِّبننا الحِلْما

ولُثْنَ السُّبُوبَ خِمْرَةً قرشية زُبيْرية يَعْلُمْنَ فى لَوْثها عَلْما (٦)

ومن ذكر اللثام قول قيس بن الحدادية :

نَشَرْتُ على فيها اللثام وأعرضَتْ وأمعنَ بالكحل السحيق المدامع (٧)

---

(١) لسان العرب مادة برقع (٢) لسان العرب مادة وصص (٣) ديوان النابغة ٢٩

(٤) المفضليات ١/١٢٨ (٥) حماسة البحترى ٤٣٦ (٦) البيان والتبيين ٢/٣٥٤ هارون. لثن : أدرن وطوين . الخمرة : هيئة الاختمار . لوثها: إدارتها وطيها . يعلمن : يسمن من علمه بابه نصر وضرب

(٧) الاغانى ١٣/٧

ومن ذكر البخنق قول عنترة

فخـــر الرجال سلاسل وقيود وكذا النســـاء بخانق وعقود (١)

(٢)

أما ملابسها فكثيرة أيضاً ومنوعة ، منها :

(١) الرَّيْطة ، وهى الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، وهى كل ثوب لين رقيق (٢).

قال سُلْمَى بن ربيعة يذكر لذاته :

والبيض يَرْفُلْـــــن كالدُّمَى فى الرَّيْط والمُذْهَب المصون (٣)

وقال الأعشى :

والساحبات ذيول الريـــط آونة والرافلات على أعجازها العَجَل (٤)

وقال الرَّمِق ــ عبيد بن سالم الخزرجى ــ فى مدح أبى جبيلة :

أمثال غزلان الصـــــرا ئم يأتزرن ويرتدينـــــا

الرَّيْط والديباج والـــــزَّ رَد المضاعف والبُرينـــا (٥)

وذكرها حسان فى قوله :

يَحملن حُوّاً حُور المدامع فى الرَّ يْط وبيضَ الوجوه كالبَرَد (٦)

(٢) المِرط كساء من صوف أو خز (٧) .

ويظهر أن ذيله كان طويلا ينسحب على الأرض . يقول امرؤ القيس :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرَينا ذيل مِرْط مرحَّل (٨)

ويقول :

دخلت على بيضـــاء جُمٍّ عظامُها تعفّى بذيل المِرط إذ جئتُ مَوْدِقى (٩)

وقد ذكر المرط والريطة المنتخل بن عُوَيْمر الهذلى فى قوله .

فَخُورٌ قد لهـــوتُ بهن حيناً نواعمُ فى المروط وفى الرِّياط (١٠)

---

(١) ديوان عنترة ٦٤ (٢) القاموس مادة ريط (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٨٣

(٤) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى دولاب الستى يصف أعجازهن بالضخامة . (٥) الأغانى ١٩/٦٩ الصرائم : قطع الرمل . الزرد : الدرع المزرودة . البرين : جمع برة وهى الخلخال . (٦) ديوان حسان ٣٣ حو : جمع حواء أى ذات شفة حمراء ضاربة إلى السواد (٧) القاموس مادة مرط (٨) ديوان امرىء القيس ١٢٩ مرحل . فيه صور الرحال

(٩) ديوان امرىء القيس ١١٩ ولسان العرب ١٢/٢٥١ (١٠) جمهرة أشعار العرب ٢٢٩

(٣) الصدار، وهو ما تلبسه المرأة على صدرها، قال عروة بن الورد فى فخره بسباياهم من طيئ.

ترى كل بيضاء العوارض طَفْلةً تُفَرِّى - إذا شال السِّماكُ - صدارها (١)

وكانت الحزينة تتخذه من شعر، كما فعلت الخنساء تحقيقاً لقول أخيها صخر.

ولو هلكت خَرَّقَتْ خمارها واتخذت من شعر صدارها (٢)

(٤) السابرىّ، ثوب رقيق جيد، قال امرؤ القيس:

تَصُدُّ عن المأثور بينى وبينها وتدنى علىَّ السابرىَّ المضَلَّعا (٣)

(٥) الجُبَّة، وهى ثوب واسع (٤)، ويظهر أنها كانت من ملابس الإماء، بدليل قول أوس بن حجر فى الأطلال:

تمشى بها رُبْدُ النعام كما تمشى إماء سُرِبلَتْ جُبَبا (٥)

وهم ميزوا الإماء بالجبب، لأن الأزياء كانت تختلف، فللحرائر زى، ولذوات الرايات زى، وللإماء زى، ولكل مملوك زى (٦).

(٦) الحِبَرة، وهى ضرب من برود اليمن، وهى أيضاً البرد الموشّى (٧).

(٧) وهناك أنواع كثيرة، منها: اللِّفاع واللِّحفة، وهو ما تتلفع به المرأة (٨)، وهو (الشال) فى عصرنا. والنِّطاق والمِنْطقة، وهى شقة تلبسها المرأة، وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل إلى الأرض، والأسفل ينجر على الأرض، ليس لها حُجْزة ولا ساقان ولا نيفق (٩)، وهى تشبه بعض الشبه ما يسمى الآن (الجونلا).

والبتّ وهو الطيلسان من خز ونحوه (١٠).

والحُلة وهى إزار ورداء، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة (١١).

والبُرْد هو الثوب الموشّى، والكساء الذى يلتحف به (١٢).

---

(١) شعراء النصرانية ٩١١ تفرى: تشق. شال السماك: ارتفع هذا النجم.
(٢) الشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ٢/١٩٢ والإصابة ٨/٦٧ والمحاسن والأضداد ١٤٣
(٣) ديوان امرىء القيس ١١٣ المضلع: المخطط المسير أو الذى وشيه على شكل الأضلاع
(٤) القاموس مادة جب. (٥) ديوان أوس ٢. (٦) البيان والتبيين ٣/٩٧ تحقيق هارون
(٧) القاموس مادة حبر. (٨) القاموس مادة لفع. (٩) القاموس مادة نطق. نيفق: متسع
(١٠) القاموس مادة بت. (١١) القاموس مادة حل. (١٢) القاموس مادة برد

والمِعْرَض الثوب تعرض فيه الجارية وتُجْلَى [١] .

والبُرْنُس كل ثوب رأسه ملتزق به ، دُرَّاعة كان أوجبة أو مِطْرا ، وهو أيضاً قلنسوة طويلة ، وكان النساء يلبسنها فى صدر الإسلام [٢] .

قال مهلهل :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحـــا وذراع باكية عليها بُرْنُس [٣]

(٨) وكانت تسمى الملابس بأسماء دالة على نقوشها . فالمرَحَّل بُرْد فيه تصاوير الرجال ، والمرجَّل إزار فيه صور الرجال ، والمَرْجَل والمِرْجل بُرْد يمنى [٤] .

والوصائل ثياب يمنية مخططة [٥] ، قال لبيد :

غرائر أبكار عليها مهابةٌ وعُونٌ كرام يرتدين الوصائلا [٦]

والمُجْسَد والمَجْسَد ثوب مصبوغ بالجَسَد أو الجِساد وهو الزعفران [٧] ، قال طرفة فى وصف القينة :

نداماى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومُجْسَد [٨]

والمُذْهَب ما جعل نسجه بخيوط من ذهب ، قال سُلْمَى بن ربيعة :

والبيض يرفلن كالـــــدمى فى الريط والمُذْهب المَصُون [٩]

والخال ضرب محكم من برود اليمن الموشاة ، وهو أيضاً الثوب الناعم [١٠] .

والمراجل ضرب محكم من برود اليمن ، والمُمَرْجَل ضرب من ثياب الوشى فيه صور المراجل ، ويقال لها المراحل أيضاً ، وفى الحديث (حتى يبنى الناس بيوتاً يوشونها وشى المراحل [١١]) والمصَّلب فيه نقش كالصليب ، وفى حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى التصليب فى ثوب قَضَّه ، أى قطع موضع التصليب منه . وقد نهى عن الصلاة فى الثوب المصلب ، وفى حديث عائشة : فناولتها عِطافا فرأت فيه تصليباً ، فقالت : نحِّيه عنى

---

(١) لسان العرب مادة عرض (٢) لسان العرب مادة برنس (٣) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ١٩٧/٢ وأخبار المراقسة ٥٦ (٤) القاموس مادة رحل ورجل . (٥) القاموس مادة وصل

(٦) ديوان لبيد ٢٢ عون : ج عوان وهى المتزوجة (٧) القاموس مادة جسد

(٨) ديوان طرفة ٢٦ (٩) شرح الحماسة للتبريزى ٨٣/٣ (١٠) لسان العرب ٢٤٢/١٣

(١١) لسان العرب ٢٨٣/١٣ و ٢٩١

وكانت أم سلمة تكره الثياب المصلبة [١] . والمُبَرَّج مافيه صور البروج ، وفى التهذيب قد صور فيه تصاوير كبروج السور .

قال العجاج :

« وقد لبسنا ثوبه المبرجا »

وقال فى وصف ناقة :

« كأن برجا فوقها مبرَّجا » . شبه سنامها ببرج السور .

والثوب المبرج أيضاً المعيَّن أى فى وشيه ترابيع صغار تشبه بعيون الوحش [٢] ، والمسَهَّم البرد المخطط بوشى على شكل السهام ، قال أوس :

فإنا رأينا العرْض أحوج ساعة إلى الصون من رَيْط يمانٍ مُسَهَّم

وفى حديث جابر أنه كان يصلى فى برد مسهَّم [٣] .

والمضرس ثوب موشى ، به أثر ، قال أبو قِلابة :

ردع الخَلُوق بجلده ـــا فكأنه رَيْط عتاق فى الصِّوان مُضَرَّس [٤]

والمَعضَّد ثوب موشى فى جوانبه ، أو موشى على العضد من لابسه ، قال زهير يصف بقرة :

فجالَتْ على وحشيّها وكأنهـــا مُسَرْبلةٌ من رازقىٍّ مُعَضَّـــد [٥]

والمضَلَّع ثوب مخطط على شكل الأضلاع ، أو هو الموشى ، أو المسيّر ، وقيل برد مضلع إذا كانت خطوطه عريضة كالأضلاع ، وفى الحديث أنه أهدى له صلى الله عليه وسلم ثوب سِيَراء مضلع بقز [٦] .

والمُكعَّب المطوىّ الشديد الأدراج فى تربيع ، أو ما فيه وشى مربع [٧] ، أو هو المنقوش على هيئة الكعاب [٨] .

والمُهلَّل ما فيه نقوش وصور كالأهلة [٩] .

---

(١) لسان العرب مادة صلب (٢) لسان العرب مادة برج وعين (٣) لسان العرب مادة سهم
(٤) لسان العرب مادة ضرس . حملة مرة على اللفظ فقال مضرس ، ومرة على المعنى فقال عتاق
(٥) لسان العرب مادة عضد . وديوان زهير ٩٢ والكنز الثمين ٨٠ رازقى . ثوب كتان أبيض .
(٦) لسان العرب مادة ضلع (٧) لسان العرب مادة كعب (٨) الإفصاح ١٦٠ (٩) الإفصاح ١٦٠

والخال ضرب من برود اليمن الموشية قال الشماخ :

وبُرْدان من خالٍ وسبعون درهما على ذاك مقرونٌ من الجلد ماعز (١)

والمُعَرْجَن ما فيه صور العراجين والنخل ، قال رؤبة : فى خد مياس الدُّمَى مُعَرْجَن (٢) .

والمطَيَّر ضرب من البرود ، قيل هو المشقق المكسَّر ، قال العجير السلولى .

إذا ما مشت نادى بما فى ثيابها ذكىُّ الشذى والمندلىُّ المطَيَّر (٣)

أو هو المزين بصور الطيور (٤) .

(٩) وأما ألوانها فأكثرها شيوعا اللون الأحمر ، وقد كان العرب مغرمين بالحمرة فى الحدوج ، يمثل ذلك قول علقمة إن الجمال قد احتملت :

عَقْلاً ورقْماً تظل الطيرُ تتبَعه كأنه من دم الأجواف مَدْمُوم (٥)

وقول المسيب بن علس إن الظعن تحمل :

عَقْلاً ورَقْماً ثم أردفه كِلَلٌ على أطرافها الخَمْل (٦)

وكذلك صور الحدوج امرؤ القيس (٧) ، وطفيل الغنوى (٨) والحطيئة (٩) .

كذلك كانوا يؤثرون الحمرة فى لون الملابس ، قال أوس بن حجر إن ملابسهن منوعة الألوان وواسعة :

يلبسن رَيْطاً وديباجا وأكسية شتَّى بها اللونُ إلا أنها قُورُ (١٠)

وكان اللون الأحمر شعار الملوك والأشراف ، ولعل هذا مما حببه إلى الناس ، على رغبتهم فيه ، قال النابغة الذبيانى فى مدح الغساسنة :

تحييهم بيضُ الولائد بينهم وأكسية الإضْريج فوق المشاجب (١١)

---

(١) لسان العرب مادة خيل (٢) لسان العرب مادة عرجن (٣) لسان العرب مادة طير

(٤) الإفصاح ١٦١ (٥) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر يجلل الهودج أو ضرب من الوشى . الرقم : ضرب مستدير أو مخطط من الوشى أو الخز أو البرود . مدموم : مطلى بالدم

(٦) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٧ الخمل : هدب القطيفة ونحوها

(٧) ديوان امرىء القيس ٣٢ (٨) ديوان طفيل ٣٣ (٩) ديوان الحطيئة ٣٧

(١٠) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء أى واسعة (١١) ديوان النابغة ٨ الإضريج : الخز الأحمر

وظل إيثارهن اللون الأحمر إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فالسيدة عائشة كانت تحب من ألوان الملابس الأحمر والمعصفر ، فكانت تلبس درعاً معصفراً أحياناً ، ومذهباً أحياناً ، ومضرجاً وهو الذى كان يسمى المورَّد ، وكانت عليها ثياب حمر كأنها شرر وهى محرمة (١).

وقد وصف المتنبى الحسان الظاعنات بأنهن حمر الحلى والنوق والثياب :

مَنِ الجآذرُ فى زىِّ الأعاريب حُمْرَ الحِلَى والمطايا والجلابيب (٢)

حليها

غرام النساء بالحلى

كلفت المرأة بالحلى فى كل بيئة وفى كل عصر ، تضيف إلى جمالها تجملا ، وتزهى به وتفاخر وتكاثر ، وتختلب ألباب الرجال ، وقلما تبدو عاطلا من حلاها ، وإن غنيت بجمالها ومكانتها ، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل ، كقول الشماخ :

دار الفتاة التى كنا نقول لها ياظبيةً عطُلاً حُسّانةَ الجيد (٣)

وإذا كانت الزينة شية للأنثى من بنى الإنسان ، فإنها من شيات الذكر فى الحيوان ، لأن الطبيعة تزين الذكران من الطيور والحيوان بما يغرى الأنثى ويجتذبها ، أما فى عالم البشر فإن الأنثى تتزين لتجتلب الذكر « وإذا كانت أزياء النبلاء السابقين الحريرية الملونة تبهرنا اليوم على المسرح فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثيابا يتفق لهن بها من الفتنة ما لا نبصر نظيره فى عصرنا » (٤) .

لهذا شاع الحَلْى فى العصور القديمة عند الأمم ، وكان عظيم الشأن عند الأمم التى اتصل بها العرب ، فالإسرائيليات كن يتأنقن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والنُّطف والأساور والرُّعَل والعصائب والمصاعيد والمناطق والخواتم والأحراز والخُرْصان والتيجان وغيرها من الملابس والمرايا (٥) .

---

(١) الطبقات ٨/٤٧ والأنساب ١/٦٦٥ (٢) ديوان المتنبى شرح البرقوقى ١/١١٤ الجآذر : ج جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . الأعاريب : جمع أعراب وهم سكان الخيام والوبر . المطايا النوق وأجودها الحمر . (٣) معجم البلدان ٨/٥٢٥ (٤) الحياة والحب . إميل لودفيج ٢٢

(٥) سفر أشعيا ٣/١٨ـ٢٣ النطف : الأقراط . الرعل : ج رعلة وهى الإكليل من ريحان وآس . الخرصان : ج خرص وهو حلقة الذهب والفضة أو حلقة القرط أو الحلقة الصغيرة من حلى .

والمرأة الفارسية كانت مولعة بأصناف الحلى، من تيجان وأقراط وخلاخيل وغيرها، حتى لقد كانت تلبس حذاء مذهباً (١).

والمرأة الرومانية أسرفت فى زينتها إسرافاً حمل (كاتو) على أن يسن قانوناً يحد من ملكيتها لتقتصد فى نفقات زينتها، واحتدت المناقشة فى التريبيون بين كاتو وأحد الأعضاء الجانحين إلى أن تطلق للمرأة الحرية فى زينتها ، وجاء فى رد العضو المعارض : إن النساء لا يستطعن العمل فى الوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات أو جنديات يحرزن النصر ، وليس لهن من العمل العام ما يشغل فراغهن ، فماذا يستطعن أن يعملن إن لم يخصصن أوقاتهن للزينة والملبس (٢) ؟

وكانت المرأة المصرية تتزين بالعصائب والخواتم والأساور والخلاخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار واللآلىء والأقراط ، وكان خضاب الأظفار شائعاً ، والكحل بالإثمد كذلك . وغلا المصريون والمصريات فى استعمال الشعر المستعار ، فجعلوه كثيفاً ثقيلا مقصوصاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء (٣) .

صنوف الحلى

تنوع حلى المرأة العربية ، وتعددت أصنافه ، فكان لكل عضو من أعضاء الزينة حلى يلائمه .

(١) ففى اليد السوار والإسْوار ، وهو القُلْب أيضاً ، وموضعه المعصم قال العرندس الكلابى :

بل أيها الراكب المفنى شبيبته ... يبكى على ذات خلخال وإسوار

وقال المرار بن سعيد الفقعسى :

كما لاح تبرٌ فى يدٍ لمعتْ به ... كعابٌ بدا إسوارها وخضيبها (٤)

وقال النابغة الذبيانى :

وأبدت سِواراً عن وشوم كأنها ... بقية ألواح عليهن مُذْهَب (٥)

(١) قصة الحضارة الفارسية ٦٧ ول ديورانت (٢) المرأة فى مختلف العصور ٢٧ ـ ٢٩
(٣) الحضارة المصرية القديمة . لوبون ٧٥ (٤) لسان العرب مادة سور (٥) ديوان النابغة ٢٨

وفيها الدُّمْلُج ، وهو المِعْضَد والمِعْضَدة [١] ، قال عنترة :

وتحتى منها ساعد فيه دملج مضىء وفوقى آخر فيه دُمْلُج [٢]

وأنشد ابن الأعرابى :

والبيض فى أعضادها الدماليج ومُعْطِيَاتٌ بُدَّلٌ فى تَعْويج [٣]

وإذا كان السوار من فضة فهو القَلْد [٤] .

وقد يكون على الساعد حلى من مرجان ، قال لبيد :

وعالين مضعوفاً وفرداً سُموطه جُمانٌ ، ومرجان يشد المفاصلا [٥]

وفى الأصابع الخواتم ، ويقال للخاتم خَيْتام أيضاً ، أنشد ابن برى :

يا هند ذات الجورب المُنْشَقّ أخذت خَيْتامى بغير حق [٦]

(٢) وفى ساق الرجل الخلخال ، وهو أيضاً الخَلخَل والخُلْخُل ، قال الشاعر :

براقة الجيد صموت الخلخل [٧]

وقال الأعشى :

وساقان مارَ اللحم مَوْراً عليهما إلى منتهى خلخالها المتصلصل [٨]

وقال طفيل الغنوى :

وفى الظاعنين القلبُ قد ذهبتْ به أسيلة مجرى الدمع ريا المُخَدَّم [٩]

وفى تفسير قوله تعالى : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أن المرأة ربما اجتازت وفى رجلها الخلخال ، وربما كان فيه الجلاجل ، فإذا ضربت برجلها علم أنها ذات خلخال وزينة ، فنهى عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما أمرن ألا يبدين ذلك لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه [١٠] .

(٣) أما الأذن فلها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرهما .

ومن أنواع حليها القُرْط وهو الشَّنْف ، أو الشَّنف ، فى أعلى الأذن والقرط فى أسفلها ، قال الراجز يخاطب امرأته :

---

(١) لسان العرب مادة عضد (٢) ديوان عنترة ٣٥ (٣) لسان العرب مادة دملج .
(٤) لسان العرب مادة قلد (٥) ديوان لبيد ٢٢ مضعوفا : ثيابا مضعفة (٦) لسان العرب مادة ختم
(٧) لسان العرب مادة خلل (٨) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : تحرك واضطرب (٩) ديوان طفيل الغنوى ٣٣ المخدم : موضع الخدمة وهو الخلخال (١٠) لسان العرب ١٣/٢٨٤

قرّطك الله على العينين عقاربا سوداً وأرقمين[١]

وقال أبو كبير الهذلى .

وبياض وجهك لم تحُلْ أسراره مثل الوذيلة أو كشَنْف الأنضر[٢]

والحب القرط من حبة واحدة ، وهو الخُرْص أيضاً ، أو الخرص الحلقة من ذهب أو فضة قال الشاعر :

عليهن لُعْسٌ من ظباء تبالة مذبذبة الخُرْصان باد نحورها[٣]

وقد تكون للقرط ذلاذل حسان تهتز بحركة العنق ، قال المرقش الأكبر :

يُهدِلْن فى الآذان من كل مُذْهَب له رَبَذٌ يعيا به كل واصف[٤]

وكنوا عن طول العنق بطول مهوى القرط ، قال عبيد :

بان الخليط الألى شاقوك إذ شَحَطوا وفى الحدوج مهاً أعناقها عِيَطُ

ناطوا الرِّعاث لمهوى لو يَزِلُّ به لاندقّ دون تلاقى اللَّبَّة القُرُط[٥]

وقال النابغة :

إذا ارتعثتْ خافُ الجبان رِعاثها وس يتعلق حيث عُلِّق يَفْرَق[٦]

وقد يكون دقيق الصنع يشبه فقر الجرادة أو فِقَر أمير النحل ، وتشده المرأة بأذنها بخيط حتى لا يسقط ، قال سيار الأبانى .

كأن خَوْقَ قرطها المعقوب على دَباةٍ أو على يَعْسُوب[٧]

(٤) وللعنق القلادة . وهى العقد وقد تكون من ذهب . قال المثقب العبدى :

أرين محاسناً وكَنَنْ أخرى من الأجياد والبَشَر المَصُون

ومن ذَهبٍ يلوح على تَرِيبٍ كلون العاج ليس بذى غُضون[٨]

---

(١) لسان العرب مادة قرط (٢) اللسان مادة شنف . الأنضر : الذهب أو الفضة .

(٣) لسان العرب مادة خرص (٤) المفضليات ٢/٣١ ربذ : عذبة

(٥) ديوان عبيد القصيدة ٢٢ العيط : على وزن سبب وهو أعيط وهى عيطاء والجمع عيط بكسر العين وسكون الياء (اللسان والقاموس) وحركت الياء هنا ضرورة . ناطوا : علقوا . الرعاث : ج رعثة وهى القرط (٦) ديوان النابغة ٣٩ (٧) الأمالى ١/١٨٤ . الخوق : حلقة القرط . معقوب : مشدود بالعقب لئلا يزيغ (٨) المفضليات ٢/٨٩

وقد تكون من ياقوت وشذر وجزع من اليمن ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :

تَحَلَّيْنَ ياقوتاً وشَـذْراً وصيغَةً وجَزْعاً ظفاريًّا ودرّاً توائما (١)

وقد يكون من لؤلؤ وزبرجد ، قال النمر بن تولب :

أناةٌ عليهـا لؤلؤ وزبرجـد ونظمٌ كأجواز الجراد مُفصَّل (٢)

وقال طرفة :

وفى الحىِّ أحْوى يَنْفُضُ المَرْدَ شادنٌ مُظَاهِرُ سِمْطَىْ لؤلؤ وزبرجد (٣)

وقد يصاغ الياقوت دقيقا على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

غرائرُ فى كِنٍّ وصون ونعمة يُحَلَّيْنَ ياقوتا وشَذْراً مُفقَّرا (٤)

وقد ذكر العقد المنظوم من لؤلؤ وزبرجد كثير من الشعراء ، مثل قيس بن الخطيم (٥) وعلقمة (٦) ، والمثقب العبدى (٧) ، وعنترة (٨) .

(٥) وللوسط الوِشاح ، وهو كِرْسان من لؤلؤ وجوهر منظومان ، مخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، تشده المرأة بين عاتقيها ، وكشحها (٩) .

وقال أبو على . لا يكون وشاحا حتى ينظم بلؤلؤ أو ودع (١٠) .

قال عروة بن حزام :

كأن وشاحيها إذا ما ارتدتْهما وقامت عِنانا مُهْرَةٍ سَلسان (١١)

وقال عنترة :

والشمس بين مُضَرَّج ومُبَـلَّج والغصنُ بين مُوَشَّح ومُقَلَّد (١٢)

---

(١) المفضليات ٢/٤٥ تحلين : لبسن الحلى . الشذر : اللؤلؤ أو قطع صغار من ذهب . صيغة : مايصنع من الذهب وليست فى المعاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسرها : الخرز اليمانى وهو نفيس . ظفار : بلد باليمن . توائم : اثنين اثنين (٢) جمهرة أشعار العرب ١٩٦ (٣) ديوان طرفة ٧ أحوى : شبه المرأة بالظبى الأحوى الذى فيه سواد وبياض . المرد : ثمر الأراك المدرك أراد أنه فى خصب . شادن : تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر : لابس ثوبا فوق آخر . شبه المرأة بالظبى فى طول العنق وطى الكشح وجمال العينين (٤) ديوان امرىء القيس ٦٨ غرائر : غوافل غير مجربات . مفقر : مصوغ على شكل فقار الجرادة (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١

(٦) ديوان علقمة ٩ (٧) شعراء النصرانية ٤٠٦ (٨) ديوان عنترة ٧٠

(٩) لسان العرب مادة وشح (١٠) المخصص ٤/٩٨ (١١) النوادر ١٦١ وتزين الأسواق ٧٨

(١٢) ديوان عنترة ٦٩ الشمس : وجهها الجميل . مضرج : محمر . مبلج : نقى . الغصن : قدها . مقلد : عليه قلادة

وأنشد أبو على :

وتكسو الوشاح الرّخْوَ خَصْرًا كأنه إهانٌ ذَوَى عن صفرة فهو أخْلق (١)

(٦) وقد ساعد على كثرة الحلى أن اللؤلؤ فى خليج فارس ، والمرجان فى البحار المحيطة بالعرب ، وأن التجار يفدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان بالذهب والفضة والزمرد والزبرجد والياقوت وغيرها . ثم إن العرب يضربون فى البلاد المجاورة لهم فيبتاعون منها حليا لنسائهم .

وكانوا يعجبون بالنساء الحوالى ، ويعجبون بوسوسة الحلى ، قال الأعشى :

تسمع للحَلْى وسواسا إذا انصرَفَتْ كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِل (٢)

وتصور النابغة أن الحلى يستمد لألاءه من بريق ترائبها .

ترائبا يستضىء الحَلْىُ منهـا كجَمْر النار يُزْرِى بالظلام (٣)

وبعد . فقد وصف القرآن الكريم الجنة والحور العين فى سور شتى (٤) ، وذكر حليهن ، وما من شك فى أن العرب كانوا يعرفون أصناف الحُلىّ التى ذكرها القرآن الكريم .

(٧) هذه الأزياء التى كانت المرأة تختال فيها ، والحلىّ التى كانت تزينها وتحليها ، دليل على عزازة المرأه فى نفسها ، وعزازتها على ذويها ، ودليل على أن قلب الجزيرة كان وثيق الصلة بأطرافها وبالممالك المجاورة ، يجتلب منها أنواع الكساء وأصناف الحلى . ولئن كان ارتداء الكسا الفاخرة والتزين بالحلى الغالية النادرة من حظ النساء الثريات المترفات إن هذا يشعر بعلو مكانتهن وعظم تقديرهن . وليس فيه انتقاص من أقدار الفقيرات ، لأن الحكم هنا للوجد والمعسرة ، والعجز والمقدرة ، لا للعزازة والمهانة . ولقد كان يود المملق أن يثرى ليلبس نساءه مثل ما تلبس المثريات ، ويمتعهن بالْحَلْى الذى يشتهيه لهن ، وكن يشركنه فى هذا الوداد ، كما تطمح المرأة المعاصرة فى أرقى دولة متحضرة إلى أن تنعم بما تنعم به زميلتها الغنية من وسائل الرفه والترف ، وليس فى حرمانها نقيصة لها أو نزول بقدرها .

---

(١) المخصص ٤/٩٨ إهان : عذق الكباسة (٢) ديوان الأعشى ٤٢ عشرق : نبات له ورق يطير إذا يبس . زجل : يصوت فيه الريح (٣) ديوان النابغة ٧٣ (٤) سورة الرحمن وسورة الدهر وسورة الواقعة .

الفصل الثالث

صناعات المرأة

مارست المرأة فى البيئة البدوية من الصناعات والأعمال العامة ما يلائم البيئة ، وما تحتاج إليه الأسرة .

١ — فربت أولادها ، واشتركت فى الحرب ، وضمدت جراح المقاتلين كما سبق فى الحرب .

ودبرت شئون الأسرة ، كما يقول الشنفرى :

وأم عيال قد شهدتُ تَقُوتُهُمْ إذا أطعمتهم أوْ تحَتْ وأقَلَّت

تخاف علينا الجوع إن هى أكثرت ونحن جياع ، أىّ آلٍ تألّت[1]

وهى تداوى الجرحى والمرضى بعيدة عن ميدان الحرب أيضا ، فقد كانت لكعيبة بنت سعد الأسلمية خيمة بالمسجد تداوى فيها المرضى والجرحى ، وهى التى عالجت سعد بن معاذ من جرحه يوم الخندق [2] .

وكانت لرُفَيْدة الأنصارية خيمة فى المسجد تداوى فيها الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة جرحى المسلمين [3] .

واشتهرت بعضهن بالطب فى الجاهلية ، كزينب طبيبة بنى عَوّاد ، كانت تعالج الأبدان وتطب العيون ، وتداوى الجراح [4] .

لذلك يقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نَفَذٌ — لولا الشُّعاعُ — أضاءها

. . . . . .

---

(١) المفضليات ١/١٠٨ والأغانى ٢١/٩١ أوتحت : أعطت قليلا . تألت : أقسمت . آل : قسم .

(٢) الطبقات الكبير ٨/٢١٣ والإصابة ٨/٧٦ (٣) الإصابة ٨/١٠ وتهذيب التهذيب ١٢/٤١٨ وفيه أن رفيدة هذه هى التى سماها ابن سعد كعيبة . (٤) الطبقات الكبير والإصابة

يهون علىّ أن تَرُدَّ جِراحُها عيونَ الأواسى اذ حَمدْتُ بَلاءها (١)

ويقول دراج لزوجته وقد طعن .

شُدِّى علىَّ العَصْبَ أم كَهْمَسْ ولا تَهُلْكِ أَذْرُعٌ وأَرْؤُسْ

مقطَّعاتٌ ورقابٌ خُنَّسْ (٢)

وكان محمد بن الجهم يقول : لا تتهاونوا بكثير مما ترون من علاج القوابل والعجائز ، فإن كثيرا من ذلك وقع إليهن من قدماء الأطباء (٣) .

٢ — وكانت تغزل وتنسج ، ولم يكن أحب إليها فى فراغها من الغزل والنسج ، وقد مارستهما اليهوديات أيضا ، لأن النبى صالح أهل مِقْنا على أشياء ، منها أن يعطوه كل عام ربع ما اغتزلت نساؤهم (٤) . وقد مارسن مع الغزل نسج الأقمشة (٥) . فالسيدة عائشة كانت تغزل (٦) ، وحث النبى على تعليم النساء الغزل وحببه إليهن بقوله : « نعم لهو المؤمنة فى بيتها المغزل » ، وذكر زياد بن السكن أنه دخل على أم سَلَمة وبيدها مغزل تغزل به ، فقال لها : كلما أتيتك وجدت فى يدك مغزلا : فقالت : إنه يطرد الشيطان ، ويذهب بحديث النفس ، وإنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظمكن أجرا أطولكن طاقة (٧) .

وقد ذكر الشعراء هذه الحرفة ، قال جَنْدَل بن المثنَّى الحارثى يصف سرابا :

كأنه بالصَّحْصَحان الأنجلِ قُطْنٌ سُخامٌ بأيادى غُزَّلِ (٨)

وحَمَّس عبد الرحمن بن دارة قومه على الثأر ، فقال لهم إن لم تثأروا فكونوا نساء ، وامسكوا المغازل بدل الرماح :

لئن أنتم لم تثأروا بأخيكم فكونوا نساء لِلْخلوق وللكُحْل

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٥ مخطوط وشرح الحماسة للمرزوقى ١/١٨٥ الشعاع : الدم المنتشر . الأواسى : المداويات للجراح . ويذكر المرزوقى أنه ذكر النساء لأن الرجال كانوا يأنفون من الصناعات ويعلمونها الإماء والعبيد والحرائر اللائى لسن فى غاية بعيدة من الشرف (٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١١١ العصب : أطناب المفاصل وهو أيضاً الشد والطى . وضرب من البرود ولعل المراد هنا السابرى . أم كهمس : زوجته . لا تهلك : لا تخفك . خنس : منخفضة منقبضة من الطعن .

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٣٢٢ (٤) فتوح البلدان ٦٧ (٥) فتوح البلدان ٦٠

(٦) الإصابة ٣/١٠٩ (٧) الأجر الجزل فى الغزل للسيوطى مخطوط والطبقات الكبير

(٨) لسان العرب ١٤/٤ وأساس البلاغة مادة سخم . الصحصحان : الأرض المستوية . الأنجل : الواسع . سخام : لين المس كالخز . والبيت فى الأساس منسوب إلى أبى النجم

وبيعوا الرديناتِ بالحَلْيِ واقعدوا عن الحرب وابتاعوا المغازل بالنُّبل[١]

٣ — وكان بعضهن يحترف بالتجمل والتزيين ، مثل آمنة بنت عفان أخت عثمان ابن عفان[٢] ، ومثل أم رِعْلة القُشَيْرية التى وفدت على رسول الله وقالت له : إنى امرأة مُقَيِّنة أُقَيِّنُ النساء وأزينهن لأزواجهن ، فهل هو حُوبٌ فأتَبَطَّ عنه ؟ فقال : يا أم رِعْلة ، قينيهن وزينيهن إذا كسدن[٣] . ولما اشترى النبي صفية من دِحْية الكلبي دفعها إلى أم سليم حتى تهيئها ، فمشطتها وعطرتها ونمصتها ، واشتركت معها صواحب لها ، منهن أم سِنان الأسلمية[٤] .

٤ — وبعضهن احترفن بالإرضاع ، ولا سيما أهل البادية ، إذ كان الحضر يسترضعون البدويات ، ويعطونهن أولادهم ليربينها . ويظهر أن الذين كانوا يسترضعون لأولادهم هم الأغنياء القادرون على استئجار المراضع ، وأن المراضع كن من المحتاجات .

ومن هؤلاء المرضعات سَلْمَى بنت ظالم العامرية أرضعت ابن النعمان[٥] ، والسيدة حليمة السعدية أرضعت النبي صلى الله عليه وسلم[٦] ، وفى حديثها أنها خرجت ومعها زوجها فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرُّضَعاء[٧] .

وقد أرضعت سفيان بن الحارث أيضاً[٨] ، ومنهن ثُوَيْبة مرضع حمزة بن عبد المطلب[٩] ، وأم بُرْدة بنت المنذر بن زيد مرضع إبراهيم بن النبي منذ ولادته[١٠] .

وكانت السيدة خديجة تسترضع لأولادها قبل أن تلد[١١] .

وإذاً فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم استئجار الظُّئورة ، كما كان العرب يفعلون[١٢] .

على أن بعضهم كان يعيب الإرضاع ، فنى أمثالهم (تجوع الحرة ولا تأكل بثديها) وقد فسره أبو هلال بأنها تجوع ولا ترضع لقوم على جُعْل ، فيلحقها عيب ، ويقول : كان أهل بيت زُرارة حُضَّان الملوك ، فافتخر بذلك حاجب بن زرارة بقوله :

حَضَنَّا ابن ماء المزن وابن مُحَرِّق إلى أن بدت منهم لِحاً وشوارب

---

(١) حماسة البحترى ١١ الخلوق : نوع من الطيب (٢) الإصابة ٨/٣ (٣) الاصابة ٨/٢٣١
(٤) الطبقات الكبير ٨/٨٦ (٥) الأغاني ١٠/٩ (٦) إنسان العيون ١/٩٦ والمعارف ٤٣
(٧) تاريخ الطبرى ٢/١٢٦ (٨) المعارف ٤١ (٩) إنسان العيون ١/٩٦
(١٠) الاستيعاب ٢/٧٨٨ والإصابة ٨/٢١٥ (١١) الاصابه ٨/٦١
(١٢) المبسوط للسرخسى ١٥/١١٨

فعابه الناس وقالوا : ما رأينا من يفتخر بالمعايب غيره ، لأن الظئر خادمة ، والخدمة تضع ولا ترفع . وقيل فى تفسير المثل إن الحرة لا تهتك نفسها ولا تبدى ما لا ينبغى أن يبدى (١) .

ولقد يعزز الترفع عن الإرضاع أن حسان بن ثابت رد على وفد تميم بمسمع من النبى ، وجاء فى رده :

بنى دارم لا تفخرو إن فخـــركم يعود وبالا عنـــد ذكر المكارم

هُبلتُمْ ، علينا تفخـــرون وأنتم لنا خَوَلٌ من بين ظئر وخادم

فقال رسول الله : لقد كنت غنياً يا أخا بنى دارم — يريد الأقرع بن حابس — أن يذكر منك ما كنت ترى أن الناس قد نسوا (٢) .

٦ — وكان منهن قابلات ، كسلمى امرأة أبى رافع ، كانت قابلة السيدة مارية القبطية ، فلما ولدت ابراهيم بَشَّر به أبو رافع النبى فوهب له عبداً (٣) ، وكانت قابلة للسيدة خديجة أيضاً (٤) . وكانت سَوادة أو سَوْدة بنت مِسْرَح قابلة للسيدة فاطمة حين وضعت الحسين ابن على (٥) . ومنهن خافضات ، وكن محقرات ، ففى يوم أحد مر سباع بن عبد العزى الغُبْشانى على حمزة بن عبد المطلب فقال له : هلم إلى يابن مقطّعة البظور — وكانت أمه ختانة بمكة — فلما التقيا ضربه حمزة فقتله (٦) . وقد نصح النبى لأم عطية — وكانت تختن النساء — بقوله أَشِمّيه ولا تَنْهكيه ، فإنه أسرى للوجه وأحْظى عند الزوج (٧) .

٦ — ومنهن من كن ينسجن الحصر ، وينمقنها ويزخرفنها ، فقد أخرج ابن سعد عن أم صفية خولة قالت : كنا نكون فى عهد رسول وأبى بكر وصدر من خلافة عمر فى المسجد نسوة قد تخاللن ، وربما غزلت بعضنا فيه الخوص ، فأخرجنا منه عمر (٨) .

وكان بعض الحصر منمقاً جميلا ، يقول النابغة الذبيانى فى الأطلال التى تجعدت رمالها من الريح إنها كالحصير الذى نمقته الصانعات :

كأن مَجَـــرّ الرامسات ذُيُولَهـا عليه حَصيرٌ نمقتـــه الصوانع (٩)

٧ — واشتهرت ردينة بتقويم الرماح ، حتى نسبوا الرماح إليها ، فقالوا ردينية ورُدْن . وهى امرأة سَمْهَر ، وكانا يقومان الرماح بخط هجر (١٠) .

---

(١) جمهرة الأمثال ١/١٨٣ (٢) أسد الغابة ١/١٢٠ (٣) الاستيعاب ١/٢٢
(٤) الإصابة ٨/٦١ (٥) الاصابة ٨/١١٧ (٦) تاريخ الطبرى ٣/١٨
(٧) الحيوان ٧/٢٨ والبيان والتبيين ٢/٢١ هارون . أشمى : اقطعى قليلا . لا تنهكى : لا تبالغى فى القطع (٨) الطبقات الكبير (٩) ديوان النابغة ٤٩ (١٠) لسان العرب ١٧/٣٧ والقاموس مادة سمهر

٨ — وبعضهن يرعين الإبل والغنم . وسيرد فى أعمال الإماء أنهن مارسن الرعى كالعبيد . ويظهر أن الرعى كان من أعمال العبيد والإماء ، فلم يمارسه من الحرائر إلا الفقيرات ، لذلك يقول ذو الأصبع العدوانى فى خطابه لابن عمه — وكانت أمه أمة — :

عنى إليك فمـــا أمى براعيـــة ترعى المخاض ولا رأيى بمغبون (١)

وحدثت سلامة الضبية أو سلامة بنت الحُرّ قالت : مربى رسول الله فى بدء الإسلام وأنا أرعى غنما لأهلى ، فقال لى : يا سلامة بم تشهدين ؟ قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ثم أشهد أن محمد رسول الله ، فتبسم ضاحكا (٢) .

وظل الرعى عملا لبعضهن إلى الإسلام، فقد كان المجنون وليلى يرعيان غنما لأهلهما وهما صبيان عند جبل التوباد ، وفيه يقول بعد كبره :

وأجهشتُ للتّوباد حين رأيتُـــه وكبّر للرحمن حين رآنى (٣)

ويدل على رعيهما معا قوله :

تعلقت ليـــلى وهى ذات ذؤابة ولم يَبْدُ للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهْم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْم (٤)

وكانت الراعيات خبيرات بالمرعى ، فقد تخاصمت امرأتان إلى ابنة الخُسّ فى مراعى أبويهما ، فقالت الأولى ، إبل أبى ترعى الإسْليح . فقالت ابنة الخس : رَغْوة وصَريح ، وسنام إطْريح . قالت الأخرى : مرعى إبل أبى الخُلّة . قالت ابنة الخس : سريعة الدرة والجِرّة (٥) .

٩ — وكانت الثريات يمارسن أعمال الرجال أحياناً ، مثل طلاء النوق الجُرْب ، فقد كانت الخنساء تطلى نوق أبيها ، فرآها دريد بن الصمة فى مباذلها ، فأعجب بها وأحبها ، وقال فيها :

---

(١) الأمالى ١/٢٥٦ والمفضليات ١/١٥٨ المخاض : الحوامل من النوق أو الحوامل فى عشرة أشهر والمراد النوق مطلقاً (٢) الإصابة ٨/١١٠ (٣) الأغانى ٢/٥٢ (٤) الأغانى ٢/١١

(٥) البيان والتبيين ٢/١٣٢ السندوبى و٢/١٦٢ هارون الاسليح : بقلة من أحرار البقول تنبت فى الشتاء تسلح الإبل إذا استكثرت منها . الإطريح : الذى طال ومال أحد شقيه . الخلة : بضم الخاء شجرة شاكة وما فيه حلاوة من النبت . الدرة : كثرة اللبن . الجرة بكسر الجيم وتفتح ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، واللقمة يتعلل بها إلى وقت علفه

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به كاليوم طالى أينقٍ جُرْب
متبذلاً تبدو محاسنه يَضَعُ الهناء مواضع النَّقْب
متحسِّراً نَضْخَ الهناء به نضخَ العَبير بريطة العَصْب (١)

وشبيه بهذا أن يدبغن الجلود ، ويزلن عنها اللحم ، وفى أمثالهم : « حَلَأَتَ جارية عن كوعها » أصله فى التى تضع الجلد على كوعها ثم تسحاه بالسكين ، فإن أخطأت قطعت كوعها (٢) .

وحدثت أسماء بنت عُمَيْس أن رسول الله أتاها يوماً وقد هنأت — دبغت — أربعين جلداً . . . . . (٣) .

١٠ — وكن يجتنين الكَمْأة ، ولم يكن هذا عمل الحقيرات وحدهن ، بل شاركت فيه الثريات ، فمثلا حليمة بنت فُضالة بن كَلَدة كانت مع صواحبها يجنين الكمأة وغيرها من نبات الأرض فى الربيع حين أبصرن أوس بن حجر طريحاً لايستطيع الحراك ، إذ سقط من فوق ناقته . والدليل على ثراء أبيها قول أوس :

ولم تلهها تلك التكاليف أنها كما شئت من أكرومة وتَخَوُّد

وقوله فى رثاء أبيها .

أبا دُلَيْحَةَ من توصى بأرملة أم من لأشعث ذى طِمْرَيْنِ مِمْحال
أبا دليحة من يكفى العشيرة إذ أمسوا من الأمر فى لَبْسٍ وبلبال (٤)

١١ — والروايات كثيرة فى معابة حلبها اللبن . من ذلك أن خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث بن ظالم من بنى يربوع فقتل الرجال ، والحارث يومئذ غلام ، فبقيت النساء ، وكانت نساء بنى ذبيان لا يحلبن النعم ، فلما بقين بغير رجال طفقن يدعون الحارث ، فيشد

---

(١) الأغاني ١٣/١٣٠ والوحشيات ١٧١ مخطوط والشعر والشعراء طبعة شاكر ٣٠٢ . الهناء : القطران . النقب : الجرب . نضح الطيب : أثره فى الثوب . ريطة العصب : ملاءة مزخرفة
(٢) جمهرة الأمثال ١/٢٣٧ ومجمع الأمثال ١/١٧٦ الكوع : طرف الزند الذى يلى الإبهام . الحلء : قطع اللحم عن الأديم والمعنى أنها قشرت اللحم من كوعها وهو يضرب لمن يتعاطى ما لا يحسنه
(٣) الطبقات الكبير ٨/٢٠٦ (٤) الأغانى ١٠/٧ و١٨ أشعث : مغبرالرأس من شدة بؤسه . ذو طمرين : لابس أسمالا .

عصاب الناقة ثم يحلبنها ، ويبكين رجالهن ، ويبكى الحارث معهن ، فنشأ على بغض خالد[١].

ويذكر الميدانى أن النساء فى البادية كن لايحلبن ، لأنه عار عندهن ، وإنما يحلب الرجال[٢].

لذلك يقول النابغة الذبيانى فى الهجاء .

قد رأينا مكان أمك إذ تمـــنع من دِرَّة اللَّقيح الفَصيـــلا[٣].

١٢ — وكان بعضهن يرقين كخالدة بنت أَنَس الأنصارية ، فقد عرضت رقاها على النبى فأمر بها[٤] . ومثل الشفاء العَدَوية فإنها لما عرضت رقاها على النبى قال لها : ارقى بها وعلميها حفصة[٥] .

وكان منهن الفكهة المزّاحة التى تؤنس النساء وتسليهن ، ففى سنن أبى داود : كانت امرأة مكية بطّالة تضحك النساء ، وكانت بالمدينة امرأة مثلها ، فقدمت المكية المدينه فتعارفتا ، فدخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما ، وقالت للمكية : عرفت هذه ؟ قالت : لا . ولكنا التقينا فتعارفنا . فضحكت عائشة وقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف[٦] .

١٣ — الكهانة والعرافة .

وإذ كانت الكهانة عظيمة الخطر فى الحياة الجاهلية ، وإذ كانت نساء كثيرات قد اشتهرن بها ، فمن حقها أن أفردها بعناية خاصة . والكَهانة بكسر الكاف حرفة الكاهن ، وبفتحها مصدر الفعل كَهَن ، وهى الإخبار بالغيب الذى سيقع[٧] .

وللسابقين آراء فى وسائط الكاهن إلى معرفة الغيب[٨] ، ليس من موضوعى أن أعرض لها . وهم ينظمون فى سمطها العرافين والزاجرين للطير والطارقين للحصا وغيرهم[٩] . وإن كان ابن خلدون يفرق بين الكاهن والعراف بأن الكاهن أصفى روحا وأقوى مخيلة . فهو يعتمد على روحه ، أما العراف فإنه أضعف منه ويعتمد على ظنه وترجيحه[١٠] . وبعضهم يقصر الكهانة على المستقبل ، والعرافة على الماضى . ولكن الأكثر على أنهما من واد واحد .

والكهانة قديمة النشأة جداً لأن الأنسان كان محاطا بقوى خفية لا يستطيع أن يفهم كنهها ، وكان عاجزاً عن مقاومتها ، فحاول أن يستميلها بالتضرع تارة وبالفن أخرى . فنشأ

---

(١) الأغاني ١٠/١٦ (٢) مجمع الأمثال ٢/٣٣٥ (٣) ديوان النابغة ٤٦ (٤) أسد الغابة ٥/٤٣٣ (٥) الإصابة ٨/١٢١ وفتوح البلدان ٤٧٧ والطبقات ٨/٥٩ والاستيعاب ٢/٧٦١

(٦) سنن أبى داود (٧) القاموس مادة كهن (٨) مقدمة ابن خلدون ٨٠ وشرح صحيح مسلم للنووى وشرح سنن أبي داود للخطابى وبلوغ الأرب ٣/٢٦٩ (٩) مقدمة ابن خلدون ٨٩ والقاموس المحيط مادة عرف . (١٠) المقدمة ٩١

الدين والسحر ، وكانا وليدى هذا الجهد المزدوج ، وكان طبيعياً أن يلتقيا فى نقط عدة ، لأنهما يستعملان فى غرض واحد ، وإليهما يلجأ الإنسان فى حال بؤسه أو خوفه ، تضرعاً أو خيفة ، رغبة أو رهبة . ومن العبث أن نبحث فيما إذا كان السحر وليد الدين أو الدين وليد السحر ، فالاعتقادان قد ظهرا فى وقت واحد ، أملاهما مظهر العالم والطبيعة[١] .

وقد عرف العرب الكهانة ، وكثر فيهم الكهان والكواهن . فمن الكهان عُزَّى سَلِمة ، وشِقّ ابن أنمار ، وحازِى جُهَيْنة ، وسَطيح بن مازن الغسانى[٢] ، وخُنافر بن التوأم الحميرى[٣] ، وسَواد ابن قارب الدوسى[٤] ، ومن العرافين رَبَاح بن عجلة عراف اليمامة ؟ والأبلق الأسدى عراف نجد[٥] وهما اللذان ذكرهما عروة بن حزام فى قوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا شفاك الله ، والله مالنا ... بما ضمنت منك الضلوع يدان[٦]

أما النساء الكواهن فكثير .

— منهن عُفَيْراء الكاهنة الحميرية ، ومن قصتها أن مرثد بن عبد كلال انتصر فى غزاة وغنم ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه . ثم رأى رؤيا أذعرته فى منامه ، ولم يستطع أن يتذكرها فى صحوه ، فحزن ، وجعل يسأل الكهان فلا يعلمون ما بنفسه ، فاشتد حزنه وطال أرقه . وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ؛ لأن أتباعهن من اللجان ألطف وأظرف من أتباع الكهان ، فأمر بحشد الكواهن إليه ، وسألهن فلم يجد عندهن علما . ثم اهتدى مصادفة إلى عفيراء ، فعرفت حلمه الذى كان قد نسيه ، وقصته عليه ، وأوّلته له ، فسرّ منها وأهدى إليها مائة ناقة كَوْماء[٧] .

٢ — ومنهن زَبْراء ، وهى أمة من مولدات العرب كانت لخُويلة من بنى رئام ، وقد أنذرت بنى رئام وهم فى عرس لهم بأن بنى داهن يبيتون الشر لهم ، فكذبها بعضهم ، وبقوا فى عرسهم ، وصدقها آخرون فانصرفوا ، فطرقتهم بنو داهن وناعب فقتلوا من فى العرس[٨] .

٣ — ومنهن طَرِيفة الكاهنة (بضم الطاء وفتح الراء أو بفتح الطاء وكسر الراء ، أو ظريفة

---

(١) مصر القديمة ٧/٦٣٠ سليم حسن ومقدمة الحضارات الأولى ٤٨ — ٥٦ جستاف لوبون
(٢) البيان والتبيين ١/٢٨٩ و٣٥٨ (٣) بلوغ الأرب ٣/٢٩١ (٤) المرجع السابق ٣/٢٩٩
(٥) مقدمة ابن خلدون ٩٢ (٦) الأغاني ٢٠/١٥٥ والنوادر للقالى ١٦١ ومقدمة ابن خلدون ٩٢ (٧) بلوغ الأرب ٣/٢٩٦ (٨) الأمالى ١/١٢٦

بالظاء المفتوحة) . وهم ينسبون إليها التكهن بسيل العرم ؛ لأنها رأت فى كهانتها أن سد مأرب سيخرب ، وأنه سيأتى سيل فيدمر الجنتين ، وأنذرت بذلك عمرو بن عامر الذى يقال له مزيقياء بن ماء السماء ، فباع أمواله وارتحل هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، وكانت طريفة معهم ، ثم أصابتهم الحمى ، فأشارت عليهم أن يتفرقوا فى جهات أخر ، فأطاعوها (١) .

٤ — ومنهن عرافة الحجاز ، وهى التى احتكم إليها عبد المطلب بن هاشم حين هم بذبح ابنه عبد الله ومنعته بنوه وأخواله بنو مخزوم وعظماء قريش ، وذهبوا إليها يسألونها ، فقالت: كم الدية فيكم ؟ قالوا ، عشر من الإبل . قالت : فارجعوا ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه . فعادوا وضربوا بالقداح ، فكانت تخرج على عبد الله ، حتى بلغت مائة ، فخرجت على الإبل فذبحوها وتركوها للآكلين ، ونجا عبد الله (٢) .

٥ — ومنهن كاهنة بنى سعد اسمها هُذَيْم ، وكانت بالشام، وهى التى كان يريد الاحتكام إليها عبد المطلب وقريش حين تنازعوا فى حفر زمزم (٣) .

٦ — ومنهن الغَيْطَلة — كاهنة من بنى مرة بن عبد مناة بن كنانة وهى أم الغياطل — تنبأت ببعثة النبى عليه الصلاة والسلام (٤) ، وفى مسند أحمد بن حنبل أن كاهنة تنبأت لقريش بمبعث الرسول قبل البعثة بعشرين عاما (٥) .

٧ — ويطول القول إذا فصلنا أخبار هؤلاء وأخبار غيرهن ، وحسبنا أن نشير إلى بعضهن كفاطمة بنت مرّ الخثعمية (٦) ، والزرقاء بنت زهير (٧) ، وكاهنة بنى حَدَس (٨) ، وبعضهن كن حسيبات كأم مرثد السابقة ، وسلمى الهمدانية (٩) ، وغيرهما (١٠) .

---

(١) مروج الذهب ١/٢٣٩ وأخبار مكة للأزرقى ٥٢ — ٥٥ والأغانى ١٣/١٠٥ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٢٥٣ وجمهرة الأمثال لأبى هلال ١/٢٨٦ والأعلاق النفيسة لابن رسته ٧/١١٤

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٦٦ وأخبار مكة للأزرقى ٢٨٨ وتاريخ الخميس ١/٢٠٧ وتاريخ الطبرى ٢/٢٧٤ وفى تاريخ الخميس أن اسمها سجاح أو قطبة (٣) سيرة ابن هشام ١/١٥٥

(٤) سيرة ابن هشام ١/٢٢٥ (٥) المسند ١/٣٣٢ وتاريخ ابن عساكر ٣٦٧

(٦) مجمع الأمثال ٢/٤٦ (٧) الأغانى ١١/١٥٥ (٨) سيرة ابن هشام ٣/٤٣٨

(٩) الأمالى ٢/١٢١ . (١٠) جمهرة خطب العرب ١/٢٣٩ — ٣٥٢

سجع الكواهن :

كان الكهان والكواهن يعمدون إلى لغة مسجوعة ، لا فرق فيها بين سجع الرجال وسجع النساء : مثل قول زبراء لبنى رئام تنذرهم بهجوم أعدائهم : واللُّوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو خَتْلا ، ويحرق أنيابا عُصْلا ، وإن صخر الطود لينذر ثُكْلا ، لا تجدون عنه مَعْلًى [١] .

ومثل قول طريفة لقومها وقد أصابتهم الحمى فى مكة : « من كان منكم ذاهم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عُمان المشيد . ومن كان منكم ذا جلد وصبر ، على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مُرّ . ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوَحْل ، المطعمات فى المَحْل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . ومن كان منكم يريد الخمر والخمير ، والمُلْك والتأمير ، ولبس الديباج والحرير ، فليلحق ببُصْرى وعَوِير ، ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل العتاق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأرض العراق [٢] .

ومثل قول الزقاء بنت زهير وقد سألها قومها حين نزلوا بهجر : ما تقولين يازرقاء ؟ قالت : « سَعَفٌ وإهان ، وتمر وألبان ، خيرٌ من الهوان . . . . . » [٣] .

وكان هذا السجع ضروريا للكهان والكواهن ، لأن له رنينا موسيقيا ، ووقعا جميلا ، فيؤثر فى النفس ، وتجتذب موسيقاه قلوب السامعين ، فيموه عليهم الكاهن أو الكاهنة ، ويمتلك عواطفهم ، ويخدر وعيهم ، ويحدثهم بما يزعم أنه عليم به ، فيسمع الناس عنه مصدقين لما يقول ، غير متبصرين فى نقد ما يسمعون وتقصى معانيه ، لذلك كثيرا ما لجأ الساجعون من الكهان إلى نوع من الغموض ، لتحتمل الكلمة أو الجملة عدة معان ، وليذهب السامعون فى فهمها كل مذهب . « والترنيم هو الأساس الذى قام عليه السحر ، ومن المهم كما يقول المصريون القدماء أن يكون الصوت مضبوطا ، لأن الصوت هو الذى يثير القوى الخفية . فالسحر نوع من الموسيقى المتحجرة كما يقول كمباريو ، وما يصدق على الموسيقى يصدق على الشعر أيضا [٤] .

لذلك نهى النبى عن سجع الكهان خاصة [٥] .

---

(١) الأمالى ١/١٢٦ اللوح : الهواء . يأدو : يختل . عصلا : معوجة . معلى : منجاة

(٢) أخبار مكة للأزرقى ٥٢ ومروج الذهب ١/٢٣٩ والأعلاق النفيسة ٧/١١٤ ومجمع الأمثال ١/٥٢٣ (٣) الأغانى ١١/١٥٥ ومعجم ما استعجم للبكرى ١/٢٢ (٤) مبادىء علم الاجتماع الدينى ٤٧ تأليف باستيد ترجمة محمود قاسم (٥) البيان والتبيين ١/٢٣٤ـ٢٣٦

دلالة الكهانة على علو مكانة المرأة

ومما يسترعى النظر أن الأحداث الكبار ، والهجرات المشهورة ، وتفرق القبائل فى أماكن شتى كانت مصحوبة بذكر الكاهنات وسجعهن ، وقد سبق سجع طريفة لما تنبأت بسيل العرم ، ولما أشارت على قومها بالتفرق من مكة فأطاعوها ، ونزلوا بأماكن شتى (١). كذلك لما تفرقت قضاعة فى البلاد ونزل بعضهم بهجر أشارت عليهم بالرحلة إلى الحيرة فأطاعوا (٢).

كذلك سبق أن عبد المطلب لما نازعته قريش فى زمزم همّ بالاحتكام إلى كاهنة بالشام ، وأنه احتكم إلى أخرى بالحجاز لما عزم على قتل ابنه عبدالله ، وأن كاهنة تنبأت بالبعثة المحمدية .

ولست أريد بذكر هذا أن يكون تصديقا للكواهن ، وإنما أريد أن العرب كانوا يُحلُّون الكهان — من رجال ونساء — ويحتكمون إليهم فى المشكلات ، ويصدرون عن رأيهم ، وقد نسبوا إلى الكواهن أحداثا أعظم مما نسبوا إلى الكهان ، وسواء أكان لها نصيب من الصحة أم لم يكن فإنها دليل على أن المرأة كانت فى نظرهم جديرة بأن تُسْتَفْتى وأن تنبىء بالغيب ، وأن يطاع نصحها ، وتتبع مشورتها كما سنرى عند الأشوريين .

شك المرأة العربية فى الكهانة

شك رجالى فى صدق الكهان والكواهن ، مثل المرقّم (٣) ، وربيعة بن مقروم (٤) ، وعلقمه بن عبدة (٥) ، والنابغة الذبيانى (٦) ، ولبيد (٧) .

وشكت نساء فى صحة الكهانة كما شك الرجال . من هؤلاء هند بنت عتبة ، فإن زوجها الفاكه ابن المغيرة ظن بها سوءا فألحقها بآلها ، ولم تكن تعرف لنفسها جرما ، واستوثق أبوها من براءتها ، فخرج بها فى وفد من النساء والفاكه معه إلى بعض الكهنة ، فلما شارفوا بلده تغيرت هند وامتقع لونها ، فقال لها أبوها : إنى أرى مابك ، وماذاك إلا لمكروه عندك ، فهلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا . قالت : ياأبت إن الذى رأيت منى ليس لمكروه عندى ، ولكنى أعلم أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ، ولا آمن أن يسمنى ميسما يكون علىّ عارا عند نساء مكة . قال لها : فإنى سأمتحنه قبل أن نسأله . وامتحنه فعرف صدقه ، ثم قصوا عليه أمر هند فقضى ببراءتها (٨) .

---

(١) أخبار مكة ٥٢ـ٥٥ ومعجم البلدان ٧/٣٥٥ ومروج الذهب ١/٢٣٩ ومجمع الأمثال ١/٢٥٣
(٢) الأغانى ١١/١٥٥ (٣) حماسة البحترى ٢٥٥ والأغاني ٩/١٥٧ (٤) حماسة البحترى ٢٥٧
(٥) المفضليات ٢/٢٠١ (٦) ربيع الأبرار ١٢٣ مخطوط والعمدة ٢/٢٠٢ والبيان والتبيين ٣/١٨٤ والحيوان ٣/١٣٨ (٧) ديوان لبيد (٨) شرح نهج البلاغة ١/١١٢

الكهانة فى الأمم

لا يكاد يخلو شعب من الكهانة فقد كان الأشوريون — وهم أقدم الأمم السامية — يعتقدون أن المرأة وحدها هى التى تستطيع أن تفهم السحر وتمارسه ، وأن تعرف الغيب وتتكهن به [١].

وكان فى مصر كاهنات ، زعم هيرودوت أنه كان محرما على المرأة أن تشغل وظيفة كاهنة سواء أكان ذلك لمعبود أم لمعبودة ، وهذا قول لا نصيب له من الصحة ، لأن النساء كن يستخدمن فى المعابد ، وكثيراً ما وجدنا ذكراً للكاهنات وخاصة فى عبادة الإلهات كالإلهة حاتحور والمعبودة نيت [٢] وليس هذا بعجيب فى الشرق عند قدماء المصريين وغيرهم ، لأن السحر كان عظيم الأثر فى حياتهم [٣] .

وكان فى اليونان والرومان كهان وكاهنات ، وإن كان النساء أقل عدداً [٤] .

ثم كانت فى أوروبا فى العصور الوسطى ساحرات قاسيات يزعمن أنهن على صلة بالله . ويرى الناس أنهن على صلة بالشيطان ، وقد حوكمن أمام محاكم التفتيش وقطعن ، وأحرقن ورجمن ، وأحرقت منهن آلاف فى دول شتى [٥] .

١٤ — معرفتها القراءة والكتابة

نعرف أن عرب الجاهلية كانوا يتعلمون بالتجربة والملاحظة والمخالطة ، وكان بعضهم يتميز بلون من المعرفة يشتهر به . فالبداوة كانت غالبة على العرب ، وهى طور اجتماعى طبيعى تجتازه الأمم فى سيرها إلى الحضارة ، ومن شأنها ألا تتيح للبداة دراسة منظمة ، ولا تفكيراً متفلسفاً ، ولا تعمقاً فى الربط بين الأحداث وأسبابها والمعلولات وعللها ، وإذا جاءت حكمة على لسان أحدهم فهى نتاج طبعه وخَطْرةٌ من فكره .

وبديهى أننى لا أعنى بالثقافة أو المعرفة أن العرب كانت لهم علوم ذات أصول وقواعد ، لأن طور البداوة يناقض ذلك ، وإنما أعنى المعرفة التى تستمد من الفطرة والبيئة والأحداث ، كالذى قاله ابن خلدون فى طب الجاهلية : « وللبادية من أهل العراق طب يبنونه فى غالب

---

(١) مقال المذكر والمؤنث . عمر الدسوقى . الرسالة العدد (٢٨٥) ١٩ ديسمبر ١٩٣٨ عن:
Some A. Spects of Gender in the Semitic. Languages. Winsing.

(٢) ديانة قدماء المصريين ٧٣ إستيندروف الألمانى ترجمة سليم حسن (٣) المرجع السابق ٨٣
(٤) الإلياذة ٤٦٤ (٥) المرأة فى مختلف العصور ٤٣

الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان منهم أطباء معروفون » (١) .

وأقصد فى هذا الفصل إلى تبيان نصيب المرأة من الثقافة فى العصر الجاهلى ، لأُبرُوزَ قيمتها ومكانتها من هذه الناحية أيضاً ، ولأتعرف قدرها بالقياس إلى أقدار الرجال .

١ — لكنى أرى أن أقدم للموضوع بجلاء هذه الفكرة : أكان العرب يعرفون الكتابة والقراءة ؟ أم أنهم كانوا كما أشيع عنهم جهلة لا يكتبون ولا يقرءون ؟ ثم أبين نصيب المرأة من هذا الجهل أو من هذا العلم .

أما العرب البداة فإنهم ما كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، لأن الحياة البدوية تباعد ما بينهم وبين هذه المعرفة ، وهذا شأن البداة فى كل الأمم .

وأما أهل الحضر فقد كان بعضهم على علم بالكتابة والقراءة قبل بزوغ الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة .

فقد وُجِدَتْ كتابات عربية فى جنوبىّ الجزيرة من عهد دولة مَعين ، وسبأ وحِمْيَر ، وجمع المنقبون مئات الألواح والصور منها . وقد كتب العرب على قبة غُمْدان ، وعلى عمود مَأْرِب ، وعلى ركن المُشَقَّر ، وعلى الأَبْلَق الفرد (٢) .

ووردت أخبار شتى عن معرفة أهل الحيرة للكتابة ، منها أنهم كانوا يعلمون أبناءهم الكتابة فى الصغر ، كما تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة فى داره بعد مقتل أبيه ، فخرج من أكتب الناس ، وصار كاتب النعمان الأكبر ، ثم ولد له ولد سماه زيداً باسم أبيه . وكان لحماد صديق من الدهاقين العظماء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسناً إلى حماد ، فلما حضرت الوفاة حماداً أوصى بابنه زيد إلى الدهقان ، وكان من المرازبة ، فأخذه عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يصير إلى الدهقان ، فلما أخذه علمه الفارسية فلقنها وتولى كتابة العربية لكسرى (٣) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤١٤ (٢) الحيوان للجاحظ ١/٦٨ غمدان : قصر بين صنعاء وطيوه . مأرب : بين صنعاء وحضرموت باليمن . المشقر : حصن بالبحرين . الأبلق الفرد : حصن السموءل بتيماء
(٣) الأغاني ٢/١٠٠

تعلم عدى بن زيد فى كتاب عربى ثم كُتّاب فارسى ، وصار من أكتب الناس بالعربية والفارسية ، وكتب بالعربية فى ديوان كسرى[١] ، ثم كتب لكسرى ابنه زيد من بعده[٢] . وقد تعلم المرقِّش الأكبر هو وأخوه حَرْمَلة الكتابة من نصرانى بالحيرة ، وكان يكتب شعره[٣] .

وقد دونوا تاريخهم فى الجاهلية ، فإن هشام بن محمد الكلبى قال : كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولى منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة[٤] . ودونوا الشعر أيضاً ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس ، أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى ، وقال ابن رشيق مثل ذلك[٥] . وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، لأن ابن سلام يقول : وقد كان عند النعمان ابن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بنى مروان أو ما صار منه[٦] . وابن جنى يقول : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطُّنُوج — الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن عُبَيْد قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار[٧] .

وقد عرف الحجازيون الكتابة ، لأنه لما ظهر الإسلام كان فى قريش سبعة عشر رجلا يكتبون ، وذكر أسماءهم البلاذرى[٨] .

وقد كان جماعة من اليهود يكتبون الخط العربى ويعلمونه صبيان المدينة فى يثرب ، فتعلم منهم الأوس والخزرج فكثر كاتبوهم من قلة . وبلغوا أحد عشر ، منهم حُضَيْر الكاتب وسُوَيْد بن الصامت وعبد الله بن أبىّ[٩] .

وفى موقعة بدر فادى بعض المشركين أنفسهم بتعليم عشرة من المسلمين الكتابة[١٠] ، وهذا دليل على معرفتهم بها .

وقد ذكر ابن سلام أن الناس اجتمعوا يوماً بمكة وعلى باب دار الندوة مكتوب :

---

(١) الأغانى ٢/١٠١ (٢) الأغاني ٢/١٠٩ (٣) الأغانى ٥/١٨١ والشعر والشعراء ٥٥ وشرح المفضليات لابن الأنبارى ٤٦٠ والمعارف ٣١٩ (٤) تاريخ الطبرى ٢/٣٧ (٥) العمدة ١/٦١ (٦) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧ (٧) الخصائص لابن جنى ٣٩٣ (٨) تاريخ ابن خلدون ٢/٦٠ وفتوح البلدان للبلاذرى ٤٧١ وعيون الأخبار ١/٤٣ والمعارف ٢٧٣ والمزهر ٢/٣٥١ (٩) فتوح البلدان ٤٧٣ — ٤٧٩ (١٠) الكامل للمبرد ١/٢١٣ والسيرة الحلبية ٢/٢٥٤ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٢٤٧ وإمتاع الأسماع ١/١٠١

أَلْهَى قُصَيّاً عن المجـــد الأساطير ورشوةٌ مثل ماتُرْشَى السَّفاسِـــير
وأكلُها اللحم بَحْتاً لاخليـــط له وقولُهُ ـــا رحلَتْ عِيرٌ أتَتْ عِير

فأنكروا ذلك وقالوا ما قالها إلا ابن الزبعرى (١) .

وروى أن ورقة بن نوفل كان فى الجاهلية يكتب كتابة عبرية (٢) .

ثم إننا نعلم أن قريشاً تآمرت على النبى ومن أسلم معه ، وتعاقدت فى صحيفة مكتوبة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعلقوا الصحيفة فى الكعبة ، وقد دعا رسول الله على كاتبها فشل بعض أصابعه (٣) .

وقد كتب النبى إلى كسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس وإلى ابنَىْ الجُلَنْدَى ملك عمان : جيفر وعياذ أو عباد ، وإلى العباهلة من حمير ، وإلى هوذة بن على ، وإلى الملوك والعظماء (٤) .

ثم إن فى اللغة كلمات كثيرة تدور حول الكتابة وما يكتب فيه وبه (٥) ، والشعر الجاهلى حافل بالدلالة على الورق الذى يكتب فيه .

فمثلا يقول الحارث بن حلزة إن آثار الديار تشبه صحائف الفرس :

لمن الديار عَفَوْنَ بالحِبْسِ آياتُهـــا كمهارق الفُرْسِ (٦)

وهو نفسه يذكر أن حلف ذى المجاز كان مكتوباً :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قُدِّ م فيـــه العهودُ والكُفَـــلاء
حَذَرَ الخَوْنِ والتعدى وهل تَنْـــقُضُ ما فى المهارق الأهـــواء (٧)

لأنهم كانوا فى الجاهلية يدعون من يكتب لهم الحلف والهدنة ، تعظيما للأمر وتبعيداً من النسيان، والمهارق التى وردت فى قول الحارث بن حلزة ليس يراد بها الصحف والكتب ، لأنه لا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو عهود وميثاق وأمان (٨) .

ويقول البُعَيْث بن حُرَيْث الحنفى :

لمن طلل كروضات السِّخال تأبَّدَ كالمَهاريق البـــوالى (٩)

---

(١) طبقات الشعراء طبعة شاكر ١٩٧ الأساطير : الخرافات . السفاسير : ج سفسير وهو السمسار. أكلها اللحم بحتاً : كناية عن الفقر لأنهم يأكلون اللحم بغير خبز (٢) الأغانى ١٣/٢٠
(٣) سيرة ابن هشام ١/٣٧٢ (٤) الحيوان ١/٩٨ (٥) بلوغ الأرب ٣/٣٦٧ ـ ٣٧٩
(٦) المفضليات ١/١٣٠ المهارق : جمع مهرق : الصحيفة معرب (٧) البيان والتبيين ٣/٦ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٣٦٩ (٨) الحيوان ١/٦٩ (٩) معجم البلدان ٤/٣١٧

وقد أكثروا من تشبيه آثار الديار ، وتموجات رمالها ، والخطوط المنتظمة التى تصنعها الرياح فيها ، بالكتابة وبالصحف المكتوبة ، وأكثروا من هذا التصوير كثرة تدعونا إلى أن نصحح نظراتنا إلى العصر الجاهلى ، فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب هذه الجهالة التى تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه ينبىء عن معرفة بالورق وبالكتابة عند بعض الشعراء المشبهين على الأقل ، ومن خصائص التشبيه فى العصر الجاهلى أنه لا يجنح إلى العلائق الظاهرة والمشابهات السطحية قدر ما يجنح إلى الربط الوثيق بين الأثر النفسى للمشبَّه وللمشبَّه به ، فالتشبيه هنا ليس منبعثاً عن تخيل أو محاكاة ، وإنما هو تصوير لعلاقة يجدها الشاعر بين منظر الأثر العافى وبين الكتابة .

من ذلك تصوير معاوية بن جعفر عم لبيد لآثار الدار بأنها كتابة ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر منمق يتخوف أن يلحقه عيب :

فإن لها منازلَ خاويات ... على نَمْلَى وقفتُ بها الركابا
من الأجزاع أسفلَ من نُمَيْلٍ ... كما رجَّعتَ بالقلم الكتابا
كتابَ مُحَبِّرٍ هاجٍ بصير ... ينمِّقُهُ وحاذرَ أن يعابا (١)

وقول الأخنس بن شهاب التغلبى إن الآثار تشبه كتابة العنوان ، لأن العنوان مجود الخط واضحه :

لابنة حطَّانَ بن عوف منازل ... كما رقَّش العنوانَ فى الرِّق كاتب (٢)

وقول امرىء القيس إن الآثار مثل الكتاب المخطوط فى سعف النخل الوارد من اليمن معداً للكتابة :

لمن طل أبصرته فشجانى ... نخط الزبور فى العَسيب اليمانى (٣)

وقول طرفة إنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التى نمقها كاتب فى وضح النهار ، وذلك أجود لها :

أشجاك الربع أم قِدَمُهْ ... أم ترابٌ دارسٌ حُمَمُهْ

---

(١) المفضليات ٢/١٥٧ نملى : ماء بقرب المدينة . الأجزاع : منعطفات الوادى . نميل : تصغير نملى على حذف الزيادة كما قال البكرى . رجعت الكتابة : عدت عليها بالقلم . محبر : محسن . هاج : قارىء

(٢) المفضليات ٢/٤ والأخنس هذا جاهلى لا صحابى كما توهم الفيروزابادى إذ التبس عليه بالأخنس ابن شريق (٣) ديوان امرىء القيس ١٨٦

كسطـــور الرق رقّشـــه بالضحـــا مرقّش يَشمُه [١]

ومثل هذا ورد فى شعر حاتم [٢] والمرقش الأكبر [٣] وتعلبة بن عمرو العبدى [٤].

وقد جاء ذكر الورق الشامى فى وصف طرفة لناقته، وتشبيه بياض خدها بالقرطاس [٥].

وجاء ذكر المجلة فى مدح النابغة للغساسنة، والمجلة الصحيفة فقد قال أبو حاتم إن بيت النابغة يروى مجلتهم ومحلتهم، فمن روى مجلتهم فقد أراد الصحيفة، ومن روى محلتهم فقد أراد بلاد الشام. قال النابغة:

مجلتهـــم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون خيرُ العواقب [٦]

ثم إن القرآن الكريم كثيراً ما ذكر الكتابة والصحف والقلم والقراءة. وليس بمعقول أن يخاطب بهذا قوماً يجهلون الكتابة والقراءة. من ذلك قوله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذى خلق [٧] و «كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون» [٨] و «فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة» [٩] و «فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه» [١٠] و «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» [١١] «إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى [١٢]» و «رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة وماتفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة» [١٣] و «لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» [١٤] و «لو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» [١٥] و «هذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه» [١٦] و «وماقدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً» [١٧].

وإذاً فليس بصحيح ما شاع عن جهل العرب بالخط، سواء فى ذلك ما يكرره بعض المؤرخين المسلمين وما يقرره بعض المستشرقين مثل نيكلسون [١٨].

---

(١) ديوان طرفة ٦٨ والأمالى ٢/٢٤٦ الرق: الصحيفة البيضاء. يشمه: يزخرفه
(٢) شعراء النصرانية ١١٨ (٣) البيان والتبيين ١/٢٨٨ والأمالى ٢/٢٤٦ (٤) المفضليات ٢/٨١ (٥) ديوان طرفة ١٩ (٦) الأمالى ١/٢٤٥ (٧) سورة العلق آية ١ (٨) سورة الانفطار آية ١٠ (٩) سورة عبس آية ١٤ (١٠) سورة الحاقة الآية ١٩ (١١) سورة الإسراء ١٤
(١٢) سورة الأعلى ١٨ (١٣) سورة البينة ٢ (١٤) سورة الأنبياء ١٠٥
(١٥) سورة الأنعام ٧ (١٦) سورة الأنعام ١٥٥ (١٧) سورة الأنعام ٩١
(١٨) Nicholson.P. 31

ب — وإذاً ما معنى أميين فى القرآن الكريم ؟

كيف تتفق معرفة العرب القراءة والكتابة مع قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[١] ؟

الذى يظهر من سياق الآية الكريمة ومن تفسيرها أنه لا تعارض ، ذلك بأن العرب أمة أمية ، على معنى أنهم ليس لهم كتاب سماوى يقرءونه ويدينون به ، فبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة وهدى ، يهديهم بالقرآن الكريم ، ويعلمهم ما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه ، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وابن زيد [٢]. ويعزز هذا التأويل ختام الآية « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » أى أن هؤلاء الأميين كانوا قبل النبى القرآن وقبل الكريم فى ضلال من عقائدهم .

على أن النيسابورى يورد رأيا آخر فى تفسير الأميين فيقول إن الكلمة منسوبة إلى أمة العرب أو أم القرى [٣] ، ويشاركه فى ذلك ابن عبد ربه [٤] وهو رأى ضعيف .

وأما قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . . . . . فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى . . . . »[٥] . فإن الأمى هو النبى صلى الله عليه وسلم [٦] ، لأنه لم يطالع كتابا ولم يصاحب معلما [٧] ، وفى قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »[٨] . فإن المراد أناس من اليهود ، وهم أميون أى لا يقرءون ولا يكتبون ، كقوله صلى الله عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أو أنهم لا يحسنون أن يكتبوا فيطالعوا التوراة . وروى عن ابن عباس أن الأميين قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله ، فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهّال : هذا من عند الله . وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله [٩] .

---

(١) سورة الجمعة ٢ (٢) تفسير الطبرى ٢٨/٦١ — ٦٢ (٣) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٨/٦٤ (٤) العقد الفريد ٢/١٦٢ المطبعة الشرقية (٥) الأعراف ١٥٧ و١٥٨
(٦) تفسير الطبرى ٩/٥٦ (٧) النيسابورى ٩/٥٩ والعقد الفريد ٢/١٦٢
(٨) سورة البقرة ٧٨ و٧٩ (٩) تفسير الطبرى ١/٢٦٩ والنيسابورى ١/٣١٨

وإذاً فليست كلمة أميين فى القرآن الكريم دالة على العرب وحدهم ، فقد أطلقت على اليهود أيضاً ، ولم يتفق المفسرون على أن معناها الجهلة بالقراءة والكتابة ، فقد ذهب بعضهم إلى أنهم الذين ليس لهم كتاب سماوى يدينون به ، أو إلى أنهم المنسوبون إلى أم القرى ، أو إلى أنهم الذين لا يحسنون أن يكتبوا ويقرءوا .

لكنى أرجح أن الأميين هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون وأرى أن القرآن أطلق هذا الوصف مراعيا الحال العامة فى العرب ، لأن أكثرهم لا يقرءون ولا يكتبون ، وشتان بين أن يكون الشعب كله جاهلا بالكتابة ، وبين أن تكون الكثرة جاهلة . وهذا الحكم لا يتعارض مع ما أسلفت من معرفة العرب بالكتابة ، لأننا فى مصر فى القرن العشرين ما زلنا نحارب الأمية المتفشية ، على أن فى مصر بضعة ملايين يقرءون ويكتبون ، وما زلنا نقول إن مصر قطر زراعى ، ناظرين إلى غلبة الزراعة على بنيها وإن كان فيها كثير من الصناع والتجار والموظفين والعلماء .

حـ — كان بعض النساء يعرفن الكتابة والقراءة وبعضهن يعلّمنها ، منهن فاطمة بنت مُرّ الخَثْعمية كانت قد قرأت الكتب فى الجاهلية (١) :

وقد تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة من أمة بعد قتل أبيه . ثم كان من أكتب الناس ، وكتب للنعمان الأكبر (٢) .

ومنهن الشّفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية ، كانت تكتب وتَرْقى ، وقد قدمت على النبى قبل الهجرة فقال لها : ماعليك أن تعلمى حفصه رُقْيَة النملة كما علمتها الكتابة (٣) . فكانت حفصة وأم كلثوم من زوجات النبى تكتبان ، وكانت عائشة وأم سلمة تقرآن المصحف ولا تكتبان (٤) .

ولا شك فى أن هؤلاء النسوة القارئات الكاتبات قليل ، لأن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضى ذلك ، فلم تكن هنالك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ، ولم تكن ثمة حاجة تستدعى أن يتعلم النساء القراءة والكتابة ، لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية. ومن عجب أن ينسب إلى عمر قوله فى النساء : «جنبوهن الكتابة» وإلى على بن أبى طالب

---

(١) الروض الأنف ١/١٠٤ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/٤٦ (٢) الأغانى ٢/١٠١
(٣) الإصابة ٨/١٢١ والاستيعاب ٢/٧٦١ وفتوح البلدان ٤٧٧ (٤) فتوح البلدان ٤٧٣

جاپہ رسلغا یعما ۲۲۲ لاخلف

فیہنگ کل نصحبہ کیفا و نیہکا فا یعما یلع

... انف یلاا ویحلا تآقفنیلع

استدراك

صفحة ٣٣٤ السطر الخامس . صوابه

وعلى فرض أن الأميين هم الذين لايقرءون ولا يكتبون

فإن القرآن الكريم أطلق هذا . . .

أنه قال لرجل يعلم امرأة الخط : « لا تزد الشر شراً »[١] . فإننا لا نجنح إلى تصديق شيء من هذا . وكيف يحث النبي الشفاء العدوية على أن تعلم زوجته حفصة الكتابة ثم يقول عمر وعلى هذا .

وإنما يقال هذا فى عصور الضعف الخلقى والسياسى ، حيث يشيع سوء الظن بالمرأة ، ويتوهم الرجال أن تعليمها يفسدها أو يضاعف شرها ، وحيث يزدرون المرأة ولا يرونها جديرة بأن تتثقف . ذكر أن بعضهم رأى امرأة تتعلم الكتابة فقال : أَفْعَى تُسْقَى سماً[٢] . وسئل فقيه بدمشق فى العصر العباسى الثانى ، هل يجوز أن تتعلم النساء الكتابة ؟ فأجاب بأنه لا يجوز . وفى عهد من عهود الضعف افترى بعضهم أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : لا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور[٣] . وما دفع هؤلاء إلى افتراء الأحاديث المكذوبة والكلمات المنحولة إلى عظماء الإسلام إلا شعورهم بضعف حجتهم ، واستنادهم إلى قولِ ذى هيبة ومحبة وسلطان ، يحسبون أنهم يزعزعون الحق بما يروون وبما يزعمون .

ولم يكن عجبا من رجلٍ ساخط على الحياة وعلى الناس والنساء خاصة أن ينادى بحرمانهن الكتابة والقراءة ، قال أبو العلاء :

علموهن الغزل والنسج والرَّدْ ... نَ وخلوا كتـــابة وقراءة
وصلاة الفتاة بالحمد والإخـــ ... ـلاص تجزى عن يونس وبراءة[٤]

وأن يتردد صدى هذه الدعوة فى العصر الحديث على لسان الرافعى :

ياقوم لم تُخْلَقْ بنات الورى ... للدرس والطِّرْس وقال وقيل
لنا عـــلوم ولها غيرها ... فعلموهن كيف نشرُ الغسيل
والثوب والإبرة فى كفها ... طِرْسٌ عليه كل خط جميل

---

(١) صبح الأعشى ١/٦٤ (٢) صبح الأعشى ١/٦٤
(٣) التراتيب الادارية ١/٥٠ عن كتاب النبراس (٤) اللزوميات ١/٦٢ الردن : تنسيق المتاع .

١٥ - معرفتها النجوم

١ — عرف العرب بالملاحظة والمشاهدة وطول المرانة كثيرا من الأجرام السماوية والأحوال الجوية ، وحركات الكواكب ، ومنازل القمر ، والأنواء .

فهم يذكرون فى شعرهم أسماء نجوم شتى كالفرقدين والدَّبَران والثُّريا والعَيُّوق والسِّماكين والشِّعْرَى . وقد سجل شعرهم هذا كله .

وهم سموا الأنجم الأربعة التى خلف النَّسر الواقع أو الطائر صَليباً (١) .

وقد جمع كتاب أبى الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى ٣٧٦ هـ نحو خمسين ومائتين من الكواكب التى يعرفها البدو (٢) .

وهم عرفوا منازل القمر بأن اتخذوا فى السماء ثمانى وعشرين كوكبة (مجموعة) لا تبعد عن فلك القمر كثيرا ، تدل كل منهما على موضع القمر فى إحدى ليالى الشهر . لذلك جاء فى القرآن الكريم « والقمر قدرناه منازل » (٣) . هو الذى جعل الشمس ضياء القمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب (٤) » وقد وضعوا لكل منزلة اسما ذكرها ابن منظور (٥) .

وعرفو الأنواء — والنَّوْء سقوط منزلة من منازل القمر مع الفجر فى الغرب وطلوع منزلة مقابلة لها فى الشرق من ساعتها — ونسبوا إليها عدة ظواهر طبيعية من الأمطار والرياح والحر والبرد ، وعزوا كل غيث إلى تأثير المنزلة الساقطة فى الغرب أو الطالعة فى الشرق ، حتى شاع استعمال النوء بمعنى الغيث (٦) والدليل على شيوع قولهم بالأنواء ونسبتهم المطر إلى النجوم لا إلى الله قول النبى صلى الله عليه وسلم : ثلاث من أمر الجاهلية : الطعن فى الأنساب ، والنياحة ، والأنواء (٧) . وقول أبى العلاء المعرى إنه لاينسب الأمطار إلى الأنواء كما كان العرب يقولون : مطرنا بنوء المِرْزَم وغيرهما من النجوم :

ولست بالناسب غيثا هَمَى إلى السِّماكَيْنِ ولا المِرْزَمِ (٨)

---

(١) لسان العرب مادة نوأ (٢) الفهرست ٢٨٤ وصور الكواكب للصوفى . مخطوط بدار الكتب وبه صور (٣) سورة يس ٣٩ (٤) سورة يونس ٥ (٥) لسان العرب مادة نوأ
(٦) لسان العرب مادة نوأ وأساس الفلك والجغرافية ٨٥ محمد فخر الدين وعبد الفتاح الزيادى
(٧) لسان العرب مادة نوأ . (٨) شرح التنوير على سقط الزند ٢/٢١٣

وطبيعى أن تكون معرفتهم بالأنواء عظيمة ، لأن حياتهم وأرزاقهم ذات صلة وثيقة بالمطر وبالمرعى ، فهم يتطلعون إلى السماء يتشوفون مطرها ، ويَشيمُون برقها ، لذلك كانت لهم فراسة وخبرة بالسحاب الممطر والجَهام ، وبالبرق المنجز والخُلَّب ، وبالرياح وخواصها .

وقد ألف بعض السابقين من علماء اللغة كتبا جمعوا فيها ما كان للجاهليين من معرفة بالسماء . منها كتاب الأنواء لأحمد بن داود بن وَتَنْد (١) ، وكتاب الأنواء لأحمد بن عبيد الله الثقفى (٢) ، وكتاب الأنواء لأحمد المَرْثدى (٣) ، وكتاب الأنواء لمحمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى (٤) ، وكتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار لإبراهيم بن سفيان الزيادى (٥) ، وكتاب الأنواء لمُؤَرج بن عمر النحوى (٦) ، وكتاب الأنواء وكتاب المطر لابن دُرَيْد (٧) ، وكتاب الأنواء لأبى اسحاق بن الزجاج النحوى (٨) وكتاب الأنواء وكتاب الشمس والقمر للنَّضْر بن شُمَيْل النحوى (٩) ، وكتاب أبى حنيفة الدِّينَوَرى (١٠) الذى بين فيه ما كان يعرفه العرب من السماء والأنواء والرياح ، وتقسيم العام إلى أزمان الخ وهو يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب وأشعارها وأسجاعها فى ذلك . وكتب الأنواء كثيرة ، منها كتاب للأصمعى ، وكتاب لأبى محلم ، وكتاب لقُطْرُب ، وكتاب لابن الأعرابى ، وكتاب للمبرّد ، وكتاب لابن قُتيبة ، وكتاب للدهنى ، وكتاب للمريدى ، وكتاب لوكيع وغيرهم (١١) .

وللنضر بن شُمَيْل كتاب الصفات ، وهو كبير يحتوى على عدة كتب ، ذكر فى الكتاب الرابع منه ما يتعلق بالشمس والقمر والليل والنهار ، وذكر فى الخامس ما يتصل بالرياح والسحاب والأمطار (١٢) .

ب — وقد أسهمت المرأة فى هذه المعارف .

---

(١) معجم الأدباء ٣/٣٢ (٢) معجم الأدباء ٣/٢٤٠ (٣) معجم الأدباء ١٤/١٨٧
(٤) معجم الأدباء ١٤/١٩٦ (٥) معجم الأدباء ١/١٦١ (٦) بغية الوعاة للسيوطى ٤٠٠ طبعة السعادة بمصر وكشف الظنون ٢/٢٦٦ (٧) الفهرست ٦١ و٨٨ وبغية الوعاة ٣٠–٣٢ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ٣٢٣ وكشف الظنون ٢/٢٦٦ (٨) الفهرست ٨٨ (٩) الفهرست ٥٢ وبغية الوعاة ٤٠٥ ونزهة الألباء ١١١ وكشف الظنون ٢/٢٦٦ (١٠) الفهرست ٧٨ و٨٨ وكشف الظنون ٢/٢٦٦ (١١) الفهرست ٨٨ (١٢) الفهرست ٥٢ وبغية الوعاة ٤٠٥

روى بن دُرَيْد أن شيخا من الأعراب كان فى خبائه وابنةٌ له بالفناء، فسمع رعدا، فقال: ما ترين يابنية؟ فقالت: أراها حَوّاء قَرْحاء، كأنها أَقْرابُ أتان قَمْراء. ثم سمع راعدة أخرى، فقال: كيف ترينها؟ قالت: أراها جَمّة التِّرْجاف، متساقطة الأكناف، تتألق بالبرق الْوِلَاف قال: هلمى المغرفة أَنْتِئ نُؤْيا (١).

وروى عن الأصمعى أن أعرابيا ضريراً كانت تقوده ابنته، وهى ترعى غُنَيْمات، فرأت سحابا، فقالت: يا أبت جاءتك السماء. فقال. كيف ترينها؟ قالت: كأنها فرس دهماء تجرّ جِلالها. قال: ارعى غنيماتك. فرعت مليّاً، ثم قالت: يا أبت جاءتك السماء، قال: كيف ترينها؟ قالت: كأنها عينُ جمل طريف. قال: ارعى غنيماتك، فرعت مليا ثم قالت: يا أبت جاءتك السماء. قال: كيف ترينها؟ قالت سَطَحَتْ وابيضّت. قال: أدخلى غنيماتك. فجاءت السماء بشىء شَطَأ له الزرع وأينع، وخضر ونضر (٢):

وروى عن الأصمعى أن معقِّر بن حماد البارقى خرج ذات يوم وقد كف بصره وابنته تقوده، فسمع رعداً، فقال لها: ما ترين؟ قالت: أراها حَمّاء عَقّاقه، كأنها حِوَلاءِ ناقة، لها وسيرٌ وانٍ، وصدرٌ دانٍ. فقال: مرِّى فلا بأس عليك. ثم سمع رعداً آخر فقال: ما ترين فقالت: أراها كأنها لحم نَثْتٌ، منه مَسيكٌ ومنه مُنْهَرِت. فقال: وائلى، الجئى بى إلى جانب قَفْلَة فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل (٣).

وذكر أن أعرابيا شام برقا فقال لابنته: انظرى أين ترينه؟ فقالت: أناخ بذى بقر بَرْكه

---

(١) المطر والسحاب لابن دريد ١٤ مخطوط. حواء: سوداء محمرة. قرحاء: يتألق برقها من روضة قرحاء إذا كان فيها نوار أبيض. أقراب: خصور. قمراء: فى لونها بياض إلى كدرة. الترجاف: الاضطراب. متساقطة الأكناف: مهدلة الجوانب مسترخية لكثرة مائها. البرق الولاف: الذى يبرق برقا متتابعاً وهو لا يكاد يخلف. المغرفة: المسحاة. أنتئ نؤيا: أحفر حفيرة حول الخباء تمنع السيل عنه.

(٢) المطر والسحاب ٤٤ مخطوط. الجلال: مايوضع فوق الفرس ليصونها. جمل طريف: مطرف أى يستطرف الكلأ فلا يرعى فى مكان واحد. شطأ له الزرع: أخرج ثماره. أينع: نضج.

(٣) المطر والسحاب ٤ الحماء: السوداء المحمرة. العقاقة: التى يتسرب برقها فى السحاب وينشق عقائق أو هى السحابة المنبعجة بالماء. الحولاء: جلدة رقيقة مملوءة ماء كأنها مرآة تخرج مع سليل الناقة فشبه السحاب بها فى كثرة الماء. لحم نثت: مسترخ منتن. وائلى: بادرى. قفلة: شجرة يابسة.

كأن على عضديه كتافا . ثم قال لها بعد قليل ، عودى فشيمى . فقالت : نَحَّتْه الصَّبا ، ومَرَتْه الجَنوب ، وانْتَجَفَتْه الشَّمال انتجافا (١) .

وإذا ارتبنا فى هذه الأخبار وذهبنا إلى أنها من وضع ابن دريد أو غيره لإحياء كلمات لغوية ، أو نظمها فى سمط موضوعى فإننا لا نرتاب فى أن واضعيها كانوا على علم بمعارف المرأة الجاهلية وجدارتها بأن ينسب إليها مثل هذا .

والأخبار مستفيضة بعلم السيدة عائشة بالنجوم ، فقد وفدت عائشة بنت طلحة على هشام ، وسمرت عنده مع مشايخ بنى أمية ، فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا فاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار إلا سَمَّته ، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ فقالت . أخذتها عن خالتى عائشة (٢) .

١٦ — خبرتها بالمرعى

ليس أحد أخبر بالمراعى من العرب ، لأن جُلَّ حياتهم رعى ، وجل ثروتهم إبل وشاء . وقد كان بعض النساء يمارسن الرعى ، ويكتسبن من تجربتهن خبرة ودراية ، وبعضهن يستمعن من الرجال ومن النساء ما يبصرهن بصنوف المراعى وأثرها فى السائمة ولبنها .

روى أبو زيد أن امرأتين تخاصمتا إلى ابنة الخُسّ فى مراعى أبويهما ، فقالت الأولى : إبل أبى ترعى الإسْليح ، فقالت ابنة الخس : رغوة وصَريح ، وسَنامٌ إطْريح ، وقالت الأخرى . مرعى إبل أبى الخَلَّة ، قالت ابنة الخس : سريعة الدِّرَّة والجِرَّة (٣) .

---

(١) المطر والسحاب ٤٠ ذوبقر : موضع . البرك : البركة : ما ولى الأرض من صدر البعير . عضديه ما بين مرفقيه إلى كتفيه . كتافا : حبلا مشدوداً به . نحته : صرفته نحوهم . مرته الجنوب : استخرجت ماءه . انتجفته : استخرجت أقصى مافيه من ماء (٢) الأغانى ١٧/١٠ (٣) البيان والتبيين ١٦٢/٢ تحقيق هارون ولسان العرب مادة سلح وطرح . الإسليح : بقلة من أحرار البقول تنبت فى الشتاء تسلح الإبل إذا استكثرت منها . إطريح : طويل مائل

الفصل الرابع
المرأة فى الحرب

تمهيد

١ ــ أسست الحياة القبلية على العداء والحروب المتوالية ، وعلى المحالفة والنصرة ، مؤازرة فى غارة أو درءاً من غارة ، لأن العرب عاشوا فى بيئة مؤرثة للحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسيمون فيه أنعامهم ، وعلى المنهل يطفئون به ظمأهم ، فى بلاد شحيحة بالكلأ ، ضنينة بالماء ، لا ملكية فى أرضها لأحد . وهم يتنازعون على الشرف والرياسة ، ويتغاورون رغبة فى السلب والغنيمة ، لأن أرزاقهم فى رماحهم ، ومعاشهم فى أيدى غيرهم . وإن القطامى ــ الشاعر المخضوم ــ ليصور ذلك فى حديثه عن الخيل والخيالة :

وكن إذا أغرن على جَنـــاب ... وأعوزهن نهبٌ حيث كانـــا
أغرن من الضِّباب على حُلول ... وضَـــبّة إنه من حان حانـــا
وأحياناً عـــلى بكر أخينـــا ... إذا ما لم نجـــد إلا أخانا (١)

ولقد تهيج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً ، لأن شـــعارهم نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، ومن يسلم أخاه يعيرّ . بل إن الشاعر كان يعير قبيلته كلها إن تخلت عن نصرته . قال قُرَيْط بن أُنَيْف ــ وكان بعض بنى شيبان أغاروا على إبله فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فلجأ إلى بنى مازن من تميم فأنجدوه ــ :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو الشَّقيقة من ذُهْلِ بن شيبانا
إذاً لقام بنصـــرى معشر خُشُنٌ ... عند الحفيظة إن ذو لُوثة لانـــا

. . . . . .

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/١٨١ الضباب : ضبة وضبيب وحسل وحسيل . الحلول : الحى الحال فى مكان واحد

لا يسألون أخاهم حـ ـين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا
لـكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لى بهم قوماً إذا ركبـوا ... شدوا الإغارة فرساناً وركبانا (١)

وكثيراً ما كانت تنشب الحروب لضغن قديم وقرته الصدور ، أو لهزيمة وثأر ، والعربى لا ينسى هزيمة ذاق مرارتها ، ولا إساءة كابد حرقتها . قال زفر بن الحارث مصوراً هذا الشعور :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهـ ـط ... لمروان صـدعا بيننا متنائيا
وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا (٢)

ثم هم يتسلحون بالشجاعة ، فهى عدتهم ظاهرة وباطنة، وهى مفخرتهم يلبسونها وتلبسهم ، لأنهم لا يحتمون بشرطة ، ولا يتقون بأسوار ، وقد ألفوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، « يتجافون عن الهجوع ، ويتوجسون للنبآت والهيعات ، وينفردون فى البيداء ، مدلّين ببأسهم ، واثقين بنفوسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية » (٣) .

وإذا تقصينا حياة العربى منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، وأنه شب وكبر وهى تتمشى فى دمه . وكيف لا وقد ربى فى بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام ، وحسن البلاء فى حماية الذمار والأخذ بالثأر ، وبالعدوان فى كثير من الأحيان ؟ وطالما فزع طفلا على قعقعة السلاح ، وصياح المتقاتلين ، وسمع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تشتجر ، والقسى تتقارع ، والأبطال فى الميدان تتنازع ، ثم كبر فشارك فى المواقع ، وأفنى العمر فى المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً فى العرب . « وكانت تشبه شجاعة الإغريق القدماء ، تعتمد على الحماسة ، وتختفى سريعاً أمام الفتور والتأخر » (٤).

كانت الحروب من خصائص العرب ، ولا سيما البدو ، وقد وصفهم بذلك منذ القدم

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/٥ والمرزوقى ١/٢٣ وفى رواية بنو اللقيطة وهى نضيرة بنت عصيم ولاصلة لها ببنى شيبان ، أما الشقيقة فهى بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان . ذولوثة : ضعيف
(٢) حماسة البحترى ١٧ (٣) مقدمة ابن خلدون ١٠٥ (٤) Ntcholson P. 81

سمنه Simneh مؤرخ مصر فى عهد الأسرة التاسعة عشرة إذ قال : إنهم رعاة يحبون الحرب ويغير بعضهم على بعض (١) .

فلا عجب أن ورث منهم أبناؤهم الشجاعة والفروسية، لأنه من المقرر أن مهارة الأفراد فى الفروسية وركوب الخيل . . . . . ترجع فى الغالب إلى استعداد فطرى ورثه الأبناء عن آبائهم وأجدادهم الذين تمرسوا زمناً طويلا بالحروب (٢) .

٢ — وإذا تقصينا أيام العرب وجدناها كثيرة جداً ، حتى لقد أفرد لها بعض المؤرخين كتباً أو فصولا طوالا ، وألفيناها تزخر ببطولة الرجال وفخارهم وحسن بلائهم . وقلما وجدنا فيها تفصيلا لجهود المرأة ، أو فخاراً من المرأة بنصيبها فى حروب قومها .

فهل كانت المرأة منزوية متخلفة عن الحروب ؟ لا فقد أسهمت فيها بنصيب عظيم وجهد مأثور لم يفرد له مؤلف فصلا من كتاب .

وسأكشف عن هذا الجهد الذى بذلته للمرأة فى الحرب، ملتقطاً من المراجع ما تفرق هنا وهناك ، وسيكون هذا رداً على أنها « لم تكن فى مقدمة المحاربين ، ولم تكلف أن تقوم بما يقوم به الرجال ، لأنه كان من النادر أن تتيح لها ظروفها ذلك، وإنما كانت تقتصر على إثارة العواطف ، كما فعلت فى يوم ذى قار ، وعلى مد المحاربين بالطعام والشراب ، وتضميد الجراح » (٣) .

ولا شك أن دراستنا لنصيب المرأة فى الحروب كفيلة بأن ترسم صورة صحيحة لمكانتها وأخلاقها وأعمالها فى العصر الجاهلى .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى . حسن إبراهيم ١/ ٦٥ (٢) الهنود الحمر . على عبد الواحد ٧٨

(٣) Women in the Aiyam al Arab P. 1 ilse lichtenstadter

المرأة المحـــــاربة

كان الرجال وما يزالون فى كل أمة ينهضون بأعباء الحروب ، ولقاء الصناديد ، حاملين أرواحهم على أكفهم وشبا أسلهم وسيوفهم . وكان المعروف عن العرب أن القتل والقتال للرجال ، وعلى الغانيات جر الذيول ، فإن شاركن فى الحرب فإنما يقمن بما تطيقه الأنثى من تحميس وتضميد وإطعام وسقى . ولكن هذا لا يؤخذ على إطلاقه ، فإن بعض النساء حاربن كما يحارب الرجال ، بل أدرن قطب الحرب أحياناً ، وكن القائدات لجيش من الرجال

وقد جانب الجاحظ الصواب فى قوله : « والمرأة إذا ضعفت عن كل شىء نزعت إلى الصراخ والولولة ، التماساً للرحمة ، واستجلابا للغياث من حماتها وكفاتها أو من أهل الحسبة فى أمرها »[1] ، وسنرى أن هذه لم تكن نزعتها على الإطلاق .

ولا شك أن المرأة العربية — بمشاركتها مشاركة فعالة فى الحرب — قد تفوقت على المرأة اليونانية كما يصورها هوميروس فى قوله :

سار هكطور حثيثاً وأتى باب إسْكيّةَ والزّانُ ظليل
فتلقته نســـاء وبنات منه علمـــاً تتقصّى سائلات
عن بنيهن وإخوان ثقات

لأن عمل النساء هنا مقصور على الاستطلاع والاستخبار . وليس فى الإلياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب ، وإن كن قد شاركن فى كثير من الأعمال كغسل الموتى وإعداد المعدات وإقامة الصلوات ، وربما عنفّن على خمول ، كما فعلت هيلانة مع زوجها فاريس[2] .

وقد أشار إلى مشاركة المرأة العربية فى الحرب قيس بن الخطيم بقوله :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أولَ راجب
أَوَيْتُ لعوف أن تقول نساؤهم ويرمين دَفْعاً ليتنا لم نحارب[3]

ولما كانت الحرب بين بكر وتغلب قال الحارث بن عباد للحارث بن همام رئيس بكر . هل أنت مطيعى فيما آمرك ؟ قال : ما أنا بتارك رأيك . قال : قاتلوا القوم بالنساء فضلا عن

---

(١) الحيوان ٦/٢٧٩ طبعة هارون (٢) الإلياذة . ترجمة البستاني ٤٥٧ (٣) ديوان قيس ابن الخطيم ١٨ مخطوط . راجب : ميت . يرمين دفعاً : يرمينا من فوق الآطام دفاعا عن أنفسهن .

الرجال . قال الحارث : وكيف؟ قال : تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس فتعطونها إداوة وهراوة ، فإذا صففت أصحابك فصفهن خلفهم ، فإن ذلك مما يزيد الرجال جلدا وشدة ونشاطا ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم ، فإذا مرت المرأة على صريع منكم عرفته فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه ، ففعل الحارث بن همام ما أمره به ، وكان النصر لهم [1] .

المرأة تقود الجيش

وأى دليل على مشاركة المرأة فى الحرب ، وممارستها ما يمارس الرجال من لظاها وفواجعها أقوى من أن تقود الجيش ؟

إن قيادة الجيش لا تناط إلا بالشهم الجلد المحنك المطاع ، وإن القائد ليصرّف جنده ، ويدبر الخطط للنصر ، فإذا كانت المرأة العربية قد سمت إلى هذه الرتبة العالية فإن ذلك إقرار من الرجال بعظمتها ، وسمو مكانتها ، ودليل على خضوعهم لها وإطاعتها .

ومن هؤلاء القائدات :

١ — رَقَاش ، كانت فى طيء ، وكانت تغزو بقومها ، ويتيمنون برأيها ، وكانت كاهنة لها حزم وعزم .

وقد أغارت طيء بزعامتها وقيادتها على إياد بن نزار يوم رحى جابر فظفرت بهم ، وغنمت وسبت ، ثم بعد ذلك حملت فتراخت عن الغزو ، فقال شاعرهم :

نُبِّئْتُ أن رقاشِ بعد شِماسها ... حبلت وقد ولدت غلاما أكْحَلا

فالله يُحْظيها ويرفـــع بُضْعها ... والله يُلْقحها كشافاً مُقْبَـــلا

كانت رقاش تقول جيشاً جَحْفلا ... فصبَتْ وأحْرِ بمن صبا أن يَحْبلا [2]

ويظهر لى من حنق الشاعر عليها أنه كان يظنها قد انسلخت من أنوثتها أو انسلخت منها أنوثتها ، فلما حملت ووضعت استبان له أن القائدة الحازمة الأريبة مازالت أنثى . تتزوج وتحمل ، وتلد ، فخيبت ظنه ، ولعله سخط أيضاً لأنه خشى ألا يكون فى رجال القبيلة من يخلفها فى القيادة وبث الحماسة ويُمن الزعامة ، فيعجزون عن الغارة واكتساب الغنائم .

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٣٤ وكتاب بكر وتغلب ٨٣

(٢) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١/٣١٣ ومجمع الأمثال ١/٢٦٣

٢ — وهذه قائدة أخرى وزعيمة ، كانت تناوىء النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قومها يأتمرون بأمرها ، ولعلها لو أسلمت لكان لها فى التاريخ شأن أى شأن ، تلك هى أم قِرفة .

وقد ضرب العرب المثل بعزتها ، فقالوا : أمنع من أم قرفة . وهى امرأته فزارية . كانت زوجة لمالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلا كلهم لها محرم [١] . كانت فاطمة بنت ربيعة بن زيد الفزارى هذه زعيمة مطاعة ، وكانت تجاهر بعدائها للإسلام ، حتى لقد بعثت إلى النبي أربعين رجلا من بطنها ليغزوه فى المدينة ، فبعث النبي إليها فى السنة السادسة للهجرة زيد بن حارثة فى خيل ، فلقيها بوادى القرى ، فهزمته ، فحلف ألا يغسل ولا يدهن حتى يغزوهم ، فسأل رسول الله أن يبعثه إليهم فبعثه فى خيل عظيمة ، فانتصر فى هذه المرة وسبى أم قرفة ، وكانت عجوزا كبيرة ، وسبى ابنتها ، ثم أمر زيدٌ قيسَ بن المسحَّر أن يقتل أم قرفة فربط حبلين برجليها ، ثم ربطهما بين بعيرين وزجرهما فذهبا بها ، فشقاها شقاً [٢] . ويذكر ابن هشام أنه قتلها قتلا عنيفا ، ولا يفصل هذا القتل [٣] ولكن وصف القتل بالعنف كاف فى الدلالة على نوعه .

٣ — قتلت أم قرفة وسبيت ابنتها سلمى ، وقدم زيد بن حارثة بها على رسول الله ، وكانت من نصيب قيس بن المسحّر أو سلمة بن عمرو الأكوع ، فسألها رسول الله هذا أو ذاك فوهبها له ، فأهداها إلى خاله حزن بن أبى وهب [٤] ، وقيل كانت لعائشة فأعتقتها [٥] .

وأياما كان الأمر فقد رجعت سلمى إلى قومها ، وارتدت معهم عن الإسلام ، ثم انضمت إلى طليحة هى وعينيه بن حصن ، ولست أشك فى أنها لم تنس مصرع أمها العنيف ، ولم تنس مقتل أخيها حكمة يوم أغار عينية بن حصن على سرح المدينة ، ولم تنس مرارة السبى ومذلته فارادت أن تشتفى بالثأر .

وقد شرعت تحقق ذلك ، وتحلق حول لوائها جموع من غطفان وفزارة وأسد وهوازن وسليم وطيىء ، فقادتهم كما قادت أمها الجموع من قبل ، وأمرتهم أن يهجموا على خالد بن الوليد وكان مشغولا بحرب المرتدين ، فسار إليها .

كانت سلمى تشرف على المعركة وهى راكبة جملا كانت أمها تركبه فى المعارك من قبل

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٨٤ وتاريخ الخميس ٢/١٣ ومجمع الأمثال ٢/٢٤٩ (٢) تاريخ الطبرى ٣/٨٣ وتاريخ اليعقوبي ٢/٧٤ وتاريخ الخميس ٢/١٣ والتنبيه والإشراف ٢١٩ و٢٢٠ ولم يذكر طريقة القتل (٣) سيرة ابن هشام ٤/٢٩٠ (٤) سيرة ابن هشام ٤/٢٩٠ وتاريخ اليعقوبي ٢/٧٥ وتاريخ الطبرى ٣/٨٤ (٥) تاريخ الطبرى ٣/٢٣٤

وليس أدل على عظم خطرها من أن يدبر خالد أمره للقضاء عليها أولا ، فيعد من يعقر جملها مائة من الإبل ، فعقر المسلمون جملها ، وقتلوها ، وقتلوا مائة من الملتفين بجملها ودارت الدائرة عليها (١) .

٤ — وبعد قليل ظهرت امرأة أخرى تتزعم قومها ، وتقدمهم فى الحرب ، بل لقد تنبأت أيضاً . ودان لها كثير وآمنوا بها . أما اسمها فسجاح ، وأما كنيتها فأم صادر .

وهى بنت أوس بن حق بن أسامة من تميم ، أو بنت الحارث بن سويد بن عقفان (٢) ، أو بنت سويد بن أسامة التميمى (٣) . وأما تاريخها فمن المرجح أنه قد شوه كثيراً ، لأنها ارتدت عن الإسلام ، وتزعمت بعض القبائل المرتدة ، ولكن هذا التشويه لا يغير الجوهر وهو أن سجاح كانت زعيمة فى قومها ، ومتنبئة ، وقائدة مطاعة . نشأت سجاح بين أخوالها بنى تغلب ، وتنصرت مثلهم (٤) ، فلما كانت السنة الحادية عشرة للهجرة تنبأ بعض العرب ، وارتد بعضهم ، ووضعوا التيجان على رءوسهم ، وامتنع قوم من دفع الزكاة ، فتنبأت سجاح فى بنى تغلب ، وخرجت بجمع منهم — الهديل ابن عمران — إلى بلاد بنى تميم فلقيها بنو حنظلة وصدقوها ، وأجمع بنو تميم على نصرتها ، وفيهم بعض سادتهم كالأحنف بن قيس وحارثة بن بدر والزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وغيرهم من سادة تميم .

وكان فيما أغرتهم به أن الله لم يجعل هذا الأمر فى ربيعة ، وإنما جعله فى مضر ، وأن تميما تعدل قريشاً فى السيادة والشرف لأنهما معا من مضر ، وادعت أنه أنزل عليها (يأيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يبغون) (٥) . فعلى المضريين أن يقصدوا جموع ربيعة ويفضوها ، ثم يكروا على قريش ويغلبوها .

وراجت دعوتها ، وانضم إليها عدد كبير من إياد وتميم ، ومن القبائل العربية النصرانية بالجزيرة (٦) ؛ ثم سيرت جمعاً إلى بنى ضبة من الرباب ، وسارت بجميع آخر من التغلبيين والنمر بن قاسط إلى تيم وعدى وثور ، ثم اتجهت إلى اليمامة (٧) .

وراسلت مالك بن نويرة ، ودعته إلى الموادعة فأجابها ، ونهاها عن غزوها بنى تميم فأجابته وقالت : نعم فشأنك ممن رأيت ، وأنا امرأة من بنى يربوع ، وإن كان ملك فهو لكم (٨)

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/ ٢٣٠ (٢) الأغانى ١٤/ ٦٤ وفتوح البلدان ١٠٦
(٣) أوائل الأوائل لأبى هلال ٢٢٢ مخطوط (٤) فتوح البلدان ٩٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٣٢٩ (٥) الأغانى ١٨/ ١٦٦ (٦) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦٧ (٧) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط وتاريخ اليعقوبى ٢/ ١٤٤ والأغانى ١٨/ ١٦٥ (٨) الأغانى ١٤/ ٦٤

ولما أيقنت من قوتها وسيطرتها على هذه القبائل بعد أن هُزمت مرتين [١] أرادت أن تقضى على منافسها مسيلمة ، فتوجهت إليه لتحاربه ؛ وعزمت على أن تشخص بعد الانتصار عليه إلى أبى بكر وقريش . ولما بلغ خبرها مسيلمة ضاق ذرعا وتحصن فى حصن اليمامة ، فلما أحاطت به استشار قومه فيما يفعل ، فأشاروا عليه أن يسالمها ويدع لها الأمر وإلا هلكوا جميعاً [٢] ولكن لقاءها لمسيلمة كان مغرب مجدها المأمول . فقد تزوجته . وجعلت دينه ودينها واحدا . وآمنت به . ويروون فى ذلك روايات تحمل فى طياتها عناصر الشك فيها [٣] .

فلما غزا خالد بن الوليد اليمامة وقتل مسيلمة وأسر قيس بن عاصم مؤذن سجاح فرت إلى بنى تغلب بالعراق [٤] . يائسة من تحقيق أحلامها بعد أن ظفر خالد بالمرتدين . وبعد أن قتل أكبر حلفائها مالك بن نويرة .

وقيل إنها أسلمت وهاجرت إلى البصرة ، وحسن إسلامها ، وصلى عليها سمرة بن جندب الفزارى والى البصرة من قبل معاوية قبل ولاية عبيد الله بن زياد [٥] .

وفى سجاح يقول مؤذنها قيس بن عاصم :

أضحت نبيتنـــا أنثى نُطيفُ بهـا ... وأصبحت أنبيـــاء الله ذكْرانا [٦]

ولا شك أن سجاح لم تُدع النبوة فى أخوالها وقومها ، وأنهم لم يلتفوا بها هم وغيرهم من المرتدين إلا وهى جديرة فى نظرهم بهذه الزعامة الدينية والسياسية .

المرأة تحارب

١ — اشتركت المرأة فى الحروب اشتراكا عمليا ، فكانت تضرب الأعداء بالهراوى ، وتساعد قومها على النصر [٧] ، وقد رمت النساء الخزرجيات الأوس بالحجارة من فوق الآطام فى حرب حاطب ، وفيهن يقول قيس بن الخطيم :

أويت لعوف إذ تقول نساؤهم ... ويرمين دفعاً ليتنـا لم نحارب [٨]

بل لقد كانت تقدم حيث يحجم الرجل ، وتشجع حين يجبن ، ففى يوم أحد سقط لواء قريش ، فلم يتقدم لرفعه أحـد ، وشمرت هند بنت عتبة وصواحبهـا ليهربن ، فتقدمت عمرة

---

(١) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط . هزمت بنوضبة جموع بنى حنظلة الذين أوفدتهم إليهم سجاح ، وقاتلها بنو تميم وعدى وثور حين سارت إليهم قتالا شديدا (٢) الأغاني ١٨/١٦٦

(٣) الأغاني ١٨/١٦٥ — ١٦٦ (٤) الكامل لابن الأثير ٢/٢٧١ والأغاني ١٨/١٦٦

(٥) فتوح البلدان ٩٤ و١٠٦ والأغاني ١٨/١٦٧ (٦) الأغانى ١٢/١٥٠

(٧) كتاب بكر وتغلب ٨٣ (٨) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ والمغازى ٢٠٩ أويت لهم : رققت وأشفقت .

بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فتراجع المشركون واجتمعوا حولها ، وائتنفوا القتال : وفيها يقول حسان بن ثابت :

فولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون فى الأسواق بيع الجلائب (١)

وقد شهدت هذه الموقعة نسيبة بنت كعب المازنية أم عمارة هى وزوجها وابناها فقاتلت يومئذ قتالا شديداً وأبلت بلاء حسناً ، حتى قيل إنها جرحت اثنى عشر جرحا بين طعنة رمح وضربة سيف ، ولما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله وجعلت تقاتل عنه وتذب بسيفها ، وترمى دونه بقوسها حتى كثرت جراحها ، وأصابها عمرو بن قميئة بجرح غائر فى عاتقها ، وأصابته هى إصابات ، ولم يقه منها إلا درعان كانتا عليه . ورأى النبى بلاءها ، فأعجب بها ، وقال : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ وفى حديثها عن هذا اليوم : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك . فاعترضت له ، فضربت ساقه فبرك ، فرأيت الرسول تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت يا أم عمارة . ثم أقبلنا على الرجل نعلوه بالسلاح حتى أتيناعليه ، فقال النبى : الحمد لله الذى ظفّرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك .

وهى نفسها قد أصيبت يمناها فى موقعة اليمامة وجرحت جراحات (٢) . ولما انهزم المسلمون فى يوم أحد وولى بعضهم ولقيتهم أم أيمن ناكصين حثت فى وجوههم التراب ، وقالت لبعضهم : هناك المغزل اغزل به ، وهات سيفك . وقصدت إلى أحد مع بعض النساء (٣) .

وقد جرؤت صفية بنت عبد المطلب على ما رهبه حسان بن ثابت ، ذلك أن نساء المسلمين كن فى الحصون يوم الخندق ، وكانت صفية فى فارع — حصن حسان — وتحدثت صفية فقالت : وكان معنا حسان ، فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وكان بنو قريظة قد غدروا بالرسول وحاربوا مع المشركين ، فقلت يا حسان : إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . فقال : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزت ، وأخذت عموداً

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٥ وزاد المعاد ٢/١٣١ وتاريخ الطبرى ٣/١٧ والمغازى ٢٠١ والكامل لابن الأثير ٢/٦٣ وديوان حسان ١٣ الجلائب : العبيد (٢) المغازى ٢٦٣ و٢٦٦ وزاد المعاد ٢/١٣١ والإصابة ٨/١٩٩ وسيرة ابن هشام ٣/٣٠ و٢/٧٥ وفتوح البلدان ٩٩

(٣) المغازى ٢٧٢

ونزلت من الحصن إلى اليهودى فضربته حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى حسان فقلت : انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال : مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب [١] . ويروى الواقدى أن صفية رأت يهوداً جاءوا ليهجموا على الحصن ، فأشارت على حسان أن يحاربهم فامتنع ، فلما رأت يهودياً يصعد إلى الحصن قالت لحسان : شد على يدى السيف ، فضربت عنق اليهودى ، ثم رمت برأسه إليهم فانكشفوا [٢] .

ومن فخار المرأة أن يتحلحل كثير من الرجال فلا تتحلحل مثلهم ، بل تثبت ، وتشير على القائد أن يضربهم كما يضرب أعداءه سواء بسواء ، ذلك أنه فى غزوة هوازن كان المشركون قد تهيئوا وأعدوا ، وسبقوا المسلمين إلى الوادى فكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، فشددوا على المسلمين ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها الناس، هلموا إلى- أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله . ولكن نداءه لم يُجْد شيئاً ، وبقى رسول الله فى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، واغتبط المنافقون أيما اغتباط حتى قال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وصرخ كلدة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم . ثم صرخ فيهم العباس فاستجاب له مائة من الفارين .

فى هذا الهول الشديد والمأزق الضيق المبيد التفت رسول الله فرأى أم سَليم بنت مِلْحان — وكانت مع زوجها أبى طلحة — وهى حازمة وسطها ببرد لها ، ومعها جمل زوجها ، وقد خشيت أن يعزّها الجمل فأدنت رأسه منها وأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال لها الرسول : أم سليم ؟ قالت : نعم يا أبى أنت وأمى يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل . وكان معها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به . فقال : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ [٣] .

وقد حاربت نسوة كثيرات بالسيوف والرماح ، منهن الربيع بنت معوّذ بن عفية الأنصارية [٤] ، وصفية بنت عبد المطلب [٥] ، وخولة بنت الأزور [٦] . وهؤلاء اللائى حاربن فى مشرق الإسلام كأخواتهن اللاتى حاربن فى الجاهلية ، دليل على بطولة المرأة العربية وقدرتها على أن تصطلى نار الحرب ، وتمارس أحياناً ما يمارس الرجال .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٠ والاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة ١٩ مخطوط وسيرة ابن هشام ٣/٢٤٦ والأغانى ٤/١٦٤ (٢) المغازى ٢٨٢ (٣) سيرة ابن هشام ٤/٧١ — ٧٥ وتاريخ الطبرى ٣/١٢٩
(٤) الإصابة ٨/٨٠ (٥) المغازى ٢٨٢ (٦) الدر المنثور ١٨٥

وما من شك فى أن هؤلاء المسلمات اللائى نافحن عن عقيدتهن وحاربن كما يحارب الرجال — قد جرين على خلق أصيل فى نفوسهن منذ الجاهلية، جاء الإسلام فزاده وقواه؛ لما بث فى النفوس من حماسة دينية ، وبما أعد للمجاهدين من مثوبة ورضوان . فليس من الحق أن ندعى أن الإسلام قد صاغ من الجبانة شجاعة فى بضع سنوات ، لأن هذا مخالف لسنة الحياة ، ولأن المرأة التى لم تسلم كانت تحارب وتقود الجيش فى مستهل الإسلام وفى حرب الردة ، وكانت تمارس ذلك قبل الإسلام ، فمن أين جاءتها شجاعتها إن كان الإسلام هو الذى شجع المرأة المسلمة وأغراها بالقتال ؟

٢ — وبعد فقد حققت بعض النساء العربيات باشتراكهن فى الحرب ما كان يتخيله أفلاطون فى جمهوريته وما كان يريده ، فقد فرض الجندية على المرأة ، وأشركها مع الرجل فى حماية الوطن والقتال دونه ، وذلك فى رأيه خير من أن تعيش كلّا على الرجال المقاتلين يحمونها من السبى [١] ، لذلك سوى بين الفتيات والفتيان فى طرائق التربية وفى الواجبات الوطنية ، وقال فى جمهوريته : « ليس للرجال فى إدارة أعمال الحكومة واجبات خاصة ، وليس للنساء واجبات خاصة ، وإنما واجبات الرجال هى واجبات النساء ، فإن الطبيعة قد سوت بينهما فى المواهب ، وما المرأة فى الحقيقة إلا رجل ضعيف » وقال أيضاً : « أترانا نفرق بين إناث الكلاب وذكورها فنخرج الذكور وحدها للصيد ونكلفها وحدها حراسة الأغنام ، وندع الإناث فى المنازل بحجة أن الحمل والإرضاع يحولان بينها وبين مشاركة الذكور فى الصيد والحراسة ؟ حقاً إننا لا نفعل ذلك ، فيجب أن تتعلم الإناث الأعمال العسكرية والرياضة البدنية ، ويعاملن معاملة الرجال ، لأن التباين العقلى بين المرأة والرجل موجود مثله بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة ، فهو تباين فى الجنس الواحد أيضاً [٢] .

لا أريد من ذلك أن أدعو إلى أن تستوى المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات والأعمال ، وإنما أريد أن أبين أن بعض النساء العربيات قد حققن بعض ما يريده أفلاطون ويتمثله النظام الأسمى للمجتمع الخيالى الذى ينشده ، فى حين أن خياله هذا لم يتحقق فى بلاد اليونان نفسها .

---

(١) جمهورية أفلاطون ١٣٩ و١٢٤

(٢) جمهورية أفلاطون ١٢٥ — ١٣١ و١٣٩ و٢٠٩ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٨٩ .

المرأة والثار

هذه الحروب المتوالية لابد أن تنجلى عن قتلى وجرحى وأسرى وأسلاب ، ولا بد أن يعقب هذا فى نفس المهزوم والموتور حفيظة وموجدة لا يطفئها إلا أن يثأر ، وكان العرب كلفين بالثأر جد الكلف ، لقد كانوا يحرمون على أنفسهم النساء والخمر والطيب حتى يثأروا ، حتى لقد كان القريب يثأر من قريبه ، وكان قبول الديه عاراً لا يرضاه إلا الأذلاء [١] .

وقد كان للنساء شأن عظيم فى الثأر .

١ — فكن يقرعن المنهزمين تقريعاً يزيد الهزيمة ألماً ، ويبتعث الحمية للثأر ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة بن مكدم جمعا من قومها :

ألا هل أتاها على نأيها ... بما فَضَحتْ قومَها غامد
تمنيتم مائتى فارس ... فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيو ... ل ضأناً لها طالب قاعد [٢]

٢ — وكنّ لا يفتأن يحرضن على الثأر بالقول الملهب ، المثير ، وطالما نفرن من قبول الدية أيما تنفير . قالت كبشة أخت عمرو بن معيد كرب الزبيدية تحرض قومها على أن يثأروا لأخيها عبدالله — وقد همّ أخوها عمرو أن يقبل الدية ، أوهى توهمت أنه سيقبلها — أبياتاً على لسان القتيل كأنها وصية لهم لتزيدهم جداً فى الثأر له ، ولتهتاج حميتهم ، نهتهم فيها عن قبول الدية وعن طاعة عمرو ، ثم هاجت نخوتهم بأنهم إن لم يثأروا نعام مجدوع الآذان ، حقراء لا يستحقون أن يردوا الماء إلا بعد النساء الحيّض :

وأرسل عبد الله إذ حان يومه ... إلى قومه لاتعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم إفالا وأبكُراً ... وأنزل فى بيت بصَعْدَةَ مظلم
ودع عنك عمراً إن عمرا مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطْعم
فإن أنتم لم تثأروا واتَّدَيْتُمُ ... فَمَشُّوا بآذان النعام المصلَّم
ولا تردوا إلا فضول نسائكم ... إذا ارتملَتْ أعقابهن من الدم [٣]

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٢١٠ — ٢١٧ الطبعة الثانية .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٠٨ وبلاغات النساء ١٥١
(٣) حماسة أبي تمام شرح التبريزى ١/٢١٧ وحماسة البحترى ٣٠ والأمالى ٢/٢٢٦ لا تعقلوا دمى : لا تأخذوا بدله دية . الإفال : صغار الإبل . الأبكر : فتيان الإبل . صعدة : مكان باليمن . اتديتم : قبلتم الدية . مشوا : امشوا . المصلم : المقطوع الآذان . ارتملت : تلطخت .

وحمست بنت حكيم العبيدية قومها على أن يثأروا من ربيع قاتل أبيها ، فقالت لهم : عجلوا بقتله وإلا فأنتم نساء ، وربيع ربكم فاسجدوا له،وما أنتم إذاً إلا حقراء ضعاف كقصار المعيز وقباحها :

أيرجو ربيع أن يئوب وقد ثوى ... حكيمٌ ، وأمسى شِلْوه بمطبَّق
فإن كنتم قوماً كراماً فعجِّلوا ... له جرأة من بأسكم ذات مَصْدق
فإن لم تنالوا نَيْلكم بسيوفكم ... فكونوا نساء فى الملاءِ المخلَّق
وقولوا ربيعٌ ربُّكم فاسجدوا له ... فما أنتم إلا كمِعْزَى الحبلَّق (١)

واستثارت هند الجلاحية قومها بأنهم عبيد إن لم يثأروا :

فإن لم يثأروا من قد أصابوا ... فكانوا أعبدا لبنى كلاب (٢)

وكثيراً ما حرضت الخنساء على الثأر لأخيها صخر ، كقولها :

ولن أسالم قوماً كنت حربهم ... حتى تعود بياضاً جُؤْنةُ القار
لانومَ حتى تعود الخيل عابسة ... يَنْبذْنَ طَرْحاً بمُهْرات وأمهار
أو تحفزوا حفزة والموت مكتنعٌ ... عند البيوت حُصَيْناً وابن سيّار
فتغسلوا عنكم عاراً يجلّلكم ... غسلَ العوارك حيضا بعد أطهار (٣)

ولقد تعمد إلى كلام مثير يشعر المتوانى عن الثأر بعجزه ، ليدفع التهمة عن نفسه بالجد فى الثأر ، كما قالت ريحانة بنت معد يكرب لابنها دريد بن الصمة بعد أن مرحولٌ على مقتل أخيه عبد الله :

يا بنى إن كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد — تعنى عمرو بن معد يكرب الزبيدى — ، فأنف ابنها من ذلك ، وحلف ألا يكتحل ولا يدهن ولا يمس طيبا ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره ، فغزا غطفان وقتل من بنى عبس وفزارة وبنى مرة وبنى ثعلبة ، وكان ذلك يوم الغدير ، وجاء إلى أمه بذؤاب ابن أسماء فقتله بفنائها ، وقال : هل بلغت ما فى نفسك ؟ قالت : نعم متّعت بك .

وقد فخر بفعاله فى عدة قصائد (٤) .

---

(١) حماسة البحترى ٣٥ مطبق : قبر . المخلق : المطيب . الحبلق : قصار المعزى ودمامها
(٢) الأغانى ٢٠/١٢٢ (٣) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطعنوا . مكتنع : دان . حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار من بنى مرة . العوارك : الحوائض
(٤) الأغاني ٩/٦ و١٤/٢٦

٣ — ولقد يهجن النخوة للثأر بالمظهر المثير ، كما فعلت خويلة عجوز بنى رئام ، فقد حدّثوا أنه كان لها أربعون رجلا من إخوتها وأخوتها ، وكانت عقيما ، فهى ترى هؤلاء جميعاً بنيها ، ثم إن بنى ناعب وبنى داهن تظاهروا على بنى رئام — وهم جميعاً من قضاعة متجاورون بين الشحر وحضرموت — فقتلوا منهم ثلاثين رجلا ، فهلعت خويلة هلعاً شديداً ، وبالغ الرواة فزعموا أنها عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ونظمت منها قلادة وألقتها فى عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمَرْضاوى بن سعوة المهرى وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه ، وأنشدته قصيدة منها :

ياخير معتمد وأمنع ملجأ ... وأعز منتقم وأدرك طالب
جاءتك وافدة الثكالى تَغْتَلى ... بسوادها فوق الفضاء الناصب
فابرُدْ غليل خويلة الثكلى التى ... رُميت بأثقل من صخور الصاقب
وتلاف قبل الفوت ثأرى إنه ... عَلقٌ بثوبَىْ داهن أو ناعب

فاهتاج ابن أختها ، وخرج فى مئسر من قومه ، فطرق ناعباً وداهنا وأوجع فيهم (١) .

٤ — ولقد يبلغ بها الحنق حدا يقرب من الوحشية ، بل هو ضرب من الوحشية ، ففى غزوة أحد لما التقى الجمعان حرّضت هند بنت عتبة وصواحبها الرجال على الاستبسال (٢) . وكانت هند تحرض وحشيّا على أن يقتل حمزة ، وكلما مرت به قالت له : وَيْهاً أبا دسمة ، اشف واشتف (٣) . وكان وحشى هذا عبداً لجبير بن مطعم بن عدى ، فقال له جبير : قد علمت أن حمزة قتل طعيمة بن عدى يوم بدر ، فحزنت نساؤنا أشد الحزن ، فإن قتلته فأنت حر (٤)

ولم يكف هندا ما ذاقت من حلاوة النصر والثأر ، فشرعت هى ومن معها يمثلن بالقتلى من المسلمين ، فيجدع عن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند منها خدما وقلائد ، ثم لم يشف ذلك ما بنفسها من موجدة فبقرت بطن حمزة ، واقتطعت فلذة من كبده ولاكتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها .

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سُعُر
ما كان عن عتبة لى من صبر ... ولا أخى وعمه وبِكْرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى ... شفيتَ وحشىُّ غليل صدرى (٥)

---

(١) الأمالى ١/١٢٧ الصاقب : جبل معروف (٢) سيرة ابن هشام ٣/١٣ (٣) سيرة ابن هشام ٣/٦ (٤) شرح نهج البلاغة ٣/٣٨٦ (٥) سيرة ابن هشام ٣/٤٢ والمغازى ٢٦٩ وتاريخ الطبرى ٣/٢٣ والطبقات الكبير ٣/٤ سعر : سعير وأصله بضم العين. عتبة : أبوها . أخى : الوليد بن عتبة . بكرى : حنظلة بن أبى سفيان . عمى : شيبة بن ربيعة . وهؤلاء الأربعة قتلوا يوم بدر

ولم أجد من المؤرخين من يدفع هذه التهمة عن هند أو يخالف الآخرين فى جوهرها ، فليس يجدى دفاع ميور muir عنها ، ولا تكذيب لا مانس Lammans للمؤرخين ، لأنهما لا يعتمدان على دليل . يقول موير : إن مؤرخى السيرة قد بالغوا فى تصويرها محنقة متبربرة (١) . ويذهب لامانس إلى أبعد من ذلك ، فيدعى أن كتاب السيرة زعموا أن شريفات قرشيات شاركن فى غزوة أحد ، وفسحوا المجال لادعاء كاذب أن هندا مثلت بجسد حمزة ، وهو ادعاء اخترعه أنصار العباسيين (٢) . وهى تشبه فى قصتها هذه أم هكطور ، على أن أم هكطور تمنت أن تأكل كبد أخيل ، ووفقت عند حد التمنى :

من لى بذا السفّاك أقضم كبده قضما فلا أبقى عليه ولا أذر (٣)

٥ — وإذا كان الرجال قد حرموا على أنفسهم النساء والخمر والطيب حتى يثأروا فان النساء أشبههم فى ذلك ، فقد حرمت هند بنت عتبة على نفسها أن تبكى قتلاها الأربعة فى يوم بدر حتى تثأر من النبى وأصحابه ، وحرمت على نفسها الطيب حتى تغزو النبى والمسلمين ، ولم تقرب فراش أبى سفيان من يوم أن حلقت رأسها حزنا على قتلاها حتى كانت وقعة أحد (٤) .

وهن أشبهن الرجال أيضاً فى أن الثأر يشفى بعض حزنهن ، ويكفكف من فجيعتهن ، لذلك يطربن له ، وينتشين به ، ويكافئن الثائر ، فنى يوم أحد منحت هند بنت عتبة وحشياً ثيابها وخدمتين من جذع ظفاز كانتا فى ساقيها ، ومسكتين وخواتم من ورق كن فى أصابع رجليها (٥) . ووعدته أن تعطيه عشرة دنانير إذا عاد إلى مكة (٦) . كذلك أشادت الخنساء بقيس بن عامر بن الأمرار الجشمى لأنه قتل هاشم بن حرملة قاتل معاوية بن صخر ، وفدته بنفسها وبأعزائها جميعاً ، وببنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ؛ لأنه أقر عينها فنامت بعد أرق طويل :

فدًى للفارس الجُشَمىِّ نفسى أُفَدِّيه بمن لى من حميم
أفديه بكل بنى سُلَيْم بظاعنهم وبالأنَس المقيم
كما من هاشم أقررتَ عينى وكانت لا تنام ولا تنيم
خصصت بها أخا الأمرار قيساً فتى فى بيت مكرمة كريم (٧)

---

(١) Muir, The Caiiphate, its rire, Decline and Fall. 3—129

(٢) H. Lammans L'arabie occidentale avant L'Hagire P. 124

(٣) الإلياذة ١١١٥ (٤) المغازى ٣٢٤ (٥) شرح نهج البلاغة ٣/٣٨٦ (٦) المغازى ٢٧٩

(٧) ديوان الخنساء ٢٣١ ولسان العرب ١٦/٧٨ والأغانى ١٣/١٤٠ وبلاغات النساء ١٦٧

الحميم : القريب والإخوة وبنو العم والعشيرة . الأنس : الحى المقيمون

وتحدثت صفية بنت الخرع عن فرحتها لما قتل عبد يغوث بالنعمان بن جساس فقالت

لقد أخذنا شفاء النفس لو شُفِيَتْ وما قتلنا به إلا امرأ دونه [١]

وقد بقيت بغضة المرأة لواترها ، وتلهفها على الثأر منه إلى ما بعد العصر الجاهلى [٢]

المرأة جاسوسة فى الحرب

تصطنع الدول فى حروبها الحديثة جواسيس من الرجال ومن النساء. ولقد يكون النساء أقدر من الرجال على تلقط الأنباء ، وتعرف الدخائل ؛ لأنهن يتذرعن بجمالهن وبمكرهن ودهائهن ، وبالرغبة فى حدثهن ، فيبلغن ما لا يبلغ الرجال .

وقد عرف العرب الجاسوسية وتذرعوا بالنساء لمعرفة ما خفى عليهم من أنباء العدو . من ذلك أن رجلا من غنى قتل شاس بن زهير العبسى ، وأنكر بنوغنى أن يكونوا هم القتلة ، فأرسل زهير امرأة إليهم على أنها تاجرة ، وأمرها أن تكتم نسبها ، وأن تتعرف خبر ابنه شاس ، فاتصلت بنساء غنى ، وعرفت من إحداهن أن زوجها هو قاتل شاس ، ثم عادت إليه فأخبرته ، فأغار عليهم [٣] .

وقد اصطفى حاطب بن أبى بلتعة سارة المزنية ، وقيل إنها كانت مولاة لبنى عبد المطلب، وأرسل معها كتابا إلى قريش بمكة ، يحذرهم المسلمين ، وجعل لها جعلا على ذلك ، فوضعت الكتاب فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها وخرجت به ، فبعث رسول الله وراءها على ابن أبى طالب وأبا مرثد والزبير ، فأدركوها تسير على بعير لها ، فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فأنكرت ، فأناخوا جملها ، والتمسوا الكتاب معها فلم يجدوه ، فهددوها أن يجردوها إن لم تخرجه ، فلما رأت إصرارهم أخرجته من قرون رأسها أو من حجزتها ، فانطلقوا به إلى رسول الله [٤] .

الظعائن فى الحرب

١ — كان المحاربون كثيراً ما يصطحبون معهم نساءهم فى الحروب ، ففى يوم ذى قار استصحب العرب ظعائنهن ، وأمر حنظلة بن ثعلبة أن تقف الظعن خلف الناس ، ثم قال : يا معشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم . ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه ، وتتبع

---

(١) الأغانى ١٥/٧٣ (٢) بلاغات النساء ١٢٨ و١٣٠

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٠٠ (٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٠٥ وفتح البارى ٧/٢٣٧ وتاريخ الطبرى ٣/١١٣

الظعن بقطع وضنهن ، فسمى مقطع الوضُن [١] ، وحاكاه العرب ، فقطعوا وضن نسائهم حتى يقتسروا أنفسهم على الثبات ، دفاعاً عن الحرائر اللاتى لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها .

وكان لَقيط بن زُرارة يغزو ومعه ابنته دُخْتَنوس [٢] .

وفى يوم التحالق كانت مع عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس أمه على ناقة لها ، فلما توسط الثنية ضرب عرقوبى الناقة ، ثم انتضى سيفه وقال : والله لا يجرى رجل من بكر بن وائل إلا ضربته بالسيف [٣] .

وفى يوم فَيْف الرِّيح بين عامر بن صعصعة وبين الحارث بن كعب وحلفائها أقبلت مذ حج ومعها النساء والذرارى حتى يشجعنهم على القتال والثبات [٤] .

٢ — وقد حدثت السيدة عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج فى سفر أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه [٥] .

وفى غزوة أحد بعث النبى الحباب بن المنذر ليحزر له قريشاً ، ولما عاد سأله : هل رأيت ظعناً ؟ قال : رأيت النساء معهن الدفاف والطبول ، فقال رسول الله : أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر [٦] . وقد تحقق ما توقعه ، فإن قريشاً خرجت وخرج معها أحلافها ، واصطحب كثير من القرشيين نساءهم . فكانت هند وضرتها أميمة بنت سعد مع زوجهما أبى سفيان ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام مع عكرمة بن أبى جهل ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع الحارث بن هشام ، وبرزة بنت مسعود الثقفية وضرتها البغوم بنت المعذل مع زوجهما صفوان بن أمية ، وريطة بنت منبه مع عمرو بن العاص ، وسلافة بنت سعد مع طلحة بن أبى طلحة . وكانت خناس بنت مالك مع ابنها أبى عزيز بن عمير الخ وكانت عمرة بنت علقمة وحدها [٧] .

وما زالت المرأة العربية ترافق المحاربين إلى خلافة عثمان [٨] .

---

(١) أوائل الأوائل ٢٣٥ مخطوط وتاريخ الطبرى ٣/١٥٤ والأغاني ٢٠/١٣٦ والنقائض ٦٤١
الوضن : جمع وضين وهو حزام الرحل (٢) الكامل لابن الأثير ١/٢١٢
(٣) شرح التبريزى للحماسة ٢/٣٤ (٤) الكامل لابن الأثير ١/٢٣١
(٥) فتح البارى ٦/٥٨ والزبيدى ٢/٢٦٣ وسيرة ابن هشام ٢٤٢ (٦) المغازى ٢٠٧
(٨) سيرة ابن هشام ٣/٦ والمغازى ٢٠١ والكامل لابن الأثير ٢/٦٣ وتاريخ الطبرى ٣/١٠
والأغانى ١١/١٢٠ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩ (٨) فتح البارى ٦/٥٧

أثر الظعائن

١ — كن يهجن حماسة الرجال ، ويحفزنهم إلى المخاطرة والاستبسال ، « فيقاتل الرجل حتى الموت ، حماية لنسائه اللائى كن يصاحبن القبيلة فى الحروب العظيمة ، ويقمن خلف صفوف القتال » [١] . وكن يحمسن بضروب شتى ، فهن أحياناً يلهبن العواطف بأناشيدهن المشجعة ، كأنهن قواد يسكبون فى قلوب الجنود حميا البطولة ، وأحياناً يضربن على الدفوف كأنهن فرقة موسيقى حربية ، وتارة يثرن إقدام الرجال بنظراتهن إلى بلائهم ، وشهودهن إقدامهم . والرجال منذ كانوا وكانت النساء — يبذلون فى محضرهن من أفانين البطولة والشهامة حيث تراد البطولة والشهامة ، ومن ضروب البراعة والكياسة واللباقة حيث تطلب البراعة والكياسة ما لا يبذلون فى مغيب النساء .

كان تشجيع النساء للمقاتلين عرفاً عاما بين العرب ، حضريهم وبدويهم ، ملوكهم وغير ملوكهم ، فإن الحارث بن أبى شمر الملك الغسانى [٢] . فى حربه مع المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى يوم حليمة وجد أن الحرب قد قامت بينهما أياماً وهى سجال ، فأمر ابنته أن تطيب جنوده ، ثم نادى : يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتى ، فاستشاط لبيب بن عمرو الغسانى شجاعة ، وشد على المنذر فقتله ، ثم قاتل فقتل [٣] .

والمؤرخون مختلفون فى اسم بنت الملك ، أهى هند [٤] أم حليمة [٥] ، ويرجح نولدكه أن حليمة اسم مكان لا اسم امرأة ، مستدلا بما ذكره ياقوت والبكرى [٦] وبأن النابغة يذكر يوم حليمة فى الأيام التى كان يفاخر بها الغساسنة السابقون للحارث ، ويستنتج أن يوم حليمة هو يوم الحيار [٧] ، وهو الذى ذكره الحارث بن حلزة فى معلقته .

وهو الرب والشهيد على يو م الحِيارَيْن والبَلاء بلاء [٨]

وكان ذلك حوالى ٥٤٤ م [٩] .

---

(١) Nicholson P. 82

(٢) يرى نولدكه أنه الحارث بن جبلة (أمراء غسان ٢٢ نولدكه) وهو نفسه الحارث الأعرج (ابن الأثير ١/٢٢٣) (٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٣ (٤) ابن الأثير ١/٢٢٣ وأمراء غسان لنولدكه ١٩ (٥) ابن الأثير ١/٢٢٥ ومجمع الأمثال ٢/٢٠٢ والمعارف ٢٨٠ وأمثال العرب للمضى ٧٩

(٦) معجم ما استعجم للبكرى ٢٨٢ ومعجم البلدان لياقوت ٢/١٣ و٣٢٥ (٧) أمراء غسان لنولدكه ١٩ — ٢٠ (٨) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٦٨ الحياران : بلد ، وقال ابن الأنبارى بلدان ، وقال صاحب القاموس موضع وكذلك قال صاحب اللسان وذكر هذا البيت (٩) أمراء غسان ١٩

والعرب قد ضربوا المثل بيوم حليمة فقالوا : ما يوم حليمة بِسرّ [١] ، والنابغة قد ذكره فى مدح الغساسنة إذ قال فى سيوفهم :

تُخيِّرْن من أزمان يوم حليمة إلى اليوم قد جُرِّبن كل التجارب

وذكر بعض الشعراء فى فخرهم بانتصار الغساسنة فى هذا اليوم أن هند طيبت الجنود ونص على أن حليمة اسم واد :

يوم وادى حليمة وازدلفنا بالعناجيج والرماح الظماء
وأنت هند بالخُلوق إلى من كان ذا نجدة وفضل غناء [٢]

ولما كانت حرب بين إياد وكسرى أنوشروان حمست هند بنت طارق بن بياضة قومها بقولها :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
والمسك فى المفارق مشى القطا النّواتق
إن تقبلوا نعانق ونفرش النّمارق
أو تُدْبروا نفارق فراق غير وامق [٣]

ثم حمست بهذا القول ابنة الفند الزّمانى قومها فى يوم تحلاق اللمم [٤] ، ثم شجعت به عربية قومها فى يوم ذى قار [٥] ، وفى يوم أحد حمست به قريشاً هند بنت عتبة وصواحبها [٦] وحمّسن بقولهن أيضاً .

ضرباً بنى عبد الدار ضرباً حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار [٧]

---

(١) الميدانى ٢/٢٠٢ وأمثال العرب للضبى ٧٩ وتهذيب الكامل ٢/١٦١ (٢) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٣ العناجيج : جياد الخيل والإبل . (٣) معجم ما استعجم ١/٧٠ النواتق : الكثيرات الولادة . (٤) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٣٥ والأغانى ٢٠/١٤٤

(٥) النقائض ٦٤١ ولسان العرب ١٢/٨٧ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١/٥٣٠ والمغازى ٢٠٦ وأشعار النساء للمرزبانى ٥٧ مخطوط وتاريخ الطبرى ٢/١٥٣ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٦٦ . وفى النقائض ٣٦٨ أن يوم ذى قار هو يوم قراقر ويوم الحنو حنو قراقر وحنو ذى قار وهو أيضاً يوم الجبايات وبوم ذات العجرم ويوم الغذوان والبطحاء وكل هذه الأسماء ذكرها الشعراء .

(٦) تاريخ الطبرى ٣/١٥ والفاخر للكوفى ١٩ والمعارف لابن قتيبة ٢٢٣ والأغانى ١١/١٢٠

(٧) سيرة ابن هشام ٣/١٣ والمغازى ٢٢٤ والأغانى ١٤/١٦

وإذا صح أن هند بنت طارق أول قائلة للرجز الأول وأن هؤلاء قد تغنين به فى الحروب ، فانه إذاً تدرج هذا التدريج التاريخى ، لأن النساء أعجبين به فردّدنه فى حرب بعد حرب .

على أنه فى يوم تحلاق اللمم أثارت بنت أخرى للفند الزمانى قومها بقولها :

وغى وغى وغى وغى حَرّ الحِرارُ والتَظَى
ومُلِئْتُ منه الرّبا ياحبذا المحلّقون بالضحا (١)

ولقد كان الإنشاد يصحب أحيانا بتبكيت الفارين ، ففى يوم حضرة الوادى بين دوس وبنى الحارث جعلت البنات الأربع لخالد بن ذى سبلة يحضضن على الثبات والإقدام ، فإذا رجع إليهن رجل فار أعطينه مكحلة ومجمرة وقلن : معنا فانزل . أى أنك من النساء . وجعلت هند ترتجز بقولها .

مَنْ رجلٌ ينازل الكتيبة فذلكم تَزْنو له الحبيبة (٢)

وهذا التحميس كثير فى الجاهلية (٣) ، وبقى إلى صدر الإسلام ، فقد حرضت الخنساء بنيها الأربعة على الاستبسال فى حرب القادسية ، وكان لتحريض النساء أثر عظيم فى حرب على ومعاوية

٢ — وإن الشعر لحافل بتصوير الحماسة التى كانت تتمشى فى نفوس الرجال من الظعائن ، وحافل بالفخر بحمايتهن من السبى ، ولطالما أشهد الشجعان النساء على بلائهم المجيد الذى أبلوا . يقول سلامة بن جندل :

ألا هل أتى أنباؤها أهل مأرب كما قد أتت أهل الدَّبَا والخورنق
بأنا منعنا بالفروق نساءنا ونحن قتلنا من أتانا بمَلْزَق (٤)

ويقول عمرو بن كلثوم فى ذلك أبياته المشهورة :

على آثارنا بِيضٌ حسان نحاذر أن تقسَّم أو تهونا
ظعائن من بنى جُشَمَ بن بكر خلطن بميسم حسباً ودينا

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٣٧ (٢) الأغانى ١٢/٥٣ وفى الأصل تزنى به
(٣) أيام العرب ١٧٩ وشعراء النصرانية ٢٤١ (٤) ديوان سلامة بن جندل ١٦ مخطوط .
ملزق : أرض معينة . الدبى : سوق للعرب . الخورنق : قصر بالحيرة والمراد أهلها

أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا فوارس معلمينا
ليستلبنّ أبدانا وبَيْضاً وأسرى فى الحروب مقرّنينا
إذا ما رحن يمشين الهوينا كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظواعن مثل ضرب ترى منه السواعد كالبُرينا (١)

ويفخر قيس بن الخطيم بأنهم حموا نساءهم من السبى ، وبأنهم انتصروا فى يوم بعاث ، ويعير خصومهم الهزيمة والأسر :

وإنا منعنا فى بُعَاث نساءنا وما منعت مِلْمُخْزيات نساءها (٢)

وهم يتجهون بفخرهم بشجاعتهم وانتصارهم إلى المرأة ، كقول حاجب بن دينار المازنى :

سلى يَشْكُرًا عنا وأبناء وائل لهازمَها طرًّا وجمع الأراقم
ألم تعلمى أنا إذا الحرب شمّرت سهامٌ على أعدائنا فى الحلاقم
عتاةٌ قُراةٌ فى الشتاء مَسَاعِرٌ حُمَاةٌ كُماةٌ كالليوث الضراغم (٣)

ومثل هذا كثير (٤) .

٣ — وكانت المرأة تصحب المحاربين لتضمد جراحهم كما يعمل الآن نساء الصليب الأحمر ورجاله ، ولتسقيهم الماء

وكثيرات هن اللائى نفرن مع المسلمين فى غزواتهم الأولى ، وكان الرسول يغزو بالنساء فيداوين المرضى ويعطين من الغنائم ولكن لم يفرد لهن سهما (٥) . وقد جاءت إليه امرأة فى نساء من بنى غفار وقلن إنهن يردن أن يخرجن معه فى خيبر فيداوين الجرحى ويعنّ المسلمين بما يستطعن . فقال لهن : على بركة الله (٦) ، منهن أم عمارة بنت كعب ، وأم حكيم

---

(١) شرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ٧٦ مخطوط والتبريزى ٢٤٧ الأبدان : الدروع . البرين: جمع برة وهى حلقة فى أنف البعير : وفى التبريزى (القلين) جمع قلة وهى خشبة يلعب بها الصبيان ويضربونها بالقلاء (٢) ديوان قيس بن الخطيم ٦ مخطوط (٣) العقد الفريد ٣/٧٨ (٤) أمية بن الأسكر (البيان والتبيين ١/١٩٢) ودريد بن الصمة (البيان والتبيين ٢/١٠١) والدهان بن جندل (الأغاني ٢٠/١٣٨) وعمرو بن حوط (النقائض ٦٩) والأعشى (الأغانى ٢١/١٤٠)
(٥) المدونة الكبرى للإمام مالك ١/٣٧٠ وسيرة ابن هشام ٣/٣٩٥
(٦) سيرة ابن هشام ٣/٣٩٥

بنت الحارث (١) ، والربيع بنت معوذ (٢) وليلى الغفارية (٣) .

وكانت فى أحد أربع عشرة امرأة يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويقين الجرحى ويداوينهم ، كفاطمة بنت الرسول ، وأم سُلَيْم بنت مِلْحان ، والسيدة عائشة ، وخُمَيْنة بنت جحش ، وأم أيمن (٤) .

ولما انهزم المسلمون كانت عائشة وأم سليم قد شمرتا حتى بدت خلاخيلهما ، وهما تحملان القرب ، وتفرغان الماء فى أفواه القوم ، فإذا فرغت القربة عادتا فملأتاها (٥) . ومنهن أيضاً السُّمَيْرا بنت قيس (٦) ، وكُعَيْبة بنت سعد (٧) وأم سَليط (٨) ، وقد اختصها عمر بمرط جيد وآثرها به على زوجته ، وقال : أم سليط أحق به ، فإنها كانت تحمل لنا القرب يوم أحد (٩) .

٤ — وفى شعر النساء كثير من الفخر بالنصر ، وتعيير للأعداء المنهزمين ، وإشادة بشجاعة الصناديد من العشيرة . تقول عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم فى فخرها بيوم عكاظ أيام الفجار :

سائل بنا فى قومنا ... وليكف من شرّ سماعه
قيساً وما جمعوا لنا ... فى مجمع باق شناعه
فيه السَّنَوَّر والقنا ... والكبش ملتمعٌ قِناعه
بعكاظ يُعْشى الناظرين ... إذا هم لمحوا شعاعه
فيه قتلنا مالكاً ... قَسْراً وأسلمه رعاعه
ومجدلا غادرنه ... بالقاع تَنْهَسُه ضباعه (١٠)

وتغلّب فخار غفيرة الكلبية على عطف الأنثى على الأنثى ، فتحدثت فى زهو بأن قومها قتلوا فتيان قيس ، فتأيمت نساؤهم وقد كن يوشكن أن يتخضبن للزواج ، ووصفتهن بأنهن غبر الألوان من الحزن والفجيعة والمذلة .

---

(١) ألف باء ٢/٢١٠ (٢) الإصابة ٨/٨٠ وفتح البارى ٦/٦٠ (٣) الاستيعاب ٢/٧٨٠
(٤) المغازى ٢٤٦ (٥) فتح البارى ٦/٥٨ و٧/٢٧٩ (٦) المغازى ٢٨٥
(٧) الاستيعاب ٢/٧٧٩ وطبقات ابن سعد ٨/٢١٣ (٨) كنز العمال ٧/٩٧
(٩) الاستيعاب ٢/٨٠٤ وفتح البارى ٧/٢٨٢ وكنز العمال ٧/٩٧
(١٠) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٣٠ وبلاغات النساء ١٩١ . السنور : الدرع أو السلاح . القناع : المراد به البيضة . الرعاع : سفلة الناس . غادرنه : الضمير للخيل . تنهسه : تنزع لحمه

تركنا الطُّلْسَ من فتيات قيس أيامَى بعد تيسير الخضاب
فلم أر للمقادة كالعوالى ولا للثأر كالقوم الغضاب
أراق البَحْدَلِىُّ دماء قيس وألصق خد قيس بالتراب (١)

ووصفت امرأة من الأزد قومها بقولها :

قوم إذا حضروا الهياج فلا ضربٌ ينهنههم ولا زَجْر
خُزْرُ العيون إلى لوائهم يتزيدون كأنهم نُمْر (٢)

وكذلك فخرت امرأة من عبد القيس (٣) ، وفخرت أم الحَباب (٤) . وهنا نلحظ أن النساء كالرجال فى المدح بالشجاعة والرثاء بها ، لأنها فضيلة عظيمة القيمة فى الحياة البدوية ، لذلك آثرها العرب ، وفضلها اليونان القدماء ، فكانوا يرون أن الجندى أكبر خادم للوطن ، فيضفون عليه من الإجلال أكثر مما يضفون على الفنان « وحين أرادوا أن يكتبوا شيئاً على قبر اسخيلوس لم يذكروا مهارته الفنية ، ولكنهم كانوا حراصاً على أن يكتبوا : إنه أبدى شجاعة فائقة فى معركة مرثون » (٥) .

٥ — وما من شك فى أن اشتراك المرأة فى الحرب ، سواء أقادت الجيش أم حاربت أم رافقت المحاربين لتحرضهم وتسقيهم وتداوى جراحهم دليل على شجاعتها ، وتشوقها إلى انتصار قومها ، واعتزازها بسيادتهم وحريتهم وقوتهم ، ودليل على سمو مكانتها فى القبيلة ، لأنها جديرة بأن تشارك الرجال فى الذود عن الحمى ، وفى كسب النصر ، ولو أنها لم تكن جديرة بالمشاركة فى هذا العمل الخطير ما سمح الرجال لها بأن تشاركهم .

ثم إن فى إعجابها بالشجعان وإشادتها بالبطولة والأبطال ، وحرص المقاتلين على نيل إعجابها وثنائها دليلا على عظم أثرها وعلو قدرها .

المرأة تنحى عن الحرب

١ — ليس من الطبيعى أن يستن العرب جميعاً نظاماً واحد ، يأخذون به أنفسهم دائماً ، لأن العرف لا بد أن يتغاير بتغاير الناس ، وكثيراً ما يتخلى عنه الآخذون به فى ظرف من الظروف ، لذلك كان بعض العرب ينحون المرأة عن الحرب .

---

(١) الوحشيات لأبى تمام ٢ مخطوط الطلس : المغبرات من الحزن والذل
(٢) قواعد الشعر لثعلب ١٧ يتزيدون : يسيرون سيراً فوق العنق (٣) حماسة البحترى ٤٥
(٤) ربيع الأبرار للزمخشرى ٩٣ مخطوط (٥) مقدمة الشعر عند أرسطو ٢

ولعل مردّ هذا إلى أن بعضهم كان يدين بأنها لا تصبر طويلا على أهوال الحرب كما يصبر الرجل ، ولأنه كان يحرص عليها ويضن بها أن تصطلى بسعير القتال ونتائجه . ولقد يتجلى إيثارها للعمل المنزلى فى قول امرىء القيس بن عابس الكندى لامرأته .

أيا تمـــــلكُ لا تَمْـــلِ صلينى وذرى عـــذلى
ذرينى وســـــلاحى ثم شَدى الكف بالغزل [1]

وفى قول حريث بن سلمة .

تقول ابنة العَمْرى لما رأيتها تنكرْتَ حتى كدتُ منك أهال
فإن تعجبى منى عُمَيْرُ فقد أتت ليال وأيام علىَّ طـــوال

. . . . . .

ولكنهـــا فى كلّ شتوة وفى الصيف كنٌّ بارد وجمال
تصان وتعلى المسكَ حتى كأنها إذا وَضَعَتْ عنها النصيف غزال [2]

والدليل على أن بعضهم كان لا يصطحب الظعائن أن حاجب بن زرارة استعد للقاء بنى عامر فى يوم رحرحان ، وأرسل إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل ففعلوا ، وأمرهم فحملوا الأهل والمتاع وساروا نحو بلاد بغيض ، ولبث هو مع القوم ينتظر العامريين [3] .

وفى حرب داحس والغبراء قال قيس العبسى : الرأى أننا لا نلقى ذبيان وحلفاءها ، فإننا قد وترناهم ، فهم يطالبوننا بالذحول ، والذى ينبغى أن نفعله أن نرسل الظعائن والأموال إلى بنى عامر ، ويبقى أولو القوة والجلد منا على ظهور الخيل [4] .

ثم أن دُرَيد بن الصِّمة سفه رأى مالك بن عوف حين سارت ثقيف للقاء الرسول فى غزوة حنين ، لما علم أن مالكا ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وسأله دريد فى ذلك فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فهزىء برأيه ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك . فلم يستمع مالك إليه [5] .

كذلك اختلفت قريش وأحلافها ، وهم يزمعون السير إلى أحد ، فرأى صفوان بن أمية أن تخرج النساء مع المحاربين ليحمسنهم ويذكرنهم قتلى بدر ، ووافقه عكرمة وعمرو بن العاص ورأى نوفل بن معاوية أن هذا ليس برأى ، لأنه لا يأمن الهزيمة فتفتضح النساء ، ووافقه

(١) أخبار المراقسة ٩٥ لا تمل : لا تضجرى (٢) البيان والتبيين ٣/١٩٠ (٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٠٣ (٤) أيام العرب ٢٦٥ (٥) تاريخ الطبرى ٣/١٢٦ وسيرة ابن هشام ٤/٦٥

صفوان بن أمية ، فجاء نوفل إلى أبى سفيان يعرض عليه رأيه ، فصاحت هند : إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ، نعم نخرج فنشهد القتال ، فإنه لما ردّت القيان إلى الجحفة يوم بدر قتلتُ الأحبة يومئذ . فقال أبو سفيان : لا أخالف قريشاً فيما أجمعت عليه فخرجوا بنسائهم (١) .

ويتضح من هذا أن النظام الأعم الأغلب كان أن تخرج الظعائن مع المحاربين ، وكان هذا النظام متبعاً حتى عند ترجيح الهزيمة أو التخوف منها ، فى حرب بعيدة عن الديار .

٢ — وسواء أكان إبعاد المرأة عن الحرب خوفا عليها من عواقب الهزيمة ، أم ظنا من بعض الرجال بمعجزتها عن البلاء ، فإن الاسلام لم يشجعها على أن تحارب . فقد قالت السيدة عائشة للنبي : يارسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور (٢) ، وله فى هذا أحاديث شتى (٣) .

وفى غزوة خيبر خرجت أم زياد الأشجعية سادسة ست نسوة ، فقال لهن النبي : باذن من خرجتن ؟ وظهر فى وجهه الغضب ، فقلن : خرجنا ومعنا دواء نداوى به الجرحى ، ونتناول السهام ، ونسقى السّويق (٤) .

ولما استأذنته أم كَبْشَة القضاعية أن ترافق جيشه ، قال : لا ، قالت : إنى لست أريد أن أقاتل ، إنى أريد أن أداوى الجرحى والمرضى وأسقى الماء . قال : لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن اجلسى ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يغزو بامرأة (٥) . ولم يأذن لأم ورقة بنت عبد الله أيضاً ، وقال لها : قرى فى بيتك فإن الله يرزقك الشهادة (٦) .

ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم أباح للنساء أن يصحبن الجيوش فى بعض غزواته ليسقين الماء ويداوين الجراح ، فلما قوى الإسلام وكثر عدد المسلمين آثر أن تقر النساء فى بيوتهن ، اكتفاء بالرجال فى الحفاظ ، وصيانة للمرأة عن أهوال المعارك ، وإيثارا لأن تفرغ لشئون الأسرة ، وإبعادا لها عن الاسترجال .

---

(١) المغازى ٢٠٠ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩

(٢) فتح البارى ٦/٣ والطبقات ٦/٧٩ (٣) فتح البارى ٦/٥٧ والطبقات ٦/١٦٥ و٨/٥٠

(٤) الإصابة ٨/٢٣٥ (٥) الإصابة ٨/٢٧٠ (٦) الإصابة ٨/٢٨٩

المرأة رسول سلام

إذا ما ذكرت المرأة بدرت إلى الذهن صفات الأنثى من رقة ولين وعطف وشفقة وحنان ، فهل كانت المرأة الجاهلية حجراً صلدا لاحنو فيه ولا إشفاق ؟ هل كانت المرأة العربية دائما تسعر الحروب وتوقد الضغائن وتؤرث العداوات ؟ هل غفلت عما تجره الحروب عليها من ثكل ويتم وترميل وأحزان ؟ وعما قد يصيبها من سبي ومذلة وهوان ؟ .

لا . وإنما عاشت فى بيئة تتوالد حروبها ، وتتفاقم منازعاتها ، فلم تستطع إلا أن تندفع فى تيار الرجال .

وهل كان يجديها أو يجدى الرجال أن تتخلف عنهم حيث تستطيع أن تقدم العون وتذكى الحماسة وتسهم فى القتال ؟ وهل كان الرجال يصيخون إلى صوتها الحنون الرقيق يدعوهم إلى السلام ، ويجيب إليهم الوئام ، وهم يثقون أن أعداءهم ينتهزون منهم الغرة ليكروا عليهم كرة بعد كرة .

نتعسف إذا ما لمنا المرأة على مشاركتها فى الحروب ، ونتجنى عليها إذا ما انتقصناها لأنها لم تحمل غصن الزيتون فى عالم يتلهب كالأتون .

وها هى ذى المرأة المعاصرة تدعو إلى السلام فى عصر الحضارة الزاهية ، فلا يستمع لها الحاكمون ، وقد بحت أصوات الدعاة إلى السلام من العلماء ورجال الدين ، وليس لدعواتهم من الأثر إلا ما للصوت يردد صداه ، ثم تبتلعه البيداء أو يخنقه الفضاء .

ومع ذلك فلم يخل تاريخ المرأة العربية من جهد بذلته للنشر لواء السلام ، فإنه لما تزوج الحارث بن عوف بهيسة بنت أوس الطائى رفضت أن يقربها وقالت له : لقد ذكرت لى من الشرف ما لا أراه فيك . قال : وكيف ؟ قالت أتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً — وكان ذلك فى حرب عبس وذبيان — قال : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك . فخرج وسعى بين القوم بالصلح ، وحمل الديات هو وهرم بن سنان ، وقد مدحهما بذلك زهير بن أبى سلمى [1] .

كذلك أسلفت فى دراسة (البنت) أن الجمانة بنت قيس بن زهير العبسى أصلحت بين أبيها وجدها لأمها .

وأسلفت فى الفصول السابقة أن المرأة كانت تجير ، والإجارة ضرب من كف القتال ودرء الفتنة .

---

(١) الأغانى ٩/١٤٣

الفصل الخامس

السبايا والإماء

السبايا

طبيعى أن تنكشف الحرب عن قتلى وجرحى وسبايا وأسرى ، وما زال هذا ديدن الحرب إلى العصر الحاضر .

وربما كان العرب أحرص على الأسر والسبى من حرصهم على الغنائم الأخرى ، لأن فى الأسر والسبى إذلالا للعدو وقهراً ، ولأنهم ينتفعون بالأسارى والسبايا ، فهم يبادلون بهم أساراهم تارة ، ويأخذون فداءهم تارة ، ويستخدمون الأسرى فى العمل عبيداً ، ويتزوجون السبايا بغير صداق ، ويستولدونهن . وهم إلى ذلك كله كلفون بأن يفخروا بأنهم أثخنوا فى عدوهم ، وظفروا به ، وليس بعد الأسر والسبى دليل على مقدرتهم وصولتهم .

ولقد يحرضهم على السبى أنه انتقام ، وجزاء بالمثل ، يؤيد ذلك قول المرعّش الكلبى :

لو كنتَ حراً كريما ذا محافظة ... ما نمتَ إلا ونار الحرب تشتعل

حتى تساق نساء سَوْقَ نسوتكم ... بما أصابكم أو يُبْلَغ الأجل (١)

ولما افتخر عامر بن الطفيل بأنه سبى امرأة من عبس ثم من بنى سكين — وقد استردها قومها بعد أيام — رد عليه عروة يعيره سبيه ليلى بنت شعواء الهلالية ، وحسناء :

إن تأخذوا أسماء موقف ساعة ... فمأخذ ليلى وهى عذراء أعجب

لبسنا زماناً حُسْنَها وشبابها ... ورُدَّتْ إلى شَعْواءَ والرأس أشيب

كمأخذنا حسناء كرها ودمعها ... غداة اللوى معصوبةٌ يتصبب (٢)

السبى نظام عام

وقد حدث السبى كثيراً ، حتى لتخولنا هذه الكثرة أن نذهب إلى أنه نظام عام متواضع عليه . ولا نستثنى من ذلك إلا أهل مكة ، لأنهم كانوا آمنين ، فلم تُسْبَ قرشية قط فتوطأ

(١) حماسة البحترى ٣٣ (٢) الأغانى ٢/١٨٧ ساسى

قهراً أو تجال عليها السهام : قال حرب بن أمية يرغب الحضرمى فى نزول مكة — ويكنى أبا مطر — :

أبا مطر هلم إلى صلاح فيكفيك الندامى من قريش
وتنزل بلدة عزت قديما وتأمن أن يزورك رب جيش (١)

وتكفى هذه الأمثلة لشيوع السبى : فقد أغار قيس بن زهير العبسى على بنى يربوع ، فأصاب ابنتى قِرْواش بن عَوْف ومائة من إبله (٢) . وأغار بَسْطام بن قيس على بنى مالك ابن حنظلة ، فأخذ نسوة فيهن أم أسماء بن خارجة . وهاج أبو جُنْدب بن مرة خلعاء بكر وخزاعة على بنى لَحْيان ، فقتل منهم وسبى من نسائهم وذراريهم سبايا (٣) . وأغار الهُذَيْل بن هُبَيْرة التغلبى على بنى يربوع ، فقتل فيهم قتلا ذريعاً ، وأصاب نعماً كثيراً ، وسبى سبياً كثيراً (٤) . وفى يوم جَدُود أغار الحارث بن شريك الشيبانى فى بكر بن وائل على بنى ربيع بن الحارث فأصابوا سبياً ونعماً (٥) . وفى يوم النِّسار سبيت نساء كثيرات من شريفات بنى عامر (٦) . وفى يوم الزُّوَيْرِين بين بكر بن وائل وتميم اجترفت بكر أموال تميم ونساءهم ، ووصل الحوفزان بن شريك إلى من بقى مُن النساء اللائى خلفهن الرجال وساروا عنهن للقتال فأخذ جميع ما خلفوه من نساء وأموال (٧) . وكان السبى هدفاً مرموقاً ، يدل على ذلك أن عامر ابن الطفيل قال لبنى عامر يوم فيف الريح — بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب — :

أغيروا بنا عليهم فإنى أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسبى نساءهم (٨) .

الفخر بالسبى والتعيير به

أما فخرهم بالسبى فكثير جداً ، لأنه الآية على القدرة والظفر بالخصم ، ولأنه مضاعفة لزهور الغالب ونشوته بالغلب ، ثم إنه إرهاب للآخرين الذين قد تسول لهم قوتهم أن يحاربوا هؤلاء الأقوياء الغلابين ، وكثيراً ما يتصل بالفخر تعيير . يقول طفيل الغنوى فى رده على زيد الخيل وقد أدرك بنو عامر ثأرهم من طيء :

وقتلنا سَراتهم جهاراً وجئنا بالسبايا والنِّهاب

(١) معجم البلدان ٨/١٣٧ صلاح : اسم لمكة (٢) النقائض ٨٤ (٣) النقائض ٧٥
(٤) الأغانى ٢١/٤٧ (٥) النقائض ٧٠٣ (٦) النقائض ٣٢٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٢
(٧) النقائض ٢٤٢ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٥ بين بنى تميم بن مر بن أد وبنى عامر بن صعصعة وبين الرباب (تيم وعدى وثور أطحل وعكل بنى عبد مناة بن أد وضبة بن أد) وحلفائهم ظبى وغطفان
(٨) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٠ (٨) النقائض ٤٦٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٣١

سبـــايا طيء أُبْرِزْنَ قَسْراً وأُبْدِلن القصـــور من الشِّعاب
سبـــايا طيء من كل حى بمن فى الفرع منها والنِّصاب (١)

ويقول الحارث بن حلزة .

ثم ملنـــا على تميم فأَحْرَمْنـــا وفينـا بنـات مُرِّ إماء (٢)

ويفخر قيس بن الخطيم بصونهم نساءهم فى يوم بعاث ، وبسبيهم نساء الخزج :

وإنا منعنا فى بعاث نســـاءنا وما مَنَعَتْ مِلْخُزيات نساءها (٣)

وعير زهير بن جناب التغلبيين بقوله :

تبّـا لتغلب أنْ تساق نساؤهم سوق الإماء إلى المواسم عُطَّلا (٤)

وبقوله :

وسبينا من تغلب كل بيضـا ء رقودِ الضحا بَرُودِ الرضـــاب (٥)

وباهى الأفوه الأودى بأنهم سبوا حسانا لم يستطع رجالهن أن يحموهن ، وأنهم مشوا بهن يناغين العبيد ، وعليهن ملابسهن الطويلات الذيول تتدلى على أطراف النوق ، دلالة على ترفهن :

فأبنا بِحُورٍ كالظباء وجامـــل ولم يمنع البيضَ الحسانَ بعولها
تناغى العضاريطَ المشاةَ خرائدٌ تُمَسِّحُ أطراف القلاصِ ذيولها (٦)

وكذلك باهى عنترة بسبيهم من بنى ضبة وتميم :

فخلُّوا لنـا عُوذَ النســـاء وجَبَّبُوا عبابيدَ منهم مستقيمٌ وجامح (٧)

وهم يفخرون بأن السبايا حسان منعمات ، يقول زهير بن جناب فى تعييره بنى تغلب :

وسبينا من تغلب كل بيضـــا ء رقود الضحا برود الرِّضاب (٨)

---

(١) الأغانى ١٦/٥١ (٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٦٧ لما بلغنا الحساء ملنا على تميم فلما صرنا فى بلادهم دخلنا فى الأشهر الحرم فكففنا عن قتالهم وقد سبينا بناتهم قبل دخول الأشهر الحرم .
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٤ (٤) الأغاني ٢١/٦٤ وأخبار المراقسة ١٥ (٥) الأغانى ٢١/٦٥ وأخبار المراقسة ١٦ (٦) ديوان الأفوه الأودى ١٧ مخطوط . جامل : قطيع من الجمال برعاته . العضاريط : العبيد والأجراء والخدم (٧) ديوان عنترة ٤٤ عبابيد ويروى عباديد وهما بمعنى يقال ذهبوا عبابيد وعباديد أى متفرقين . جبّبوا : فروا . مستقيم وجامح : بعضهم على الطريق وبعضهم عدل عنه وضل (٨) الأغانى ٢١/٦٥ وأخبار المراقسة ١٦

وبأنهن حسيبات شريفات ، لأن هذا أدل على السطوة ، وعلى نفاسة الغنيمة ، وأشد إيلاما للعدو ، كقول الأسود بن يعفر فى ابنه الجراح ، وكانت أمه أخيذة ، سباها الأسود من بنى نهد فى غارته عليهم :

فآباء جـرّاح ذؤابـة دارم وأخوال جراح سَراة بنى نهد (١)

وبالسباء والسبايا افتخر طرفة (٢) ، وعامر بن الطفيل (٣) ، وزيد الخيل (٤) ، وعروة ابن الورد (٥) والأعشى (٦) .

المدح بالسبى

١ — مدحوا القادرين على السباء كما فخروا بالسباء ؛ لأنهم بهذا المدح يضاعفون من سطوة الممدوح ومن لذته بالنصر ، فالأعشى يقول فى مدح قيس بن معد يكرب إنه أذل أحياء كثيرة ، وسبى نساءهم ، وفيهن الغانية المترفة الممتلئة الجسد ، حتى إنها لضخامتها تأزر بثوبين قد لفق أحدهما على الآخر ، وهى جميلة جداً تعلق التمائم وقاية من الحسد ، ولا تقوم من فراشها لتشرب الغبوق إلا ضحا ، وقد فجعها قيس فى أهلها ، وسباها واستمتع بها :

فيا رب ناعمـة منهـم تَشُدُّ اللِّفَـاقَ عليها إزارا
تَنُوط التَّمِيمَ وتأبى الغبـو قَ من سِنَة النوم إلا نهارا
ملكتَ فعانقتَهـا ليـلة تَنُصّ القُعودَ وتدعو يَسارا (٧)

ولم تشذ المرأة عن الرجل ، فمدحته بالسبى كما يمدح الرجل ، قالت جنوب الهذلية فى رثاء أخيها عمرو :

والمخرجُ العاتقَ الحسناءَ مُذْعَنَـةً فى السبى ينفحُ من أردانها الطيب (٨)

وقالت الخنساء فى رثاء صخر :

وسَـبْيٍ كآرام الصّريم حويتَـه خلالَ رجالٍ مستكينٍ عواطلُه (٩)

---

(١) الأغانى ١١/١٣٣ (٢) ديوان طرفة ١٢٨ وشعراء النصرانية ٣١٣
(٣) ديوان عامر القصيدة ٢ (٤) الأغانى ١٦/٥٥ (٥) ديوان عروة ١٩
(٦) ديوان الأعشى الكبير ١٣ تحقيق محمد حسين
(٧) ديوان الأعشى الكبير ٤٩ اللفاق : ثوبان يلفق أحدهما بالآخر . الإزار : الملحفة وكل ما ستر. تنوط : تعلق . تنص : ترفع وتظهر . يسار : شعار لهم بالخير (٨) رياض الأدب ٧٨ (٩) ديوان الخنساء ٢٠٠ آرام الصريم : ظباء بيض فى كثيب من الرمل . خلال رجال : جعلتهن فى رجالك . مستكين عواطله : قد ذللن وفقدن حليهن

٢ — فمن الطبيعى — والسبى مفخرة للسابى ومعرة للسَّبْى — أن يستميت الرجال فى الحرب حتى لا يهزموا فتسبى نساؤهم .

يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض كرام ... نحاذر أن تقسَّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا ... إذا لاقوا فوارسَ معلمينا
ليستلبنَّ أبدانا وبيضا ... وأسرى فى الحديد مقرَّنينا
إذا مارحن يمشين الهوينا ... كما اضطربت متونُ الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائنَ مثلُ ضرب ... ترى منه السواعد كالقُلينا (١)

ولذلك كان من مفاخر الرجل أن يقى النساء السبى ، يقول الشَّنَمَرْدَل بن شَرِيك فى رثاء أخيه وائل :

اذا استعبرت عوذُ النساء وشَمَّرت ... مآزرَ يومٍ لا تُوارَى خلاخله
وثقن به عند الحفيظة فارعوَى ... إلى صوته جاراته وحلائله (٢)

ومدح خُرَيْب بن الحرب التيمى بنى لجيم ، لأنهم حموا العربيات من السبى يوم ذى قار :

وإن لُجَيْما أهل عز وثروة ... وأهل أيادٍ لا يُنال قديمُها
هم منعوا فى يوم قار نساءنا ... كما منع الشَّوْلَ الهجانَ قرومُها (٣)

وكان لقيط بن يَعْمُر قد حذر إيادا بعد هزيمتها للفرس فى دير الجماجم قبل موقعة ذى قار بقوله :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيُراً ... على نسائكم كسرى وما جَمَعاً (٤)

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٤٧ القلون : جمع قلة وهى الخشبة التى يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلاء (٢) الأمالى لليزيدى ٣٤ والأغانى ١٢/١١٣ ومراث وأشعار لليزيدى ٨١٦ مخطوط . عوذ النساء : جمع عائذ وهى الأنثى الحديثة النتاج (٣) الأغانى ٢٠/١٤٠ الشول : جمع شائلة وهى من الإبل ماأتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر خف لبنها . الهجان : الإبل البيض أو الكرام الجياد . القروم : جمع قرم وهو الفحل من الإبل (٤) الأغانى ٢٠/٢٤

استخلاص السبايا

تتفانى القبيلة فى حماية نسائها حين يدوى نفير الحرب ، ويعظم تفانيها إذا سبيت نسوة منها . عندئذ تنفر القبيلة كلها سراعا إلى الميدان لاستخلاص السبايا ، ويقدم كل فرد حياته ثمنا لشرف القبيلة وتخليص نسائها من أيدى أعدائها ، يقول طرفة بن العبد :

ونحن إذا ما الخيل زايل بينها ... من الطعن نَشّاجٌ مُخِلٌّ ومُزْعِفُ
وجالت عذارى الحى شتى كأنها ... تَوالِى صُوارٍ والأسنةُ تَرْعَفُ
ففئْنَا غَداةَ الغبِّ كلَّ نَقيذةٍ ... ومنا الكمىُّ الصابر المتعرِّف (١)

وكذلك فخر زيد الخيل بأنه استعاد السبايا اللاتى كانت فزارة وغطفان قد أخذتها منه ومن نبهان :

لقد علمت نَبْهان أنى حميتها ... وأنى منعت السبى أن يتبددا (٢)

وافتخر طفيل الغنوى بأنه تخلص السبايا ، ولام بنى جعفر على ضعفهم :

فنحن منعنا يوم حَرْسٍ نساءكم ... غداة دعانا عامرٌ غيرَ مُؤْتَل
رددنا السبايا من نُفَيْلٍ وجَعْفر ... وهن حبالى من مُخِفٍّ ومُثْقل (٣)

وبحسب الرجل شرفا أن يحمى المرأة من السبى أو يتخلصها من سابيها ، وقد ضرب المثل بربيعة بن مكدم ، لأنه حمى الظعائن ، ويزعم الرواة أنه حماهن وهو ميت ، فقد هجم بنو سليم يطلبون دماءهم من الحارث بن مكدّم وربيعة بن مكدم الكنانى ، فلقوا ظعائن من كنانة ، فأرادوا أن يسبوها ، فمانعهم ربيعة فى فرسان معه ، فشدعليه نبيشة بن حبيب السلمى فرماه فى عضده ، فلحق بالظعن يستدمى ، حتى انتهى إلى أمه ، فقال : اجعلى على يدى عصابة ، وهو يرتجز بقوله :

شدى علىّ العصبَ أم سَيّار ... فقد رزيتُ فارسا كالدينار
يطعن بالرمح أمام الأدبار

---

(١) ديوان طرفة ١٢٧ زايل : فرق . نشاج : طعن يخرج الدم بصوت . مخل : ينزف الدم ويهزل الطعين . مزعف : قاتل . توالى صوار : أواخر قطيع من البقر . شبه العذارى حين جلن فزعات بقطعان بقر يتبع بعضها بعضاً . فئنا : رددنا . غداة الغب : غداة اليوم التالى ليوم الحرب . النقيذة : ما يستنقذ من الأعداء . المتعرف : الذى يبحث عن الرئيس ويتعرفه ليحمل عليه

(٢) الأغاني ١٦/٥٣

(٣) ديوان طفل الغنوى ٣٧ مخف : لم يثقل بطنها . مثقل : عظم بطنها .

وشدت عليه أمه عصابة ، فكرّ على القوم وهو ينزف حتى أثخنهم وكشفهم ، وقال للظعائن: أسرعن ركابكن حتى ينتهين إلى أدنى البيوت من الحى ، وسوف أقف دونكن لهم على العقبة فأعتمد على رمحى فلا يقدمون عليكن ، ففعلن ذلك ، واعتمد على رمحه واقفاً على متن فرسه حتى بلغت النساء مأمنهن ، وما يقدم عليه أحد خشية منه ، ثم رموا فرسه لما رأوه مائل العنق ، فقمصت ، فمال عنها ميتاً ، فأسرعوا وراء النسوة فلم يلحقوهن . قال أبو عمرو بن العلاء إنه لا يعلم قتيلا حمى الظعائن غير ربيعة [١] . وقد مدحه كثير من الشعراء ، وضرب العرب به المثل . يقول دريد بن الصمة :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارساً لم يُقْتَل [٢]

ولقد كان استخلاص السبايا مجدا يفخر به الذرارى وإن بعدوا ، ففى يوم الحِدَاب سَبَتْ قيس عيلان نساء من سليط ، فأدركتهم بنو الخطَفى وبنو ثعلبة فاستنقذوا السبايا ، وإلى ذلك يشير جرير بقوله :

لقد جُرِّدتْ يومَ الحِداب نساؤهم فساءت مَجاليها وقلت مهورها [٣]

ومن الطبيعى أن تكون المرأة أعظم لهفة على إنقاذ السبايا ، وأن تبتهج بتخلصهن وتشيد بمخلصهن ، لأنها تعلم ما تقاسى السبية من آلام السبى والغربة والحنين إلى الأهل ، لهذا شادت عمرة بنت دريد بن الصمة فى رثام أبيها بفكه السبايا :

ورب كريمة أعتقتَ منهم وأخرى قد فككت من الوِثاق [٤]

وكان دريد قد قال لربيعة السلمى لما ضربه بسيفه : إذا أتيت إلى أمك فقل لها إنك قد قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك . فلما رجع إلى أمه أخبرها ، فقالت له : لقد أعتق قتيلك ثلاثا من أمهاتك [٥] .

ومدحت الخنساء أخاها صخراً بأنه فكاك السبايا :

ردّاد عادية فكّاك عانية كضيغم باسل للقَرْن هَصّار [٦]

وقالت :

وبيضٍ منعت غداة الصبا ح تُكَشِّفُ للرَّوع أذيالها [٧]

---

(١) الأغانى ١٤/١٢٦ ومجمع الأمثال ١/٢٠٣ (٢) الأمالى ٢/٢٧٠
(٣) النقائض ١٣ (٤) الأغانى ٩/١٥ (٥) معجم البلدان ٥/١٣٨
(٦) ديوان الخنساء ١٣٦ (٧) الديوان ٢٠٩

إعتـــاق السبـايا

١ — أطلق العرب الأسرى أحيانا بغير عوض ، إكراما لشاعر يشفع ، كما أطلق الحارث بن أبى شمر أسرى بنى تميم وفيهن شاس بن عبدة ، لما شفع فيهم علقمة ومدحه بقصيدته ، بل إنه أطلق الأسرى وكساهم وحباهم وزودهم زادا كثيراً (١). وأحيانا كانوا يطلقون الأسير بعد جز ناصيته ، كما فعل الحارث بن عُبَاد بمهلهل (٢) .

كذلك كانوا يعتقون النساء ، كرامة لشفيع ، أو زرعا لجميل ، أو عفوا بعد مقدرة . فقد أكرم يزيد بن عبد المدان دريد بن الصمة ، وردّ عليه سبايا رجل من ثُمالة كان جارا لأخيه عبد الله ثم جارا له ، فقال دريد فى مدحه :

مدحت يزيد بن عبد المدان ... فأكرمْ به من فتى مُمْتَدَح
إذا المدح زان فتى معشر ... فإن يزيد يزين المـــدَح
وردّ النســـاء بأطهارها ... ولو كان غير يزيد فَضَـــح
وقلت له بعد عِتق النســـاء ... وفك الرجال ورد اللِّقَـــح
. . . . . (٣)

ولما انتصر زهير بن جناب على غطفان قتل منهم وأسر ، ثم رد لهم النساء والأولاد وأخذ الأموال (٤) وقال :

فلم تصبر لنا غطفان لمـــا ... تلاقينا وأُحْرِزَت النســـاء (٥)

وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة فى الجاهلية ومثلها فى الإسلام (٦) .

وإذا كان السبى مفخرة للسابى فقد كان إطلاق السبايا مفخرة أيضا ومأثرة يمدح بها ، فإنه لما أغار الحصين بن الحُمَام على بنى عقيل وبنى كعب أثخن فيهم واستاق نعما كثيراً ونساء وكان فيهن أسماء بنت عمرو سيد بنى كعب ، ثم أطلقها الحصين ومنّ عليها ، وقال فى ذلك :

تركنا من نســـاء بنى عُقَيْل ... أيامى تبتغى عقد النـــكاح
فأبنا بالنِّهـــاب وبالسبايا ... وبالبيض الخرائد واللِّقـــاح

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٤ والمعارف ٢٨٠ (٢) ابن الأثير ١/٢٢٠
(٣) الأغانى ٩/١٨ (٤) ابن الأثير ١/٢٢٦ (٥) ابن الأثير ١/١٧٩
(٦) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ١/٤٩

وأعتقنا ابنة العَمْرِيِّ عمـــرو وقد خضنا عليها بالقـــداح (١)

وفى يوم أُوراة الأول ذبح المنذر بن ماء السماء أسرى بنى بكر بن وائل وأحرق بعض السبايا ، فكلمه رجل من قيس بن ثعلبة فى شأن الباقيات من السبايا فأطلقهن ، فقال الأعشى يفتخر بشجاعة هذا القيسى :

ومنا الذى أعطاه بالجمـــع ربُّه عـــلى فاقةٍ والملوك هِباتُهـــا
سبايا بنى شَيْبـــان يوم أُوارةٍ على النار إذ تُجْلَى به فتياتهـــا (٢)

وقد مدحت عمرة بنت دريد بن الصمة أباها بفكه سبايا بنى سليم :

ورب كريمـــة أعتقت منهـــم وأخرى قد فككت من الوثاق (٣)

وكانت القبائل الفقيرة الضيقة المراعى القليلة الأنعام لا تجد ما تفتدى به سباياها وأسراها فتعتمد على كرم السابى ، وتنتظر إطلاقهن بغير فداء (٤) . أو تتحين الفرص لتسترد سباياها بالقوة ، وتثأر من خصومها .

٢ — وفى الإسلام كان ذلك ، فإنه لما سبى رسول الله سبيا كثيراً من هوازن أتى وفدهم إليه مسلمين ، ورجوا منه أن يمن عليهم ، وقال أحدهم يارسول الله : إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك — يشير إلى حاضنته من بنى سعد وهم من هوازن — ولو أنا أرضعنا للحارث بن أبى شِمْر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه ، وأنت خير المكفولين . فقال رسول الله : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحب إلينا . فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وأشار عليهم أن يتشفعوا به إلى المسلمين ويتشفعوا بالمسلمين إليه . ففعلوا ، وتنازل المهاجرون والأنصار إلا الأقرع بن حابس وبنى تميم ، وعيينة ابن حصن وبنى فزارة ، وعباس بن مرداس . فقال رسول الله : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبى أصيبه (٥) .

٣ — وبهذا التسريح الذى لاعوض فيه امتاز العرب والمسلمون من الأمم الأخرى ، لأن العبرانيين كانوا يطلقون أرقاءهم بعد أن يتموا فى الرق ست سنوات ، وكان الأثينيون يطلقون

---

(١) الأغانى ١٢/١٢٢ وشعراء النصرانية ٧٤٥ اللفاح : الإبل الحديثة النتاج
(٢) ديوان الأعشى (٣) معجم البلدان ٥/١٣٨
(٤) Women in the Aiyam Al arab. P. 69 (٥) سيرة ابن هشام ٤/١٣٤
وصحيح البخارى بشرح الكرمانى ١١/٩٠ والكامل لابن الأثير ٢/١٠٢

أسراهم إذا ما أدوا ثمن الإطلاق . ولم يعطف عليهم الإسبرطيون بمثل هذا التسريح العوضى ولم ينيلوهم حقاً من حقوق البشر ، بل كانوا إذا زاد عدد الأرقاء من الأسر والشراء قتلوهم غير مستبقين إلا من يحتاجون إليه (١) .

إطلاق السبايا بعوض

جرى الأقوياء من العرب على أنه من العار أن يستردوا السبايا بمال ، لأن هذا دليل الضعف ، فلاهم قادرون على استخلاصهن واستنقاذهن عنوة ، ولا هم قادرون على استرجاعهن بغير مال ، سواء أكان ذلك بالانتقام من أعدائهم وجزائهم سبياً بسبي ، أم بإطلاق السابى للسبايا تكريماً لقومهن أو لمن يشفع فيهن . لذلك عير سويد بن أبى كاهل بنى شيبان بأنهم اشتروا نساءهم من بهراء التى أغارت عليهم .

ظللن ينازعن العضاريط أُزْرها وشيبانُ وسط القُطْقُطانة حُضَّر (٢)

١ — على أنهم كانوا يمارسون فداء الأسرى والسبايا ، وكانت لهم نار تسمى نار الفداء ، يوقدونها إذا طلب منهم الفداء كراهة أن يعرضوا النساء نهاراً لئلا يفتضحن (٣) .

من ذلك أن أَنَس بن مدركة الخَثْعَمى أغار على ناس من ثُمالة كانوا جيراناً لدريد ابن الصمة ، وغنم وسبى ، وذهب ، بسبيه وغنائمه إلى نجران ، فذهب دريد إلى يزيد بن عبد المدان بنجران ، ليرد عليه ما سلب أنس ، وجاء فى قصيدته ليزيد طلبه رد السبايا بالمن أو بالفداء :

بنى الديان ردوا مال جـــارى وأسرى فى كبولهم الثقال
وردوا السبى إن شئتم بمـــنٍّ وإن شئتم مفاداةً بمال (٤)

٢ — ولم أعثر فيما قرأت على مقدار ما كان يدفع فداء للمرأة إلا فى مرة واحدة ، هى أن أجر ابن جابر العجلى فادى أخته حسينة من عمرو بن الحارث بمائة من الإبل وخمسة أفراس (٥).

أما فداء الرجل فقد ذكر مرات ، فأحيانا كان خمسمائة من الإبل ، وقد كانت فداء الحاجب بن زرارة لما أسره العامريون والعبسيون يوم شِعب جبلة . وكان أحياناً مائتين دفعت فداء لعمرو بن عمرو (٦). وفى يوم السُّلّان أسر العامريون وبرة بن رومانوس الكلبى

(١) دائرة المعارف للبستانى ٦٩٦/١ (٢) الأغاني ١٦٦/١١ العضاريط : الأجراء والخدم . القطقطانة : موضع (٣) مطالع البدور ١٨/٢ (٤) الأغانى ١٧/٩
(٥) أشعار النساء للمرزباني ٥٧ ــ ٥٩ (٦) الكامل لابن الأثير ٢٤٤/١

أخا النعمان بن المنذر لأمه فافتدى بألف بعير وفرس [١] . وفى يوم طَخْفة بين بنى يربوع وجيش النعمان بن المنذر انهزم جيشه ، وأسر بنو يربوع القائدين قابوس بن النعمان وحسان ابن المنذر ، ثم أطلقوهما ، فأعطى النعمان بنى يربوع ألفى بعير وأبقى لهم الرفادة [٢] .

وقد فدى بسطام بن قيس نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً وبهودج أمه [٣] ، وفى رواية أخرى أن عتيبة بن الحارث قال لبسطام — وقد عاب بسطام هودج أمه — أما واللات والعزى لا أطلقك حتى تأتينى أمك بكل شىء ورّثك قيس بن مسعود ، وبجملها وحدجها ، فأتته أم بسطام على جملها وحدجها وبثلاثمائة بعير [٤] .

وقدم سيار بن عمرو الفزارى للأسود بن المنذر دية ابنه الذى قتله الحارث بن ظالم ألف بعير وهى دية الملوك ، ورهنه بها قوسه وفى ذلك يقول قراد بن حنش الصاردى :

ونحن رهنا القوس ثمت فُودِيَتْ ... بألفٍ على ظهر الْفَزارى أقرعا
بعشر مئينٍ للملوك سعى بها ... ليوفى سيار بن عمرو فأسرعا [٥]

هذا التفصيل الذى نجده فى فداء الأسير لا نجد مثله فى فداء السبية ، وكل ما نعلم أن سابيها كان يتقاضى قدراً من المال ليطلقها .

فقد أغار قيس بن زهير بن جذيمة العبسى على بنى يربوع ، فلم يصب غير ابنتى قرواش ابن عوف ومائة من الإبل لقرواش ، ثم اتفق قيس أن يرد ما أخذ ويُعْطى فرساً . فلما رأى أصحابه ذلك قالوا : لا نصالحك أبداً ، أصبنا مائة من الإبل وامرأتين ، فعمدت إلى غنيمتنا فجعلتها فى فرس لك تذهب به دوننا . فاشترى منهم غنيمتهم بمائة من الإبل [٦] .

والذى يوحى به النص أن نصيب أصحاب قيس كان مائة من الإبل عوضاً عن نصيبهم من الغنيمة كلها ، وهى مائة من الإبل وامرأتان . وليس يفهم منه قيمة فداء المرأتين وحدهما .

---

(١) ابن الأثير ١/٢٣٤ (٢) ابن الأثير ١/٢٧٣ (٣) النقائض ٣١٦
(٤) النقائض ٧٦ و٣١٦
(٥) بلوغ الأرب ٣/٢٢ قال ابن عبد ربه فى العقد إن سيار بن عمرو بن جابر الفزارى احتمل للأسود بن المنذر دية ابنه الذى قتله الحارث بن ظالم ألف بعير وهى دية الملوك ورهنه بها قوسه فوفى وكان هذا قبل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة فى مقاتل الفرسان إن أخا سيار لأمه الحارث ابن أبي سفيان الصاردى تكفلها للأسود بن المنذر فقام منها بثمانمائة ثم مات فرهن سيار قوسه على المائتين. فلما مدح قراد بن حنش بنى فزارة جعل الدية كلها لسيار . (٦) النقائض ٨٤

٣ — وسنعرف أن الإسلام أقر إطلاق السبايا بعوض .

وبهذا الإطلاق المالى تميز العرب فى الجاهلية وتميز المسلمون على الرومان ، ذلك بأن الرومان كانوا يطلقون العبيد بالمكاتبة وبالتدبير ، ولكن العتق لا يتحررون الحرية الكاملة ، بل يبقون خاضعين لسيادة مولاهم ، فإذا افتقر السيد أو أملق أبوه أو أمه كان على المعتق أن يعود إلى الرق ، أو أن يقوم بأود المملق ، وإذا أهان العبد سيده بعد عتقه جاز له أن يسترده (١) .

بغض المرأة للسبى

اعتزت المرأة بحريتها كما اعتز الرجل ، وأبغضت السبى كما أبغض الأسر ، لأن فى سبيها إذلالا لها وتغريباً ، وحرماناً من الوطن ومن الأهل ، وقسراً على معيشة لا ترضاها مهما تكن معززة مكرمة .

وقد تجلت كراهيتها للسبى فى عدة مظاهر :

١ — كانت إذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافراً ، ليحسبها الغالبون أمة فيخلوها ، وهى تعلم أنهم يقصدون الحرائر ويريدونهن . قال سَبْرة بن عمرو الفَقْعَسى :

ونسوتكم فى الروع باد وجوهها ... يُخَلْنَ إماءً والإماء حرائر (٢)

وقال طرفة بن العبد مفتخراً على تغلب يوم تحلاق اللمم :

سائلوا عنا الذى يعرفنا ... بخزازى يوم تحلاق اللمم

يوم تبدى البيض عن أسوقها ... وتلف الخيل أعراج النعم (٣)

وقال قيس بن الخطيم فى هجاء الخزرج :

صبحناكم بيضاء يبرق بيضها ... تُبين خلاخيل النساء الهوارب (٤)

وقال الشمردل بن شريك فى رثاء أخيه وائل

إذا استعبرت عُوذُ النساء وشمرت ... مآزر يوم لا توارَى خلاخله

وثقن به عند الحفيظة فارعوى ... إلى صوته جاراته وحلائله (٥)

---

(١) دائرة المعارف للبستانى ٦٩٦/١١

(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ٢٣٨/١ (٣) الديوان وكتاب بكر وتغلب ٨٩ أعراج النعم : قطعان الإبل (٤) جمهرة أشعار العرب ٢٥٢ وديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٥) الأمالى لليزيدى ٣٤ مخطوط والأغانى ١١٣/١٢ ومراث وأشعار لليزيدى ٨١٦ مخطوط

٢ — وإذا وقعت الواقعة، وفجعت المرأة بالسبى سخطت على قومها الذين تركوها تؤسر، وعيرتهم ضعفهم وجبنهم. من ذلك أنه لما سبيت سلمى بنت المحلّق فى يوم النسّار قالت تعير جوّاباً — مالك بن كعب من بنى أبى بكر بن كلاب — والطفيل؛ لأنهما فرا:

لحا الإله أبا لـــيلى بفرّته ... يوم النسار وقُنْبَ العير جـــوّابا
كيف الفخار وقد كانت بمُعْتَرَكٍ ... يوم النسار بنو ذبيان أربابا
لم تمنعوا القوم إذ شلوا سوامكم ... ولا النســاء وكان القوم أحزابا (١)

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلى أن تعود إلى زوجها ابن عمها لأنه فرّ عنها وتركها تسبى (٢).

بل لقد كانت المرأة تزدرى الأسير وإن كان قومها هم الذين أسروه، لأنها مفتونة بالبطولة والشجاعة والأنفة كما سبق فى صفات الزوج الأثير. فمثلا لما أسر فتىً من بنى عمير ابن عبد شمس عبدَ يغوث بن صَلاءة سيد بنى الحارث، يوم الكلاب الثانى، وانطلق به إلى أهله، وكان الآسر أهوج، قالت له أمه لما رأت عبد يغوث عظيما وسيما: من أنت؟ قال: أنا سيد القوم. فضحكت وقالت: قبحك الله من سيد قوم أسرك هذا الأهوج. وإلى هذا يشير عبد يغوث بقوله:

وتضحك منى شيخة عبشمية ... كأن لم تَرَىْ قبلى أسيراً يمانيا (٣)

وكذلك سخرت بَطهمان بن عمرو الدارمى امرأة من آسريه، فقال:

ألا هزئت منى بنجـران إذ رأت ... عثاريَ فى الكَبْلَين أمّ أبان
كأن لم تَرَىْ قبـــلى أسيراً مكبلا ... ولا رجلا يُرْمَى به الرَّجَوان (٤)

وما زالت المرأة العربية تحقر الأسير إلى ما بعد العصر الجاهلى، فإن حمدة أو حُميدة بنت النعمان بن بشير الأنصارى لامت زوجها رَوح بن زِنباع وعيرته، لأنه أسر يوم المرج، وقيل لأنه أسر قبل ذلك فى حرب غسّان، وافتدى. تقول فى ذلك:

وهل هند إلا مهرة عربيـــة ... سليلة أفراس تجللها بغل

---

(١) النقائض ٢٤٢ والكامل لابن الأثير ١/٢٥٩ أبو ليلى: الطفيل والد عامر. جواب: لقب مالك بن كعب لأنه كان يجوب الآبار يحفرها ويتخذها لنفسه. القنب: جراب قضيب الدابة. العير: الحمار الوحشى. (٢) أشعار النساء للمرزباني ٥٧ (٣) المفضليات ١/١٥٦ والأغاني ١٥/٧١
(٤) معجم البلدان ٤/٧١ الكبلين: القيدين. يرمى به الرجوان: استهزاء كأنه رمى به رجوا بئر أى ناحيتاها وجانباها (القاموس مادة رجا)

فان تُتجَتْ مهراً كريماً فبالحَرَى وإن يك إقرافٌ فما أنجب الفحل (١)

على أنه تزوجها وهو سيد يمانية الشام وقائدها وخطيبها ، وهى يمانية مثله ، ولو أنها نزارية وهو قحطانى مثلا لقيل إن سخطها عليه مبعثه ما بين اليمانية والنزارية من صراع . كذلك رفض عَقيل بن عُلَّفة أن يزوج عثمان بن حيان المرى — وهو من أبناء عمومته — لأنه كان قد مسه أو مس أباه أسر (٢)

٣ — وقد صور الشعراء ما يعتلج فى أحشاء السبايا من حزن ولوعة ، وما ينزل بهن من هم وحسرة . فعروة بن الورد يقول إن سباياهم من طي يشققن صدورهن إذا جن الليل وطلع النجم :

رحلنا من الأجبال أجبال طيء نسوق النساء عُوذَها وعِشارها
ترى كل بيضاء العوارض طفلةٍ تُفَرِّى إذا شال السِّماك صِدارها
وقد علمْت أن لا انقلاب لأهلها إذا تركت من آخر الليل دارها (٣)

ومجمّع بن هلال يفخر بأنه أسر امرأة من مجاشع ، ويقول إن قلبها قد امتلأ حزنا وجزعا وإن حزنها مقيم لا يبرح ، وهى تدعو عليه بالتعاسة كما أتعسها :

وعاثرةٍ يوم الهُيَيْا رأيتها وقد ضمها من داخل الخِلْب مَجْزَعُ
لها غَلَلٌ فى الصدر ليس ببارح شَجًى نَشِبٌ والعين بالماء تدمع
تقول وقد أفردتها من حليلها تَعَسْتَ كما أتعستنى يا مجمّع (٤)

والنابغة يصور السبايا حيارى سواهم ، يخططن على الأرض بالعيدان كما يفعل المكروب المهموم الساهم ، أو هن يخططن على الرمل ليتعرفن متى ينطلقن من الإسار ، وهن كاسفات لا يتزيّنّ ولا يبرزن مواضع جمالهن :

ويَخْططن بالعيدان فى كل منزل ويخبأن رمّان الثدىّ النواهد (٥)

---

(١) الأغانى ٨/١٣٤ والتنبيه والإشراف للمسعودى ٣١ وسمط اللآلى ١/١٧٩ وفى رأى ابن سيد ٥ أن الصواب نغل لا بغل لأن البغل لا يلد . والنغل الخسيس من الإنسان والحيوان (٢) سمط اللآلى ١/١٨٠
(٣) ديوان عروة ١٩ وشعراء النصرانية ٩١١ عوذ : حديثات الولادة . عشار : حوامل . تفرى : تشق . السماك : الأعزل والرامح نجمان نيران (٤) شرح الحماسة للمرزوقى ٢/٧١٦ الهيبا : اسم موضع كانت فيه وقعة لبنى تيم الله بن ثعلبة على بنى مجاشع . الخلب : حجاب القلب . الغلل : حرارة الجوف . شجى نشب : حزن دائم ملازم (٥) الحيوان للجاحظ ١/٦٣

والنابغة الجعدى يصور حزنهن يتجلى فى بكائهن وفى الكآبة الناطقة على وجوههن ، وحسرتهن على فراق أطفالهن الرضع .

فلم أر يوما كان أكثر باكيا ووجها ترى فيه الكآبةَ مُجْتَلَى
ومُفْتَصِلًا عن ثدى أم تحبه عزيز عليها أن تفارق مُفْتَلَى[1]

٤ — وليس أدل على بغض المرأة للسباء من أن تعيش مع سابيها حينا من الدهر ، وتلد له ، ولكنها لا تزال متبرمة بأن يذكر الناس أنها سبية ، ولا تزال أنوفا من أن تسمى أَمَة . فإذا ما برقت لها بارقة أمل فى التحرر والفكاك من السبى انطلقت لا تلوى على شىء . ولقد تحسن الحيلة فى أن تسترد حريتها وقيمتها ، ثم تعاود عشرة زوجها وأولادها ، ولقد تبخع نفسها حتى لا تقع أسيرة .

فقد أغار عروة بن الورد على مزينة فأصاب منهم امرأة بكراً من بنى كنانة يقال لها سلمى وتكنى أم وهب ، فأعتقها ، واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولادا وهو لا يشك فى أنها أرغب الناس فيه ، وكانت تقول له : لو حججت بى فأمر على أهلى وأراهم ؟ فحج بها ، ثم أتى يثرب ، وكان يخالط بنى النضير ويعاملهم ، وكان قومها يخالطونهم ، فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى إنه عائد بى قبل أن ينتهى الشهر الحرام ، فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب سبيا ، وافتدونى منه فإنه لا يرى أنى أفارقه ، ولا أختار عليه أحدا . فأتوه فسقوه الشراب ، فلما ثمل قالوا له فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا ، وإن علينا سبة أن تكون سبيا ، فإذا سارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها فإننا نزوجك . فقال لهم : ذاك لكم ، ولكن خيروها ، فإن اختارتنى انطلقت معى إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها ، فوافقوه ، فلما كان الغد جاءوه ، فامتنع من فدائها ، ثم رضى ، فخيروها ، فاختارت أهلها ، ثم أقبلت عليه فمدحته ، ثم قالت : وما مرّ على يوم مذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ؛ لأنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول « قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر فى وجه غطفانية أبدا ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم » . فحزن عروة وندم ، وقال فى ذلك شعرا يدل على فجيعته وألمه[2] .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٥١ تحقيق شاكر مفتصل ومفتلى : مفطوم
(٢) ديوان عروة ١١ والأغاني ٢/٧٦ والشعر والشعراء ٢٦٠

كذلك سبى الحارث بن تولب امرأة من بنى أسد يقال لها جمرة بنت نوفل ، فوهبها لأخيه النمر ، ففركته ، فحبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً ، ثم قالت له فى يوم ، أزرنى أهلى ، فإنى قد شققت إليهم ، فقال لها : أخاف إن صرت إلى أهلك ألا تعودى . فواثقته على أن ترجع إليه ، فخرج بها حتى أوصلها بلادها ، فلما أطل على الحى تركته واقفاً وانصرفت إلى منزل بعلها الأول ، فلما مكثت طويلا ولم ترجع عرف ما صنعت وأنها اختدعته ، فانصرف وقال :

جزى الله عنا جَمْرَة ابنة نَوْفل ... جزاء مُغِلٍّ بالأمانة كاذب
لهـان عليها أمس موقف راكب ... إلى جانب السَّرحات أخيب خائب
وقد سألت عنى الوشاة ليكذبوا ... علىّ وقد أبليتهـا فى النوائب
وصدت كأن الشمس تحت قناعها ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقال فيها أشعارا كثيرة (١) .

وكذلك سبيت امرأة من طسم اسمها عنز ، فحملها سابوها فى هودج ، وألطفوها بالفعل والقول ، فلم يلهها الإلطاف عن مذلة السباء ، فقالت :

شرُّ يوميها وأغواه لهـا ... ركبت عَنْزٌ بحـدْجٍ جملا

أى شر يوميها يوم تكرم وهى سبية (٢) .

أما قتلها نفسها فيتمثل فى فاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية ، ذلك أنها عرض لها قيس ابن زهير فاقتاد جملها ، يريدأن يرتهنها بدرعه التى أخذها ابنها الربيع ، حتى يردها . فقالت له ما رأيت كاليوم فعل رجل ، أين ضل حلمك ؟ أترجو أن تصطلح أنت وبنو زياد أبداً ، وقد أخذت أمهم فقال الناس فى ذلك ما شاءوا أن يقولوا ، وحسبك من شر سماعه . فعرف قيس مقالها فخلى سبيلها (٣) . وفى رواية أنه لم يخل سبيلها ، بل قال لها : إنى ذاهب بك لترعى إبلى . فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها عن البعير ، خوفا من أن يلحقها ويلحق بنيها عار السبى فسقطت على رأسها فماتت (٤) .

---

(١) الأغانى ١٩/١٥٩ (٢) جمهرة الأمثال لأبى هلال ٢/٨ ومجمع الأمثال ١/٣٢٨ ولسان العرب ٧/٢٥٠ (٣) النقائض ٩٠ وجمهرة الأمثال ١/٢٢٨ (٤) الأغانى ١٦/٢١

معاملة السبايا

تضع الحرب أوزارها ، وتنجلى عن سبايا ، فيقسمن بالسهام بين المحاربين كما تُقسَّم الغنائم . يقول الأعشى :

فما برحوا حتى استُحثَّتْ نساؤهم وأَجْرَوْا عليها بالسهام فذَلَّت[1]

ويقول الحُصين بن الحُمام :

وأَعتَقْنا ابنةَ العَمْرِيِّ عمروٍ وقد خُضْنا عليها بالقِداح[2]

فإذا لم يطلق السابى سبيته بفداء أو منٍّ ، وإذا لم يتخلصها قومها منه عنوة ، فكيف كان يعاملها ؟ وعلى أى وضع كانت تقيم عنده ؟

استيلاد السبايا

١ — كان أول مايلجأ إليه السابى أن يستولد السبية ، لأنها لا تكلفه مهراً ، ولأنها تلد له أولاداً نُجُبا كما اعتقد العرب فى أولاد الغرائب .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد تزوج زُرارة بن عُدُس أمته رُشَيَّة ، وكان قد أصابها من الرُّفَيْدات — حى من العرب — فولدت له عَمْراً وذُؤَيْبا وبَرغُوثا[3] ، وكانت له زوجات من سباياه من بنى عِجْل ومن بنى عبد القيس ومن الأزد ، وقد أنجبن له[4] .

وتزوج ضَمْرة بن جابر سبية من عبد القيس وسبية من الأزد[5] ، وسبى الصِّمَّةُ بن عبدالله ريحانة بنت معد يكرب الزبيدى ثم تزوجها .

واشتهر كثير من أبناء السبايا ، وسادوا ، وفرعوا أبناء الحرائر المهيرات ، مثل دريد ابن الصمة أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأيمنهم نقيبة ، وأشعرهم ، وكان سيد بنى جُشم وقائدهم ، وهو وإخوته عبد الله وعبد يغوث وقيس وخالد أمهم جميعاً ريحانة بنت معد يكرب الزبيدى أخت عمرو بن معد يكرب ، كان الصمة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه[6] . ومثل الأشهب بن ثور بن حارثة ، كانت أمه لخالد بن مالك

---

(١) ديوان الأعشى الكبير ٢٦١ (٢) شعراء النصرانية ٧٤٥ (٣) مجمع الأمثال ١/١١٦
(٤) أمثال العرب للمفضل الضبى ٧ (٥) الميداني ١/١١٧ (٦) الأغاني ٩/٢

فاشتراها منه ثور بن حارثة فى الجاهلية فولدت له أربعة نفر كانوا من أشد العرب لسانا ويداً، وأمنعهم جانباً فى الجاهلية والإسلام، حتى كانوا يأخذون هُدْبًا من قطيفة أمهم ويلقونه على الماء فلا يَرِدُه أحد (١).

٢ — وكانوا يفخرون بزواجهن، إدلالاً بقوتهم، وإذلالا لعدوهم، قال عمرو بن يربوع الغنوى فى هجاء عمرو بن معد يكرب الزبيدى.

ألم نحم نجـــدا بمسنونة عتـــاق تُبـــارِى بفُرْسانها
فسائل جُـــذاما ولَخْماً بنا ويَحْصُبَ من بعد خَوْلانها
ومَذْحِجَ يُنْبُوك عن حربنا وما كنت تجهل من شأنها
نكحنا نساءهم عَنْـــوَةً ببيض الصِّفَاح ومُرّانها (٢)

وقال عمرو بن الذارع الحنفى فى يوم النَّشَاش — وكان لبنى حنيفة على بنى نمير — :

إذا نحن شئنا زوجتنا رماحنا كما أمكنتنا من بنات المهاجر (٣)

وافتخر النابغة الجعدى بأنهم أكثر القبائل سبياً ونكاحا للسبايا :

فما وَجَـــدَتْ من فرقة عربيـــةٍ كفيلاً دنامنا أعزَّ وأنصراً
وأكثر منا ناكحا لغريبـــة أصيبتْ سباءً أو أرادت تَخَيُّرا (٤)

وافتخر المطوح بن عثمان التغلبى على بنى نمير بأنهم نكحوا نساءهم قسراً واغتصابا، وبأن بنى تغلب أعزة لم تغتصب منهم نسوة :

هُمُ أنْكحُوا بالغصب من فتياتكم جهاراً ومن شَرِّ المجاهرة الغَصْب
وما كان منا عنـــد قوم سبية وما كان من أموالنا عندهم نهب (٥)

وتباهى الأعشى بيوم ذى قار، وأن الرماح مكنت العرب المنتصرين من زواج نساء المهزومين من الفرس وحلفائهم من العرب :

ألا يارُبَّ ما حَسْـــرَى ستُنكحها الرماح حمًا (٦)

ولم ينفرد العرب بنكاح السبايا، لأن هذا العرف كان شائعاً عند كثير من الأمم القديمة والمعاصرة للعرب.

---

(١) الأغانى ٨/١٥٣ (٢) المؤتلف والمختلف ١٥٦ تبارى : تعارض وتزاحم . مرانها : جمع مرانة وهو الرمح الصلب اللدن (٣) معجم الشعراء ٢٢٥ (٤) جمهرة أشعار العرب ٣٠٥ (٥) حماسة الخالديين ٥٥ مخطوط (٦) ديوان الأعشى الكبير ٣٠٣

كان شائعاً عند الأشوريين والإسرائيليين واليهود واليونان والرومان [١] ، وكان المولى الإسرائيلى كثيراً ما يتخذ إحدى إمائه حليلة ، جاء فى التوراة : إذا ابتعت عبدا عبرانياً فليخدمك ست سنين ، وفى السابعه يخرج حرا بالمجان . . . . . وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها لمولاه ويخرج وحده [٢] .

وكان على الإسرائيلى إن أراد الزواج بإحدى سباياه أن يدعها شهراً تندب أهلها ثم يتزوجها . فإن لم ترقه بعد الدخول بها سرحها ، ولا يجوز له بيعها ، وحينئذ تصير حرة ، ولعل هذا التشريع الذى حسن حال السبايا جاء متأخراً ، وما من شك فى أنه يحمل طابع الصحراء ، ونكاد نتنسم فيه روح الفروسية والحرية العربية ، وربما نقلته بعض القبائل الإسرائيلية معها قبل نزوحها من الجزيرة العربية [٣] : ولكن مع ذلك ظل مركز السبية أحط من الزوجة الحرة من الوجهة الاجتماعية والقانونية .[٤]

وكان الزواج بالسبية شائعاً عند الأشوريين ، وعقدت له قوانينهم فصلا خاصا ، وإذا تزوج السيد سبيته ارتفعت إلى مقام الزوجة [٥] .

وفى القوانين البابلية نوعان من الإماء ، يطلق على أحدهما أمتم Amatum ، والميم الأخيرة للتنوين ، ويطلق على الثانى شجيتم Sugitim ، والميم للتنوين أيضاً ، وهما تضارعان فى العربية كلمة أمة وشجية ، والفرق بينهما فى البابلية أن الأمة هى الجارية التى كانت تختارها الزوجة العاقر لبعلها لتلد ، كما فعلت سارة مع إبراهيم ، إذ اختارت له أمة مصرية ولدت له إسماعيل ، جريا على عادة البابليين . وكانت الأمة أحط من الزوجة مقاما وعليها أن تطيع زوجة سيدها ، فإن عصتها حل بها عقاب شديد ، أما الشجية فهى الأسيرة [٦] .

وكذلك جرى الفرس القدماء على السبى والاستمتاع بالسبايا [٧] ، وكن متعة للأغنياء ، حتى كان من دأب الطبقة العالية ألا ينفروا إلى الحرب إلا والسبايا مصاحبات لهم . وقد ذكروا أن قصر الملك فى الإمبراطورية الأخيرة كان يضم من الحظايا عدداً يتراوح بين

---

(١) الرق فى الإسلام لأحمد شفيق ١٢ والنظم السياسية والاجتماعية ٣٣ و ٧٠
(٢) سفر الخروج ٢١ : ٢ (٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٨ (٤) المرجع السابق ٣٨
(٥) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧ (٦) المرجع السابق ٣٦ (٧) قصة الحضارة الفارسية ٥٦ ول ديورانت

٣٢٩و٣٦٠ ، لأنه صار من العادات المرعية ألا يضاجع الملك امرأة غير مرة واحدة ، إلا إذا كانت رائعة الحسن فائقة الجمال (١)

وكذلك كان الحال فى مصر ، فللرجل أن يباشر أمته ، وله أن يرفعها إلى مقام الزوجة (٢).

وقد اعتبرته شريعة مانى نوعا من الزواج . وشاع عند الإغريق فى بعض عصورهم ، واحتفظ به الإسبرطيون رمزاً لعقد الزواج (٣) . وأقره أرسطو ، ولم يكن للمرأة التى تباع أو تؤسر أن تمتنع من أن يباشرها سيدها (٤) .

وكان الرومان فى أول أمرهم يكرهون التسرى ، حتى تسرى اثنان من كبرائهم وأمرائهم ، فأقبلوا عليه إقبالا ، على أن السُّرِية كانت عندهم أحط منزلة من الزوجة (٥) .

وكان الساميون عامة ينظرون إلى السُّرِية على أنها أقل شأنا من الزوجة ، ويعتبرونها من العبيد (٦) .

وما زال السلاف فى الروسيا والصرب يمارسون زواج الاغتصاب إلى القرن الماضى ، ولا تزال آثار هذه العادة قائمة فى تمثيل العروس لدور المغتصب لعروسه فى بعض حفلات الزواج (٧) .

٤ — فليس بصحيح إذاً أن « السبية عند العرب كانت من الناحية الجنسية خاضعة لآسرها ورهن مشورته ، وهذه معاملة استمرت إلى الإسلام ، وهى تنطوى على خزى وعار ومذلة وهدم لكرامة المرأة وشرف قبيلتها (٨) » ؛ ليس هذا بصحيح ، لأن السبى نظام ضرورى يتبع الحرب . وماذا يفعل الرجال بالسبايا خيرا من أن يتزوجوهن أو يستولدوهن . فيصرن حليلات وأمهات أولاد وأعضاء فى الأسرة ؟ أليس ذلك أفضل من بيعهن أو استعبادهن ؟ بلى . ثم إن الأمم القديمة كلها كانت تمارس زواج السبايا ومباشرتهن كما سبق .

على أن العرب كانوا يكرمون زوجاتهم السبيات ، ويفاخرون بحسن معاملتهن والحدب عليهن ؛ لأن زواج السبيه لم يكن مقصودا به إذلالها هى ، بل كان مرغوبا فيه ؛ لأنه ضرب من الفروسية ، ولأنه لا مهر فيه ، ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء الغرائب أنجب كما سبق ، لذلك يقول سعد بن مالك جد طرفة :

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ٦٠ (٢) الرق فى الإسلام ٩

(٣) Westermarck P. 386 (٤) الرق فى الإسلام ١٩

(٥) Gibbon. 11, 205 (٦) سفر التكوين إصحاح ١٢ آية ١٦ وإصحاح ٢٠ آية ١٤ وسفر الملوك الثانى إصحاح ٥ آية ٢٦ (٧) قصة الحضارة ١/٧٤ ول ديورانت

(٨) Women in the Aiyam El Arab. P. 70

فالهمُ بيضات الخدو ر هناك لا النَّعَمُ المُراح[1]

ويقول حاتم الطائى :

وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكنَّا خطبناها بأسيافنا قَسْرا
فما زادها فينا السِّباءُ مذلةً ولا كُلِّفت خبزًا ولا طبخت قدرا
ولكنا خلطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضا وجوههم زُهرا
وكائنْ ترى فينا من ابن سبيـــة إذا لقى الأبطال يطعنهم شَزْرا
ويأخـــذ رايات الطِّعانِ بكفِّه فيوردها بِيضًا ويصدرها حُمْرا
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله إذا ماسرى ليل الدجا قمرا بدرا[2]

كانت السبية تعامل معاملة حسنة « معتمدة على جمالها أو مواهبها أو نسلها ، ولكن هذا لا ينفى أن بعضهن كن يعاملن معاملة فيها قسوة [3] ،

بيع السبايا وهبتهن وإرثهن

١ — هل من الطبيعى أن يُكلَّف كل رجل أن يتزوج بسبایاه ؟ لقد يكنَّ كثيرات يضيق بزواجهن ، ولقد يكون له فى زوجاته السابقات مُغْنًى ومقنع ، وربما لا يرقنه أو لا يروقه بعضهن ، فيلجأ إلى وسيلة غير الزواج للانتفاع بهن .

لذلك كان بعض العرب يبيعون السبايا ، حتى لقد كانت فى مكة سوق منظمة لبيعهن بيع العبيد [4] . وقد اشترى ثور بن أبى حارثة من خالد بن مالك أمته رُمَيْلة واستولدها أربعة من بنيه [5] ، وباع رجل فى الجاهلية امرأة وأنجبت من سيدها ، فلما مات عنها أريد بيعها وفاء لدينه ، فشكت حالها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمر الوارث أن يعتقها وعوضه عنها بعبد [6] .

وكثيراً ما كانت السبايا يوهبن كما يوهب المال ، فقد أغار الحارث بن تَوْلب — وكان سيداً معظما — على بنى أسد ، فسبى امرأة منهم يقال لها جمرة بنت نَوْفل ، فوهبها لأخيه النمر [7] . وكان النعمان يهب السبايا ، وبهذا مدحه النابغة فى قوله :

---

(١) الحماسة ١/١٩٨ (٢) العقد الفريد ٣/٢١٠ (٣) Muslem Law P. 24
(٤) النظم السياسية والاجتماعية ٣٣ (٥) الأغانى ٨/١٥٣ (٦) كنز العمال ٤ الحديث رقم ٥١٢٦ وابن حنبل ٦/٣٦٠ وأبو داود ٤/٢٦ (٧) الأغاني ١٩/١٥٨

الواهب المائة المعكاءَ زَيَّنَهَا سَعْدَانُ تُوضِحَ فى أدبارها اللُّبَد
والراكضاتِ ذيولَ الرَّيْطِ فانقها بَرْدُ الهواجر كالغزلان بالجَرَد (١)

٢ — والعرب لم يشذوا فى هذا أيضاً ، لأن العبرانيين كانوا يبيعون النساء وإن لم يكن رقيقات ، فقد قال يوعز للشيوخ ولجميع الشعب : أنتم شهودى اليوم أنى قد اشتريتها لتكون لى زوجة (٢) .

وكان الرومانيون يبيعون الأسرى والسبايا للنخاسين كما يبيعون الغنائم ، وإذا حملوهم إلى رومة باعوهم بالمزاد ، وكانوا يبيعون عقب كل حرب ألوفا من السبايا والأسارى (٣) .

القسوة عليهن أحياناً :

١ — لا شك أن الناس مختلفون فى كثير من الأخلاق والعادات ، ولا شك أن ظروف السباء مختلفة أيضاً ، فقد يسبى الموتور فيتشفى ممن سباهن وممن أسرهم ، وقد يسبى القوى الغاصب فيحسن معاملة أسراه وسباياه

على أن القسوة فى معاملة السبايا كانت عملا معيباً عند العرب يعيَّر به القساة ، فقد عاب خُفاف بن نُدْبة العباس بن مرداس بأنه يستهين بسبايا العرب ، ويقتل الأسرى . فلما علم العباس قال لخفاف فى ملأ من بنى سُلَيْم : وإنك لتعلم أنى أطلق الأسير وأصون السبية . . . . وأما استهانتى بسبايا العرب فإنى أحذو القوم فى نسائهم بفعالهم فى نسائنا (٤) . وفى أحوال نادرة سولت الظروف للآسر أن يقتل أسراه ، فقد قتل بنو تميم عبد يغوث بن صلاءة (٥) وذبح المنذر بن ماء السماء أسرى بنى بكر على جبل أُوارة ، وأحرق سبايا منهم (٦) ، وإلى ذلك يشير الأعشى بقوله :

سبايا بنى شيبان يوم أُوارةٍ على النار إذ تُجْلى له فتياتها (٧)

---

(١) ديوان النابغة ٢١ . المعكاء : الغلاظ الشداد . سعدان توضح : نبت جيد التغذية للإبل بهذا المكان . اللبد : المتلبدة الوبر . فانقها : نعم عيشها . الجرد : الموضع الذى لا ينبت أو موضع ببلاد تميم

(٢) راعوث ٤ : ٩ و The Holy Bilbe (٣) تاريخ الحضارة ١٤٨ شارل سنيوبوس

(٤) الأغانى ١٦/١٣٥ (٥) المفضليات ١/١٥٣ (٦) الكامل لابن الأثير

(٧) ديوان الأعشى ٦٣

وافتخر تميم بن الحباب السُّلَمى بأنهم بقروا النساء الحبالى :

بقرنا الحبالى من زهيرو مالك ليبأس قومٌ من رجاء التَّجَبُّرِ [١]

وردد عامر بن الطفيل الفخر ببقر الحبالى .

بقرنا الحبالى من شَنُوءة بعدما خبطن بفَيْف الريح نَهْداً وخثعما

ونحن صَبَحْنَا حيّ نجران غارةً تُبيلُ حبالاها مخافَتَنا دما [٢]

وكرر هذا [٣] .

ومن هذا الحنق الذى يعدى على النساء قول جَهْم بن سَبَل الكلابى .

حلفت لأُنْتَجَنَّ نساء سلمى نتاجا كان أكثرُه الخِداجُ [٤]

٢ — على أن هذه القسوة كانت شاذة عند العرب كما سبق ، ولم ينفردوا بها على ندرتها ، فإن الرومان كانوا يعدون الأسرى والسبايا وسكان البلد المفتوح ملكا للفاتح يتصرف فيهم كما يرى ، فله أن يقتلهم ، وله أن يستعبدهم ، وله أن يبيعهم [٥] .

وكان الإسبرطيون قساة فى معاملة أرقائهم ، لا ينيلونهم حقا ، بل إذا ازداد عددهم من الأسر أو الشراء قتلوهم غير مبقين إلا على من يحتاجون إليه [٦] . وقد حدث هيرودوت عن الفرس أنهم كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، لكنهم يبيحون لسيده أن يقتله أو يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى [٧] . وكان بعض براهمة الهند يضربون الذلة على العبيد المعروفين باسم السودرا ، وأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن يسل لسانه ، أو يقتله بعد التمثيل به على مشهد من الناس [٨] .

وما زال الملونون محرومين المساواة الإنسانية إلى اليوم فى الأمم الأوروبية والأمريكية . وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد فى المستعمرات إذا هربوا من الأسر ، أو جفوا فى معاملة سادتهم ، ولم يكن على السيد الذى يقتل عبده بالإرهاق أو التعذيب عقاب منصوص عليه [٩] .

---

(١) معجم البلدان ٣١٧/٧ (٢) الديوان القصيدة ١٢ (٣) الديوان القصيدة ٢٧
(٤) معجم البلدان ٢٠/٤ (٥) تاريخ الحضارة ١٤٨ (٦) دائرة المعارف للبستانى ٦٩٦/١١
(٧) داعى السماء بلال للعقاد ٧٥ (٨) داعى السماء ٧٤ (٩) داعى السماء ٧٧

الإماء

ليس فى اللغة تفرقة بين السبيّ والأمة ، فالسَّبْىُ : النهب وأخذ النـــاس عبيداً وإماء ، والسَّبية المرأة المنهوبة (١) . والأمة : المرأة المملوكة ذات العبودة خلاف الحرة (٢).

ولم أجد تفرقة بينهما فى أى مرجع مما قرأت ، لكن الروح العام للشعر الجاهلى ،ولحياة أبناء السبايا وأبناء الإماء يوحى بأن بين السبية والأمة فرقا فى المكانة الاجتماعية ، فالسبايا عربيات يؤخذن قسراً فى حرب أو غارة وثمنهن الدم ، أما الإماء فغير عربيات يشترين بالمال للخدمة والتسرى ، لذلك طالما باهى الشعراء — كما سبق — بالسبى وباهوا باستيلاد السبايا ، ولم يباهوا باستيلاد الإماء ، وتهاجوا بالأمهات الإماء ، ولم يتهاجوا بالأمهات السبايا ، وبرئوا من أن تكون أمهاتهم إماء ولم يبرءوا من أن يكن سبايا .

وقد مرّ بنا أن المرأة الحرة كانت إذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافراً ليحسبها الغالبون أمة فيرغبوا عنها ، لأنها تعلم أنهم لا يريدون غير الحرائر ، وفى ذلك يقول سَبْرة بن عمرو الفَقْعَسى :

ونسوتكم فى الروع بادٍ وجوهُها يُخَلْن إماء والإماءُ حـــرائر (٣)

فلو أن كل سبية تصير أمة ما فرق السباة بين هذه وتلك . وقد تبين فى دراسة السبايا أن العرب طالما فخروا بإطلاق السبايا ومدحوا به ، كما افتخروا بفكهن ومدحوا باستردادهن ، ولم يرد شىء من هذا عن الإماء . لهذا كانت السبية أعلى مكانة من الأمة ، وكانت تعامل معاملة حسنة ، فقد سبق أن العرب كانوا يعيبون من يقسو على سباياه . وهذه المعاملة الحسنة للسبايا كانت تقليدا متعارفا عليه ، لأن السباء حدث متبادل بين المتحاربين ، فالمنتصر اليوم قد يهزم غدا ، فعليه أن يحسن معاملة سباياه حتى إذا ما منى بالهزيمة وسبيت نساؤه أكرمهن سباتهن .

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة سبى (٢) لسان العرب والقاموس المحيط مادة أما

(٣) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٣٨

على أن أبناء السبايا كانوا ينسبون إلى آبائهم بغير حاجة إلى أن يلحقوهم بهم ، كدريد ابن الصمة وإخوته ، والأشهب بن ثور ، وأبناء زرارة بن عدس ، كما أسلفت ذلك . أما أبناء الإماء فكانوا لا يلحقون بآبائهم إلا إذا ادعوهم ، كعنترة بن شداد .

وليس فى فخر أبناء السبايا هذا الشعور بالنقص الذى نجده فى فخر أبناء الإماء ، وفى محاولتهم التعويض عنه بالإشادة ببطولتهم تارة وبالمباهاة بآبائهم تارة .

ثم إن أبناء الإماء كانوا يتحاشون أن يذكروا أمهاتهم فى فخارهم أو فى غير فخارهم ، على حين نجد دريد بن الصمة يذكر فى رثائه لأخيه عبد الله — وهو أحد أشقائه — أنه ابن أمه وشريكه فى رضاع ثديها الثر العذب .

دعانى أخى والخيـــل بينى وبينه ... فلما دعانى لم يجـــدنى بقعدد
أخى أرضعتْنى أمـــه بلبانهـــا ... بثدىَ صفاء بيننا لم يُجَـــدَّد (١)

ولو أنه كان يجد فى نفسه ما وجد عنترة بن شداد من هوان أمه وضعة منزلتها ما سلك هذا المسلك فى توكيد حبه لأخيه ، وتفجعه عليه .

وقد سبق أن الخنساء ودريد بن الصمة تهاجيا لما رفضته زوجا ، وأنها رفضته لكبرة سنه ، ولو أن سبى أمه عار لجاء فى رفضها ذكر له كما سنرى فى رفض الشريفات لأبناء الإماء ، بل إن أباها هش له ورحب به ، وأنبأها أن سيد بنى جشم جاء يخطبها .

وسنرى أن الإماء مارسن من الأعمال مالم تمارس السبايا . وإذاً فقد استبان لى أنه لا مندوحة من التفريق بين السبايا والإماء فى صفة كل منهن ، وفى مكانتها فى نظر العرب ، وفى منزلة بنيها فى الحياة الاجتماعية .

---

(١) الأغانى ٩/٤ ولسان العرب مادة قعد وشعراء النصرانية ٧٥٧ قعدد : جبان لئيم قاعد عن الحرب والمكارم . لم يجدد : لم ينضب لبنه عن عيب أو لم ييبس .

معاملة الإماء

(١)

١ — كان سادتهن يستولدونهن أحيانا .

ومن الطبيعى ألا يسمو ابن الأمة إلى مكانة ابن الحرة إلا إذا تميز بصفات تجبر مافى استرقاق أمه من خدش لمكانته ، وقد كان الأكاسرة وأكثر عرب الجاهلية لا يسودون أولاد الإماء ، ويسمونهم الهُجناء ، ويسمون أولاد المهيرات الصُّرَحاء [١] . يقول مهلهل فى امرئ القيس بن حُمَام — وكان هجينا .

لما توعَّـــر فى الكُراع هجينهم هَلْهلْتُ أثأر جابراً أو صِنْبلا [٢]

وقد سبق فى الزواج أن العربية كانت تأنف أن يتزوجها عبد أو ابن أمة ، فقد عاش الشنفرى أسيراً فى بنى سُلامان حينا ، لا تحسبه إلا أحدهم ، حتى لقد اتخذه السلامى ولدا ، فقال الشنفرى يوما لبنت سيده ، اغسلى رأسى ياأخية . فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته [٣] لذلك كان أبناء الإماء يعيرون بأمهاتهم ، يدل على ذلك أن عروة بن الورد العبسى سبى سَلْمى الغفارية ، فولدت له أولاداً ، وكان شديد الحب لها ، وكان أولاده يعيرون بأمهم ، ويسمون بنى الأَخيـــذة . فقالت له : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . ففعل ما أشارت به ، وتزوجها من قومها [٤] .

ومن التعيير بالأم الرقيقة قول أوس بن حجر .

أبنى لُبَيْنَى إن أمكم أمَةٌ وإن أباكم عبـــد [٥]

وقول عُمَيْرة بن جُعَل فى هجاء خَصْمَيْه .

وجَدّاكما عبد عُمَيْر بن عامر وأمّاكما من قينـــةٍ أمتان [٦]

وقول حسان بن ثابت .

أبوك أبوك وأنت ابنه فبئس البُنَىّ وبئس الأب

---

(١) جمهرة الأمثال ١٥ (٢) معجم الشعراء للمرزباني ١١ ولسان العرب مادة هلل . توعر : أخذ فى مكان وعر وأنشده الجوهرى لما توغل (٣) الأغاني ٢١/٨٧

(٤) الأغاني ٣/٣٨ (٥) ديوان أوس بن حجر ٥ (٦) المفضليات ٢/٦٠

وأمك سوداء نوبيـــة كأن أناملها الحَنْظَب
يبيت أبوك بهـــا مُغْدِفاً كما ســـاور الهرَّةَ الثعلب[١]

ويعير الأسود بن يعفر بنى نُجَيْح بقوله :

أبنى نجَيْح إن أمكـــم أمـــة وإن أباكم وقْب
أكلت خبيث الزاد فاتَّخمتْ منه وشمّ خمارها الكلب[٢]

وكثير من الشعراء افتخروا بأن أمهاتهم حرائر ، وكثير من السادة مدحوا بحرية أمهاتهم كما سبق فى (الأم) . كقول الخنساء فى رثاء صخر :

يابن القروم ذوى الحجا وابن الخضارمـــة المرافد
وابن المهـــائر للمها ئر زانها الشِّيمُ المواجد[٣]

٢ — وقد اشتهر بعضهم بالفروسية كخُفاف بن عمير بن الشريد أمه نُدْبة وهى أمة سوداء وإليها نسب [٤] ، والسُّلَيْك بن السُّلَكة أمه السلكة أمة سوداء نسب إليها [٥] ، وعنترة بن شداد أمه زَبِيبة أمة سوداء[٦] ، والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أمه حبشية اسمها سَبْحاء ، وكذلك عثمان بن عَنْبسة ، ومالك بن ضَبّ الكلبى ، وشقيق بن سلمة ، وحنظلة ابن صفوان الكلبى[٧] . وقد ذكر المبرد طائفة من النجباء أبناء الإماء [٨] .

٣ — لذلك لم يطق بنو الإماء صبراً على هذا التعيير ، فطالما ردوا عليه بفخرهم بأنهم شجعان فرسان مغاوير ، وبأنهم كرماء ماجدون ، لكنا لا نجد فى شعرهم اعتزازاً بنسب الأم أو سخطا على السبى والاسترقاق ، أو نزوعا إلى المساواة ودعوة إلى الأخوة الإنسانية . وأنّى لهم أن يدعوا إلى ذلك وهم لا يدينون به ، والعصر كله يذين بالسِّباء ، وبالتفاوت فى القدر بين الحر والعبد ، وبين الحر والحر ؟

لذلك يعترف خفاف بن ندبة بأن نسبه من جهة أمه أسود ، لكن مآثره سودته فى قومه ، يقول عن نفسه وعن العباس بن مرداس وهو ابن أمة مثله .

كلانا يسوده قومـــه على ذلك النسب المظلم[٩]

---

(١) الحنظب : ذكر الجراد أو ذكر الخنفساء . مغدف : سافد (٢) لسان العرب ٢/٣٠٠ وقب : عبد (٣) ديوان الخنساء ٦٢ (٤) الشعر والشعراء ١٢٢ والأغانى ١٦/١٣٤ (٥) الشعر والشعراء ١٣٤ (٦) الأغانى ٧/١٤٢ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ٥٠ مخطوط (٧) المحبر ٣٠٥ (٨) الكامل للمبرد ١/٣١١ (٩) الشعر والشعراء ١٢٢

وله شعر كثير فى دفاعه عن نفسه [٢] . وفصّل فى بعضه مفاخره ، فيقول إنه جلد صبور لبق ، ينتسب إلى أجداد ذوى عزة ، وذوى مفاخر ، لكنه لم يعين هؤلاء الأجداد أهم آباء أمه أم آباء أبيه .

إن تعرضى وتضنى بالنّوال لنا ... فواصلنّ إذا واصلت أمثالى
إنى صبور على ما ناب معترفٌ ... أصرِّف الأمر من حال إلى حال
أُنمَى إلى مجد أجداد لهم عَـ ... ـدَدٌ مذلّلين لوطء الحق أَزْوَال [٣]

وكثيراً ما دافع عنترة عن سواده ، وخايل ببطولته ، وإذا كان قد حرم السراوة من جهة أمه فإنه قد أحرز نصف المجد من أبيه ، وكسب نصفه الآخر بسيفه ، فهو إذاً خير من شريف الأب والأم .

إنى امرؤ من خير عبس منصبا ... شَطْرى ، وأحمى سائرى بالمُنْصُل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... أُلْفيتُ حـــيراً من مُعمٍّ مخوِل
إن كنت فى عـــدد العبيد فهمتى ... فوق الثريا والسماك الأعزل
وبذابلى ومهنّـــدى نلت العلا ... لا بالقرابة والعديد الأول [٤]

ويدافع عن سواده بأنه تمييز له وعلَم على شجاعته يوم الحرب .

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسب ... يوم النزال إذا ما فاتنى النسب [٥]

وكذلك دافع السليك بن السلكة عن رق أمه بقوله :

ألا عتبت عـــلىّ فصارمتنى ... وأعجبهـــا ذوو اللِّمم الطِّوال
فإنى يا بنـــة الأقوام أُرْبِى ... على فعـــل الوضىء من الرجال
أشـــابَ الرأسَ أنى كل يوم ... أرى لى خالة وسط الرِّجال
يشق علىّ أن يلقـــين ضيما ... ويعجز عن تَخَلُّصهن مالى [٦]

ولم يُغْض أبناء الإماء عن مهانة تلحق بأمهاتهم ، وإنما دافعوا عنهن وأحسنوا .

---

(١) منتهى الطلب ١٥١ ـ ٢٢ مخطوط (٣) منتهى الطلب ١/٢١
(١) ديوان عنترة ١١٩ وربيع الأبرار ٨ مخطوط والمعانى الكبير لابن قتيبة ١/٥٠٧ ويريد بالمعم المخول قيس بن زهير وكان له عشرة أعمام وعشرة أخوال (٥) الديوان ١٠
(٦) تهذيب الكامل ٢/٩٧

فقد استطالت امرأة من بنى مرة على سُهَيَّة أم أرطأة ، وسبّتها ، فخرج إليها أرطأة فسبها وضربها ، فلامه قومه ، وقالوا : مالك تدخل نفسك فى خصومات النساء ؟ فقال :

يعيرنى قومى المجاهل — والخنا — عليهم — وقالوا أنت غير صميم
هل الجهل فيكم أن أعاقب بعدما تُجُوِّز سَبِّى واستُحلَّ حريمى
إذا أنا لم أمنع عجوزى منكم فكانت كأخرى فى النساء عقيم[1]

على أننا إذا كنا لا نجد فى العصر الجاهلى شاعراً نافح عن نسبه أو حاول السمو به إلى سمت العرب فليس معنى هذا أنهم ارتضوا حياتهم واطمأنوا إلى أقدارهم لأنه لا شك فى أنهم كانوا يجنون آلامهم فى أنفسهم ويكبتون سخطهم أن يظهر .

٤ — وكان العرب لا يلحقون أبناءهم من الإماء بنسبهم ، فلا يرثون إلا إذا ادعوهم ، وأشهدوا على أنهم ألصقوا بهم نسبهم . فإذا لم يلحق الرجل ابنه بنسبه استبعده[2] . وقد ألحق شداد ابنه عنترة به لما أبلى فى رد المغيرين على بنى عبس إذ قال له أبوه : كر ياعنترة . فقال : العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب والصرّ . فقال : كرّ وأنت حر . فكر وهو يقول :

أنا الهجينُ عنتره كل امرىء يَحْمى حِرَه
أسودَه وأحمرَه والواردات مُسْفره

وقاتل يومئذ قتالا مجيدا ، فادعاه أبوه وألحق به نسبه[3] .

وربما كان من أسباب احتقار بعضهم لأبناء الإماء أن بعض الإماء كن يزنين فى الجاهلية ، وكان سادتهن يأتونهن أيضاً ، فإذا أتت المرأة بولد فربما يدعيه السيد ، وربما يدعيه الزانى ، فإن مات السيد ولم يكن قد ادعاه ولا أنكره فادعاه ورثته لحق به ، لكنه لا يشارك مستلحقه فى ميراثه إلا أن يستلحقه قبل القسمة ، وإن كان السيد أنكره لم يلحق به . من ذلك أن زمعة بن قيس كانت له أمة ، وكان يلم بها ، فظهر بها حمل ، وكان سيدها يظن أنه من عتبة بن أبى وقاص ، فعهد عتبة قبل موته إلى أخيه سعد أن يستلحق ذلك الحمل . فلما كان عام الفتح تنازع فى الولد سعد وعبد بن زمعة ، الأول يقول إنه ابن أخى ، والثانى يقول إنه أخى وابن جارية أبى ، واحتكما إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقضى بأن الولد للفراش[4] . ثم إن الأمة أدنى شأناً من السبية كما سبق ، وابنها مثلها فى ضعة الشأن .

---

(١) الأغاني ١١/١٤٠ (٢) الشعر والشعراء ٧٥ والأغانى ٧/١٤١
(٣) الأغاني ٧/١٤٢ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات للزوزنى ٥٠ مخطوط
(٤) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ٢/١٧٣

٥ — ليس العرب بدعا فى نظرتهم هذه إلى أبناء الإماء . ففى شريعة حمورابى أن أولاد الرجل من جاريته لا يعدون أولاداً شرعيين إلا إذا نسبهم إليه ، فإذا نسبهم اليه كان لهم حق الإرث ، وإلا فلاميراث ، ولكنهم يعتقون[١] .

والرومان كانوا يعدون أولاد السبايا عبيداً كأمهاتهم[٢] .

وقد حدث هيرودوت عن اللاسيين أنهم كانوا يلقبون أولاد الإماء بأسماء أمهاتهم لا آبائهم ، فلو سئل أحدهم عن اسمه ذكر اسمه واسم أمه ثم جدته لأمه . وأعجب من ذلك أن المرأة الحرة إذا تزوجت عبداً عد أولادها أحراراً ، أما إذا كان الزوج حراً وامرأته أمة فأولادها رقيق ، وإن كان أبوه أعظم رجل فى المملكة[٣] .

ولم ينتسب ابن الجارية إلى أبيه عند اليهود وإن تهود ، لقول الكتاب :

« عصوا الله وجاءوا بنسل غريب[٤] » . لذلك كان من الطبيعى ألا يرث[٥] .

وجرى الأشوريون على حرمان أبناء السبايا من الميراث ، إلا اذا لم يكن للأب أولاد من زوجة حرة[٦] .

وكذلك البابليون ، فإنهم لم يورثوا ابن الأمة إلا إذا اعترف به أبوه أمام شهود[٧] .

وقد أقر أرسطو استمتاع الرجل بجاريته على أن يكون ابنها حراً[٨] . ولم تسم أمة بأبناء الإماء كما سمت مصر ؛ لأن المصريين كانوا يسوونهم بأبناء الزوجات الشرعيات ، حتى فى التربية والميراث[٩] .

وإذاً فقد كان أبناء الإماء عبيداً فى نظر العرب والرومان واللاسيين واليهود ، وكانوا محرومين من الميراث فى عرف العرب وشريعة حمورابى واليهود والأشوريين والبابليين ، وكانوا لا يلحقون بنسب الآباء فى الأمم إلا إذا ادعوهم .

ولم يغاير العربَ فى نظام النسب الا أرسطو والمصريون القدماء .

---

(١) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ٤٧ (٢) تاريخ الحضارة ١٤٨ شارل سنيوبوس
(٣) الأمومة عند العرب ٤٥ (٤) شعار الخضر ٨٩ (٥) شعار الخضر ١٧٣ (٦) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧ (٧) المرجع السابق ٣٦ (٨) الرق فى الإسلام ١٩ (٩) الحضارة المصرية لوبون ٧١

(٢)

وكانت الأمة تستعبد كما يستعبد الأسير ، والأسير كان فى عداد العبيد ، فقد أسر زيد الخيل جماعة من بنى عامر وحلفائهم ، منهم الحطيئة الشاعر ، ثم منّ عليه وأطلقه وقال :

أقول لعبـــدِى جَرْول إذ أسرتُه أثبْنى ولا يغرُرْك أنك شـــاعر

فمدحه الحطيئة بقصيدتين[١].

وكن إذاً يقمن بأعمال تناسب عبوديتهن :

١ — فيخدمن سادتهن ، ولهذه الخدمة مظاهر شتى . فقد تكون خدمة للملوك تشبه عمل الوصيفات . يدل على ذلك قول النابغة الذبيانى فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى :

تحييهم بيضُ الولائد بينهم وأكسية الإضْريج فوق المشاجب[٢]

وقد يطبخن الطعام ، ويظهر أنهن كن يستقللن بالطبخ فى بيوت الاشراف ؛ لأن نساءهن مترفات أو مترفعات أو مكفيات العمل ، قال طرفة :

تبيت إماء الحى تطْهَى قُـــدُورَنا ويأوى إلينا الأشعث المتَحَّرف[٣]

وقال إن الإماء اشتوين لنا ولد الناقة على الرماد الحار وعلى الجمر ، وسعين علينا بقطع من السنام السمين :

فظل الإماء يمتللن حوارَها ويُسْعَى علينا بالسَّديف المسَرْهد[٤]

وإذا ما فرغ السادة من الطعام أكلت الإماء ما بقى ، يدل على ذلك قول النابغة :

فظل الإماء يبتدرن قَدِيحَهـــا كما ابتدرت سعدٌ مياه قُراقِر[٥]

ويقول عمرو بن قميئة :

ورأيت الإماء كالجعْثن البـــا لى عكوفاً على قرارة قِدْر

ورأيت الدخان كالرِّدغ الأصْحَـ م يَنْبَاعُ من وراء السِّتر[٦]

---

(١) الأغانى ١٦/٥٤ (٢) ديوان النابغة ٨ الولائد : الإماء . الإضريج : خز أحمر أو أصفر

(٣) ديوان طرفة ٤٤ و١٢٧ وشعراء النصرانية ٣١٣ المتحرف : الذى أذهبت السنون ماله

(٤) ديوان طرفة ٣٥ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ٣٧ مخطوط . يمتللن : يشوين فى المللة وهى الرماد الحار والجمر . الحوار : ولد الناقة . السديف : قطع السنام . المسرهد : السمين

(٥) أساس البلاغة مادة قدح . قديح : بقية المرق فى القدر (٦) ديوان عمرو بن قميئة ٦٦ الجعثن : أصول الصليان وهو نبت . الردغ : الطين . ينباع : يخرج فى شدة

ومدح الأسود بن يعفر قوماً بأنهم كرماء لا تميل إماؤهم أوانى الطبخ ، أى لا يفرغن من الطهو للضيفان :

بها ليل لا تُصْغى الإماء قدورهم إذا النجم وافاهم عشاءً بشمأل[١]

وكن يحتطبن أيضاً ، يقول الأخنس بن شهاب فى وصفه الأطلال إن النعام يمشى بها آمناً متثاقلا كمشى الإماء الحواطب أعياهن ثقل الحمل :

فلابنة حطّان بن قيس منـــازل كما نَمّق العنوانَ فى الرّق كاتب

تُمَشّى بها حُولَ النعام كأنها إماء تُزَجّى بالعشىِّ حوَاطب[٢]

ويقول طرفة فى هذا المعنى :

حابِسى رسمٌ وقفتُ به لو أطيع النفسَ لم أَرِمْهُ

لا أرى إلا النعـــام به كالإماء أشرفت حُزَمُه[٣]

وقد وصف قيس بن الخطيم الإماء بأنهن حواطب ، مما يدل على شيوع هـذا العمل فى طبقة خاصة أو على أنه عمل مرهق :

أصابَتْ سراةً مِلْأَغرٍّ سيوفُنا وغودر أولاد الإماء الحواطب[٤]

وكان الاحتطاب من عمل العبيد أيضاً . يؤيد ذلك قول امرىء القيس إنهم خرجوا للصيد وشرع عبيدهم يجمعون الحطب ليشتووا القنص :

خرجنا نَرِيغُ الوحشَ بين ثُعَالةٍ وبين رُحَيّات إلى فَجّ أَخْرُب

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نَحْطَب[٥]

وكن يرعين الغنم والإبل كما يرعى العبيد ، قال ذو الإصبع العدوانى فى رده على ابن عمه وتعريضه به — وكان ابن أمة — :

عنّى إليك فما أمى براعية ترعى المَخاض وما رأيى بمغبون[٦]

وقال الأعشى :

والبيضُ قد عنَسَتْ وطال جَراؤُها ونشأن فى قِنٍّ وفى أَذْواد[٧]

---

(١) لسان العرب ١٩/١٩٦ لاتصفى : لا تميل أو لاتنقص القدور (القاموس والأساس) وفى اللسان لاتصفو أى لا تأخذ صفوه . (٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٢٣ والموشح ٤٤ وشعراء النصرانية ١٨٤ حول : لم تحمل (٣) ديوان طرفة ٧٠ (٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط (٥) معجم البلدان ١/١٤٨ (٦) المفضليات ١/١٥٨ والأمالى ١/٢٥٥ المخاض : الحوامل من النوق أو التى بلغت سنتين (٧) ديوان الأعشى ٩٩ : عنست : لم يتزوجن . طال جراؤها : طال زمن شبابها . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل

٢ — يحترفن بالبغاء :

(ا) كان بعض الإماء جميلات كما وصفهن طرفة[١] ، وعبدة بن الطبيب[٢] ، وسلامة ابن جندل[٣] ، وامرؤ القيس[٤]. وكن لا يتحرزن ولا يتصوّنّ ، فكان الرجال يستمتعون بهن . يدل على ذلك قول الأعشى :

والبيضُ قد عنسَت وطال جَراؤُها ونشأن فى قِنّ وفى أذواد

ولقد أخالسهنَ ما يمنعْنى عُصُراً يَملْنَ علىَّ بالأجْياد[٥]

وقد أحب واحدة منهن ؛ وأكثر من التشبيب بها . أحب هُرَيْرة ، وكانت هى وأختها خُلَيدة قينتين لبشر بن عمرو بن مِرثد ، قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان[٦]

(ب) لهذا احترف بعضهن بالبغاء ، وكان البغاء مقصوراً عليهن ، والدليل على ذلك أن البغىّ فى اللغة الأمة أو الحرة الفاجرة[٧] ، ومن إطلاقها على الأمة قول الشاعر :

فخر البغىّ بجدج ربّ تها إذا ماالناس شَلّوا[٨]

ويذكر أبو على القالى أن البغاء الفجور فى الإماء خاصة ، وأن البغىّ الأمة[٩] . وقد عبر الأعشى عن الإماء بالبغايا فى مدحه الأسود بن المنذر أو المنذر ابنه :

يهب الجلّة الجراجر كالبُسْ تان تحنو لدَرْدَق أطفال

والبغايا يَرْكُضْنَ أكسيةَ الإضْ ريج والشَّرْعبىَّ ذا الأذيال[١٠]

ثم إن القرآن الكريم عبر عنهن بالفتيات ، وهذه الكلمة لم تطلق فى القرآن إلا على الإماء « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانهم من فتياتكم المؤمنات[١١] » . « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم[١٢] » . فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضاً ما خص القرآن الإماء بالذكر ، على أن أنفة العرب

---

(١) ديوان طرفة ٣٥ (٢) المفضليات ١/١٤٣ (٣) المفضليات ١/١١٨

(٤) ديوان امرئ القيس ١٤٢ (٥) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الشباب والفتاء . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل (٦) الأغانى ٨/٧٧ (٧) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى

(٨) جمهرة الأمثال ١٠٧ (٩) الأمالى ٢/١٧٥ (١٠) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨/٨٣ الجلة : الإبل المسنة . الجراجر : جمع جرجور وهو البعير الضخم . دردق : صغار الإبل . الشرعي: نوع من البرود (١١) سورة النساء الآية ٢٥ (١٢) سورة النور الآية ٣٣

وغيرتهم على الحرائر ، وعفة الحرائر أيضاً وتخوفهن سوء القالة ، كل ذلك كان مغنياً عن نهى العرب عن إكراه النساء الحرات على البغاء[١] .

(ج) وإذاً فقد كان بعض الرجال يقتنى الإماء ويكرههن على البغاء ، ليجلبن له مالا ، أو ليلدن أولاداً يبيعهم ، أو ليكرم ضيفه ، فمثلا كان عبد الله بن جدعان نخّاساً ، له ست جوار يزنين ويبيع أولادهن[٢] ، وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول يجبر جاريتيه أو جواريه الست على البغاء ؛ لأنه كان يبيع أولادهن ويتقاضى منهن ضرائب ، وكان إذا نزل به ضيف أرسل اليه جارية ليباشرها تكريماً له ، فشكت إحداهن أو اثنتان منهن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية . وعن ابن عباس وعن علىّ أن بعض الرجال كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك فى الإسلام[٣] . ويظهر أن شذاذاً من الأعراب كآل عزة بالعراق ظلوا يجبرون جواريهم على الزنا مجلبة للأولاد كفعل الجاهلية[٤] .

ولم يكن هذا العمل القبيح موقوفا على ابن جدعان وابن أبىّ ، وإنما مارسه غيرهما كما سيجىء .

(د) وكن يميزن بيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل إليهن من يريدهن[٥] . وقد ذكرتهن السيدة عائشة فى أنكحة الجاهلية[٦] . وقيل إنهن كن تسعا أو أكثر معروفات ، سمى منهن هشام بن الكلبى أكثر من عشر فى كتابه المثالب[٧] . وهن جميعاً من سواقط الإماء مثل سُرَيْفة جارية زمْعة بن الأسود ، وأم عُلَيْط جارية صفوان بن أمية ، وحَنّة القبطية جارية العاص بن وائل[٨] .

وقد اشتهر من هؤلاء سُمَيّة أم زياد وإخوته ، وهى جارية فارسية أهديت إلى سيدها الحارث بن كلدة الطبيب[٩] ، وكان لها أبناء اشتهروا . فابنها أبو بكرة نُفَيْع انضم إلى الرسول فى حصار الطائف سنة ٨ هـ عند ما وعد من ينضم إليه أن يكون حراً ، سواء أكان حراً أم عبداً ، وصار من مواليه[١٠] . وابنها نافع بقى مع الحارث بن كلدة فأعلن حريته وبنوته كما أعلن بنوة أَزْدة بنت سمية[١١] .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٢٧٠ ـ ٢٧٥ (٢) الأعلاق النفيسة لابن رسته ٢١٥/٧
(٣) تفسير الطبرى ١٠٣/١٨ وتفسير القرطبي ٢٥٤/١٢ والإصابة ٢١/٨ و١٨٩ وفتح البارى ٣٧٨/٤ وتفسير الألوسى ١٥٧/١٨ والعقد الفريد ٢/٣ وتفسير الجلالين ٢٩٥ وتفسير الرازى ٣٩١/٦
(٤) تفسير الألوسى ١٥٧/١٨ (٥) إنسان العيون ٤٦/١ (٦) فتح البارى ١٥٩/٩
(٧) بلوغ الأرب للألوسى ٥/٢ (٨) بلوغ الأرب للألوسى ٥/٢ (٩) أسد الغابة ١٥١/٥ والروض الأنف ١٣/٢ والمعارف ٩٧ ومعجم البلدان ١٥٢/٢ والأغاني ٦٥/١٧ ودائرة المعارف الإسلامية ٣١٥/١ (١٠) المغازى ٣٧١ والروض الأنف ٣٠٤/٢ (١١) فتوح البلدان ٣٤٣ و٣٥٠ والمعارف ٩٧

وهؤلاء جميعاً إخوة زياد لأمه ، وبحسب زياد من نباهة الشأن أن ادعى أخوته معاوية ، وأن جعله أكبر ولاته .

(هـ) وإذا ما تغضنت وجوه هؤلاء البغايا الحسان ، ويبست أعوادهن ، وانصرف الرجال عنهن غلبتهن طبيعتهن ، فسفرن بين الرجال والنساء ، يتكسبن بذلك ويتعزين بشيوع الفاحشة ، ويثأرن من المجتمع الذى يحتقرهن . يدل على ذلك قول السيدة عائشة : ليست الواصلة بالتى تعنون ، وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بغياً فى شبيبتها ، فإذا أسنّت وصلته بالقيادة[1] . وفى شعر امرىء القيس[2] والأعشى[3] وعنترة[4] ما يدل على ذلك .

(و) وهؤلاء البغايا كن محقّرات ، لأنهن جمعن حقارة الإماء إلى حقارة البغاء ، والدليل على تحقير الإماء وبخاصة فى نظر النساء أن عاصية بنت ثابت بن أبى الأفلح زوجة عمر رضى الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت اسمى فسمّنى . فقال : أنت جميلة . فغضبت وقالت : ما وجدت اسما تسمينى به إلا اسم أمة ؟ وأتت النبى صلى الله عليه وسلم واستسمته فسماها جميلة أيضاً . فغضبت ، وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه[5] .

ويدل على ذلك أيضاً هجاء عمرو بن معد يكرب لخصومه بقوله :

وكنتم أعبدا أولاد غَيْلٍ ... بنى آمٍ مَرَنّ على السِّفاد[6]

وقد أكثر يزيد بن مفرّغ من هجاء عباد بن زياد ، والتنديد بمعاوية ، لأنه ادعى أخوة زياد ، كقوله لعباد :

إذا أودى معاوية بن حرب ... فبشّر شعْبَ قلبك بانصداع
فأشهدُ أن أمك لم تباشر ... أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لَبْسٌ ... على وجلٍ شديدٍ وارتياع[7]

وقوله لمعاوية :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مُغَلْغَلَةً من الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زان ؟

(١) عيون الأخبار ٤/١٠٢ (٢) ديوان امرىء القيس ١١٣
(٣) ديوان الأعشى ١٢٢ و١١٤ (٤) ديوان عنترة ١٥٢ (٥) الإصابة ٨/٤٠
(٦) لسان العرب ١٨/٤٧ الغيل : اللبن ترضعه المرأة وهى حامل . آم : إماء
(٧) الأغانى ١٧/٥٧ و٦٦ والشعر والشعراء ١٣٣

فأشهدُ أن رُحْمَك من زياد كرُحْم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً وصخرٌ من سُمَيَّة غير دان (١)

وله فى هذا المجال جولات (٢) .

وكانت البغايا يشعرن بمهانتهن كما يشعر الإماء بعامة ، ومصداق هذا أن بيوتهن كانت بمنأى عن المساكن ومضارب الخيام ، وأن روادهن كانوا يتسلّون إليه فى الظلام ، لذا سمّين المظلمات . تقول العوراء بنت سُبيع فى رثائها أخاها إنه كان عفّاً لا يرود بيت مظلمة :

أبكى لعبد الله إذ حُشّتْ قبيلَ الصبح ناره
طيان طاوى الكشح لا يُرْخى لمظْلمةٍ إزاره (٣)

وقد قيد العرب البغاء بقيود ، منها أنه كان يحظر على العربية أن تمتهن بالبغاء ، لأنه كان يقصر على الرقيقات الأجنبيات ، ومنها أن كثيراً من الالتزامات العائلية كانت تجب بسببه (٤) كما ذكرت السيدة عائشة فى حديثها عن نكاح الجاهلية أن البغى إذا حملت ووضعت جمعوا لها القافة ، فألحقوا ولدها بمن يرونه شبيها به من الذين ترددوا عليها ، فيدعى ابنه ولا يمتنع من إلحاقه (٥) .

ز ولست أرتاب فى أن تأجير الأمة للزنا امتهان لها ، ومهانة لسيدها . ولا يمسح هذه الوصمة عن العرب أن بعض الأمم شاركتهم فيها ، فالرومان كانوا يسبون النساء ليستمتعوا بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان لأنهن يجلبن لمالكهن ثروة من الفجور (٦)

وكانت الفتيات والزوجات يبحن للرجال أن يباشروهن فى هيكل الإلهة عشتروت ببعلبك ، ويعتبرون هذا عملا مقدسا ، لأنه زلفى إلى إلهة الخصب والنتاج ، وقد ظلت هذه العهارة المقدسة إلى عهد قسطنطين (٧) .

---

(١) المرجع السابق (٢) الأغانى ١٧/٥٧ ـ ٧٠ وخزانة الأدب ٢/٥١٦ ووفيات الأعيان ٣/٣٢٣ والعقد الفريد ٣/٢٣٢ ويذكر صاحب العقد أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت هو القائل : ألا أبلغ معاوية بن حرب . الأبيات (٣) مراثي شعراء العرب ١٤٧ حشت : أوقدت
(٤) الأسرة والمجتمع ٧٥ (٥) إنسان العيون ١/٤٧ (٦) الرق فى الإسلام ٣٤
(٧) النظم السياسية والاجتماعية ٢٢

كذلك كان لزاما على كل امرأة فى بابل وأشور أن تمارس العهارة المقدسة مرة فى حياتها ، فكان هيكل مليتا ربة الجمال يغص بهؤلاء النسوة [١] ، وقد شهد هيردوت هذه الحفلات فى أشور تقديسا للإلهة استار [٢] ، كذلك كان الفينيقيون والإسرائيليون يمارسون العهارة المقدسة ، واتخذوا البغاء تكريماً لعشتروت [٣] .

بل إن فساد الخلق تسرب إلى زوجات بعض القياصرة ، وجاهرن به ، وحسبنا أن نذكر اسم ليفيا أو ستيليا زوجة كاليكولا (٣٧ — ٤١ م) ومسّالين زوجة خليفته كلود (٤ — ٥٤ م) . وكانت تيودورا زوجة جستنيان الأول سيئة السيرة ، وقالوا إنها فسقت علانية مع ابنها ومع أختها ، ومع سيدات الحاشية ، وتمادت إلى أن كانت تخرج مع أختها فى الليل فتفترشان بساطا فى الشارع وتفسقان عليه [٤] .

فإذا كان بعض العرب قد أجر الإماء للفجور فإن غيرهم قد فعل ذلك أو ما يشبهه . ولكن هذا لا يبرئ العرب من اللوم ، سواء أكان الباعث لهم الرغبة فى المال ، أم فى الأولاد الذين يباعون أحيانا ، أم إلطاف الضيف كما سبق ، أم كان الباعث أن هذا ضرب مشوه من العهارة المقدسة ، التى كانت معروفة عند الأشوريين والبابليين والفينيين والرومان واليهود ، والعرب على صلة بهؤلاء جميعاً .

والواقع أن عدد الإماء اللائى كن يبغين كان قليلا جداً كما سبق ، ولم يكن يمارسه من نساء العرب أحد .

(٣)

وكن يُبَعْنَ ويُورَثْنَ ، فقد اشترت أم حبيبة بنت أبى سفيان أمة اسمها بركة جاءت بها من الحبشة معها [٥] . وورث النبى عن أمه مولاته أم أيمن — اسمها بركة — [٦] ، ويظهر أنها هى التى ذكر ابن سعد أنه ورثها من أبيه ، وأنها كانت جارية عسراء اللسان ، واسمها أم أيمن ، وهى حاضنة الرسول ومربيته ، وقد أعتقها حين تزوج السيدة خديجة ، وكان يدعوها أمه ، وكان إذا نظر إليها يقول . هذه بقية أهل بيتى [٧] .

وسيأتى حديث الشعر عن هبة الإماء القيان ، وعن أثر القيان فى الغناء .

---

(١) P. A Rosler. la Question Femineste». 137 (٢) Rosler. P. 140

(٣) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى جستاف لوبون ٥١ (٤) المرأة فى التاريخ والشرائع ٨٦

(٥) Histoire Des Papes. Tome 2. 67 (٦) الإصابة ٨/٢٧ (٧) المعارف ٤٧

(٨) الطبقات الكبير ٧/٦٢

السِّباء بين الجاهلية والإسلام

بزغ الإسلام والسباء ضرورة من ضرورات الحرب فى كل الأمم ، فلا مندوحة عن الحرب ولا مناص من السبى والأسر ، وقد تغلغل نظام الرق فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وصار دعامة فى صرح الحياة . فلو أن الإسلام أبطل الرق دفعة واحدة لهدم هذا الصرح وأوقع الناس فى اضطراب وثورات وشرور ، ولأضر بالسادة المالكين وبالأرقاء أنفسهم .

ثم إن الأرقاء لم يكونوا قد بلغوا من الوعى الحد الذى يجعلهم يسخطون مكانتهم ، ويدفعهم أو يدفع بعضهم إلى التمرد والثورة على هذا النظام العام .

ولم يكن الأحرار الذين يقتنون العبيد قد ارتقى بهم تفكيرهم وسمت بهم أخلاقهم وعواطفهم إلى اجتواء هذا النظام وإيثار حريه البشر على استعبادهم وتسخيرهم .

لذلك لم تحرم اليهودية أو المسيحية الرق ، ولم تسن من القوانين ما يضيق نطاقه ، وكل ما فعلت أن أوصت الأحرار بإحســـان معاملة الأرقاء ، وأوصت الأرقاء بالإخلاص لسادتهم[١] .

وأيده توماس الأكوينى كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو فى القرن الثالث عشر ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية وإلى أقوال أرسطو فى كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء فى حكم الآلات التى تراد لعمل من الأعمال ، ولم ير فى نظام الرق شيئاً يعاب[٢] .

لكن الإسلام نظم الرق كما نظم شئون المجتمع ، وإذا ما وازنا بين حال السبايا فى الإسلام وحالهن فى الجاهلية وجدنا الإسلام قد أقر بعض ما تعارف عليه العرب ، وعدّل بعضه ، وأبطل الباقى .

ما أقره الاسلام :

١ — أقر الإسلام السبى فى الحرب المشروعة . فقد سبى النبى صلى الله عليه وسلم نساء من هوازن ثم ردّهن . وسبى من بنى المصطلق[٣] . وأسر المسلمون من طيىء سبايا ، فيهن بنت حاتم ، فاستعطفت النبى بمكارم أبيها فخلى سبيلها[٤] . وحكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة أن تقتل

(١) رسالة بولس إلى أهل أفسس ٦ : ٥ — ٩ (٢) داعى السماء بلال ٧٤

(٣) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ١١/٩٠ وفتح البارى ٥/١٢٢ والسنن الكبرى للبيهقى ٩/١٢٤ والتنبيه والإشراف ٢١٥ (٤) الأغانى ١٦/٩٣

مقاتلتهم ، وتسبي ذراريهم ونساؤهم . فقال رسول الله : أصبتَ فيهم حكم الله [١] . ثم لما بعث معاوية بُسْر بن أرطأه لينكل بشيعة علي سار حتى أتى همدان فتغفلهم ، وأغار عليهم فقتلهم وسبى نساءهم [٢] .

٢ — وأقر الإسلام إعتاق السبايا كما أطلق النبي سبايا هوازن . وأقر إطلاقهن بعوض ، فقد كاتب النبي عليه الصلاة والسلام جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق ، وقيل إنها كانت في سهم ثابت بن قيس ، وكاتبت نفسها فأنجز رسول الله كتابتها وتزوجها ، فأرسل الناس ما في أيديهم من سبايا بني المصطلق ، إكراماً لهم لأنهم صاروا أصهار رسول الله [٣] .

٣ — وأقر الإسلام بيع السبايا ، لكنه راعى ألا يفرق بين الأقرباء القرابة ، فقد بعث رسول الله حارثة بن زيد نحو مدين فأصاب سبياً من أهل ميناء ، فبيعوا ففُرِّق بينهم ، فخرج رسول الله وهم يبكون فقال : مالهم ؟ فقيل : يا رسول الله فُرِّق بينهم . فقال: لا تبيعوهم إلا جميعاً . قال ابن هشام : أراد الأمهات والأولاد [٤] . وفي الحديث الشريف : من رضي رقيقه فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه فلا تعذبوا خلق الله [٥] .

ولما باع علي بن أبي طالب جارية وولدها وفرق بينهما نهاه رسول الله عن ذلك ورد البيع ، وقال بعهما أو أمسكهما جميعا [٦] ، وكذلك أمره لما باع غلامين أخوين وفرق بينهما [٧] . وفي عهد عمر رضي الله عنه أتى الصحابة إلى المدينة بسبي فارس ، وكان فيهن ثلاث بنات ليزدجرد — ملك الفرس — فباع المسلمون السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً ، فقال له علي بن أبي طالب : بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن . فقال عمر لعلي : كيف الطريق إلى معاملتهن ؟ قال يقوَّمن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقوَّمن فأخذهن علي بن طالب، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لمحمد بن أبي بكر ، والثالثة لولده الحسين [٨] ، وهي شاهبانو Sahbanu [٩] .

٤ — كما أقر أن يوهبن وأن يورثن وأن يخدمن سادتهن .

---

(١) التنبيه والإشراف ٢١٧ والخراج للقرشي ١٤ (٢) النقائض ٦١٧
(٣) فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي ٢/٢٤٨ (٤) سيرة ابن هشام ٤/٣١٢
(٥) البيان والتبيين ٢/٣٦ (٦) السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٢٦
(٧) المرجع السابق ٩/١٢٧ (٨) ربيع الأبرار للزمخشري
(٩) الدعوة إلى الإسلام أرنولد ١٨١

ماعدّله الإسلام :

١ — كان العرب يبيحون للسيد أن يستولد سبيته ، ويبيحون له أن يستولد أمته ، لكنها تظل أمة بعد أن تلد له . فأقر الإسلام حق السيد فى استيلادها ، أما حريتها أو عبوديتها بعد أن تلد لسيدها فقد تعارضت فيها الآراء حقبة من الزمن حتى استقرت المذاهب الأربعة ، فتقررت حرية السببية أو الأمة بعد موت سيدها بولادتها منه ، وملخص الآراء :

(ا) لا يجوز لولى السيد أن يبيع أمته بعد وفاته إذا كانت أم ولد . حدثت سلامة بنت معقل فقالت : قدم بى عمى فى الجاهلية فباعنى من الحباب بن عمرو ، فولدت له عبد الرحمن، ثم هلك ، فقالت امرأته : الآن والله تباعين فى دَيْنه . فأتيت رسول الله فشكوت له ، فاستدعى البُسْر بن عمرو أخا الحباب فقال : أعتقوها ، فإذا سمعتم برقيق قدم علىّ فأتونى به أعوضكم منها[1] ففعلوا . ثم اختلفوا فيما بينهم بعد وفاة رسول الله ، فقال قوم : أم الولد مملوكة ، ولولا ذلك لم يعوضهم رسول الله منها . وقال بعضهم : هى حرة قد أعتقها رسول الله . ففى كان الاختلاف[2] . ورويت فى عتق أم الولد أحاديث شتى منها « أم الولد حرة وإن كان سقطا » و « أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات ، إلا أن يعتقها قبل موته » و « من وطىء أمة فولدت له فهى معتقة عن دُبُر منه[3] » .

(ب) ثم جاء عمر رضى الله عنه فقرر أن أم الولد تتحرر إذا مات عنها سيدها ، وقال الأمة يعتقها ولدها وإن كان سقطا ، وطبّق ذلك فأعتق أمهات الأولاد وقال : أعتقهن رسول الله . وأمر بتقويم أمهات الأولاد بقيمة عدل فى أموال أبنائهن ثم يعتقن ، ومكث على ذلك صدرا من خلافته إلى أن توفى رجل من قريش كان له ولد من أمته ، فسأل عمر الغلام يوماً : ما فعلت يابن أخى فى أمك ؟ قال قد خيرنى إخوتى فى أن يسترقوا أمى أو يخرجونى من ميراثى من أبى ، فكان ميراثى من أبى أهون علىّ من أن تسترق أمى . ثم قام عمر فخطب فى الناس فقال : إنى قد كنت أمرت فى أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم قد حدث لى رأى غير ذلك ، فأيما امرىء كانت عنده أم ولد يملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات فهى حرة لا سبيل عليها[4] .

(ج) ويظهر أن الحكم لم يكن قد استقر، فإنّ على بن أبى طالب انحرف عن رأى عمر[5]

---

(١) أسد الغابة ٥/٤٧٧ وسنن أبى داود ٢/١٠٦ (٢) مسند الإمام أحمد ٦/٣٦٠
(٣) كنز العمال ٥/٢٤٨ الحديث ٥٠٣٩ — ٥٠٤١ ومسند الإمام أحمد ١/٣٠٣ و٣١٧
(٤) كنز العمال ٥/٢٥٢ الحديث رقم ٥١١٨ (٥) كنز العمال ٥/٢٥٣ رقم ٥١٣٠ و٥١٣١

ثم رجع إليه [١] . وقيل إن ابن عباس أيضاً عارض رأى عمر، وقيل إن علياً وابن عباس كانا يوافقانه [٢] . وأصر بعض المسلمين على أن النبي أقر بيع أم الولد [٣] ، وروى ابن حنبل عن جابر « كنا نبيع سرارينا أمهات أولادنا والنبي صلى الله عليه وسلم فينا حي لا يرى بذلك بأساً [٤] » . وذهب آخرون إلى أن النبي لم يقر بيعها مستدلين بأن صحابة النبي وافقوا رأى عمر [٥] . وقد أورد البخارى حديثين فى أم الولد أيحكم بعتقها أم لا [٦] .

ثم جاء العينى فلخص الآراء المختلفة فيها [٧] .

(ء) ثم لما تكونت المذاهب أخذت بالرأى القائل إن أم الولد لا يصح بيعها ، وعلى ذلك أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعى وغيرهم . لكن داود والظاهرية والإمامية الاثنى عشرية والمعتزلة ذهبوا إلى جواز بيعها .

فمثلا يرى الإماء مالك أنه لا يجوز بيعها إذا حملت من سيدها ولا يجوز له أن يقبل منها مالاً تفتدى به نفسها [٨] .

وهذا الجدل الطويل والخلاف فى الرأى فى صدر الإسلام وبعده دليل على أن الإسلام لم يحسم الحكم فى أم الولد إلى أن تكونت المذاهب الأربعة . وإذاً فالشبه قوى بين النظام الذى سار عليه العرب فى الجاهلية فى معاملة الأمة أم الولد وبين الآراء الإسلامية التى تبيح بيعها فى الإسلام ، وإن كان رأى الجمهور أكسبها فى الإسلام حقاً لم يكن لها فى الجاهلية .

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى ١٠/٣٤٢ (٢) كنز العمال ٥/٢٥٣ رقم ٥١٣٢ و٥/٢٤٨ رقم ٥٠٣٩ و٥/٢٤٨ رقم ٥٠٤١ والطبقات لابن سعد ٨/١٥٥ ومسند أحمد بن حنبل ١/٣٠٣ و٣١٧

(٣) كنز العمال ٥/٢٥٣ رقم ٥١٢٥ و٥١٢٧ وابن ماجه باب العتق (٤) مسند الإمام أحمد ابن حنبل ٣/٣٢١ (٥) سنن أبى داود باب العتق ٨ والعينى على البخارى عتق باب ٨

(٦) فتح البارى ٥/١١٨ (٧) هذه الآراء هى : «ا» الثابت عن عمر عدم جواز بيعها ، وروى مثله عن عثمان وهو قول أكثر التابعين ومالك والثورى والأوزاعى والليث وأبي حنيفة والشافعى فى أكثر كتبه ، ونقل عن المزنى أنه قال : قطع الشافعى فى أربعة عشر موضعاً من كتبه بألا تباع . قال العينى وهو الصحيح من مذهبه وعليه جمهور أصحابه . «ب» يجوز للسيد أن يعتق أم الولد مقابل مال يأخذه فتكون كالمكاتبة . «ج» يجوز بيعها من غير قيد أو شرط وهو رأى أبي بكر وعلى وابن عباس وغيرهم . «د» يجوز لسيدها وحده أن يبيعها فى حياته فإن لم يبعها ومات عنها تصير حرة . «هـ» يجوز بيعها سدادا لدين سيدها المتوفى «و» يجوز بيعها ولكن إذا كان ولدها موجوداً عند موت أبيه سيدها تعتق وتحسب من نصيب الولد فى التركة وترث معه «ز» يجوز بيعها على شرط أن تعتق ولا يجوز بغير هذا الشرط «ح» إن عقت وأبقت لم يجز بيعها وإن فجرت أو كفرت جاز بيعها (شرح العينى على البخارى ٦/٢١٧ ـ ٢٢٠) (٨) شرح الموطأ ٣/٨٧

٢ — وحبب الإسلام إلى الناس أن يتسروا ؛ لأن نكاح السّرية تكريم لها ، وإذا ماولدت ارتفعت منزلتها فصارت أم ولد . قال تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة[١] ».

أى انكحوا من السرارى أى عدد بالغاً ما بلغ ، كما يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة ، وسوّى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة والسرارى من غير حصر ؛ لقلة تبعتهن وخفة مئونتهن ، وعدم وجوب القسم فيهن[٢] .

وحبب النبي إلى المسلمين أن يتزوجوا بهن بعد عتقهن كما سبق ، وذكر السيوطى أحاديث ترغب فى التسرى، منها :

« اتخذوا السرارى فإنهن مباركات الأرحام ، وإنهن أنجب أولاداً[٣] » ، وجرى كثير من المسلمين على ذلك ، فعمر بن الخطاب يقول « ليس قوم أكيس من أولاد السرارى ، لأنهم يحملون عز العرب ودهاء العجم .

وأنشد راجز من بنى سعد :

أنا ابن سعـــد وتوسطت العجم فأنا فيما شئت من خال وعم[٤]

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفات النساء فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغريبة أنجب ، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء[٥] . أو بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وماضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية[٦] .

ولما اتسعت الفتوح وكثرت السبايا راجت سوق السرارى وعظم الإقبال عليهن ، حتى لقد روى عن عبد الملك بن مروان قوله : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج الحرائر ؟ . وكان يقال : من أراد قلة المئونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر[٧] .

وكان الخلفاء والأمراء والسراة فى العصر العباسى يجنحون إلى السرارى ، لذلك لا نجد فى خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح ، والمنصور ، والمخلوع ، وأما الباقون فكلهم أبناء السرارى والجوارى[٨] .

---

(١) سورة النساء ٤ (٢) روح المعانى ٤/١٩٥ (٣) الدرارى فى أبناء السرارى ١٤٧ للسيوطى مخطوط (٤) تهذيب الكامل للمبرد ٢/١٠١ (٥) نزهة الأبصار والأسماع ٣٤ (٦) العقد الفريد (٧) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦٤ (٨) اللطائف والظرائف ٦٤

على أن هذا الجنوح إلى السرارى كان يضاده جنوح آخر إلى إيثار الحرائر ولا سيما فى الحجاز . فقد كثرت السبايا فى صدر الاسلام ولكن لم يتزوج خليفة من الراشدين جارية[١] وكان أهل المدينة يكرهون استيلاد الإماء حتى نشأ فيهم على بن الحسين ، والقاسم بن محمد ابن أبى بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وفاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً ، وهم جميعاً أولاد سرارى ، فرغب الناس فى التسرى[٢] . وكانت شهرة هؤلاء الثلاثة شرفاً لأبناء السرارى عامة ، فقد حكى قرشى أن سعيد بن المسيب سأله عن أخواله فقال : أمى فتاة . فنقص فى عينه . ثم دخل عليه هؤلاء الثلاثة ، فسأله القرشى عن أم كل منهم . فقال : فتاة . فقال له القرشي رأيتنى نقصت فى عينك لأنى ابن فتاة ، أفمالى بهؤلاء أسوة ؟ فجل فى عينه[٣] .

ويروون أن عبد الملك بن مروان تنقّص من قدر ابنه مَسْلمة — وكان ابن أمة — متمثلا بشعر يحقر من شأن أبناء الإماء . فرد عليه مسلمة متمثلا بشعر يرفع من أقدارهم ، فسر عبد الملك وقبل رأسه ، وأمر له بمائة ألف[٤] .

وكان بعض العرب يتشدد فى عروبة من يصهر إليه وإن كان ابن خليفة كعقيل بن علفة المرى ، فإنه لما خطب إليه عبد الملك ابنته لبعض ولده قال له : جنبنى هجناء ولدك[٥] لهذا عمد بعضهم إلى العَزْل ليحولوا دون ولادة الإماء ، وقام جدال فى العزل أحرام أم مباح[٦] والذى يظهر لى أن نكاح الإماء كان فى الإسلام كما كان فى الجاهلية وسطاً بين الرغبة فيه والرغبة عنه ، وأن الإماء وأبناءهن — من غير سادتهن فى الإسلام — كن فى الغالب أدنى إلى التحقير منهن إلى التوقير . وقد سبق أن العرب كانوا لايسودون أبناء الإماء ويسمونهم الهجناء ، ويسمون أولاد الحرائر الصرحاء ، وسار على سنتهم بنو أمية ، فلم يستخلفوا ابن أمة : لأنه فى رأيهم لا تصلح به العرب[٧] .

٣ — كان الإسلام أعظم عطفاً على الأسرى والسبايا ، لأنه ابتدع وسائل لتحرير الرقيق . من هذه الوسائل تحرير الأرقاء الذين خرجوا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وتحرير العبد إذا عذبه سيده ، والتدبير . ومنها أنه جعل العتق كفارة لكثير من الذنوب كالقتل الخطأ والظهار وإفساد الصوم عمداً والحنث فى اليمين .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٢٦ و٢٩ (٢) وفيات الأعيان ١/٣٢٠ واللطائف والظرائف ٦٤
(٣) ربيع الأبرار للزمخشرى ٨ مخطوط (٤) حماسة الخالديين ٣٥ مخطوط وربيع الأبرار ٣
(٥) العقد الفريد ٢/٢٥٦ (٦) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٢٢٨ — ٢٣١ ومفتاح كنوز السنة مادة العبيد ٣٣١ ومادة العتق ٣٣٣ (٧) جمهرة الأمثال ١٥ والعقد الفريد ٣/٢٢٩

وكثيراً ما رغب النبي إلى المسلمين أن يعتقوا ويتزوجوا عتائقهن[١] .

وأباح الإسلام للأرقاء أن يكاتبوا ساداتهم[٢]، وحبب إلى المسلمين أن يساعدوهم فى جمع هذا المال ليتحرروا ، وجعلهم مصرفاً من مصارف الزكاة . قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم[٣] » . وقال « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل[٤] » ، وجعل إعطاءهم من أنواع البر[٥] . لذلك تنافس المسلمون فى عتق الأرقاء ، حتى لقد أنفق أبو بكر كثيراً من ماله فى شرائهم وإعتاقهم ، وحتى قيل إن النبى أعتق ٦٣ نسمة وإن السيدة عائشة أعتقت ١٠٠[٦]، وإن العباس أعتق ٧٠ وإن عثمان أعتق وهو محاصر ٢٠[٧] .

وإذا كان العرب قد افتخروا فى الجاهلية بإحسانهم معاملة الأرقاء فإن الإسلام كان أعظم حفاوة بهم وحدباً عليهم . حتى لقد أوصى الله بحسن معاملتهم فى عداد من أوصى بهم من الأعزاء . قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً[٨] » ، وأمر النبى بأن ينادوا بكلمات لا تؤذى : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولا يقولن المملوك ربى، ربتى ، وليقل المالك فتاى وفتاتى ، وليقل المملوك سيدتى وسيدى . فإنكم المملوكون والرب الله عز وجل[٩] » .

وليس أدل على سماحة الإسلام وتقديره لحرية العتق من أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجبر معتوقة السيدة عائشة على مالا ترضى ، ذلك أن بريرة كانت مولاة لعائشة فأعتقتها . فقال لها الرسول : ملكت بُضْعك فاختارى ، وكان زوجها مغيث يمشى خلفها ويبكى ، وهى تأباه . فقال النبى لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له ؟ ثم قال لها اتقى الله

---

(١) فتح البارى ٥/١٠٤ وكنز العمال ٥/٢٤٥ ـ ٢٥٠ وفتح البارى ٥/١٢٥ وسنن أبى داود ١/٢٠٤ والعينى على البخارى ٩/٣٦٩ ومسند أحمد بن حنبل ٢/٤٢٠ و٤٢٢ و٤٢٩ و٤٣٠ و٤٤٧ و٢٢٥ و ٣/٩٤٠ (٢) المكاتبة هى أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما عليه فإذا أداه فهو حر . ولها حالتان . الأولى أن يطلبها العبد ويأباها السيد وفيها قولان . أن الموافقة واجب على السيد ، أو أنها غير واجبة (تفسير القرطبى ١٢/٢٤٥) (٣) النور ٣٣ وكنز العمال ٥/٢٤٨ (٤) التوبة ٦٠ (٥) البقرة ١٧٧ (٦) الأنساب للسمعانى ١/٦٦٣ (٧) التراتيب الإدارية ١/٢٩ (٨) النساء ٣٦ (٩) سنن أبى داود ٢/٢٠١ وفتح البارى ٥/١٣٠ وربيع الأبرار ٢ مع بعض تغيير فى التعبير

فإنه زوجك وأبو ولدك . فقالت : أتأمرنى ؟ فقال : لا ، إنما أنا شافع . فقالت : إذاً لاحاجة بى إليه . فاختارت نفسها [١] .

وكان النبى يكرم جاريته أم أيمن كثيراً [٢] ، وكان يوصى بالرقيق كثيراً ، كقوله : من رضى رقيقة فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، فلا تعذبوا خلق الله [٣] . وقال فى حجة الوداع : أرقاءكم أرقاءكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، فإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم [٤] .

والوصاة بحسن معاملة الأرقاء كثيرة [٥] .

ما أبطله الإسلام :

١ — قصر الاسلام الأسر على أن يكون فى الحرب بين المسلمين والمشركين ، أو بين المسلمين والكفار [٦] ، وبهذا ألغى الأسر والسبى بالنخاسة والاختطاف ، فضيق مجال الأسر

٢ — إذا ما انتصر المسلمون على الكفار وأسروا منهم ، فهم مخيرون فى أن يمنوا على الأسرى بالإطلاق والتحرير بغير عوض أو فدية ، وفى أن يطلقوهم بعوض أو فدية ، وفى أن يقتلوا من يرون فى حياته خطراً عليهم أو يرون فى قتله قصاصا عادلا ، وفى أن يسترقوهم ، وقد اختلف فى قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها [٧] » ، فذهب بعض السلف إل أن الآية فى أهل الأوثان وهى منسوخة ، وبعضهم إلى أنها فى الكفار جميعاً وهى منسوخة ، والناسخ لها قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم [٨] » وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة [٩] » وقوله تعالى : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم [١٠] » ، وإذاً فليس يجوز الفداء ولا المن عليهم ، وقيل : تجوز المفاداة بالمرأة لأنها لا تقتل ، وهو المشهور من مذهب أبى حنيفة . ورأى بعض السلف أن الآية « فإما منا بعد

---

(١) التجريد الصريح ٣/٢٥٥ والمبسوط ٥/٩٨ وأسد الغابة ٥/٤٠٩ (٢) الطبقات الكبير ٧/١٦٢ (٣) البيان والتبيين ٢/٣٦ (٤) مسند الإمام أحمد ٤/٣٦ و٥/١٦٨ و١٧٣

(٥) مسند الإمام أحمد ١/١٢ و٢/٩٠ و١١١ و٢٤٧ و٣٤٢ وفتح البارى ٥/١٢٥

(٦) روى عن ابن عباس أن الكفار هم المشركون عبدة الأوثان . وقيل كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة . ذكره الماوردى واختاره ابن العربى ، وقال : هو الصحيح لعموم الآية فيه . والآية هى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » تفسير القرطبي ١٦/٢٢٥ (٧) سور محمد ٤ (٨) التوبة ٥

(٩) التوبة ٣٦ (١٠) الأنفال ٥٧

وإما فداء » . ناسخة للآية « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . فليس للإمام أن يقتل الأسير ، وإنما له أن يمن أو يفادى أو يسترق .

وذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الآية محكمة ، والإمام مخير فى كل حال . لأن النسخ إنما يكون لشىء قاطع . فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ . وصفة الناسخ والمنسوخ أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما فى حال واحدة ، أو قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر ، وقد أذن القرآن بقتلهم فى آية أخرى .

وإلى هذا ذهب كثير من السلف كابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعى والثورى وأبى عبيد وغيرهم ، وهو المختار لأن النبى والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك . فقد قتل النبى عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث يوم بدر . وقتل بنى قريظة لما نزلوا على حكم سعد . وفادى بجماعة أسارى المشركين يوم بدر . ومنّ على ثمامة ابن أثال الحنفى وهو أسير فى يده . وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين . وهبط عليه قوم من مكة فأخذهم ومنّ عليهم . ومنّ على سبى هوازن . وهذا كله ثابت صحيح (١) .

وإذاً فالنظام الغالب فى الإسلام هو المن والفداء ، لكن النظام الذى كان غالبا فى الجاهلية هو الاسترقاق .

٣ — وحرم الإسلام قتل النساء فى الحروب (٢) ، وقد حدث ذلك على قلة فى الجاهلية إذ أحرق المنذر بن ماء السماء سبايا من بكر بن وائل (٣) ، وأحرق عمرو بن هند امرأة من بنى حنظلة هاجت حنقه بردودها عليه (٤) . وذكر بعض الشعراء أنهم بقروا بطون الحبالى (٥) على أن هذا كان عملا نادرا يدفع إليه الغضب والتشفى ، وكان العرب يعيرون فاعله (٦) .

٤ — وحرم الإسلام بغاء الإماء سواء أكان عاما أم خاصا ، وقد سبق أن بعضهم كان يكره إماءه على البغاء ، فنزل قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » (٧) .

ولم يقتصر الإسلام على تحريم البغاء العلنى العام بل حرم المخادنة أيضا « ومن لم يستطع

---

(١) تفسير الطبرى ٢٦/٢٦ — ٢٧ وتفسير النيسابورى ٢٦/٢٦ وتفسير القرطبى ٢٦/٢٢٥ — ٢٢٨ (٢) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ١٣/٢٥ (٣) الكامل لابن الأثير (٤) الأغانى ١٩/١٢٩ ومجمع الأمثال ١/٣٦٠ (٥) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ١٢ و٢٧ ومعجم البلدان ٧/٣١٧ (٦) الأغانى ١٦/١٣٥ (٧) النور ٣٣

منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان[١] » ، وقد روى عن ابن عباس أن المسافحات هن المعالنات بالزنا ، وأن متخذات الأخدان هن ذوات الخليل الواحد ، وأن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلون ماخفى ، ويقولون إن ما ظهر لؤم ، وإن ماخفى لا بأس به ، فأنزل الله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، وعن قتادة أن المسافحة البغيّ التى تؤجر نفسها من عَرَض لها ، وذات الخدن ذات الخليل الواحد[٢] فنهى الله تعالى عن البغاء بنوعيه ، ونهى عن نكاح البغيّ أيضاً ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب البغيّ[٣] .

٥ — وأبطل الإسلام عبودية ابن الأمة من سيدها وقرر أنه حر ، ويرث أباه[٤] وقد أسلفت أن العرب فى الجاهلية كانوا يستعبدون أولاد الإماء ، ولا يتحرر الولد ولا يرث إلا إذا ادعاه أبوه وأشهد الناس على إلحاقه به . أما إذا تزوج رجل أمة لغيره فإن أبناءها يتبعونها فى الرق[٥] .

٦ — ثم إن الإسلام لم يبح ملامسة السبية قبل التثبت من استبراء رحمها . فقد قسم النبى سبايا أوطاس وبنى المصطلق ، وأمر ألا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل حتى تحيض[٦] وقال : لا توطأ حائل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة[٧] . وقال لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبى حتى يستبرئها[٨] .

٧ — ونحن نعلم أن الإسلام دين المساواة فى أسمى صورها ، وأنه قائم على أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وطالما حض النبى على حسن معاملة الأرقاء ، وكثيراً ما رغب الإسلام فى عتقهم . لذلك قل أن نجد فى شعر المسلمين فى صدر الإسلام من عيّر بالسبى أو هجا برقّ الأم كما كان يحدث فى العصر الجاهلى .

---

(١) النساء ٢٥ (٢) تفسير الطبرى ٥/١٣ والنيسابورى ٥/٢٣
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٣٢ و٢٨٧ والعينى على البخارى ٩/٦٣٤ والأمالى ٢/٢٧٥
(٤) الكشاف ١/٢٠٠ والعقد الفريد ٣/٢٠٩ (٥) الكشاف ١/٢٠٠
(٦) السنن الكبرى للبيهقى ٩/١٢٤ (٧) سنن أبى داود ١/٢١٣
(٨) سنن أبى داود ١/٢١٣

الفصل السادس

المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة

تبوأت المرأة فى الحياة الأسرية مكاناً عالياً لم تتبوأه أختها المعاصرة لها ، ولقد يكون من البداهة أن تدل هذه المكانة على قيمة المرأة فى القبيلة وفى المجتمع كله ؛ لأن القبيلة هى الأسرة الكبيرة ، والمجتمع إن هو إلا قبائل يجمعها الجنس والبيئة والاشتراك فى كثير من نظم الحياة .

لكن ذلك ليس بمحتوم . فقد تعز المرأة فى أسرتها ، ولكنها لا تستمتع بمثل هذه العزازة فى قبيلتها أو فى المجتمع ؛ لأن العزازة فى الأسرة عزازة فى نطاق ضيق ذى حدود ، كثيرا ما تحتبس فيها ولا تتخطاها إلى الميدان الأعظم اتساعاً وهو ميدان القبيلة والمجتمع ، ذلك بأن الرجال يستأثرون بالنفوذ فى هذا الميدان ، ويحتجنونه عن النساء ، وإن كن فى أسرهن عاليات القدر ساميات المكانة .

وسألجأ هنا إلى الشعر أستبثه وأستنطقه كما لجأت إليه فيما مضى ، وسأضيف إليه من التاريخ ما أحتاجه لتوضيح الألوان الناصلة والملامح الحائلة ، والأحداث المبهمة أو المغفلة ، لأستطيع أن أرسم صورة بارزة المعالم للمرأة ، تكشف عن مكانتها فى الحياة العامة فأتبين ما بين هذه الصورة وصورة المرأة فى الحياة الأسرية من تشابه وتماثل أو تنافر وتناقض.

ولقد يبدو أن فى بعض ما روى عن جهود المرأة فى الحياة العامة وفى الحروب مغالاة ، ولسب أدفع هذا كله ، ولست أقره كله ، ولكنى أرى أن ماعُزى إلى المرأة — على مبالغته أحيانا — كفيل بأن يقدم لنا صورة صحيحة من حياة المرأة فى الجزيرة العربية ، لأنه صدى للواقع الذى كان ، وتعبير عما يمكن أن يكون .

شعور المرأة بمساواتها للرجل

كانت المرأة تشعر بأنها مساوية للرجل فى مكانته ، أو يجب أن ينظر إليها المجتمع نظرته إلى الرجل . فقد أنشدت فتاة عضلها أبوها ومنعها الأكفاء :

× أيُزْجَرُ لا هينـــا ونُلْحَى على الصبا وما نحن والفتيـــان إلا شقائق[1]

وفى أمثال العرب « إن النساء شقائق الأقوام » والشقائق جمع شقيقة وهى كل ما يشق نصفين ، فالنساء إذاً مثل الرجال ، لهن مثل ما عليهن من الحقوق[2].

ولقد بلغ بهن شعورهن بمساواتهن للرجال فى كثير من الحقوق أن عجب بعضهن من أن يذكر القرآن الكريم الرجال ويغفل النساء فيما يأمر وينهى ، أوفيما يعد ويوعد ، أو هن وددن أن يشرفهن الله تعالى بالذكر كما يشرف الرجال ، واحتججن على الرجال فقلن : أسلمنا كما أسلمتم ، وفعلنا كما فعلتم فتذكرون فى القرآن ولا نذكر[3] ؟ وروى أن أم سلمة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يذكر الرجال ولا نذكر . وروى أن نساءه قلن له : لماذا يذكر المؤمنون ولا يذكر المؤمنات[4]؟ وروى أن سلامة حاضنة إبراهيم بن النبى قالت للنبى: إنك تبشر الرجال بكل خير ولا تبشر النساء . قال : أوصويحباتك دسسنك لهذا ؟ قالت : أجل هن أمرننى[5] . أليس هذا شعورا من النساء بعلو مكانتهن ، وحرصهن على حقوقهن ، وجدهن فى أن يتساوين بالرجال فى بعض الحقوق ؟

وقد حقق القرآن أملهن إذ أنزل الله تعالى قوله : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما[6] » .

---

(١) الأمالى ٢/١٠٥ (٢) مجمع الأمثال ١/٢٦ والقاموس المحيط مادة شق
(٣) الطبقات الكبير لابن سعد ٨/١٤٥ (٤) الطبقات الكبير ٨/١٤٤ وتفسير الطبرى ٢٢/٨
(٥) أسد الغابة ٥/٤٧٦ وكنز العمال ٨/٣١٥ (٦) سورة الأحزاب ٣٥

توليها الملك

لم تكن المرأة تشعر بهذه المساواة غروراً أو افتتانا أو مجاوزة لقدرها الذى تعارف عليه العرب . ذلك بأن العرب ملكوا عليهم نساء ، وكانوا يستطيعون ألا يولوهن لو أنهم رأوا فى توليتهن غضاضة ، أو مجافاة للعرف الذى درجوا عليه .

١ — فقد حكمت سبأ ملكة اسمها بَلْقَمة (١) أو بِلْقيس، يقول أسعد تُبَّع فى فخره :

ولدتنى من الملوك ملوك كل قَيْلٍ متوج صنديد
ونساء متوجات كبلقيس وشَمسٍ ومن لَمَيسٍ جدوى (٢)

أو أن اسمها بلقمة بلغة حمير ومعناه الزهرة ، ثم سمتها العرب بلقيس (٣)

والمؤرخون مختلفون فى اسم أبيها ، فهى ابنة اليشرح أو إيلى شرح أو ذى شرح بن ذى جدن القحطانى (٤) . أو هى ابنة أنيشرح بن الحارث ، أو بنت الهدهاد واسمه أنيشرح بن تبع . وقيل غير ذلك (٥) أو هى بنت آل شرح بن ذى جدن الحارث بن قيس بن سبأ الأصغر (٦) ، أو هى بنت الهَدْهاد بن شرجيل بن عمرو بن مالك الرائش ، وكان يلقب بذى شرح (٧)

وفى هذا خلط واضطراب ، لأن اليشرح من ملوك الطبقة الأولى من حمير (ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق . م إلى ٢٧٥ م) وكان حكمه من ٣٥ — ١٥ ق . م ، وبلقيس أو بلقمة التى ينسبوبها هى التى لقيت سليمان قبل ذلك بقرون وهم يخلطون بين صاحبة سليمان وبلقيس التى تسمى الفارعة ، وهى من ملوك الطبقة الثانية من حمير (ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ — ٥٢٥ م) وكان حكمها من ٣٣٠ — ٣٤٥ م (٨) .

وما زلنا نجهل الاسم الحقيقى لملكة سبأ أهو بلقمة أم بلقيس أم غيرهما ، وما زلنا نجهل اسم أبيها ، ولعل النقوش تفصح عن ذلك فى يوم قريب . وهذه الملكة عربية ينتهى نسبها إلى قحطان (٩) ، والقول بأنها حبشية زعم لم يلبث أن ولد وتوارى ، إذ ذهبت أخيراً إلى

(١) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤ وابن الأثير ١/٨٩ والعقد الفريد ٢/٥٨
(٢) منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ٨
(٣) شرح القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى ٢٧٥ مخطوط من مجاميع بدار الكتب .
(٤) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤ (٥) تاريخ ابن الأثير ١/٨٩ (٦) العقد الفريد ٢/٥٨ المطبعة الشرفية (٧) الأخبار الطوال للدينورى ٢٢ (٨) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ١٢٢ و١٢٣
(٩) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤ وتاريخ ابن الأثير ١/٨٩

سبأ ومأرب بعثة ألمانية علمية برياسة كارل يونجمان ، ونقبت هنالك طويلا ، ثم اهتدت إلى أن ملكة سبأ ليست حبشية [١]. وكان حكمها فى القرن التاسع قبل البلاد [٢] .

وقد ملكت فى حياة أبيها بتفويض منه ، وقيل ملكت بعده ، وقيل إن أباها لم يكن ملكا ، وإنما كان وزيراً لملك خبيث سيء السيرة مولع بالعدوان على الأعراض ، فقتلته فملكها الناس عليهم [٣] .

والمبالغات فى عظمة ملكها تتجاوز مطار الخيال الطليق ، وقد استنكرها من قبل بعض المؤرخين كابن الأثير فى قوله : « وما أظن راوى هذا الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله ، وقد تواطئوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال » [٤] .

واليقين أنها وفدت على سليمان ، لأن القرآن الكريم قص هذه الوفادة فى سورة النمل فى قول الهدهد لسليمان : « إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ثم أرسل إليها سليمان كتاباً فلما أخذته جمعت مستشاريها « قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم إنه من سليمان ، وإنه : بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو علىّ وأتونى مسلمين . قالت يا أيها الملأ ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » . ثم ذكر القرآن الكريم إيمانها بسليمان . وقصت التوراة أيضاً هذه الوفادة [٥] .

ومن القرآن الكريم نعلم أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس ، وأنها كانت ملكة ديمقراطية تستشير ذوى الرأى ولا تستبد ، ونعلم أن ملكها كان قوياً أو أن أعوانها كانوا يتوهمون هذه القوة ، لأنهم أرادوها على أن تحارب سليمان ولا تخضع له ، لكنها كانت بعيدة النظر حصيفة الرأى ، فجنبت قومها حربا تنشب بينها وبين الفاتح ، وبعثت إليه بهدية لتختبره أهو باحث عن المال أم داع إلى دين ؟

ومنذ عهد قريب كشف الدكتور أحمد فخرى عن معبد الشمس والقمر سنة ١٩٤٧ وطبع رحلته فى ثلاثة أجزاء . ثم كشفت بعثة أمريكية برياسة مستر ويندل فيليبس عن كثير من

---

(١) الهلال . الجزء الخامس سنة ١٩٢٩ (٢) العرب قبل الإسلام ١١٨

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٩٠ والأخبار الطوال للدينورى ٢٤ (٤) ابن الأثير ١/١٩٢

(٥) سفر الملوك الأول فصل ١٠ آية ١١ و٢٢

آثار اليمن ، منها معبد الملكة بلقيس ملكة سبأ ، على مقربة من سد مأرب [١] .

٢ — وهناك ملكة ثانية ، حكمت سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٣٣٠ إلى ٣٤٥ م وهى التى تسمى الفارعة ، ولسنا نعرف عنها شيئاً إلا أنها زوجة عمرو وأخت الهدهاد [٢] .

٣ — وملكة ثالثة ذكرها أسعد تُبَّع فى فخره إذ يقول :

ونســـاء متوجات كبلقيس وشمس ومن لميس جُدودى [٣]

ولميس بنت أسعد تُبَّع ، قال فيها علقمة بن ذى جدن :

ولميسُ كانت فى ذؤابة ناعطٍ يَجْبى إليها الخَرْجَ ساكنُ بَرْبَرَ [٤]

وأما شمس فهى أخت بلقيس [٥] .

٤ — وهذه ملكة عربية أخرى ، حكمت تدمر فى القرن الثالث بعد الميلاد (٢٦ — ٢٧٢ م) هى الزباء . ولقد ترجع شهرتها إلى سببين :

السبب الأول أنها اتسمت بالشجاعة والسطوة والدهاء ، على جمالها وهيبتها ، فكانت سيرتها أشبه بسير الأبطال من الرجال . كانت فارسة تؤثر الخيول المطهمة على المحفات فى أسفارها ، وكانت ديمقراطية كسابقتها بلقيس ، تحادث أعوانها ومستشاريها ، وكثيراً ما بهرتهم بقوة برهانها ، ونصاعة رأيها ، وذلاقة لسانها ، وكثيراً ما ضم مجلسها رجالا من أمم شتى ، كوفود ملك الفرس والأرمن . وقد يشرب جلاسها حتى يثملوا ، ولكنها لا تشرب .

وكانت إذا جلست فى قومها لبست أفخر ما يلبس ، ونشرت على كتفيها القيصرية الأرجوانية ، ووضعت التاج المؤتلق على رأسها ، وإذا استعرضت جنودها فى الميدان استوت على صهوة جوادها مرتدية لباس الحرب ، وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر ، وقد عرَّت إحدى ذراعيها كما كان يفعل اليونان القدماء ، ثم أخذت تنفخ فى الجنود شجاعة من روحها ومظهرها ، فإذا رآها الناس كذلك حسبوها إلهة [٦] .

والسبب الثانى ما كان بينها وبين روما من الحرب ، وتداول النصر ، ذلك بأن أذينة زوج الزباء كان ملكا على تدمر ، وقد أنقذ الإمبراطورية الشرقية من فتك خصومها الفرس ، وهزم سابور (٢٦٠ م) هزيمة ماحقة بعد أن اغتر سابور وازدهى بانتصاره على الإمبراطورية

---

(١) جريدة المصرى ١٩٥٢/١٢/١٧ (٢) العرب قبل الإسلام ١٢٣

(٣) منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ٨

(٤) المرجع السابق ٩٦ ناعط : ثور وهم حى من همدان (المرجع نفسه ١٧) (٥) المرجع السابق ٩٦

(٦) العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان ٨٧ وموجز تاريخ الحضارة العربية ٣٣٤

الرومانية وأَسْرِه امبراطورها فاليريان ، ثم آزر أذينة جالينوس بن فاليريان فى استرداد الملك من خصومه ، فكافأه جالينوس بأن أقره على ما بيده من بلاد ، ومنحه لقب أغسطس ، وعينه إمبراطوراً على الشرق ، وأشركه معه فى لبس رداء الملك الأرجوانى . وضربت النقود باسمه ، ورسم يجر خلفه صفاً من أسرى الفرس ، ووافق مجلس الشيوخ بروما على هذا كله .

فلما اغتيل أذينة خلفه ابن ضعيف لم يلبث أن مات ، فخلفته زوجة أذينة وهى الزباء .

وهنا بدأت روما تأتنف تحرشها بمملكة تدمر ، إذ أعلن مجلس الشيوخ أن الحقوق التى كان قد نزل عنها لأذينة هى حقوق شخصية لا تورث لغيره ، فالزباء وأولادها لا يرثون شيئاً من ملكه . ولكن الزباء لم تعبأ بمجلس الشيوخ ولا بالإمبراطور جالينوس ، فأعلنت نفسها ملكة على المشرق كله وآسيا الصغرى ، فعبر البحر إليها القائد الرومانى هرقل على رأس جيش عرمرم ، وحاربها فى أرضها ، واستطاعت البطلة أن تشتت شمله وتفل قواه ، فعاد إلى رما موصوماً بخزى الهزيمة (١) .

وبهذا النصر بسطت سلطانها على الشام وبلاد آسيا التابعة للإمبراطورية الرومانية ووصلت إلى مصر (٢) .

لكن روما لم تنس هذه الهزيمة ، فعاودت الحرب ، وكان النصر حليفها ، وهلل الرومان بنصرهم تهليلا ، لأنه نصر كان ميئوسا منه . وليس أدل على ذلك من زعمهم أن ملكا نزل من السماء وآزر الإمبراطور وجيشه ، حتى إن الإمبراطور أورليان لما دخل معبد الشمس فى حمص ليشكر للإله العربى بعل ما أصاب من ظفر ، وصلى بالمعبد ، وقعت عيناه فى زعمهم على الكائن السماوى الذى رآه قبل ذلك فى المعركة (٣) .

---

(١) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجرى ١٥ نجيب البهبيتى عن .
Voyage dans L'asie Mineur, tome 11. P.115—121, Par Poujoulat.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٣/٥ (٣) Poujoulat. Tome 11 P 123.

نهاية الزباء :

تذكر الروايات العربية كلها أن الزباء قد لقيت حتفها فى شرقى مملكتها على يد قَصير . ويدعى الرومان أن شمسها قد أفلت فى روما لأنهم أسروها ونقلوها إلى هناك . ولكن هذا الادعاء باطل ، لأنهم مختلفون فى شخصية الأسيرة ، فهى عند فوسبيسكوس vospiscus امرأة كانت ترافق زينب (الزباء) فى حمل السلاح ، وعند تريبليوس Tribelius وپوليون Pollion وغيرهما أن الزباء اسم قائد من قواد ملكة تدمر (١) ، لأن أحد قوادها كان اسمه زبداً من أبناء تدمر ، وهو الذى هزمه أورليانس سنة ٢٧٢ م (٢) . ثم إننا على ثقة من نشوتهم بالنصر ، وتَنفُّجهم بما نالوا ، ليستروا هزيمتهم التى أنزلتها بهم الزباء من قبل ، وهذا وحده كاف للتشكك فى صحة ما يزعمون .

وإذاً فإن التى حملت سبية إلى روما لم تكن الزباء ، وإنما بقيت الزباء فى العراق إلى أن لقيت مصرعها كما يقول جميع المؤرخين من العرب (٣) . وقد ذكر بعض الشعراء قصتها مثل عدى بن زيد والمخبل وغيرهما ، وشعرهم يتفق مع التاريخ فى أنها لقيت حتفها على يد عمرو بن عدى (٤) .

٥ — وقد ملكت نساء غير هاتين فى اليمن وكندة وبلاد الأنباط ، حتى لتجد فى ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات فى المدة من ١٦٩ ق . م إلى ١٠٦ م . كما نجد فى كندة خمس ملكات أيضاً ، منهن العمردة بنت الأعشى ، وكانت أعظم تأثيراً من إخوتها فى الناس ، وأعمق نفوذاً ، لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها فى تدبير شئون الحكم (٥) . ونجد ماوية الغسانية تحكم فى فلسطين الحالية تقريباً ، فقد ذكر شارب sharpe أن ملك العرب النازلين فى سينا وما جاورها لما مات فى أواسط القرن الرابع بعد الميلاد خلفته امرأته ماوية ، فتحللت من قيود المعاهدة التى بينهم وبين الرومان ، وحملت برجالها على فلسطين وسوريا ، واستولت على مدينة بطرا (الحجر) ويممت مصر حتى برزخ السويس ، فاضطر الامبراطور فالانس

---

(١) Poujoulat. tome. 11. P. 120 وتاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجرى

(٢) تاريخ العرب ١/١٠٠ فيليب حتى (٣) تاريخ الطبرى ٢/٣٦ وابن الأثير ١/١٢١ وأبي الفدا ١/٧٠ واليعقوبي ١/٢٣٨ وابن خلدون ٢/٢٦١ ومعجم ما استعجم ١/٢٤ ومجمع الأمثال ١/٢١٧ وجمهرة الأمثال ١/١٦٧ (٤) تاريخ الطبرى ٢/٣٦ (٥) تاريخ حضرموت السياسى ٧٤

إلى تجديد المعاهدة بشروط ترضاها ماوية [١]. وقد ملكت أخريات غير هؤلاء وأولئك [٢]، ولو أن كل واحدة منهن منحت بواعث على شهرتهن كما منحت بلقمة والزباء لكان لنا من تاريخهن سجل حافل، وأرجح أنه لولا القرآن الكريم وصلة بلقمة بسليمان، ولولا حرب الزباء لروما لغمرت كاتاهما كما غمرت غيرهما من الملكات.

شهيرات

على أن بعضهن قد اشتهرن بالفطنة والدهاء واللَّسَن واللَّقَن والجواب العجيب والكلام الفصيح والمثل السائر كما اشتهر بعض الرجال.

منهن هند بنت الخُسّ — وهى الزرقاء —، وجُمَعَة بنت حابس [٣]، ورابعة القيسية ومُعاذة العدوية [٤]، ولها حديث فى وصف الخيل والنساء والرجال مع القَلَمَّس [٥].

ومنهن صُحْر بنت لقمان، وحَذام بنت الريان، وخُصَيْلة بنت عامر بن الظرب، وفاطمة بنت الخُرْشُب [٦]. ومن الشهيرات اللائى ضرب بهن المثل مارية بنت ظالم بن وهب ابن الحارث الكندية (أو هى بنت أرقم بن ثعلبة من غسان)، وهى أم الحارث الأعرج ملك غسان، التى يقول فيها حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المُفْضل

وقد ضرب المثل بقُرْطَيها، فقيل: «خذه ولو بقرطى مارية»، أى خذه بالشىء العزيز الذى لا يُقْدَر عليه ولا يوصل إليه، وذلك للترغيب فى الشىء وإيجاب الحرص عليه [٧]. وقد ذهب الزمخشرى ومن نقل عنه إلى أن المثل ضرب بقرطيها لأنها أول عربية تقرطت، فسار ذكر قرطيها فى العرب [٨]، ولكن ذلك ليس بصحيح، لأن العربيات كن يتقرطن قبل مارية، وإنما الصحيح أن قرطيها كانا نفيسين جداً وإن بولغ فى نفاستهما، حتى لقد قُوِّما

---

(٦) History of Egypt. vol. 2. P. 293

(٧) Moslem Law. P. f7

(١) البيان والتبيين ١/٣١٢ طبعة هارون. قال ابن الأعرابي يقال بنت الخس وبنت الخسف وهى الزرقاء وقال يونس لا يقال إلا بنت الأخس (٢) البيان والتبيين ١/٢٨٣ طبعة السندوبى (٣) بلاغات النساء ٥٨ — ٦٢ (٤) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ ومجمع الأمثال ٢/٢٧٦ والأغانى ١٦/١٩ — ٢٧ (٥) الفاخر للمكوفى ٨٧ وخزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٣٨ ومنتخبات من أخبار اليمن ٩٨ (٦) مستقصى الأمثال للزمخشرى ١٠٠ مخطوط وخزانة الأدب ٢/٢٣٨

بأربعين ألف دينار ، وقيل كان فيهما درتان كبيض النعام أو الحمام لم ير الناس مثلهما [١] .
يقول الشاعر للنعمان وقد اتهمه :

يا أيها الملك الذى ملك الأنام علانيه
المالُ آخذُهُ سوا ى وكنتُ عنه ناحيه
إنى أؤديه إليك ولو بقُرْطَىْ ماريه [٢]

مجيرات

كان من حق الرجل أن يجير فلا يعتدى أحد على من أجاره ، وإن اعتدى عليه أحد ذب جاره عنه ، وحارب المعتدى وإن كان قريبه أو حليفه .

وكان الجوار نوعاً من الحلف أو الحماية ، ودلالة على قوة المجير ومهابته فى قومه .

١ — ولقد علت المرأة إلى هذه المكانة فأجارت ، وقُبِل جوارها ، وحمت وصين حماها فى الجاهلية .

فقد أجارت فُكَيْهة بنت قَتادة — خالة طرفة بن العبد — السُّليك ابن السُّلَكَة ، وحمته من بكر بن وائل ، ومدحها السليك فى قوله .

لعمر أبيك والأنباء تَنْمى لنعم الجار أخت بنى عوارا
عَنَيْتُ بها فُكَيْهَةَ حين قامت لنصل السيف وانتزعوا الخمارا
من الخفرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا [٣]

وحمت رَيْطة بنت جِذْل الطَّعَّان دريد بن الصمة ، اعترافاً بفضله ، لأنه كان قد أعطى رمحه ربيعة بن مُكَدَّم يوم حمى الظعينة ، وألقت عليه ثوبها وقالت : يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادى . فحبسه القوم وقالوا : لا ينبغى أن نكفر نعمته . وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا المخارق الذى أسره ، فانبعثت ريطة فى الليل تقول :

سنجزى دريدا عن ربيعةَ نعمةً وكل فتى يُجْزَى بما كان قدَّما

(١) خزانة الأدب ٢/٢٣٨ ومجمع الأمثال ١/٢١٢ وربيع الأبرار للزمخشرى ورقة ٢٠٦ مخطوط
(٢) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ (٣) المحبر ٤٣٣

سنجزيه نُعْمَى لم تكن بصغيرة ... بإعطائه الرمحَ السديدَ المقوَّما
فلو كان حياً لم يضق بثوابه ... ذراعا ، غنياً كان أو كان معدما
ففكوا دريداً من إسار مخارق ... ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلَّما

فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه ، وكسته ريطة وجهزته ، ولحق بقومه ، فلم يزل كافاً عن غزو بنى فراس حتى هلك (١).

وقد سبق أن العدوان على جار البسوس أشعل حرباً طويلة الأجل بين ابنى وائل (٢). ولم تكن هذه الحماية حُكْرة للشريفات ، والمتكئات على نسب أو عصبية قبلية ، بل كانت من حق كل امرأة يلجأ إليها ملهوف، فهذه أم غَيْلان الدوسية التى كانت تمشط النساء قد أجارت ناساً من قريش خرجوا إلى أرض دَوْس — وكان هشام بن المغيرة قد قتل أبا أزيهر الدوسى ، فأحس بهم الدوسيون فأرادوا قتلهم بأبى أزيهر — فأمضى قومها إجارتها (٣) على ما بهم من حنق وظمأ إلى الثأر .

وفى رواية أن اسمها أم جميل ، وأنها حمت ضرار بن الخطاب الفهرى ، فلما ولى عمر ابن الخطاب ظنت أنه أخوه ، فأتته بالمدينة ، وانتسبت له ، فعرف قصتها ، وقال لها : لست بأخيه إلا فى الإسلام ، وقد عرفنا مِنَّتك عليه ، وأعطاها على أنها ابنة سبيل (٤) .

٢ — وقد أسلفتُ فى فصل الأم والزوجة والبنت والأخت والقريبة أحوالا عدة أجرن فيها وقبل جوارهن ، كما يجير الرجال ويحمى جوارهم .

٣ — ثم جاء الإسلام فابقى للمرأة هذا الحق ، فقد أسلمت يوم الفتح أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبى جهل — ابن عمها — واستأمنت النبى صلى الله عليه وسلم لزوجها ، وخرجت فى أثره وقد فر إلى اليمن ، فردته ، فأسلم ، وثبتا على زواجهما (٥).

وأجارت أم هانىء بنت أبى طالب رجلا كان أخوها علىّ يريد أن يقتله عام الفتح ، وأخبرت النبى بذلك ، فقال لها : قد أجرنا من أجرت (٦) .

وأجار النبى والمسلمون لزينب بنت الرسول زوجها ، وأطلقوه من إساره (٧) .

---

(١) الأغاني ١٤/١٣٠ والأمالى ٢/٢٧١ (٢) مستقصى أمثال العرب للزمخشرى ٤٠ مخطوط والفاخر للمكوفى ٧٧ والتنبيه والإشراف للمسعودى ١٧٤
(٣) الإصابة ٨/٢٦٥ (٤) المحبر ٤٣٣ وفى المحاسن والأضداد ٥٦ أنها حمت هشام بن الوليد بن المغيرة ، وهذا لا يستقيم مع ظنها أنه أخو عمر (٥) الاستيعاب لابن عبد البر ٢/٧٩٠
(٦) فتح البارى ٦/١٩٦ (٧) المغازى ١٢٦ وتاريخ الطبرى ٢/٢٩١

اشتراكها فى حلف

سمت بالمرأة مكانتها إلى أن تشترك أحياناً فى حلف الرجال ، تتعاقد معهم على ما يتعاقدون عليه . وقد حدث ذلك من عهد قديم ، فإنه لما مات قصى ترأس ابنه عبد مناف ، وعظم أمره ، فجاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به ، فعقد بينه وبينهم حلف الأحابيش ، واشتركت فيه عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف ، وهى التى جرى على يديها حلف الأحابيش (١) .

ثم اشتركت أم حكيم البيضاء أو أختها عاتكة بنت عبد المطب فى حلف المُطَيَّبين ، إذ أخرجت طيباً فى جَفْنة ، فتطيب به بنو عبد مناف وأسد وزهرة وبنو تميم وبنو الحارث ابن فهر ، فسموا المطيبين . وكان ذلك لما تحالف بنو عبد الدار ضد عبد المطلب ، وآزر بنو سَهْم بنى عبد الدار (٢) .

وإذا كان اشتراكها فى هذين الحلفين منبعثاً عن عصبية لقومها ونصرة لآلها فإنها قد اشتركت فى حلف إنسانى عظيم ، الغرض منه نصر المظلوم وحماية المستضعف ، ذلك بأن قبائل من قريش تعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه ، ونصروه على ظالمه ، وسموا ذلك الحلف حلف الفضول ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلفا ما أُحِبُّ أن لى به حُمْر النَّعَم ، ولو أُدْعَى به فى الإسلام لأجبت » ذلك هو حلف الفُضُول (٣) . وفخار الاشتراك فى هذا الحلف متنازع بين عاتكة بنت عبد المطلب وأختها أم حكيم البيضاء (٤) ، كما تنوزع فى الحلف السابق .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٧٨ والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهون بن خزيمة ابن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة . تحالفوا جميعا بواد يقال له الأحابيش ، وقيل يسمى حبيشا بأسفل مكة ، فسموا الأحابيش (سيرة ابن هشام ٣/١٩٥)

(٢) تاريخ اليعقوبي ١/٢٨٨ وسيرة ابن هشام ١/١٤٣ (٣) سيرة ابن هشام ١/١٤٤

(٤) تاريخ اليعقوبى ٢/١٦

إهانتها تشعل حربا

وإذا كانت القبيلة تتداعى كلها لنصرة من يعتدى عليه من أفرادها فتنشب حرب بين قبيلتين فكثيراً ما نشبت حروب للعدوان على امرأة .

من ذلك أن اليوم الثانى من أيام الفجار الأول كان سببه أن شباباً من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة جالسة بسوق عكاظ وعليها فضْلُ برقعها ، وقد اكتنفها شباب من العرب، وهى تحدثهم ، فأطاف بها شباب كنانة وقريش ، وسألوها أن تسفر فأبت . فجلس أحدهم خلفها ، وشد طرف ردائها بشوكة إلى فوق حُجْزتها ، فلما قامت انكشف درعها عن دُبُرها فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهك ، وجُدْتِ لنا بالنظر إلى دُبرك . فنادت يا آل عامر ، فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة،واقتتلوا قتالا شديداً، ووقعت بينهم دماء ، فتوسط حرب بن أمية ، واحتمل دماء القوم ، وأرضى بنى عامر من مَثُلَة صاحبتهم (١) .

وقد سبق أن الحرب قامت بين اليمانين وبين ربيعة ومضر لأن لبيد بن عَنْبسة لطم زوجته التغلبية لطمة شديدة ، وحقر من شأن قومها (٢) .

مكانتها العامة

بعد هذا التطواف مع المرأة العربية أماً وزوجة وبنتاً وأختاً وقريبة ، وبعد أن درسنا حقوقها المالية ، ومنزلتها العامة ، وبينا عملها فى الحرب واشتراكها فى النضال ، وبعد أن تحدثنا عن أخلاق المرأة ، وتوليها الملك ، وتقدير العرب لها ، وإعزازهم إياها ، بعد هذا كله يحق لنا أن نحكم فى اطمئنان بأن المرأة العربية تبوأت مكانة سامية فى الحياة العربية ، فى الأسرة وفى القبيلة .

ثم رأينا الإسلام يعز المرأة إعزازاً ، وينيلها نصيباً ثابتاً فى الميراث لم يكن محدداً لها فى الجاهلية .

---

(١) الأغانى ١٩/٧٤ (٢) كتاب بكر وتغلب ١٥ ـ ٢٥

ولا شك أن المرأة التى تبوأت هذه المنزلة كانت خليقة بها ، وكانت جديرة بأن تنشىء أشبالا شجعاناً أقوياء الأخلاق ، وجديرة بأن تلهم الشعراء الغزل ، وتبعث فى المحاربين البطولة والبسالة والإقدام ، وتوقد فى نفوس ذويها الغيرة عليها والحماية لها من الضيم .

ولست أشيد بهذه المكانة متأثراً بتعصب أو محاباة ، فقد شاد بها من لا يربطهم بالعرب عرق ، يقول العلامة نيكلسون : كانت مكانة المرأة العربية عالية ونفوذها عظيما فى العصر الجاهلى ، فقد كانت النساء حرات فى اختيار أزواجهن ، وحرات فى العودة إلى ذويهن إن أساء الأزواج معاملتهن ، وكن أحياناً يزوجن أنفسهن ، ولهن حق الطلاق . ولم تكن الزوجات محتقرات كأنهن إماء أو سُرِّيَّات ، وإنما كن أنداداً للرجال ورفيقات ، وكن يلهمن الشعراء لينشدوا ، والمحاربين ليقاتلوا (١) .

فليس بصحيح إذاً أن المرأة كانت فى البيئة العربية حقيرة الشأن ، متاعاً للرجال فحسب ، وأن ما صوره بها الشعراء خيال (٢) .

أثر هذه المكانة فى المرأة الأوروبية

١ — بعد انتشار المسيحية كانت المرأة الأوروبية مزدراة ، حتى لقد كانت النساء يعيرن أنهن إناث ، وكن معدودات باباً للجحيم ، وبلغت كراهيتهن والزراية بهن إلى أن زعم بعض الناس أن أجسامهن من صنع الشيطان — وإن وُسم هذا القول بالكفر — وكان التفكير فى النساء خطراً ، وكانت المرأة نحساً ، حتى إن الشيطان طالما زار النساك فى شكل أنثى . ونجم عن هذه العقيدة فى النساء أن كثرت الرهبنة والزهادة وبناء الأديار (٣) .

ولم يكن ليجوز للنساء أن يشتركن فى عمل خارج دورهن . وكان الزواج منبعثاً عن المصلحة والرغبة فى النفع المادى وتوسيع الإقطاعية . وكان يتم أحياناً فى سن الخامسة ، خلافاً لما قررته الكنيسة أن يكون الحد الأدنى اثنتى عشرة سنة ، وكان الطلاق شائعاً على نقيض ما تدعو إليه الكنيسة ، والمرأة على العموم مملوكة للرجل (٤) .

ولقد قرر برنتيير Brunetier أن المرأة الأوروبية تدلت إلى حضيض لم يتدل إليه غيرها فى قوله : لم يحدث أن امرأة فى أى زمان ومكان كانت تحنى رأسها ، وتخضع بضغط

(١) A. Latirary History of the Arabs. PP. 87—89.

(٢) المرأة فى العصور ٦٢ — ٦٤ أحمد خاكى .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ Mes Ray Strachey (٤) المرأة فى العصور ١٢

القوة والبطش والجبروت والسلطان أكثر مما كانت تفعل المرأة من نساء الطبقة المتوسطة فى العصور الوسطى [١] .

٢ — لكن الغربيين — بعد الحروب الصليبية — تأثروا بتقاليد الفرسان فقدروا المرأة ، ونشأت بينهم فكرة جديدة : أن ما يفعله الرجال من أعمال عظيمة قد أوحت به النساء . فالفرسان خرجوا إلى المعارك مدفوعين بحب النساء وحده ، وجلست النساء إلى جوار أُطُر التطريز يتلهفن على عودة أحبابهن . وكانت نظرة من عينين جميلتين أعظم جزاء على أى نَصَب وعناء . ومن هنا حفلت قصص العصور الوسطى وأشعارها بتقدير النساء ، فتبدل مركزهن حتى صرن يتقدمن على الرجال فى المحافل ، ويقبل الرجال أيديهن بعد أن كانوا يضربونهن [٢] :

٣ — فمن أين جاء هذا التقدير للمرأة الأوروبية ؟

تذهب مسز راى استراتشى إلى أن تقدير المرأة الأوروبية جاءها من حياتها فى الأديار ، ومن عبادة الناس للعذراء مريم ، لأن التكريم الذى نالته السيدة مريم كان له أثر عظيم فى رفع شأن الأمومة [٣] .

ا — لكن فى هذا التعليل مجافاة للحق ، لأن المرأة الغربية ظلت قروناً عدة وهى مغبونة القيمة مبخوسة القدر هابطة المكانة ، فلو أن المسيحية كانت الباعث على رفع شأنها ، أو لو أن تقديس العذراء مريم هو الذى بدل ضعتها عزة لتحقق ذلك بعد المسيحية بقرن أو بضعة قرون . ولكن هذا التقدير باعتراف مسز رى سراتشى نفسها نجم بعد الحروب الصليبية ، فلماذا تأخر إلى هذا العهد لو أنه كان وليد المسيحية أو تقديس السيدة مريم ؟.

ب — الحق إنه كان ثمرة للفروسية الغربية ، والفروسية الغربية صدى للفروسية العربية . يقول نيكلسون : « ولعل من الممكن تتبع فروسية العصور الوسطى ، وإرجاعها إلى بلاد العرب الجاهلية ، لأن الشهامة ومغامرة الفرسان ، وإنقاذ العذارى من السبى ، والمساعدة التى كانت تقدم فى كل مكان للنساء المحتاجات ، كل هذه صفات عربية ، وقد أطلق عليها فى أوروبا كلمة شرف أو نبل أو بطولة chivalry والصلة وثيقة بين هذه الأعمال المجيدة

---

(١) تراث الإسلام ١/١٦١ Gibb (٢) تاريخ العالم مجلد ١ ص ٣٩٨ Mers Ray Strachy
(٣) المرجع السابق

وبين الفارس ذلك الرجل النبيل البطل الشريف Chivalrous [١] .

والمسيحيون قد خالطوا العرب والمسلمين زمناً طويلا فى الشام وخالطوهم أزماناً طوالا فى إسبانيا وصقلية . وكان العرب فى إسبانيا وصقلية كالعرب فى الشام يتسمون بالفروسية المثالية ، فيرحمون الضعفاء ويقدرون المرأة ويرفقون بالمغلوبين « وهى الخلال التى اقتبستها منهم الأمم النصرانية بأوروبا ، فأثرت فى نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة . وللفروسية العربية تقاليدها كما للفروسية الأوروبية التى ظهرت بعدها » [٢] .

وفى تاريخ العرب بإسبانيا ما يثبت أنه حفل بخصال الفروسية وتقدير النساء ، وأن المرأة العربية كانت عالية القدر فى الغرب كما كانت فى الشرق ، بل إن ترند Trend يرى أن النساء تمتعن فى ظل الأمويين بالأندلس بنصيب من الحرية وحظ من التقدير أعظم مما تمتعن به فى ظل العباسيين ببغداد [٣] .

ولم يكن تقدير العرب للنساء حكرة على العربيات ، بل كان تقديراً للأنوثة مطلقاً ، ولقد يكون هذا التقدير فى موقف ضنك تحتم فيه المصلحة أن يتغاضى الرجل عن بعض ما يدين به من مثل عالية ، ولكن الرجل العربى غلّب مثله العالية على مصلحته ومصلحة قومه. ذلك بأن والى قرطبة حاصر سنة ١١٣٩ م مدينة طليطلة ، وكانت بيد النصارى ، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير — وكانت بالمدينة — من بلغه أنه ليس من المروءة والكرم أن يحاصر فارس بطل امرأة . فارتد القائد العربى من فوره محيياً الملكة [٤] .

حـ — ويطول بنا المقال لو حاولنا أن نفصله فى فروسية العرب فى الجاهلية وفيما بعدها ، وبحسبنا لمحة دالة ، ونظرة عاجلة .

فالصناديد يفخرون بعد الغزل ببلائهم فى الحرب، ويوجهون الخطاب إلى المرأة يريدون أن يستميلوها وينالوا إعجابها . يقول عنترة :

سَلِى يا عبل قومك عن فَعالى ... ومن حضر الوقيعة والطِّرادا
وردتُ الحرب والأبطال حولى ... تهز أكفُّها السُّمُرَ الصِّعادا

---

(١) Nicholson P. P. 81—88 (٢) حضارة العرب ٣٤٤ جستاف لوبون
(٣) تراث الإسلام ١٢/١ J . B. Trend (٤) حضارة العرب ٣٤٤ جستاف لوبون

وخضت بمهجتى بحـــر المنايا ونارب الحـــرب تتّقد اتقادا [١]

ويكرر هذا فى شعره [٢] . ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته بوصال حبيبته :

فلو علمتْ سُلَيْمَى علم مثـــلى غداة الروع واصلَتِ الكراما [٣]

وإذا ما عاد من حربه تشوق إلى إعجاب زوجته به وسؤالها الأبطال عن إقدامه ، حتى ليطلقها إن لم تسأل لتعرف شجاعة زوجها :

طُلّقت إن لم تســـألى أى فارس حليلك إذ لاقى صُـــدَاء وخَثْعَما

أكُرُّ عليهـــم دَعْلجًا ولَبانه إذا ما اشتكى وقع الرماح تَحَمْحَما [٤]

وله كثير مثل هذا [٥] .

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهى جازعة مخافة السبى باعثاً أى باعث على بطولة تجلب النصر ، فقد رأى عمرو بن معد يكرب حبيبته لميس تجرى كاشفة عن محاسنها هلعاً وذعراً ونساء قومه يجرين ، فهجم على رئيس الأعداء فقتله ، وكسب النصر ، وصور ذلك فى قوله :

لمـــا رأيت نســـاءنا يفحَصْنَ بالمَعْزَاء شَـــدًّا

وبدَتْ لِمَيسُ كأنهـا بدر الســـماء إذا تبـــدّى

وبدت محاســـنها التى تخفى وكان الأمر جـــدا

نازلت كبشهـــم ولـــم أر من نزال الكبش بُدّا [٦]

وقد يستبسل المحاربون لأن وراءهم ظعائن يحمسنهم ، وينفرنهم من الهزيمة ، وهم أضناء بهن أن يسبين ، يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حســـان نحاذر أن تُقسَّم أو تهُـــونا

أخذن على بعولتهن عهـــدا إذا لاقوا فوارسَ مُعْلَمينـــا

لَيَسْـــتَلبنَّ أبداناً وبَيْضـــاً وأسرى فى الحروب مقرَّنينا

---

(١) ديوان عنترة ٥٧ (٢) ديوان عنترة ١٥٠ و٥٣ و٥٦ (٣) ديوان عامر القصيدة ٢
(٤) ديوان عامر الملحق ١٩ (٥) الديوان ملحق ٢٢ والقصيدة ٣ (٦) ديوان الحماسة لأبى تمام شرح التبريزى ١/٩٢ المعزاء : الأرض الصلبة . يفحصن : يؤثرن من شدة الجرى . لميس : اسم حبيبته .

يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذ لم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظواعنَ مثلُ ضرب ترَى منه السواعدَ كالبُرِينا(١)

وكثيراً ما أشهدها الرجل على كرمه وشجاعته ، كقول عروة بن الورد :

وقد علمت سليمى أن رأيي ورأى البخل مختلف شتيت
وأنى لا يرينى البخلَ رأىٌ سواء إن عطشت وإن رَوِيت
وأنى حين تشتجر العوالى حوالى اللب ذو رأى زَميت (٢)

ولهذه الفروسية مظاهر أخر ، كنجدة المستغيث ونصرة المستنصف ، والحدب على الأرامل واليتامى .

وحسبنا للدلالة على نصرة المستغيث قول سَلامة بن جَنْدل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزِعٌ كان الصراخ له قرع الظَّنابيب (٣)

وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك إنه كان نصير الضعيف المغلوب :

ويوماً إذا كظَّك الخصم إن يكن نصيرَك منهم لاتكن أنت أضْيَعَا(٤)

ومن العطف على المرأة المحتاجة إلى رعاية قولُ أوس بن حجر فى رثاء فَضالة ابن كَلَدة :

أبا دُلَيْجةَ من يُوصَى بأرملة أم من لأشعث ذى هِدْمَيْنِ طِمْلال(٥)

وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

وللشَّرْب فابكى مالكا ولُهْمة شديد نواحيه على من تشجَّعا
وأرملة تمشى بأشعث مُحْثِلٍ كفرخ الحُبارَى رأسه قد تضوَّعا (٦)

وقول بنت وثيمة فى رثاء أبيها وثيمة بن عثمان إنه ملجأ الأرامل واليتامى :

---

(١) شرح المعلقات السبع لابن الأنبارى مخطوط ٧٦ والتبريزى ٢٤٧ الأبدان : الدروع . البرين : جمع برة وهى حلقة فى أنف البعير . ورواية التبريزى (كالقلين) جمع قلة وهى الخشبة التى يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلاء (٢) ديوان عروة . زميت : وقور (٣) سمط اللآلى ٤٧/١ الظنابيب : جمع ظنبوب وهو مسمار فى جبة السنان (٤) المفضليات ٦٥/٢ الخصم : الخصوم : كظك : قهرك وغلبك .
(٥) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والتبيين ١٥٩/١ أشعث : مغبر . هدم : بال . طملال : فقير (٦) المفضليات ٦٦/٢ محثل : سيء الحال والغذاء . الحبارى : ضرب من الطير : تضوع . تفرق شعره

ألفيتـــه مأوى الأرا مل والمدفّعة اليتيمه [١]

والأمثلة شتى على حماية العرب للمستجير، وفكهم الأسير، ونصرهم للمهضوم.

وقد بسطت المقال فى موضع آخر [٢] فى افتتاحهم القصائد بذكرها، وفى أفانين غزلهم بها، وتنافسهم لنيل إعجابها.

وهذه كلها هى الأسس التى قامت عليها الفروسية فى الإسلام وفى أوروبا فى العصور الوسطى.

٥ — وليست هذه الفروسية الغربية ذات المثل السامية وما تقتضى من احترام المرأة إلا أثراً للعرب وللإسلام لا للنصرانية. فالإسلام هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه، لا النصرانية. فإذا نظرت إلى أمراء النصارى الإقطاعيين فى القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من التقدير للنساء، ووجدت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً فى معاملة النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب معاملتهن بالحسنى [٣].

ونجد أن الشعر فى أوروبا اقترن بالفروسية كما كان عند العرب، بل أصبح شرطاً من شروطها، وصار لزاما على الفرسان أن يقرضوه كباراً وصغاراً، ومن لم يستطع أن يقرض الشعر بنفسه ليتغنى بحبه ويفصح عن لواعج قلبه أنشد شعر سواه [٤]. وعد الفارس من واجبه حماية المرأة والأرملة واليتيم والضعيف من الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث [٥].

وكثير من العلماء الغربيين يصلون الفروسية الأوروبية بالفروسية العربية والإسلامية، يقول فلوريان: «المسلمون أرق الناس حباً وأكثرهم خشوعا وأشدهم عاطفة، وإذا أحب أحدهم امرأة — وإن حجبها حتى تصير أسيرة بيته — أصبحت حاكما مطلق السيادة، وملكت قلبه. من أجل النساء سعى العرب وراء المجد، ولكى يسطعوا فى عيونهن سعوا فى سبيل الثراء حتى يقدموا لهن أغلى ما يملكون من مال وحياة [٦]». ويقول بارثلمى سانت

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦١ (٢) الغزل فى العصر الجاهلى ٢٣١ — ٢٣٩

(٣) حضارة العرب ٤٨٨ جستاف لوبون والفتوة عند العرب عمر الدسوقى ٢٧٢ عن:
Florian, dans son Précis Historiqu. sur le Mauers Floian, dans son Précis.Historipue rus le Mauers.

(٤) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن Fauaiel, op cit. t. I. P. 529

(٥) الفتوة عند العرب ٢٧٨ عن Mémoirs sur l'ancienne chevalerie

(٦) الفتوة عند العرب ٢٨٥

هيلير : « أما الفرسان فقد تعلموا المشاعر الرقيقة وأجمل الفضائل الإنسانية من العرب . ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهمهم هذه الأخلاق[١] » .

ويذهب جب Gibb إلى أن الشعر البروفانسى حافل بعشق غنى بالصور الجميلة ، وإلى أن هذا الضرب من الحب أو التقديس للمرأة لم يكن نتيجة لتقاليد العصور الوسطى ، ولم يكن صدى للأدب اليونانى أو اللاتينى ، وإنما قام على تقاليد أدبية راسخة صادرة من شعر العرب فى إسبانيا ، لأن الأدب العربى كان فى كل عصوره يستمد من ينبوع حب الرجل للمرأة[٢] .

وآخر شهادة أعزز بها أن الفروسية الغربية وليدة العربية قول الأديب الإسبانى الوطنى الغيور بلاسكوا أبانيز الذى توفى منذ بضع سنوات : إن أوروبة لم تكن تعرف الفروسية ولا تدين بآدابها المرعية ولا نخوتها الحماسية قبل أن يفد العرب إلى الأندلس وينتشر فرسانهم وأبطالهم فى أقطار الجنوب . وهذه الفروسية التى ظهرت بين عرب الأندلس قد تبناها فيما بعد رجال الشمال كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية[٣] .

٤ — وبعد ، فلقد جانبت مسز رى سراتشى الصواب حين زعمت أن الإسلام كان ذا تأثير مضاعف فى التدلى بالمرأة ، وتثبيطها عن النهوض ، لأنه قرر أن النساء لا نفوس لهن ، وأنهن أدوات للاستمتاع فحسب[٤] . وليست هذه الدعوى فى حاجة إلى تفنيد بعد ما تقدم من نصرة الإسلام للمرأة ، ومن شهادة الغربيين المنصفين بذلك . وكأنما نسيت الكاتبة أن علية من رجال روما اجتمعوا فى القرن السابع عشر وتناقشوا طويلا فى أن للمرأة روحاً أم لا روح لها[٥] ، وأن امرأة بيعت بشلنين فى أسواق لندن سنة ١٧٩٠ م لأن نفقات معيشتها زادت على الكنيسة التى تؤويها ، وأن القانون الانجليزى ظل إلى سنة ١٨٥٠ لا يعدها من المواطنين[٦] ، ونسيت أنها هى نفسها التى قالت : لقد كتب بلاكستون Blachstone فى شروحه المشهورة على قوانين انجلترا فى سنة ١٧٦٥ م يقول : « إن القيود التى ترزح تحتها المرأة يراد بها فى الغالب حمايتها وخيرها » والحق إن القانون قد حرمها كل حق مدنى تقريباً ، وحال بينها وبين التعليم وكل شىء آخر ما عدا أحط موارد الكسب ،

---

(١) الفتوة عند العرب ٢٧٧ عن Barthelemey Saint—Hilair. et le coran.

(٢) تراث الإسلام ١/١٦٠ — ١٦٨

(٣) أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ٦٨ و ١١٤ العقاد

(٤) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٤ Mrs Ray Strachey

(٥) دائرة المعارف . مادة المرأة . فريد وجدى

(٦) المرأة ومركزها الاجتماعى ٤٣ محمد البندارى

ونزلت عن ثروتها كلها عند الزواج ، ونستطيع أن نقرر أن مركز النساء منذ أواخر القرون الوسطى إلى آخر القرن التاسع عشر لم ينتج خيراً (١) . ونسيت أيضاً أنها هى القائلة : إن النساء كن يعيرن أنهن إناث ، وكن معدودات بابا للجحيم ، حتى قيل : إن أجسامهن من عمل الشيطان ، وإن الشيطان طالما زار النساك فى شكل أنثى ، لذلك كثرت الرهبنة والزهد وبناء الأديار ، وكان هذا كله بعد النصرانية وانتشارها (٢) .

وإذا كانت الأحوال قد دالت ، فتقهقرت المرأة العربية ، ونسى العرب أو تناسوا خلال الفروسية ، بينما أغذت المرأة الغربية سيرها ، ثم جعلت المرأة العربية تتطلع إلى أختها الغربية وتحاكيها ، فإنها بذلك تسترد ديناً لها ، وتأتسى بعد أن كانت أسوة .

موازنة المرأة العربية بغيرها

أستطيع — بعد أن جَلَوْتُ الصورة الصحيحة للمرأة الغربية ، وبينت منزلتها فى الحياة السياسية والاجتماعية : فى الأسرة وفى القبيلة ، وبعد أن وازنتها بالنسوة المعاصرات لها — أن أعرض مكانتها العامة بالنسبة لغيرها من النساء .

١ — بين المرأة العربية والعبرية :

قلت إن اليهود اصطبغوا بصبغة عربية فى جزيرة العرب فكانوا عرباً فى عاداتهم ونظمهم ولغتهم .

لذلك نجد تشابهاً بين بعض أحوال المرأة العربية والمرأة اليهودية ، فكل منهما تسبى ، وتباع ، وتورث أو يورث نكاحها ، ولا ترث ، وإن كانت العبرية قد ورثت فى عصر متأخر فى حالات خاصة ، وورثت العربية أحياناً نصيباً غير مقدر .

وتتشابهان أيضاً فى أن كلا منهما نسب إليها بنوها أحياناً ، وفى حرمة بعض النساء على بعض الرجال ، وفى إباحة زواج المتعة .

لكن المرأة العربية تمتاز بأنها خولت حق الطلاق كالرجل ، وخولت أن تطالب بالتطليق ، وأن تختلع . وقلما باعها أبوها بيع الرقيق كما كانت تباع العبرية . ولم يتزوج عربى أخته كما فعل العبرانيون .

---

(١) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٩ Mrs Ray Strachey

(٢) المرجع السابق

ثم إن العرب لم ينظروا إلى المرأة على أنها شر ووباء كما نظر العبرانيون ، بل إنهم أحبوها ومجدوها وتقربوا إليها وصانوها .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بمشاركتها فى الحياة العامة مشاركة عظيمة القيمة : فى تولى الملك ، وفى قيادة الجيوش ، وفى الحرب ، وفى أنها تجير ، وتشترك فى حلف .

بين المرأة العربية والمسيحية

لا شك أن المرأة العربية كانت أعظم قدراً من المسيحية ، فإن العرب لم يهبطوا بالنساء إلى تجريدهن من الروح والبشرية ، ولم يصموهن بأنهن رجس .

وإذا كانت المسيحيات قد أبلين بلاء حسناً فى نشر المسيحية فقد أبلت العربيات بلاء حسناً فى الدفاع عن الوثنية أولا ، وفى الدفاع عن الإسلام ثانياً .

على أن المرأة المسيحية سعدت بما حرمته العربية، فهى لا تضار بالضرائر ، ولا بالطلاق ولا بالتسرى ، وإن كان كل من هذه الثلاث سلاحاً ذا حدين ، فقد ينتفع به الرجل ، وقد تستفيد به المرأة ، وربما لا يكون منه بدّ فى بيئة بدوية محاربة تخشى العار ، وتحرص على عفة النساء ، وكثرة النسل .

بين المرأة العربية والفارسية

تمتعت المرأة العربية بالملك كما تمتعت الفارسية ، وكان تعدد الزوجات والتسرى شائعاً هنا وهناك .

وكان الحجاب عند الفرس أشد منه عند العرب، ثم كانت العربية مصونة ومحاطة بسياج منيع من غيرة الرجل عليها ، فلم يعرف العرب نظام الشيوع فى النساء كما عرفه الفرس .

ثم إن العرب كانوا لا يحلون البنات ولا الأمهات ولا الأخوات ، كما كان يفعل الفرس .

ولا أشك فى أن العرب الذين تمجّسوا لم يرتضوا زواج الأمهات والبنات والأخوات ، بل نفروا منه ، وأنغضوا رءوسهم له ، ولكن هذا لا ينفى أن قلة منهم شذت عن العرف العربى فى نظام الزواج . يدل على ذلك هجاء أوس بن حجر لبعض العرب بقوله :

والفارسية فيهم غير مُنْكَرَة فكلهم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلَف (١)

(١) ديوان أوس ٣ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١/٥٢١

وقول المتلمس فى هجاء عمرو بن هند :

ملكٌ يلاعب أمه وقَطِينَهَا ... رِخْوُ المفاصل .... كالمبرد [١]

وذكر بعض المؤرخين أن حاجب بن زُرارة تزوج بنته دُخْتنوس ، ثم ندم [٢]. وقيل إن لقيط بن زرارة هو الذى تزوج بنته دختنوس ، وسماها بهذا الاسم الفارسى ، فلما قتل فى يوم شِعْب جبَلة وهى فى عصمته قال :

يا ليت شعرى عنك دختنوس ... إذا أتاها الخـــبر المَرْمُوسُ

أتحلـــق الرأس أم تميس ... لا بل تَمِيسُ إنها عروس [٣]

على أن بعض المؤرخين يتفق مع ابن قتيبة فى أنها بنت لقيط ، ولكنها كانت زوجة لابن عمها عمرو بن عمرو بن عدس [٤] ، ثم تزوجها بعده معبد بن زرارة [٥] أو عمير بن معبد ابن زرارة [٦] ، ولم يُشر واحد من هؤلاء إلى زواجها بأبيها .

وتتشابه الفارسية والعربية فى بغضة الآباء للبنات ، وتفضيلهم الذكور عليهن .

بين المرأة العربية والرومانية واليونانية

إذا ما قايسنا المرأة العربية بهاتين وجدناها أعلى مكانة ، لأن العرب لم ينظروا إليها نظرة المهانة ، ووجدناها تشارك فى الحياة الأسرية والحياة العامة بقدر عظيم ، ولها حق الملك والتصرف فيما تملك .

ثم إن العرب لم يعتبروها وعاء للنسل فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها مخلوق منحط ، ولم يقتلوا الأم إن ولدت ولداً ضعيفاً .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بأنها كانت صاحبة حق فى أن تطلق زوجها ، وأن تختلع منه لتفارقه ، وأن تطلب الطلاق بدون خلع ، وبأنها لم تكن مشاعة بين الرجال هذا الشيوع الذى جرى عليه الإغريق والرومان . ولم يستحل العرب نكاح الأخت لأب كما استحله الإغريق .

---

(١) ديوان المتلمس ٦ مخطوط (٢) المعارف ٢٠٥ والأعلاق النفيسة ٢١٧/٧ والمعرب للجواليقى ١٤٢ شرح شاكر وكتاب الزينة لأبي حاتم الرازى ٦٠ مخطوط

(٣) الكامل لابن الأثير ٢١٣/١ (٤) الأغانى ٣٨/١٠ وتاج العروس ١٤٧/٤

(٥) مجمع الأمثال للميدانى ١٣/٢ (٦) الشعر والشعراء ٢٧١ وتاج العروس ١٤٧/٤

والعربية على العموم أسمى فى الأسرة وفى المجتمع منزلة ، ولها قسط عظيم من المساهمة فى الشئون العامة .

على أن ثمة بعض التشابه ، فبعض العرب كانوا يئدون البنات ، والإغريق كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث. وقليل من العرب كانوا يبيحون لنسائهم الاستبضاع كما أباحه الإغريق والرومان، وكثير من العربيات كن يسفرن ، كما كانت تسفر المرأة فى إسبرطة وأثينا ، وإن كان سبب السفور عند العربية مغايراً لسببه عند الإغريقية . والعرب والإغريق كانوا يعددون الزوجات ، ويحرمون المرأة أن ترث ، وينسبون أحياناً إلى الأم .

بين المرأة العربية والمصرية

تتشابه العربية والمصرية فى سمو المكانة ، فكل منهما استوت على عرش الملك ، وكلتاهما جليلة الشأن فى الحياة الأسرية وفى الحياة العامة ، وإذا كانت المرأة المصرية قد حظيت عند بعلها فإن العربية أيضا كانت ذات نفوذ عظيم ، حتى لقد نسب إليها زوجها أحيانا .

على أن كلتيهما تملكت المال ، وتصرفت فيه مستقلة عن الرجل ، وإذا كان الحكم اليونانى لمصر قد سلب المرأة المصرية هذا الحق فإن العربية لم تُسلبه . وكان تعدد الزوجات والتسرى هنا وهناك .

ولكن المصرية امتازت من العربية بأنها ورثت وحدها أحيانا ، وورثت بالرجل أحيانا أخرى .

والعربية امتازت بأن نكاح الأم والأخت كان محرما عند العرب .

دلالة هذه المكانة على رقى العرب

كان العرب فى العصر الجاهلى يعرجون إلى الرقى ، فقد أقر الإسلام كثيراً من نظمهم فى الزواج والطلاق ، وفى معاملة السبايا ، وفى الحجاب والأخلاق ، وحق النساء فى الامتلاك والتصرف فيما يمتلكن . وليس أدل على رقيهم من أنهم أوفضوا سراعا إلى زعامة العالم بعد الإسلام . ولم يكن من الطبيعى أن يخلقهم الإسلام خلقا جديداً فى بضعة أعوام ، وأن يسن آدابا وأخلاقا وعادات ومعاملات تناقض طباعهم الأصيلة ، وتغاير نفوسهم ، ثم يدينون بها وتشربها قلوبهم حتى ليجـــدُّون فى نشرها ، ويطيرون بها طيرانا فى الآفاق ، ليس من

الطبيعى أن يحدث ذلك إن لم يكونوا مستعدين لتلقى هذا الجديد وتقبله وتنفيذ تعاليمه بقلوب واعية ، وعزائم ماضية ، ونفوس طاهرة ، لأن حضارة الأمة لا تولد فجأة ، ولا تنجم على حين غرة ، وإنما تولد بعد زمن طويل وماض بعيد كفيل بالتبدل والتطور والانتقال ، كالشجرة تبدأ بذرة فى تربة ملائمة وبيئة موائمة ، ثم تتدرج فى نموها حينا بعد حين .

على أنا نعلم أن العرب تسابقوا إلى اقتباس حضارة الأمم فى الإســـلام ، وهم بهذا الاقتباس السريع أثبتوا أنهم ذوو قرائح مستعدة للرقى والانتفاع بما هو خير ، وهذه القرائح لا تكون إلا ثمرة لوراثة سابقة ، وثقافة قديمة ، فهم على النقيض من البرابرة الذين قوضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، وظلوا قرونا كثيرة لا يستطيعون أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية ، ويخرجوا من ظلمات القرون الوسطى [١] .

ومن عجب أن يشيد بعض الأجانب من المؤرخين الأقدمين ومن المحدثين بحضارة العرب ، ونغفل عن هذه الإشادة ، ونروح نرميهم بالهمجية والوحشية متأثرين بحملات شعوبية قديمة ، وتعصب استعمارى ظالم .

لقد وصف هيرودوت بلاد اليمن وصفا دالا على حضارتها ، وتابعه سترابون . ولقد كان عرب الحيرة والشام على صلة بالفرس والروم وبحضارتهم . على أن العرب ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ، وحضارة اليمن أقدم من حضارة الرومان . ولسنا نغالى فى قولنا إن العرب فى شبه الجزيرة ولا سيما فى الجنوب أسهموا فى تشييد الحضارة الإنسانية ، بل إنه لا يمكن إنكار ذلك ، فقد كانت شبه الجزيرة قبل الإسلام بألفى عام ذات مكانة عظيمة فى العالم القديم ، ثم زادها الإسلام عزة ، حتى حمل العرب مشاعل النور إلى أوروبا والجهل يتفشى فى ربوعها [٢] . وإذاً فما بُدّ من تصحيح النظرة إلى عرب الجاهلية ، فقد استبان لى من هذا الكتاب ومن كتاب الغزل فى العصر الجاهلى أن العرب ظُلموا بالحكم عليهم بالهمجية . وإذ كان قد اتضح لى أنهم على قسط عظيم من الحضارة فيما يتصل بالمرأة فى الأسرة والقبيلة والحياة العامة فإننى أتوقع أن تكشف دراسات أخرى عن ألوان من الرقى طمست معالمها مع الزمن .

---

(١) حضارة العرب ١١١ جستاف لوبون . (٢) حضارة العرب ١٢١ و
The Bach Ground of Islam. P. 17. Phillby

القسم الثانى

المرأة فى الحياة الفنية

الباب الأول

المرأة المغنّية

أتحدث فى هذه الفصول عن المرأة فى الحياة الفنية ، مغنية ، وراوية للشعر وناقدة ، وشاعرة . وفى هذه الدائرة ناحية عظيمة القيمة كان من المنتظر أن أفرد لها فصلا حافلا ، أقصد المرأة الحبيبة أو المرأة الملهمة للغزل ، لكنى لم أفعل ؛ لأنى خصصت المرأة الملهمة للغزل بكتاب (الغزل فى العصر الجاهلى)

الغناء فى الجاهلية :

أولع العرب بالغناء أيما ولوع ، فكان العربى يتغنى وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلة تمشى به متئدة أو مُرْقِلة ، وهو يهتز على ظهرها هزات تبطىء وتسرع ، وتطول وتقصر . وكان يتغنى وهو يهجم فى الحرب فيجرى أو يثب ، ويتغنى وهو يَمْتَح الماء من البئر فيعلو جسمه أو ينخفض ، ويتغنى وهو يرقص ، ويغنى وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة وتعوزه التسلية . تنزل به النازلة فَيُرَوِّحُ عن نفسه بالغناء ، وتبسم له الحياة فيصور حبوره فى غناء .

فالغناء حُداء الركب ، وشَدْوُ الفرد ، وأُهْزوجة المنتصر ، وأُغْرودة العاشق ، وسلوى المكروب والمَحْروب .

علاقة الشعر بالغناء

وقد ارتبط الشعر بالغناء فى النشأة الأولى ارتباطا وثيقاً ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، فبواعث الغناء هى بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى أساس فيهما معاً ، ففى الغناء موسيقى النغمات والألحان ، وفى الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان .

لذلك لا نعرف شعباً غنى بالنثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأحلى ، وأكثر طواعية للتنغيم والترنيم .

وظواهر هذا الارتباط كثيرة فى الأدب العربى القديم وفى غيره من الآداب .

١ — فقد كان شعراء العصر الجاهلى يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، وهم يعبرون عن الإنشاد أحياناً بالغناء ، لأن الإنشاد ضرب منه ، كما روى أن المهلهل شرب خمراً وتغنى قصيدته التى مطلعها :

طَفْلَةٌ ما ابنة المحلّل بيضا ء لعوب لذيذة فى العناق[1]

والسليك بن السلكة غنى بقوله :

يا صاحبىّ ألا لا حىَّ بالوادى سوى عبيد وآمٍ بين أذْواد

أتنظران قريباً رَيْثَ غفلتهم أم تغدوان فإن الربح للغادى[2]

والأعشى كان يغنى فى شعره ، وكانت العرب تسميه صنّاجة العرب[3] . ومُزَرِّد بن ضرار أو أخوه جَزْء يقول فى تهديد أعدائه بهجاء ممض إنه سيرميهم بأهاج مرة يتغنى بها السارى ، ويحدو بها الحادى .

زعيم لمن قاذفْتُه بأوابد يغنى بها السارى وتُحْدَى الرواحل[4]

وامرؤ القيس كان يغنى بشعره ، يدل على ذلك قول أبى النجم لقينته أن تغنيه ببعض ما كان يغنِّى به امرؤ القيس أو عمرو :

تغنَّى فإن اليوم يوم من الصِّبا ببعض الذى غَنَّى امرؤ القيس أو عمرو[5]

وحسان بن ثابت يقرن الشعر بالغناء :

تغنَّ بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضْمار[6]

وقد عبروا عن الشعر بالغناء ، من ذلك أن عمر بن الخطاب قال للنابغة الجعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له ، فقال له : وإنك لقائلها ؟ قال : نعم . قال عمر : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب[7] .

---

(١) الأغانى ٥/٥١ (٢) الأغانى ١٨/١٣٤ (٣) الأغاني ٩/١٠٩

(٤) المفضليات ١/٩٨ أوابد . غرائب القول يريد الأهاجى المرة (٥) الشعر والشعراء ٤٢

(٦) الموشح ٢٩ والعمدة ٢/٢٤١ وفى أساس البلاغة (إما كنت ذا بصر) ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح لأن المضمار هو الموضع الذى تضمر فيه الخيل (٧) العقد الفريد ٤/٩٠

وكانت النساء يتغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، كقول منفوسة بنت زيد الخيل فى ترقيص ولدها

أشبـــه أخى أو أشبهَنْ أباكا أما أبى فلن تنـــال ذاكا
تقْصُرُ عن مَنَـاله يدا كا[1]

وكن يبكين موتاهن بغناء حزين هو النواح ، كما ناحت الخنساء على أخويها ، وهند بنت عتبة على أبيها وعمها وأخيها [2] ، وكن يغنين فى المعارك ليشجعن الرجال على القتال كما سبق فى الحرب .

وظل لفظ الإنشاد إلى ما بعد العصر الجاهلى دالا على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه غناء ، كما فى شعر ذى الرمة [3] والمتنبى [4]

وطالما غنى الرجال بشعر حماسى وهم يحاربون كما فعل عُمير بن الحُمام إذ سمع النبى صلى الله عليه وعلم يحرض المسلمين على قتال المشركين فى بدر فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقَى وعمـــل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضـــة النفاد
غير التقى والبر والرشـاد [5]

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مرّ عليها — وهى فى حصن بنى حارثة يوم الخندق ومعها أم سعد — وهو يسرع إلى الحرب ويقول :

لَبِّثْ قليـــلا يشهد الهيجا جَمَل لا بأس بالموت إذا حان الأجل[6]

وفى غزوة خيبر خرج مَرْحب اليهودى من حصن لليهود وقد جمع سلاحه وارتجز بقوله :

قد علمت خيبر أنى مَرْحبُ شاكى السلاح بطـ ـل مجرَّبُ
أطعن أحيـانا وحينـا أضرب إذا الليوث أقبلت تُحرَّبُ
. . . . . .

وكان يقول من يبارز ، فأجابه كعب بن مالك بقوله :

قد علمت خيـــبر أنى كعب وأننى متى تُشَبُّ الحرب

(١) لسان العرب مادة وكل والأغاني للأطفال عند العرب ٥٥ (٢) الأغانى ١٣/١٢٩
(٣) العمدة ٢/٢٤١ (٤) ديوان المتنبى ١/١٩٣ شرح البرقوقى
(٥) تاريخ الطبرى ٢/٢٨١ (٦) تاريخ الطبرى ٣/٤٩

ماضٍ على الهول جرىء صلب معى حسام كالعقيق عَضْب
..... (١)

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى وجماعات ، فقد روى عن أنس بن مالك وعن عائشة أنه لما قدم رسول الله المدينة تغنت النساء والصبيان بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع (٢)

وفى حفر الخندق رأى النبى ما بالصحابة من تعب وجوع ، فقال متمثلا بقول ابن رواحة :

لاهُمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجِرَة

وكان الصحابة يجيبونه بقولهم :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدا

وروى أنه صلى الله عليه وسلم تمثل بشعر آخر أيضاً (٣) ، وأن الصحابة ارتجزوا برجل من الأنصار اسمه جُعَيْل وسماه الرسول عمراً فقالوا :

سماه من بعد جُعَيْل عَمْرا وكان للبائس يوما ظَهْراً

فإذا مروا بكلمة عمرو قال الرسول (عمرا) وإذا نطقوا كلمة ظهر قال الرسول (ظهراً) (٤)

٢ — ولم يكن الشعر العربى وحده هو الوثيق الصلة بالغناء ، فقد كان الشعر اليونانى كذلك ، فأطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى . وكان هوميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية . ولم يكن الغناء بالشعر عند اليونان محصورا فى نوع معين منه ، فقد تغنوا فى مناجاة الآلهة ، وفى مدح الملوك ، وفى إلقاء القصص ، وفى الشعر التمثيلى الذى كان حواراً وأناشيد غنائية ، على أن الشعر الغنائى استمد هذه التسمية من نسبته إلى كلمة Lyre ، وهى آلة موسيقية قديمة ، فسمى Lyric Poetry أى الشعر الغنائى (٥) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٨٣ والمغازى ٣٩٠ (٢) السيرة الحلبية ٢/٥٨
(٣) السيرة الحلبية ٢/٣٣٢ (٤) سيرة ابن هشام ٣/٢٣٢
(٥) أصول النقد الأدبى ٣١٨ أحمد الشايب

وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائى مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى (١)

ومنذ عهد قديم أطلق الإنجليز كلمة بارد Bard على الشاعر المغنى الذى كان يتغنى أمام المحاربين ويعزف على آلة موسيقية (٢).

ثم ظهرت طائفة التروبادور Troubadour فى القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر فى شرقى إسبانيا وشمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا، وكانوا يتنقلون من قصر إلى قصر ينشدون شعرهم ويوقعون على آلات موسيقية معهم (٣).

وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر ظهرت جماعة المنسنجر Minnesingers فى ألمانيا، ينشدون الشعر ويتغنونه على أداة موسيقية (٤).

أنواع الغناء عند العرب

تغنى العرب بشعرهم كما سبق، فرادى وجماعات، رجالا ونساء، وهذا هو الترنيم.

ثم تنوع الغناء إلى ثلاثة ألحان: نَصَب وسناد وهَزَج. أما النصب فغناء الركبان والقيان، وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج فالخفيف كله الذى يلهى وينشط على السير، وهو الذى يثير القلوب ويهيج الحليم (٥). وإنما كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشياً، وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب (٦).

غناء الاماء

النساء أليق بالغناء

كانت النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال، لأنهن فى الغالب أندى صوتاً وأحلى ترجيعاً وأرق نغما، ولأن لجمالهن وأنوثتهن أثراً فى الطرب لهن. وقد ذهب الجاحظ إلى أن الغناء المطرب فى الشعر الغزل من حقوق النساء، وإنما ينبغى أن تغنى بأشعار الغزل

(١) قواعد النقد الأدبي . ٧ لاسل كرومي

(٢) The great Ensyclopeadia of Universal Knowledge

(٣) المرجع السابق و Twentieth Century dictionary. and dictionary Larrous

(٤) Twentieth Century dictionary

(٥) كتاب الملاهى للضبى ٤٤ مخطوط والعقد الفريد ٣/١٨٦ (٦) العقد الفريد ٣/١٨٦

والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شبب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب » [١] ، ثم قال : « وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد فأيّما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك فحل ملتف اللحية كث العارضين أو شيخ منخلع الأسنان مغضن الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوّة ؟ [٢] » .

وإذا كان الجاحظ قد وازن بين الجارية الحسناء والرجل القبيح ليخلص إلى أننا نؤثر سماع الجارية ونفرّ من سماع الرجل ، فإن الجواب واحد إذا وازنا بين مغنية جميلة ومغن جميل .

وقد حدّث ثُمامة بن أشرس فقال : كنت عند المأمون يوما فاستأذن المغنى عُمَيْر ليدخل فكرهت ذلك ، فقال المأمون : ما بك يا ثمامة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إذا غنى عمير ذكرت مواطن الإبل وكثبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى وقوى جذلى وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والولدان . كم بين أن تغنيك غادة كأنها غصن بان ترنو بمقلة وسنان ، كأنما خلقت من ياقوتة أو قرطت من فضة ، وبين أن يغنيك رجل كث اللحية غليظ الأصابع خشن الكف ؟ فتبسم المأمون وقال : الفرق بينهما واضح . يا غلام لا تأذن له . وأمر بأن تحضر أطيب قيناته [٣] .

القيان محترفات بالغناء .

هل كان فى العصر الجاهلى مغنيات محترفات ؟ نعم ، كانت هنالك مغنيات يحترفن بالغناء ويشتهرن به هن القيان . والقينة : الأمه المغنية ، من التقيُّن وهو التزين . ومنه قيل للمرأة مُقَيِّنة إذا كانت تزين النساء ، شبهت بالأمة ، لأنها تصلح البيت وتزينه . وقيل القينة الأمة مغنية أو غير مغنية ، والقينة الجارية تخدم ، والأمة غنت أو لم تغن . والمغنية تسمى قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر [٤] .

---

(١) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٥ (٢) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٤
(٣) زهر الآداب ٣/٢٧ (٤) لسان العرب ١٧/٢٣١

وقد عرف العرب القيان منذ زمن بعيد ، فقديما كانت لمعاوية بن بكر العمليق — سيد العمالقة الذين نزلوا بمكة فى سالف الدهر — جرادتان كانتا قينتين ، وبهما ضرب المثل فى سالف الدهر فقيل صار فلان حديث الجرادتين ، إذا اشتهر أمره [١] . وقيل إنهما أول من غنى الغناء العربى [٢] .

ولما حُبس المطر عن عاد — وكانوا ينزلون بين الشِّحْر وحضرموت — بعثوا وفدهم إلى مكة يستسقون لهم ، فنزلوا على معاوية بن بكر ، لأنه كان صهرَ أَلهم ، فشغلوا بشرب الخمر وسماع الجرادتين عن الاستسقاء ، ثم تذكروا قومهم فاستسقوا لهم [٣] .

ثم كانت لعبد الله بن جدعان أمتان تتغنيان فى الجاهلية سماهما بجرادتى عاد ، وقد غنتا له قول أمية بن أبى الصلت فى مدحه :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوتَه ببـــذل وما كل العطـــاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشـــين

وذكر لهما إسحق الموصلى فى المائة المختارة لحنا وهو :

أقفر من أهـــله مَصيفُ فبطن نخلة فالعـــريف
. . . . . [٤]

وكانت لبشر بن عمرو بن مرثد قينتان أختان هما هُرَيْرة وخُلَيْدة ، كانتا تغنيانه النَّصَب ، وقد قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان [٥] . وهريرة هى التى شبب بها الأعشى فى قوله :

ودِّعْ هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟ [٦]

وفى قوله يذكر غناءها :

وتَبيتُ داجنـــةٌ تجاوب مثلها خَوداً منعمةً وتَضْرب مُعْتبا [٧]

والقيان المشهورات كثيرات ، منهن بنت عَفْزَر [٨] وحمامة [٩] وأرنب [١٠] وزينب [١١] .

---

(١) مجمع الأمثال ٢/١٨٦ و١/١١٨ (٢) جمهرة الأمثال ٢/١٩٠
(٣) كتاب الملاهى للضبى ٥٣٣ مخطوط ومجمع الأمثال ١/١١٨
(٤) اوائل الأوائل لأبى هلال ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان للجاحظ ٦٢ (٥) الأغانى ٨/٧٧
(٦) ديوان الأعشى الكبير (٧) المفضليات ٢/٧٦ الداجنة : شرحها ابن الأنبارى بأنها القينة المغنية ولس هذا فى المعاجم . معتب : مطيع مجاوب والمراد به العود (٨) الأغانى ١٠/١٧
(٩) الإصابة ٨/٤ (١٠) الإصابة ٨/٤ (١١) الإصابة ٨/٩٩

ثم كثرن فى العصر الأموى والعباسى ، وبرعن أيما براعة [١] ، حتى لقد خرج يودع جميلة وهى تزمع الحج كثير من المغنين والمغنيات الحذاق منهم هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحا وقند ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء [٢] ، حتى قالوا إن زهاء خمسين قينة لحقن بها ، ولحق بها أيضا زهاء ثلاثين مغنيا [٣] .

جنسية القيان .

١ — انصرف العرب عن الاحتراف بالغناء ، على شغفهم به وطربهم له . ولعل السبب فى انصراف الرجال عن احترافه أنهم كانوا يكسبون أرزاقهم من الحرب ، ومن التجارة والرعى ، وأنهم كانوا يتجافون عن أنواع الصناعات ، وأن مكانة المغنى — وإن أطرب ونال العطاء الجزل — لم تكن توائم المكانة التى يريدها العربى لنفسه ، ثم إنهم وجدوا الغناء أليق بالنساء من الرجال .

وكذلك انصرفت الحرائر عن الغناء ، لأنهن إما مكفولات الرزق برجالهن ، وإما كاسبات رزقهن بأعمال غير الغناء . وما من شك فى أن الغناء يقتضى من المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تبرز بعض مفاتنها لهم ، وأن تكون مناط أنظارهم ومجمع اشتهائهم — كما تحدث الشعراء — وما يرضى رجل عربى أن تكون ملتقى الأنظار والشهوات امرأة تربطها به صلة ، ولا تجرؤ عربية أن تشذ عن بنات جنسها فتحتل هذا الموضع المخصص للإماء .

٢ — لهذا كانت الكثرة الغالبة من القيان فى العصر الجاهلى غير عربيات ، وما زالت هذه الكثرة من الموالى والجوارى فى العصر الإسلامى والعباسى .

يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه فى الجاهلية عند جبلة بن الأيهم وجاء فى وصفه أنه سمع عشر قيان : « خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها » [٤] ، لكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللاتى يغنين غناء أهل الحيره أهن فارسيات أم عربيات ؟

ومما يؤيد هذا أن عامر بن الطفيل هجا خصمه بقوله :

وافخر برهـــط بنى الخماس ومالك وبنى الضِّباب ورَعْبَل وقيان [٥]

---

(١) الأغاني ٧/١٧٩ و١٦/١٢ و٧/١١٨ — ١٤٠ . (٢) الأغانى ٧/١٢٨
(٣) الأغانى ٧/١٢٨ (٤) الأغاني ١٦/١٤ (٥) الأغاني ١٦/١٤

وأن الأعشى كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهم ما شاء يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومى ، وفى ذلك يقول لناقته :

وكعبة نجران حتمٌ عليك حتى تُناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً همُ خير أربابها
وشاهدُنا الجُلُّ والياسمين والمُسْمعَاتُ بقَصَّابها
ويَرْبَطنا دائماً معمل فأى الثلاثة أُزْرَى بها ؟ (١)

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليال فقال إن القيان كن فارسيات أو يونانيات من سوريا وإنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين بلهجة أجنبية (٢) . وهو فى هذا يتفق مع فون كريمر ، وإن ذهب فون كريمر إلى أنهن كن يغنين بلسانهن اليونانى أو الفارسى (٣) .

وإنه لأدنى إلى الصواب أن نضيف إلى اليونانيات والفارسيات الحبشيات أيضاً كما ذهب الدكتور بيرون Perron إذ قال فى كتابه عن النساء العربيات إن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ولا شك أن أكثرهم من الحبش ، لأن أكثر العبيد قبل الإسلام كانوا حبشاً أو زنوجا ، وليس ببعيد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين (٤) . وسنتبين من الفقرات المقبلة أن أكثر القيان كن غير عربيات .

غناؤهن بالشعر

وقد تغنت القيان بالشعر العربى ، كما تغنين بلغاتهن ، ولا عجب فى أن يسمع العربى غناء بلغة غير لغته ويطرب له ، لأنه يطرب للصوت واللحن ، ويعجب بجمال المغنية . وقد روى أن أبا تمام قد سمع غناء بخراسان بالفارسية ، فلم يدرِ ماهو ، غير أنه أشجاه فقال :

حمدتك ليلة شَرُفَتْ وطابت أقام سهادُها ومضى كَراها
سمعتُ بها غناء كان أولى بأن يقتاد نفسى من عناها
ومُسْمعةٍ يحار السمع فيها ولم تُصْمِمْهُ لا يُصمم صداها
مَرَتْ أوتارَها فشجت وشاقت فلو يَسْطيعُ حاسدها فداها

(١) الأغانى ٩/١٥٧ (٢) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ٥٤
(٣) Farmer. A. History of Arabian Music. P. 17 (٤) داعى السماء بلال ١٥٠ العقاد

ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَتْ كبدى فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى مُغَنٍّ ... يحب الغانيات ولا يراها (١)

أما الدليل على غناء بعضهن بالشعر العربى فقول عبدة بن الطبيب :

ثم اصطبحت كُمَيْتاً قرقفا أُنُفاً ... من طيِّب الراح واللذاتُ تعليل
صِرْفا مِزاجاً وأحيانا يُعَلِّلُنا ... شعر كمُذْهَبة السَّمان محمول
تُذْرى حواشيهُ جَيْداء آنسةٌ ... فى صوتها لسَماع الشَّرْب ترتيل
تغدو علينا تُلهِّينا ونُصْفدُها ... تُلْقِى البُرُودعليها والسَّرابيل (٢)

فهو يقرر أن القينة كانت تغنيهم بالشعر العربى الجيد .

ثم إنه كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه (٣) .

وكانت سارة مولاة لبنى عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله بالمدينة وأسلمت وشكت حاجتها وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان فى غنائك ما يغنيك ؟ فقالت إن قريشاً منذ قتلى بدر تركوا الغناء . فوصلها صلى الله عليه وسلم (٤) .

وكانت هريرة وخليدة قينتين لبشرو بن عمرو بن مرثد ، وكانتا تغنيانه النصب (٥) ، وهو غناء عربى صرف .

وقد تغنين بالشعر العربى فى أغراض شتى ، فقد غنت جرادتا عبد الله بن جدعان قول أمية بن أبى الصلت فى مدحه ، وأمية يسمع :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ... ببذل وما كل العطاء يزين
. . . . . (٦)

وتغنين بالهجاء أيضا ، فإن خالد بن جعفر قال لقينة بالحيرة اجتمع عندها هو والحارث ابن ظالم — وهما خصمان — أن تغنيه :

---

(١) تهذيب الكامل ٢/٣٤ وزهر الآداب ١/١٣٧ (٢) المفضليات ١/١٤٣ كميتاً : خمراً فى لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفا مزاجاً : خالصة وكأنها ممزوجة بالماء لطيبها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى مقارب أو الأصباغ التى تزوق بها السقوف . محمول : مروى ذائع لحسنه . تذرى : ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطريبا وترجيعا . حواشيه : أطرافه . آنسة : منبسطة متحدثة . نصفدها : نعطيها
(٣) الأغانى ٩/١٥٧ (٤) إنسان العيون ٣/٨٧ (٥) الأغانى ٨/٧٧ (٦) الأغانى ٨/٣

دار لهنـــد والرّباب وفَرْتَنا ولميس قول حوادث الأيام

وهن خالات الحارث ، فغضب الحارث[١] .

وكان لابن خَطَل قينتان يعلمهما الغناء بهجاء النبي ، فأمر النبي بقتلهما يوم الفتح . فأما قُرَيْبة فقتلت مصلوبة ، وأما فَرْتنا ففرت حتى استؤمن لها الرسول فأمنها فآمنت[٢] .

وكن يغنين وراء المحاربين ليلهبن حماستهم ، فإن قريشاً كانت قد خرجت فى غزوة بدر ومعها ثلاث قيان ، ثم أرسل أبو سفيان فردهن من الجحفة ، وخرجت قريش فى أحد ومعها قيانها[٣] .

وكان الرجل يستمع إلى الغناء ليشجُع ويثأر ، ذلك بأن الحارث بن ظالم اعتزم أن يقتل خالد بن جعفر ، فخرج إلى بنت عفزر فشرب عندها ، وقال لها : تغنى

تَعَلَّمْ أبيت اللعن أنى فاتك من اليوم أو من بعده بابن جعفر

. . . . . .

ثم مضى إليه فقتـــله[٤] .

وكن يغنين فى المآدب ، فقد تحدث خارجة بن زيد فقال : دعينا إلى مأدبة فى آل نبيط ، فحضرتها وحضرها حسان بن ثابت ، فجلسنا على مائدة واحدة ، فلما فرغنا من الطعام أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عزة ، فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً ، وغنتا بقول حسان :

انظر خليلى بباب جِلِّق هـل تُبْصرُ دون البَلْقاء من أحـد[٥]

ويغنين فى الأعراس ، فقد كانت أرنب مغنية بالمدينة ، ولما تزوج بعض الأنصار قريبة لعائشة قال لها النبي : أهديت عروسك ؟ قالت نعم . قال : فأرسلت معها بغناء فإن الأنصار يحبونه ؟ قالت : لا . قال : فأدركيها بأرنب[٦] .

وكن يغنين للتسلية والتطريب غزلا وغير غزل ، فقد خرج مسلم والبخارى عن عائشة أنها قالت : دخل علىّ أبو بكر وجاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما قالت الأنصار فى يوم بعاث ، فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ؟ وكان ذلك فى يوم عيد ،

---

(١) الأغانى ١٠/١٧ (٢) تاريخ الطبرى ٣/١١٩ وتاريخ الخميس ٢/١٠٤ والإصابة ٨/١٦٦
(٣) المغازى ٣٦ والسيرة الحلبية ٢/١٥٥ وتاريخ الطبرى ٢/٢٧٦ (٤) الأغانى ١٠/٧ (٥) الأغانى ١٦/١٤ (٦) الإصابة ٨/٤ والعقد الفريد ٣/٢٣١ والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٣/٢٣٣

فقال رسول الله : يا أبا بكر لكل قوم عيد وهذا عيدنا ، وخرج أبو داود والإمام أحمد ابن حنبل عن الربيع بنت معوذ بن عفراء أن النبي دخل عليها صبيحة زفافها ، فجعلت جويريات يضربن بدف لهن ويندبن من قتل من آبائها يوم بدر إلى أن قالت إحداهن : « وفينا نبي يعلم ما فى الغد » فقال : دعي هذه وقولى الذى كنت تقولين ، أو قال لهما : أما هذا فلا تقولاه (١) .

ومن هذا أن فتية من قريش اجتمعوا عند قينة من قيان المدينة ، ومعهم عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت ، فإذا بحسان يستأذن ، فكرهوا دخوله ، وشق ذلك عليهم ، فقال لهم عبدالرحمن : أيسركم الآن مجلس؟ قالوا نعم ، قال : مروها إذا نظرت إليه أن ترفع عقيرتها وتغنى :

أولاد جَفْنَةَ عند قبر أبيهم قبر ابن مارِيَةَ الكريم المُفْضل

. . . . . .

ففعلت ، فبكى حسان حتى ظنوا أن نفسه سقطت (٢).

وقد كان لحسان جارية اسمها سيرين تغنيه بشعره ، وقد جلس يوما فى ظل حصنه وحوله أصحابه وهى تغنيه بمزهرها :

هل علىّ ويحكم إن لهوت من حَرَج

فمر النبي فسمع وضحك وقال : لا حرج إن شاء الله (٣) .

كذلك كان امرؤ القيس يأمر قيانه أن يغنينه بشعر مُرَّة بن الرُّوَاع (٤) :

إن الخليط أجدَّ البين فادّلجوا وهم كذلك فى آثارهم لُجَج (٥)

وغنت القيان أيضا بالأسواق ، وكان بدر موسما من مواسم الجاهلية يجتمع به العرب ولهم به سوق ينحر بها الأشراف الجزر ، ويطعمون الطعام ، ويشربون الخمر ، وتعزف القيان لهم (٦).

أثر غنائهن فى النفوس

كن يشجعن على الاستبسال ، وعلى المخاطرة والثأر كما سبق ، وكن يلهين السامعين ويطربنهم ، يقول عبدة بن الطبيب إنهم كانوا يطربون فيخلعون عليها الخلع :

تغدو علينا تُلَهِّينا ونُصْفدها تلقَى البرودُ عليها والسرابيل (٧)

---

(١) سنن أبى داود ١٩٧/٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٦٠/٦ (٢) الأغانى ١٦/١٦

(٣) الأغانى ١٦١/١٠ (٤) الرواع اسم أمه كما فى ترجمة أخيه فى معجم الشعراء للمرزبانى وأبوه سلم بن عمرو وهو شاعر قديم من بنى أسد (٥) المؤتلف والمختلف ١٢٧ لجج : جمع لجة وهى الجماعة الكثيرة (٦) المغازى ٣٧ وتاريخ الطبرى ٢٧٦/٢ (٧) المفضليات ١٤٣/١

ويقول امرؤ القيس إن القينة كانت تفرج عنه همومه :

وإن أُمْسِ مكروبا فيارب قينة منعمة أعملتُها بكران[١]

ويشتد الطرب بعبد يغوث فيشق رداءه :

وأنحر للشَّرْب الكرام مطيتى وأصدع بين القينتين ردائيا[٢]

فكان يعمل ما عمله من بعده عمر بن أبي ربيعة ، إذ كان يسمع جميلة فيشق رداءه إلى أسفله [٣] . وسمع يوما عزة الميلاء تغنى بشعره ، فشق ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب . قال : إنى سمعت والله مالم أملك معه نفسى ولا عقلى [٤] . ثم جاء بعدهما أحد الظرفاء فى العصر العباسى ، وكانت له قينتان إحداهما مجيدة مطربة والأخرى مسيئة ، فكان إذا غنت المجيدة خرق قميصه ، وإذا غنت المسيئة قعد يخيطه [٥] .

وقد سمع حسان غناء رائقة وعزة وعزفهما العجيب على مزهريهما فدمعت عيناه ، فإذا سكتتا ذهب بكاؤه ، وإذا غنتا عاوده .

وكان الشراب كثيراً ما يصاحب الغناء ، لأن بين الخمر والغناء « مناسبة فى أكثر الأحوال . . . . ولهذا صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ أزيد مما يحتمله حاله إذا لم يصغ إليه ، ويستمرىء الكثير مع سماعه وإن كان يثقل عليه قليله إذا خلا من استماعه » [٧] ، لذلك كان أعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة حين تطير الوراشن والفواخت إلى تلك الظلال فيشربون ويأنسون بتغريدها ، ويقيمون أصواتها مقام المزامير والأوتار [٨] .

هكذا كان يفعل الأعشى ، إذ يشرب الخمر ويسمع الغناء الرومى عند أساقفة نجران [٩] . وامرؤ القيس كان يتنقل فى أحياء العرب ومعه رفاقه ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه كل يوم ، وخرج إلى الصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانه [١٠] .

ولقد تحدث الشعراء عن مصاحبة الخمر للغناء ، يقول لبيد إن القينة تعزف على العود بأناملها الطيعة وسامعوها يحتسون الخمر :

أُغْلى السِّباء بكل أدكَنَ عاتقٍ أو جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامها

---

(١) الديوان ١٨٧ كران : عود (٢) المفضليات ١/١٥٦ (٣) الأغاني ٧/١٢٧ و١٢٩ـ١٣٤
(٤) الأغانى ١٦/١٣ (٥) محاضرات الأدباء ١/٤٦٦ (٦) الأغاني ١٦/١٤
(٧) مطالع البدور ١/٢٣١ (٨) مطالع البدور ٢/٢٦١ (٩) الأغاني ١٠/١٣٥
(١٠) الأغاني ٨/٦٥

بصبوح صافية وجذب كرينةٍ بموتر تأتى له إبهامها (١)

ويقول فى رثاء النعمان :

ليبكِ على النعمان شربٌ وقينة ومختبطات كالسعالى أرامل (٢)

ويقول الأعشى :

ورادعة بالطيب صفراء عندنا لجسّ الندامى فى يد الدرع مفتقُ

إذا قلت غنى الشربَ قامت بمزهر يكاد - إذا دارت له الكف - ينطق (٣)

وما زالت الخمر تلازم الغناء فى كثير من الأحوال بعد العصر الجاهلى ، فمثلا يقول الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

فاصطبحنا بخمر عانةَ صِرْفا ولهونا بقينة عزّافه (٤)

ويقول :

دعوا لى سليمى والطِّلاء وقينة وكأسا ألا حَسْبى بذلك مالا (٥)

ويقول مالك بن أسماء (ونسب إلى الوليد بن يزيد وربما زاد فى شعر مالك) :

حبذا ليلتى بتلّ يونّا حيث نُسقَى شرابنا ونغنّى

من شراب كأنه دم جوف يترك الشيخ والفتى مُرْجَحنّا

حيث دارت بنا الزجاجة درنا يحسب الجاهلون أنا جُنّنّا

ومررنا بنسوة عطرات وسماع وقرقف فنزلنا (٦)

وقد أولع الغزلون بالصوت فيه غنة ، وأولع الشاربون بصوت المغنية الأبحّ ، وقد يفخرون بأن البحة من أثر الخمر ، قال عبيد :

وبيت يفوح المسك من حَجَراته تَسَدّيتُه من بين سرٍّ ومخطوب

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ١٦٣ ولسان العرب ١٨/٥٤ السباء : شراء الخمر للشرب لا للبيع . أدكن : زق أغبر . عاتق : صفة للخمر أو للزق والعاتق الخالصة أو المعتقة أو التى لم تفتح . جونة : خابية مطلية بالقار . كرينة : مغنية . موتر : له أوتار . تأتى له : تأتوى له أى تطاوعه . وروى تأتا له بضم اللام أى تصلحه (٢) ديوان لبيد ٢٩ مختبطات : نائلات نعمة . السعالى : الغيلان

(٣) ديوان الأعشى ١٤٧ وطبقات الشعراء ٣٦ تحقيق شاكر . رادعة بالطيب : مطيبة بالزعفران . مفتق : شق وفتحة (٤) الأغانى ٦/١٠٥ (٥) الأغانى ٦/١٣٤ (٦) ديوان الوليد ٥٦ وسمط اللآلى ١/١٥ والأشربة ٧٨ مخطوط . قرقف : خمر تصيب شاربها برعدة

اشترك فيه ثلاث من الحواس ، وصار القلب لها رابعا ، فللعين النظر إلى القينة الحسناء ، وللسمع منها حظ الذى لا مئونة عليه ولا تطرب آلته إلا إليه ، وللمس فيها الشهوة ، والحواس كلها رواد للقلب وشهود عنده . . . .[1]

وقد أسلفت حب بعض الشعراء لهن كالأعشى وامرىء القيس .

فإذا ما اجتزنا العصر الجاهلى إلى الأموى والعباسى وجدنا اشتهاراً بعشق المغنيات ، إذشاع اقتناؤهن واقتناه الإماء بعامة ، والاستمتاع بهن فى عصر فاضت فيه الأموال بأيدى العرب ، وجنحوا إلى الترف واللذة والمجانة ، فتضاءلت الأخلاق العربية البدوية ، حتى لقد ظهر جماعة من المخنثين يصلون ما بين الرجال والنساء ، وجماعة من النساء يسفرن بالرسائل ويمهدن للقاء ، ويغرين النساء ويصلحن العتب بانتحال الأعذار ، كهؤلاء اللائى سفرن بين عمر بن أبى ربيعة وعشيقاته ، وهو يصف إحداهن بقوله :

فأتتها طَبَّةٌ عالمة ... تخلط الجد مراراً باللعب
تُغْلظ القولَ إذا لانت لها ... وتُراخِى عند سَوْرات الغضب
لم تزل تصرفها عن رأيها ... وتأتّاها برفق وأدب
أن كفِّى لك رهنٌ بالرضا ... فاقبلى ياهند قالت : قد وجب

ولما أنشد ابن أبى عتيق هذه القصيدة قال له : الناس يطلبون خليفة فى صفة قوادتك هذه يدبر أمورهم فما يجدونه[2] . ويقول أيضاً :

فبعثت كاتمة الحديث ... رفيقة بجوابها
وحشية إنسية ... خَرَّاجة من بابها
فَرَقَتْ فسهّلت المعا ... رضَ من سبيل نقابها[3]

وبلغ من حب يزيد بن معاوية لحبابة أنه كان لا يعصى لها رجاء ، وكان يخرج عن الوقار إذا سمعها[4] . ولم يكن وحده المفتون بها ، فإن كثيراً كانوا يشركونه فى ذلك ، حتى إنه لما اشتراها وهو أمير وأراد الخروج بها قال الحارث بن خالد :

---

(١) رسالة القيان للجاحظ ٦٩ (٢) الأغانى ١/٥٧ ساسى (٣) الأغانى ١/٦٠ ساسى
(٤) الأغانى ١٣/١٤٨ ـ ١٥٧

قد سُلَّ جسمى وقد أودى به سَقَمٌ من أجل حىٍّ خلوا عن بلدة الحرم
يحن قلبى إليها حين أذكرها وما تذكرتُ شوقا آب من أَمَم

وقال فيها الشعراء فأكثروا ، وغنى أشعارهم المغنون بمكة والمدينة (١) .

أثر القيان فى الشعر

١ — تغنى الشعراء بشعرهم ، وتغنت القيان بشعر الشعراء ، ولم نعرف أن العرب تغنوا بالنثر ، وأرجع أن الغناء بالشعر كان عظيم الأثر فى أوزانه وتطورها ، وإذاً فقد كان للقيان نصيب فى هذا التطور أسهمن به مع الرجال .

وقد ذهب أبو حيان التوحيدى فيما رواه عن مسكويه إلى ما يعزز هذا ، فى قوله : « ربما سمعنا للشعراء الجاهليين المتقدمين أوزانا لا تقبلها طباعنا ، ولا تحسن فى ذوقنا ، وهى عندهم مقبولة موزونة ، كقول المرقش .

لابنة عجلان بالطَّفِّ رسومْ لم يتعفَّين والعهدُ قديمْ

وكذلك قد يستعملون من الزحاف فى الأوزان ما يكون عند المطبوعين منا مكسوراً ، وهى صحيحة . والسبب فى جميع ذلك أن القوم كانوا يجبرون بنغمات يستعملونها مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا لا نعرف تلك النغمات ، فإذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن فى طباعنا . . . . » (٢) :

وقد سبق أن العرب كانوا يغنون بشعرهم ، ويمدون أصواتهم بإنشاده . بل إنهم كانوا يزنون شعرهم بالغناء ، قال حسان بن ثابت :

تغن فى كل شعر أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضْمار (٣)

٢ — وكانت القيان أكثر غناء بالشعر من الشعراء أنفسهم ، والشعراء يسمعونهن ويطربون لهن ، فهم يجودون شعرهم ويتخيرون وزنه سهل التلحين والترجيع ، وهم إذا ما سمعوه يغنى تنبهوا إلى ماقد يكون فيه من عيب فى الوزن أو القافية . من ذلك أن النابغة أقوى فى قصيدته التى مطلعها :

---

(١) الأغانى ١٣/١٥٠ (٢) الهوامل والشوامل ٢٨٢ لأبى حيان التوحيدى ومسكويه .
(٣) الموشح ٤٠ وفى أساس البلاغة : تغن بالشعر إما كنت ذا بصر . ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح ، لأن المضمار الموضع الذى تضمر فيه الخيل

أمن آل ميـة رائح أو مغتـد عجـلان ذا زاد وغـير مزود

فقدم المدينة فعيب عليه ذلك ، فلم يأبه له ، فقالوا للجارية : غنيه هذه القصيدة ، فإذا صرت إلى قوله :

زعم الأحبة أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

فرتلي . فلما سمعها انتبه ، وأصلح إقواءه ، ولم يعد إليه ، وقال : قدمت يثرب وفى شعرى شيء ، وخرجت وأنا أشعر الناس (١) .

٣ — فلم يكن عجيباً أن تقوى الوشيجة بين الشعراء والقيان فى العصر الجاهلى ، فلعبد الله بن جدعان قينتان (٢) ، ولبشر بن عمرو بن مرثد قينتان (٣) ولسلامة بن جندل قينة (٤) ، ولطرفة قينة (٥) ، وكذلك لعمرو بن الإطنابة (٦) ، ولعَبدة بن الطبيب (٧) ، ولعبد يغوث (٨) ، ولامرىء القيس قيان يغنينه فى تنقله ورحلاته للصيد واللهو (٩) ، ولأُحَيْحة ابن الجُلَاح قينة تغنيه بشعره (١٠) .

ثم قويت اللحمة بين الشعراء والمغنين والمغنيات فى العصر الأموى والعباسى ، فالغريض وابن سريج يرافقان عمر بن أبى ربيعة ويغنيانه بشعره ، ويذيعان غناءهما وشعره فى الناس حتى لقد قالوا : إذا أعجزك أن تطرب القرشى فغنه غناء ابن سريج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك ترقصه (١١) . وكان الإعجاب متبادلا بينه وبين جميلة ، يعجب بغنائها وتعجب بشعره فتغنيه ، حتى لقد يشق قميصه إلى أسفله (١٢) ، وكذلك غنى ابن سريج بشعر عمر على مسمع منه ومن جميلة (١٣) ، وتغنى بشعر الأحوص (١٤) .

ويكفى للدلالة على إعزاز الشعراء للمغنيات أن جميلة لما خرجت إلى الحج ودعها إلى مكة كثير من المغنين والمغنيات ، وودعها من الشعراء ابن أبى عتيق والأحوص وكثير عزة ونصيب وجماعة من الأشراف ، وتلقاها بمكة عمر بن أبى ربيعة والعرجى والحارث ابن خالد المخزومى . فلما حجت قال عمر : أقسمت على من كان فى قلبه حب لاستماع غنائها

---

(١) الموشح ٣٩ وطبقات الشعراء ٥٦ بتحقيق شاكر والشطر الثانى بعد الإصلاح : وبذاك تنعاب الغراب الأسود (٢) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغانى ٣/٨
(٣) الأغانى ٧٧/٨ (٤) المفضليات ١١٨/١ (٥) ديوان طرفة ٢٨ (٦) الأغاني ١٦٤/٩
(٧) المفضليات ١٤٣/١ (٨) المفضليات ١٥٦/١ (٩) الأغاني ٦٥/٨ والديوان ١٨٧
(١٠) الأغانى ١١٥/١٣ (١١) الأغاني ١/ ١٠٩ (١٢) الأغاني ١٢٧/٧ـ١٢٨ و١٢٩ـ١٣٤
(١٣) الأغانى ١٢٩/٧ (١٤) الأغانى ١١٤/١

إلا خرج معها إلى المدينة فإنى خارج . فخرجوا فكان فى موكبها من رافقوها من المدينة إلى مكة، ومن خرجوا معهم من مكة إلى المدينة (١) .

هبة القيان

كان الملوك والموسرون لا يستأثرون بالإماء ، بل يشركون معهم غيرهم فى سماعهن، وكانوا يهبونهن أحياناً .

قال الأعشى فى مدح مسروق بن وائل :

الواهب القينات كالغـ ـزلان فى عُقَد الخمائل
يركُضْنَ كلَّ عشية عَصْبَ المريَّش والمَراجل (٢)

وقال :

هو الواهب المسمعات الشُّرو ـبَ بينَ الحرير وبين الكَتَن (٣)

وقال فى مدح الأسود بن المنذر اللخمى أخى النعمان بن المنذر أو فى مدح المنذر بن الأسود :

يَهَبُ الجِلَّةَ الجَراجرَ كالبسـ ـتان تَحْنُو لدَرْدَقٍ أطفال
والبغايا يركُضْنَ أكسيةَ الإضـ ـريج والشَّرْعَبيَّ ذا الأذيال (٤)

وكانت لعبدالله بن جدعان قينتان ، وكان سيداً جواداً ، فرأى أمية بن أبى الصلت ينظر إليهما وهو عنده ، فوهبه إحداهما ، فلما انصرف لامه الناس على أخذها وعبد الله عليل ، فعاد ليردها ، ومدحه ، فوهب له الثانية أيضاً (٥) .

وكن يسبين أيضاً ، فقد أغار ضرار بن عمرو على كلب بن وبرة فغنم وسبى ، وكانت فى السبى قينة لعمرو بن ثعلبة اسمها الرائقة ، وبنت لها اسمها سلمى (٦) . وقد سبق أن السابى كان يتحرى الحرائر ، وأنهن كن يتظاهرن بأنهن إماء حتى لا يسبين . ولكن القيان سبين لأنهن غنيمة نفيسة .

---

(١) الأغانى ٧/١٢٨ (٢) ديوان الأعشى ٢٢١ يركضن : يحركن . المريش : البرد الموشى . المراجل : جمع مرجل وهو إزار من خز فيه علم أو فيه صور الرجال
(٣) اللسان ١٧/٢٣٥ المسمعات : القيان . الشروب : الشاربون . الكتن : الكتان
(٤) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨/٨٣ دردق : صغار . الجلة الجراجر : الإبل المسنة الضخام . البغايا : الإماء . الإضريج : خز أصفر أو أحمر . الشرعبى : نوع من البرود
(٥) الأغانى ٨/٢ والمحبر ١٣٨ وأوائل الأوائل ٢٢٠ مخطوط . (٦) مجمع الأمثال ١/١٢١

أثر الغناء الأجنبى فى العربى

١ — أسلفت أن العرب قد اتصلوا بالفرس وبالروم ، وبينت مناحى التأثر بهم . وهم قد اختلطوا بالأحباش أيضاً وتأثروا بهم [١] .

---

(١) اختلاطهم بالحبش يرجع إلى ما قبل الميلاد . ذلك بأنه فى العهد الأول للدولة الحميرية الأولى (١١٥ق . م — ٣٠٠م) نزحت جموع من العرب إلى بلاد كوش وأسسوا المملكة الحبشية . ثم قامت دوله أكسوم الحبشية فى القرن الأول الميلادى (تاريخ العرب ٦٥ فيليب حتى) وفى القرن الأول قبل الميلاد تدخل الحبش فى شئون الملك العربي باليمن ، ثم اتخذوا لهم مستعمرة فى الجنوب الغربى من بلاد اليمن واستقرت بها جاليات حبشية (بين الحبشة والعرب ، عبد المجيد عابدين ٢٣ — ٣٦) وفى نهاية القرن الثالث بعد الميلاد عاودوا الاحتكاك ، وحكموها إلى القرن الرابع The Bach ground of Islam P. 123 Glasser ثم عادوا ففتحوها فى القرن الخامس (٤٨٠ م) وولوا على اليمن أميراً نصرانياً لكنه لم يعش طويلا ، فلما مات انتهز اليهود الفرصة وولوا على حمير ملكاً يهوديا هو ذو نواس (بين الحبشة والعرب ٤٥ ـ ٤٧) وحوالى ٥٢٣ م كانت حملة أرياط أو أبرهة ، وكان الاستعمار الحبشى الأخير ، وأقام أبرهة باليمن ، وأصلح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز فكانت غزوة الفيل (تاريخ الطبرى ١٠٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٦/١ ومعجم البلدان ٢٤٣/٢

والمؤرخون مختلفون فى زمن هذه الغزوة اختلافا يجعل بدءها من ٥٠٠ إلى ٥٧٠ م بناء على اختلافهم فى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنسان العيون ٦٥/١) وكثير من الباحثين يرجحون أنها كانت حوالى ٥٤٠ م وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم الأحباش كان فى ٥٧٠ م ويجعلون الفترة بين ٥٤٠ و٥٧٠ لحكم أبرهة وحكم يكسوم ومسروق ابنى أبرهة (بين الحبشة والعرب ٦٥) ومهما يكن من شىء فقد كان حكم الحبشة لليمن منذ دخلوها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأجلوا الأحباش عنها اثنتين وسبعين سنة كما يذكر الطبرى (تاريخ الطبرى ١١٥/٢) ومعنى هذا أن الغزوة بدأت فى مستهل القرن الخامس ، ولكنا إذا سلمنا بأنها بدأت سنة ٥٢٣م وأن أبرهة مات ٥٤٤ وحكم بعده يكسوم ١٩ سنة ثم مسروق ١٢ سنة (بين الحبشة والعرب ٦٧) كان عمر هذا الاستعمار ثنتين وخمسين سنة لاثنتين وسبعين . على أن العرب كانوا على صلة بالأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من الحكم والاستعمار ، أقصد التجارة ، فكان اليمنيون والقرشيون يختلفون إلى هناك متاجرين كما اختلفوا إلى الشام وفارس والعراق (تاريخ الطبرى ١٨٠/٢ ومجمع الأمثال ٦٦/٢) فكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجها (الأغانى ٥٠/٨) ويستنبط أوليرى أنه كان فى مكة بيوت تجارية رومانية ، وأحباش يرعون مصالح قومهم التجارية (فجر الإسلام ١٥) ومن مظاهر هذا الاتصال الودى أن كانت أول هجرة للمسلمين الأولين إلى الحبشة (سيرة ابن هشام ٣٤٤/١ ـ ٣٦١) ثم إن أكثر العبيد والإماء كانوا أحباشا ، وكثيرا ماتزوج العرب بحبشيات أوسود (عيون الأخبار ٤٠/٤ ورسالة فخر السودان من مجموع رسائل الجاحظ ٧٥ والأغانى ١٤١/٧ و١٣٥/١٦ و١٣٣/١٨ و٢/٢٠ والمحبر ٣٠٦ ـ ٣٠٩ والشعر والشعراء ١٢٢ و١٣٤ والإصابة ٢٧/٨ و٣١٢)

وهذا الاتصال بالأحباش والفرس والرومان كانت له آثار فى الغناء . وقد علمنا أن أكثر القيان كن غير عربيات ، سواء تغنين بالشعر العربى أم بلغاتهن ، وليس ببعيد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين كما ظن الدكتور بيرون Berron[1] . ونحن نعلم أن أكثر المغنين فى الإسلام كانوا غير عرب ، مثل سعيد بن مِسْجَح المغنى ، فقد كان مولى أسود[2] ، وابن محرز كان مولى فارسياً[3] ، وسائب خاثر كان مولى من الفرس أيضاً[4]

ونجد فى اللغة كلمة الدَّرْقِلة أو الدِّرْكِلة تدل على ضرب من الرقص الحبشى[5] ، وكان الأحباش كافين بالرقص واللعب بالحراب فى المحافل والأعياد فى الجاهلية والإسلام ، والعلاقة وثيقة بين الرقص والغناء والموسيقى .

وإذا ما رجعنا إلى الآلات الموسيقية التى ذكرها الشعراء فى الجاهلية — كما سيجىء — وجدنا أكثرها أجنبية عن العرب .

فكلمة قِنِّين حبشية ، وقد جاءت فى الحديث إن الله حرم الخمر والكوبة (الطبل) والقنين[6] . والطُّنبور كلمة فارسية أصلها من كلمة (دنبهٔ بَرّه) ومعناها إلية الحَمَل[7] . والبَرْبط هو العود أعجمى ليس من ملاهى العرب ، وفى التهذيب أنه من ملاهى الفرس ، شبه بصدر البط ، والصدر بالفارسية بَرْ ، فقيل بربط[8] . والوَنّ الصنج الذى يضرب بالأصابع ، وهو الوَنَج ، كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم[9] . والصنج هو الآلة المصنوعة من صُفْر أعجمى معرب[10] . والوَنج هو المعزف وهو المزهر والعود ، وقيل نوع من الصنج ، فارسى معرب أصله وَنَهْ ونطقه العرب الوَنّ[11] . والبَمّ الوتر الغليظ من أوتار المزهر ، أعجمى[12] ، ومُسْتَق صينى آلة يضرب عليها معرب ، ذكر الضبى أن الكلمة فارسية أصلها مُشْتَه صينى أى يؤخذ باليدين[13] ، وفى القاموس مُسْتَقة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه ، معرب[14] .

---

(١) داعى السماء بلال ١٥٠ (٢) الأغانى ٣/٨١ ساسى (٣) الأغانى ١/١٤٥ ساسى
(٤) الأغانى ٧/١٧٩ ساسى (٥) لسان العرب والقاموس مادة درقل (٦) لسان العرب مادة قنن (٧) لسان العرب والقاموس مادة طنبور وفرهنك نفيسى و Steingass (٨) لسان العرب والقاموس المحيط مادة بربط (٩) لسان العرب مادة ون (١٠) لسان العرب والقاموس مادة صنج وصرح (١١) لسان العرب والقاموس مادة ونج (١٢) لسان العرب مادة بم (١٣) الملاهى للضبى ٢١ مخطوط (١٤) القاموس المحيط مادة ستوق .

أما كلمة دُف وكران وعود ومِزْهَر فعربية الأصـــل[١] ، وقد نقلها الفرس عن العرب[٢] .

١ — وإذاً فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسى والرومى والحبشى منذ الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء هذه الآلات الأجنبية قبل أن يبزغ الإسلام ، ومن أن الغناء الرومى والفارسى كان معروفا لهم فى الشام كما ذكر حسان[٣] ، وفى نجران كما ذكر الأعشى[٤] . وكان الحارث بن كلدة قد تعلم ضرب العود بفارس واليمن ثم قدم مكة وعلم أهلها[٥] ، ثم سافر ابنه النضر كما سافر أبوه ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر وتعلم من أبيه الطب وغيره[٦] .

أليس من حقنا أن نصحح ما ذكره أبو الفرج ، أو نذهب فى فهمه مذهبا آخر ؟ فهو يذكر أن سعيد بن مِسْجَح المكى الأسود المغنى أول من نقل غناء الفرس إلى العرب ، وأنه رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغمات الموجودة فى غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده[٧]

وذكر فى رواية أخرى أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه فى شعر عربى ، وهو الذى علم ابن سُرَيْج والْغَرِيض[٨] . ويقول إنه كان مولى أسود[٩] ، وكذلك كان ابن سريج[١٠] . وفى رواية ثالثة أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم يبنون دوراً لمعاوية فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربى ، ثم صاغ على نحوها[١١] .

وهذه الروايات وإن اختلفت فى ظروف نقـــل ابن مسجح للغناء تتفق مع الروايات الأخر التى ذكرها أبو الفرج أن ابن مسجح أول من نقل الغناء الفارسى إلى العربى .

---

(١) لسان العرب والقاموس مواد الكلمات (٢) المعجم فى اللغة الفارسية . هنداوى ومعجم Stiengass (٣) الأغانى ١٤/١٦ (٤) المعانى الكبير لابن قتيبة ٤٦٨/١ والأغانى ١٥٧/٩
(٥) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١٠٩/١ وأخبار الحكماء ١١١
(٦) عيون الأنباء ١١٣/١ (٧) الأغانى ٨١/٣ ساسى (٨) الأغاني ٨١/٣ و٨٢
(٩) الأغانى ٨٢/٣ (١٠) الأغاني ٨٢/٣ (١١) الأغاني ٨٤/٣

ثم إن أبا الفرج يذكر فى موضع آخر أن ابن مُحْرِز — مسلم أو سلم أو عبد الله — كان أبوه من سدنة الكعبة ، أصله من الفرس — كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم العزف من عزة المَيْلاء ، ثم يرجع مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يشخص إلى فارس فيتعلم ألحان الفرس وغناءهم ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم وغناءهم . وقد أسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم ، وأخذ محاسنه ومزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع مثله ، وكان يقال له صَنَّاج العرب . وهو الذى ابتكر غناء الرمل ولم يعرفه العرب ولا الفرس قبله ، لأن ابن سَلمك أول من غنى رملا بالفارسية أيام الرشيد محاكياً لابن محرز وهو تلميذه (١) .

ويذكر مرة ثالثة أن سائب خاثر — الفارسى الأصل — أول من عمل العود بالمدينة وغنى به ، وأن عبد الله بن عامر سيده كان قد اشترى إماء نائحات وأتى بهن المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يلعبن فيه ويسمع الناس منهن ، ثم قدم رجل فارسى اسمه نَشيط فغنى ، فأعجب به عبد الله ، فقال له سائب خاثر : أنا أصنع لك مثل هذا الغناء الفارسى بالعربية ، ثم غدا عليه وقد صنع . « لمن الديار رسومها قفر .... »

وهو أول صوت غنى به فى الإسلام من الغناء العربى المتفق الصنعة . ثم اشترى عبد الله نشيطاً فأخذ عن سائب الغناء العربى ، كما أخذ عنه ابن سُرَيْج وجميلة ومَعْبَد وعزة المَيْلاء وغيرهم . وسائب هو أستاذ معبد ، وكثير من أصواته منحولة إلى معبد (٢) . وذكر فى رواية رابعة أن طُوَيس مولى بنى مخزوم أول من غنى الغناء المتقن من المخنثين ، وأنه أول من صنع الهزج والرمل فى الإسلام (٣) وكان فى عهد عثمان بن عفان ، وقد علم ابن سريج والدَّلال ونَوْمة الضحا . ويتفق ابن عبد ربه وابن شاكر مع أبى الفرج فى أنه أول من غنى الغناء الرقيق فى الإسلام (٤)

ثم يقفو بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج ، فيذهب خدا بخش إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب فى الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجاً ، وعلموا العرب الغناء على نغمات الدف والناى والطنبور والعود (٥) .

---

(١) الأغانى ١/١٤٥ ساسى (٢) الأغانى ٧/١٧٩ ساسى (٣) الأغانى ٤/٣٨ ساسى
(٤) العقد الفريد ٣/١٨٦ وفوات الوفيات ١/١٩٧ (٥) مقدمة خدا بخش لكتاب الحضارة الإسلامية لفون كريمر ٢٥

والذى ألاحظه على روايات أبى الفرج أنها لا تلتقى عند شخص معين يصح أن ننسب إليه السبق فى إدخال الغناء الفارسى أو الرومى إلى العربى . فهو مرة ابن مسجح ومرة ابن محرز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نشيط ، وخامسة طويس .

ولست أذهب إلى إنكار أثر الغناء الفارسى والرومى فى العربى ، بل إنى أؤكد أنه رفده ومده ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء كان لهم فضل فى تطوره وتجديده ورفده بالغناء الأجنبى ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب — كما أسلفت — عرفوا هذا الغناء من قبل ، وأطربتهم به قيانهم ، وتحدثوا عن آلات الموسيقى فارسية ورومية وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .

ولست أشك فى أن الغناء شق طريقه نحو الرقى والكمال بعد اتصال المسلمين بالفرس والروم وغيرهم ، وصارفنا رفيعاً يختص به ذوو اللَّهَوات الحلوة ، والأذواق العالية ، والحس المرهف من نساء ورجال .

وقد بدأ ذلك منذ صدر الإسلام ، إذ انتشر الغناء وذاع واتُّخذ طربا ومسلاة فيما لم يكن من قبل . يدل على هذا أن زيد بن ثابت الأنصارى ختن بنته فأولم ، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة ، وحضر حسان بن ثابت وقد كف بصره يومئذ وثقل سمعه ، فلما أكلوا ضربت عزة الميلاء على مزهرها وغنت بقول حسان :

فلا زال قبر بين بُصْرَى وجِلّق ... عليه من الوَسْمىِّ جَوْدٌ ووابل

فطرب حسان وبكى . وقيل لخارجة بن زيد : أكان يكون هذا الغناء عندكم ؟ قال : فى الأعراس ، ولم يكن يشهد بما يشهد به اليوم من السعة [1] . ويدل على هذا أيضا أن ابن رشيق ذكر أنواع الغناء العربى من نصب وسناد وهزج ، ثم نقل عن إسحاق الموصلى أن هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الإسلام وفتحت العراق وجُلب الرقيقُ من فارس والروم . فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير [2] .

على أن بعض البدو ظلوا يجهلون آلات الموسيقى الدخيلة إلى العصر العباسى ، فإن ناهض بن ثُومة بن نَصيح الشاعر الفارس كان بدوياً جافياً كأنه من الوحش ، وقد

---

(١) الأغاني ١٦/١٣ جود : مطر غزير (٢) العمدة ٢/٢٤١

انتجع الشام فى العصر العباسى فقصد صديقاً له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية بحلب ، فرأى عرساً ، فتحدث بما رأى حديثاً طريفا ، يهمنا منه دهشته بما رأى من آلات الموسيقى ، وتصويره الطريف لأصواتها ، كقوله : « جاء شاب بخشبة عيناها فى صدرها ، فيها خيوط أربعة ، فاستخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها وحركها فى يده ، فنطقت ورب الكعبة ، وإذا هى أحسن قينة رأيتها قط ، وغنى عليها فأطربنى حتى استخفنى من مجلسى ، فوثبت فجلست بين يديه وقلت : بأبى أنت وأمى ماهذه الدابة ؟ فلست أعرفها للأعراب وما أراها خلقت إلا قريبا . فقال : هذا البَرْبَط ، فقلت فماهذا الخيط الأسفل؟ قال: الزِّير . قلت : فالذى يليه . قال : المُثَنَّى . قلت : فالثالث ؟ قال: المُثَلَّث . قلت : فالأعلى ؟ قال : البَمّ . فقلت آمنت بالله أولا وبك ثانيا والبربط ثالثا والبمّ رابعا [1] » .

الآلات الموسيقية .

لم تكن القيان يغنين معتمدات على الصوت وحده ، فقد ذكر الشعراء أسماء الآلات الموسيقية التى كن يعزفن عليها .

ومن هذه الآلات الدّف وهو (الطار) قال عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعزفن بالدف ... لفتياننا وعيشا رخيا [2]

ومنها العود ، وهو أيضا الكران والمِزهر ، والبِرْبط ، والمِوَتَّر ، والمِكبَّل . وكتب اللغة تنص على أنها مترادفات . ولقد يصح ذلك ، ويصح أنها آلات متقاربة الشكل تشبه العود . قال الصَّقْعَب بن حَبّان التغلبى :

وقَرَّبَ الخُرَّدُ من قيانه ... عودا له الفضل على عيدانه

أخف عند الحمل واحتضانه ... من ريشة توضع فى ميزانه

أخرس تلقاه على بيانه ... كرامةَ المجلسِ فى هَوانه

. . . . . [3]

وسماه سَلْمَى بن ربيعة المزهر فى قوله يعدد لذاته :

والكُثْرَ والخَفْضَ آمنا ... وشِرَعَ المِزهر الحنون [4]

---

(١) الأغاني ١٢/٣٣ ـ ٣٥ (٢) الملاهى للضبى ٤١ مخطوط (٣) الملاهى ٥٣٣

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٨٣ الكثر : المال الكثير . الشرع : أوتار العود

وسماه امرؤ القيس الكران والمزهر :

فإن أمس مكروبا فيارب قينة ... منعمة أعملتها بكران

لها مزهر يعلو الخميسَ بصوته ... أجش إذا ما حركته يدان (١)

وسماه الأعشى المزهر :

وصدوح إذا يهيجها الشرب ... ترقت فى مزهر مندوف (٢)

وسماه البربط فى قوله :

وبربطنا دائماً معمل ... فأى الثلاثة أزرى بها ؟ (٣)

وسماه لبيد الموتر :

بصبوح صافية وجذب كرينة ... بموتر تأتالُهُ إبهامها (٤)

وسماه كعب بن زهير المكبل :

ورنة هتاف العشى مكبَّل ... ينازعه الأوتارَ من ليس راميا

تنازعه مثلُ المهاة رفيقة ... بحسّ الندامى تترك اللَّبَّ رانيا (٥)

وسموا أوتار العود محابض واحدها مِحْبَض ، وهى الشرع أيضا مفردها شِرْعة ، قال تميم ابن أبىّ بن مقبل :

صدحَتْ لها جيداءُ تركض ساقُها ... عند التِّجار مجامعَ الخلخال

فُضُلا ينازعها المحابضُ رجْعَها ... بأحَذَّ لاصَحْل ولا مصْحال (٦)

وذكروا الصنج أيضا ، قال الأعشى إن الصنج يترنم استجابة للمزهر ، وكأنما يبكى بكاء الحزين مخافة أن يلام :

ومزهرنا دائما معمل ... فأى الثلاثة أزرى بها

ترى الصنج يبكى له شجوَه ... مخافة أن سوف يدعَى بها (٧)

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٨٧ (٢) ديوان الأعشى الكبير ٣١٥ ترقت : تصعدت فى غنائها . مزهر مندوف : عود يضرب على أوتاره (٣) المعانى الكبير لابن قتيبة ٤٦٨/١ (٤) الملاهى للضبى ٥٣٣ مخطوط وشرح القصائد العشر ١٦٣ والمعانى الكبير ٤٦٩/١ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ١١٤ مخطوط . تأتاله : تصلحه وتسوسه . وفى لسان العرب تأتى له أى تطاوعه (٥) المعانى الكبير لابن قتيبة ٤٧٠ لب : لبيب (٦) الملاهى للضبى ٥٣٣ تركض ساقها مجامع الخلخال : ترفع ساقها ذيلها . التجار الخمارون . فضل : فى ثوب بذلة . أحذ : ضامر يعنى العود . الصحل والمصحال . الأبح (٧) ديوان الأعشى ١٧٣ والمعانى الكبير ٤٦٨/١ ولسان العرب مادة صنج . الصنج . دوائر صغار من النحاس تعلق بالأصابع وتنقر الراقصة عليها .

وقال إن العود يجيب الصنج ويجاوبه :

ومستجيبٍ تخال الصَّنْجَ يسمعه إذا تُرَجِّعُ فيه القينة الفُضُلُ (١)

وفى لسان العرب أن الكرينة المغنية الضاربة على الكران وهو العود أو الصنج ، الكنارَّة نحو منه (٢) ، قال لبيد :

صَعْلٌ كسافلة القناة وَظِيفُهُ وكأن جُؤْجُؤَهُ صفيح كِرانِ (٣)

وقد وصف الأعشى فى مدحه إياس بن قبيصة الطائى أو قيس بن معد يكرب مجلسَ شراب وندامى وغناء بقوله :

ومُسْتَقٌ صينيٍ وَوَنٌّ وبَرْبَطٌ يجاوبه صَنْجٌ إذا ما تَرَنَّما (٤)

وهذه الآلات قد بقيت إلى العصر الأموى ، وعزفت القيان عليها ، مثل سيرين وسلمى وجميلة وعزة الميلاء ورائقة (٥) .

---

(١) ديوان الأعشى ٤٦ مستجيب : عود (٢) لسان العرب ١٧/٢٣٨ (٣) اللسان مادة كرن

(٤) الملاهى للضبى ٢١ مخطوط . المستق : آلة يضرب عليها معرب . الون : آلة طرب معرب . البربط : العود أو المزهر معرب . وذكر أن كلمة مستق صينى فارسية أصلها مشتة صينى أى يؤخذ باليدين . وفى القاموس مستق بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه ، معرب

(٥) الأغانى ١٦/٢

الباب الثانى

المرأة راوية للشعر وناقدة

١ ــ كان الشعر يذيع ويتخطى الآفاق والنجاد والفيافى بالرواية ، وكان يرويه جيل بعد جيل ، ويحفظه الرجال كما يحفظون الأنساب والوقائع .

فهل روت المرأة الشعر ؟ نعم ، فقد قدمت على النبى الفارعة بنت أبى الصلت أخت أمية بعد فتح الطائف ، فقال لها : هل تحفظين من شعر أخيك شيئا ؟ فأخبرته خبره وأنشدته شعره الذى أوله :

باتت همومى تسرى طوارقُها ... أكفّ عينى والدمعُ سابقُها

وأنشدته قوله :

كل عيش وإن تطاول يوما ... صائرٌ مرة إلى أن يزولا

ليتنى كنت قبل ما قد بَدَا لى ... فى تلال الحياة أرعى الوعولا

فقال لها رسول الله : كان مثل أخيك كمثل الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وفى رواية أنها أنشدته شعراً دينياً لأمية فقال : آمن شعره وكفر قلبه[1] .

وكان الأعشى قد علم ابنته وثقفها ، حتى وثق بذوقها ونقدها ، فكان يعرض عليها شعره ، ويقول لها : عدى لى المخزيات ــ القصائد اللاتى يخزين غيره فلا يستطيع أن يأتى بمثلهن ــ فتسمعه من شعره[2] .

وكذلك كان حسان بن ثابت على ثقة من ذوق ابنته ، وطواعية التعبير لها على البديهة ، فقد أرق ليلة وعنده ابنته ليلى ، فغنّ له الشعر ، فقال :

متاريك أذناب الأمور إذا اعترتْ ... أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

---

(١) الإصابة ٨/١٥٦ (٢) الأغاني ١٥/١٠٦

ثم أجبل فلم يجد شيئا . فقالت له ابنته : يا أبتاه كأنك أجبلت ! قال : أجل . فقالت : هل لك أن أجيز عنك ؟ قال : نعم . قالت : أعد . فأعاد البيت ، فقالت :

مقاويلُ بالمعروف خُرْسٌ عن الخَنا كرامٌ يُعاطون العشيرةَ سُولَها

فحمى حسان فقال :

وقافيةٍ مثل السِّنان رزينة تناولت من جو السماء نُزولَها

فقالت :

براها الذى لا ينطق الشعر غيره ويعجز عن أمثالها أن يقولها (١)

وكانت عائشة مثلا فى رواية الشعر ، فقد تولى تربيتها جماعة من بنى مخزوم ، فنشأت فصيحة اللسان ، قوية البيان ، حافظة لكثير من الشعر . حدّث هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة (٢) ، وحدث أبو الزناد أنه ما رأى أحداً أروى لشعر من عروة ، وأن عروة قيل له : ما أرواك ! فقال : ما روايتى فى رواية عائشة ؟ ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعرا (٣) .

وكانت إلى هذه الرواية لبقة حصيفة فى الاستدلال بالشعر والتمثيل به ، حدثت فقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، وكنت جالسة أغزل ، فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبُهتّ . فنظر إلىّ فقال : مالك بهتّ ؟ فقلت : يارسول الله ، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، ولو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره . قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلى ؟ قلت : يقول :

ومُبرَّأٍ من كل غُبَّر حَيْضَةٍ وفساد مرضعة وداء مُغْيل

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه برقَتْ كبرق العارض المتهلل

قالت : فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقبّل ما بين عينىّ ، وقال : جزاك الله خيراً يا عائشة ، ما سررت منى كسرورى منك (٤) .

وقالوا إنها كانت تروى القصيدة ستين بيتا ، والقصيدة مائة بيت (٥) ، وكانت معجبة بشعر حُجَيّة بن المضرّب ، وتحض على روايته ، لأنه يعين على البر (٦) . وذهب عطارد والزهرى إلى أنها كانت أعلم الناس من نساء ورجال (٧) . وليس من الطبيعى أن تنفرد السيدة

(١) الموشح ٦٢ فى الأصل عنده بدلا من غيره (٢) الطبقات ٧/٣٩ والإصابة ٨/١٤٠ وأسد الغابة ٥/٥٠٤ والاستيعاب ٢/٧٦٥ وتهذيب التهذيب ١٢/٤٣٥ (٣) الإصابة ٨/١٤٠ والطبقات ٨/٥٠ والاستيعاب ٢/٧٦٥ (٤) الإحياء للغزالى ٣/١٠٩ ودلائل النبوة للبيهقى (٥) الطبقات ٨/٥٠ (٦) لسان العرب ١٩/٦٦ (٧) تهذيب التهذيب ١٢/٤٣٥

عائشة بالحافظة الراوية للشعر بين النساء العربيات ، وإنما الطبيعى أن يشركها كثير من النساء، فلا بد أن كانت نساء أخر يحفظن الشعر ويروينه ، لكنهن لم ينلن ما نالت السيدة عائشة من مجد ونباهة صيت ، ولم تسجل حياتهن كما سجلت حياتها ، فهى زوج النبى ، وبنت صديقه وخليفته . ولو لم يقدر لها أن تكون كذلك ، وأن تشترك فى نصرة حزب سياسى قوى، وأن تكون راوية للحديث الشريف ، لو لم يقدر لها ذلك كله لضاع كثير من أخبارها كما ضاعت أخبار مئات من أمثالها .

٢ — أما نقدها للشعر فإنه كان كنقد الرجال ، قائماً على استحسان أو استهجان ، فى جمل قصار تدل على الاستجادة أو الاستهجان .

فكان الأعشى إذا قال القصيدة عرضها على ابنته ، وقد كان ثقفها وعلمها ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختبار لجيد الكلام ، وكان يقول لها : عدى لى المخزيات — القصائد البارعة التى تعجز غيره — فتعدّ منها :

أغر أروع يُسْتَسْقَى الغمامُ به لو قارع الناسَ عن أحسابهم قَرَعا

وتذكر ما أشبهها من شعره [1] .

وذكروا أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الشعر ، فقال له علقمة : قد حاكمت بينى وبينك امرأتك أم جندب . قال : قد رضيتُ . فقالت لهما: قولا شعرا على روى واحد وقافية واحدة ، تصفان فيه فرسيكما .

فقال امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليلىّ مرّابى على أم جُنْدُب لنقضى لُبانات الفؤاد المعذَّب

. . . . . ،

وقال علقمة قصيدته التى مطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

. . . . . :

فغلّبت علقمة . فقال لها زوجها : بأى شىء غلّبته ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط أُلْهوبٌ وللساق دِرَّةٌ وللزّجر منه وقعُ أخرجَ مِنْعَبِ

---

(١) الأغانى ١٥/١٠٦

فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك . وعلقمة قال :

فولّى على آثارهن بحاصب وعَيْبَةِ شُؤْبوب من الشد مُلْهِبِ
فأدركهن ثانياً من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلِّب

فلم يضرب فرسه بسوطه ، ولم يمرّه بساق ، ولم ينعبه بزجر .

فغضب من قولها وطلقها ، وخلفها عليه علقمة (١) .

وفى رواية عمر بن شبة وأبى عمرو الشيبانى (٢) وابن عائشة (٣) أن امرأ القيس تزوج امرأة من طيء فأبغضته ، ثم نزل به صديقه علقمة فتنازعا فى أيهما أشعر ، فاقترح امرؤ القيس أن يصف كل منهما ناقته أوفرسه ، وأن يكون الحكم بينهما امرأة امرىء القيس . وتتفق رواية المفضل عن أبى الغول النهشلى عن أبى الغول الأكبر مع هذه الرواية ، لكنها تنسب إلى علقمة أنه القائل : قل شعراً وانعت الصيد وهذه — يعنى أم جندب — الحكم بينى وبينك (٤) .

وقالوا إن علقمة سمى الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجته (٥) .

لكن هذه القصة المشهورة فى حاجة إلى تمحيص .

ذلك أن الحكم من الناحية الفنية جائر ، لأن المعارضة لم تكن قائمة على المفاضلة بين الفرسين نفسيهما ، وإنما كانت قائمة على البراعة فى الوصف ، وما من شك فى أن كلا من الشاعرين قد وصف حصانه فأجاد ، بغضّ النظر عن عتق الحصان وكرمه ، وشدته وإسراعه. فمثلا صور امرؤ القيس حصانه يجرى وراء الصيد ، ولكنه لم يغفل عن تصوير مشاعره ولهفته ليدرك هذا الصيد بأنه صبّ على حصانه سوطه ، وزجره ، ليجود بما فوق الطاقة ، وهو بهذا التصوير لم يخرج على طبيعة الإنسان فى أى زمان ، فالمسافر العجلان اليوم يركب الطائرة التى تقطع الأميال فى الدقيقة الواحدة ، ويشعر بسرعتها التى ما كانت فى خلد البشر ، ولكنه إذا كان ملهوفاً يشعر أنه فى حاجة إلى سرعة أعظم .

وكيف نغفل عن قول امرىء القيس بعد البيت الذى عابته أم جندب :

---

(١) الأغاني ٧/١٢١ و٢١/١١٢ والموشح ٢٨ ألهوب : شدة عدو . درة : المراد سرعة جرى . أخرج : ظليم . منعب : عداء يمد عنقه . وروى مهذب : سريع العدو . حاصب : ريح تحمل التراب . عيبة شؤبوب : المراد دفعة قوية من السرعة . ملهب : مسرع . الرائح المتحلب : المطر الغزير

(٢) الموشح ٢٩ (٣) الأغانى ٧/١٢١ (٤) الموشح ٣٠ (٥) الأغاني ٢١/١١٢

فأدرك لم يَجْهَدْ ولم يَثْنِ شَأْوَهُ يمرُّ كخُذْرُوف الوليد المُتَقَّب(١)

أى أنه قد أدرك طريدته دون حاجة إلى طَلَق آخر ، وإنه ليعدو عـــدواً يكاد يخفى تفاصيل أجزائه ، مثـل الدّوّارة التى يرميها الصبى على الأرض فتدور مسرعـة حتى لا ترى أجزاؤها . وهذا تصوير بالغ حد الروعة من حيث الصورة ومن حيث الوقع فى النفس ، ذلك بأن الصبى حينما يقذف خذروفه فى قوة ومهارة فيدور دورانا قويا يعجب به ويباهى بمهارته ، وكذلك امرؤ القيس أجرى حصانه معجباً به وبنفسه ، وهو فى وصفه هذا جار على طريقة العرب من حيث إيثـار الصدق والتوسط بالخيال المقبول المشوق المستمد من الواقع .

ثم إن البيتين معاً يجعلان حصان امرىء القيس كحصان علقمة عَدْواً وجُوداً بأقصى ما يجود به الأصيل الكريم .

ومن الإنصاف أن نقرر أن قول امرىء القيس :

إذا ما جرى شَأْوَيْنِ وابتل عِطْفُهُ تقولُ هزيزُ الريح مرت بأثْأَب

ليس أقل روعة من قول علقمة :

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلِّب

لأن امرأ القيس صور حصانه بعد ماجرى شوطين ، وابتل جنبه بالعرق ، سريعا خفيفا يموج من جريانه الهواءُ ، كأنه ريح مرت بالأثأب خف حفيفاً قويا .

وإذا ما قرأنا القصيدتين كلتيهما وراعينا أن امرأ القيس هو البـادىء استرعى نظرنا أن علقمة يجرى على إثره ، ويستعين كثيراً بأبياته . من ذلك أن البيتين الأولين من وصف علقمة لحصانه هما البيتان الأولان من وصف امرىء القيس :

وقد أغتـــدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مِذْنَب

بمنجرد قيـــد الأوابد لاحه طِراد الهوادى كلَّ شأوٍ مُغرَب(٢)

وليس المقام مقام توسع فى الموازنة ، وقد وازن بين القصيدتين موازنة مفصلة الأستاذ السباعى بيومى ، من حيث وصف الشاعرين لفرسيهما ، ومن حيث وصفهما للعدْو والصيد

---

(٣) شأوه : طلقه . الخذروف : لعبة للصبيـان تشبه النحلة الخشبية الآن

(١) مذنب : مسيل ماء . لاحه : غير لونه . الهوادى : الوحوش السريعة . الشأو : الغاية والأمد . مغرب : مسرع جدا

ومن حيث النزول بعد الصيد والرواح منه ، وانتهى إلى أن امرأ القيس أجود من علقمة ، وأن علقمة يحاكيه وينقل منه ، وأن من الإجحاف أن يؤخذ بقول أم جندب[١].

على أن فى القصة ما يفهم منه أن حكم أم جندب ضالع ؛ لأنها كانت تفرك امرأ القيس[٢] ولأنه لما سمع حكمها قال : ليس كما قلت ولكنك هويته[٣]

أما الناحية الثانية فهى أنى أشك فى هذا التحكيم ؛ لأنى لا أعقل أن تجرؤ امرأة عربية على أن تؤثر علانية رجلا على زوجها ، وهى واثقة بأن الرجال غُيُر ، وهى أيضاً ذات حياء وحصانة . ولا يشفع فى هذا أنها فارك تهتاج زوجها ليطلقها ، لأنها لم تكن تدرى ماذا يجره حكمها ، فقد يجر الطلاق الذى تريده لكنه مخالط بسوء ظن ومذمة ، وقد يجر عضلا وتعليقا ، وربما نجم عنه أن يزهق روحَها زوجُها الهائج الغضبان .

وكيف يغفل امرؤ القيس عن بغضتها إياه ، ويفتتح قصيدته بالغزل فيها ؟

ثم إنى أستبعد أن يقول الشاعران على البديهة هاتين القصيدتين الطويلتين البارعتين .

ولا أصدق أن تجرى على لسان أم جندب كلمة روى وقافيـــة ، لأن الروى والقافية اصطلاح لم يعرف إلا فيما بعد .

وإنه ليعزز رأيى فى اختراع القصة أن علقمة لم يسمّ فحلا لتزوجه أم جندب بعد امرىء القيس ، وإنما سمى فحلا — كما ذكر الجاحظ — للتفريق بينه وبين علقمة بن سهل بن عمارة لما وقع عليه اسم الخَصىّ[٤] .

ويزيد هذا تعزيزاً أن مئات من الشعراء وغيرهم من مشهورى الجاهلية قد خلفوا غيرهم على نسائهم ، ولم يسمّ أحدهم فحلا ، فلماذا خص علقمة بهذا اللقب ؟

ولكن القصة لها دلالتها على أن المرأة العربيـة كانت تتذوق الشعر ، وتنقده ، وتتبين مواضع الجودة والرداءة فيه .

وهى شبيهة بقولهم إن حسان لما غضب من تفضيل الخنساء عليه قال للنابغة : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة ، حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنـا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنـا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنىْ مُحَرِّق فأكرمْ بنا خالا وأكرم بنـا ابنما

---

(١) تاريخ الأدب العربي فى العصر الجاهلى . السباعى بيومى ٢٥٦ — ٢٦٢

(٢) الأغانى ٧/١٢١ (٣) الأغانى ٢١/١١٢ (٤) الحيوان ١/١٢٠ طبعة هارون

فقال : إنك لشاعر لولا أنك قلت الجفنات فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان أكثر . وقلت يلمعن فى الضحا ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا . وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسراً منقطعا (١).

وعُزِى نقد بيت حسان إلى الخنساء على مسمع من النابغة ، ذلك بأنها قالت لحسان : ضعفت افتخارك وأنزرته فى ثمانية مواضع . قال: وكيف؟ قالت : قلت الجفنات ، والجفنات مادون العشر فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان أكثر. وقلت الغر والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعا . وقلت يلمعن واللمع شىء يأتى بعد الشىء ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت بالضحا ولو قلت بالليل لكان أبلغ ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت أسيافنا والأسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر دما. وقلت يقطرن فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وقلت دماً والدماء أكثر من الدم.وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، فقام حسان منكسراً منقطعا (٢) .

والوضع ظاهر فى هذا الحكم لأنه يتكىء على التفرقة بين جمع المؤنث السالم وجمع التكسير من حيث القلة والكثرة ، وهذا المعنى من اصطلاح النحاة فى عصر التدوين ، ويعتمد على المبالغة فى الاستعارة وعلى التهويل فى التصوير ، وهذه نزعة لم تعرف إلا حينما درست علوم البلاغة ، وزاحم العقلُ والمنطقُ الذوقَ والفطرة . والنقد كله منبعث عن إيثار للغلو والمغالاة فى المعانى فى عصر كان الشعراء أميل فيه إلى الصدق والخيال المقبول . لذلك فإن قدامة بن جعفر على الحق فى دفاعه عن حسان (٣) .

٣ — فلما جاء الإسلام نافست النساء الرجال فى العلم والأدب ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام حث الرجل والمرأة على التعلم ، وحث الرجل على تعليم ولده وابنته ، إذ ذكر فى الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين : « ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها (٤) »

---

(١) الأغانى ٨/١٨٨ (٢) شرح مقامات الحريرى للشريشى ٢/٢٥٣ والمعارف ١٠٥
(٣) نقد الشعر ٣٦ (٤) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ١/١٠٤

ا — فكان من المسلمات راويات للحديث ، يأخذ عنهن الرجال ، كالسيدة عائشة [١] ، وقد تلقى على بن أبى طالب الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته هى ميمونة بنت سعد [٢] . وعد محمد بن سعد أكثر من سبعمائة راوية للحديث عن رسول الله أو عن الثقاة من أصحابه ، وأخذ الرواة عنهن [٣] ، وكذلك فعل ابن حجر [٤] فى كتابه (الإصابة) على أنه ذكر ٣٢٢ صحابية روين عن الرجال وروى عنهن الرجال فى كتابه (تهذيب التهذيب) [٥] .

وألف الحافظ الذهبى كتابه (ميزان الاعتدال فى نقد الرجال) قال فيه : وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها [٦] . وقرأ أبو بكر الخطيب الحافظ أحمد بن على بن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) صحيح البخارى بمكة على كريمة المروزية [٧] . وتتلمذ الحافظ أبو القاسم ابن عساكر (٤٩٩ — ٥٧١ هـ) لشيوخ عدة منهم بضع وثمانون امرأة [٨] . وسمع محمد ابن المؤرخ أبى شامة المقدسى صحيح البخارى وغيره على أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب المتوفاة ٦٤١ هـ [٩] . وكان لشهدة الكاتبة المتوفاة ٥٧٤ هـ السماع العالى الذى ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر ، وقد سمع عليها خلق كثير [١٠] .

ب — وكان منهن ناقدات للشعر يتحرى الشعراء مرضاتهن . فكانت عَمْرة الجُحية صاحبة وَهْب بن زَمْعة الجُحى امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبو دَهْبَل لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع إليها ، وكان يحبها وتحبه ، فلما قيل لها إن أمرهما ذاع احتجبت عن جلاسها ، وعن أبى دهبل ، فقال :

تطاول هذا الليل ما يتبلّج ... وأعيت غواشى عبرتى ما تفرّجُ
وبتُّ كئيباً ما أنام كأنما ... خلال ضلوعى جمرة تتوهج
فطورا أمنّى النفس من عَمْرَةَ المُنَى ... وطورا إذا ماجلّ بى الحزن أنشجُ

---

(١) الإصابة ٨/٤٠ (٢) الإصابة ٨/١٧٣
(٣) الطبقات الكبير لابن سعد (٤) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر
(٥) تهذيب التهذيب ١٢/٣٩٧ ـ ٤٩٢ (٦) ميزان الاعتدال ٢/٦٨٢
(٧) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢ (٨) طبقات الشافعية الكبرى ٤/٢٧٣
(٩) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٧٣ أبو شامة (١٠) وفيات الأعيان ١/١٨٣

لقد قطع الواشـــون ما كان بيننا ونحن إلى أن يُوصلَ الحبلُ أحوج (١)

حـ — وكانت فى الإسلام تجيز الشعر كما أجازته سابقتها فى الجاهلية ، من ذلك أن عَقيل ابن عُلَّفة كان فى سفر ومعه ابناه عُلَّفة وجُثَامة وابنته الجَرْباء فقال عقيل :

قضتْ وطراً من دَيْر سعد وطالما على عُرُضٍ ناطحنه بالجماجم

إذا هبطت أرضاً يموت غُرابُهـا بها عطشاً أعطينهـم بالخزائم

ثم قال : أنفذْ ياعلفة ، فقال علفة :

فأصبحن بالمَوْماة يحملن فتية نَشَاوى من الإدلاج مِيل العمائم

إذا عَـلَمٌ غادرنَهُ بتَنُـوفَةٍ تَذَارَعْنَ بالأيدى لآخـرَ طاسم

ثم قال : أنفذى ياجرباء ، فقالت :

كأن الـكرى سقّاهُمُ صَرْخَدِيَّةً عُقاراً تمشّى فى المَطَا والقـوائم

فغضب عقيل وهاج وقال : والله ما وصفتها هذه الصفة إلاوقد شربتها ، ثم أمال عليها يضربها فصده عنها أخواها (٢) .

وكانت عائشة بنت طلحة أديبة ناقدة ينشدها الشعراء ، وقد أنشدها أبو عمرو قصيدة قيس بن الحدادية التى مطلعها :

أجـدّك إن نُعْمٌ نأتْ أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافـع

فاستحنتها ، وكان بحضرتها جماعة من الشعراء فقالت لهم : من قدر منكم أن يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل فى معناها فله حلتى هذه . فلم يقدر أحد منهم على ذلك (٣) . وقد أسمعها الغريض قصيدة للحارث بن خالد فاستحسنتها وأمرت له بخمسة آلاف درهم وأثواب ؛ ثم استزادته من شعر الحارث بن خالد ، واستزادته ، وأمرت له بخمسة آلاف أخرى ، وطلبت منه أن يغنيها فى شعر غيره ، فغناها لعمر بن أبى ربيعة . فضحكت وأعطته خمسة آلاف أخرى (٤) .

---

(١) الأغاني ٦/١٥٠ (٢) الأشربة لابن قتيبة ٥٩ مخطوط والأغانى ١١/٨٢ علم : جبل . تنوفة : صحراء لا ماء بها ولا أنيس . تذارعن : أسرعن . طاسم : منطمس . صرخدية : خمر

(٣) الأغاني ١٣/٧ ساسى (٤) الأغانى ٣/٣٢٠

وكانت سُكَينة بنت الحسين ذا صيت طائر فى حب الشعر وتذوقه ونقده ، حتى ليصح أن نقول بلغة العصر الحاضر إنها كانت ذات ندوة أدبيـــة يهفو إليها الشعراء ، فيسمعونها ويستمعون رأيها ونقدها ، ولها فى ذلك أخبار شتى ، منها أنها أنشدت قول الحارث بن خالد :

ففرغن من سبع وقد جَهِـــدَتْ أحشـــاؤهن موائلَ الخُمُـــر

فقالت أحسنٌ عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم ، فقالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الإبل سبعاً لجهدت أحشاؤها (١) .

ولما أنشدها الغَريض قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

أَلِمْ بزينب إنَّ البينَ قد أَفِـــدا قلَّ الثَّواء لئن كان الرحيـــل غدا

طلبت أن يغنيها لها ، فلما غناها قالت : أحسنت والله وأحسن بن أبى ربيعة . وأمرت له بكل بيت ألف درهم ، وقالت : لو زادنا عمر لزدناك (٢) .

وقد زارها بالمدينـة الفرزدق فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت كذبت ، أشعر منك جرير الذى يقول :

بنفسى من تَجَنُّبُـــهُ عزيزٌ علىَّ ومن زيارتـــه لمام

ومن أُمْسى وأصـبح لا أراه ويطرقنى إذا هجـــع النيـام

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . ثم عاد إليها من الغد فسألته فأجاب كاليوم السابق ، فقالت جرير أشعر منك وذكرت بعض شعره ، وكذلك فعلت فى اليوم الثالث (٣) . ونقدت أيضاً قصيدة لعمر (٤) . وكذلك نقدت كلثم بنت سعد المخزومية شعراً (٥) . وكانت خرقاء العامرية محبوبة ذى الرمة تحفظ شعره وتنقده ، ومن قولها : كان رقيق البشرة عذب المنطق حسن الوصف مقارب الرصف (٦) . وروت قطام صاحبة ابن ملجم لكثيِّر بعض شعره ، ونقدته ، وفضلت عليه امرأ القيس (٧) .

ى — أما الموالى فكانت لهن ثقافة خاصة تكفل غلاء ثمنهن ، وتدفع الأثرياء إلى التنافس فى اقتنائهن ، وحسبى أن أذكر أنه كان منهن مغنيات أستاذات ، تلقى عنهن زعماء المغنين ،

---

(١) الأغاني ٣/٣٢٧ (٢) الأغانى ٢/٣٧٦ (٣) الأغاني ٧/٥٠ (٤) الأغانى ٢/٣٧٧
(٥) الأغانى ١/٢٠٥ (٦) الأغانى ١٦/١٢٠ (٧) الأغانى ١٤/٥٧

فمثلا جميلة كانت أستاذة ابن سريج [١] ، وأستاذة معبد ومالك [٢] ، وعاتكة بنت شهدة كانت أستاذة إسحاق الموصلى [٣] .

هـ — وإذاً فقد برعت المرأة فى صدر الإسلام وفيما بعده ، واشتهرت بمعارف شتى حتى سامت الرجال أحيانا ، وليس من المعقول أن تكون خاملة جاهلة وتبرع هذه البراعة فجاءة ، وإنما الطبيعى أن الإسلام قد استهل على العرب والنساء يسهمن فى المعرفة ، ويسرن كالرجال بخطا نحو الكمال . فكان الإسلام مشجعا على حث الخطا ، وكان نوراً إلى الهدف الذى يأتمه النساء والرجال جميعا .

---

(١) الأغاني ٧/١٢٦ (٢) الأغاني ٧/١٢٦ (٣) التاريخ الكبير لابن عساكر ٢/٤١٦

الباب الثالث

المرأة الشاعرة

العرب أمة شاعرة كما سبق ، وقد قاومت آلاف من قصائدها عوادى الدهر ، حتى جاء عصر التدوين فدونت وأطلّت علينا . وبديهى أن هـذا الشعر الذى غالب الزمن وتخطاه لم يكن أول شعر ، لأنه شعر قد اكتمل خصائص الشعر الأسلوبية والمعنوية والموسيقية ، فهو من غير جدال مسبوق بمحاولات شتى فى أزمان متطاولة . وكان العرب يعتزون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم ، والإشادة بفضائلهم ، فهو عندهم كالآثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم ، « ولم يكن من اللغو أن نقول إن العرب قرضوا وحدهم من الشعر — فى الجاهلية والإسلام — أكثر مما قرضته أمم العالم مجتمعة [1] .

وقد حقق رواة الشعر فيما يروون ، وتحروا الصواب جهدهم ، ونبهوا على كثير من الدخيل المنحول . حتى لقد حدث الزبير عن ابن سلام عن يحيى بن سعد القطـان أنه قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع [2] .

قلة المروى من شعر النساء

أمام هذا الفيض الزاخر من شعر الرجال لا نجد إلا قلة من شـعر النساء ، وبخاصة فى الكتب الأولى التى جمعت الشعر ، كالطبقات لابن سلام ، والمفضليات للضبى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمؤتلف والمختلف للآمدى ، والحماسة لأبى تمام .

فمثلا فى المفضليات للضبى مرثية واحدة لامرأة من بنى ضُبَيْعة فى خمسة أبيات ، وليست هـذه المرأة معروفة الاسم أو العصر . وذكر ابن سلام من أصحاب المراثى متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سعد الغنوى ، ثم قال : والمقدّم عندنا متمم بن نويرة [3] .

---

(١) حضارة العرب . لوبون ٥٤١ (٢) ذيل الأمالى ١٠٥ (٣) طبقات الشعراء ١٦٩ طبعة شاكر

ثم ذكر الخنساء فى إيجاز جدا بقوله « بكت الخنساء أخويها صخرا ومعاوية ، فأما صخر فقتلته بنو أسد ، وأما معاوية فقتلته بنو مرة من غطفان . فقالت فى صخر كلمتها التى تقول فيها :

« وإن صخرا لتأتم الهداة به » وكلمتها الأخرى :

أمن حـــدث الأيام عينك تَهْمُل وتبكى على صخر وفى الدهر مَذْهَل

وقالت فى معاوية قصيدتها :

ألا ما لعينيـــك أم مالهـــا لقد أَخْضَلَ الدمعُ سِرْبالهـــا (١)

فكأنها فى رأيه لم تقل غير هـذا . ولم يذكر الآمدى فى المؤتلف والمختلف إلا بضع شاعرات، ولم يذكر المرزبانى فى معجم الشعراء امرأة . وذكر الفرشى فى الجمهرة تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً ، منها سبع قصائد فى للرثاء ، ولم يذكر شاعرة .

لماذا قلّت رواية شعرهن؟

ولعل الأسباب فى قلة ما روى من شعرهن أول الأمر راجعة إلى هذه الأمور :

١ — كان الرواة فى عصر الجمع والتحصيل حراصاً على الغريب ، فكانوا يأخذون عن الأعراب ، لأنهم يقدرون فى الشعر قيمته اللغوية ، وسنرى أن شعر النساء قليل الغريب، فلم يحفل الرواة بروايته وإذاعته .

٢ — وشعر النساء كما سنرى موحّد الغرض فى القصيدة الواحدة ، وربما حسب الرواة هذا عجزاً ، لأن العرب جروا على تعدد موضوعات القصيدة ، وتنوع أغراضها ، وألف الرواة هـــذا التعدد . وليس أدل على إعجابهم بنظام القصيدة الجاهلية الجارى على تعدد الموضوعات من أنه سيطر على القصائد العربية إلى العصر الحاضر .

٣ — وكان الشاعر لسان قبيلته ، يذيع محامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هـذا المقام ، لذلك قل فى شعر النساء ذكر الحروب والأيام ، فلم يجد المؤرخون والإخباريون فيه طلبتهم .

٤ — وربما كان مردّ بعض ذلك إلى لون من التعصب، فقد ضرب المثل ببعض الشعراء فى إجادة فنون خاصة ، ولم يضرب بالخنساء مثلا فى إجادتها الرثاء .

من ذلك قول ابن الأعرابى : لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبى دؤاد ،

---

(١) المرجع السابق ١٧٤

ولا وصف الحُمر إلا احتاج إلى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعامة إلا احتاج إلى علقمة ابن عبدة ، ولا اعتذر أحد فى شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبيانى (١) .

وقد سبق إيثار ابن سلام لمتمم بن نويرة فى الرثاء ، ومثل هذا كثير فى كتب الأدب .

٥ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أو التغافل أن الشعر الجاهلى قد فُقد كثير منه ، كما يقرر عمر بن الخطاب وأبو عمرو بن العلاء (٢) وكما يقرر ابن سلام (٣) ، فضاع من شعر النساء كثير وبقى قليل .

٦ — ثم إن أوسع أبواب الشعر العربى فى الجاهلية ما يتصل بالحروب والمفاخرات والحماسة عامة ، حتى إن القبائل التى كانت تنعم بالسلام الطويل لم ينبغ فيها إلا قليل من الشعراء ، فمثلا بالطائف شعراء وليسوا بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم . والذى قلّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذاك الذى قلل شعر عمان ، وأهل الطائف فى طرَف ، ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت وابنه أمية وغَيْلان بن سَلَمة وكنانة بن عبد ياليل ، وأبو مِحْجَن بن حبيب الثقفى (٤) .

وقد كانت الحرب والحماسة أخلق بالرجال من النســـاء ، وإن كن قد شاركن فى هذه وفى تلك .

٧ — ولقد يكون من بواعث هـذا الإغفال أن العرب يؤثرون الفحولة والجزالة فى الشـعر ، وهم قد وجدوا فى شعر الرجال قوة ورصانة فاحتفوا به ، ووجدوا فى شعر النساء ليناً وضعفاً فلم يحفلوا به .

٨ — ولانسى أن الكتب الأولى للمختارات ، وهى القصائد المطولة المسماة بالمعلقات — التى اختارها حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ هـ — وجمهرة أشعار العرب للقرشى المتوفى سنة ١٧٠ هـ (٥) والمفضليات للضبى المتوفى سنة ١٧٨ هـ (٦) ، والأصمعيات للأصمعى المتوفى سنة ٢١٦ هـ ، كلها ليست خالية من شعر النساء فحسب بل من شعر المولدين أيضاً . فكأن هؤلاء وجدوا فى شعر المرأة رقة وسهولة فألحقوا شعرها بشعر المولدين .

---

(١) الأغاني ١٥/٩٣ (٢) طبقات الشعراء ٢٣ تحقيق شاكر والخصائص ٩٣١

(٣) طبقات الشعراء ٢٣ و١١٥ و١١٦ و٢٠٥ تحقيق شاكر

(٤) طبقات الشعراء ٢١٧ شاكر (٥) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣/٣٦٤ ومقدمة الإيادة للبستانى ١٧٢ (٦) ذكر الحافظ الذهبى فى تاريخ الإسلام وميزان الاعتدال ، والحافظ الجزرى فى طبقات القراء أنه توفى ١٦٨ هـ ، وذكر ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة أنه توفى ١٧١ هـ . وخطأهم أحمد شاكر وعبد السلام هارون ورجحا أنه توفى حوالى ١٧٨ (مقدمة شرح المفضليات ١/٢٣)

مراجع تحفل بشعرهن

ثم حفلت المراجع بشعر النساء فى الجاهلية والإسلام ، كالأغانى . بل لقد ألف المرزبانى كتابا فى ثلاثة أجزاء جمع فيه كثيراً من شعرهن سماه (أشعار النساء) لكن الموجود منه الجزء الثالث وحده [١] ، وقد ذكر ياقوت أن أشعار النساء للمرزبانى فى ستمائة صفحة [٢]

وللخرنق أخت طرفة ديوان مخطوط [٣] ثم طبع . ولجنوب الهذلية ديوان ذكره صاحب كشف الظنون [٤] . وللخنساء ديوان مخطوط ومطبوع [٥] .

وجمع الأب لويس شيخو اليسوعى كثيراً من مراثى شواعر الجاهلية فى كتاب رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب [٦] فى نحو مائة وستين صفحة ، اعتمد فيه على كثير من المراجع المطبوعة والمخطوطة كالأغانى والكامل لابن الأثير وكتاب القصيدة النورانية فى مناقب العدنانية مخطوط فى المكتبة الشرقية ، وكتاب الرقائق فى مجموعة الشعر الجاهلى الرائق ، والعمدة ومعجم البلدان والحماسة والمثل السائر وشرح ابن بدرون على قصيدة ابن زيدون وأمثال العرب للضبى والعقد الفريد ودرة الغواص الخ . .

ثم ألف السيوطى كتاب (نزهة الجلساء فى أشعار النساء) [٧] وذكر فى مقدمته أنه جزء لطيف فى الشاعرات المحدثات دون المتقدمات من الجاهليات والمخضرمات ، فإن أولئك لا يُحْصَيْن كثرة ، حتى إن الطّرمّاح جمع كتابا فى أخبار النساء الشواعر من العربيات ، فجاء فى عدة مجلدات رأيت منها المجلد السادس ، وليس هو الأخير [٨] .

على أن كتب الأدب واللغة والتاريخ حافلة بقطوف من شعرهن كالأغانى ، وخزانة الأدب ، والعقد الفريد ، وعيون الأخبار ، وشرح مقامات الحريرى للشريشى ، ومعجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن الأثير ، والمنظوم والمنثور لابن طيفور ، وبلاغات النساء لابن طيفور ، وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ، ومروج الذهب للمسعودى ، وتزيين الأسواق لداود الأنطاكى ، ووصف جزيرة العرب للهمدانى ، وجمهرة الأمثال لأبى هلال ، وحماسة البحترى ، وسيرة

---

(١) أشعار النساء للمرزبانى مخطوط ٨ أدب ش (٢) معجم الأدباء ١٨/٢٦٩ (٣) ديوان خرنق مخطوط ٣٤ أدب ش ٥٦٨ أدب (٤) كشف الظنون ٣/٢٧١ ليبسيك (٥) مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش والمطبوع أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء الأب لويس شيخو ١٨٩٦ م

(٦) طبع فى بيروت ١٨٩٧م (٧) مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر

(٨) نزهة الجلساء فى أشعار النساء مخطوط ص ٢

ابن هشام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وخزانة الأدب للحموى ، وزهر الآداب للحصرى ، والكامل للمبرد ، والمؤتلف والمختلف للآمدى الخ .

شعر منحول للنساء

١ — ليس بصحيح كل شعر عُزى إلى النساء ، فإن بعضه دخيل عليهن ، نحله بعض الناس إياهن ، ولقد يكون بعضه لشاعرة ويُنحل أخرى ، وبعضه لشاعر وينحل شاعرة ، وبعضه من عمل الراوى أو المؤلف ، ومثل هذا حدث فى شعر الرجال ، فمثلا حدث أبو عبيدة أن قراد بن حنش المرّى من شعراء غطفان ، كان قليل الشعر جيده ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات :

إن الـــرزية لا رزية مثلهـــا ما تبتغى غطفان يوم أُضَلَّت [١]

وحدث الأصمعى أن طفيلا الغنوى فى بعض شعره أشعر من امرئ القيس ، وحدث الرياشى أن كثيراً من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه مثل عمرو بن قميئة [٢] . وكثيراً ما ذكر ابن سلام أن فى بعض ما يروى نحلا وانتحالا [٣] . وفى الأغانى كثير من هذا كالأبيات التى قالها عمر بن أبى ربيعة أو والد أبى نهشل فى مدح هشام بن المغيرة ، ونسبت إلى عبد الله بن الزبعرى [٤] .

وقد نبه القدماء على كثير من هذا المنحول ، كقول عامر بن جُوَين فى غزله بهند بنت امرئ القيس بن حجر :

هممت بنفسى كل الهمـــوم فأولى لنفسى أولى لهـــا
سأحمـــل نفسى عـــلى آلة فإما عليهـــا وإما لهـــا

هكذا روى ابن أبى سعد عن دارم بن عقال . ومن الناس من يروى هذا للخنساء فى قصيدتهـــا :

ألا ما لعيـــنى ألا ما لهـــا لقد اخضل الدمع سربالها [٥]

والبيتان فى ديوان الخنساء [٦] :

---

(١) الموشح للمرزبانى ٤٧ (٢) المرجع السابق ٣٤ و٣٧ (٣) طبقات الشعراء تحقيق شاكر ٣٢ و٤٠ و٤١ (٤) الأغانى ١/٦٣ (٥) الأغانى ٨/٦٩ ساسى (٦) نزهة الجلساء ٢٠٥

وقد ذكر ابن اسحق أربع قصائد لهند بنت عتبة فى رثاء قتلى بدر ، وعلق ابن هشام بأن أهل العلم بالشعر ينكرونها (١) .

٢ — والخطب هنا سهل ؛ لأن دوافع النحل والانتحال فى شعر النساء أقل منها فى شعر الرجال . ومن السهل أن نرد بعض ما ألصق بهن من شعر دخيل معتمدين على سمات فيه لا تتفق وخصائصهن وأنوثتهن .

من ذلك ما نسبه البحترى إلى امرأة فى رثاء :

أقول لنفسى فى خفاء ألومها ... لك الويل ما هذا التجلد والصبر ؟
ألا تفهمين الخُبْرَ أن لست لاقياً ... أخى إذ أتى من دون أكفانه القبر (٢)

. . . . . .

فكلمة « لاقياً » تدل على أن القائل رجل لا امرأة .

على أن أبا الفرج روى بعض أبيات هذه القصيدة لعلى بن عبد الله أخى جُعْفىّ (٣) ، ورواها كلها أبو على القالى لسلمة بن يزيد فى رثاء أخيه لأمه قيس بن سَلمه (٤) ، وكذلك رواها أبو تمام لسلمة الجُعْفىّ فى رثاء أخيه (٥) .

ومن ذلك ما ذكره اليزيدى للخنساء (٦)

أنا باكٍ عليك للمعروف ... ولكرّ الكماة بين الصفوف

. . . . . .

ولو أنه للخنساء لقالت باكية ، على أن القصيدة ليست فى ديوانها .

ولقد يقدح فى نسبة الشعر إلى شواعر من العصر الجاهلى تهافت عبارته ، وضعف صياغته ، ونبوّه عن الأسلوب العام لهذا العصر ، ومن هذا الضرب كثير مما بالجزء الثانى من جمهرة أشعار العرب للقرشى (٧) .

وأرجح أن هذا الجزء معزوّ إلى القرشى وليس من تأليفه ، على أن به بعض القصائد المشهورة التى أجمع الأدباء على صحتها ، لكنها مزيدة كثيرا مثل قصيدة جليلة أخت كليب (٨)

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤١٤ — ٤١٧
(٢) حماسة البحترى ٤٣١ (٣) الأغانى ٢١/١٠٦ (٤) الأمالى ٢/٧٣
(٥) شرح التبريزى للحماسة ٣/٥٩ (٦) مراث وأشعار مخطوط بمعهد المخطوطات ٤٩
(٧) مخطوط بمكتبة تيمور (٨) الجمهرة الجزء الثانى ١٧٧

ومن هذا الضرب ماروى أن أمامة بنت كليب — ولم يكن لها من العمر إلا اثنتا عشرة سنة حين قتل أباها جساس وابن عمرو بنُ الحارث — دخلت على عمها المهلهل فأخبرته بقتل أخيه ، وقيل إنها وجدته سكران ، فقالت :

أتلهو بالملاهى والخمور ... ولاتدرى بعاقبة الأمور
ولا تدرى بأن كليب أضحى ... قتيلا عند جساس الغَدور
فواعجبا لجساس وعمرو ... لقد رميا أخاك بعَنْقَفير
على ناب البسوس سَرَاب أعنى ... يُبَحّ دمُه سُدًى كدم البعير (١)

فأسلوب هذه الأبيات ركيك سخيف ، ومخالفاتها النحوية كثيرة ، وكلمت عنقفير ليست من أسلوب المرأة ، ثم ليس بصحيح أن مهلهلا كان يجهل قتل أخيه حتى أخبرته ابنته .

كذلك ما ذكره الحصرى من قصيدة لامرأة ترثى طفلها ، وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً ، فإن فيها أبياتاً تدل على أن قائلها رجل لا امرأة مثل :

فدعا لأنصره وكنت له ... من قبل ذلك حاضر النصر
لو قيل تفديه بذلت له ... مالى وما جمّعت من وفر
أو كنت مقتدرا على عُمْرى ... آثرته بالشطر من عمرى
قد كنتُ ذا فقر له فغدا ... ورمى علىّ وقد رأى فقرى (٢)

فكلمة حاضر ، وتفديه ، ومقتدر ، وذا ، دالة على ذكر لا أنثى ، والدعوة إلى النصر إنما توجه إلى الأخ الرجل لا إلى الأخت .

---

(١) رياض الأدب ٦ عنقفير : داهية عظيمة . سراب : علم على ناقة البسوس
(٢) زهر الآداب ٢/٨ على هامش العقد الفريد

فنون شعرها

الرثـــاء

أسلفت القول فى حب الأم لابنها ، والمرأة لزوجها ، والبنت لأبيها ، والأخت لأخيها ، والقريبة لقريبها ، وذكرت نماذج من رثائهن لهؤلاء .

والرثاء هو المجال الفسيح الذى تطلقت فيه عواطف المرأة، لأنه نوع من النواح والبكاء ، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا حزبها الدهر أو كَرَبَها القضاء ، وإنها لتلتذ الحزن وتستديمه ، وتوالى البكاء وتستطيله ، وفاءً وحسرة ، أو ضعفاً ورقة ، ثم تنفس عن نفسها إن كانت شاعرة بمقطوعات تسكب فيها لوعتها وحرقتها .

فهل كان لرثاء النساء خصائص تميزه من رثاء الرجال ؟

١ — الذى أحسسته فى مراثيهن أنهن يشدن بفضل المرثى من شجاعة وبطولة وكرم ونجدة وعفة الخ كما أشاد الرجال فى مراثيهم . فمثلا ترثى الخنساء صخرا بالشجاعة فى قولها :

فمن للحرب إذْ صارت كَلُوحاً ... وشَمَّر مُشْعلوها للنهوض

وخيلٍ قد دَلَفْتَ لها بأخرى ... كأن زهاءها سَنَدُ الحَضيض

إذا ما القوم أَحْرَبَهُمْ تُبُولٌ ... كذاك التَّبْلُ يُطلب كالقُروض

بكل مُهَنَّد عَضْب حُسام ... رقيق الحَدّ مصقول رَحِيض (١)

وترثيه بالكرم ، وإغاثة الجار ، وإصلاح ذات البين ، والحلم فى قولها :

فمن لِقرى الأضياف بعدك إن هُمُ ... فناءك حلُّوا ثم نادوا فأَسْمَعُوا

كعهدك إذ أنت حىٌّ وإذْ لهم ... لديك مَنَالاتٌ وريٌّ ومَشْبَع

---

(١) ديوان الخنساء ١٥٨ سند الحضيض : أسفل الجبل حيث يكون أرسى وأصلب . أحربهم : هيجهم . الرحيض : المغسول وتريد به السيف الصقيل كأن الماء يقطر منه لشدة صفائه .

ومن لمهمٍ حل بالجار فادحٍ وأمرٍ وهَى من صاحب ليس يُرْقع
ومن لجليس مفحش لجليسه عليه بجهل جاهداً يتسرَّع
ولو كنتَ حيا كان إطفاء جهله بحلمك فى رفق وحلمُك أسرع (١)

وهى فى رثائها لا تخرج عن وصف أحزانها ، وتعداد مناقب أخويها ، كما يعدد الرجال مناقب الرجال .

ولقد تعاظمت هى وهند بنت عتبة مصيبتيهما ، وادعت كل منهما أنها أعظم بلوى ، فالخنساء تعاظم بأبيها عمرو بن الشَّريد وأخويها صخر ومعاوية ، وهند تعاظمها بأبيها عُتْبة وعمها شَيْبة وأخيها الوليد ، ولكنهما فى هذه المفاخرة لم يخرجا على هذا السياج ، وإنما نوهتا بالمحامد المألوفة . قالت الخنساء :

أبكى أبى عمراً بعين غزيرة قليل إذا نام الخلىُّ هجودُها
وصِنْوى لا أنسى معاوية الذى له من سَراة الحَرَّتين وفودها
وصخرا ومن ذا مثلُ صخر إذا غدا بساهمة الآطال قُبًّا يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلمى ونيرانُ حرب حين شب وقودها (٢)

فأجابتها هند بقولها :

أبكى عميدَ الأبطحَيْن كليهما وحاميهما من كل باغ يريدها
أبى عتبةُ الخيراتِ ويحك فاعلمى وشَيْبَةُ والحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفى العزِّ منها حين يُنْمَى عديدها (٣)

وقالت لها الخنساء أيضاً :

من حسَّ لى الأخويين كالغصنين أو من راهما
أخوين كالصقرين لم ير ناظر شَرْواهما

---

(١) الديوان ١٥٩ الحى : جماعة القوم . أى لو نشب الشر بين القوم لشملهم حلمه وتدارك جهلهم وهذا على رواية ولو كان حيا . أما الرواية التى اخترتها (ولو كنت حيا) فمعناها لو كنت ياصخر موجوداً لتداركت هذا الشر قبل استفحاله .

(٢) الأغانى ٤/٢١١ الدار ومجمع الأمثال ٢/٢٠٥ الحرتين : حرة بنى سليم وحرة بنى هلال بالحجاز . أى هو مقصد الأشراف من القبائل يأتونه فيما يلم بهم . ساهمة : دقيقة . الآطال : الخواصر جمع إطل . قب : جمع أقب الفرس الدقيقة الحصر الضامرة البطن (٣) الأغانى ٤/٢١٢ الدار ومجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٠٥ الأبطحين : بطحاء مكة وسهل تهامة . عديدها : جموعها

قَرْمَيْنِ لا يتظالمـا ... ن ولا يُرام حماهما
أبكى عـلى أخـو م ى والقبر الذى واراهما
لا مثل كهلى فى الكهو ... ل ولا فـتى كفتاهما
رمحين خطِّيَّين فى ... كبد السماء سَناهما
ما خلَّفـا إذ ودّعـا ... فى سُـودَدٍ شَرْواهما
سادا بغـير تـكلف ... عَفْواً بفَيْضِ نداهما (١)

والخنساء تنزع النزوع نفسه فى رثاء زوجها مرداس بن أبى عامر السُّلَمى ، فنشيد بعزيمته وشجاعته وقوته وتخليصه السبايا :

وفضَّل مرداسا على الناس فضلُهُ ... وأنْ كل هَمٍّ هَمَّـه فهو فاعله
وأن رب واد يكره القومُ هَبْطَه ... هبطتَ ، وماءٍ مَنْهَلٍ أنت ناهله
وسَبْى كآرام الصَّريم حويتَه ... خلالَ رجال مستكينٍ عواطله
متى ما تعادلْ ماجدا تعتدلْ به ... كما عدل الميزانَ بالكف ثاقله (٢)

وهذه النزعة نفسها محققة فى مرثية دختنوس (٣) لأبيها لقيط بن زرارة :

بَكَرَ النعىُّ بخير خندف كهلها وشبابها
وبخيرها نسباً إذا رجعتْ إلى أنسابها
وقريعها ونجيبها فى المُطْبقات ونابها
ورئيسها عند الملو ... ك وزَيْن يوم خطابها
فيعُولها ويحُوطها ويذبُّ عن أحسابها
ويطا مواطنَ للعدو ... كان لا يمشى بها
فِعلَ المدلِّ من الأسو ... د لحَيْنها وتَبابها (٤)

---

(١) الديوان ٢٥٦ والأغانى ٤/٢١٣ حس : أدرك . شرواها : مثلهما . قرمان : سيدان . كهلى : تريد أخاها معاوية وكان بكر إخوته . فتى : تريد صخرا وضمير فتاها يعود إلى فرعى بنى سليم

(٢) ديوان الخنساء ١٩٩ آرام : ظباء . الصريم : الرمل . ثاقله : وازنه

(٣) قال فى تاج العروس ٤/١٤٧ أصله دخترنوش بضم الدال وسكون الخاء وضم التاء والنون أى بنت الهنىء سماها أبوها باسم بنت كسرى وقلبت السين شينا لما عربت وقال أيضاً دخدنوس وتختنوس بفتح الدالين فى الأولى والتاءين فى الثانية (٤) الأغانى ١٠/٣٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٤٤ والمنظوم والمنثور لابن أبى طاهر ٢١ بكر : أتى باكراً . قريعها : سيدها . المطبقات : الشدائد وسنوات الجدب . كان لا يمشى بها : يتعقب العدو فى أماكن لم يطأها من قبل أو لم توطأ . المدل : الجرىء الواثق بقوته ، أى أنه خاطر وفعل فعل الأسد الذى يعود عليه إقدامه بالحتف

وفى رثاء خِرنق لزوجها وأبنائها الثلاثة :

لا يبعَدَنْ قومى الذين همُ ... سمُّ العُداة وآفة الجُزُر
النازلون بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر
والخالطون نَحيتَهُمْ بنُضارهم ... وذوى الغنى منهم بذى الفقر
إن يشربوا يهبوا وإن يذروا ... يتواعظوا عن منطق الهُجُر
قوم إذا ركبوا سمعت لهم ... لَغَطاً من التأْييه والزَّجْر
هذا ثنائى ما بقيتُ عليهم ... فإذا هلكت يجنُّى قبرى (١)

وكذلك فى رثاء الفارعة بنت معاوية (٢) ، وسارَّة القُرَظية لقومها (٣) ، وخرنق لآلها (٤) ، ودختنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة (٥) .

وهذا الاتجاه نفسه غالب فى شاعرات العصر الإسلامى والعباسى ، فمثلا عاتكة بنت عمرو بن نُفَيْل رثت زوجها الزبير بن العوام ، وأشادت ببطولته وشجاعته فى قولها :

غدر ابن جُرْموز بفارس بهْمَةٍ ... يوم اللقاء وكان غير مُعرِّد
يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشاً رَعِش الْجَنَان ولا اليد
كم غمرة قد خاضها لم يَثْنه ... عنها طِرادك يابن فَقْع القَرْدد
ثكلتك أمك إن ظفرتَ بمثله ... فيما مضى ممن يروح ويَغْتدى (٦)

وكذلك فعلت ليلى الأخيلية فى رثاء توبة بن الحمِّير (٧) ، وزينب بنت الطَّثَرِيَّة فى رثاء أخيها يزيد (٨) ، وليلى بنت طَريف فى رثاء أخيها الوليد بن طريف الشارى (٩) :

---

(١) ديوان خرنق ٣ والأمالى ٢/١٥٨ وأشعار النساء للمرزباني . الهجر : الفحش . اللغط : الجلبة. التأبيه : الصوت والصياح . النحيت : المنحوت الفقير (٢) أشعار النساء للمرزبانى ٢٢ مخطوط
(٣) معجم البلدان ٢/٢٤٣ (٤) ديوان خرنق مخطوط والحماسة البصرية ٩٥ مخطوط
(٥) الشعر والشعراء ٢٧٢ (٦) حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة ١/٢٩٤ والحماسة البصرية ٨٤ مخطوط . ابن جرموز: عمرو بن جرموز التميمى قتل الزبير غيلة بوادى السباع فى عودته من وقعة الجمل . فارس بهمة : فارس جيش والمراد الزبير . إن ظفرت : ماظفرت. فقع القردد : الفقع البيضاء الرخوة من الكمأة ، والقردد : ما ارتفع من الأرض . والمراد وصف أبيه بالذلة لأن هذا الفقع يوطأ بالأرجل ولا يمتنع على من يجتنيه (٧) حماسة البحترى ٤٢٣ و٤٢٤ و٤٢٦ وزهر الآداب ٤/٧٢
(٨) حماسة البحترى ٤٣٣ وبلاغات النساء ١٩٣
(٩) حماسة البحترى ٤٣٥ والأغانى ١١/١١ و٩/١١

وهؤلاء وأولئك — ماعدا الخنساء فى بعض مراثيها — لم يُحْدن تشقيق المال فى وصف ما تعتلج به قلوبهن من اللوعة والأسى .

ثم إن المرأة فى رثائها لابنها مثلا لم تتحدث عما كانت تؤمله فيه ، أو عما كانت تتشوف إليه من أن يشب ويكبر فتُخبِر به وببنيه ، ولم تتحدث زوجة عن دماثة زوجها ، وحسن عشرته لها ، وعطفه عليها ، ووفائه لها .

أفكان مردّ هذا إلى معجزة بيانية ؟ لا ، لأن القدرة التى أسعفتهن بالإشادة بالمحامد كفيلة أن تسعفهن بتصوير ذلك . وأرجح أن محاكاتهن للرجال فى رثائهم وفى إشادتهم بفضائل المرثى ، وأن ضيق أفق خيالهن ، وعجزهن عن تصوير حزنهن ، والتعبير عن مشاعرهن بحيث يشركن الآخرين والأخريات معهن فيما يشعرن به هى السبب فيما نرى من شبه رثائهن برثاء الرجال ، وفيما نرى فى مراثيهن من احتباس على ذكر المحامد العامة ، حتى إننا قلما نستطيع أن نميز رثاء امرأة من رثاء رجل ، وقلما نجد فى مراثيهن ملامح ناطقة وسمات كاشفة تنبع من الأنوثة ، وتعبر عن عواطف الإناث . وفى الحق إنهن أشجى من الرجال قلوبا عند الفجيعة ، وأشد منهم حزنا ، وأعظم لوعة ، لأنهن أضعف احتمالا ، وقلوبهن أسرع انخلاعا ، وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا لم تجىء مراثيهن أشد حرارة وأقوى تأثيراً ؟ .

سبب ذلك أن الانفعالات والعواطف كالطرب والغضب والحزن والفرح لا يتفجر منها الشعر ساعة احتدامها « لأن الانفعال القوى يعقد اللسان ، ويشل التفكير ، ويشغل عما عداه . فالشاعر لا يقول الشعر إلا بعد أن يصحو من شرابه ، وبعد أن يهدأ من غضبه ، إذ تصفو قريحته ، ويستطيع الخَلْق ، وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور الكامنة ، وإذاً فهو لا يقول إلا عن روية »[1] .

والنساء يفشأن حزنهن بالدموع الغزار الحرار ، وبالآهات والأنات والعويل ، وبالصمت الحزين والاستغراق الأليم والذكرى الموجعة ، فإذا ما عمدن إلى القريض مَتَحْن من عاطفة قد تنفّست ، وأوَيْن إلى لغة كان البكاء والنشيج والدمع السخين أطوع منها وأصدق تعبيراً .

٢ — وفى كثير من مراثى الشواعر تصوير لما أصابهن من ذلة وضعف بعد فقد من فقدن ، كقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية فى رثاء أبيها :

قد كنتَ لى جبلا ألوذ به ... فتركتنى أضْحَى بأجْرَدَ ضاح

---

(١) النقد المنهجى عند العرب . مندور ٢٥

قد كنتُ ذاتَ حمية ما عشتُ لى ... أمشى البرازَ وكنت أنتَ جَناحى
فاليوم أخضع للذليل وأتّقى ... منه وأدفع ظالمى بالراح
وإذا دعتْ قمرية شجباً لها ... يوما على فَنَن دعوتُ صباح
وأغضُّ من بصرى وأعلم أنه ... قد بان حدُّ فوارسى ورماحى (١)

وتعترف سلمى بنت حُرَيْث النضرية بالذلة فى رثائها زوجها زفر :

أصبحتُ نهباً لريب الدهر صابرة ... للذل أكثرُ تحنانا إلى زفر
إلى امرئ ما جد الآباء كان لنا ... حصناً حصيناً من اللأواء والغير
كان العماد لنا فى كل حادثة ... تأتى بها نائبات الدهر والقدر (٢)

وتعترف الخنساء بتضعضعها وحاجتها بعد صخر :

فقد خلّى أبو أوفى خلالا ... علىّ فكلها دخلَتْ شِعابى (٣)

وتقول :

دَقّ عظمى وهاض منى جَناحى ... هُلْكُ صخر فما أطيق براحا (٤)

وليس لهذا أثارة فى رثاء الرجال وإن عظم حزنهم وأمضّهم الهمّ ، كمرثية متمم بن نويرة لأخيه مالك (٥) ، ومرثية الأَبْيَرد بن المعذّر الرياحى لأخيه بُرَيْد (٦) ، ومرثية دُرَيْد ابن الصِّمة لأخيه عبد الله (٧) ، ومراثى المهلهل لأخيه كُلَيْب (٨) ، ورثاء أبى ذؤيب الهذلى لبنيه (٩) ، ورثاء أبى زُبَيْد الطائى لابن أخته (١٠) ومرثية أوس بن حجر لفَضالة بن كَلَدَة (١١)

٣ — وهن أكثر من الرجال ذكراً للّوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع والوجيعة ؛ لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى فى تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء .

---

(١) الأمالى ١/٢ وشرح الحماسة للتبريزى ١٨٩/٢ وتنبيهات الأمالى ٧٨ ورجح ماروى عن أبى العلاء أن الرواية الصحيحة (شجبا) أى فرخها الهالك وهو الهديل والشجب بفتح الجيم الهلاك وبكسرها الهالك
(٢) بلاغات النساء ١٨١ (٣) الديوان ١٤ أبو أوفى : كنية صخر (٤) الديوان ٣٤
(٥) المفضليات ٦٥/٢ والأمالى لليزيدى ١٨ مخطوط (٦) مراث وأشعار لليزيدى مخطوط والأمالى ٣/٢ (٧) شرح الحماسة للتبريزى ١٥٦/٢ والأمالى لليزيدى ٣٥ (٨) الأمالى للقالى ١٢٩/٢ والأمالى لليزيدى ١١٦ (٩) حماسة الخالديين ٣٨٧ مخطوط (١٠) الأمالى لليزيدى ٧ — ١٣
(١١) ديوان أوس بن حجر ٢٢

فمثلا تقول الخنساء :

تقول نساء شبتِ من غير كِبْرة ... وأيسرُ مما قد لقيتُ يُشيب
أقول أبا حسان لا العيش طيب ... وكيف وقد أُفْرِدْتُ منك يطيب ؟
ذكرتك فاستعبرتُ والصدر كاظم ... على غصة منها الفؤاد يذوب
لعمرى لقد أوهيتَ قلبي عن العزا ... وطأطأتَ رأسى والفؤاد كئيب
لقد قُصِمَتْ منى قناة صليبة ... ويُقْصَمُ عود النَّصْبِ وهو صليب (١)

فهى تتحدث عن شيبها قبل أوان الشيب ، وعن مرارة حياتها ، وعن دموعها وغصتها ، وحرقة فؤادها ، وعن عجزها عن التصبر ، وكآبة قلبها وطأطأة رأسها ، ثم عن فقدها سندها الذى كانت تعتمد عليه .

وتقول أيضاً :

ألا يا عين فانهمرى بغَزْر ... وفيضى فيضةً من غير نَزْر
ولا تَعدى عزاء بعد صخر ... فقد غُلبَ العزاء وعيل صبرى
لمُرْزِئَةٍ كأن الجوف منها ... بُعيدَ النوم يُشعَرُ حَرَّ جَمْر (٢)

وتقول :

دق عظمى وهاض منى جناحى ... هُلْكُ صخر فما أُطيق براحا (٣)

وتقول فى توالى دموعها :

ألا ما لعينى ألا مالها ... لقد اخضل الدمع سربالها (٤)

وتقول أيضاً :

قذًى بعينك أم بالعين عُوَّار ... أم أقفرتْ إذ خلتْ من أهلها الدار (٥)

وإذا ما نضب دمعها ، ورقأت جفونها استمطرتها وحثتها على التسكاب :

يا عين مالك لا تبكين تسكابا ... إذا راب دهر وكان الدهر ريَّابا (٦)

---

(١) الديوان ١٥ النصب : العلم المنصوب أو عود النبع وهو شجر تتخذ منه القسى . أبو حسان : كنية لصخر (٢) الديوان ٦٧ غزر : دمع غزير . نزر : قلة . عيل : غلب . مرزئة : مصيبة . يشعر : يلصق به (٣) الديوان ٣٤ دق عظمى : هزل . ما أطيق براحا : لا أستطيع التحول من مكان إلى آخر (٤) الأغانى ٦٩/٨ والديوان ٢٠١ (٥) الأغانى ١٣١/١٣ (٦) ديوان الخنساء ١

وتقول :

يا عين جودى بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جاء فى الأسماط مثقوب (١)

وكذلك تقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية :

يا عين جودى عند كل صباح جودى بأربعة على الجَرَّاح (٢)

وتقول صفية بنت مسافر فى بكاء أهل القَليب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش :

يا من لعين قذاها عائرُ الرمد حدَّ النهار وقرنُ الشمس لم يَقد

. . . . . .

قومى صفيّ ولا تنسى قرابتهم وإن بكيتِ فما تبكين من بُعُد (٣)

وتقول سليمى بنت المهلهل فى رثاء أخيها :

أعينىّ جودا بالدموع السَّوافح على فارس الفرسان فى كل صافح

أعينى إن تَفْنَى الدموع فأوكفا دما بارفضاضٍ عند نَوْح النوائح

ألا تبكيان المرتجَى عند كل مَشْهد يثير مع الفرسان نقع الأباطح (٤)

أما الرجال فإنهم يتجلدون ويفاخرون بتجلدهم ، كأَنَس بن مُدْركة الخثعمى فى قوله :

كم من أخ لى كريم قد فُجِعْتُ به ثم بَقيتُ كأنى بعده حجر

لا أستكين على ريب الزمان ولا أغضى على الأمر يأتى دونه العُذُر (٥)

وقول عمرو بن معد يكرب :

كم من أخ لى صالح بوأته بيدىّ لحدا

ألبسته أثوابه وخُلقت يوم خُلقت جلدا

ما إن جَزِعْتُ ولا هَلِعْت وما يردّ بكاى زَنْدا (٦)

ونجد بعض الرجال يعرضون البكاء عرضاً سريعاً عجلان ، كقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

---

(١) الديوان ١٢ (٢) الحماسة البصرية ٩٥ (٣) سيرة ابن هشام ٢/٤١٧ العائر : وجع العين

(٤) مرائي شواعر العرب ١٨ صافح : ضارب بعرض السيف .

(٥) حماسة البحترى ١٩٢ (٦) حماسة البحترى ١٩٣ وشرح الحماسة للتبريزى ١/٩٢

فعينيَّ هلا تبكيان لمالك ... إذا أَذْرت الريحُ الكنيفَ المرفَّعاَ
أبى الصبرَ آياتٌ أراها وأننى ... أرى كل حَبْل بعد حبلك أَقْطعاَ
وأنى متى ما أدعُ باسمك لا تجبْ ... وكنتَ جديراً أن تجيب وتسمعا
وإنى وإن هازلتنى قد أصابنى ... من الرزء ما يبكى الحزينَ المفجَّعا (١)

وقول مهلهل فى رثاء كليب :

أبت عيناى بعدك أن تَكُفّا ... كأن غضا القَتَاد لها شِفار
كأنى إذ نعى الناعى كليباً ... تطاير بين جنبىَّ الشَّرار
فدُرْتُ وقد عشا بصرى عليه ... كما دارت بشاربها العُقار (٢)

وأى فجيعة يفجع بها رجل أقسى من أن يفقد بنيه الثمانية ؟

لقد نزلت هذه الكارثة بأبى ذؤيب الهذلى فلم يتضعضع كما تتضعضع المرأة ، فبكى وتحدث عن بكائه فى إيجاز ثم تجلد :

أودى بَنىَّ فأعقبونى حسرة ... بعد الرقاد وعبرةً ماتقلع
سبقوا هَوَىَّ وأعنقوا لهواهم ... فتُخُرِّمُوا ولكل جنب مصرع
فغَبَرْتُ بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أنى لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تُدْفَع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن جفونها ... سُمِلَتْ بشوك فهى عَوْرا تدمع
وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ... ولسوف يولع بالبكا من يُفْجَع (٣)

ولقد رثى الأبيْرد بن المعذَّر الرياحى أخاه بُرَيْدا فتفجع وتوجع ولكن فى رجولة كقوله :

تطاول ليلى لم أنمه تقلباً ... كأن فراشى حال من دونه الجمر
أراقب من ليل التَّمام نجومه ... لدن غاب قَرْنُ الشمس حتى بدا الفجر

---

(١) المفضليات ٢/٦٧ و٦٩ وجمهرة أشعار العرب ٢٩٢ (٢) أخبار المراقسة ٤٨ شفار : أى جفونها وأشفارها كشوك القتاد فلا تنطبق . عشا : من باب رضى ودعا أى عمى
(٣) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢٦٤

تذكرت عِلْقاً بان منا بنصره ... ونائلهِ ياحبذا ذلك الذكر
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فقد عذرتنا فى صحابته العُذْر
وكنت أرى هجراً فراقك ساعة ... ألَا . لا . بل الموت التفرق والهجر
أحقا عباد الله أن لست لاقيا ... بُرَيْداً طوال الدهر مالألا العُفْر
فلما نعى الناعى بُرَيْداً تبدلت ... بى الأرض فرطَ الحزن وانقطع الظهر
إلى الله أشكو فى بُرَيد مصيبتى ... وبثى وأحزاناً يجيش بها الصدر (١)

٤ — ولقد يعبرن تعبيراً نسويا يكثر دورانه على ألسنة النساء ، كقول الخنساء :

تعرَّقنى الدهر نَهْساً وحَزّاً ... وأوجعنى الدهر قَرْعا وغَمْزاً (٢)

فكلمة [أوجعنى] تكاد تكون من لغة المرأة .

وكذلك تكرر كلمة (لهفى) فى قولها :

لهفى على صخر فإنى أرى له ... نوافل من معروفه قد تولت
لهفى على صخر لقد كان عصمة ... لمولاه إذ نعلٌ ، بمولاه زَلّت (٣)

وفى قولها :

فيا لهفى عليه ولهف أمّى ... أيصبح فى الضريح وفيه يمسى (٤)

وتعبر بكلمة (ويلى) :

ويلى عليه ويْلَةً ... أصبحتُ حصنى مُنْكَسر (٥)

وتقول ناجية بنت ضمضم المرية فى رثاء أخيها هرم :

ياهف نفسى لهفة المفجوع ... ألّا أرى هَرِماً على مَوْدوع
من أجل سيدنا ومصرع جنبه ... علق الفؤاد بحنظل مَجْدوع (٦)

٥ — ويمتاز رثاؤهن بندرة الحكمة فيه ، على أن فى رثاء الرجال أحيانا حكمة متصلة بالموت وأحداث الدهر وفواجعه ، كقول أبى ذؤيب :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تُدْفَع

---

(١) مراث وأشعار لليزيدى مخطوط ٨١٦ (٢) الديوان ١٤٣ وأمالى ابن الشجرى ١/٢١٥
نهساً : نهشاً . قرعا : ضربا على الرأس . غمزاً : نخساً باليد (٣) الديوان ٢١
(٤) الديوان ١٥٣ (٥) الديوان ١٢٤ (٦) لسان العرب ١٠/٢٦٤ والأغاني ١٦/٣٠
مودوع : اسم فرسه . حنظل مجدوع : حنظل وبيل وخم يميت

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع
والدهر لا يَبْقَى على حدثانه مستشعرٌ حلَقَ الحديد مقنَّع (١)

وقول أبى زبيد الطائى فى رثاء ابن أخيه الجلاح :

إن طول الحياة غير سُعود وضلالٌ تأميل طولِ الخلود (٢)

وقول الغنوى فى رثاء أخيه :

لعمركما إن البعيد لما مضى وإن الذى يأتى غدا لقريب (٣)

ولم أجد فى مراثيهن من الحكمة إلاقليلا جدا ، كقول عمرة أخت عمرو ذى الكلب فى رثائه:

كل امرىء بِمحال الدهر مكذوب وكل من غالب الأيامَ مغلوب
وكل قوم وإن عزوا وإن كثروا يوما طريقهم فى الشر دُعْبُوب
وكل من غالب الأيام من أحد مُودٍ وتابِعُه الشبان والشيب (٤)

وكذلك هذه الأبيات من رثاء سُعْدَى الْجُهَنية لأخيها أسعد بن الشَّمَرْدل :

ولقد بدالى قبلُ فيما قد مضى وعلمت ذاك لوانَّ علماً ينفع
أنّ الحوادث والمنون كلاهما لا يُعْتَبان ولو بكى من يَجْزع
ولقد علمت بأن كلّ مؤَخَّر يوما سبيلَ الأولين سيَتْبَع
ولقد علمت لو انّ علماً نافع أنْ كل حى ذاهب فمودِّع (٥)

وقول الخنساء :

أرى الدهر يرمى ما تطيش سهامه وليس لمن قد غاله الدهر مرجع (٦)

ولعل ذلك راجع إلى أنهن يستغرقن فى الرثاء لا يلوين على غيره كما يفعل الرجال ، وإلى أن المرأة تجنح إلى التخصيص ، والرجل يجنح إلى التعميم ، فنظرته شاملة ، ونظرتها جزئية ، ونظرته قاعدة مجردة ، ونظرتها فردية محددة .

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٦٥ (٢) الأمالى للبزيدى ٧ مخطوط ، وجمهرة أشعار العرب ٢٨٦
(٣) جمهرة أشعار العرب ٢٧٤ وذكر القرشى أن اسمه محمد بن كعب وفى خزانة الأدب للبغدادى أن اسمه كعب بن سعد الغنوى ، وفى لسان العرب أن اسمه ابن سويد الغنوى (٤) حماسة البحترى ٤٢٩ ولسان العرب مادة دعب ورياض الأدب ٧٦ دعبوب : طريق مذلل موطوء مسلوك (٥) لسان العرب ٩/١٠٩ و٣٧٩ و١٣/٣٦٩ ورياض الأدب ١٣٢ (٦) الديوان ١٦٣

يقول بعض الباحثين إن المرأة بوحي عام ، تجذب انتباهها حادثة مّا أكثر من فكرة مّا ، والرجال يهتمون بعلاقات الأشياء أكثر من اهتمامهم بالأشياء ذاتها . وهذا الرأى يتفق مع رأى جون ستيوارت مل ، لأنه رأى أن المرأة تفكر فى الأشياء على أنها جزئيات منفصل بعضها عن بعض ، ولا تفكر فيها على أنها مجموعات متصلة مترابطة (١)». ثم إن المرأة أقوى وأحدّ من الرجل عاطفة،وعاطفة حزنها تتجلى فى هلعها وجزعها وعويلها ونحيبها ، وصياحها برزئها . وليس هنا مجال للحكمة ، لأن الحكمة وليدة العقل والتفكير ، وهذه العاطفة الملتهبة تقضى على العقل والتفكير .

* * *

وقد تزعمت الخنساء شواعر الجاهلية والإسلام فى الرثاء ، لكثرة ما رثت أخويها ، ولجودة مراثيها ، وحرارة عاطفتها . وقد أنشدت الخنساء النابغة بسوق عكاظ بعد أن أنشده الأعشى وحسان — وكانت له قبة حمراء تأتيه فيها الشعراء فتنشده — فقال لها : ما رأيت ذا متانة أشعر منك . فقالت ولا ذا خصيتين (٢) .

وروى أنها أنشدته قصيدتها التى مطلعها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار

حتى انتهت إلى قولها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وإن صخرا لمولانا وسيدنا وإن صخرا إذا نَشْتُو لنحّار

فقال لها : لولا أن أبا بصير — يريد الأعشى — أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة . فغضب حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ومن جدك (٣) .

ويظهر أن حساناً أراد فيما بعد أن يهون من حكم النابغة ، فقد روى عنه قوله : جئت نابغة بنى ذبيان فوجدت الخنساء حين قامت من عنده ، فأنشدته ، فقال إنك لشاعر وإن أخت بنى سليم لبكاءة (٤) .

---

(١) نفسية المراهق ٤٦ رياض عسكر (٢) الشعر والشعراء ١/٣٠٢ شاكر (٣) الأغاني ٩/١٥٦ و٨/١٨٨ وبلاغات النساء ١٦٩ وفى الشعر والشعراء ٣٠٢ طبعة شاكر أن حسانا غضب هذه الغضبة لما فضل النابغة الأعشى عليه . ومن معاني المثانة موضع الولد من الأنثى (٤) الأغاني ٤/١٦٧

وقد اعترف بعض القدماء للخنساء بإجادة الرثاء، واعترفوا بقدرة بعض النساء.

يقول أبو العباس: كانت الخنساء وليلى بائنتين فى أشعارهما، متقدمتين لأكثر الفحول، ورب امرأة تتقدم فى صناعة، وقلما يكون ذلك. ثم ذكر أن الجاحظ كان يحضر ذهنه، ويجمع نفسه حين تحدثه هاشمية جارية حمدونة، مخافة أن تورد عليه مالا يفهمه، لبعد غورها واقتدارها. وكان بشار يقول: لم تقل امرأة شعراً إلا تبين الضعف فيه. فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال: تلك كان لها أربع[1] خصى. وقد ذكر ثعلب بيتاً لها فيما سماه الأبيات الغُرّ واحدها أغرّ، وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه، وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته — وهو:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وذكر لليلى الأخيلية بيتاً هو:

قوم رباط الخيل حول بيوتهم وأسنة زرق يُخَلْنَ نجوما[2]

وبعد. فإن رثاء المرأة لابنها وزوجها وأبيها وأخيها وقومها «دليل على سمو خلقها وعلو مكانتها عند العرب فى الجاهلية، لأنها فى نظرهم جديرة برثاء الموتى والإشادة بفضلهم[3]».

---

(١) تهذيب الكامل ٢/١٩٠ (٢) قواعد الشعر لثعلب ٣١

(٣) Nicholson P. 89

التحميس على القتال وعلى الثأر

١ — عاش العرب فى حروب تتوالد، وغارات تتوالى، فكثر فيهم القتل والجرح والأسر والغنم، وطبعى أن يَجِدَ المهزوم على هازمه، وكانت نار موجدته لا تنطفىء إلا بأن يثأر لنفسه. لهذا كان العرب كلفين بالثأر أيما كلف، يحرمون اللذات من خمر ونساء وطيب حتى يدركوا وترهم وإن كان الواتر قريباً.

وكانت النساء دائبات على إشعال الحفيظة للثأر، وكن لا يفترن عن تذكير الرجال به، وحضهم عليه بوسائل شتى. ولعل الرجال لم يكونوا بحاجة إلى هذا الحض، وإنما أرادت النساء أن يشركوهم فى التلهف على إدراك الثأر والتشوف لغسل الدم ومحو العار، لأن المنفعل فى حاجة إلى أن يشعر بمشاركة غيره له فى انفعاله، ولا تشذ عواطف العداوة عن هذا، « فنحن نحرص الحرص كله على استمالة الآخرين إلينا فى غضبنا وفى كراهيتنا، ولا ترضى هاتان العاطفتان إلا إذا قام حكم غيرنا على صدق الدافع إلى الغضب والكراهية، ونحن لا نمل البرهنة على وجاهة الأسباب التى دفعت إلى البغض أو الكراهية، ومعنى هذا أننا لا نمل من محاولة إقناع الآخرين بأنه لابد أن يشعروا بما نشعر [1] ».

٢ — وقد قلن شعراً فى التحريض على الحرب وتشجيع المقاتلين كما سبق فى الحرب. وقلن شعراً يحرضن به على الثأر كما سبق فى المرأة والثأر.

وكن يزدرين الدية وقابل الدية، تقول امرأة من ضبة لقومها: ارفضوا الدية، وأذيقوا خصومكم سلاحكم، فإن لم تفعلوا وتثأروا فلا حلبت نوقكم لبناً:

ألا لا تأخـذوا لبناً ولكن ... أذيقوا قومكم حد السلاح
فإن لم تثـأروا عمـرا بزيد ... فلا درّتْ لبـونُ بنى رَباح [2]

وقد حرضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدية قومها على الثأر لأخيها عبد الله حين هم أخوها عمرو بقبول الدية، أو حين توهمت أنه سيقبلها، فتحدثت بلسان القتيل مهتاجة حميتهم، ناهية عن قبول الدية وعن طاعة عمرو، منددة بهم إن لم يثأروا، مشبهة إياهم بالنعام فى جبنه وفراره، ثم قالت لهم: وحينئذ أنتم أذل الناس، فلا تردوا الماء إلا بعد أن تفرغ طوائف الرجال، والنساء الطاهرات ثم الحيّض:

---

(١) مقدمة فى علم النفس الاجتماعى ٢٢٨ (٢) حماسة البحترى ٣٣

وأرسل عبد الله إذ حان يومه ... إلى قومه لا تعقلوا لهمُ دمى
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكُراً ... وأنزل فى بيت بصَعْدَةَ مُظْلِم
ودع عنك عمرا إن عمرا مسالم ... وهل بطنُ عمرو غيرُ شبر لمطعم ؟
فإن أنتم لم تثأروا واتَّدَيْتُمُ ... فشُلُّوا بآذان النعام المصَلَّم
ولا تَرِدُوا إلا فُضول نسائكم ... إذا ارتملَتْ أعقابهن من الدم (١)

وبمثل ذلك حرضت بنت حكيم العبدية قومها (٢) .

وكثيراً ما حرضت الخنساء على الثأر لأخيها صخر كقولها :

ولن أسالم قوما كنتَ حربهم ... حتى تعود بياضا جُؤْنَةُ القار
لا نوم حتى تعود الخيل عابسة ... يَنْبُذْنَ طَرْحاً بمُهْرات وأمهار
أو تَحْفِزوا حفْزَةً والموت مكتنع ... عند البيوت حُصَيْناً وابنَ سيّار
فتغسلوا عنكمُ عارا يجلّلكم ... غَسْلَ العوارك حيضا بعد أطهار (٣)

ولقد كان تحريضها مستجابا دائماً ، لأنه صادف هوى من نفوس الثائرين ، ولأنه حث من المرأة على الشجاعة وهى طبيعة فى العرب ، ثم هم تواقون إلى أن يحققوا أمل المرأة فى شجاعتهم . فلقد حرضت كنزة أم شملة بن برد المنقرى ولدها شملة على الثأر بقولها : إنى واثقة من شجاعة ابنى وثأره من خصومنا ، فاستجاب لها وثأر :

إن يك ظنى صادقا وهو صادقى ... بشَمْلَةَ يحبسهمْ بها مَحْبساً أزْلا
فيا شمل شُمّرْ واطلب القوم بالذى ... أُصِبْتَ ولا تقبل منهم قِصاصاً ولا عَقْلا

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ١/١١٧ وحماسة البحترى ٣٠ والأمالى ٢/٢٢٦ قال التبريزى: «مشوا أى امشوا ، ومن روى مشوا بضم الميم فمعناه امسحوا . والمعنى إن لم تقتلوا قاتلى وقبلتم ديتى فامشوا أذلاء بآذان مجدعة كآذان النعام . ووصف النعام بالمصلم تصغيراً لها وإن كانت خلقة . يقول كأنكم مما تعيرون ليست لكم آذان تسمعون بها فامشوا صماً عما يتكلم به الناس من عيبكم . وفى لسان العرب رواية بفتح الميم ورواية بضمها . قال : والظليم مصلم الأذنين وصفا بذلك لصغرها وقصرها . فاذا أطلق على الناس فإنما يراد به الذليل المهان (اللسان مادة صلم ومش) ولاشك أن فتح الميم أولى

(٢) حماسة البحترى ٣٥ (٣) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطعنوا . مكتنع : دان . حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار المريين . العوارك : الحوائض

وقالت أيضاً :

لهفى على القوم الذين تجمعوا بذى السِّيد لم يلقوا عليا ولا عمرا
فإن يك ظنى صادقى وهو صادقى بشملة يحبسهم بها محبساً وعرا[1]

وإذا ما هزم قومها قرعتهم ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة بن مكدّم جمعَ غامد وحده :

ألا هل أتاها على نأيها بما فُضِحَتْ قومَها غامدُ
تمنيتم مائتى فارس فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيول ضأناً لها حالبٌ قاعد[2]

ولقد تهدد أعداءها وتتوعدهم بالغارة ، كقول امرأة من بنى عامر :

وحربٍ يضج القوم من نَفَيانها ضجيج الجِمال الجِلَّةِ الدَّبِرات
سيتركها قوم ويَصْلَى بحرها بنو نسوة للثكل مصطبرات
فإن يك ظنى صادقا وهو صادقى بكم وبأحلام لكم صَفرات
تُعدْ فيكم جَزْرَ الجزور رماحُنا ويمسكن بالأكباد منكسرات[3]

ولقد تشيد بمن يشفى حنقها فيثأر لها ، كما شادت الخنساء بقيس بن عامر الجشمى إذ قتل هاشم بن حرملة الذى قتل أخاها معاوية ، فمدحته وفدته بنفسها وبأعزائها جميعاً وببنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ، وذلك لأنه أقرّ عينها فذاقت النوم بعد الأرق الطويل :

فدًى للفارس الجُشَمى نفسى أُفَدِّيه بمنْ لى من حَمِيمِ
أفديه بكل بنى سُلَيْمٍ بظاعنهم وبالأَنَس المقيمِ
كما من هاشم أقررتَ عينى وكانت لا تنامُ ولا تنيم
خصصتُ بها أخا الأمرار قيسا فتى فى بيت مكرمة كريم[4]

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١١٨ . أزلا : سجناً دائما . لاتقبل قصاصا : لاتقبل واحداً بواحد. العقل : الدية . السيد : اسم موضع (٢) البيان والتبيين ١/٢٠٨ (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٣٢ وأشعار النساء للمرزبانى . نفيانها : المراد ما يتطاير من دمائها . الجلة : المسنة . الدبرات : جمع دبرة وهى التى بها قرحة . أحلام صفرات : عقول ضعيفة وهذا تهديد لهم وتوعد . تقول إن صدق ظنى فى فساد عقولكم وعدتم لما نكره عادت رماحنا تقتلكم فى سرعة وتصيب مقاتلكم وأكبادكم .
(٤) ديوان الخنساء ٢٣١ وبلاغات النساء ١٦٧ والأغانى ١٣/١٤٠ ولسان العرب ١٦/٧٨

وكن يشتفين بالثأر ، ويجدن فيه تضميدا لجراحهن . تقول الخنساء لعامر الجشمى :

كما من هاشم أقررتَ عينى وكانت لا تنام ولا تنيم[1]

وتتحدث صفية بنت الخَرِع عن حَبْرتها بقتل عبد يغوث ثأرا للنعمان بن جَسَّاس :

لقد أخذنا شفاء النفس لو شُفِيَتْ وما قتلنا به إلا امرأ دونه[2]

وكذلك تتحدث خِرْنِق إذ نكل قومها ببنى أسد ، وثأروا لزوجها بِشْر :

فقد قُطِعَتْ رءوس بنى قُعَيْن وقد نُقِعَتْ صدور من شراب[3]

٣ — أما الرجال فكانوا يتهددون الأعداء بالثأر لايدعون غيرهم إليه غالباً ، بَيْنا كانت النساء فى الغالب محرضات لرجالهن محمسات ، يكلن إليهم تحقيق الثأر ، لأنهم عليه أقدر . فمثلا يقول المهلهل فى رثاء كليب :

خذ العهد الأكيد علىّ عمرى بتركى كلّ ما حوت الديار
وهجرى الغانيات وشرب كأسٍ ولُبْسى جُبَّةً لا تستعار
ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليلَ النهار
وإلا أن تبيد سراة بكر فلا يَبْقَى لها أبداً أثار[4]

فهو يحرم على نفسه كل طيب ، ويهجر الغوانى والخمر ، ولا يغير ملبسه ، ولا يخلع درعه أو يلقى سيفه حتى يثأر ثأراً يشفى .

ويقول دريد بن الصمة :

شُلَّتْ يمينى ولم أشرب معتّقةً إن أخطأ الموت أسماءَ بنَ زِئْباع

وكان عصمة بن حدرة اليربوعى قد نذر ألا يطعم لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يمس امرأة ، ولا يغتسل حتى يقتل من بنى عبس سبعين رجلا بابن عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكننى من عبس ساغ شرابى وشفيتُ نفسى
وكنت لا أقرب طُهْرَ عِرْسى وكنت لا أشرب فضل الكأس
ولا أشد بالوِخاف رأسى[5]

---

(١) الديوان ٢٣١ (٢) الأغاني ١٥/٧٣ (٣) ديوان الخرنق ٧ مخطوط
(٤) أخبار المراقسة وأشعارهم ٤٩ وشعراء النصرانية ١٦٤ (٥) معجم الشعراء للمرزباني ٢٧٤
الوخاف : الخطمى يغسل به الرأس

وهذا الاتجاه كثير فى شعر الرجال مثل امرىء القيس (١) ، وتأبط شراً (٢) ، والمثلّم ابن عمرو والتنوخى (٣) ، وزيادة الحارثى (٤) .

الهجاء

١ — كان الهجاء فناً شعريا عظيم القيمة والخطر فى الحياة الجاهلية ، لأنه حرب لسانية لابد منها مع حرب الرمح والسنان ، تسبقها آنا وتمهد لها ، وتصاحبها آنا فتؤجج أوارها ، وتلحقها حيناً فتزيد الخزاية والنكال . وقد كان إلقاء الهجاء يصحب أحياناً بمظهر خاص للشاعر ينبىء عن الشر والغضب ، كأن يجمع شعر رأسه فى ناحية ، أو يدلى عباءته فى غير اتساق وانتظام ، أو ينتعل قدماً واحدة ويترك الأخرى . كما فعل لبيد بن ربيعة العامرى حين هجا الربيع بن زياد العبسى فى مجلس النعمان بن المنذر (٥) .

وكذلك كان الهجاء عند الأمم الأخرى عظيم الأثر أيضاً ، حتى لقد تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تتلخص فى كلمة الهجاء La Satire ، وهذه الكلمة لا تثير فى أذهاننا نحن المتحضرين غير فكرة أنه تمرين أدبى عدا عليه الزمن بعض الشىء ، ولكنه كان فى وقت ما يتقمصه ساحر ، وكانت لعنته فادحة تصيب من توجه إليهم ، ونحن نعرف ما كان لأهاجى أرشيلوك من نتائج . فهذا العاشق المطرود قد استطاع بقصائده الهجائية أن يلقى اليأس فى قلب والد معشوقته وأن يقوده إلى الانتحار . وأقسى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها . ورواة هذه القصة يحكونها على أنها أسطورة تشيد بموهبة أرشيلوك لا بخلقه ، ولكن ليس من العدل أن نعتقد ذلك ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها ، فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على لكمبيس L'yeambés و نيوبوليه Néobule إذ قذفهما بلعنة سحرية لم يستطيعا منها خلاصاً . وأن الشاعر الهجاء لم ينفصل عن الساحر الآثم إلا فى العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . وقد ظل الناس فى كثير من الأقطار حيناً طويلا لا يميزون بينهما (٦) .

(١) الديوان ١٥٢ وشعراء النصرانية ٩٣ (٢) شرح التبريزى للحماسة ٢/ ١٦٠
(٣) المؤتلف والمختلف ١٨١ وشرح التبريزى للحماسة ٢/ ١٨ (٤) شرح التبريزى ١/ ١٣٠
(٥) أمالى المرتضى ١/ ١٣٥ (٦) اللغة . ج فندريس ٢٣٨ ترجمة الدواخلى والقصاص

ولكن لم يرد عن العرب أنهم أضفوا على الشاعر الهجاء خصائص الساحر أو خصائص الكاهن كما ذهب نيكلسون فى قوله « وكانوا يعتقدون أن الهجاء الذى يوجهه الشاعر للأعداء شديد الأثر والخطورة ، وكان لقوافيه التى تشبه بالرماح الأثر الذى للّعنة التى يرسلها نبى أو قسيس ملهم (١) .

٢ — وقد شاركت النساء فى الهجاء على ندرة وإيجاز ، وتخلف قاص عن الرجال . وكان الباعث عليه إما ردّا على مثله ، وإما ضيقاً بعمل ، أو بغضة لشخص .

فمثلا لما خطب دريد بن الصمة الخنساء ، ورفضته قائلة : ما كنت لأدع بنى عمى وهم مثل عوالى الرماح وأتزوج شيخاً ، سخط عليها وهجاها بقوله :

وقاك الله يا بنـــة آل عمرو ... من الفتيان أشـــباهى ونفسى
وقالت إننى شيخ كبير ... وما نبأتُها أنى ابن أمس
فلا تلدى ولا ينكحْك مثـلى ... إذا ما ليـــلةٌ طرقتْ بنحس
تريد شرَنْبَثَ القدمين شَثْناً ... يباشر بالعشيّة كل كِـــرْسِ

فأجابته بقولها :

معـاذ الله ينكحنى حَـبرْكَى ... قصير الشِّبْر من جُشَمَ بن بكر
يرى شرفا ومكرمة أتاهـا ... إذا أغْذَى الجليسَ جَريمَ تَمْر
ولو أصـبحتُ فى جُشَم هدِيّاً ... إذاً أصبحتُ فى دَنَس وفقر
قُبَيِّـلَةٌ إذا سمعوا بذعـر ... تَخَفَّى جمعُهم فى كل جحر (٢)

فرمته بضعف الجسد ، وبطء المشية ، والشيخوخة ، وبالبخل ، وذمت قبيلته بالجبن . وفى الأغانى رواية أخرى (٣) أنها رفضته وقالت لأبيها :

أتخطبنى هبلتَ على دريد ... وقد أطْرَدْتُ سيد آل بدر

معاذ الله . . . . . الأبيات

---

(١) Nicholson P. 78

(٢) الديوان ١٢٠ والأغانى ١٣/١٣٠ ولسان العرب ١٢/٢٩ طرقت بنحس : جاءت بظلمة وغبرة والمراد إذا حدثت حرب . شرنبث : غليظ . شثنا : غليظ الكفين أو الأصابع . الكرس : البعر والبول المتجمد . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيفهما يكاد يكون مقعدا . القصير الشبر : المتقارب الخطو . جريم تمر : تمر يابس (٣) الأغاني ٩/١١

وفى الديوان أنها قالت هذا القول لأخيها معاوية وكان يريد أن يكرهها على زواج دريد[١]. ولكنى أرجح أن دريداً هو الذى بدأها بالهجاء، وأوثر الرواية الأولى لأبى الفرج، لأن دريداً قد تغزل فيها وتمناها فكان حسبها أن تقنع برده ورفضه، وليس هناك باعث على الهجاء، فلما هجاها هجته. ثم إنها كانت لا تهجو إلا من يستحق هجاءها، رُوى أن حساناً قال لها يوماً: اهجى قيس بن الخطيم. فقالت: لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه. فجاءته فوجدته فى مَشْرفة ملتفاً فى كساء، فنخسته برجلها، وقالت: قم، فقام، فقالت: أدبر، فأدبر، ثم قالت: أقبل، فأقبل، وكأنها تعرض عبداً تشتريه، ثم عاد إلى حاله نائماً، فقالت: والله لا أهجو هذا أبداً[٢]. وهذه الرواية على ما فيها من مبالغة تكشف عن طبيعة الخنساء أنها كانت لا تبدأ بالهجوم، ولا تهجو إلا من يستحق هجاءها.

وقد استشاط حزن دختنوس على أبيها لقيط بن زرارة إذ قتل فى يوم شعب جبلة، وكان لواء الرباب ذلك اليوم مع رجل من أشراف الرباب يقال له النعمان بن قهوس التميمى، وكان من فرسان العرب، ففر وترك لقيطاً فقتل، فهجته دختنوس بقولها:

فرّ ابن قَهْوسٍ الشجا ع بكفه رمح مِتَلّ
يَعْدُو به خاظِى البضيع كأنه سِمْعٌ أَزَلّ
إنك من تيم فدع غطفان إن ساروا وحلوا
لا منك عِدُّهم ولا آباك إن هلكوا وذلوا
فخرَ البغىّ بحدْج ربّتها إذا الناس استقلوا
لا حِدْجها ركبتْ ولا لرَغالِ فيه مُسْتَظَلّ
ولقد رأيتُ أباك وسْط القوم يَبْزُو أو يَجُلّ
متقلّداً رِبْقَ الفُرا ر كأنه فى الجيد غُل[٣]

فتهكمت به إذ وصفته بالشجاعة، وهجته بالجبن والفرار السريع، ثم حقرت من شأنه بأنه من تيم فلا يجدر أن يلتحق بغطفان، وقالت له إن فخسره وفخر قومه بغطفان كالأمة

---

(١) الديوان ١١٩ (٢) الأغانى ٣/١٠ الدار

(٣) الأغاني ١٠/٣٤ ساسى وسمط اللآلى ٢/٨٣٥ والنقائض ٦٥٦ (روى البيت: ولا لرغال فيه مستظل). متل: مستقيم قوى منتصب. خاظى البضيع: مكتنز. السمع: ولد الذئب من الضبع ويزعمون أنه فى عدوه أسرع من الطير. أزل: أرسح سريع خفيف الوركين. رغال: الأمة. يبزو: يبرز عجزه أو ينحنى ظهره. الربق: حبل البهم. الفرار: الخرفان والحملان. يجل: يلقط البعر بيده

التى تفخر بسيدتها لا بنفسها ، ثم عيرته حقارة أبيه فقالت : إنها رأته جباناً يخضع ويخنع ، ويجمع البعر ، وإنه لا يصلح إلا لرعى الغنم حين يضع حبالها فى عنقه كالغل ، فهو عبد حقير.

وكذلك هجت الخرنق عبد عمرو بن بشر حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند فقتله [١] ، ومن هجائها قولها :

ألا ثكلتك أمك عبدَ عمرو ... أبا لخَزَيات واخيتَ الملوكا
هم ركلوك للوركين ركْلا ... ولو سألوك أعطيت البُروكا
فيوما عنـــد زانية هَلُوك ... كصلِّ الرَّجْع مِزْهَرُها ضحوكا [٢]

فهى تدعو عليه بالحتف ، وتعجب من منادمته عمرو بن هند وهو موصوم بالخزى ، وتحقر من شأنه بأن الملوك نبذوه وحقروه ورضى عن ذلك ، ولو أنهم سألوه أعز ما يملك لقدمه زلفى إليهم وخنوعا ، ثم تطعن أخلاقه بقولها إنه حلس مومسات يغشاهن ويسمع الغناء عندهن ، وتهجوه مرة أخرى فتذكره بجبنه عن الثأر :

أرى عبد عمرو قد أساط ابنَ عمه ... وأنضجه فى غَلْى قِدْر وما يدرى
فهلّا ابن حساس قتلتَ ومعبداً ... هما تركاك لا تَرِيش ولا تَبْرى
هما طعنا مولاك فى عِطْف صُلْبه ... وأقبلتَ ما تلوى على مَحْجَر تجرى [٣]

وكذلك هجت عاصية بنت عبد العزى الطائى بنى محارب [٤] .

ولقد تهجو المرأة من يخالفها فى دينها ، كما هجت هند بنت عتبة رملة بنت شيبة بن ربيعة لما تزوجها عثمان بن عفان وهاجرت معه ، فعابت عليها إسلامها ، واتباعها دين من قتلوا أباها [٥] ، وكما هجت المسلمين والإسلام عَصْماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد فقال النبى : « ألا آخذ لى من ابنة مروان ؟ » فسرى إليها عُمَيْر بن عدى الخطمى فقتلها [٦] .

ولقد كان المرتقب من المرأة أن تكثر هجاء ضرتها أو ضراتها ، لأن العداوة بين الضرائر متأصلة متفاقمة ، ولكن لم يرد من هذا الضرب إلا قليل ، ولعلها كانت تقنع بالكيد ، والإغارة ، والنظرات الشزر ، والكلمات المرة ، والحركات الساخرة .

---

(١) ديوان الخرنق ٤ مخطوط (٢) جمهرة أشعار العرب ٤٣ . البروك : الإبل البارکة . صل : حية . الرجع : الغدير (٣) ديوان الخرنق مخطوط . ابن حساس ومعبد : رجلان غلباه . لا تريش ولا تبرى : كناية عن خذلانه وضعفه . عطف : جانب . محجر : موضع منخفض ذو ماء ومرعى .
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٥٦/٤ (٥) الاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة ٣٢ مخطوط
(٦) سيرة ابن هشام ٣١٣/٤

ثم هى تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضرتها ، وأن زوجها يؤثر ضرتها عليها ، لذلك لا تهجوها حتى لا تكشف عن موجدتها ، أما سكوتها فإنه يؤول على أنها حظية عند زوجها ، وأنها لا تحفل بضرتها ، وهذا من مكر النساء .

ومن هذا الهجاء ما قالت امرأة فى هجاء أخرى قد خطبها زوجها :

لاخارَ ربى لأبى الفصـــيلِ
ولا وقاه عثـــرة الذُّلول
بَدَّل منى أخبث البـــديل
هَوْجاء مَقَّاء كشبْه الغول
تحمل رِدْفاً واســـع الفضول
مثـل إهاب المِنْحَة المَنْجُول
يَبيتُ فيه الذئبُ أو يقيل (١)

ولقد تحقد على زوجة ابنها فتهجوها ، وهجاؤها هنا كسابقه مقصور على تقبيح المنظر والذم بالدمامة ، وبسوء الأخلاق .

من ذلك أن هند بنت عُصْم الدوسية حقدت على امرأة ابنها يزيد فشكتها إلى زوجها فى هجاء مر يتناول أعز ما تفخر به المرأة : الجمال والأخلاق .

أيزيدُ قـد لاقيتُ منكرة عجلَتْ بأمك مُدْخَلَ القبر
هَوْجاء جاهلة إذا نطقت ليست كعابا بيضة الخدْر
ســـوداء ما تنفك مُتْأقةً ملأى مُضَبِّيةً على جَمْر (٢)

وأحياناً كان الشر يحتدم بين المرأة وزوجها فتقليه وتهجوه ، لأنه أثارها وهاجها ، كما نشزت أم الصريح بنت أوس الكندية على أبى الصريح الكلبى فقالت :

كأن الدار يوم تكون فيها علينـــا حفـرة ملئت دخاناً

---

(١) بلاغات النساء لطيفور . الذلول : الجمل الطيع . بديل : خلف وفى الأصل البدول وهو تحريف . هوجاء : حمقاء . مقاء : عارية من اللحم . ردفا : كانت فى الأصل رفقا وهو تحريف . الإهاب المنجدل : المشقوق عن العرقوبين إلى الرأس ثم يسلخ . المنحة : الناقة أو الشاة الحلوب كانت فى الأصل (الميحة) وهو تحريف (٢) بلاغات النساء ١٠٠ متأقة : مملوءة بالشر والغضب . مضبية على جمر : ممسكة به تريد أنها شريرة مؤذية .

فليتك فى سفين بنى عباد طريدا لا نراك ولا ترانا
وليتك غائب بالهند عنا وليت لنا صديقاً فاقتنانا
ولو أن النذور تكف منه لقد أهديتها مائة هجانا (١)

وكذلك فعلت أم الأسود، وحذرت النساء أن يتزجن مثل زوجها الجبان البخيل (٢)

٣ — وقد بقيت المرأة تمارس الهجاء فى الإسلام كما مارسته فى الجاهلية، فقد هجا أبو وَجْزة زوجته زينب بنت عُرْفُطة فهجته فى صدر الإسلام (٣)، و هجا عبدالله بن أوفى الخزاعى امرأته وهجته (٤)، وهجت حُمَيْدة بنت النعمان بن بشير أزواجها. ويظهر أن حميدة هذه كانت كَلِفَةً بالهجاء، فقد هجت زوجها الأول الحارث بن خالد بن العاص بن هشام (٥)، وزوجها الثانى رَوْح بن زنباع (٦)، وزوجها الثالث الفَيْض بن محمد بن الحكم (٧). ويدل على ذلك أنها ولدت من الثالث — الفيض بن محمد بن الحكم — ابنة تزوجها الحجاج ابن يوسف، فقدمت على ابنتها زائرة، فقال لها الحجاج: ياحميدة إنى كنت أحتمل مزاحك مرة، وأما اليوم فإنى بالعراق، وهم قوم سوء فإياك. فقالت: سأكفُّ حتى أرحل (٨)، وحميدة فى هجائها لم تخرج على سنن الجاهلية من حيث الذم الجسدى كقولها فى زوجها الحارث:

نكحتُ المدينى إذ جاءنى فيالك من نكْحة غاويه
كُهول دمشق وشبانها أحبُّ إلينا من الجاليه
صُنَانٌ لهم كصنان التيو س أعيا على المسك والغاليه (٩)

فرد عليها بمثل هجائها:

قاطنات الحُجون أشهى إلى قلبى من ساكنات دمشق
يتضوَّعن لو تضمخن بالمسك صُنانا كأنه ريح مِرْق (١٠)

وهجت زوجها روح بن زنباع بقولها:

وهل أنا إلا مهرة عربية سليلة أفراس تجللها بغل

---

(١) بلاغات النساء ١١٨ (٢) بلاغات النساء ١٠٠ (٣) الأغانى ١١/٧٦
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤٢. (٥) الأغاني ٨/١٣٢ (٦) سمط اللآلى ١/١٧٩ـ١٨٠ والأغاني ٨/١٣٣ والاستبصار ورقة ١٢٦ مخطوط (٧) الأغاني ٨/١٣٥ وسمط اللآلى ١/١٨٠
(٨) الأغاني ٨/١٣٥ (٩) الأغاني ٨/١٣٢ الجالية: أهل الحجاز لأنهم كانوا يجلون عن بلادهم إلى الشام (١٠) الأغانى ٨/١٣٢ المرق: بفتح الميم الإهاب المنتن وبكسرها الصوف المنتن.

فإن أنتجت مهراً كريماً فبالحرَى وإن يك إقرافٌ فما أنجب الفحل[1]

٤ — وقد اتسم هجاؤهن بالعفة فى الجاهلية وفى الإسلام ، ففى العصر الإسلامى أفحش النابغة الجعدى — وكان شاعراً قد عمر فى الجاهلية طويلا وأدرك الإسلام وعمر فيه أيضاً — فى هجاء ليلى الأخيلية فردت عليه فى غير إفحاش شديد[2] .

والذى لحظته أن هجاءهن فى الإسلام كهجائهن فى الجاهلية مقصور على الزراية بالجسد أكثر من الزراية بالأخلاق والطباع ، كقول زوجة قتادة بن مُغْرب فى هجائه : إن فمه قبيح ، وإن ريحه منتنة ، حتى لقد أتلفت هذه الرائحة أنفها وصماخَىْ أذنيها :

حلفتُ — ولم أكذب وإلا فكل ما ملكتُ لبيت الله أهديه حافيه
لو أن المنايا أعرضتْ لاقتحمتُها مخافة فِيهِ إن فِيهِ لداهيه
فما جيفة الخنزير عند ابن مُغْرِبٍ قتادةَ إلا ريح مسك وغاليه
فكيف اصطبارى يا قتادة بعد ما شممتُ الذى من فيك أثْأَى صماخَيه[3]

٥ — وهن لم يبرعن فى الهجاء براعة الرجال ، لأنه لون من التهجم والتطاول ، ومضغ الأعراض ، والسفه ، يجافى الأنوثة وينافى الحياء ، ولأن الرجال يبلون فيه أعظم البلاء ، فالقبيلة تعتد شاعرها أو شعراءها لسانها البتار لعداتها ، المكافح عن مفاخرها ، المنافح عن حسبها وسؤددها ، يبلغونها ما تبلغها السيوف والرماح ، ولا طاقة للمرأة أن تنيل القبيلة مثل ذلك . ثم إن الرجال كانوا حماة للنساء ينشئونهن فى الدعة والنعمة والحلية والرفه ، ويتخذونهن ثمراً حلوا لا شوكا وقتاداً ، فمن الطبيعى أن يبعدوهن عن مضايق الهجاء ومحرجاته . على أن النساء كن يشعرن أنهن لسن قديرات على الهجاء ومقارعة الشعراء قدرة الرجال ، يدل على ذلك أنه لما هجا جرير بنى مجاشع وعيّرهم ما حل بأعيَن بن ضبيعة والد زوجة الفرزدق اغتم نساؤهم ، — وكان الفرزدق قد حج وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً وأن يقيد نفسه ولا يحل قيده حتى يحفظ القرآن — فأتين الفرزدق فقلن له : قبح الله قيدك ، فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلُحيتَ شاعر قوم ، فاحفظْنه ، ففض قيده ، وهجا جريرا[4] .

---

(١) الأغانى ٨/١٣٤ وسمط اللآلى ١/١٧٩ وبلاغات النساء ٩٦ والعقد الفريد ٤/١٦٩ وأخبار النساء ٥٣ بغل : صوابه فى رأى ابن سيده . نغل وهو الخسيس الدنىء من الناس والدواب تريد الفرس الهجين . إقراف : هجنة من جهة الأب لا الأم (٢) الأغانى ٥/١٦ وسمط اللآلى ١/٢٨٢ ولسان العرب مادة ذلغ (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤٢ أثأى : أفسد . (٤) النقائض ١٢٥ وطبقات الشعراء تحقيق شاكر ٣٢٧

اما فى العصر العباسى فقد أفحشن فى هجائهن ، تأثراً بالترف وانحلال الأخلاق وضعف الشهامة العربية ، وكانت الإماء رائدات الفحش والخلاعة بالقول والعمل ، مثل عَريب[1]. وكذلك أفحشن فى الأندلس فى أواخر الحكم العربى [2]

الفخر

كان فخر العرب بشجاعتهم وكرمهم وفضائلهم يدوى فى بلادهم دوياً ، وكثيراً ما اقترن فخرهم بهجاء أعدائهم .

وكان الشاعر حينما يفخر يعدد مناقب قومه ، لأن الفرد يعتز بالقبيلة لا بشخصه ، ومجد القبيلة مجده ، على أن الشعراء أحياناً كانوا يختصون أنفسهم ببعض الفخار .

١ — وقد افتخرت النساء أيضاً ، ولكن فخرهن لم يكن بأنفسهن وإنما كان إشادة بقبائلهن وأقاربهن .

فالخنساء تفخر بقومها فى مجال الرثاء :

وأفنى رجالى فبادوا معا ... فأصبح قلبى لهم مُسْتَفَزّا
لذكر الذين هم فى الهيا ... ج للمستضيف إذا خاف عَزّا
كأن لم يكونوا حِمًى يُتّقَى ... إذ الناس من عَزّ بَزّا
وكانوا سَراة بنى مالك ... وزين العشيرة مجداً وعزا
هم منعوا جارهم والنسا ... ء يحفز أحشاءَها الموتُ حفزا
غداة لقوم بَمَلْمومة ... طحون يغادرن فى الأرض وَكْزا
ببيض الصفاح وسمر الرماح ... فبالبيض ضربا وبالسمر وَخْزا
وخيل تكدّس بالدارعين ... وتحت العَجاجة يَجْمِزْنَ جَمْزا
جززنا نواصى فرسانهم ... وكانوا يظنون أن لن تُجَزّا
نَعِفُّ ونعرف حق القرَى ... ونتخذ الحمد مجداً وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد ... ونلبس فى الأمن خَزّاً وقَزّا [3]

---

(١) الأغانى ١٨/١٨٠ (٢) نفح الطيب ٢/٥٦٣ و٥٦٤ و٦٣٣ طبعة أوربا ونزهة الجلساء ٣٨ و ٤٢ و٤٣ مخطوط . ونزهة الأبصار والأسماع ١٢ (٣) ديوان الخنساء ١٤٣ . من عز بز : من غلب سلب . ملمومة : كتيبة مجتمعة . طحون : تطحن كل شىء . تجمز : تعدو .

والخرنق تفخر بقومها أيضاً فى مجال الرثاء :

لا يبعـــدَنْ قومى الذين هم سم العـــداة وآفة الجُـزُر
النـازلون بكل معـــترك والطيبون معـاقد الأزُر (١)

وتفخر ببلائهم فى التنكيل ببنى أسد فى مجال رثائها لزوجها بشر :

ألا لا تفخرنْ أســـدٌ علينـا بيوم كان حَيْناً فى الكتاب
فقـد قُطعَتْ رءوس بنى قُعَيْن وقد نُقعَتْ صدور من شراب
وأردينـا ابن حَسْحاس فأضحى تجول بشلْوه نُجُس الذئاب (٢)

وتقول أيضاً فى هجاء بنى أسد بالجبن والهلع من لقاء قومها :

سمعتْ بنو أسدَ الصـياح فزادها عنـد اللقـاء مع النفـار نفـارا
ورأت فوارس من صُلَيْبةِ وائـل صـبروا إذا نقع السنـابك ثارا
بيضا يحزِّزن العظـام كأنمـا يوقدن فى حَلَقَ المغـافر نارا (٣)

وتفخر بزوجها أيضا (٤) .

وكذلك فخرت عاتكة بنت عبد المطلب بقومها ، فنوهت بشجاعتهم وبلائهم :

ســائل بنـا فى قومنـا وليكف من شرٍّ سماعُه
قيسا وما جمعـوا لنـا فى مجمع باق شـناعه
فيه السَّـنَوَّرُ والْقنـا والكبشُ ملتمعٌ قِنـاعه
بعكاظ يُعْشَـى النـاظريـن إذا هم لمحوا شـعاعُه
فيـه قتلنـا مالـكا قَسْراً وأسـلمه رِعاعُه
ومُجـدَّلاً غادرْنَـه بالقـاع تَنْهَسُـه ضِباعه (٥)

---

(١) ديوان الخرنق ١٠ (٢) ديوان الخرنق ٧ مخطوط . كان حيناً فى الكتاب : كان مقضياً . ابن حسحاس : رجل من أسد . الشلو : العضو . بنو قعين : من بنى أسد (٣) الديوان ٧ صليبة وائل : من نسله . بيضاً : سيوفا مجلوة . يحززن : يقطعن . المغافر : ج مغفر ما يلبس على الرأس من زرد ليقيه (٤) الديوان ١٩ (٥) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٣٠ السنور : الدرع . الرعاع : سفلة الناس أو الجبناء . مجدلا غادرنه : غادرت الخيل مجدلا . تنهسه : تنهشه

ولقد تفخر الشاعرة بأمها دفاعا عنها ، من ذلك أن أم زينب بنت فروة بن سنان كانت أمة فارسية ، فنوهت زينب بحسبها :

إن ابنة الدهقان كسرى تنوولت ... بطعن الكماة واختلاس المعابل
ولم تختطف أمى على غير ثلة ... ولم تختطف إلا بطعن المقاتل
من اللابسات الربط زهراء لم تبت ... تحش مع الأمى وقد المراجل
ولم ير فى أفناء مرة مثلها ... ولا عند قيس من غنيمة قافل (١)

٢ — وفخرهن على قلته وضعفه ليس فيه من الأنوثة شىء ، كالعفة والجمال والرقة وحلاوة الحديث وإسعاد الزوج ورعاية الأولاد وتدبير البيت ، وإنما هو فخر بالرجال وأعمالهم . ولعل مرد ذلك إلى استحيائها من الفخار بهذه المميزات . وليس معنى مباهاتها بالرجال أنها كانت ذليلة القدر مسلوبة الشخصية ، وإنما معناه أنهم حماتها وأسنادها ، فهى تشعر بالعز والمنعة وعلو القدر فى كنفهم وظلهم إذا كانوا أعزة ، كما يفخر أحدنا بوطنه أو معهده أو أبيه .

ولم تختلف الإسلاميات عن الجاهليات فى شىء ، فمثلا تمزج ليلى الأخيلية بعض الفخر بهجائها للنابغة الجعدى ، فتباهى بعزة قومها :

لنا تامك دون السماء وأصله ... مقيم طوال الدهر لم يتحلحلا
وما كان مجد فى أناس علمته ... من الناس إلا مجدنا كان أولا (٢)

٣ — أما فخر الرجال فقد كان فيه ضرب من الفخر بالقبيلة كلها حسبها وعددها وثرائها وبطولتها وظفرها ومنعتها ، وضرب من الفخر الشخصى الفردى .

يمثل النوع الأول قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

---

(١) بلاغات النساء ١٨٢ . المعابل : نصال السهام والمراد السهام . ثلة : جماعة . تحش : توقد . الأمى : الغبى الجلف الجافى والمراد العبد . وقد المراجل : نارها . غنيمة قافل : راجع من الحرب بالغنائم
(٢) أشعار النساء للمرزبانى ٤ مخطوط وبلاغات النساء ١٧٠ تامك : سنام والمراد مجد عال .

متى ننقل إلى قوم رحانا ... يكونوا فى اللقاء لها طحينا
وأنا المانعون لما يلينا ... إذا ما البيض زايلت الجفونا
وأنا المنعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا أُتينا
وأنا الشاربون الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدِراً وطينا (١)

. . . . . .

وقول لبيد .

إنا إذا التقت المجامع لم يزل ... منا لِزَازُ عظيمة جَشَّامُها
ومُقَسِّمٌ يعطى العشيرة حقها ... ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هَضَّامُها (٢)

وقول أمية بن أبى الصلت :

بأنا النازلون بكل ثغر ... وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المانعون إذا أردنا ... وأنا المقبلون إذا دُعينا
وأنا الحاملون إذا أناخت ... خطوبٌ فى العشيرة تبتلينا
وأنا الرافعون على مَعَدٍّ ... أَكُفّاً فى المكارم ما بقينا (٣)

ويتمثل الضرب الثانى فى الزهو باللذات والكرم والبطولة فى قول عنترة :

ولقد شربتُ من المُدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمَشُوف المُعْلَمِ
فإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ ... مالى وعرضى وافرٌ لم يُكْلَمِ
وإذا صحوت فما أقصِّر عن ندًى ... وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

. . . . . .

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمَّم
يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثُغرة وجهه ... ولبانه حتى تسربل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعَبْرة وتحمحم

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى (٢) جمهرة أشعار العرب ١١٥ لزاز : قرن . جشامها : متحمل لها . مغذمر : يأخذ من هذا ويعطى هذا ويدع ذاك . هضامها : مناحها (٣) الجمهرة ١٨٩

لو كان يدوى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مُكلِّمى (١)

وكقول طرفة :

إذا القوم قالوا من فتىً خلت أننى ... عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى ... وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد

وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى ... إلى ذروة البيت الرفيع المصَمَّد

. . . . . .

أنا الرجل الضَّرْبُ الذى تعرفونه ... خشاشٌ كرأس الحية المتوقد (٢)

المـــــدح

١ — ليس لهن فى المدح نصيب ، لأن بواعثه كانت محبوسة على الرجال ، سواء فى ذلك المدح المنبعث عن إعجاب ، أو عن رغبة فى الحِباء . ثم إن مدح المرأة للرجل مما يعاف ، ولكن جاء فى شعرهن قليل من المدح ، كمدح الخنساء لأبيها وأخيها حين استبقا على الخيل ، وهو أدخل فى الفخار بهما من المدح :

جارى أباه فأقبلا وهما ... يتعاوران مُلاءَةَ الحُضْر

حتى إذا نزت القلوب رقد ... لزّتْ هناك العُذْر بالعذْر

وعلا هتاف النـاس أيهما ... قال المجيب هناك : لا أدرى

برزَتْ صحيفةُ وجه والده ... ومضى على غُلَوائه يَجْرى

أَوْلَى فأولى أن يساويه ... لولا جلالُ السن والكِبْر

وهما وقد برزا كأنهما ... صقران قد خطا على وَكْر (٣)

وهذا مأزق حرج أبدعت فيه الخنساء ، لأنها مدحت أباها وأخاها معا ، وبينت إكرام الابن لأبيه ، وإعزازه لقدره ، وجعلت تقديم الولد لأبيه فى السبق معرفة بحقه وتقديراً لمكانته وسنه .

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى وديوان عنترة . المشوف المعلم : الكأس أو الدينار المجلو المنقوش

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى وديوان طرفة . الضرب . الخفيف . خشاش : ماض . متوقد : ذكى (٣) ديوان الخنساء ١٣٦ وأمالى المرتضى ١/٦٧ وزهر الآداب ٣/٢٣٩ . يتعاوران ملاءة الحضر : يصير غبار الجرى كثوب يلبسه هذا مرة وذاك مرة . الحضر : العدو والسباق . نزت القلوب : تاقت لمعرفة السابق . لزت العذر بالعذر : قرن عنان السابق بعنان المسبوق . أولى : كان الابن أهلا لأن يجارى أباه فيسبقه لولا أنه امتنع أنفة ولأبيه عليه فضل السن والقدر .

وقد قيل لأبي عبيدة : ليست هذه الأبيات فى مجموع شعر الخنساء ، فقال : العامة أسقط من أن يجاد عليها بمثل ذلك [١] .

وراقت هذه الصورة فيما بعد الكميت ، فحاكاها فى مدحه مخلد بن يزيد بن المهلب :

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه ... أحدٌ ومثلك طالبا لم يَلْحَق
تتجاذبان ، له فضيلة سنه ... وتلوتَ بعد مصلّياً لم تَسْبُق
إن تنزعا وله فضيلة سنه ... فبمثل شأو أبيك لم يُتَعَلَّق
ولقد لحقتَ به على ما قد مضى ... من بُعْدِ غايته فأحْجِ وأخْلق [٢]

ثم نسج على منوالها المؤمل بن أميل الكوفى المحاربى فى مدح المهدى :

لئن فت الملوك وقد توافوا ... إليك من السهولة والوعور
لقد فات الملوك أبوك حتى ... بقوا من بين كابٍ أو حسير
وجئت وراءه تمشى حثيثاً ... وما بك حيث تجرى من فتور
وقال الناس ما من ذين إلا ... بمنزلة الخليق من الجدير
فإن سبق الكبير فأهل سبق ... له فضل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مدى كبير ... فقد خلق الصغير من الكبير [٣]

٢ — وفى الإسلام نابت بنت لبيد عن أبيها فى مدح أمير الكوفة الوليد بن عقبة وشكره ، ذلك بأن لبيدا كان قد آلى فى الجاهلية أن يطعم ما هبت الصّبا ، ثم واصل ذلك فى إسلامه ، فلما نزل الكوفة وأميرها الوليد بن عقبة إذ هبت الصبا والأمير يخطب الناس ، فقال : قد علمتم حال أخيكم أبى عقيل ، وما جعل على نفسه أن يطعم ما هبت الصبا ، وقد هبت فأعينوه . ثم بعث إليه بمائة من الجزُر واعتذر إليه بقوله :

أرى الجزار يشحذ شَفْرتيه ... إذا هبت رياح أبى عَقيل
أشم الأنف أصيد عامرى ... طويل الباع كالسيف الصقيل
وَفَى ابن الجعفرى بما نواه ... على العلات والمال القليل
يُذكّى الكومَ ما هبت عليه ... رياح صَبًا تَجاوبُ بالأصيل

---

(١) أمالى المرتضى ٦٧/١ (٢) أمالى المرتضى ٦٨/١ (٣) أمالى المرتضى ٦٨/١

فلما وصلت الجُزُر والشِّعر إلى لبيد قال : إنى تركت الشعر منذ قرأت القرآن ، وإنى ما أعيا بجواب شاعر . ودعا ابنة له فقال : أجيبيه عنى ، فقالت :

إذا هبت رياح أبى عَقيـــل ... دعونا عند هَبَّتِهـــا الوليدا
أشم الأنف أَصْيَدَ عَبْشَمياً ... أعان على مروءته لبيـــدا
بأمثال الهِضاب كأن رَكْباً ... عليها من بنى حام قُعُودا
أبا وَهْب جزاك الله خيرا ... نحرناها وأطعمنا الوُفُودا
فعد إن الكريم له مَعَاد ... وظنِّى بابن أَرْوَى أن يعودا

فقال لبيد : أجبت وأحسنت لولا أنك سألت فى شعرك . قالت : إنه أمير وليس بسوقة ، ولا بأس بسؤاله ، ولو كان غيره ما سألناه . قال لبيد : أجل [1] .

بعد هذا يتبين أن مدح المرأة على ندرته موجز خاطف لا تفصيل فيه ، ولا توليد لمعانيه .

الحنين إلى الوطن

١ — حب الوطن طبيعة راسخة فى كل نفس . ولقد يطوِّف الإنسان ما يطوف ، ويغترب ما يغترب ، ويشهد ما يشهد من ضروب الجمال فى غير وطنه ، ولكن نفسه دائماً تنازعه إلى مسقط رأسه ، وعواطفه تهوى إلى وكره الذى منه خرج ، وفى ملاعبه لَهَا ودرج . ويظهر أن للصحراء سحراً خاصاً — على جدبها وشظفها — يجتذب أهلها إلى ألا يَرِيموا عنها ، ولا يَتَحَلْحَلُوا منها ، بل إن سحرها ليجتذب العارفين بها من غير سكانها ، وقد صور هذه المشاعر الرحالة أحمد حسنين فى رحلته اللوبية . وللجاحظ رسالة حافلة بحب الأعراب لباديتهم والحضريين لأوطانهم نساء ورجالا يقول فيها : « وترى الأعراب تحن إلى البلد الجدب ، والمَحَلِّ القفر ، والحجر الصَّلْد ، وتستوخم الريف [2] » .

بل لقد بلغ من حب العرب لديارهم أنهم كانوا إذا رحلوا للغزو أو للنجعة حملوا معهم من تربة الدار رملا وعَفرا (ترابا) يستنشقونه عند نزلة أو زكام أو صداع . يقول شاعر من بنى ضبة .

نسير على علم بكُنْه مسيرنا ... بعُفَّةِ زاد فى بطون المزاود

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٨ (٢) رسالة الحنين إلى الأوطان ٨

ولا بد فى أسفارنا من قَبيصة من الترب نُسْقاها لحُبِّ الموالد(١)

كانت المرأة والرجل سواء فى الحنين إلى الوطن ، يقول عمرو بن قميئة لما خرج مع امرىء القيس إلى قيصر(٢) ، وقد حنت ابنته إلى وطنها إذ شطت بها النوى فبكت ، وتذكرت آلها :

قد سألتنى بنت عمر عن ال أرض التى تُنْكرُ أعلامَها
لما رأت ساتيدما استعبرت لله دَرُّ اليوم من لامها
تذكرتْ أرضاً بها أهلها أخوالَها فيها وأعمامَها(٣)

٢ — وقد أسلفت فى باب الزواج أن المرأة كثيراً ما كانت تتوجس من الزيجة فى غربة ، لأنها تؤثر أن تقضى حياتها بين قومها وفى وطنها .

ولكن ما كل ما يطلب المرء يناله ، فلا بد من أن تغترب أحياناً ، فهى اذاً تشتاق إلى وطنها ، وتنفس عن نفسها بشعرها ، فمثلا تحن هند بنت عُصْم السدوسية إلى بلادها وهى عند ربيعة بن غزالة الكندى ، وتصور حنينها فى أن الماء الذى تشرب منه لا يبل أوامها ، وتود لو جاءها أحد بشربة من ماء وطنها لتعطيه أربعاً من وطن زوجها ، ثم تقول إنها تشتعل شوقا إلى ديار أهلها ومسقط رأسها ، ويزيد شوقها اشتعالا أنها بائسة من أوبة قريبة :

ألا لا أرى ماء المَصَبِّح شافياً نفوسا إلى أمواهِ بَقْعاءَ نُزَّعا
فمَنْ جاء من ماء السِّبال بشَرْبة فإن له من ماء لِينةَ أربعَا
وقد زادنى وَجْداً ببَقْعاء أننى رأيت مطايانا بلينة ظُلَّعا(٤)

وهى تعجب ممن يلومها فى شوقها إلى وطنها ، بل إن الملامة لتزيدها ولوعا به ، وما ذنبها فى أن تكلف بأرض عشيرتها وتقلى غيرها ؟

وإنها لتتمنى أن تقدر الريح على نقل نجواها ، وتلطف وتظرف فى تمنيها أن تبلغ الريح تحياتها ، وفى دعائها لها بالخير ، راجية ألا تمس بتحيتها الثرى ، وإنها لحفية بالريح الشمالية تسائلها عن قومها أيقتربون ومتى يقتربون ؟

قال وجيهة بنت أوس الضبية :

وعاذلة تغدو علىّ تلومنى على الشوق لم تَمْحُ الصبابةَ من قلبى

---

(١) رسالة الحنين إلى الأوطان ١٢ العفة : بقية اللبن فى الضرع والمراد القليل من الزاد . قبيصة : قبضة وحفنة (٢) الأغاني ١٦/١٥٨ (٣) معجم البلدان ٥/٥ ساتيدما : جبل بين ميافارقين وسعرت (٤) بلاغات النساء ١٠٦ المصبح ، بقعاء ، السيال ، لينة : أسماء مواضع . ظلع : المراد مقيمة

فمالى إن أحببت أرض عشيرتى وأبغضت طَرْفاء القُصَيْبَةِ من ذنب
فلو أن ريحاً بلّغت وَحْىَ مُرْسِلٍ حَفِيٍّ لناجيتُ الجنُوبَ على النَّقْب
فقلت لها : أدّى إليهم رسالتى ولا تخلطيها طال سَعْدُك بالتُّرْب
فإنى إذا هبت شمالاً سألتها هل ازاداد صُدّاحُ النُّمَيْرَةِ من قُرْب؟(١)

وكذلك حنت أم موسى بنت سدرة الكلابية (٢) وامرأة من غطفان (٣) .

ولقد يعقد شوقها إلى وطنها صلة وجدانية بينها وبين الجمل الغريب الذى يحن إلى مرابعه ، كما حدث لامرأة من أبان زوجت فى كلب ، فنظرت إلى بكر من ديارها فرأته يحن إلى وطنه فقالت :

ألا أيها البكر الأَبَانِىُّ إننى وإياك فى كَلْب لمغتربان
تَحِنُّ وأبكى ذا الهوى لصبابة وإنا على البَلْوَى لمصطحبان
وإن زمانا أيها البكر ضمّنى وإياك فى كلب لشرُّ زمان (٤)

وسأبين فى الغزل أن بعض الحنين إلى الوطن غزل مستور ، وحنين إلى حبيب نازح لا طاقة للمرأة أن تبوح به .

٣ — وقد لازمها وفاؤها لوطنها وحبها لديارها إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فإن ميسون بنت بحدل الكلابية لما زفت من بادية كلب إلى معاوية بن أبى سفيان لم تطق حياة الحضر ، وتشوقت للبادية بقولها :

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيه أحبُّ إلىَّ من قصر مُنيف
وأصوات الرياح بكل فجٍّ أحب إلىَّ من نَقْر الدُّفوف
وكلب ينبح الأبياتَ دونى أحب إلى من هرٍّ أليف
ولُبْسُ عَباءة وتقرّ عينى أحب إلى من لبس الشُّفوف
وخِرْقٌ من بنى عمى نحيف أحب إلى من عِلْجٍ عَليف (٥)

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ٤/١٨٧ ومعجم البلدان ٧/١١٥ . طرفاء القصيبة : شجر بهذا الموضع . حفى : مهتم معتن ملح فى السؤال . النقب : الطريق فى الجبل . هبت شمالا : هبت الريح شمالا والظاهر أنها كانت تهب من ناحية قومها مستقبلة ديار زوجها . صداح : المراد بهم أهل وناس لأن الصدح الصوت . النميرة : هضبة بين نجد والبصرة بعد الدهناء (٣) بلاغات النساء ١٩٦ ومعجم البلدان ٣/٢٢٣ و٨/٥١٦
(٣) معجم البلدان ١/١٦٩ (٤) الحنين للأوطان للجاحظ ٢٢ (٥) حماسة الخالديين ٢٣٢ مخطوط . بكر : فتى من الإبل . صعب : لم يركب . الشفوف : جمع شف وهو الثوب الرقيق . خرق : سخى ظريف حسن الخليقة . علج : حمار أو حمار وحش . عليف : مطعوم لا يعمل

وقد حدث عبد الله بن إسحق الجعفرى قال : أمرت بملء صهريج لى فى بستان عليه نخل مُطلّ ، وذهبت بأم حسانة المرية وابنتها — زوجتى — فلما نظرت أم حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت رجليها فى الماء ، فقلت لها : ألا تطوفين معنا على هذا النخل لنجنى ما طاب من ثمره ؟ فقالت : هاهنا أعجب إلىّ .

فدرنا ساعة وتركناها ، ثم انصرفنا وهى تخضخض رجليها فى الماء وتحرك شفتيها ، فقلت: ياأم حسانة لا أحسبك إلا قد قلت شعراً ، قالت: أجل ثم أنشدتنى :

أقول لأدنى صاحبىّ أُسرُّه ... وللعين دمع يُحْدِرُ الكحلَ ساكبه

لعمرى لنِعْمَ باللِّوى نازح القَذَى ... نقىُّ النواحى غيرُ طَرْق مشاربه

أحبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... للَعْب ولم تَمْلُحْ لدىّ ملاعبه

فياحبذا نجد وطيب هوائه ... إذا أهضبته بالعشىّ هواضبه

وريح صَبا نجد إذا ما تنسمت ... ضُحًى وسرَتْ جنحَ الظلام جنائبه

فأقسم لا أنساه ما دمت حية ... وما دام ليل من نهار يُعاقبه

ولا زال هذا القلب مَسْقَى لوعة ... بذكراه حتى يترك الماءَ شاربه [1]

الغزل

كانت لهوات الشعراء تتجاوب بالغزل فى كل صقع من أصقاع الجزيرة ، ينفسون به عن حب مبرح ، وحرمان ممض ، وشوق لهيف ، أو يفتنّون فى وصف مفاتن النساء الجسدية والنفسية ، ويصرحون بما نالوا من لذات ومتع .

ولقد كان الخلىّ يحاكى الشجىّ أحياناً فيتغزل ، وهؤلاء وأولئك خلفوا من الشعر الغزل ثروة عظيمة تنبىء عن تقدير العرب للمرأة ، وخضوعهم لسلطان الجمال والحب . ولم يكن من محض المصادفة أن بدئت المعلقات ومشهورات القصائد بالغزل وبكاء أطلال المحبوبة .

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/٣٦٥ ورسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٠ نهى : غدير . الطرق : الماء الذى خاضته الإبل وبالت فيه وبعرت : أهضبته الهواضب : فاضت عليه السحب فى غزارة . جنائب : رياح الجنوب

وما من شك فى أن المرأة كالرجل تحب ، وتتشوق ، وتتذكر ، وتتمنى ، وإذا كانت شاعرة فإن المتوقع أن تتغنى حبها فى شعر تزجيه العاطفة كما يتغنى الرجل . ولكن هذا الشعر الذى كنا نرتقبه كثيراً غزيراً لم نمسك منه إلا نادراً قليلا ، كأنه خُلس الدهر أو فلتات اللسان .

كتمان المرأة

وليس تعليل ذلك بعسير ، لأن النساء مطبوعات على الاستحياء من الجهر بحبهن ، مجبولات على كتمان الهوى المعتلج بقلوبهن ، بينما يحب الرجل فلا يطيق أن يحتبس حبه ، فيعبر عن مشاعره بقصيد يقرضه ، أو لحن ينشده ، أو تمثال ينحته ، أو غناء يردده ، ويطير به خياله كل مطير ، فيملأ الدنيا غزلا . ولقد يَفْتَنُ فيتغزل غزلا روحياً يصور محبوبته ملكا ، وتارة يتغزل غزلا حسّيا يصور جمالها ويكشف عن بِدْعها .

أما المرأة فتحب ولكنها تسرّ عاطفتها ، وتجن مشاعرها ، وتحبس حبها فى صدرها ، على أنها ليست أقل من الرجل حباً . لذلك تعمد أحياناً إلى السحر والرقى لاجتذابه ، وتتجمل وتتزين وتتمنع لاختلابه .

وحب الرجال يمتاز بأنه سافر ناطق ، وحب المرأة يمتاز بأنه محجب صامت ، ثم إن المرأة مطلوبة مرغوبة ، فهى إذاً قديرة على كتمان عاطفتها ، لأن مقاليد الحب بيدها لا بيد الرجل .

وقليلا ما يغلبها الحب فتبوح ، لأن الرجل أغراها بوعوده ، وسحرها بنشيده ، وفكّ عقدة لسانها ببلاغته ، أو لأنها ضاقت بما تجد ، فنبست بكلمة أو تخففت من ثقل الحب بأبيات من الشعر ، ولكن هذا نادر نزر .

« والمرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك ، وتبغض يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها . والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك ، وإن أحب يوماً واحداً شهدت جوارحه [1] »

وهذا طبيعى لأن إظهار المرأة بغضها لا عيب فيه ولا لوم .

---

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٧٩

لذلك كانت مية على حق فى قولها — وقد سئلت بعد موت قابوس : ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته ؟ — : منعنى من ذلك خوف العار وشماتة الجار ، ولقد كان بقلبى منه أكثر مما كان بقلبه ، غير أنى وجدت ستره أبقى لما فى الصدور من المودة ، وأحمد للعاقبة .

وكذلك كانت عفراء ، فقد هالها ما نزل بعروة ، فكادت تبوح بسرها ، فقيل لها : أما عندك له حيلة تخفف ما به ؟ فقالت: والله لأنا أسرّ بذلك وأشوق إليه منه ، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار . (١)

وإذا كانت مية وعفراء تُجنّان حبهما مخافة العار واستطالة الألسنة ، فإن عفراء بنت أحمر كانت تكتم حبها عِزّةً وتجلداً وترفعا عن أن تتهم بما لا يليق بالأنثى . ذلك أنه قيل لها ما كان يضرك لو روحت عن قلب الحارث بن الشريد وأجبته بزَورة ؟ فقالت : منعنى من ذاك قولكن عفراء قد صَبَتْ إلى الحارث (٢).

لذلك أقل الشعراء الجاهليون والإسلاميون من تصوير الحبيبات يبادلنهم حباً بحب فى صراحة وجلاء ، وأعتقد أن الذوق العربى كان ينفر من التصريح بذلك ، لأن العرب حراص على إظهار المرأة بمظهر البخيلة الممنّعة البعيدة المنال .

يدل على ذلك قول السُليك بن السُّلكة إن قلبه يعاف المرأة المتهالكة الجواد بوصلها ، ويعلق بالممنعة التى لا تحوم حولها ريبة :

من الخَفرات لم تفضح أخاها ... ولم ترفع لوالدها شَناراً
يعاف وصال ذات البذْل قلبى ... وأتبع المُمنَّعة النَّوارا (٣)

وقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

تُسْمعُ الحدّاثَ قولاً حسناً ... لو أرادوا غيره لم يُستَمَع (٤)

وقول كعب بن رواع :

ويخالها المرح السفيه تحبه ... وتوَالُها غيرَ الحديث بعيد (٥)

---

(١) أخبار النساء لابن القيم ٣٥ (٢) أخبار النساء ٢٦
(٣) الأغاني ٤/٣٦٤ النوار : النفور من الريبة (٤) المفضليات ١/١٩٠
(٥) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٢٨

وقول قيس بن الحدادية :

وقد جاورتنا فى شهور كثيرة فما نوّلت والله راءٍ وسامع [١]

وقد صور رجل من بنى أسد تصوّن محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يطلب ولا يحتفظ به ، ولا يمس عفتها فى شىء :

وإنى لأرجو الوصل منك كما رجا صَدِى الجَوْفِ مرتاداً كُداه صَلُود

وكيف طلابى وصل من لو سألته قَذى العين لم يُطْلبْ وذاك زهيد

ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لى أراك صحيحاً والفؤاد جليد [٢]

وهذا الضرب كثير فى شعر الشعراء [٣] .

وإذا كان هذا هو الذوق العربى العام فقد وجدوا فى تصوير المرأة طالبة للرجل أو متهالكة عليه غضا من أنوثتها وحيائها ، واستطالة من الرجل ، وزهوا بنفسه ، لأنه إذا يتغزل فى شخصه لا فى حبيبته .

ولم يخرج على هذا الذوق العربى إلا عمر بن ربيعة فى الإسلام ، وقد أكثر من هذا كقوله .

قالت لِتُرْبٍ لها تحدثها لَنُفْسدَنَّ الطواف فى عمر

قومى تصدّى له ليعرفنى ثم اغمزيه يا أخت فى خَفَر

قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسْبَطَرَّتْ تَسْعَى على أثرى [٤]

وكرر مثل ذلك [٥] .

ولكن هذا كان مستهجنا منه ، حتى لقد قال له كثيِّر : لقد أسأت وقلت الهجر ، ولو أنك وصفت بهذا هرة أهلك لكنت قد أسأت إليها ، وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع [٦] .

---

(١) الأغانى ٦/١٣ (٢) شرح التبريزى للحماسة ١٩٠/٣ ومعجم البلدان ٣٩٦/٦ . الجوف : المطمئن من الأرض . كداه : ج كدية : الأرض الغليظة . مرتاداً : طالباً منصوب على الحال . صلود : قليلة الماء . أى أرجو وصلك رجاء العطشان الطالب للماء من أرض لا تبض بالماء . ولو أني سألتك قذى من عينك لبخلت به (٣) الأعشى (الديوان ١٠٤) والشنفرى (الأغاني ٩١/٢١ والمفضليات ١٠٦/١) وأوس ابن حجر (الديوان ١٤) وحاتم (الأغاني ١٥٩/١٥) وثعلبة بن صعير (المفضليات ١٢٦/١) وكعب بن زهير (حماسة البحترى ٨٣) وعلقمة (ديوان علقمة ٦)

(٤) الأغاني ١٧٠/١ و١٠٤ وفى رواية ثم اسبطرت تشتد فى أثرى .

(٥) الأغانى ٩٢/١ و٩٤ و١١١ و١١٩ (٦) الأغانى ١١٩/١

وقال له ابن عتبة لما أنشده أبياتا منها .

قالت الصغرى وقد تيمتُها ... قد عرفناه وهل يَخْفى القمر ؟

أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغى أن تقول قلت لها فقالت لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه (١) .

صور من غزلها

تغزلت المرأة على ندرة وقلة ، وكان غزلها يبدو فى مظاهر :

١ — تبوح بالحب والشوق وإن لقيت نكالا .

من ذلك أن رجلا من بنى عقيل تزوج امرأة من قبيلته ، دخل يوما وهى تتمثل ببيت غزل ، فقال لها : ماهذا الذى تتمثلين به ؟ لعلك عاشقة . قالت : لا . ولكن أبيات حضرتنى . فقال : لئن سمعتك تعودين إلى مثل هذا لأوجعن ظهرك وبطنك . فأنشأت تقول :

فإن تضربوا ظهرى وبطنى كليهما ... فليس لقلب بين جنبىّ ضارب

يقولون عزِّى النفس عمن تَوَدُّه ... وكيف عزاء النفس والشوق غالب

فطلقها (٢) .

وكانت امرأة من لخم اسمها سعدى تهوى ابن عم لها يقال له عيسى ، فلما خشى أهلها الفضيحة قالوا لها : إن نطقت فيه بشعر قطعنا لسانك . فقالت :

خليلىّ إن أصعدتما أو هبطتما ... بلادا هوى نفسى بها فاذكرانيا

ولا تَدَعَا إن لامنى ثمَّ لائمٌ ... على سَخَط الواشين أن تعذرانيا

فقد شَفَّ جسمى بعد طول تجلدى ... أحاديثُ من عيسى تشيب النواصيا

سأرعى لعيسى الودَّ ما هبت الصَّبا ... وإن قطعوا فى ذاك عمداً لسانيا (٣)

وباحت امرأة من خثعم بحبها لكعب بن طارق الشجاع الباسل :

فإن تسألونى من أحبُّ فإننى ... أحب وبيتِ الله كعبَ بن طارق

أحب الفتى الجَعْدَ السَّبُولىَّ ناضلا ... على الناس معتاداً لضرب المَفَارق (٤)

---

(١) الأغانى ١١٩/١ (٢) أشعار النساء للمرزباني ورقة ١٨ مخطوط . عزى : صبرى . تود : الضمير عائد على النفس (٣) أخبار النساء لابن قيم ٣٤

(٤) الحيوان للجاحظ ٥٤/٣ هارون

٢ — تصور شوقها ولهفتها إلى الحبيب ، كقول فارعة بنت ثابت فى عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومى ، أو قول خولة بنت ثابت فى عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى :

يا خليلى نابنى سهدى ... لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما ... أشتكى مابى إلى أحد
كيف تَلْحُونى على رجل ... آنسٍ تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته ... ليس بالزِّميلة النَّكد
من بنى آل المغيرة لا ... خامل نِكْس ولا جَحد
نظرت يوما فلا نظرت ... بعده عينى إلى أحد (١)

ولقد تبتلى بالطلاق من زوجها الذى تحب ، فلا تفتأ تتشوق إليه ، كزينب بنت فروة المرية ، كانت عند ابن عم لها اسمه المغيرة ، فجرى بينهما نزاع فطلقها ، فقالت :

يا أيها الراكب الغادى مطيته ... عَرِّجْ أُنَبِّيك عن بعض الذى أجد
ما عالج الناسُ من وجد ومن كمد ... إلا ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبى رضاه وأنّى فى مسرته ... ووده آخر الأيام أجتهد (٢)

ومثلها أم الضحاك المحاربية كانت تحت رجل من الضّباب ، وكانت تحبه حبا شديدا فطلقها فقالت :

هل القلب إن لاقى الضَّبابىَّ خالياً ... لدى الركن أو عند الصَّفا متحرّج ؟
وأعجَلَنا قرب المحلِّ وبيننا ... حديث كتنشيج المريضين مُزْعِج
حديث لو ان اللحم يُصْلَى بحرّه ... طريًّا أتى أصحابه وهو مُنْضَج (٣)

ولها فيه شعر آخر ، وسلوان (٤) .

وليس هذا بغريب من امرأة تحب زوجها حبا عنيفاً ، فهى لا تستطيب الحياة فى بعده ، أو هجره ، كما قالت أخرى :

---

(١) الأغانى ٣/٣٣ ويرى الزبير بن بكار أن الشعر لابن زهير المخنث . الزميلة : الجبان الضعيف . نكد : شؤم عسر . جحد : بخيل (٢) أخبار النساء ٣٥ والأمالى ٢/٨٧
(٣) الأمالى ٢/٨٦ وزهر الآداب ٤/٨٠ (٤) الأمالى ٢/٨٧ وزهر الآداب ٤ /٨٠

وما أحس الدنيا وفى الدار خالد وأقبحها لما تجهّز غازياً [١]

٣ — وإذا ما نكث بعهده أو اتهمته بالغدر مظلوما قَرَّعَتْهُ وودّت له التعاسة ، فقد كان بين رجل من عقيل اسمه صخر وابنة عم له حب ولقاء ومواثيق ، ثم زوجه أبوه غيرها على كره منه ، فمرض ، وكانت ليلى أشد به وجداً وحباً ، فأرسلت إليه جاريتها لتقول له :

تَعْساً لمن بغير ذنب يَصْرِمُ قد كنت يا صخرُ ، زمانا تزعم

أنك مشغوف بنا متيَّم حتى بدا منك لنا المَجْمَجم [٢]

٤ — ولقد تسترحبها ، فتتجه بغزلها إلى الحنين لوطنها ، كما سبق فى حنين هند بنت عصم السدوسية ، وحنين وجيهة بنت أوس الضبية ، وكما فى قول امرأة من أبان كانت متزوجة فى كلب ، ورأت يوما جملا من ديارها ، وأحست أنه يحن إلى وطنه ، فجاوبته حنيناً بحنين كما سبق .

وكذلك صبغت أسماء المرية صاحبة عامر بن الطفيل حنينها إلى حبيبها بصبغة الشوق إلى الوطن :

أيا جَبَلَىْ وادى عُرَيْعِرَةَ التى نأت عن ثوى قومى وحُمَّ قدومها

ألا خليا مجرى الجنوب لعله يداوى فؤادى من جواه نسيمها

وكيف تداوى الريح شوقا مماطلا وعيناً طويلا بالدموع سُجومها

وقولا لركبان تميمية غدت إلى البيت ترجو أن تُحَطَّ جُرومها

بأن بأكناف الرُّغام غريبة مولَّهة ثكلى طويلا نَئيمها

مقطعة أحشاؤها من جوى الهوى وتبريح شوق عاكف ما يَرِيمها [٣]

٥ — ثم كثر غزل النساء فى الإسلام ، وفاض فى العصر العباسى ، تأثرا بالحضارة والنعمة ، وضعف الأخلاق البدوية ، حتى لنجد فى غزل بعضهن تكسرا لا يليق [٤] ، ولكن غزلهن فى القرن الأول للهجرة لا يختلف عن غزلهن فى العصر الجاهلى من حيث مناحيه ومعانيه إلا قليلا ، ومن أمثلته أن أبا بكر رضى الله عنه مرّ فى خلافته بطريق من طرق المدينة ، فسمع جارية تطحن وتنشد :

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/٥٤ هارون

(٢) أخبار النساء ١٠٦ المجمجم : المخفى فى الصدر (٣) الأمالى ٢/١٩٧ حم قدومها : قدر وقضى . نئيمها : صوتها وأنينها . ما يريمها : مايزايلها (٤) فى كتاب السيوطى نزهة الجلساء فى أشعار النساء المخطوط شعر لبعض المحدثات . فيه مجون لم نشهد مثله فى العصر الجاهلى ولا فى القرن الأول

وعشقته من قبل قطع تمائمى متمايسا مثل القضيب الناعم
وكأن نور البدر سُنَّة وجهه يُنمى ويَصعَدُ فى ذؤابة هاشم
وأنا التى لعب الغرام بقلبها فبكت بحُبِّ محمد بن القاسم

فدق عليها الباب ، فخرجت إليه ، فقال : ويلك أحرة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة يا خليفة رسول الله . فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم ابن جعفر بن أبى طالب ، وقال : هؤلاء فِتنُ الرجال (١) .

وقد تغزلت أم خالد الخثعمية فى جَحْوش العُقَيلى ، فدعت لدياره بالسحب الغزار الواكفة ليشرب من مائها جحوش ، وينظر إلى برقها ومطرها بعينيه اللتين تشبهان عينى الصقر ، ثم فدت بنفسها عينى جحوش ، وقميصه ، وأسنانه المجلوة ، وأقسمت أنها قد ولهت به كما ولهت عفراء بعروة ، وقالت إنه مباح لجحوش أن يلج بيتها وأهلها نيام ، وهى لأجله تحب النجديين وتكره الحجازيين :

فليت سِماكيّاً يطير رَبابه يقاد إلى أهل الغضا بزمام
ليشرب منه جَحْوَشٌ ويَشيمَه بعينىْ قطامىٍّ أغرَّ شآمى
بنفسى عينا جحوش وقميصُه وأنيابه اللاتى جلا ببَشام
فأقسم أنى قد وجِدت بجحوش كما وَجَدَتْ عفراء بابن حزام
وما أنا إلا مثلها غير أننى مؤجِّلةٌ نفسى لوقت حِمام
فإن كنتَ من أهل الحجاز فلا تَلجْ وإن كنت نجدياً فلجْ بسلام
رأيتُ لهم سيماء قوم كرهتهم وأهل القضا قوم علىَّ كرام (٢)

فى هذا الغزل إغراق فى الإعجاب بجمال الرجل الجسدى ، واستطابة لزيارته ليلا والأهل هجود .

ومثله قول خَيْرة بنت أبى ضَيْغم البَلَوِيَّة وكانت من أظرف النساء .

فما نطفة من ماء بَهْسٍ عذبةٌ يُمنَّعُ من أيدى الرواة أَرُوحُها
بأطيب من فيه لو انك ذقته إذا ليلة سحَّتْ وغاب نجومها (٣)

---

(١) أخبار النساء ١١٥ سنة وجهه : دائرته أو صورته أو جبهته وجبيناه (٢) الأمالى ٢/١٠ وبلاغات النساء ١٩٤ مع بعض تغيير (٣) بلاغات النساء ٩٧ . بهس : اسم ماء . أروحها : أشمها أو أنالها وأصيبها

ثم إن فى غزل بعضهن لوناً من المبالغة كقول امرأة بدوية ، على شعرها مسحة الإسلام :

فلو أن ما ألقى وما بى من الهوى ... بأرعنَ ركناه صفاً وحديد
تَقَطَّر من وجد وذاب حديده ... وأمسى تراه العين وهو عَميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلة ... أموت وأحيا إنَّ ذا لشديد
مسافة أرض الشام ويحك قربى ... إلينا ابنَ جَوَّاب يزيدَ أريد
فليت ابن جواب من الناس حظنا ... وأن لنار فى النار بعدُ خلود [١]

والأمثلة على غزلهن شتى كغزل الخنساء بنت التَّيحان فى جَحْوش الخفاجى [٢] ، وغزل امرأة عامرية فى حصن [٣] ، وغزل أم فروة الغطفانية [٤] وغزل امرأة من بنى عامر فى مالك [٥] ، وحنين امرأة من بنى عامر إلى كثيب قومها [٦] .

وقد تذكرت عشرقة المحاربية — حين هرمت — ما كان منها فى صباها فقالت إن المحبين والمحبات لم يجربوا من الحب إلا بعض ما جربت :

جربتُ مع العشاق فى حَلْبة الهوى ... ففقتهم سَبْقًا وجئت على رِسْل
فما لبس العشاق من حلل الهوى ... ولا خلعوا إلا الثياب التى أبلى
ولا شربوا كأسامن الحب مُرَّةً ... ولا حُلوة إلا شرابهم فَضْلى [٧]

وكذلك تغزلت عُلَية بنت المهدى [٨] .

---

(١) مجالس ثعلب ١/٨٠ والمنظوم والمنثور لابن طيفور ورقة ٧٣ مخطوط
(٢) بلاغات النساء ١٩٤ ولعله جحوش بن عمرو بن سلمة وقد وفد أبوه على النبى واستقطعه (الأغانى ٢٠/١٦٥) (٣) أشعار النساء للمرزبانى (٤) الحيوان للجاحظ ٣/٥٤ هارون وفى زهر الآداب ١/١٦٧ أنه لعاتكة المرية فى ابن عم لها وفى الأمالى ٣/٨٧ أنه لزينب بنت فروة المرية فى ابن عمها المغيرة (٥) معجم البلدان ٤/١٩٢ (٦) أشعار النساء للمرزبانى (٧) شاعرات العرب ٩١ و١٠٢ (٨) فوات الوفيات ٢/١٠٠

خصائص شعرهن

١ — استبان مما سبق أنهن لم يبرعن إلا فى الرثاء ، لأنه وثيق الصلة بنفوسهن وميلهن ، فهن رقيقات الشعور ، ضعيفات الاحتمال ، سريعات الانفعال ، فياضات العيون ، لا يطقن فقدَ الأحباب ، وهن أشد حزناً وأحدُّ لوعة من الرجال .

وقد قصرن فى الأغراض التى عالجنها ، فلم تدان إحداهن شاعراً فى الغزل أو الحماسة أو الفخر أو الهجاء ، فنحن نذكر الخنساء على أنها قد أجادت الرثاء ، وشأَتْ فيه بعض الرجال وإن تخلفت عن الفحول فى براعة التصوير وقوة الأداء ، ولكنا لا نستطيع أن نجد شاعرة قاربت شاعراً فى فن آخر .

وكان المتوقع أن يبرعن فى أغنيات للأطفال ، لكن حظهن هنا ضئيل أيضاً كما سبق فى فصل الأم .

وليس لهن فى الوصف نصيب ، مع أن الرجال الذين عاشوا معهن فى البيئة نفسها قد جالوا فى الوصف جولات ، فوصفوا الطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية ، والمتحركة ، ولا سيما الخيل والإبل .

وليس مرجع هذا إلى نقص فى الذكاء ، لأن بعض علماء الدراسات النفسية قد خلصوا من تجارب عدة ، إلى أن هناك قدراً مشتركا بين الناس من حاسة الجمال ، وأن هذا القدر فطرى غرزى ولد معنا وليس مكتسباً من تجارب أودربة ، ولايشترط فيه غيراتحاد فى نسبة الذكاء العام بين الأفراد . أى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الذكاء العام ومايَنشأ عليه المرء من إحساس بالجمال . وتفوق إنسان على آخر فى هذه الناحية يتكون فيما بعد بالتجارب الخاصة أو ما يمكن أن يسمى بالدربة والمرانة »[1] .

ثم إنهن لا حظ لهن من المدح كما أسلفت .

٢ — وتمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع ، وقد أسلفت نماذج من شعرهن فى الرثاء وغيره يتبين فيهاصواب هذا الحكم ، فهن قلما أوردن فى رثائهن حكمة ، ولم يقدمن لقصائدهن بمقدمات كما يفعل الشعراء ، من غزل ، وبكاء أطلال ، ووصف للرحلة ، وخطاب للرفيقين الخ .

ولم يجمعن فى شعرهن أفانين عدة من وصف ومدح وفخر كما كان يفعل كثير من الشعراء . ولعل سبب ذلك استغراقهن فى الموضوع الواحد لا يشفعن إليه سواه ، أو أن التعدد فى

(١) موسيقى الشعر ٢ إبراهيم أنيس

القصيدة كان عملا فنياً يعمد إليه الشعراء ويتوخونه ، ولكن النساء لم يبلغن هذه المكانة الفنية .

٣ — وقصائدهن مقطّعات ، فليست لإحدهن مُطَوَّلة . وأطول قصائد الخنساء — وهى زعيمتهن فى طول القصائد أيضاً — قصيدتها التى مطلعها :

ألا يا عين فانهمرى بغَـزْر وفيضى فيضـة من غير نَزْر (١)

أبياتها عشرون بيتاً . وقصيدتها التى مطلعها :

ما هاج حزنك أم بالعين عُوَّار أم ذَرَّفَتْ إذ خَلَتْ من أهلها الدار (٢)

أبياتها خمسة وثلاثون . على أن بعض أبياتها غير مقطوع بنسبها إليها .

وقصيدتها التى مطلعها :

أعينىَّ هلا تبكيان على صخر بدمع حثيث لا بكىءٍ ولا نَزْر (٣)

أبياتها تسعة عشر ، وبعضها غير مقطوع بروايته .

وقصيدتها التى مطلعها :

ألا ما لعينيك أم مالها لقد أخضل الدمع سِرْبالها (٤)

أبياتها سبعة وثلاثون وليست كلها مقطوعاً بروايتها .

على حين تكثر المطولات فى شعر الرجال ، فمثلا قصيدة متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك عدتها واحد وخمسون بيتاً (٥) ، ومرثية أبى ذؤيب الهذلى لبنيه عددها سبعة وستون بيتا (٦) ، ومرثية أبى زيد الطائى للجلاح بن أخته أبياتها ثمانية وخمسون بيتا (٧) .

وللرجال مطولات فى غير الرثاء أيضاً ، فمعلقة امرئ القيس عدتها اثنان وثمانون بيتاً ، ومعلقة طرفة عددها مائة بيت وسبعة ، ومعلقة زهير أبياتها ثلاثة وستون ، ومعلقة لبيد ثمانية وثمانون ، ومعلقة عمرو بن كلثوم مائة وسبعة ، ومعلقة عنترة أربعة وثمانون ، ومثلها مطولة الحارث بن حلزة ، ومدحة الأعشى للأسود بن المنذر أو المنذر ابن الأسود عدتها خمسة وسبعون بيتاً (٨) ، ومدحته لقيس بن معد يكرب أبياتها ثلاثة وثمانون (٩) ، وهجاؤه لعلقمة ستون بيتاً (١٠) ، وهجاؤه لشيبان بن شهاب سبعون بيتاً (١١) .

---

(١) الديوان ٦٧ (٢) الديوان ٧٣ (٣) الديوان ٨٥ (٤) الديوان ٢٠١

(٥) المفضليات ٢/٦٥ وجمهرة أشعار العرب ٢٩٢ والأمالى لليزيدى ١٨ـ٢٥ وحماسة الخالديين ٣٨٧ مخطوط (٦) جمهرة أشعار العرب ٢٦٤ (٧) جمهرة أشعار العرب ٢٨٦ والأمالى لليزيدى ٧ — ١٣ (٨) ديوان الأعشى ٣ (٩) ديوان الأعشى ١٣

(١٠) الديوان ١٠٤ (١١) الديوان ١١١

وقد نسبت إلى النساء مطولات ، لكنها تحمل دلائل وضعها ، مثل المطولة التى نسبت إلى الدعجاء بنت المنتشر بن وهب فى واحد وأربعين بيتاً . ومن أبياتها التى تحمل دليل الوضع .

فبت مكتئبا حَرَّانَ أندبه حتى أتثنى بها الأنباء والخبر

فكلمة مكتئب ، وحران دالتان على أن القائل رجل لا امرأة . على أن فى أسلوبها فحولة الرجال ومعانيهم مثل :

لا تأمنُ البازل الكَوْماء ضربته بالمشرفىِّ إذا ما اخْرَوَّط السَّفرُ

وتَذْعَرُ البُزْلُ منه حين تبصره حتى تَقَطَّعَ فى أعناقها الجِرَرُ

لا يتأرَّى لما فى القدر يرقبه ولا يعض على شُرْسوفه الصَّفرُ (١)

فهذه القصيدة ليست للدعجاء ، إنما هى لأعشى باهلة فى رثاء أخيه لأمه المنتشر ابن وهب (٢) .

فما السر فى قصر قصائدهن ؟

ربما كان مبعث هذا فى الرثاء تعاطى الموضوع الواحد وأن دموعهن وصياحهن وأناتهن تنفس حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر ، فيجدن فيها بعض السلوى فيؤثرنها على على الشعر المطول .

وأما فى شعرهن كله فلأنهن ملولات لا يصبرن على قرض الشعر مدة طويلة ، والقصيدة المطولة تحتاج إلى جهد وصبر وعزيمة كما سيجىء .

٤ — وفى شعرهن صور ، وتعبيرات نسوية ، كقول الخنساء فى رثاء صخر :

وتغشى البصيرَ بطعن أليم وتعطى الجزيل وتحمى الذمارا

فُيلْفَى صريعا يَمُجُّ النجيع كمِرْجل طباخة حين فارا

وهاجرة صاخدٍ حرها جعلتَ رداءك فيها خمارا (٣)

فالتشبيه بمرجل الطباخة حين يفور وتشبيه الرداء بخمار يليقان بالأنثى .

وكقولها فى تحريضها على الثأر لصخر :

---

(١) رياض الأدب فى مراثي شواعر العرب ١١٨ . اخروط : بعد الطريق . الجرر : ج جرة وهى مايسترجعه البعير من بطنه . النوفل : البحر والكثير العطاء . الزفر : الكثير الأهل والعدة . يتأرى : ينتظر . شرسوفه : طرف الضلع . الصفر : دويبة فى البطن (٢) جمهرة أشعار العربي للقرشى ٢٨٠ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٢ والكامل للمبرد ٢/٣٩٠ (٣) ديوان الخنساء ١٠١ و١٠٨

فتغسلوا عنكم عاراً تجللكم غسل العوارك حيضا عند أطهار (١)

وكقولها (أوجعنى الدهر) :

تعرّقنى الدهر نهساً وحزّا وأوجعنى الدهر قرعاً وغمزا (٢)

وكقولها (لهفى) :

لهفى على صخر فإنى أرى له نوافل من معروفه قد تولت

لهفى على صخر لقد كان عصمة لمولاه إذ نعل بمولاه زلت (٣)

وكقولها (ويلى) :

ويلى عليه ويلةً أصبحتُ حصنى منكسر (٤)

وكقول عاصية فى رثاء أخيها عمرو بن عاصية السلمى :

يا لهفى نفسى ضلّةً جزَعا على ابن عاصية المقتول بالوادى (٥)

٥ — وشعرهن ألين من شعر الرجال كثيراً ، سواء فى الرثاء أو فى الفخر أو فى الهجاء أو فى الغزل ، لأن طباعهن رقيقة لا يلائمها اللفظ الحوشى المستكره ، وتعبيرهن صورة من طبعهن ، ولأن الجزالة والفحولة والقوة فى التعبير لا توائم نفسيتهن .

غير أن فى قليل من شعر الخنساء بعض الغريب المستكره الذى لا موسيقية فيه كقولها :

قد راعنى الدهر فبؤسا له بفارس الفرسان والخنْشَليل (٦)

وقولها :

يا عين بكّى فارسا حَسَنَ الطعان على الفرس

يذر الكمىّ مجدّلا تَرِبَ المناخر منْقَعس (٧)

وقولها :

يَغْشَوْن منك غُطَامِطًا جاشت بوابله الرواعد (٨)

وقولها :

فى جوف رمسٍ مقيمٍ قد تضمنه فى رمسه مُقْمَطِرّاتٌ وأحجار (٩)

---

(١) الديوان ١١٧ العوارك : الحوائض . عند أطهار : عند انقطاع الحيض

(٢) أمالى ابن الشجرى ١/٢١٥ والديوان ١٤٣ (٣) الديوان ٢١

(٤) الديوان ١٢٤ (٥) الأغانى ١١/١٥ ساسى (٦) الديوان ١٩٠ ولسان العرب ١٣/٣٣٦ الخنشليل : السريع الماضى والجيد الضرب بالسيف (٧) الديوان ١٥٤ وبعضهم لم يروها للخنساء . منقعس : ملقى على الحضيض (٨) الديوان ٦١ الغطامط : البحر الكثير الماء . الرواعد : السحب ذوات الرعد والمطر (٩) الديوان ٨٣ المقمطرات : الدواهى أو الصخور الصلاب الشداد

٦ — وإذ كانت المرأة بطبعها مولعة بالزينة وبالمظهر الخلاب «وتغرها الظواهر وإن ساء المخبر، فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة الصوغ تقع فى نفسها موقعاً حسنا وإن كانت قليلة القيمة» [١] فإنها قد أكثرت من الترصيع فى الشعر كثرة تسترعى النظر.

(ا) والترصيع ضرب من الإيقاع الصوتى والانسجام الموسيقى «ولسريان النغم فى كل أجزائه أو أكثرها عد أفضل ضروب السجع وأعلاها مرتبة [٢]» لأن التتابع فى الكلمات ورنين مقاطعها يؤلف صورة موسيقية تستجيب النفس لها، وتنسجم مع التنغيم الذى تحدثه، ويطبع الأسلوب بطابع صوتى رنان، فيساير السمع هذا التآلف الموسيقى مدفوعاً بالترقب وانتظار توقيع خاص، وتصحبه فى ذلك حال نفسية من الرضا والإعجاب والاطمئنان وغيرها «هذا إلى أن الأثر السمعى يصحبه أثر جسمى وعضلى، يجعل السامع يشعر بأن وزن الكلمات وما فى العبارات من تنغيم موسيقى يهز أعصابه، ويسير به فى صعود وهبوط، أو استواء، أو إسراع أو إبطاء» [٣].

وهذا النوع من الحلى الموسيقية افتنان فى طرق ترديد الأصوات فى الكلام ليسترعى نغمه الآذان بألفاظه، كما يسترعى القلوب بمعانيه، فهو مهارة فى نسج الكلمات، وبراعة فى ترتيبها وتنسيقها، ومهما يتنوع وتتعدد طرائقه فإنها يجمعها أمر واحد هو العناية بحسن الجرس، ووقع الألفاظ فى الأسماع. ولا شك أنه يزيد الشعر موسيقى، لأن الأصوات التى تتكرر فى البيت مضافة إلى تكرر القافية، وإلى الوزن تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن، ويرى فيها المقدرة والمهارة. وربما لا يقدر عليه إلا الأديب الذى وهب حاسة مرهفة فى تذوق الموسيقى اللفظية [٤].

وقديماً تنبه له النقاد، فسماه ثعلب فى كتابه قواعد الشعر الأبيات المُوضحة. وقال إنها ما استقلت أجزاؤها، وتعاضدت فصولها، وكثرت فقرها، واعتدلت أجزاؤها، فهى كالخيل المُوضحة، والفصوص المجزعة، والبرود المحبرة [٥].

وقد فضله قدامة وأطنب فى وصفه، وأتى بأمثلة له من شعر امرىء القيس وزهير وطرفة وغيرهم [٦].

---

(١) فى علم النفس. الإبراشى وحامد عبدالقادر ٣/٣٦٢ (٢) صور البديع. على الجندى ٢/٢٩
(٣) الأصول الفنية للأدب. عبد الحميد حسن ٣٩ (٤) موسيقى الشعر. إبراهيم أنيس ٣٩
(٥) قواعد الشعر لثعلب ٣٧ (٦) نقد الشعر لقدامة ٢٤ — ٣٠ والعمدة لابن رشيق ٢/٢٢

(ب) ولكن هذا الترصيع الذى أكثرت منه النساء شأنه شأن القافية التى يلتزم فيها ما لا يلزم ، فجماله ينشأ من ندرته ، فإذا كثر ثقل ، لأن الإسراف فى التجانس قبيح فى الموسيقى والشعر جميعاً ، حتى إن الاختلاف فى بعض الأحيان يعد عنصراً من عناصر الانسجام .

« وهذا الاختلاف لا ينفك يتزايد فى الموسيقى الحديثة ، وله قيمة فى الشعر ، وذلك ما فعله فكتور هوجو فى بعض أشعاره ، كما اتبعه لافونتين وموسيه .

الانسجام شىء نسبى ، وليس أعذب من عودة إلى التوافق التام بعد سلسلة من الموافقات ، ولا شىء أجمل وقعاً فى الأذن من أن تسمع فجأة فى قصيدة لموسيه بيتاً يلتزم ما لا يلزم فى وسط طائفة من الانسجام المعتاد (١) .

لذلك كان قدامة على حق فى قوله إن الترصيع يحسن إذا اتفق له فى البيت موضع يليق به ، وإنه معيب إذا تواتر واتصل فى الأبيات ، لأنه دال على التعمد والتكلف (٢) .

واتفق معه أبو هلال فى هذا الرأى وقال : إن بعض القدماء قد ارتكبوا هذا فبانت على أبياتهم سمة التعسف ، واستجاد قول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهدىٌ الطريقة نفّاع وضرّار

وقال: هذا بيت جيد .

ثم ذكر بيتها :

فعّال سامية وزّاد طامية للمجد نامية تعْنيه أسفار

وقال : هذا البيت ردىء لتبرؤ بعض ألفاظه من بعض (٣)

ولقد بلغ ببعض الشعراء بغضهم للتكلف أن تجنبوا التصريع فى مطلع بعض القصائد كالأخطل ، وكان الفرزدق كثيراً ما يصرع ، وأكثر شعر ذى الرمة غير مصرع المطالع ، وهو مذهب كثير من الفحول (٤) . وكذلك فعل بن أحمر وأمية بن حرثان الكنانى ، على أنهم كانوا يصرعون بعد البيت الأول ، وربما صرعوا أبياتاً فى القصيدة الواحدة إظهاراً لمقدرتهم ، وأكثر من كان يفعل ذلك امرؤ القيس (٥) .

---

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة جويو ١٧١ (٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٢٨
(٣) الصناعتين لأبي هلال ٣٦٧ (٤) العمدة ١/١١٥ (٥) نقد الشعر لقدامة ٣٠ — ٣٤

ح — ترصيع فى شعر الرجال

وقد صرع الرجال كقول أبى المثلم فى رثاء صخر الغى :

آبى الهضيمة آتٍ بالعظيمة متـــــلاف الكريمة لا سِقْط ولا وان
حامى الحقيقة نسّال الوديقة مِعْتـــــاق الوسيقة جلد غير ثُنْيان
رَقّاء مَرْقَبَة منّاع مَغْلَبة ركّاب سَلْهَبَةٍ قطّاع أقران
هَبّاط أودية شهّاد أندية حَمّال ألوية سِرْحان فتيان[1]

وقول عامر بن الطفيل :

ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمِقْضَب[2]

ولعل أكثرهم حفاوة بالترصيع امرؤ القيس ، كقوله :

فتور القيام قطوع الكلام تَفْتُرُ عن ذى غُروب خصر[3]

وقوله :

أفاد فجاد وساد فزاد وقال فزاد وعاد فأفضل[4]

وقوله :

كان المُدام وصَوْب الغَمام وريح الخُزامَى ونَشْر القُطُر
يُعَــلّ به بَرْدُ أنيابها إذا طَرَّب الطائر المُسْتَحر[5]

وقوله فى وصف حصانه :

سليمِ الشظى عبلِ الشوى شنجِ النَّسا له حَجَباتٌ مشرفات على الفَال[6]

---

(١) الأغاني ٢٠/٢١ والعمدة ٢/٢٢ وقد نسبت الأبيات إلى الخنساء فى ديوانها ٢٣٩ ونسب البيت الثاني إليها فى أساس البلاغة مادة عتق . آبى الهضيمة : لا يرضى الذل والظلم . نسال الوديقة : يقتحم الهواجر . معتاق الوسيقة : يعتق الطريدة وينجيها ويسبق بها ، وفى روايه الوثيقة يكون المعنى أنه واف بعهده . غير ثنيان : سيد مقدم ، والثنيان هو الذى دون السيد مقاما . مرقبة : موضع مراقبة العدو . سلهبة : فرس طويلة (٢) ديوان عامر القصيدة ٣٢ والصناعتين ٣٦٧

(٣) ديوان امرىء القيس ٧٨ والعمدة ٢/٢٤ خصر : بارد

(٤) الديوان ١٧٢ (٥) الديوان ٧٩ . القطر : عود يتبخر . المستحر : المغرد سحرا

(٦) الديوان ١٤٤ الشظى : عظم لاصق بالذراع . الشوى : الأطراف . الشنج : التقبض . النسا : عرق فى الفخذ . الحجبات : رءوس عظام الوركين . الفال : لحم الورك أو عرق عن يمين العجب ويساره

وقوله :

كأن المدام ، وصوب الغمام ... وريح الخزامى ، وذوب العسل
يعلّ به برد أنيابها ... إذا النجم وَسْط السماء استقل [1]

وقول زهير بن أبى سلمى :

كبْداء مقبلةً ، ورْكاء مدبرةً ... قَوْداء ، فيها إذا استعرضتها خَضَع [2]

ترصيع فى شعر النساء

أما ترصيع النساء فهو كثير كقول الخنساء :

غـــداة لقوهم بملمومة ... طحون يغادرن فى الأرض وكْزا
ببيض الصِّفاح ، وسمر الرماح ... فبا لبيض ضربا وبالسمر وَخْزا [3]

وقولها فى رثاء صخر :

سمْح خلائقه ، جزْل مواهبه ... وافى الذِّمام إذا ما معشر غدروا [4]

وقولها :

جم فواضله ، تَنْدَى أنامله ... كالبدر يجلو ولا يخفى على السارى
ردّاد عادية ، فكّاك عانية ... كضيغم باسل للقرْن هصّار
جوّاب أودية ، حمّال ألوية ... سمح اليدين جواد غير مِقْتار [5]

وقولها .

سمْح سجيته ، جزْل عطيته ... وللأمانة راع غير خوّان [6]

وقولها :

فالحمد خُلّته ، والجود عِلّته ... والصدق حَوْزته إن قِرْنه هابا
خطاب مُفْصَلَةٍ ، فرّاج مظلمة ... إن هاب مُفْظعةً أتَى لها بابا
حمال ألوية ، شهاد أندية ... قطاع أودية ، للوتر طلابا

---

(١) الديوان ١٧١ يعل : يسقى مرة بعد مرة (٢) نقد الشعر لقدامة ٢٥ (٣) الديوان ١٤٥
(٤) الديوان ١٢٥ (٥) الديوان ١٣٦ عانية : أسيرة . هصار : كاسر . مقتار : شديد البخل
(٦) الديوان ٢٤٧

سم العداة ، وفكاك العناة إذا لاقى الوغى لم يكن للقرْن هياباً (١)

وقولها :

رفيع العماد ، طويل النجاد ساد عشيرته أمردا (٢)

وقولها :

يعطى الجزيل،ولا يَلْحَى الجليل،ولا يعيا السبيلَ إذاقيل مَنْ هادى ؟ (٣)

وهذا كثير فى شعرها (٤).

ومن الترصيع قول جنوب الهذلية فى رثاء أخيها عروة :

لقد علم الضيف والمرملون إذا اغبرّ أفق وهبتْ شمالا

بأنكَ ربيعٌ ، وغيثٌ مَريعٌ وأنك هناك تكون الثّمالا

.....

وحىّ أبحتَ ، وحىٍّ منحت غداة اللقاء منايا عجالا (٥)

وحىٍّ وردت ، وثغر سددت وعِلْجٍ شددت عليه الحبالا

ومال حويت ، وخيل حَمَيْتَ وضيف قَرَيْتَ يخاف الْوَكالا

وقول ليلى الأخيلية :

ألا رب مكروه أجبت ، ونائل فعلت،ومعروف لديك ومُنْكَر (٦)

وقول عاصية بنت عمرو :

شهّاد أندية ، رفّاع أبنية شدّاد ألوية ، فتّاح أسداد

نحّار راغية ، قتّال طاغية حلّال رابية ، فكّاك أقياد

قوّال محكمة ، نقاض مبرمة فرّاج مُبْهَمة ، حبّاسُ أوراد

حلّال مُمْرِعة ، حمّال معضلة قرّاع مُفْظَعةٍ ، طلّاع أنجاد (٧)

وقول ليلى الأخيلية :

وقد كان مرهوب السِّنان وبيِّـــن اللسان و مجْذام السُّرَى غير فاتر (٨)

---

(١) الديوان ٤ وفى قواعد الشعر لثعلب ٣٧ أن البيت حمال ألوية لأخت مسعود بن شداد العدوية

(٢) الديوان ٤١ (٣) الديوان ٥٥ (٤) الديوان ٤١ و٥٤ و٦٤ و٨١

(٥) مراثى شواعر العرب ٨٣ الوكال : الضعف (٦) قواعد الشعر لثعلب ٣٧

(٧) الأغانى ١١/١٥ ساسى (٨) نقد الشعر لقدامة ٢٧ مجذام السرى : قطاع السير ليلا

من هذا يتجلى ولوع المرأة بالترصيع ، وولوعها بالتسميط ، وهو سجع ثلاثة أجزاء من البيت أو سجع جميعه كما سبق .

٧ — فى شعرهن إقواء أحيانا ، وإكفاء نادرا .

(١) والإقواء والإكفاء شىء واحد فى رأى أبى عبيدة وأبى جعفر [١] ويونس [٢] . وهما مختلفان عند غيرهما . فالإكفاء فى رأى المرزبانى أن يتقارب حرفا الروىّ ، كالنون والميم واللام لقرب مخارجها . كقول الشاعر :

بُنَىَّ إن البرّ شىء هيِّنُ المنطق اللين والطُّعَيمُ

والعرب قد تخلط بين الإكفاء والإقواء [٣] . أما الإقواء فهو اختلاف المجرى ، والمجرى حركة حرف الروى الذى تبنى عليه القصيدة ، فتكون قافية مرفوعة ، وأخرى مخفوضة أو منصوبة [٤] .

وقد وقع الإقواء والإكفاء فى شعر الرجال على قلة . فمن إكفاء الرجال البيت السابق ، وفى قصيدة لمتمم بن نويرة إكفاء [٥] ، وكذلك فى قصيدة لعميرة بن طارق [٦] .

ومن إقواء الرجال قول بشر بن أبى خازم :

ألم تر أن طول الدهر يُسْلى وينسى مثل ما نُسيتْ جُذام
وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم إلى البلد الشآمى [٧]

وكذلك أقوى النابغة [٨] ، وسلامة بن جندل [٩] ، وعمرو بن أحمد الباهلى [١٠] .

(ب) ولا شك أنّ الإكفاء والإقواء عيبان فى موسيقى الشعر ، لذلك لم يقو أحد من الطبقة الأولى وأشباهها إلا النابغة ، ثم تنبه لإقوائه فأصلحه [١١] ، ولو أن المرأة كانت أرهف فى الحس الموسيقى من الرجل ما وقع فى شعرها إكفاء ولا إقواء . لكنهما قد وقعا .

فمن الإكفاء قول ابنة أبى مسافع فى رثائه :

وأنت الطاعن النجلا ءَ منها مُزْبِدٌّ آن
وبالكف حسام صا رم أبيض خذّامُ [١٢]

---

(١) النقائض ٢١ و٥٦ (٢) طبقات الشعراء ٥٦ و٥٨ طبعة شاكر
(٣) الموشح للمرزبانى ١٥ و٢٠ (٤) الموشح ١٨ وطبقات الشعراء ٥٨
(٥) النقائض ٢١ (٦) النقائض ٥٦ (٧) الموشح ٥٩ (٨) الأغانى ١٥٧/٩
(٩) ديوان سلامة المخطوط القصيدة الحائية (١٠) الموشح ٨٠
(١١) طبقات الشعراء ٥٥ (١٢) الموشح ٢١

ومن الإقواء قول الخنساء :

فدًى للفارس الجشمىِّ نفسى أفدّيه بما لى من حميمِ
أفديه كما أقررت عينى وكانت لا تنام ولا تنيمُ (١)

وقول خرنق :

هم جدعوا الأنوف وأوعبوها فما ينساغ لى من بُعد ريق
وبيض قد قعدن وكلّ كحلٍ بأعينهن أصبح لا يليقُ (٢)

وقول جليلة :

إذا الخيل سارت بعد صلحٍ صدورُها وخُوّفَ ابنا وائل من عشيرِها
.....:
فهاكم حريق النار تبدى شرارها فيقدحُ فى كل البلاد سعيرُها (٣)

وقول ابنة تميم بن الأخثم فى رثاء أبيها الذى قتله عقبة بن هبيرة :

أعُقَيْبَ لا ظفرتْ يداك ألم يكن درَكٌ بحقك دون قتل تميمِ
.....
فليلحقَنَّك فى العشيرة لامةٌ ولتُقْتلنَّ به وأنت ذميمُ (٤)

وقد سبق فى فنون شعرهن أمثلة شتى فيها إقواء

٨ — وتتسم معانى شعرهن جملة بأن طابعها مذكر ، وقد بينت أن شعرهن لا يمثل إلا لونا ناصلا من خصائص الأنوثة . وأنه يكاد يكون صورة تامة من شعر الرجال إذا استثنينا السمات الأسلوبية والمعنوية السابقة ، فما مرد ذلك ؟

قد يقال إن ظروفهن الخاصة حجبتهن عن بعض مجالى القول التى برز فيها الرجال ، وإن الشعر لا بد أن يصور تجربة ذاتية مرت بالشاعر ، فالذى يجيد الغزل لا بد أن يكون محباً ، والذى يصف الحرب لا بد أن يكون قد عركها وذاق حلوها ومرها ، وواصف الخمر لا بد أنه ذاقها وأحس نشوتها ، فكيف نتطلب من المرأة أن تجيد فى فنون من القول لا تمس حياتها كما تمس حياة الرجال ؟ لكن ذلك مردود .

---

(١) ديوان الخنساء ٢٣٢ (٢) ديوان الخرنق ٦ مخطوط
(٣) رياض الأدب فى مراثي شواعر العرب ١٥ (٤) المرجع السابق ١٠٧

(ا) لأن المرأة العربية كما سبق قد أسهمت فى الحياة الأسرية والاجتماعية ، وشاركت فى الحرب ، فلماذا قصرت فى الشعر ؟ ثم لماذا لم تنبغ فى الأغراض المتصلة بحياتها النسوية ؟ ولماذا لم تتفوق فى الرثاء غير الخنساء ؟

(ب) على أن دعوى التجربة الذاتية فيها تضييق وقسوة ومجافاة للواقع ، وإلا لوجب أن يعيش الروائى أو الشاعر أو الكاتب ألوانا من المعيشة ، وأن يجرب ضروبا من التجارب لا تتسع لها حياته . ولا يطيقها . والشاعر الموهوب يستطيع أن يتمثل الجو الذى يريده ، وأن يتخيله ويتأثر به ، ويعبر عن أحاسيسه كأنه أصيل فى مشاعره .

ولا شك أن العاطفة قد تكتسب ، فهناك ظروف تحتم علينا أن ننفعل ، فسرعان مايفرض علينا شعونا بتلك الظروف أن ننفعل ، أو على الأقل أن نتوهم أننا منفعلون . وقد قال جوبلو : « إذا كنا مستيقظين فإننا لا نتحكم فى التعبير عن عواطفنا فحسب ، بل نتحكم فى عواطفنا نفسها . وهناك نصيب كبير من التصنع والعرف فى عواطف الحياة الاجتماعية ، فنحن نعتقد أننا نشعر بها بمجرد أن نعتقد ضرورة الشعور بها ، وليست العواطف الاجتماعية هى التى تنطبع وحدها بطابع الإلزام ، بل ذلك شأن جميع العواطف السامية ، سواء أكانت خلقية أم جمالية أم دينية أم اجتماعية »[1] .

أريد أن أقرر أن الرجل الشاعر والمرأة الشاعرة قد يستمدان من عاطفة أصيلة ذاتية فينفسان عما بهما ، وهذا لاشك فيه . وقد يتأثران عن طريق المجاملة والمواساة والمشاركة للغير ، فينقلب تأثرهما إلى عاطفة أيضاً صالحة لأن تتنفس . وإذا كان ذلك صحيحاً فإن الدعوى بأن المرأة لم تبرع فى فنون الشعر لأنها لم تنخرط فى الحياة العامة انخراط الرجل ، فليست مستقية من ينبوع العاطفة الذى يستقى منه الرجل ، دعوى لا تقوى على النقاش . وقد أسلفت أنها تجافى الواقع ، لأن الأدباء كثيراً ما يبرعون فى تصوير أحداث ومشاهد لم يروها .

ثم إن العالمين النفسيين الكبيرين وليم جيمز وكارل لانج قد توافقا فى ١٨٨٤ و١٨٨٥م على نظرية فى العواطف ، دون أن يكون أحدهما على علم ببحث الآخر ، وتسمى نظريتهما نظرية جيمز لانج Games-Lange Theory .

وملخص هذه النظرية أن الانفعالات ناشئة عن تغيرات جثمانية متعددة النواحى ، فنحن لا نبكى لأننا محزونون ، بل نحزن لأننا نبكى ، ونحن لا نرتعد لأننا نخاف ، بل نخاف لأننا نرتعد ، ولهما أدلة على إثبات هذه النظرية ، ولغيرهما ردود عليهما ، ليس هذا مجال بحثها[2]

---

(١) مقدمة علم النفس الاجتماعى : بلوندل ٢٣٥ (٢) فى علم النفس ٣/١٧٤

ولا شك أن فى النظرية كثيراً من الصواب ، لأن كثيراً من الممثلين والممثلات يحتم عليهم عملهم أن يقوموا بتمثيل دور معين ، فيتظاهرون بالضحك والفرح أو البكاء والحزن ، وهم كثيرا مايشعرون بعد هذا التظاهر بالسرور أوالأسف حقيقة ، وماذلك إلالأن حركاتهم وسكناتهم أحدثت تغيراً جثمانياً نجم عنه الفرح أو الأسى .

ثم إن المتظاهر بالمرض قد يمرض ، والمتظاهر بالصحة والعافية قد يصح ويبرأ .

وقد أخذ برأيها ريبو Ribot فى كتابه علم نفس العاطفة ، فقال : « لنا فى كل دراسة نفسية للعواطف أن نختار بين أمرين مختلفين تمام الاختلاف ، وهذا الاختيار سيلزم باتباع طريقته الخاصة ، فالرأى الأول يقرر أن الحالات العاطفية ثانوية مشتقة من المعرفة وتابعة لها ، بل لا وجود للعواطف إلا بالمعرفة ، وذلك مذهب العقليين .

والرأى الثانى يقرر أن هذه الحالات العاطفية أولية أساسية مستقلة وغير متدخلة فى الذكاء ، ومن الممكن تصورها من غيره ، وهو مذهب العضويين » .

والنظرية الأولى (العقلية) هى نظرية هربات ومدرسته ، ومؤداها أن العاطفة لاتوجد إلا مرتبطة بالتصورات العقلية ، فالعاطفة نتيجة لاجتماع الأفكار وإدراكها فى النفس [١] .

بعد ذلك نسأل لماذا لم تبرز المرأة فى فنون الشعر التى شاركت الآخرين والأخريات فى التأثر بدوافعها ، متظاهرةً مجاملةً فى أول الأمر ، ثم منفعلةً انفعالا أصيلا بعده ؟

لقد رأت أحيانا وسمعت أحيانا أخرى عن ميادين القتال ، وتناحر الأبطال ، ولقد رأت مشاهد الطبيعة ، وسمعت من الشعراء إعجابهم بها ، وقريضهم فيها ، ولقد شاهدت بهجة قومها وقد ظفروا ، وشهدت حسرتهم وأساهم وقد انكسروا ، فأين شعرها فى هذا وأشباهه ؟

ليس السبب فى (تذكير) شعرهن هو ضيق حياتهن ، وإنما السبب فى فقدان شعرهن سمات الأنوثة ، وفى انطباعه بطابع الذكورة :

(١) أن الفن الرفيع الخالد ينبثق من عواطف فياضة طويلة الأجل ، وعواطف النساء جياشة لكنها منقطعة قصيرة الأنفاس « وتمتاز انفعالات الرجل من انفعالات المرأة بأنها أعمق وأطول أثراً ، وأقل ظهورا [٢] » .

فمشاعر الرجل أشبه بالتيارات السفلية ، عميقة ورزينة لاتكاد تحس ، ووجدانات المرأة أشبه بالفقاعات والموجات الصغيرة ، فهى حادة فجائية فى الظاهر ، ولكنها سريعة التغير ، دانية

---

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب ٥٢ إبراهيم سلامة (٢) نفسية المراهق ٤٨

الغور إلا فى الحزن (على الأقل بمعنى الميل إلى ذرف الدموع، والخوف ، والغريزة الوالدية، وغريزة الخضوع ، والاستعداد للتقزز ، فكلها تبدو فى النساء أقوى منها فى الرجال [١] .

(ب) ثم إن الإنتاج الأدبى يحتاج إلى استعداد طبيعى، وإلى جهد وصبر وتنقيح وإرادة ، والمرأة أضعف من الرجل إرادة كما يقرر علم النفس ، والفنان يستوحى من عقله الباطن ويستسلم لمواكب من الأخيلة والصور ، ويتحرر من الحياة الشعورية الواعية ، ويدنو من لحظات غير واعية ، وحينئذ ترتفع الحجب التى كانت تفصل خارج نفسه عن داخلها ، فيعبر مستمداً من عقله الباطن ومن شعوره ، وإذاً فالتعبير الفنى إرادى وغير إرادى معاً . غير إرادى لأنه يستمد من الانفعال والعقل الباطن وينابيع الوحى ، وإرادى لأن المعبر يستمد من فكره وشعوره اللغة التى يجسم بها أحلامه ويصور بها إلهامه « يقول لامب Lamb إن الشاعر يحلم فى يقظته ، وليس ملكا لموضوعه، وإنما هو الذى يمتلك موضوعه ويصرفه ويسيطر عليه ، فهو يحلق فى السماء وهو مدرك لما يقول [٢] » .

ويقول رتشاردز Richards إن القدرة على التعبير عن التجربة الماضية هى أولى خصائص الشاعر [٣] .

فالإنتاج الفنى يرجع إلى عوامل عقلية ، تتجلى فى التحليل ، ويتضمن الانتباه الانتقائى أو التجويد (لأن النفس تعزل بعض التفصيلات وبعض الأشكال وبعض الوسائل ، وهى على وعى بين بالغاية التى تقصد إليها) ويتضمن تداعى الأفكار والحكم والبرهنة . ويرجع إلى عوامل انفعالية ، « لأن صور الإبداع لابد فيها من عناصر وجدانية يستحيل الإبداع بغيرها [٤] ، فهى الحافز أو الدافع أو الميل أو العاطفة أو أى عنصر من عناصر الوجدان .

ولا شك أن العامل الإرادى فى الإنتاج الأدبى يحتاج إلى جهد طويل ، والأخبار مستفيضة عن شعراء العرب الذين كانوا ينقحون شعرهم ويعاودونه بالصقل والتهذيب ، فمثلا كان أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى والحطيئة وأمثالهم يجودون شعرهم ، ويقفون عند

---

(١) كيف يعمل العقل ٢/١٤٦

(٢) The Aesthetic Theories. by Dr Hanns. P. 142

(٣) Ebid P. 142

(٤) A. S. Eddington. Space, Time and Gravitation. P 200

كل بيت ، يعيدون فيه النظر، لتخرج القصيدة كلها مستوية فى الجودة ، حتى لقد قال الحطيئة « خير الشعر الحولى المحكّك[١] » .

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر ما يعانيه فى اختيار أجود ما تفيض به شاعريته ، فقال إن الأبيات تنثال عليه ، ولكنه يرد بعضها ،ويتمكن من نفسه فيكبحها كما يكبح الفارس جواده ، وقد تخير من شعره ست قصائد أو عشراً فى رواية — أو تخير من قصيدة كان يعالج نظمها ستة أبيات — لأنه نحى رديئها ، واصطفى جيادها :

أذود القوافى عنى ذيادا ... ذياد غلام جرىءٍ جوادا
فلما كثرن وعَنَّينى ... تخيرتُ منهن ستا جيادا
فأعزل مَرْجانها جانبا ... وآخذ من دُرِّها المستجادا[٢]

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلى يفخرون بتجويد شعرهم وتنقيحه ، ويعدون ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراية برائع القول ، مثل سواد بن كراع العكلى[٣] ، كما اشتهر أبو نواس والبحترى وغيرهما فى العصر العباسى ، وشوقى فى العصر الحاضر . بينا أكثر بعضهم من الارتجال كأبى العتاهية ، فجاء شعره كما يقول الأصمعى : « كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب ، والتراب والخزف والنوى » .

وسيطرت نزعة التنقيح والتجويد على كثير من أدباء الغرب ، فمثلا « كان لافونتين ينظم المثل ، ثم ينظر فيه عشر مرات ، وفى كل مرة يحرر ويغير ، ويحذف ويضيف . وكان شاتوبريان يبدأ الصفحة ثم يعيدها على نحو ما كان يفعل لافونتين ، ويقول بسكال : إنه حرر بعض فصول البروفنسيات خمس عشرة مرة[٤] » .

وكثيراً ما صور الأدباء عيهم أحياناً ، يقول الفرزدق وقد تحداه رجل من الأنصار أن يقول قصيدة مثل قصيدة حسان « لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا» : قاتله الله ، مارميت بمثله ، لقد أتيت منزلى بالأمس فأقبلت أصعِّد وأصوّب فى كل فن من فنون الشعر ، فكأنى مفحم لم أقل شعراً قط ، حتى إذا نادى المنادى بالفجر رحلت ناقتى ، ثم أخذت بزمامها حتى

---

(١) البيان والتبيين ٢/٩ و١٣ هارون .

(٢) ديوان امرئ القيس ٦٣ ورواها الآمدى فى المؤتلف والمختلف لامرئ القيس بن الحارث الكندى ورواها المرزباني فى معجم الشعراء لامرئ القيس بن بكر بن امرئ القيس بن الحارث ورواها بعضهم لامرئ القيس بن عابس الكندى وكلهم جاهليون (٣) البيان والتبيين ٢/١١ السندوبي

(٤) دفاع عن البلاغة ٦٦ الزيات

أتيت ذبابا (جبل بالمدينة فناديت بأعلى صوتى : أجيبوا أخاكم أبا لُبَيْنى ، فجاش صدرى كما يجيش المرجل ، فعقلت ناقتى، وتوسدت ذراعها ، فما قمت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً[١] .

ويتحدث الشاعر الكاتب ديهامل فيقول : كم من مرة استمعت فيها إلى رجال أو نساء يتحدثون وسط الجموع فى عربة قطار أو مطعم فتحدثنى نفسى فى كل مرة : ها قد وقعت على صفة نفسية ، أو تسقطت علاقة ، أو لمحت دافعاً خفيا ، ولكننى عاجز عن أن أصوغ ما كشفت ألفاظاً ، وربما أستطيع فيما بعد أن أصور ما أحسست به . أما الآن فلا ، وأنا أعلم أنى لم أصب التوفيق ، فسيأتى بعدى من يستفيد من تجاربنا ، وتسعفه عبقريته فيوفق إلى التعبير عما لمحنا[٢] .

وإذاً فلا مندوحة فى قرض الشعر عن طبيعة ، وعن موهبة ، وعن جهد إرادى يبذله الأديب . وإن هذا الجهد الإرادى ليتمثل فى اختيار العبارات الملائمة والتنقيح ، وتصوير المعانى والمشاعر ، وهذا الجهد عظيم ، لأن إبراز العواطف والمشاعر فى صورة لفظية ملائمة شاق يحتاج إلى مقدرة وصبر ومرانة .

وقد تنبه بعض نقاد العرب لهذا ، فذكر بشر بن المعتمر الاستعداد والجهد[٣] ، وذكرهما الجاحظ[٤] ، وقرر الجرجانى أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل سبب من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان[٥] .

(ح) ثم إن النساء أعجز من الرجال عن الابتكار ، حتى فيما يختص بالإناث ، وتُظَن لهن المقدرة فيه ، كالخياطة والطَّهْو والغناء والرقص ، فالرجال هم الذين يبتكرون للسيدات نماذج المعارض والحلى ، وهم الذين يتفوقون فى فنون الطهو ، وتلحين الأغانى ، وتدريب الراقصات ، واختراع الأدوات المنزلية الجديدة من آلات الخياطة والنسج . « وفى هذا شرح للظاهرة المشاهدة من أن النساء أكثر تقبلا للحقائق ، والرجال أكثر ابتكاراً . فالنساء أقدر على ممارسة العمل الرَّتيب الذى يتطلب صبراً وتطبيقاً وذاكرة حاضرة ، أما الرجال فلهم براعة يحق الفخر بها فيما يتطلب كشفاً وبحثاً[٦] » .

وفى رأى علم النفس وعلم الأحياء أن الذكر ايجابى والأنثى سلبية ، وقد تقرر هذا من ملاحظة الخلية المنوية للذكر وبويضة الأنثى ، فالحيوان المنوى نشيط متحرك ، يتقدم ليبحث

---

(١) النقائض ٥٤٧ (٢) النقد المنهجى عند العرب ٢٥

(٣) العمدة ١/١٤٢ والبيان والتبيين (٤) البيان والتبيين ١/١٧٨ (٥) الوساطة الجرجاني ٢١

(٦) كيف يعمل العقل ٢/١٤٣

عن البويضة ، والبويضة تتريث وتنتظر وتستسلم . وقد وضّح ذلك هافيلوك إليس Havelook Ellis [١] . وقد أشار الأستاذ إرنست كرتشمر Ernest Kretscthmer أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بجامعة ماربورج فى كتابه (نفسيات العباقرة) إلى النساء اللاتى زاولن الفنون ، فذكر أن المرأة لم تُمنَع تعلمَ الموسيقى والعزف على آلاتها ، لكن لم يخلد من النابغات فى الموسيقى إلا اللاتى اتصلن بالرجال ، مثل كلارا زوجة شومان الموسيقى العالمى ، وفانى أخت مندلسن ، وكورونا شروتر صديقة جيتى ، وغيرهن ، وذكر الشاعرة الألمانية أنيت فون درست هلشوف Anette Von Droste Hulshoff فقال إنها كانت أقرب إلى الرجولة فى مزاجها وكلامها ، وكانت تتزيا بزى الرجال ، وتتمنى فى بعض شعرها لو كانت صياداً منطلقاً بالعراء ، أو جنديا مقاتلا ، أو رجلا على الأقل . ولم تنظم قط فى عواطف الأمومة ، أو وصف الطفولة ، أو حنين المرأة إلى الحب والألفة البيتية ، وما شابه ذلك من معارض الشعر التى يجب أن يكلَّف بها النساء . وقال إن هذا النزوع إلى التشبه بالرجال مشهود مطّرد فى نساء التاريخ المشهورات ، مثل اليصابات ملكة انجلترا ، وكاترين قيصرة روسيا ، وكرستينا ملكة السويد ، فهن ينبغن فى القدرة على بعض أعمال الرجال بمقدار ما ينقص فيهن من صفات الأنوثة لا بمقدار ما يزيد على الحاجة [٢] .

وكذلك مدام كورى ، فإنها كانت زوجة لعالم كبير تأثرت به ، ومسز براوننج الشاعرة الإنجليزية كانت زوجة للشاعر روبرت براوننج ، وجورج إليوت ألفت أحسن رواياتها وهى فى عشرة صديقها لويس ، واللادى ديلك Dilke كتبت فى الدراسة العالية حين كانت زوجة للعالم الأديب مارك باتيسون ، وكتبت فى السياسة والإدارة حين صارت زوجة لرجل سياسى [٣] .

وهذا الحكم أقرب إلى الحق من حكم شوبنهور القاسى ، ذلك بأنه يرى أننا نخطىء فى تسمية النساء الجنس اللطيف ، ويجب أن نسميهن الجنس غير المتذوق ، لأنهن لا يتأثرن بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة ، وإن كن يدعين هذا أحياناً رغبة فى إرضاء الرجال .

---

(١) سيكولوجيا المرأ ٨٥ فريد ترجمة محمد صدقى وهذه الشجرة ١٧٣ للعقاد والأزمات الزوجية وعلاجها ٣٠ محمد زكى شافعى

(٢) هذه الشجرة ٧٤ العقاد

(٣) هذه الشجرة ١٧٣ العقاد

ولسن قادرات على النظر الموضوعى إلى أى شأن من الشئون . وأشهر مشهوراتهن لم ينتجن إنتاجاً أصيلا فى الفنون الجميلة ، ولم يقدمن للعالم عملا ذا قيمة خالدة . لذلك كان الأسيويون أحكم من الأوروبيين حين اعترفوا صراحة بنقص المرأة ، وفرقوا بينها وبين الرجل فى كثير من الحقوق والواجبات (١) .

وقفى على أثره الفيلسوف الاقتصادى برودون فى كتابه (ابتكار النظام) فرأى أن النوع الإنسانى ليس مديناً للمرأة بأية فكرة أخلاقية أو سياسية أو فلسفية ، أو بأى كشف صناعى ، فالرجل وحده هو الذى اخترع وكمّل وعمل وأنتج وغذى المرأة . وإن الدور الذى مثلته المرأة فى الآداب مثل الدور الذى مثلته فى المصنع ، فإنها لا تقوم فى المصنع إلا بما لا يحتاج إلى استعمال القريحة (٢) .

والفكرة المشتركة فى هذه الآراء أن المرأة عاجزة عن الابتكار ، وأن النساء المشهورات كن متصلات بعظماء من الرجال فحاكينهم ، واقتبسن من شهرتهم ، وكن أميل إلى مظاهر الرجولة منهن إلى الأنوثة .

وهذا حق ؛ لأننا لم نعرف شاعرة بهرت عصرها وأخملت شعراءه ، ولم نعرف خطيبة أو كاتبة شدهت دهرها وأخملت كتابه وخطباءه ، والحكم كذلك فى العلم والصناعة ، لأن الطبيعة ضربت حجابها بين النساء والتفوق على الرجال أو مساواتهم فى هذا المضمار قبل أن يضرب الرجال على النساء الحجاب . ويعزز علم النفس هذه الفكرة بتقريره أن الذكور يتفوقون على الإناث فى الأعمال التى تحتاج إلى تفكير كرد الأسباب إلى المسببات ، وفى القدر العقلية العامة (٣) .

على أننا نجد الخنساء — أشعر النساء العربيات — امرأة مسترجلة ، فهى تهنأ إبل أبيها ، وهذا من عمل الرجال . وأبوها يقول لدريد بن الصمة حين خطبها : « إن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها » ، ثم يستشيرها فتقول فى صراحة : « يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناكحة شيخ بنى جشم ؟ » ثم لما هجاها دريد ردّت عليه بمثل هجائه . ولما قُتل أولادها فى حرب القادسية وعلمت بمصرعهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته . وقد تنبه بشّار إلى أنها أنثى كالرجل فقال : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه . فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، كانت بأربع خُصى .

(١) كيف يعمل العقل ٢/١٣٥ (٢) المرأة المسلمة ٨٤ فريد وجدى
(٣) Educational Psychology. by Skiner. P. 422.

(٤) ويرجع السبب أيضا فى محاكاتهن للرجال واصطباغ شعرهن بالذكورة الفكرية والتصويرية إلى أنهن رأين الرجال متفوقين عليهن ، وأعجبن بهذا التفوق ، فقلدن الرجال . ولا شك أن ما قرره تارد Tarde فى التقليد من الناحية الاجتماعية من الممكن أن ننتفع به هنا فى الناحية الأدبية . فهو يقرر أن التقليد (بمعنى نقل إنسان من إنسان بصفة عامة ، أو أديب من أديب ، أو أدب أمة عن أدب أمة بصفة خاصة) يتبع سبيلا واحداً هو أن التقليد يسرى من الداخل إلى الخارج ، أى أن الأمة التى تقلد الأخرى هى الأمة التى تنقل ذوقها وأفكارها وأدبها قبل أن تنقل عاداتها ورفاهيتها ، فهى تقلد تقليداً داخلياً ، قبل أن تقلد تقليداً خارجياً ، وهو قانون ينطبق على الأفراد أيضاً .

وتارد يذهب إلى أن التقليد أيضا ينحدر من الأعلى إلى الأدنى ، بمعنى أن الأمة إذا أجدبت فى الآداب وكانت على صلة بأمة أخرى مثرية فى آدابها ، أحست الأولى بفقرها وبثراء جارتها ، فدانت بتفوقها ، وإذاً تقف من أدب الأمة الثرية موقف المتطلع أو الآخذ ، فينحدر التقليد من الأمة المقلَّدة إلى الأمة المقلِّدة ، أى من الأعلى إلى الأدنى . وهذا التقليد طبيعى لأنه نوع من الجبر الاختيارى ، أى أنه جبر تحتمه المدنية نفسها ، وهى تفرض على الإنسان المتمدين أو المتطلع إلى الحياة أن يطيع القوانين العامة حينما يقف على الدرجة الأولى من سلم المدنية ، وهو إذا أطاعها فلأنه يجد من نفسه الحاجة إليها . وهذا ينطبق على الأمم ، وعلى العواصم وعلى الأفراد ، وينطبق على العلم وعلى الآداب (١) .

ومن السهل تطبيق هذين القانونين على حال المرأة والرجل ، فالرجل حامى المرأة ، وهو القوّام بشئونها ، وهو سندها وأملها أبا أو زوجا أو ابنا أو أخا ، وهو أقوى منها جسداً ، وأحصف رأيا ، وأسمى مكانا ، ثم هو أبرع منها شعراً وأقوى لَسنا ، وهذه كلها دوافع إلى إعجاب المرأة به ، ومحاكاتها إياه ، وتأثرها خطاه .

ولست أبعد عن الصواب إذا حكمت حكما عاما : أن النساء فى العصر الجاهلى كن ملهمات للشعراء أعظم منهن منتجات للشعر وناقدات .

نعم هن اللاتى ألهمن الشعراء الغزل ، فأثرى الأدب بهذا الفن الجميل ، وهن اللاتى بعثن فى الرجال روح الحماسة والمنافسة ، فصوروا عواطفهم ، وجمّلوا جنات الأدب بغراس ناضر ، حلو الجَنَى ، دانى القطوف .

---

(١) تيارات أدبية ١١٦ ـ ١٤١

الجديد فى البحث

وبعد :

فأى جديد فى هذا البحث ؟ .

أما الجديد فبعضه حقائق جزئية متناثرة فى غضونه لاحاجة إلى تكريرها ، وبعضه حقائق عامة جديرة بإفرادها وذكرها :

(١)

كان العرب فى العصر الجاهلى متصلين بالأمم والديانات المعاصرة لهم بوسائل شتى ، وقد تأثروا بمن اتصلوا بهم ، وتجلى هذا التأثر فى ضروب من العقائد والأخلاق والعادات والنظم ، وقد بينت معالم هذا التأثر والتشابه أو التخالف فيما يتصل بأحوال المرأة .

لكن سلطان البادية والبداوة كان غلابا ، يطبع الحياة العربية بطابعه ، ويصطبغ به العرب البداة والحضر .

(٢)

لقد طالما ردد بعض الباحثين المعتزين بالشعر الجاهلى أنه ثَبَتٌ أمين للحياة العربية ، لكنهم لم يحققوا هذه الدعوى بدراسات تتكىء على الشعر الجاهلى . وردد آخرون أن الشعر الجاهلى لم يصور الحياة العربية فى شتى مظاهرها .

وقد استنطقت الشعر الجاهلى ، فوجدته قد سجل مظاهر الحياة العربية ، وصور مفاخرها ورذائلها ، لكن فى إجمال يوائم طبيعة الشعر وطريقته الفنية الوجدانية ، وجنوحه إلى التركيز والإيجاز والاكتفاء باللمح والإشارة .

وهذا الشعر الذى استقيت منه صحيح فى الأكثر الأعم ، لأنه بعيد عن بواعث النحل ، فهو لايمت إلى عصبية قبلية أو سياسية ، وليس مما يتكاثر به الرواة المتنافسون ، ويتزيد فيه القصاص والإخباريون ، ثم إنه غير مقصود لذاته ، وإنما جاء عرضاً فى خلال القصائد ، وهو إلى ذلك كله لايجافى النظم التى تحتمها البادية على قطانها .

(٣)

كانت الصور التى رسمت للمرأة العربية مضطربة متناقضة ، فرسمت لها صوراً جلية ، إذ استمددت من الشعر الألوان والأصباغ التى رسمت بها صور المرأة ، وجليت مكانتها فى الحياة الاجتماعية والسياسية : فى الأسرة وفى القبيلة وفى المجتمع ، سواء أكانت أما أم زوجة أم بنتاً أم أختاً أم قريبة ، أم عضوا فى المجتمع ، وسواء أكانت فى سلم أم فى حرب .

(٤)

اتضح لى أن الشعراء كثيراً ماُنسبوا إلى الأمهات أو نَسبوا إليهن ، فاقتضى هذا النسب أن أعلل له ، فعرضت لنظرية التوتمية ، ونظرية الشيوعية عند العرب ، وفندتهما ، وأثبت بطلانهما بالنسبة إلى العرب . ثم رجعت النسب للأم إلى أسباب شتى ليس فيها أثر للتوتمية ولا للشيوعية .

(٥)

فى دراستى للبنت أثبت أن كثيراً من العرب كانوا يحبون بناتهم ، ويحدبون عليهن ، ويتكنون بأسمائهن ، ويهشون لمشورتهن ، ويرفعونهن مكاناً عليا .

وبهذا صححت الرأى الشائع أن العرب جميعا كانوا يبغضون البنات . ويئدونهن .

(٦)

صححت الرأى الذى كان شائعاً عن المرأة الجاهلية أنها كانت فى الحضيض ، تسام الخسف ، وتعامل معاملة العبيد ، حتى جاء الإسلام فحررها من الكبول ، ورفعها من الضعة ، وأكسبها حقوقاً لم تكن لها .

فأبنتُ أن المرأة كانت فى الحياة الاجتماعية عزيزة عالية القدر ، ذات شخصية ورأى وحرية .

واستنبطت هذا الحكم من دراستى لمكانة الأم والزوجة والبنت والأخت والقريبة والمرأة ، فى القبيلة وفى المجتمع العربى .

وبينت أن المرأة كانت فى الحياة السياسة عضواً عاملا ، تشارك الرجال فى شئون جليلة ، وترتفع أحياناً إلى منزلتهم ، وتسودهم آونة فتملّك عليهم ، أو تقودهم فى الحروب . حتى المرأة السبية كانت تعامل معاملة حسنة ، ميزت العرب من أمم كثيرة .

وإذاً فلم تكن مكانة المرأة العربية أدنى من مكانة المرأة المعاصرة لها ، بل لقد جازت نساء عصرها ماعدا المرأة المصرية فى بعض أحوالها .

وخلصت من الموازنة إلى أن الإسلام قد وطد مكانتها ، وأكسبها حقا جديداً لم يكن لها ، ذلك بأنه فرض لها نصيباً معلوماً من التركة .

(٧)

كشفت عن حقيقة أخرى : أن المرأة لم تكن تملك المال وتتصرف فيه فحسب . بل كانت تنال من التركة نصيباً وإن لم يكن مقدراً مقرراً . فقد عثرت على نصوص استنبطت منها أن المرأة كانت ترث أحيانا ، واهتديت إلى نص فريد فذّ يثبت أنها ورثت نصف الذكر فى حال ربما لم تكن الوحيدة فى المجتمع العربى .

(٨)

لم أجد تفرقة بين السبىّ والأمة فى المراجع اللغوية والتاريخية والدينية ، فلم أطمئن إلى ذلك ، لأن الروح العام للشعر الجاهلى يوحى بالتفرقة ، فاستطعت أن أفرق بينهما فى الصفة ، والمنزلة ، والعمل ، والمعاملة ، ومنزلة أبناء كل منهما ، معتمداً على الشعر فيما ذهبت إليه .

(٩)

فندت — فى دراستى للإماء القيان — الفكرة الشائعة أن العرب لم يعرفوا الغناء الفارسى والرومى إلا فى الإسلام ، وأثبت أنهم كانوا على صلة بهذا الغناء فى العصر الجاهلى ، وأيدت بنصوص شعرية كثيرة أنهم عرفوا الآلات الموسيقية الأجنبية قبل الفتوح الإسلامية .

(١٠)

فى دراستى للمرأة الشاعرة اهتديت إلى كثير من الشواعر المنسيات ، ودرست شعرهن وشعر غيرهن ، واستطعت أن أميز الأصيل من الدخيل ، ووازنت بين شعر النساء وشعر الرجال ، واستنبطت ملامح شعر النساء فى كل فن ، وخصائص شعرهن فى كل فنونهن ، ورجعت هذه الخصائص إلى نفسية المرأة ومقتضيات حياتها .

ثم انتهيت إلى أن النساء الشواعر كن يحاكين الرجال الشعراء ، لكن أجنحتهن قعدت بهن عن التحليق فى جوائهم ، وأنهن لم يستطعن أن يسمن شعرهن بسمات الأنوثة البارزة التى تفرده وتميزه من شعر الرجال فى كل موضوع من موضوعات الشعر .

(١١)

واستوحيت من هذه الدراسات للمجتمع العربى أن العرب لم يكونوا — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — جموعا من الهمج البدائيين ؛ لأن نظمهم فى الزواج والطلاق

ومعاملة النساء، وتمليكهن المال، والإسماح بتصرفهن فيه، ومعاملة السبايا، والحجاب، كانت أرقى من نظم الأمم المعاصرة لهم آنا، وشبيهة بها آنا، ولأن الإسلام أقر كثيراً من هذه النظم.

« اقتراحات »

(١)

أقترح على الذين يريدون تتبع الشعر العربى إلى ينابيعه الأولى أن يُغذوا السير إلى العصر الجاهلى فيتملوه ويتذوقوه، على أنه فيض من عواطف صادقة متدفقة، وعلى أنه العمد الأولى، والأسس الأصيلة للشعر فى شتى عصوره.

فمن الإجحاف بالشعر الجاهلى أن يهمل، أو أن يدرس على أنه أثر قديم يتفكه به الدارس، ومتحف لمخلفات من الماضى السحيق يلم بها فى نظرات عوابر، ولمحات خواطف.

ولست أنكر أن هذه الدراسة يعوزها الصبر والأناة والرغبة، ولست أعدو الحق إذ أقرر أن العصر الحاضر منكوب بنزعتين تباعدان ما بينه وبين هذه الدراسة، أقصد الغرور والاستخفاف، وإنهما لتبدوان فيما يجول ببعض النفوس، وما يجرى على بعض الألسنة والأقلام، من الاعتزاز بكل حديث، والزراية بكل قديم، وإن كان الحديث وليده وصداه.

(٢)

وإذْ قد استبان لى خطر الشعر الجاهلى وتمثيله لعصره، أردت أن يحفل به الدارسون جمعاً، وتحقيقاً، ودراسة.

١ — ففى المكتبات عشرات من الدواوين والمجموعات الشعرية مخطوطة، وعشرات مطبوعة طبعاً رديئاً عاجزاً، وهى كلها تتلهف على من يحققها، ويخرجها إخراجاً علميا.

٢ — ومن المستطاع أن تؤسس على الشعر الجاهلى عدة دراسات، كدراسة الحياة السياسية، والحياة الخلقية، والحياة الدينية، وعلاقة الشعراء بالبيئات، وأثرها فى إنتاجهم وخيالهم.

على أن فنون الشعر فى حاجة إلى دراسة مفصلة عميقة، تكشف عن نشأة كل فن وخصائصه.

ثم إن سلطان الشعر الجاهلى على ما بعده مفتقر إلى دراسة مستوعبة، تبين أثره فى العصور الأخرى من حيث منهج القصيدة، والمعانى، والخيال، والموسيقى.

٣ — وإنه لمن الخير أن تتكىء الدراسات التاريخية والاجتماعية على الشعر الجاهلى يرفدها ويمدها.

(٣)

لقد درست شعر المرأة فى العصر الجاهلى ، وكشفت عن خصائصه . فأود أن يدرس آخرون شعر النساء فى العصر الإسلامى ، وفى العباسى ، ويميزوا خصائصه ، لنعرف مقدار ما بين النسوة الشواعر من تشابه أو تخالف ، وهل هناك طابع عام يطبع شعرهن جميعاً ؟ وإننى لأترقى فى الرغبة ، فأتوق إلى أن يدرس آخرون شعر النساء فى الأمم الأخرى ؛ لنتعرف خصائصه ، وإلى أى حد تتقارب أو تتباعد من خصائص شواعرنا ، وهل فى شعر النساء جميعاً ملامح موحدة أو سمات متشابهة ؟

(٤)

وليكن منهج الدارسين لأدبنا العربى كفيلا بتجلية ما به من مميزات فنية ، وما فيه من قوة وحيوية ، متجردين من التعصب له أو التعصب ضده . فما من شك فى أن لهذا الأدب خصوما ، منهم القدماء ، ومنهم المحدثون ، لكنه تعالى على هؤلاء وأولئك ، وتأبَّى عليهم ، وبقى كالصخرة الصلدة فى طريق السيل ، كلما عج بها انكسر ثم انحسر ، ومضى عنها سليمة الحواشى عظيمة الخطر .

(٥)

ولطالما لقيت عناء وبلبلة فى دراسة التاريخ العربى فى العصر الجاهلى ، لأنه لما يزل مهملا ، ويخولنى هذا أن ألح على المؤرخين ليعنوا بالعصر الجاهلى ، فيكشفوا ما يكتنف تاريخ العرب من بلبلة وغموض ، ويوضحوا صلاتهم بالعالم القديم ، ومكانتهم من الحضارة الخالية ، فقد آن الأوان لأن ينكشف الإبهام ، وينجلى الظلام ، وينبلج الحق ، ويوضع العرب فى مكانهم الصحيح من ركب الحضارة .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا

١ — مخطوطات

٢ — كتب عربيـــة

٣ — كتب مترجمة إلى العربية

٤ — كتب إفرنجية

(١) المخطـــوطات

(أ)

١ — الأجر الجزل فى الغزل . السيوطى . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .

٢ — الاستبصار فى أنساب الأنصار . مخطوط بدار الكتب ٣٤٩ تاريخ . لم يعلم مؤلفه . ويظهر أنه لشيخ الإسلام أبى محمد عبد الله المقدسى المتوفى ٦٢٠ هـ .

٣ — إسماع الصم فى إثبات الشرف من قبل الأم . لأبى عبد الله عبد الله محمد بن الشيخ المراكشى . مخطوط بدار الكتب ٢١٢٧ تاريخ .

٤ — الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ، المعروف بحماسة الخالديين . مخطوط بدار الكتب ١٧٠٩ أدب .

٥ — أشعار النساء للمرزبانى (الجزء الثالث) مخطوط بدار الكتب ٨ أدب ش ٤٢٨٩٨

٦ — أوائل الأوائل لأبى هلال العسكرى . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ تاريخ .

٧ — إيضاح المدارك فى الإفصاح عن العوائك . للسيد محمد مرتضى الزبيدى . مخطوط بدار الكتب ٢٠١٨ تاريخ .

(ج)

٨ — جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام . لأمين الدين أبى الغنائم مسلم بن محمود الشيزرى . مخطوط بدار الكتب ٩٢٢٣ أدب .

٩ — جمهرة أشعار العرب (الجزء الثانى) لأبى زيد محمد القرشى . مخطوط بالمكتبة التيمورية ٢٢٦٨ تاريخ . وبدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ١٥٧ — ٢٦٠ باسم جمهرة أبى زيد القرشى .

(ح)

١٠ — الحماسة البصرية . جمعها أبو الحسن البصرى . مخطوط بدار الكتب ٥٢٠ أدب .

(د)

١١ — الدرارى فى أبناء السرارى . للسيوطى . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .

١٢ — ديوان الأفوه الأودى . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب .

١٣ — ديوان خرنق . مخطوط بدار الكتب ٣٤ أدب ش ٥٦٨ أدب .

١٤ — ديوان الخنساء . مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش بخط الشنقيطى سنة ١٢٨٨ هـ .

١٥ — ديوان سلامة بن جندل . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ٦٥٤ (٧١٩) .

١٦ — ديوان عروة بن حزام . رواية المرزبانى بسنده إلى ثعلب . مخطوط بدار الكتب ٧٠ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ١٩٦ (١٦) .

١٧ — ديوان قيس بن الخطيم . مخطوط بمكتبة تيمور ٢٩٦ شعر .

١٨ — ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .

(ر)

١٩ — ربيع الأبرار . الزمخشرى . بمكتبة تيمور ٥٩٢ أدب .

(ش)

٢٠ — شرح القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى . مخطوط بدار الكتب ١٤١ مجاميع مجاميع من ص ٢٧١ — ٢٨٩

٢١ — شرح المعلقات السبع . ابن الأنبارى . مخطوط بدار الكتب ١٩٩٠٧ ز

٢٢ — صور الكواكب . أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى . مخطوط بدار الكتب ٩٠٧ ميقات . وبه صور شتى للكواكب .

« ع »

٢٣ — العنوان فى مكايد النسوان . على بن عمر المعروف بابن البتنونى الأبوصيرى . مخطوط بدار الكتب ٣٥٦٨ أدب .

« ف »

٢٤ — فضل العرب على العجم . ابن قتيبة الدينورى . مخطوط بدار الكتب ١٨٦٤ أدب .

« ك »

٢٥ — كتاب الملاهى وأسمائها . أبو طالب المفضل بن سلمة النحوى اللغوى . مخطوط بدار الكتب ٥٣٣ فنون جميلة .

٢٦ — كتاب الزينة . أبو حاتم الرازى . مخطوط بالخزانة المحمدية الهمدانية . يعده للإخراج الدكتور حسين الهمدانى .

« م »

٢٧ — محاسن النساء . لأحمد بن هشام . مخطوط بمكتبة تيمور ٨٠٣ أدب .

٢٨ — مراث وأشعار . لأبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى . مصور بمعهد المخطوطات ف ٨١٦ (١٩٣) .

٢٩ — مستقصى الأمثال . للزمخشرى . مخطوط بدار الكتب أدب ١٠٢ م .

٣٠ — المطر والسحاب لأبى بكر محمد بن دريد الأزدى . مخطوط بدار الكتب لغة ٢٢٩

٣١ — من نسب إلى أمه من الشعراء . لمحمد بن حبيب . مخطوط بدار الكتب ٧٥ ش أدب

٣٢ — منتهى الطلب من أشعار العرب . جمعة محمد بن المبارك مخطوط بدار الكتب ١١٧٤٦ ز

٣٣ — المنظوم والمنثور . لابن طيفور . مخطوط بدار الكتب ٥٨١ .

« ن »

٣٤ — نثر الدر . صورة شمسية بدار الكتب رقم ٤٤٢٨ أدب لوح ٣٦٧ .

٣٥ — نزهة الجلساء فى أشعار النساء . للسيوطى . مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر .

٣٦ — نشر المحاسن اليمانية فى خصائص اليمن ونسب القحطانية . مخطوط بدار الكتب ٤٦٥٠ تاريخ . لم يعلم مؤلفه .

« و »

٣٧ — الوحشيات (الحماسة الصغرى) . لأبى تمام . مخطوط بدار الكتب ٢٢٩٧ أدب .

(٢) الكتب العربية المطبوعة

(١)

٣٨ — أبيات المعانى . أبو هلال العسكرى .
٣٩ — اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب . الأستاذ محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .
٤٠ — أثر العرب فى الحضارة الأوروبية . الأستاذ عباس العقاد مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٦م
٤١ — الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين . م . حاى بن شمعون . مطبعة كوهين ورزنتال بمصر ١٩١٢ م .
٤٢ — إحياء علوم الدين . الغزالى . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢هـ — ١٩٣٣ م .
٤٣ — أخبار الحكماء . القفطى . مطبعة ليبزج ١٣٢٠ هـ .
٤٤ — الأخبار الطوال . أبو حنيفة الدينورى . بتحقيق فلاديمير جرجاس . مطبعة بريل ١٨٨٨ م .
٤٥ — أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية وصدر الإسلام . الأستاذ حسن السندوبى . الطبعة الأولى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .
٤٦ — أخبار مكة . الأزرقى . راوية أبى محمد إسحاق الخزاعى . مطبعة المدرسة المحروسة بمدينة غتنغة ١٢٧٥ هـ . وطبعة المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ .
٤٧ — أخبار النساء . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية . الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣١٩ هـ .
٤٨ — الأزمات الزوجية وعلاجها . الدكتور محمد زكى شافعى .
٤٩ — أساس البلاغة . الزمخشرى .
٥٠ — أساس العدالة فى القانون الرومانى : دكتور على حافظ . مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة ١٩٥١ م .
٥١ — أساس الفلك والجغرافية . الأستاذ محمد فخر الدين والأستاذ عبد الفتاح الزيادى مطبعة التوكل ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .
٥٢ — الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . ابن عبد البر . مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٨ هـ .
٥٣ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة . ١٢٨ هـ .

٥٤ — الأسرة والمجتمع . الدكتور على عبد الواحد وافى . مطبعة البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .
٥٥ — أسس علم النفس . الدكتور عبد العزيز القوصى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠م.
٥٦ — الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة . الأستاذ مصطفى سويف . مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١ م .
٥٧ — الإسلام والحضارة العربية . الأستاذ محمد كرد على بك . مطبعة دار الكتب ١٩٣٤ .
٥٨ — الإصابة فى تمييز الصحابة . أبو الفضل أحمد بن على الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .
٥٩ — الأصمعيات من مجموع أشعار العرب . نشره وليم بن الورد البروسى . طبعة ليبسغ .
٦٠ — الأصنام . هشام بن محمد الكلبى . تحقيق الأستاذ احمد زكى باشا . المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م .
٦١ — الأصول الفنية للأدب . الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٤٩ .
٦٢ — أصول النقد الأدبى . الأستاذ أحمد الشايب . الطبعة الثانية . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٢ م .
٦٣ — الاعتصام . الشاطبى . مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م .
٦٤ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب . الزمخشرى . الطبعة الثانية ١٣٢٤ هـ .
٦٥ — الأعلاق النفيسة . ابن رسته . مطبعه بريل بليدن ١٨٩١ م .
٦٦ — أعلام النساء . الأستاذ عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية بدمشق .
٦٧ — الأغانى . أبو الفرج الأصفهانى . الأجزاء الخمسة الأولى طبعة دار الكتب . والباقية طبعة ساسى .
٦٨ — ألف باء . البلوى . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .
٦٩ — الأمالى . أبو على القالى : مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م .
٧٠ — أمالى ابن الشجرى . مطبعة الأمانة بمصر ١٩٣٠ م .
٧١ — أمالى السيد المرتضى . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .
٧٢ — إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع . المقريزى تحقيق محمود شاكر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١م .

٧٣ — أمثال العرب . المفضل الضبي . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .

٧٤ — الأنساب . أبو سعيد عبد الكريم السمعاني . ليدن ١٩١٢ م .

٧٥ — أنساب العرب القدماء . الأستاذ جرجي زيدان . مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٦ م .

٧٦ — إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية . علي بن برهان الدين الحلبي . الطبعة الثانية . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .

٧٧ — أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م .

« ب »

٧٨ — باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام . الأستاذ حمزة فتح الله بك . مطبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .

٧٩ — البدء والتاريخ . المطهر بن طاهر المقدسي . باريز ١٩٠٣ م .

٨٠ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .

٨١ — بلاغة أرسطو بين العرب واليونان . الدكتور إبراهيم سلامة .

٨٢ — بلاغات النساء . ابن طيفور . مطبعة مدرسة والدة عباس الأول بالقاهرة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م .

٨٤ — البلدان . اليعقوبي . مطبعة بريل بليدن ١٨٩١ م .

٨٥ — بلوغ الأرب في أحوال العرب . السيد محمود شكري الألوسي . المطبعة الرحمانية ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ .

٨٦ — بلوغ الأرب في مآثر العرب . محيي الدين الشهير بالعطار . مطبعة الصفا بلبنان ١٣١٩ هـ .

٨٧ — البيان والتبيين . الجاحظ (ا) تحقيق الأستاذ حسن السندوبي ، الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢ م (ب) وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ .

٨٨ — بين الحبشة والعرب . الأستاذ عبد المجيد عابدين . طبعة دار الفكر العربي بمصر .

« ت »

٨٩ — تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . الأستاذ السباعي بيومي . مكتبة النهضة ١٩٤٨ م .

٨٩ — تاريخ الإسلام السياسى . الدكتور حسن إبراهيم بك . الطبعة الثانية . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

٩٠ — تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين بك .

٩١ — تاريخ التربية . الأستاذ أحمد فهمى القطان بك . مطبعة مصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .

٩٢ — تاريخ التمدن الإسلامى . الأستاذ جرجى زيدان . مطبعة الهلال ١٩٠٢ - ١٩٠٦

٩٣ — تاريخ حضرموت السياسى . صلاح البكرى اليافعى . المطبعة السلفية بمصر ١٣٥٤ هـ .

٩٤ — تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس . الديار بكرى . المطبعة العامرة العثمانية ١٣٠٢ هـ .

٩٥ — تاريخ العرب (مطول) الدكاترة فيليب حتى وإدورد جرجى وجبرائيل جبور مطبعة دار الكشاف ببيروت ١٩٤٩ م .

٩٦ — تاريخ عمر بن الخطاب . ابن الجوزى . مطبعة صبيح بمصر .

٩٧ — التاريخ الكبير . أبو القاسم على بن عساكر . مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .

٩٨ — تاريخ اللغات السامية . الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .

٩٩ — تاريخ مكة . أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهى . من كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى . ليبزج ١٨٥٩ م .

١٠٠ — تاريخ اليعقوبى . أحمد بن أبى يعقوب . نشره هوتسما M. TH. Hautsma

١٠١ — تاريخ اليهود . أبو الفتح بن أبى الحسن السامرى . مطبعة جوتا بألمانيا ١٨٦٥ م

١٠٢ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٧ م .

١٠٣ — تاريخ يوسيفوس اليهودى . المطبعة العلمية ببيروت .

١٠٤ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح . الزبيدى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

١٠٥ — تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه . الفيروزابادى . من نوادر المخطوطات . نشرها الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

١٠٦ — التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية فى المدينة المنورة . عبد الحى الكتانى الفاسى . المطبعة الأهلية بفاس ١٣٤٦ هـ .

١٠٧ — تراجم رجال القرنين السادس والسابع . أبو شامة . القاهرة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

١٠٨ — تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق . داود الأنطاكى . المطبعة البهية المصرية م .

١٠٩ — تطور النظرية التربوية . الأستاذ صالح عبد العزيز . المطبعة الأميرية .

١١٠ — تفسير الألوسى (روح المعانى) . السيد محمود شكرى الألوسى . دار الطباعة المنيرية بمصر .

١١١ — تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) .

١١٢ — تفسير الجلالين : مطبعة المعارف العلمية بمصر ١٣٤٤ هـ .

١١٣ — تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .

١١٤ — تفسيرى الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) مطبعة بولاق ١٣٢٣ هـ .

١١٥ — تفسيرى الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) .

١١٦ — تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) مطبعة دار الكتب .

١١٧ — تفسير النيسابورى (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان) على هامش الطبرى . بولاق ١٣٢٣ هـ .

١١٨ — التنبيه والإشراف . المسعودى . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م :

١١٩ — تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلانى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢٧ هـ .

١٢٠ — تهذيب الكامل للمبرد . الأستاذ السباعى بيومى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م .

١٢١ — تيارات أدبية بين الشرق والغرب . الدكتور إبراهيم سلامة ١٩٥٢ م .

١٢٢ — تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول . ابن الديبع الشيبانى الزبيدى مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .

« ث »

١٢٣ — ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب . الثعالبى . مطبعة الظاهر بمصر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .

« ج »

١٢٤ — الجامع الصحيح . الإمام مسلم بن الحجاج . دار الطباعة العامرة ١٣٢٩ هـ

١٢٥ — جمهرة أشعار العرب . القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .

١٢٦ — جمهرة الأمثال . أبو هلال العسكرى . على هامش مجمع الأمثال للميدانى . المطبعة الخيرية بمصر ١٣١٠ هـ .

١٢٧ — جمهرة أنساب العرب . ابن حزم الأندلسى . تحقيق ا . ليفى . بروفنسال . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٨ م

« ح »

١٢٨ — حجة الله البالغة . أحمدشاه ولى الدين الدهلوى . المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ .

١٢٩ — حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة . جابى زاده على فهمى . دار سعادت روشن مطبعة سى ١٣٢٤ هـ .

١٣٠ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . السيوطى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣٢١ هـ .

١٣١ — الحماسة . البحترى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .

١٣٢ — الحنين إلى الأوطان . الجاحظ . مطبعة المنار بمصر ١٣٣٢ هـ .

١٣٣ — حياة الحيوان . الدميرى . مطبعة بولاق .

١٣٤ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى . مطبعة نهضة مصر ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م ،

١٣٥ — الحيوان . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة البابى الحلبى بمصر . وطبعة سابى .

« خ »

١٣٦ — الخراج . أبو يوسف . الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٢ هـ .

١٣٧ — الخراج . يحيى بن آدم القرشى . تحقيق الأستاذ احمد محمد شاكر . المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٧ هـ . وطبعة ليدن ١٨٩٥ م .

١٣٨ — خزانة الأدب . البغدادى . مطبعة دار العصور بمصر .

١٣٩ — خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى . السمهودى . مطبعة بولاق ١٢٨٠ هـ .

« د »

١٤٠ — دائرة المعارف . الأستاذ محمد فريد وجدى .

١٤١ — دائرة المعارف . البستانى .

١٤٢ — داعى السماء بلال بن رباح . الأستاذ عباس العقاد . طبعة سعد مصر بالقاهرة ١٩٤٥ م .

١٤٣ — دلائل النبوة : أبو نعيم أحمد الأصبهانى . مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن ١٣٢٠ هـ

١٤٤ — ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس . تحقيق الدكتور محمد حسين . المطبعة النموذجية ١٩٥١ م .

١٤٥ — ديوان امرىء القيس بشرح السندوبى مطبعة الاستقامة بالقاهرة الطبعة الثانية .

١٤٦ — ديوان أمية بن أبى الصلت . تحقيق فون سردريك شلتهتر ١٩١١ م .

١٤٧ — ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جيير Dr. Rudolf Ceyer ١٨٩٢م .

١٤٨ — ديوان جرير . المطبعة السلفية بمصر ١٣١٣ هـ .

١٤٩ — ديوان حاتم طى . طبعة بيروت .

١٥٠ — ديوان الحادرة (قطب أو قطبة بن أوس بن محصن) أملاه أبو عبد الله اليزيدى . نشره انجلمان Dr. G. Engelmann

١٥١ — ديوان حسان بن ثابت . نشره محمد شكرى المكى مطبعة الإمام بمصر ١٣٢١ هـ .

١٥٢ — ديوان الحطيئة . بشرح السكرى . مطبعة التقدم بمصر .

١٥٣ — ديوان الحماسة لأبى تمام (ا) بشرح التبريزى . مطبعة بولاق . (ب) بشرح المرزوقى تحقيق الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد السلام هرون . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧١ هـ .

١٥٤ — ديوان زهير بن أبى سلمى . بشرح أبى العباس الشيبانى ثعلب . مطبعة دار الكتب ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م .

١٥٥ — ديوان سلامة بن جندل . رواية الأصمعى والشيبانى والأحول . نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٠ م .

١٥٦ — ديوان السموءل . رواية أبى عبد الله نفطويه . نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٩٠٩ .

١٥٧ — ديوان طرفة (ا) بشرح الأعلم الشنتمرى . مطبعة برطند بمدينة شالون ١٩٠٠ م (ب) تشرح الشنقيطى ١٩٠٩ م .

١٥٨ — ديوان طفيل الغنوى . رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى . نشره كرنكو F. Krankow لندن ١٩٢٧ م .

١٥٩ — ديوان عامر بن الطفيل العامرى . رواية ابن الأنبارى عن ثعلب . بتحقين ليال Sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩ م .

١٦٠ — ديوان عروة بن الورد . بشرح ابن السكيت . طبعة بيروت .

١٦١ — ديوان علقمة الفحل . طنعة بيروت .

١٦٢ — ديوان عمرو بن قميئة . نشره ليال Sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩ م .

١٦٣ — ديوان عنترة بن شداد . تحقيق عبد المنعم شلبى . مطبعة شركة فن الطباعة .

١٦٤ — ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٤ هـ .

١٦٥ — ديوان قيس بن الخطيم نشره رودلف جيير Dr. Rudolf Geyer فينا ١٩١٤ م .

١٦٦ — ديوان لبيد . نشره هوبر Dr. A. Huber ليدن ١٨٩١ م .

١٦٧ — ديوان المتنبى . شرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ . ١٩٣٠ م .

١٦٨ — ديوان المسيب بن علس . ملحق بديوان الأعشى . تحقيق رودلف جيير .

١٦٩ — ديوان معن بن أوس المزنى . رواية أبى على إسماعيل بن القاسم . نشره بول اسكوارز Paul Schwarz ليبزج ١٩٠٣ م .

١٧٠ — ديوان النابغة الذبيانى . بشرح البطليوسى . طبعة بيروت .

١٧١ — ديوان نابغة بنى شيبان . مطبعة دار الكتب بمصر ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

١٧٢ — ديوان الهذليين . مطبعة دار الكتب ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

« ذ »

١٧٣ — ذيل الأمالى والنوادر . القالى . طبعة دار الكتب .

« ر »

١٧٤ — رسالة الغفران . المعرى . تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن . مطبعة دار دار الكتب بمصر .

١٧٥ — رسالة القيان . الجاحظ من ثلاث رسائل للجاحظ . نشرها يوشع فنكل . المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٤ هـ .

١٧٦ — الرق فى الإسلام . أحمد شفيق ياشا . مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .
١٧٧ — الروض الأنف . شرح سيرة ابن هشام . السهيلى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .
١٧٨ — رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب . جمعه الأب لويس شيخو اليسوعى . طبعة بيروت ١٨٩٧ .

« ز »

١٧٩ — زاد المعاد فى هدى خير العباد . ابن القيم الجوزية . مطبعة صبيح بمصر ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م .
١٨٠ — زهر الآداب للحصرى . نشره الدكتور زكى مبارك . المطبعة الرحمانية بمصر .

« س »

١٨١ — سمط اللآلىء فى شرح أمالى القالى . البكرى . تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٦ م .
١٨٢ — السنن الكبرى . البيهقى . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٥٥ هـ .
١٨٣ — سيرة النبى . ابن هشام . بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .

« ش »

١٨٤ — شرح التنوير على سقط الزند للمعرى . مطبعة الإسلام بمصر ١٣٢٤ هـ .
١٨٥ — شرح القصائد العشر . التبريزى . مطبعة صبيح بمصر .
١٨٦ — شرح الموطأ للإمام مالك . الزرقانى . المطبعة الكستلية ١٢٨٠ هـ .
١٨٧ — شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٢٩ هـ .
١٨٨ — شرح الهاشميات للكميت بن زيد الأسدى . مطبعة شركة التمدين الصناعية بمصر .
١٨٩ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة (ا) بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر . مطبعة الحلبى ١٣٦٤ هـ .
(ب) بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا مطبعة المعاهد بمصر ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢ م .
١٩٠ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعى . مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٨٩٠ م .

١٩٣ — شفاء النفس . الدكتور يوسف مراد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٣ م .

« ص »

١٩٤ — الصبح المنير فى شرح ديوان أبى بصير ميمون بن قيس . بشرح أبى العباس ثعلب . نشره الدكتور رودلف جيير Dr. Rudolf Geyer مطبعة آدلف هلز هوسن ١٩٢٧م .

١٩٥ — صبح الأعشى . القلقشندى . مطبعة دار الكتب بمصر .

١٩٦ — صحيح البخارى بشرح الكرمانى . المطبعة المصرية ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

١٩٧ — صحيح سنن المصطفى . أبو داود السجستانى . المطبعة الكستلية ١٢٨٠ هـ .

١٩٨ — الصناعتين . أبو هلال العسكرى . الطبعة الثانية . مطبعة صبيح بالقاهرة .

١٩٩ — صور البديع . فن الأسجاع . الأستاذ على الجندى .

« ط »

٢٠٠ — طبقات الأمم . صاعد الأندلسى . نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٢ م .

٢٠١ — طبقات الشافعية الكبرى . ابن تقى الدين السبكى . المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٠٢ — طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحى . تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٢٠٣ — الطبقات الكبير . ابن سعد . نشره إدوارد سخو . مطبعة بريل بليدن ١٣٢١ هـ .

٢٠٤ — طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطى .

« ع »

٢٠٥ — عبقرية المسيح . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار أخبار اليوم ١٩٥٣ م .

٢٠٦ — العرب قبل الإسلام . الأستاذ جورجى زيدان .

٢٠٧ — عصر ما قبل الإسلام . الأستاذ محمد مبروك نافع . مطبعة وادى النيل ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨م .

٢٠٨ — العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين . نشره وليم بن الورد البروسى . لندن ١٨٧٠ م .

٢٠٩ — العقائد . عمر عنايت . مطبعة دار العصور بمصر ١٩٢٨ م .

٢١٠ — علم النفس الفردى ، أصوله وتطبيقه . الدكتور إسحاق رمزى . مطبعة دار المعارف بمصر .

٢١١ — عمدة القارى لشرح صحيح البخارى . العينى . المطبعة الأميرية .

٢١٢ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده . الطبعة الأولى . مطبعة أمين هندية بمصر . ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م .

٢١٣ — عنوان المرقصات والمطربات . نور الدين على المغربى . مطبعة جمعية المعارف ١٢٨٦ هـ .

٢١٤ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب .

٢١٥ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ابن أبى أصيبعة .

٢١٦ — عيون المسائل الشرعية فى الأحوال الشخصية . الأستاذ على حسب الله . الطبعة الثانية . مطبعة العلوم بمصر ١٣٧٠ هـ — ١٩٥٠ م .

غ

٢١٧ — الغزل فى العصر الجاهلى . الدكتور أحمد الحوفى . مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ — ١٩٥٠ م .

٢١٨ — الغناء للأطفال عند العرب . الدكتور أحمد عيسى بك . المطبعة الأميرية ببولاق .

« ف »

٢١٩ — الفائق فى غريب الحديث . الزمخشرى . مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢٤ م .

٢٢٠ — الفاخر . أبو طالب المفضل بن سلمة الكوفى . نشره سالس انبروس . مطبعة بريل بليدن ١٩١٥ م .

٢٢١ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى . العسقلانى . المطبعة الأميرية ١٣٠١ هـ .

٢٢٢ — فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى . الشرقاوى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٢٢٣ — الفتوة عند العرب . الأستاذ عمر الدسوقى . مطبعة لجنة البيان العربى بمصر ١٩٥١ م .

٢٢٤ — فتوح البلدان . البلاذرى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ — ١٩٠١ م .

٢٢٥ — فتوح الشام . أبو إسماعيل محمد الأزدى البصرى . مطبعة بيتست مشن كلكته ١٨٥٤ م .

٢٢٦ — الفصل فى الملل والنحل لابن حزم . المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ هـ .

٢٢٧ — الفهرست . ابن النديم . ليبزج ١٨٧١ م .

٢٢٨ — فوات الوفيات . ابن شاكر . المطبعة الأميرية ١٢٩٩ هـ .

٢٢٩ — فى علم النفس الأستاذ محمد عطيه الإبراشى والأستاذ حامد عبد القادر المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤م .

(ق)

٢٣٠ — القاموس المحيط . الفيروز ابادى .

٢٣١ — القرآن الكريم . تأليف الله

٢٣٢ — قصة الأدب الفارسى . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م :

٢٣٣ — قصص الأنبياء . الأستاذ عبد الوهاب النجار . الطبعة الثانية . مطبعة النصر ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م .

٢٣٤ — قواعد الشعر . أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب رواية أبى عبيد الله محمد المرزبانى . نشره اسكيابالى G. Schiapareli مطبعة بريل بليدن . ١٨٩ م .

(ك)

٢٣٥ — الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٢٣٦ — الكامل . المبرد . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ .

٢٣٧ — كتاب الأمالى . أبو عبد الله محمد اليزيدى . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

٢٣٨ — كتاب بكر وتغلب . مطبعة نخبة الأخبار ببومبى ١٣٠٥ هـ .

٢٣٩ — كتاب حرب بنى شيبان مع كسرى أنوشروان . مطبعة نخبة الأخبار بالهند ١٣٠٥ هـ .

٢٤٠ — كتاب المعانى الكبير فى أبيات المعانى . ابن قتيبة . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م

٢٤١ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال . علاء الدين على المتقى الهندى . مطبعة دائرة المعارف بحيدر أباد ١٣١٣ هـ

(ل)

٢٤٢ — لزوم ما لا يلزم . المعرى . الطبعة الأولى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣ هـ ١٩١٥م .

٢٤٣ — لسان العرب . ابن منظور .

٢٤٤ — اللطائف والظرائف . الثعالبى . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٦ هـ .

(م)

٢٤٥ — المؤتلف والمختلف . الآمدى . نشره الدكتور فريتس كرنكو . مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

٢٤٦ — مبادىء علم النفس العام . الدكتور يوسف مراد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨م .

٢٤٧ — المبسوط . شمس الدين السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٤٨ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة دار المعارف بمصر .

٢٤٩ — مجمع الأمثال . الميدانى . المطبعة البهية المصرية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ .

٢٥٠ — مجموعة رسائل الجاحظ . طبعة ساسى .

٢٥١ — المحاسن والأضداد . الجاحظ . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣٠هـ — ١٩١٢ م .

٢٥٢ — محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهانى . مطبعة المويلحى .

٢٥٣ — المحبر . أبو جعفر محمد بن حبيب برواية أبى سعيد السكرى . نشرته الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر الأمريكية . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦١هـ ١٩٤٢م .

٢٥٤ — المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ .

٢٥٥ — مختلف القبائل ومؤتلفها . أبو جعفر محمد بن حبيب . نشره وستنفيلد . طبعة غوتنجن ١٨٥٠ م .

٢٥٦ — المخصص . ابن سيده .

٢٥٧ — المدونة الكبرى . الإمام مالك . الطبعة الأولى . المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٤هـ .

٢٥٨ — المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها . الأستاذ عبد الله عفيفى بك . الطبعة الثانية . مطبعة المعارف بمصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣

٢٥٩ — المرأة فى التاريخ والشرائع . الأستاذ محمد جميل بيهم . بيروت ١٣٣٩هـ ١٩٢١م .

٢٦٠ — المرأة فى مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكى . مطبعة دار الكتب ١٩٤٧م .

٢٦١ — المرأة المسلمة . الأستاذ محمد فريد وجدى . مطبعة الترقى بمصر ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م .

٢٦٢ — المردفات من قريش . أبو الحسن المدائنى . نشره الأستاذ عبد السلام هارون فى نوادر المخطوطات . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م .

٢٦٣ — مروج الذهب . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .

٢٦٤ — مسالك الممالك. أبو إسحاق ابراهيم الإصطخرى المعروف بالكرخى. ليدن ١٩٢٧م.

٢٦٥ — المسالك والممالك . ابن حوقل . مطبعة بريل بليدن ١٨٧٢ م .

٢٦٦ — المستطرف من كل فن مستطرف . الأبشيهى . المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٨ هـ .

٢٦٧ — مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .

٢٦٨ — مصارع العشاق . أبو محمد جعفر السراج. مطبعة الجوائب بالآستانة ١٩٠٧ م .

٢٦٩ — مصر القديمة. الأستاذ سليم حسن بك . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

٢٧٠ — مطالع البدور فى منازل السرور . علاء الدين البهائى الغزولى . مطبعة إدارة الوطن بمصر ١٢٩٩ هـ .

٢٧١ — المعارف . ابن قتيبة الدينورى . المطبعة العامرة الشرفية بمصر ١٣٠٠ هـ .

٢٧٢ — معجم الأدباء . ياقوت الحموى . مطبعة دار المأمون بمصر ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م .

٢٧٣ — معجم البلدان . ياقوت الحموى . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م

٢٧٤ — معجم الشعراء . المرزبانى . نشره الدكتور سالم الكرنكوى . مكتبة المقدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

٢٧٥ — معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . البكرى . تحقيق الأستاذ مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .

٢٧٦ — المغازى . الواقدى . طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٥ م .

٢٧٧ — المفضليات للضبى . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون . الطبعة الأولى . مطبعة المعارف بمصر ١٣٦٢ هـ ١٩٤٣ م .

٢٧٨ — مقال (المذكر والمؤنث) الرسالة العدد ٢٨٥ . الأستاذ عمر الدسوقى

٢٧٩ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م .

٢٨٠ — ملحق بديوان النابغة الذبيانى . أخرجه M. Hartwy Derenbourg باريس ١٨٩٩ م .

٢٨١ — الملل والنحل . الشهرستانى . على هامش الفصل لابن حزم . المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ م .

٢٨٢ — من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨م .

٢٨٣ — منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى . مطبعة بريل بليدن ١٩١٦ م .

٢٨٤ — موسيقى الشعر . الدكتور إبراهيم أنيس . دار الفكر العربى بمصر .

٢٨٥ — الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء . المرزبانى . المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٣ هـ .

٢٨٦ — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال . الحافظ الذهبى . طبع الهند ١٣٠٩ هـ .

(ن)

٢٨٧ — نزهة الأبصار والأسماع فى أخبار ذوات القناع . لم يذكر مؤلفه على الكتاب ولا فى فهرس دار الكتب ولا فى فهرس المكتبة التيمورية . المطبعة العامرة العثمانية بمصر ١٣٠٥ هـ .

٢٨٨ — نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . ابن الأنبارى . المطبعة الأميرية ١٢٩٤ هـ .

٢٨٩ — نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق . يوسف رزق الله غنيمة . مطبعة الفرات ببغداد ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م .

٢٩٠ — نسب عدنان وقحطان . المبرد . أخرجه الأستاذ عبد العزيز الميمنى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .

٢٩١ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية . الأستاذ محمد جمعة . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ م .

٢٩٢ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . المقرى طبعة أوروبا .

٢٩٣ — نفسية المراهق . الأستاذ رياض عسكر :

٢٩٤ — نقد الشعر . قدامة بن جعفر . نشره الأستاذ محمد عيسى منون . المطبعة الوطنية بمصر ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م .

٢٩٥ — نقد النثر . قدامه بن جعفر . تحقيق الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادى . مطبعه مصر ١٩٣٩ م .

٢٩٦ — النقائض . نقائض جرير والفرزدق . مطبعه بريل بليدن ١٩٠٧ م .

٢٩٧ — نهاية الأرب فى معرفه أنساب العرب . القلقشندى . مطبعة الرياض ببغداد .

(هـ)

٢٩٨ — هذه الشجرة . الأستاذ عباس محمود العقاد .

٢٩٩ — الهنود الحمر . الدكتور على عبد الواحد وافى (سلسلة اقرأ ٨٨) .

٣٠٠ — الهوامل والشوامل. أبو حيان التوحيدى ومسكويه. نشره الأستاذ أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر. مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١ م.

(و)

٣٠١ — وفيات الأعيان. ابن خلكان. مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ.

(٣) كتب مترجمة إلى العربية

« ا »

٣٠٢ — أحلام اليقظة. تأليف الدكتور جورج هنرى جرين. ترجمة الأستاذ إبراهيم حافظ ومراجعة الأستاذ زكى المهندس بك. مطبعة لجنة البيان العربى بمصر ١٩٥٠ م.

٣٠٣ — الإسلام. خواطر وسوانح. تأليف الكونت هنرى دى كاسترى. ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا. مطبعة السعادة بمصر.

٣٠٤ — الإلياذة. هوميروس. ترجمة الأستاذ سليمان البستانى. مطبعة الهلال بمصر.

٣٠٥ — الإمبراطورية البيزنطية. تأليف نورمان بينتر. ترجمة دكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود زايد. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ م.

٣٠٦ — أمراء غسان. تأليف الدكتور ثيودور نولدكه. ترجمة الدكتور بندلى جوزى والدكتور قسطنطين زريق. المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٣ م.

٣٠٧ — الأمومة عند العرب. تأليف ولكن G. A. Wilken ترجمة بندلى صليبا الجوزى ١٩٠٢ م.

٣٠٨ — أهل الذمة فى الإسلام. تأليف ا. س. ترنون. ترجمة الأستاذ حسن حبشى. مطبعة الاعتماد بمصر.

« ت »

٣٠٩ — تاريخ الحضارة. تأليف شارل سنيوبوس. ترجمه الأستاذ محمد كرد على بك. مطبعة الظاهر بالقاهرة.

٣١٠ — تاريخ الحضارة الإسلامية. تأليف ف. بارتولد الروسى. ترجمه من التركية الأستاذ حمزة طاهر. مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م.

٣١١ — تاريخ الشعوب السامية (العرب والإمبراطورية العربية) تأليف بروكلمان. ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبكى. دار العلم للملايين ببيروت ١٩٤٨ م.

٣١٢ — تايخ العالم . نشره بالإنجليزية السير جون . ا . هامرتن . ترجمة إدارة الترجمة بوزارة المعارف بمصر .

٣١٣ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام . تأليف دى بور De Boer ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧هـ — ١٩٣٨ م .

٣١٤ — تراث الإسلام . تأليف جماعة من المستشرقين . نشرته لجنة النشر للجامعيين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م .

« ج »

٣١٥ — جمهورية أفلاطون . ترجمة الأستاذ حنا خباز . مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٢٩م .

« ح »

٣١٦ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية . تأليف فون كريمر . ترجمة دكتور مصطفى بدر . دار الفكر العربى بمصر ١٩٤٧ م

٣١٧ — حضارة العرب تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٣١٨ — الحضارة المصرية . تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم . المطبعة العصرية بمصر .

٣١٩ — حضارات الهند . تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . مطبعة احياء الكتب العربية بمصر ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٣٢٠ — الحياة والحب . تأليف إميل لودفيج . ترجمة الأساتذ عادل زعيتر . مطبعة المعارف بمصر .

٣٢١ — دائرة المعارف الإسلامية . ترجمها الأساتذة عبد الحميد يونس وإبراهيم خورشيد وعباس محمود وأحمد الشنتناوى .

٣٢٢ — الدعوة إلى الإسلام . تأليف أرنولد Sir T. Arnold ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والأستاذ عبد المجيد عابدين والأستاذ إسماعيل النحراوى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ م .

٣٢٣ — ديانة قدماء المصريين . تأليف الأستاذ استيندرف الألمانى . ترجمة سليم حسن بك . مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٣ م .

« ر »

٣٢٤ — روح الاجتماع . تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا .

مطبعة الشعب بالقاهرة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م .

« س »

٣٢٥ — سيكولوجيا المرأة. تأليف فرويد ترجمة الدكتور محمد مختار صدقى. مطبعة دار النيل.

« ش »

٣٢٦ — الشاهنامة . الفردوسى . ترجمة الفتح بن على البغدادى . تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . مطبعة دار الكتب بمصر .

٣٢٧ — شعار الخضر فى الأحكام الشرعية الاسرائيلية للقرائين ترجمة وشرح الأستاذ مراد فرج . مطبعة الرغائب بمصر ١٩١٧ م

« ع »

٣٢٨ — العقد الأنفس فى ملخص التاريخ المقدس . وهو ترجمة لكتاب تاريخ الأمة الإسرائيلية من اللغة الفرنسية. ترجمة تادرس وهبى. مطبعة جريدة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ.

٣٢٩ — العهد الجديد . مترجم من اللغة اليونانية . كمبردج ١٩٢٧ م .

« ق »

٣٣٠ — قصة الحضارة . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م .

٣٣١ — قصة الحضارة الفارسية . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور إبراهيم الشواربى . مكتبة الخانجى ١٩٤٧ م .

٣٣٢ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع . تأليف الدكتور إميل دوركهايم. ترجمة الدكتور محمود قاسم . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ م .

« ك »

٣٣٣ — كتاب الشعر. أرسطاليس . ترجمة الأستاذ إحسان عباس . دار الفكر العربى

٣٣٤ — كتاب العهد القديم

٣٣٥ — كيف يعمل العقل . تأليف سرل برت . ترجمة الأستاذ محمد خلف الله .

« ل »

٣٣٦ — اللغة تأليف ج فندريس . ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد القصاص . مطبعة لجنة البيان العربى .

« م »

٣٣٧ — مبادىء علم الاجتماع الدينى . تأليف روجيه باستيد . ترجمة الدكتور محمود قاسم . مكتبة الأنجلو ١٩٥١ م .

٣٣٨ — المرأة والدولة فى فجر الإسلام . تأليف نابية أبوت Nabia Abbot ترجمة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

٣٣٩ — مركز المرأة فى الإسلام . تأليف السيد أمير على الهندى . ترجمة الأستاذ على فهمى محمد . مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة .

٣٤٠ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة . تأليف ج . م . جوبو : ترجمة الأستاذ سامى الدروبى . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٨ م .

٣٤١ — المعجم فى اللغة الفارسية . نقله إلى العربية الدكتور محمد موسى هنداوى . مطبعة مصر .

٣٤٢ — مقدمة الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ .

٣٤٣ — مقدمة فى علم النفس الاجتماعى . تأليف الدكتور شارل بلوندل . ترجمة الدكتور محمود قاسم والدكتور إبراهيم سلامه ، مكتبه الأنجلو بمصر ١٩٥١ م

« ى »

٣٤٤ — اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م

(٤) المراجع الإفرنجية

إنجليزية

345. An Introduction to the Sociology of Islam. by Levy. 1933.
346. History of Arabian Music. by Farmer. London. 1929.
347. A History of the Jews. by Soloman Grayzel. Philadelphia. 1948.
348. A Literary History of the Arabs. by Reynold. A. Nicholson. London 1907.
349. A Literary History of Persia, by Browne. London, 1902.
350. Arabic Before Mohammed. by O'Leary. London 1927.
351. Chambars's Twentieth Century Dictionary.
352. Educational Psychology. by Skiner. New York. 1939.
353. Encyclopedia Americana. New York. Chicago.
354. Encyclopedia Britannica.
355. General Sociology. by Wright and Elmer Farrer and Renehart. 1936.
356. History of the Arabs. by Hitti. London 1940.
357. History of Egypt. Sharpe. vol. 2. London 1885.
358. Israel from its Beginning to the Middle of the Eighth Century, by Adolphe Lods. London 1932.
359. Introduction to Social Psychology. by Meekerzee and Elmer. London 1928.
360. Kinship and Marriage in Early Arabian. by Robertson Smith. London 1907.
361. Lust for Life. by Irving Stone. 1946.
362. Man and Woman. by Havelook Ellis.
363. Muslim Law. An Historical Introduction to the Law of Inheritance. by Alexander David Russel and Abdullah Al Mamun Suhrawrdy. Loudon.
364 On the Origin of Civilisation and Primitive Condition of Man. by Lubbock.
355. Original Sources of the Quran. by theRev. W.S.T. Clair Tisdall. New York. 1865.
366. Studies in Ancient History. Primitive Marriage. by Mac Lenan. 1865.

367. Sources of Islam, by the Rev. W.S.T. Clair Tisdall. Edinburgh. 1901.
368. Space, Time and Gravitation, by A.S. Eddington. 1920.
369. The Aesthetics. by Knox. New York. 1936.
370. The Background of Islam By Philby
371. The Caliphate. its rise. Decline and Fall. by Sir William Muir. Edinburgh. 1924.
372. The Great Encyclopedia of Universal Knowledge. London.
373. The Women in ayyam El Arab. Ilse Lichtenstadter. London 1935.
374. The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam. by Margolioth.
375. The Pscychology of Marriage, by Walter M. Gallichan, London 1927.
376. The Science of Living Things. Heredity : The Stream of Life. By Eldon Moore. London. 1935.

فرنسية

377. Essai sur l' Histoire des Arabes, par De Perceval. Paris 1848.
378. Histoire des Papes. Paris 1842.
379. La Grande Encyclopedie. Tome 17
380. La Question Feministe. par Rosler.
381. L'Arabie Occidentale avant l'Hegire. par H.Lammans. Beyrouth. 1928.
382. La Religion des Primitifs Par Monseigneur. Leory.

فارسی

٣٨٣ — سیاسة نامة . تألیف نظام الملك . طهران . ١٣٢٠ هجری شمسی

فهرس الكتاب

المقدمة ا — ز

تمهيد ١ — ٥١

صلات العرب بالأمم والحضارات ومكانة المرأة فيها

صلة العرب باليهود : مقدم اليهود إلى الحجاز (٤) اختلاطهم بالعرب (٥) اليهود باليمن وما جاورها (٩) أثر اليهود فى العرب (١١) المرأة اليهودية (١٤)

صلة العرب بالنصارى : النصرانية فى الشمال والوسط (١٨) النصرانية فى اليمن (٢١) أثرها فى العرب (٢٢) المرأة النصرانية (٢٤)

صلة العرب بالفرس : العلاقة القديمة بين العرب والفرس (٢٦) إمارة الحيرة (٢٧) الفرس باليمن والبحرين (٢٧) صلات أخرى (٢٨) أثر الفرس فى العرب (٢٩) المرأة الفارسية (٣٧)

صلة العرب بالرومان واليونان : مملكة الأنباط . مملكة تدمر (٣٩) مملكة غسان (٤٠) خضوع قبائل عربية للرومان (٤٠) أثر الرومان فى العرب (٤١) المرأة الرومانية واليونانية (٤٢)

صلة العرب بمصر : قدم الاتصال . الهكسوس بمصر (٤٦) العرب بقفط والصعيد (٤٨) التجارة بين مصر والعرب (٤٩) المرأة المصرية (٤٩)

القسم الأول

المرأة فى الحياة الاجتماعية والسياسية

الباب الأول

(المرأة فى الحياة الأسرية)

الفصل الأول

(الأم) ٥٤ — ١١٦

الأسرة أساس القبيلة (٥٤) الأم معين الأسرة (٥٥) أثر الأم فى القرابة (٥٦) الأم الحرة (٥٩) الأم المنجبة (٦٤) النسب إلى الأم : مظاهره . آراء فى أصل النسب إلى الأم . مناقشتها . رأيى فى هذا النسب (٦٦ — ٨٦) مظاهر حب الأم لبنيها : التربية الجسمية (٨٦)

التربية الخلقية (٨٩) تمنيها أن يعيشوا (٩١) رفضها الزواج إبقاء عليهم (٩٢) حرصها على ما لهم (٩٢) حزنها على فقيدهم (٩٣) رثاؤها موتاهم (٩٣) رفضها دية القتيل (٩٤) مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم : إعزاز الأم . حمايتها من المهانة (٩٥) الفخر بالأم . التفدية بها . تلبية مشورتها (٩٦) التعبير عن الإخوة الأشقاء بأبناء الأم (٩٧) إيثارها على الزوجة (٩٨) إعزاز الإخوة لأم (٩٩) إعزاز الخال (١٠٢) مظاهر إعزاز الخال (١٠٣ — ١١٢) عقوق الأمهات (١١٢)

الفصل الثانى

الزوجة ١١٧ — ٢٢١

أثر المصاهرة (١١٧) الزوجة المثلى : صفاتها الممدوحة (١١٨ — ١٢٣) صفاتها المذمومة (١٢٣ — ١٢٦) الزوجات الغريبات (١٢٦) الحكمة فى الاغتراب . عقيدة العرب . رأى القدماء . رأى العلم الحديث . منافع أخر فى الاغتراب . (١٢٧ — ١٢٩) الزواج من شعوب أخرى (١٢٩) .

الزوج الكفء فى نظر المرأة وآلها . مظاهر كفاءته (١٣٢ — ١٤٥) حرية المرأة العربية فى اختيار زوجها . موازنة بينها وبين غيرها (١٤٥ — ١٤٩) الخطبة والإملاك (١٤٩) المهر (١٥١ — ١٥٦) وصايا للزوجة عند زفافها (١٥٦) .

مكانة الزوجة عند زوجها . مظاهر إعزازه لها (١٥٨ — ١٧٠) مكانة الزوج عند زوجته . مظاهر إعزازها له (١٧٠ — ١٨٣) تمرد بعض الزوجات (١٨٣) تعدد الزوجات ووحدتهن عند الأمم وعند العرب . عداء الضرائر . هل فى التعدد منقصة للمرأة ، (١٨٧ — ١٩٦) أنكحة الجاهلية (١٩٦ — ٢٠٠) المحرمات فى الجاهلية . المحرمات عند الأمم الأخرى (٢٠١ — ٢٠٦) الطلاق وأنواعه . الطلاق عند الأمم (٢٠٦ — ٢١٣) حق المرأة فى الطلاق (٢١٣) حسرة بعد الطلاق (٢١٦ — ٢٢٠) العدة (٢٢٠ .

الفصل الثالث

البنت ٢٢٢ — ٢٤٩

حب بعض العرب للبنات . مظاهر حبهن فى الجاهلية والإسلام (٢٢٢) مدح البنت تكريماً لأبيها (٢٢٦) اعتداد أبيها برأيها وبإجارتها (٢٢٧) كنايته بأسمها (٢٢٩) بغض بعضهم للبنات (٢٣٠) الوأد . أسبابه ، طريقته ، هل اقتصر على الإناث ؟ هل كان عاماً ؟ موقف الأم من الوأد . إحياء الموءودات . قتل الأولاد فى بعض الأمم . الوأد ومكانة المرأة العربية (٢٣٢ - ٢٤٢) حب البنت لأبيها . مظاهر هذا الحب (٢٤٢ — ٢٤٩) .

الفصل الرابع

الأخت والقريبة ٢٥٠ — ٢٥٨

مظاهر حب الأخ لأخته وإعزازها (٢٥٠) مظاهر حب الأخت لأخيها (٢٥٣) إعزاز الرجال لقريباتهم (٢٥٥) إعزاز القريبة لأقاربها (٢٥٧).

الفصل الخامس

حقوق المرأة المالية ٢٥٩ — ٢٦٨

ملكية المرأة العربية (٢٥٩) موازنتها بغيرها من نساء الأمم. حريتها فى التصرف المالى (٢٦١) المرأة والميراث. الدليل على أنها ترث. نصوص تؤيد ذلك. ذكور لا يرثون. امتياز المرأة العربية بالميراث (٢٦٣ — ٢٦٩) الإسلام وتوريث النساء (٢٦٩).

الباب الثانى

(المرأة فى الحياة العامة)

الفصل الاول

(أخلاق المرأة) ٢٧١ — ٢٩٢

شجاعتها النفسية (٢٧١) استمساكها بعقيدتها (٢٧٣) عزة نفسها (٢٧٨) عفتها (٢٨٠ قصة الفطيون (٢٨٣) حياؤها (٢٨٥) كرمها (٢٨٦) بخلها (٢٨٨) بين أخلاقها فى الجاهلية وفى الإسلام (٢٨٩).

الفصل الثانى

(المرأة سافرا ومحتجبة) ٢٩٢ — ٣١٥

السفور: الأدلة على سفور بعضهن. حالات لابد فيها من السفور (٢٩٢ — ٢٩٦)

الحجاب: تحجب بعضهن. تفنيد دعوى فير weir أن الحجاب لم يعرف فى الجاهلية. الأدلة على ممارسة بعضهن للحجاب. الحجاب فى الأمم. حكم الاسلام فى السفور والحجاب (٢٩٧ — ٣٠٢)

أنواع خمرها وملابسها وأسماؤها وألوانها (٣٠٢ — ٣١٠) حليها (٣١٠ — ٣١٥)

الفصل الثالث

صناعات المرأة ٣١٦ — ٣٣٩

تربية الأولاد (٣١٦) التطبيب (٣١٦) الغزل والنسج (٣١٧) التجميل (٣١٨) الإرضاع

(٣١٨) القبالة (٣١٩) نسج الحصر (٣١٩) تقويم الرماح (٣١٩) الرعى (٣٢٠) ممارسة بعض أعمال الرجل (٣٢٠) جنى الكمأة (٣٢١) الرقى (٣٢٢) الكهانة والعرافة (٣٢٢) دلالة الكهانة على علو مكانة المرأة (٣٢٦) القراءة والكتابة : الأدلة على معرفة العرب للقراءة والكتابة (٣٢٨ — ٣٣٤) نساء يكتبن ويقرأن (٣٣٤) معرفتها النجوم (٣٣٦) خبرتها بالمرعى (٣٣٩).

الفصل الرابع

المرأة فى الحرب ٣٤٠ — ٣٦٥

تمهيد (٣٤٠) المرأة المحاربة : قيادتها الجيش. محاربتها (٣٤٣ — ٣٥٠) المرأة والثأر (٣٥١ — ٣٥٥) المرأة جاسوسة فى الحرب، (٣٥٥) الظعائن فى الحرب (٣٥٥ — ٣٥٦) أثر الظعائن (٣٥٧ — ٣٦٢) تنحية المرأة عن الحرب (٣٦٢) المرأة رسول سلام (٣٦٥)

الفصل الخامس

السبايا والإماء ٣٦٦ — ٤١٢

السبايا :

السبى نظام عام (٣٦٦) الفخر بالسبى والتعيير به (٣٦٧) المدح به (٣٦٩) استخلاص السبايا (٣٧١) إعتاق السبايا (٣٧٣) إطلاقهن بعوض (٣٧٥) بغض المرأة للسبى (٣٧٧) معاملة السبايا. استيلادهن عند العرب وغيرهم. إحسان معاملتهن. بيعهن وهبتهن وإرثهن عند العرب وغيرهم. القسوة عليهن أحياناً عند العرب وغيرهم (٣٨٢ — ٣٨٨)

الإماء :

التفرقة بين السبى والأمة (٣٨٩) معاملة الإماء : استيلادهن. مكانة أبنائهن. شرف بعض أبنائهن. سبب احتقار العرب لهم. أبناء الإماء فى الأمم الأخرى (٣٩١ — ٣٩٥). استرقاق الإماء. أعمالهن. بغاؤهن. العهارة المقدسة فى الأمم. (٣٩٦ — ٤٠٢)

السباء بين الجاهلية والإسلام (٤٠٣ — ٤١٢)

الفصل السادس

المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة ٤١٣ — ٤٣٦

شعور المرأة بمساواتها للرجل (٤١٤) توليها الملك. بعض الملكات (٤١٥ — ٤٢٠)

شهيرات (٤٢٠) مجيرات (٤٢١) اشتراك المرأة فى حلف (٤٢٣) إهانتها تشعل حربا (٤٢٤) مكانتها العامة (٤٢٥) أثرهذه المكانة فى المرأة الأوربية (٤٢٥ — ٤٣٢)
موازنة المرأة العربية بغيرها : موازنتها بالعبرية ، والمسيحية ، والفارسية ، واليونانية والرومانية ، والمصرية (٤٣٢ — ٤٣٥) دلالة هذه المكانة على رقى العرب (٤٣٥)

القسم الثانى

المرأة فى الحيـــاة الفنية

البابُ الأول

المرأة المغنية ٤٣٨ - ٤٦٥

الغناء فى الجاهلية (٤٣٨) علاقة الشعر بالغنـــاء (٤٣٨ — ٤٤٢) غناء الإماء . النساء أليق بالغناء . القيان محترفات بالغناء (٤٤٢ — ٤٤٥) جنسية القيان (٤٤٥) غناؤهن بالشعر (٤٤٦ — ٤٤٩) أثر غنائهن فى النفوس (٤٤٩) جمالهن وعشقهن (٤٥٢) أثرهن فى الشعر ٤٥٥) هبة القيان (٤٥٧) أثر الغناء الأجنبى فى العرب (٤٥٨) الآلات الموسيقية (٤٦٣) .

البابُ الثانى

المرأة راوية للشعر وناقدة ٤٦٦ - ٤٧٦

روايتها للشعر (٤٦٦ نقدها للشعر (٤٦٨) زوايتها ونقدها فى الإسلام (٤٧٢)

البابُ الثالث

المرأة الشاعرة ٤٧٧ - ٥٤٤

قلة المروى من شعر النساء . تعليل ذلك (٤٧٧ — ٤٨٠) مراجع تحفل بشعرهن (٤٨٠) شعر منحول للنساء (٤٨١) .

فنـــون شعرها

الرثاء:

ملاءمته للمرأة (٤٨٤) طابع مراثيهن : الإشادة بفضائل المرثى على طريقة الرجال (٤٨٤ — ٤٨٧) نقص فى رثائهن (٤٨٨) تصويرهن للذلة والضعف (٤٤٨) كثرة حديثهن عن اللوعة والبكاء (٤٨٩) تعبيرات نسوية فى مراثيهن (٤٩٣) تدره الحكمة فيه (٤٩٣) كلمة عن الخنساء (٤٩٥).

التحميس على القتـال وعلى الثأر :

كثرة الحروب . شعر النساء فى الحروب . تحريضهن على رفض الدية . أثر شعرهن فى النفوس . إشادتهن بالثائرين . استفاؤهن بالثـــأر . موازنة بينهن وبين الشعراء (٤٩٧ — ٥٠٠)

الهجاء :

قيمة الهجاء فى الجاهلية (٥٠١) مشاركة النساء فيه (٥٠٢) ألوان من هجائهن . بين هجائهن فى الجاهلية والإسلام (٥٠٦) سمات هجائهن . تخلفهن فيه عن الرجال (٥٠٧)

الفخر :

بماذا افتخرن ؟ (٥٠٨) خلو فخرهن من صفات الأنوثة (٥١٠) موازنة بين فخرهن وفخر الرجال (٥١٠ — ٥١٢)

المدح :

لماذا قل نصيبهن منه ؟ (٥١٢ — ٥١٤)

الحنين الى الوطن :

حب العرب لوطنهم (٥١٤) حنين المرأة الغريبة الى وطنها ٥١٥ حنينها فى الإسلام (٥١٦).

الغـــزل :

حفاوة الشعراء بالغزل (٥١٧) كتمان المرأة ٥١٨) صوره من غزلهن (٥٢١) البوح بالحب (٥٢١) الشوق الى الحبيب (٥٢٢) السخط على الغادر (٥٢٣) الحنين الى الوطن الذى فيه الحبيب (٥٢٣) غزلهن فى الإسلام (٥٢٣)

خصائص شعرهن ٥٢٦-٥٤٤

الفن الذى برعن فيه . الفنون التى تخلفن فيها (٥٢٦) وحدة الموضوع (٥٢٦) قصر قصائدهن (٥٢٧) السر فى هذا القصر(٥٢٨) فى شعرهن صور وتعبيرات نسوية (٥٢٨) لين شعرهن (٥٢٩) كثرة الترصيع فيه . موازنة بينهن وبين الرجال (٥٣٠ - ٥٣٥)

الإقواء فى شعرهن (٥٣٥) اصطباغ شعرهن بطابع الذكورة . تعليل ذلك (٥٣٦ — ٥٤٤) .

الجديد فى البحث	٥٤٥ — ٥٤٨
اقتراحات	٥٤٨ — ٥٤٩
المراجع	٥٥٠ — ٥٧٣

كتب مطبوعة للمؤلف

١ — وحى النسيب فى شعر شوقى

٢ — فن الخطابة

٣ — مع ابن خلدون

٤ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى

٥ — الغزل فى الشعر الجاهلى

٦ — المرأة فى الشعر الجاهلى

٧ — وطنيه شوقى (تحت الطبع)

٨ — سوسن (قصة مصرية . (تحت الطبع)

DATE DUE

JAFET LIB.
29 OCT 2003
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
08 JUN 2005
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
26 MAY 2005
Circulation Dept. 2

[redacted]
الحوفى ،أحمد محمد
المرأة في الشعر الجاهلي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01024002
396
H88mA